مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد العاشر

سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 0-62-798-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 0-62-798-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّابِعُ

سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٧﴾ [المائدة: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإشـهاد على وصيَّة المحتضر، والتَّعامل مع من كذب في الشَّهادة

لَمّا أخبرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ خبرًا مُتضمِّنًا للأمرِ بإشْهادِ اثنَيْنِ على وصيَّةٍ من حَضرَتْهُ مقدِّماتُ الموتِ وعلائمُه؛ جاءَ بيانُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ ليُعلِمَنا بأنَّه إنْ وُجِدَ ما يَدُلُّ على كذبِ ذَيْنِكَ الشّاهدَيْنِ، وأنَّهما خانا، فحينئذٍ يقومُ آخرانِ مقامَهما من أولياءِ الميِّتِ وقرابته، فيُقسمانِ أنَّ الأوْلَيَيْنِ كَذَبَا، وغَيَّرا، وخانا، وبأنَّ شهادتهما صحيحةٌ وموافقةٌ للحقّ، ويشهدان بألسنتهما: إن ظَلَمْنا، واعْتَدَيْنا، وشهِدْنا بغيرِ الحقّ؛ فإنّا عندئذٍ من الظّالمين[1]، أي: يقسمان باللّه يقينًا: أنَّ شهادتنا أحقُّ بالقبول، وأولى بالتَّصديق، من شهادة الشّاهدين الآخرين، وإنَّ قوْلنا: إنَّهما خانا، أحقُّ أنْ يؤخذ به، وأصحُّ ممّا قدَّماه من شهادة باطلة، وإن كنّا كذبنا عليهما، وافترينا فيما قلناه عنهما، فإنّا إذًا لمن الظّالمين[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿عُثِرَ﴾: عَثَرَ الرَّجلُ يَعثُرُ عِثارًا وعُثورًا؛ إذا سَقَطَ ووقَعَ، ويُتجوَّزُ به فيمن يطَّلعُ على أمرٍ من غيرِ طلبِه، كما في الآية: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾[3]، وأصلُ عَثَرَ بمعنَى: اطَّلَعَ من العَثْرَةِ الَّتي هي الوُقوع؛ وذلكَ لأنَّ العاثرَ إنَّما يعثُرُ بشيءٍ كانَ لا يراه، فلمّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/454، والسَّعدي، تفسير الكريم الرَّحمن، ص: 201.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: ص: 777.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 546.

عثَرَ به؛ اطَّلعَ عليه، ونظَرَ فيه متبيِّنًا حقيقته، فقيلَ لكلِّ مَنِ اطَّلعَ على أمرٍ كانَ خفيًّا عليه: قد عَثَرَ عليه، وأَعْثَرَ غيرَه؛ إذا أَطْلَعَه عليه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الكهف: 21] أي: أَطْلَعْنا[1]، ويقال: "(لا حليم إلّا ذو عَثرة)، أي: لا يحصل له الحلم، ويوصف به، حتَّى يركب الأمور، وتنخرقَ عليه، ويعْثُرَ فيها، فيَعْتَبِرَ بها، ويستبينَ مواضع الخطأ، فيتجنَّبَها"[2]، "ويقال للزَّلَّة: عثرة؛ لأنَّها سقوط في الإثم، وفرَّق بينهما في مختصر العين بالمصدر، فقال: عثر الرَّجل عثورًا، وعثر الفرس عِثارًا، وعثر عليه عثرًا"[3].

2) ﴿ٱسۡتَحَقَّآ﴾: يقال: حقَّ الشَّيءُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ، وأَحَقَّه غيرُهُ: أَوْجَبَهُ، واسْتحقَّهُ، أي: اسْتوجَبَه، وتحقَّقَ عندَه الخبرُ: صَحَّ، وحقَّقَ قولَه، وظنَّه تحقيقًا، أي: صدَّقَه[4]، ومنه الاستحقاق، يقال: استحقَّه، أي: استوجبه، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾[5]، وقولُه هنا: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي: فَعَلا ما اسْتَوجَبا به إثْمًا، إمّا بكذبٍ في الشَّهادةِ أو اليمينِ أو بظهورِ خيانَة[6].

3) ﴿إِثۡمٗا﴾: الإثْمُ والأَثَامُ: اسْمٌ للأفعالِ المُبطئَةِ عنِ الثَّواب، وجمعُه: آثام، والإثْمُ: الذَّنْبُ، وقد أثِمَ إثْمًا وأثامًا وقعَ في الإثم، فهو آثِمٌ وأَثِمٌ وأَثيمٌ، وقولُه تعالى: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: 206]، أي: حملَتْه عزَّتُه على فعلِ ما يُؤَثِّمُه[7]، فيكونُ المرادُ بالإثْم في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي: فِعْلًا يأثمانِ عليه بكذبٍ في الشَّهادةِ أوِ اليمينِ أوْ بظهورِ خيانة[8]، وقيل معناه: "فإذا اطّلع على أنهما استوجبا إثمًا، أي: جناية باليمين الكاذبة الَّتي أقدما عليها، ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ من ورثة المتوفَّى"[9].

4) ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾: شَهِدَ: الشّينُ والهاءُ والدَّالُ: أصلٌ يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام، ومن

(1) ابن منظور، اللِّسان: (عثر).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/182.
(3) الفيّوميُّ، المصباح المنير: 2/393.
(4) الرّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (حقق).
(5) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الاستحقاق).
(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/651، الشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(7) الرّاغب، المفردات: (أثم)، والرّازي، مختار الصّحاح: (أثم).
(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/651، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/244.

ذلكَ الشَّهادةُ تجمعُ تلكَ المعاني الثَّلاثة، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شهادةً[1]، والمرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، أي: يَمينُنا أحقُّ من يَمينِهما، أي: يَحلِفان: لَشهادتُنا - على أنَّهما كاذبانِ خائنانِ - أحقُّ من شهادتِهما، أي: من يمينِهما على أنهما صادقانِ أمينان[2]، قال ابن سيده: "أشدُّ استحقاقًا للقَبولِ، وكَون إذْ ذاك على طرح الزّائِد، من اسْتحقَّ، أَعني: السّين والتّاء، ويجوز أن يكون أَرادَ: أَثْبَتُ من شَهادَتهما، مُشتقٌّ من قَوْلهم: حَقَّ الشَّيْء؛ إذا ثَبَتَ"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استـبـدال الشّاهدين الكاذبين، وحلف اليمين ضمانًا للحقوق

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه إن حَصَلَ الاطِّلاعُ على أنَّ الشّاهدَيْنِ اللَّذَيْن حَضَرا وصيَّةَ مَنْ ظَهرتْ عليه مُقدِّماتُ الموتِ وأماراتُه، قد كَذَبا، وخانا، فَلْيَقُمْ رَجُلانِ من أولياءِ الميِّت، ولْيكونا من أَقْرَبِ الأولياءِ إليه، فيحلفانِ أنَّ شهادةَ ذَيْنِكَ الشّاهدَيْنِ السّابقَيْنِ كاذبة، وأنَّ يمينَنا هو الصّادق، وما اعْتَدَيْنا فيه، ولا فيما قُلناهُ فيهما من الخيانةِ وإلّا كُنّا ظالمين[4]، وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ كاتم الشَّهادة آثِمٌ، وقد بيَّن اللّه تعالى في موضع آخر من القرآن: أنَّ هذا الإثم من الآثام القلبيَّة، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: 283].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

كذِبُ الشّاهدَيْن في شهادتهما ليسَ هو الأصلَ بل استثناءٌ

دَلالةُ إيثار أداة الشّرط (إنْ):

جاء في هذه الآية استعمالُ أداة الشّرط (إنْ) التي تُستعمَلُ غالبًا في الشّرْطِ الّذي لا يتحقّقُ وقوعُه دائمًا، وفي هذا إيماءٌ وإشارةٌ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/221.
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(3) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: 2/475.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/105، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 201.

أنَّ كذِبَ الشّاهدين اللّذينِ حضرا وصيّةَ المُحتَضَر ليسَ أمرًا متحقّقَ الوقوعِ وليسَ هو الأصلَ، وإنّما قدْ يقعُ، فإنْ حصلَ مثلُ ذلك فهذا علاجُهُ.

دَلالةُ المعنَى الحقيقيِّ والمجازيِّ في مصدرِ قولِه تعالى: ﴿عُثِرَ﴾:

مناسبةُ المعنَى المجازيِّ للسِّياقِ أقْوَى من المعنَى الحقيقيِّ

من بلاغة هذه الآية الكريمة استعمالُ مادّة (ع ث ر) حيثُ اسْتُعمِلَ (العُثورُ) في الظَّفرِ بشيءٍ لم يكنْ مُترقَّبًا الظَّفَرُ به على سبيلِ الاسْتعارة، وشاعَ ذلكَ حتَّى صارَ كالحقيقة، فخصّوا في الاسْتعمال المعنَى الحقيقيَّ بأحدِ المصدَرَيْن، وهو العِثارُ، ومعناهُ مُتعلِّقٌ بالمَشْيِ والمنطقِ والرَّأيِ، وخصّوا المعنَى المجازيَّ بالمصدرِ الآخَر، وهو العُثور، ومعناهُ: الاطِّلاعُ، وهو المناسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمة[1]، ذلك أنَّ كلَّ من اطَّلع على أمر كان خفيًّا؛ يقال: قد عَثَرَ عليه، والعثور على الشَّيء يكون في الغالب العلم الَّذي لم يكن له مقدِّمات عنده، بل ربَّما يكون الاطّلاع عليه بالمصادفة[2].

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿عُثِرَ﴾ لما لمْ يُسَمَّ فاعله:

أهمّيّةُ الفعلِ لا الفاعل

جاء الفعل ﴿عُثِرَ﴾ مبنيًّا لما لمْ يُسَمَّ فاعله وذلك أمرٌ مقصودٌ يومِئُ إلى أنَّ الأصلَ الظَّنُّ الحَسَنُ بالشّاهِدَيْن والنّاس جميعا، فإنْ حصلَ على وجه الموافقة وبدون طلبٍ وتبيّنَ أنّهما أتيا بالشّهادة على غير وجهها، فالمطلوبُ بيانُ كذبهما وإثباتُ زيف كلامهما بقسم يُبطِلُ ما قدّما من شهادة. وليسَ أحدٌ مُكلَّفًا بذلك بعينه؛ إذ مُكتشِفُ كذبهما ليس مهمّا في هذا السياق ولم يقصد السياقُ إلى التّنصيص عليه، وإنّما الذي ينبغي أن يُهتَمَّ به هو الفعلُ نفسُهُ، وهذا المعنى يناسبه بناءُ الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله كما هو معلوم من قواعد العربيّة.

(1) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 1/230، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2385.

دَلالة تعدية الفعل ﴿عُثِرَ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تضمين الفعل (عثر) معنى (اطّلع على)

في هذه الآية، جاءت تعديةُ الفعل ﴿عُثِرَ﴾ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾، واستعمالُ حرف الاستعلاء في هذا السّياق يُشيرُ إلى تضمين الفعل ﴿عُثِرَ﴾ معنى (اطّلع)، ويكون تقدير الكلام: فإن وجَدَ أحدُ أفراد البيت أو أولياء الميّت أنّ الشّاهدين لم يُقدّما الشّهادة على وجهها واطّلع على ذلك، فليَقُمْ آخران... وهذا من التّوسّع في استعمال الفعل في معنيين في سياق واحد.

دَلالة (السِّين) و(التَّاء) في قولِه: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾:

التّدقيق في الشّهادة قرينة على رُقيّ التّشريع، وتحصين الحقوق

أفادتِ (السّينُ) و(التّاءُ) في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ التَّأكيدَ على ثبوتِ ارتكابِ الشّاهدَيْنِ ما يأثمانِ به من الكذبِ والخيانة، وبذلكَ يكونُ قد لزِمَهُما الإثْم، أي: وقعَ عليهما لا مَحالة[1]، "وفي الواقعة الَّتي نزلت فيها الآية، قام عمرو بن العاص، والمطَّلب بن أبي وداعة السَّهميُّ، فأقسما باللّه: أنَّ الشّاهِدَيْن السّابقين قد كذبا، وأنَّ الشَّهادة الَّتي يُقدِّمانها هي شهادة الحقِّ، لا اعتداء ولا جور فيها، على أصحاب الشَّهادة الأولى"[2]، وكلُّ ذلك راجع إلى أنَّ الغاية من هذه الأحكام، هو أن تأتي الشَّهادة على وجهها الصَّحيح، دون تدليس ولا تزييف، وهو قرينة على نزاهة القرآن، وصدق الأحكام.

دلالة إطلاقِ الصِّفةِ على الموصوف في قولِه: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾:

تشنيع القرآن على كتمان الشّهادة وتزييفها

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ أن يُقال: اسْتحقّا فعلًا يأثمانِ عليه، فحَذَفَ الموصوفَ، وهو (الفعل)، وذكرَ صفتَه وهو (الإثم)، وجعلَها موضعَ الموصوفِ، ومُتلبِّسةً به، وذلكَ لشناعة هذا الفعلِ وقُبْحِ ما يترتَّبُ عليه، حتَّى أصبحَ هو الإثمَ بعينِه، فالإثْمُ هنا أنَّ الشّاهدَيْنِ اسْتبدَلا بما اسْتُؤمِنا عليه، عِوَضًا لأنفُسِهما أو

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.

(2) محمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 6/3442.

لغيرِهما، أو بأنْ يظهرَ أنَّهما كتَما الشَّهادة، فقد خانا ما عاهَدا اللّه عليه، ممّا ذكرَه بيانُ اللّهِ تعالى عنهما: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 106][1].

نكتةُ إطلاقِ الوصفِ وحذفِ الموصوف في قوله ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾:

إثبات الشَّهادة بالقرائن مُعين على إظهار الحقِّ وإقراره لأهله

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، أي: رَجُلانِ آخَران؛ لأنَّ وصفَ آخَرَ، يُطلَقُ على المُغايرِ بالذّاتِ أو بالوصفِ، مع المماثلِ في الجنسِ المتحدَّثِ عنه، والمُتحدَّثُ عنه هنا اثْنان، فالمعنَى: اثْنانِ آخرانِ يقومانِ مقامَهما في إثْباتِ الوصيَّة، والمعنى: "أي: فشاهدان آخران يقومان في إحقاق الحقِّ، وإظهار الحقيقة، وبيان ما خفي من إرادة المتوفَّى وأمواله، وما له من حقوق وعليه من واجبات، مقام الأوَّلين. وهذا التَّعبير من ألطف التَّعابير بعد ظهور الإثم؛ إذ إنَّه ينبئ عن التَّعاون بين هؤلاء الآثمين، والأبرياء في إظهار الحقِّ، إذ إنَّ المجنيَّ عليهما، يقومان مقام من جنوا"[2].

نكتةُ الحذفِ بالإيجاز، في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

دلالة المحذوف على ما يُعبِّر عن بُطلان الشَّهادة الكاذبة

في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ﴾ دلَّ قولُه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ على محذوفٍ هو بُطلانُ شهادةِ الشّاهدَيْن؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فرعٌ عن ذلكَ البُطلان، وهذا من بابِ الإيجاز، كقولِه تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [البقرة: 60]، أي: فَضَربَ، فانْفجرتْ[3]، أي: فإن وُجِد من القرائن ما يدلُّ على كذب الشّاهدين، وأنَّهما خانا أمانة الشَّهادة، فلْيَقُمْ مقامهما رجلان من أولياء الميّت، ولْيكونا من أقرب الأولياء إليه[4]، حتَّى نضمنَ المصداقيَّة لتطبيق هذا الحكم الخاصِّ.

(1) أبو السُّعود، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(4) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 1/246.

إفـــادة ضمـان التَّشريع لحقوق المتضرِّرين بكذب الـشَّــاهِــدَيْــن الأوَّلين

دلالة تنوُّع التَّأويل الإعرابِيِّ للَّفظ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فيه أربعةُ أَوْجُه من حيث الإعرابُ:

الأوَّلُ: أنْ يرتفعَ على أنَّه خبرُ مبتدَإٍ مُضمَر، تقديرُه: فالشّاهدانِ آخَران، والفاءُ جوابُ الشَّرط، دخلتْ على الجملةِ الاسْميَّة، وقد تقدَّمَ تفصيلُه بارتباطِه بقولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾.

والثّاني: أنَّه مرفوعٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: فَلْيشهَدْ آخَران[1].

والثّالثُ: أنَّه خبرٌ مُقدَّم، و﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والتَّقديرُ: فالأَوْلَيانِ بأمرِ الميِّتِ آخَرانِ يقومانِ مَقامَهما.

والرّابعُ: أنَّه مبتدأ، وفي الخبرِ حينئذٍ احْتمالات: أحدُها: قولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾، وجازَ الابْتداءُ به لتخصُّصِه بالوصف، وهو الجملةُ من ﴿يَقُومَانِ﴾، والثّاني: أنَّ الخبرَ ﴿يَقُومَانِ﴾ و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ صفةُ المبتدأ، ولا يَضُرُّ الفصلُ بالخبرِ بين الصِّفةِ وموصوفِها، والمسوِّغُ - أيضًا - للابْتداءِ به اعْتمادُه على فاءِ الجزاء، والثّالثُ: أنَّ الخبرَ قولُه: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، وقولُه: ﴿يَقُومَانِ﴾ و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ كلاهما في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهما صفةً أُخرَى لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، والآخَرُ حالًا من ضميرِ الفاعلِ في ﴿يَقُومَانِ﴾[2]، وجاءتِ الحالُ مِنَ النَّكرةِ لتخصُّصِها بالوصفِ، وفي هذا الوجهِ ضَعفٌ، من حيث إنَّه إذا اجتمعتْ معرفةٌ ونكرةٌ؛ جُعلتِ المعرفةُ مُحدَّثًا عنها، والنَّكرَةُ حديثًا[3].

سرُّ التَّركيبِ البليغ في قوله تعالى: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

جاءَ الفعلُ ومصدرُه في قولِه تعالى: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ ليدلّا على ثلاثةِ معان: الأوَّلُ: أنَّ المَقامَ هو محلُّ القيام، والثّاني: أنْ يُرادَ به محلُّ

---

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/471.

(2) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.

(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.

عملٍ ما، ولو لم يكنْ فيه قيام، والثّالثُ: أنْ يُرادَ به العملُ الَّذي من شأنِه أنْ يقعَ في محلٍّ يقومُ فيه العامل، وذلكَ في العملِ المُهِمِّ، فمقامُ الشّاهدَيْن هنا هو إثْباتُ الوصيَّة، ويكونُ معنَى ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي: رجلانِ آخَرانِ يُعوِّضان تلكَ الشَّهادةَ الَّتي وقعَ فيها كذِبٌ وخيانة[1].

استبدال الشَّاهدين دلالة على إثباتِ الوصيَّة، وكذبهما في الشَّهادة

أهميَّة الموقع الإعرابيّ في فهم المعنى في جملة: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

جملةُ ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ خبرٌ للمبتدأِ المحذوفِ المقدَّرِ (رَجُلانِ)، أي: رَجُلانِ أوْ شاهدانِ آخَرانِ يقومانِ مقامَهما، ولا محذورَ في الفصلِ بالخبرِ بين المبتدأِ وبين وصفهِ الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ بعدَه، أي: يقومانِ مقامَ اللَّذَيْنِ عُثِرَ على خيانتِهما، وليس المرادُ بمقامِهما مقامَ أداءِ الشَّهادةِ الَّتي تولَّياها، ولم يؤدّياها كما هي؛ بل هو مقامُ الحَبْسِ والتَّحليفِ على الوجهِ المذكورِ؛ لإظهارِ الحقِّ وإبرازِ كذبِهما فيما ادَّعَيا من اسْتحقاقِهما لا في أيديهما[2]، وجازَ الابتداءُ بالنَّكرةِ هنا في قولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾ لحصولِ الفائدةِ به[3]، والمسوِّغُ للابتداءِ به اعتمادُه على فاءِ الجزاء[4]، ويمكنُ أنْ يكونَ ﴿يَقُومَانِ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةً لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾[5].

الإعراب في لغة العرب فرعٌ عن المعنى

دَلالةُ ﴿مِنَ﴾ التَّبعيضيَّة في سياق قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ تبعيضيَّة، أي: شخصانِ آخَرانِ يكونانِ من الجماعةِ مِنَ الَّذينَ اسْتُحِقَّ عليهم[6]، "من الَّذين استحقَّ عليهم الإثم، أي: من الَّذين جُنيَ عليهم، وهم أهل الميِّت وعشيرته"[7].

صيانة الشَّرع لمقام أهلِ الاسْتحقاق من القرابة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(3) العكبري، الإملاء: 1/230.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/471.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(7) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/409.

احتياط الشَّريعة لوَأْد النِّزاع في مهده حكمة بالغة

دَلالةُ تعديَةِ الفعل بـ (على) الاسْتعلائيَّة في قولِه: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾:

الاسْتحقاقُ كونُ الشَّيءِ حقيقًا بشيءٍ آخَر، ويتعدَّى إلى المفعولِ بنفسِه، كقولِه: ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، فالإثْمُ: هو الشَّيءُ المسْتحَقُّ، وإذا كانَ الاسْتحقاقُ عن نِزاعٍ يُعدَّى الفعلُ إلى المحقوقِ بـ (على) الدّالَّةِ على الاسْتعلاءِ بمعنى: اللُّزوم له، وإن كُرِه، كأنَّهم ضمَّنوه معنَى وجَب، كقولِه تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]، يُقالُ: (اسْتحقَّ زيدٌ على عمرٍو كذا)، أي: وجَبَ لزيدٍ حقٌّ على عمرٍو، فأخذَه منه[1].

الشَّريعة تراعي درجة القرابة في الاستحقاق

نكتةُ ذِكْرِ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ وارْتباطه بلفظ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، المرادُ به مَوالي الميِّت، والعِلَّةُ في وصْفِ مَوالي الميِّتِ بهذا الوصفِ وجهٌ واحد، وهو أنَّهم إنَّما وُصِفوا بذلك؛ لأنَّه لمَّا أُخِذَ مالُهم؛ فقدِ اسْتحقَّ عليهم مالُهم، فإنَّ مَنْ أخذَ مالَ غيرِه، فقد حاولَ أنْ يكونَ تعلُّقُه بذلكَ المالِ مُسْتعليًا، على تَعلُّقِ مالِكِه به، فصحَّ أنْ يوصَفَ المالكُ بأنَّه قدِ اسْتحقَّ عليه ذلكَ المال[2]، والأوليان الأحقّان بالشَّهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وهما أولى من غيرهما في هذا المضمار، وعليه: "فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثة الميِّت: أنَّ هذين الرَّجلين لم يكونا أمينين في أداء ما كلَّفهما الميِّت بأدائه، فعندئذ يقوم رجلان من أقرب ورثة الميِّت، ليحلفا باللّه أنَّ شهادتهما أحقُّ وأولى من شهادة الرَّجلين الأوَّلين، وأنَّ هذين الرَّجلين لم يؤدّيا الوصيَّة على وجهها"[3].

لفظ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ تتعدَّد معانيه بتعدُّد وجوه تأويله عند العلماء:

في إعرابِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ أربعةُ أوجه: الأوَّلُ: أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89 - 90.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 4/322.

سرُّ التَّركيب القرآنيِّ في تعدُّد معانيه بتنوُّع مبانيه

يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، والتَّقديرُ: هما الأَوْلَيان؛ وذلكَ لأنَّه لَمّا قالَ: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، فكأنَّه قيل: ومَنْ هما؟ فقيل: الأَوْليان[1]، والثّاني: أنْ يكونَ بَدَلًا من الضَّميرِ الَّذي في ﴿يَقُومَانِ﴾ والتَّقديرُ: فيقومُ الأَوْليان، والثّالثُ: يجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بَدَلًا من قولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، وإبْدالُ المعرفةِ من النَّكرةِ كثيرٌ[2]، والرّابعُ: أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ صفةً لقولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾؛ وذلك لأنَّ النَّكرةَ إذا تقدَّمَ ذِكْرُها، ثمَّ أُعيدَ عليها الذِّكْرُ؛ صارتْ معرفة، كقولِه تعالى: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النّور: 35]، فمصباحٌ نكرة، ثمَّ قالَ: ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾ [النّور: 35] ثمَّ قالَ: ﴿فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ [النّور: 35]، ثمَّ قالَ: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النّور: 35]، وهذا مِثْلُ قولِكَ: رأيتُ رَجُلًا، ثمَّ يقولُ إنسانٌ: مَنِ الرَّجلُ؟ فصارَ بالعَوْدِ إلى ذِكْرِه معرفة[3].

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾:

الأولويّة في القرابة مُقدَّمة في الشَّرع حسْمًا للنِّزاع

في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾: جاء قولُه: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ وصفًا لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، لوجهَيْن: الأوَّلُ: معنَى ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ الأَقْربانِ إلى الميِّت، والثّاني: يجوزُ أنْ يكون المعنَى: الأَوْليانِ باليمين، والسَّببُ فيه أنَّ الوَصيَّيْنِ قدْ حَلَفا يمينًا في أمرِ الوصيَّةِ كذِبًا وزورًا، فانتقلَ اليمينُ إلى مَوالي الميِّت، فأنكرا يمينَ الشّاهدَيْنِ السّابقَيْن، فكانَ اليمينُ حينئذٍ حقّا لهما، وهذا كما أنَّ إنسانًا أقرَّ لآخرَ بدَيْن، ثمَّ ادَّعى أنَّه قضاهُ، حُكِمَ بردِّ اليمين إلى الَّذي ادَّعى الدَّيْنَ؛ لأنَّه صارَ مُدَّعًى عليه أنَّه قدِ اسْتوفاه[4].

أثر القراءات القرآنيَّة في المعنى في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.

القراءات القرآنيَّة ذات أثر في التَّأويل والتَّرجيح

مُتواترة[1]: الأولى: بفتحِ تاءِ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ وتثنيةِ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾، والثّانيةُ: بضمِّ تاءِ ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾، وكسرِ الحاء، وجمع ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والثّالثةُ: بضمِّ تاءِ ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾، وكسرِ الحاء، وتثنيةِ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَيۡنِ﴾، وتوجيهُ هذه القراءاتِ ومعانيها كما يلي بيانُه: الأولى: بصيغةِ البناءِ للفاعل، فيكونُ الأَوْليانِ هو فاعلُ استحقَّ، فيكونُ قولُه: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ تفريعًا على قولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، والثّانيةُ: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمعُ (أوَّل) الَّذي هو مجازٌ بمعنَى: المقدَّم والمبتدإ به، فالَّذين استُحقَّ عليهم هم أولياءُ الموصي، حيثُ استحقَّ الموصَى له: الوَصيَّة من مالِ التَّركةِ الَّذي كانَ للأَوْلياء، أي: الورثة لولا الوصيَّة، وهو مجرور صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُحِقَّ عَلَيۡهِمُ﴾، والثّالثةُ: ﴿ٱسۡتُحِقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ بالبناء للمجهول، فالفاعلُ المحذوفُ في قولِه: ﴿ٱسۡتُحِقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ هو مُستحِقٌّ ما، وهو الَّذي انتفعَ بالشَّهادةِ واليمينِ الباطلة، فنالَ من تركةِ الموصي ما لم يجعلْه له الموصي، وغلبَ وارث الموصي بذلك، فالَّذين استُحقَّ عليهم هم أولياءُ الموصي الَّذين لهم مالُه بوجهٍ من وجوهِ الإرْث، فحُرِموا بعضَه، وقولُه: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ قائمٌ مقامَ نائبِ فاعلِ ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾[2].

دَلالاتُ شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

لحروف المعاني دلالات مهمَّة، تُعين على فهم المراد من الجملة

في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾، نجد في لفظ (على) ثلاثةَ أَوْجُه: أحدُها: أنَّها على بابِها، كقولكَ: وجَبَ عليه الإثم، والثّاني: أنَّها بمعنَى (في)، أي: اسْتُحِقَّ فيهمُ الوصيَّةُ ونحوُها، ويمكنُ أنْ يكونَ التَّقديرُ: اسْتُحِقَّ فيهم الإثمُ، فوقعتْ (على) موقعَ (في) كما تقعُ (في) موقعَها، كقولِه تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾

(1) الأولى لحفصٍ عن عاصم، والثّانية لشعبة عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف، والثّالثة لأبي جعفر، ونافع، وأبي عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، ينظر: ابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 238، ومكّي، الكشف: 1/420، وابن الجزري، النَّشر: 2/256.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.

[طه: 71]، أي: على جُذوعِ النَّخل، والثّالثُ: هي بمعنَى (من)، أي: استحقَّ منهم الأَوْلَيان، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾ [المطفِّفين: 2]، أي: من النّاس[1].

فهم لفظ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ من خلال مرفوعه في سياق الآية:

عطاء القرآن يتنامى مع الزَّمان وتطوُّر الإنسان

دلَّ قولُه: ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾ بالبناءِ للمفعول في غير قراءة حفص عن عاصم[2] على أنَّ مرفوعَ ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾ خمسةُ أَوْجه: أحدُها: الأَوْليان، في تقديرِ (على) بمعنَى: (من)، أي: اسْتُحِقَّ منهما الأَوْلَيان، والثّاني: الوصيَّةُ، في تقديرِ (على) بمعنى: (في)، أي: اسْتُحِقَّ فيهمُ الوصيَّة، والثّالثُ: ضميرُ الإيْصاء، أي: اسْتُحِقَّ عليهمُ الإيْصاء، والرّابعُ: ضميرُ الإثْم، أي: اسْتُحِقَّ عليهمُ الإثْم، والخامسُ: ضميرُ المال، أي: اسْتُحِقَّ عليهمُ المالُ الموروث[3]، وهذا التَّنوُّع في التَّوجيه والفهم، يعطي صورة جليَّة عن انفساح لغة القرآن للتَّعدُّد في المعنى ممّا تسمح به القرائن، ويستوجبه السّياق، ويتطلَّبه مقتضى الحال، وتقتضيه ظروف نزول الآية، وتغيُّر إسقاطاتها بالموازاة مع متطلَّبات العصور الأخرى بعد عصر النُّزول.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾:

أفادتِ اللَّامُ ما عَهِدَه المخاطَبُ في ذهنِه في شأنِ الشَّهادة

﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾: تثنيةُ أَوْلَى، وهو الأَجْدرُ والأَحقُّ، أي: الأَجْدرانِ بقَبولِ قولِهما، وإنَّما عُرِّفَ بـ (اللّام)؛ لأنَّه معهودٌ للمُخاطَب ذهنًا؛ لأنَّ السّامعَ إذا سمعَ قولَه تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ تَرَقَّبَ أنْ يعرفَ مَنْ هو الأَوْلَى بقَبولِ قولِه في هذا الشَّأن، فقيلَ له: آخرانِ هما الأَوْليانِ بها[4]، "ذكر النَّصُّ أنَّهما الأوليان بالنُّطق بالحقِّ، لأجل الورثة؛ إمّا لأنَّهم أقربُ الورثة، أو لأنَّهما أرشدهم، أو

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/478 - 479.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/256.

(3) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/479.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.

أَلۡحَقُ بمحبَّتهم، ومعنى النَّصِّ الكريم على هذا: أنَّ اللَّذين شهدا المتوفَّى عند وفاته، هما أولى النّاس بذكر الحقيقة"(1).

أفاد هذا التَّقديمُ سدَّ بُلغةِ السَّامعِ في معرفةِ الحُكْم

عِلَّةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأ في لفظي ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ و﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ مبتدأٌ تأخَّرَ عن خبرِه، وهو ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾(2)، وجاءَ تقديمُ الخبرِ هنا لتعجيلِ الفائدة؛ لأنَّ السّامعَ يترقَّبُ الحُكمَ بعدَ قولِه: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾، فإنَّ ذلكَ العُثورَ على كَذِبِ الشّاهدَيْنِ، يُسقِطَ شهادتَهما ويمينَهما، فكيفَ يكونُ القضاءُ في ذلكَ؟ فعجَّلَ الجوابَ لأجلِ ذلك(3)، وهذا التَّشريع ضمانٌ "أن يؤدّي الشُّهودُ شهاداتهم صحيحةً، وذلك محافظة على حلفهم بالله، وخوفًا من فضيحتهم بظهور كذبهم، حين يحلف الورثة لردِّ أيمانهم"(4).

إثباتُ الشَّهادة باليمين إحقاقٌ للحقِّ وإبطالٌ للباطل

دَلالةُ القَسَمِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾:

تَضمَّنَ القَسَمُ في قولِه تعالى: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ على صدقِ خبرِ الشّاهدَيْنِ الآخرَيْنِ يمينًا على إثباتِ حقِّهما، فهي من اليمينِ الَّتي يثبُتُ بها الحقُّ مع الشّاهدِ العُرفيِّ، وهو شاهدُ التُّهمةِ الَّتي عُثِرَ عليها في الشّاهدَيْنِ اللَّذيْنِ يُبلِّغانِ الوصيَّة(5)، والشّاهدان القريبان يحلفان بالله قائلَيْنِ: لا نحابي بشهادتنا أحدًا، ولا نحلف بالله كاذِبَيْنِ من أجل المال، ولو كان لمصلحة ذي قُربى.

دلالة عطف جملة ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿يَقُومَانِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿يَقُومَانِ﴾:(6) أفادَت هذه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2387.
(2) العكبري، الإملاء: 1/230، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وهو أحدُ وجوهِ إعراب (الأَوْليان) الّتي تقدّم بيانُها.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.
(4) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/443.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.
(6) العكبري، الإملاء: 1/231، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.

القسم مسلك تشريعيٌّ مُهمٌّ للفصل بين الخصوم

الجملةُ أنَّ اللَّذيْنِ يُقسمانِ هما الشّاهدانِ المرادانِ بقولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي: مَقام الأَوَّلَيْن، وبهذا يتبيَّن أنَّهما يحلفانِ باللّهِ لَشَهادَتُنا، أي: يمينُنا أحقُّ من يمينِ الرَّجُلَيْنِ السّابقَيْنِ الكاذبَيْنِ الخائِنَيْنِ على أنَّهما صادقانِ أمينان[1]، ويكونُ قولُه: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾ جوابَ القَسَمِ في قولِه: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾[2]، والغاية من ذلك أن يؤدّي الشُّهداء الشَّهادة على وجهها الحقيقيِّ، بلا تبديل ولا تغيير، خوفًا من عذاب اللّه، وهذه حكمة تغليظ الشَّهادة بكونها بعد صلاة العصر؛ لأنَّه وقت القضاء، والفصل في الدَّعاوي، فتكون الصَّلاة مذكِّرة للشُّهود بالحقِّ والعدل، أو خوفًا من ردِّ اليمين على الورثة، وفي ذلك الخزي والفضيحة بين النّاس، فيظهر كذبهم بين النّاس، وهكذا يكون الخوف من عذاب اللّه، أو من ردِّ اليمين، مدعاة الصِّدق والبعد عن الخيانة"[3].

نكتةُ صيغةِ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾:

أفادتْ صيغةُ (أحقُّ) المفاضَلَةَ بين الشَّهادتين، وأنَّ الثَّانية يقينٌ

قولُه تعالى: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا﴾، جاءتْ فيه صيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ مع أنَّه لا حقيَّة في يمينِهما لبيانِ إمكانِ قَبولِ يمينِهما في الجُملة، أي: باعتِبارِ احْتمالِ صدقِهما في ادِّعاءِ تَملُّكِهما لما ظهرَ في أيديهما[4]، وعبارة ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾، تفيد أنَّهما "يحلفان على أنَّ ما يشهدان به من خيانة الشَّهيدين اللَّذين شهدا على وصية ميِّتهما أحقُّ وأصدق من شهادتهما بما كانا شهدا به"[5].

دلالة العطف في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ من هذه الآية:

إفادة العطف التَّأكيد والتَّعليل والتَّوطِئة

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عطفٌ على جوابِ القسمِ ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾، أي: ما تجاوزْنا فيها الحقَّ، أوْ ما اعْتَدَيْنا عليهما بإبْطالِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/125.
(2) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(3) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/514.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.
(5) رضا، تفسير المنار: 7/185.

حقِّهما[1]، وفي هذا العطفِ تأكيدٌ لأحقيَّةِ شهادتِهما وصدقِهما فيها، وتَوْطئةٌ وتعليلٌ لقولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا العطف أبان أنَّهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة، أو ما اعتديا الحقَّ فيما اتَّهموهما به، بل كانا يشهدان بما يرضي اللّه، ويرضي ضمائرهم، فكانت الجملة المعطوفة موضِّحة للجملة المعطوفة عليها، وقد أبانت الوصف الَّذي ذكروه لشهادتهما وصحَّتها وقوَّتها[2].

دورُ الإيجاز بالحذف في توسيع الدّلالة ونَفْيِ التُّهمة عن الشّاهدين الجديدين

حذفُ متعلّق الفعل ﴿ٱعْتَدَيْنَآ﴾ ودورُه في توسيع الدلالة:

لقد جاءت عبارةُ ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ قمّةً في الإيجاز حيثُ حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعل (اعتدينا)، وللمستمع في هذه الحال أنْ يُقدِّرَ ما شاء ممّا يتناسبُ مع السّياق مثل: وما اعتدينا بإبطال شهادتهما، وما اعتدَيْنا عليهما بتُهمة باطلة، وما جاوزنا الحقَّ في شهادتنا التي نشهدُها.

كتم الشَّهادة من الظُّلم الصُّراح

دَلالةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسْتِئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه، أي: إنّا إنِ اعْتَدَيْنا في يمينِنا لَمِنَ الظّالمينَ أنفُسَهم بتعريضِها لسَخَطِ اللّهِ تعالى وعذابِه، بسببِ هَتْكِ حُرمةِ اسْمِ اللّهِ تعالى، أوْ لَمِنَ الواضعينَ الحقَّ في غيرِ موضعِه[3]، وخلاصة ذلك: "فيحلفان باللّه قائلين: لا نستبدلُ باليمين عِوضًا، ولو كان فيه نفع لنا، أو لأحد من أقاربنا، ولا نخفي الشَّهادة الَّتي أمرنا اللّه بأدائها...فإذا أخفينا الشَّهادة أو قلنا باطلًا؛ حقَّ علينا عذابُ اللّه؛ لأنَّنا ظالمان"[4].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العثور والاطلاع:

وذلك فيما يَتّصِلُ بقوله تعالى: مادّةُ (طلع) تفيد الظّهور،

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(2) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 7/187.
(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.

لفظ (عُثِرَ) أوفق للدّلالة على التّثبُّت من صحّة الشّهادة

وطَلَعَت الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا: ظهرت، قالَ تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [طه: 130]، والمَطْلِعُ: موضعُ الطُّلوع، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الكهف: 90]، ومنه استُعيرَ: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، قالَ تعالى: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصّافّات: 54]، وقالَ سُبحانه: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 37]، واسْتطلعتُ رأيَهُ: حاولتُ التَّعَرُّفَ على رأيه في الأمر. أمّا ﴿عُثِرَ﴾؛ فقد تبيَّن أنّه يُتجوَّزُ به، فيمن يَطَّلعُ على أمرٍ من غيرِ طَلَبِه، وأصلُ عثَرَ بمعنَى: اطَّلعَ من العَثْرةِ الَّتي هي الوُقوع، فالعاثِرُ إنّما يعثُرُ بشيء كان لا يراه، فلمّا عَثَرَ به؛ اطَّلع عليه، ونظرَ ما هو، فقيلَ لكلِّ من اطَّلعَ على أمرٍ كانَ خفيًّا عليه: قد عَثَرَ عليه[1]، وبالنَّظرِ بين معنَى الكلمتَيْن (العُثور) و(الاطِّلاع): نجدُ أنَّ سياقَ الآيةِ الكريمةِ تشفي بُلْغتَه كلمةُ (العُثور) وفعلُها ﴿عُثِرَ﴾، فالأمرُ في قضيَّةٍ مهمَّةٍ، وهي التَّحرّي والتَّثبُّتُ في شهادةِ الشّاهدَيْن، هل ظهرَ ما كان خفيًّا من كذبٍ أو خيانةٍ، في شهادتِهما أو لم يظهر؟ وهذا المعنَى الدَّقيقُ يُسعِفُه الفعلُ ﴿عُثِرَ﴾ دونَ (اطَّلِعَ)، وبعض التَّفاسير تقول: بأنَّ ﴿عُثِرَ﴾: بمعنى: اطُّلِعَ على استحقاقِهما الإثمَ ... وعليه؛ فإنَّ سياق الآية والقرائن المصاحبة، هي الَّتي تحدِّد الفرق بينهما، ولاغرو أن يلمَح القارئ للآية مدى السَّلاسة الَّتي وفَّرتها لفظة ﴿عُثِرَ﴾، في إيقاع الجملة، مع ما فيها من وضوح ودقَّة لا تتوفَّر عليه لفظة (اطَّلع).

(اسْتَحَقّا) و(اسْتوجَبا):

الاستحقاق القائم على المخاصمة والادّعاء والتَّحقيق أولى بالاستعمال

الاسْتحقاقُ قائمٌ على معاني المخاصمةِ والتَّصديقِ دونَ الإيْجاب، فالإيجابُ لا يُستعمَلُ إلّا فيما هو حقٌّ، فإنِ اسْتُعملَ في غيرِه؛ فهو مجاز، والمرادُ به الإلزام[2]، والاسْتحقاقُ من الحقِّ، وهو ضدُّ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 546، وابن منظور، اللّسان: (عَثَرَ).
(2) العسكري، الفروق، ص: 67.

الباطل، وهو من الفعلِ حاقَّهُ، أي: خاصَمَه، وادَّعى كلٌّ واحدٍ منهما الحقَّ لنفسِه، وفيه معنَى التَّصديق؛ وقولنا: تحقَّقَ الخبر بمعنى: صحَّ وصدَقَ فيه المُخبِرُ، ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾، أيْ: استوجباه بالخيانة للأمانة، والحِنث في اليمين، وفي ذلك خصومة وكيدٌ، وصراع وتدافع، بسببه كان تزوير الشَّهادة من الشّاهدين الأوَّلين، والطّعن فيهما، وتكذيبهما باليمين على رؤوس الأشهاد، وفي أشرف أوقات الصَّلاة، وهذا المعنَى للاسْتحقاقِ القائم على وجودِ مخاصمةٍ وادِّعاءٍ وتصديقٍ أوْلى بسياقِ الآيةِ الكريمةِ في قضيَّةِ الشَّهادةِ واليمين وما يتبعُهما من المعاني السّابقة.

الإثْم والذَّنْب:

إيــثــارُ لـفـظ (الإثــم) على لفظ (الـذَّنـب)؛ لإفادته التَّبعة المُلمَح إليها في السِّياق

الإثم: الذَّنب، وقد أثِمَ الرَّجل بالكسر إثمًا ومأثمًا، إذا وقع في الإثم؛ فهو آثِمٌ وأثيم، وأثوم أيضًا، وأثمه اللّٰه في كذا يأثمه ويأثمه، أي: عدَّه عليه إثمًا، فهو مأثوم، وأنشد الفرّاء:

فَهَلْ يَأثَمَنّي اللّٰهُ في أَنْ ذَكَرْتُها *** وعَلَّلْتُ أَصْحابي بها لَيْلَةَ النَّفْرِ[1]

والإثْمُ يفيدُ معنَى: التَّبِعَةِ في السّياق، والذَّنبُ لا يُفيدُه، والإثمُ في أصلِ اللُّغة: التَّقصير، أَثِمَ يأثَمُ؛ إذا قصَّر، ومن ثَمَّ سُمّيَ الخمرُ إثْمًا؛ لأنَّها تُقَصِّرُ بشاربِها لذهابِها بعقلِه، والإثمُ يُطلَقُ على الجُرْمِ كائنًا ما كان[2]، والذَّنْبُ ما يتبعُه الذَّمُّ، أو ما يَتتبَّعُ عليه العبدَ من قبيحِ فعلِه، وذلك أنَّ أصلَ الكلمةِ الاتِّباع، ويجوزُ أن يُقالَ: الإثمُ: هو القبيحُ الَّذي عليه تَبِعة، والذَّنْبُ: هو القبيحُ من الفعلِ، ولا يُفيدُ معنَى التَّبِعة[3]، وبهذا يتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ سياقِ الآيةِ لكلمةِ ﴿إِثۡمًا﴾ أنسبُ من (ذَنبًا) حيث إنَّ التَّبِعةَ لازمةٌ ومُستحقَّةٌ لمن خانَ في شهادتِه وكذَبَ في يمينِه.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أثم).

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 15 - 16.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 244.

الشَّهادة واليَمين:

لفظ الشَّهادة أدلُّ على المراد؛ لتميُّزه عن لفظ اليمين بخصائص عدَّة

اليمينُ أصلُه من الجارحةِ، ولذلكَ جاءَ اليمينُ في الحَلِفِ مُستعارًا من اليدِ، اعتبارًا بما يفعلُه المُعاهِدُ والمحالِفُ وغيرهما، قالَ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [النّور: 53]، وقولُهم: يمينُ الله، فإضافتُه إليه ﷻ؛ إذا كانَ الحَلِفُ به[1]، وقال الشّافعيُّ في قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]: والَّذي أحفظ عن كلِّ من سمعت منه من أهل العلم في هذه الآيات: أنَّه في الشّاهد، وقد لزمته الشَّهادة، وأنَّ فرضًا عليه أن يقوم بها على والديه وولده، والقريب والبعيد، وللبغيض (القريب والبعيد)، ولا يكتم عن أحدٍ، ولا يُحابي بها، ولا يمنعها أحدًا"[2]، وهذا يدلُّ على الاهتمام الَّذي أولته شريعة القرآن، وأفاض فيه العلماء بالبيان، للشَّهادة الشَّرعيَّة الَّتي لها مقام قدسيٌّ خاصٌّ في قلوب المتَّقين، ورهبة كبيرة في نفوس الورعين، يتهيَّبون القيام بها، ويؤدّونها على وجهها الأكمل، لما لها في الدّين من قيمة، نصَّت عليها آيات القرآن، وذكرتها سنَّة سيِّد ولد عدنان ﷺ، والشَّهادةُ تجمعُ معانيَ ثلاثة - قد لا تتوفَّرُ في اليمينِ الَّذي هو مجرَّدُ الحَلِفِ باللّه - وهي الحضورُ والعِلْمُ والإعلام[3]، فكانَ اسْتخدامُ النَّصِّ القرآنيِّ في حديثِه عن الشَّهادةِ والشّاهدَيْنِ لكلمةِ الشَّهادةِ أَوْفَى بالغَرَضِ وأقومَ قيلًا.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 893 - 894.

(2) محمّد بن إدريس الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/729.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/221.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

معالجة ظاهرة الكذب في الشَّهادة، والتَّأكيد على مسلك التَّحرِّي والتَّقوى فيها

لَمّا أخبرَنا اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ: أنَّه إنْ وُجِدَ ما يدُلُّ على كذبِ الشّاهدَيْنِ على الوصيَّة، فإنّه يتوجَّبُ أن يقومَ آخرانِ مقامَهما، فيُقسما على كذبِ الشّاهدَيْنِ السّابقيْن، وبأنَّهما صادقان في يمينِهما؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتؤكِّدَ أنَّ ذلك الحكمَ الَّذي شرعَه اللّهُ ﷻ هو أقربُ إلى أنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، ولكنَّهم يخافونَ على ما ذكروه، لخوفِهم أنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ على الورثةِ بعدَ أيْمانِهم، فيظهرَ كذِبُهم، ويُفْتَضحوا بينَ النّاس، ولذلك أمرَ اللّهُ تعالى الشّاهدَيْنِ وغيرَهما من عبادِه: أن يتَّقوا اللّه، فلا يَخونوا في الأمانات، ويسمعوا مواعظَ اللّهِ ليعمَلوا بها، حتَّى لا يكونوا من الفاسقينَ الَّذين يخالفونَ حكمَ اللّهِ، فيُصيبُهم وعيدُ اللّهِ وعذابُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: الدُّنوُّ: القُربُ بالذّات، أو بالحكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلة، فمنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، ومن الثّاني قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ [النَّجم: 8]، وتارةً عنِ الأرْذَلِ، فيُقابَلُ بالخير، كما قالَ تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: 61]، وعن الأوَّلِ فيُقابلُ بالآخَر، قالَ تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحجّ: 11]، وتارةً عن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/454، 456.

الأقربِ فيُقابَلُ بالأقصى، كما قالَ تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][1]، وفي قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أقربُ لنفوسِهم أنْ تتحرَّى العدالةَ في إقامةِ الشَّهادة[2].

2) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: فَسَقَ فُلان: خرجَ عن حِجْرِ الشَّرع، وذلكَ من قولِهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ إذا خرجَ عن قشره، وهو أعمُّ من الكُفْر، والفِسْقُ يقعُ بالقليلِ من الذُّنوبِ وبالكثير، لكن تُعورِفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقالُ: الفاسقُ: لمِن التزمَ حُكْمَ الشَّرعِ، وأَقَرَّ به، ثمَّ أَخَلَّ بجميعِ أحكامِه أو بعضِها، وإذا قيل للكافرِ الأصليِّ: فاسقٌ؛ فلأنَّه أَخَلَّ بحكمِ ما أَلْزَمَه العقلُ، واقْتَضَتْه الفطرة، قالَ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50]، وقالَ سُبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النّور: 55]، أي: مَنْ يستُرُ نعمةَ اللّهِ؛ فقد خرَجَ عن طاعتِه، وقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ [السَّجدة: 18]، فقابلَ به الإيمان، فالفاسقُ أعمُّ من الكافر، والظّالمُ أعمُّ من الفاسق[3]، وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، أي: الخارجينَ عن طاعتِه ومُتابعةِ شريعتِه، ومنه الكذِبُ في اليمينِ أوِ الشَّهادة[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإتيان بالشَّهادة علـى وجـهـهـا، والالـــتـــزام بالـتَّقـوى وتـرك الشَّهادة المزيَّفة هو سبيلُ النّجاة المحقّقة

بيَّن اللّهُ ﷻ الحكمةَ من تلكِ الشَّهادةِ وتأكيدِها، وردِّها على أولياءِ الميِّت، حين تظهرُ من الشّاهدَيْن الخيانة، بأنَّها أقربُ للشّاهدَيْنِ أن يأتوا بالشَّهادةِ على وجهِها الصَّحيحِ بالصِّدقِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 318 - 319، والرّازي، مختار الصِّحاح: (دَنا).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 319، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/125.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 636 - 637، والفيروزآبادي، القاموس: (فَسَقَ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/107، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/126.

والحقِّ، أَوْ حين يخافونَ ألّا تُقبَلَ أيمانُهم، ثمَّ تُردَّ على أولياءِ الميِّت، ولذلكَ أمرَهمُ اللّهُ بتقواهُ في جميعِ أمورِهم والسَّمعِ والطّاعةِ لدينِه وشريعتِه، واللّهُ ﷻ لا يَهدي إليه، من لا يُريدونُ الهُدَى، ويَنْفرون من الصِّراطِ المستقيم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

قيامُ الأحكامِ على تحقيقِ مصالحِ العباد، هو لبُّ الشَّرعِ الحنيف

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، سيقَ لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مُستَتبِعٌ للمنافعِ واردٌ على مُقتضَى الحكمةِ والمصلحة(2)، أي: الحكمُ الَّذي تقدَّم تفصيلُه من قولِه تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أقربُ إلى حصولِ إقامة الشَّهادةِ على ما ينبغي(3)، يقول الإمام قبل أن يحلِّفهما: (إن كَتَمْتُما، أو خَنْتُما؛ فضحتكما في قومكما، ولم نُجِزْ لكما شهادة، وعاقَبْتُكما)، ثمَّ يُحَلِّفُهما، فإذا قال الإمام لهما ذلك، وحَمَلَهُما على الحَلِف أمام النّاس بالأيمان المغلَّظة، كان ذلك أقرب السُّبل إلى أن يؤدّيا الشَّهادة على الوجه الصَّحيح ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾(4).

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾:

الأحكامُ المشار إليها، زواجر للإنسان، حتّى لا يزيّف الحقّ أو يكتمه

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الحُكمِ المُتقدِّم عليها، فقد جاءَ اسْمُ الإشارةِ، مشيرا إلى ما تقدَّمَه من البيانِ الإلهيِّ، والمُشارُ إليه هنا في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ إلى المذكورِ من الحُكم، في قوله تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/106 - 107، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 201.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/142.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/651، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(4) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 778.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وعند ابن عطيّة أنّ الإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾، هي إلى جميع ما حدّ اللّه قبْلُ، من حبس الشّاهدين من بعد الصّلاة لليمين، ثمّ إن عثر على جورهما، ردّت اليمين وغرّما، فذلك كلّه يقرّب اعتدال هذا الصّنف، فيما عسى أن ينزل من النّوازل، لأنّهم يخافون التّحليف المغلّظ، بعقب الصّلاة، ثمّ يخافون الفضيحة وردّ اليمين، هذا قول ابن عبّاس رضي الله عنه، وأمّا رأي السّدي: فإنّ الإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾، إنّما هي إلى الحبس من بعد الصّلاة فقط[2].

دَلالةُ لفظ ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾:

لفظ (أدنى) من المجـاز، وليس من الحقيقة

قولُه تعالى: ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ بمعنى: أَقْرب، والقُرْب هنا مجازٌ في قُرْبِ العلمِ، وهو الظَّنُّ، أي: أَقْوَى إلى الظَّنِّ بالصِّدق[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾، أي: أقربُ إلى أن يؤدّيَ الشُّهودُ الشّهادةَ على وجهها الَّذي تحمَّلوها عليه من غير تحريفٍ ولا خيانة خوفًا من العذاب الأخروي، وهذه - كما ترى - حكمةُ شَرْعيَّةِ التَّحليفِ بالتَّغليظ المذكور[4].

دلالة عَوْد الضَّميرِ في ﴿يَأۡتُواْ﴾:

في تطبيق الأحكام على وجهها مصلحة لكلِّ الأطراف

قولُه تعالى: ﴿يَأۡتُواْ﴾ عائدٌ إلى (الشُّهداء) وهم: الآخَرانِ من غيرِكم، والآخَرانِ اللَّذانِ يقومانِ مَقامَهما، أي: أَنْ يأتيَ كلُّ واحدٍ منهم، فجمعَ الضَّميرَ على إرادةِ التَّوزيع، ومعناه: "راقبوا اللّه - أيُّها المؤمنون - في أيمانكم وأماناتكم، وأطيعوا أحكامه راضين بها، فإنَّ فيها مصالحكم، ولا تُخالفوها، فتكونوا من الخارجين على اللّه، والمطرودين من هدايته، المستحقّين لعقابه"[5]، وقد يكون المعنى:

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/651، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/256، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/401.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/256.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/92.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/92.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 3/92.

"أن يأتي الوصيّان، وسائر النّاس بالشَّهادة على وجهها، فلا يخونوا فيها، أَوْ يَخافوا أَنْ تُرَدَّ أَيمانٌ بَعْدَ أَيمانِهِمْ"[1].

نكتةُ اختيار مادّة الإتيان في الفعلِ ﴿يَأۡتُواْ﴾:

أراد بـالإتيان: الأداء، ومن أدَّى ما عليه؛ فما أساء

قولُه تعالى: ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أَنْ يُؤَدّوا الشَّهادة، فأرادَ بالإتْيانِ: الأداء، فجُعِلَ أداؤها والإخبارُ بها كالإتْيانِ بشيءٍ من مكان[2]، وهذا المعنَى وثيقُ الصِّلةِ بقولِه تعالى بعد ذلك: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾، "قيل: في ذلك بيان أنَّ المؤتَمَن إذا ادَّعيت عليه الخيانة، وقال هو: قد رددت ما كان في يدي؛ فإنَّه لا يُصدَّق إلّا بعد أن يحلف، فإذا عَلِمَ أنَّه لا يُقبَلُ قوله إلّا بيمين؛ كان أحرى أن يقول حذرًا من أن يحلف على كذب، أو يُقِرَّ خوفًا من الإثم في اليمين، فَتَبين خيانته"[3].

حذفُ حرفِ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾:

حذفُ حرف الجرّ يُـوَسّـعُ الدّلالـة ويُثري المعنى

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ﴾ أي: مِنْ أَنْ يَأْتوا، أَوْ إلى أَنْ يَأْتوا، أو بأن يَأْتوا، وإِنْ كانَ الأصلُ عدمَ الحذفِ وعدمَ التَّقدير؛ لأنَّ زيادة المبنَى، تدلُّ على زيادةِ المعنَى، والعكس كذلك، ولا حاجةَ إليه[4].

الاستعارةُ ونكتةُ إيرادِها في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾:

لا معنى للشَّهادة، ولا قيمة لها إلَّا إذا أُدِّيت على وجهها الشَّرعيِّ

أرادَ بيانُ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾، أي: على سُنَّتِها وما هو مُقوِّمُ تمامِها وكمالِها، فاسْمُ الوَجْهِ في مثلِ هذا مُستعارٌ لأَحْسنِ ما في الشَّيءِ وأكمَلِه تشبيهًا بوجهِ الإنسان؛ إذْ هو العضوُ الَّذي يُعرَفُ به المرءُ، ويتميَّزُ به عن غيرِه، ولَمّا أُريدَ منه معنَى الاسْتعارةِ لهذا المعنَى، وشاعَ هذا المعنَى في كلامِهم، قالوا: جاءَ بالشَّيءِ الفُلانيِّ

---

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/89.

(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/142، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 3/644.

(4) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482، والبقاعي، نظم الدُّرر: 6/333، ويرى السَّمين الحلبيُّ أنَّ عدم حذف حرفي الجرّ أولى، حيث ذكر عدم وضوح هذا الحذف.

على وجْهِه، فجَعلوا الشَّيءَ مَأْتيًّا به، ووصفوهُ بأنَّه أُتيَ به مُتمكِّنًا من وجْهِه، أي: من كمالِ أحوالِه، وهذا غايةُ البلاغةِ في اسْتعمالِ كلمةِ الوَجْه، ومعناه في هذا المَقام: مَقامُ الشَّهادة[1].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾:

الاستعلاءُ في حرف (على) مجازيٌّ دالٌّ على التَّمكُّنِ من الشَّهادة

جاءَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيِّ، والمرادُ منه: التَّمكُّنُ من أداءِ الشَّهادةِ على الوجهِ الصَّحيح، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][2]، والمعنى: "أن يؤدّي الشُّهداءُ الشَّهادةَ على وجهها، بلا تحريف ولا تبديل، وأن يخافوا من الفضيحة الَّتي تَعْقُبُ استحقاق الإثم، بردِّ أيمان الورثة بعد أيمانهم، فإنَّها تكون مبطلة لأيمانهم، فالواجب أن يخافوا من عقاب اللّه، أو من ردِّ الأيمان والفضيحة"[3].

سِرُّ إيرادِ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (وَجْه):

التَّشديد في أداءِ الشَّهادة، من صرامة الشَّرع الحنيف

سبقَ أنْ تبيَّنَ أنَّ سُنَّةَ الشَّهادةِ وكمالَها هو صدقُها والتَّثبُّتُ فيها، والتَّنبُّه لما يُغْفَلُ عنه من مختلفِ الأحوالِ الَّتي قد يُستخَفُّ بها في الحال، وتكونُ للغَفْلةِ عنها عواقبُ تُضيِّعُ الحقوق، الَّتي يُعدُّ الحفاظُ عليها وأداؤها بتمامِها من أركانِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، فأرادَ اللّهُ تعالى أنْ يُعلِمَ عبادَه في هذا المقامِ وجْهَ التَّثبُّتِ في التَّحمُّلِ والأداءِ، وتوخّي الصِّدق، وهو يدخُلُ في قاعدةِ لزومِ صفةِ اليَقَظَةِ للشّاهد[4]، وفي ذلكَ كلِّه بيانُ حكمةِ شرعيَّةِ التَّحليفِ بالتَّغليظِ المذكور[5].

دَلالةُ إعرابِ قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾:

تأكيداتُ الشَّرع على قرائن الشَّهادة ضمانٌ لأدائها على الوجه المطلوب

الجارُّ والمجرورُ في: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾ في موضعِ الحالِ من الشَّهادة،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(3) الحجازيّ، محمد محمود: التّفسير الواضح، ص: 575.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(5) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/142.

أي: محقَّقةً أو صحيحة، وهو الأصلُ فيها، وصارَت هذه الحالُ هنا قرينةً، على أنَّ المرادَ من الوَجْهِ غيرُ معناه الحقيقيِّ[1].

نكتةُ الإيماءِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾:

مشروعيَّة الإعْذارِ في الشَّهادة إلزامٌ للشُّهودِ بالتَّثبُّت

في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾، إيماءٌ إلى حكمةِ مشروعيَّة الإعْذارِ في الشَّهادةِ بالطَّعْنِ أوِ المعارَضة، فإنَّ في ذلكَ ما يَحمِلُ شهودَ الشَّهادةِ على التَّثبُّتِ في مُطابقةِ شهادتِهم للواقع؛ لأنَّ المعارضةَ والإعْذارَ يكشفانِ عن الحقِّ.

دَلالةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾:

لا مندوحة من التَّثبُّتِ في الشَّهادة، والاحترازِ من معرَّة الكذبِ

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾[2] على معنَى: أنَّ ذلكَ أقربُ إلى أنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، أو إلى أنْ يَأْتوا بها على وجهِها، فيظهرُ كذِبُهم بنُكولِهم[3]، "وقيل: إنَّ ﴿يَخَافُوٓاْ﴾ معطوف على مقدَّر بعد الجملة الأولى، والتَّقدير: ذلك أدنى أن يأتوا بالشَّهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب الكذب والخيانة، أو يخافوا الافتضاح بردِّ اليمين، فأيُّ الخوفين وقع؛ حصل المقصود"[4].

نكتةُ مجيءِ حرفِ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾:

في موقف الشُّهود يصعب الاختيار، ويعْسُرُ اتِّخاذ القرار

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾ وردَ فيه حرفُ ﴿أَوۡ﴾ وهو للتَّقسيم، أي: هو تَقْسيمٌ يُفيدُ تفصيلَ ما أجملَه لفظ الإشارة في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾[5]، ويكون المعنى أيضًا أنَّ الخوف مَرَدُّه إلى أنْ "تكرَّر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم"[6]، وفي الاختيار بين بدائل الخير والشَّرِّ، والصِّدق والكذب،

---

(1) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(2) العكبري، الإملاء: 1/231، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/143.
(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/143.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/101.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(6) النَّسفيُّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/483.

والحقِّ والباطل، مواقف يصعب على النَّفس البشريَّة الحسم فيها، خصوصًا إذا كانت الضُّغوطات تكتنف الشّاهدين، وتَحدُّ من حريَّة القرار في الاختيار.

دَلالةُ نصبِ قولِه: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ﴾ في إثْراءِ المعنَى:

أداءُ الشَّهادة على وجهها، أو ردُّ الأيمان: خياران لا مندوحة عن أحدهما

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ﴾ في نصبِه وجهان: أحدُهما: أنَّه منصوبٌ عطفًا على ﴿يَأۡتُواْ﴾ - كما تقدَّم - وفي ﴿أَوۡ﴾ على هذا تأويلان: أحدُهما: أنَّها على بابِها من كونِها لأحدِ الشَّيئَيْن، والمعنَى: ذلكَ الحكمُ أقربُ إلى حصولِ الشَّهادة على ما ينبغي، أَوْ خوفِ ردِّ الأيمانِ إلى غيرِهم، فتسقُطُ أيمانُهم[1]، والتَّأويلُ الآخَرُ: أَنْ تكونَ بمعنَى الواو، أي: ذلكَ الحكمُ كلُّه أقربُ إلى أنْ يأتوا، وأقربُ إلى أنْ يخافوا[2].

الثّاني من وجهي النَّصبِ أنَّه منصوبٌ بإضمارِ (أنْ) بعدَ ﴿أَوۡ﴾، ومعناها (إلّا) كقولِهم: لَأَلْزَمنَّك أو تَقْضيَنّي حقّي، تقديرُه: إلّا أنْ تَقْضينّي، فـ (أو) حرفُ عطفٍ على بابِها، والفعلُ بعدَها منصوبٌ بإضمارِ (أنْ) وجوبًا، و(أنْ) وما في حيِّزِها مُؤوَّلةٌ بمصدر، ذلكَ المصدرُ معطوفٌ عل مصدرٍ مُتوَهَّم من الفعلِ قبلَه، فمعنَى: لَأَلْزَمنَّك أَوْ تَقْضِيَنّي حقّي: لَيكوننَّ منّي لزومٌ لكَ أَوْ قضاؤك لحقّي[3]، وكذا المعنَى هنا، أي: ذلك أَدْنَى بأنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، وإلّا خافوا ردَّ الأَيْمان[4].

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾ في السِّياق الحكيم:

إفادة الرَّدِّ هنا معنَى: الانْتقال، وهو رمزٌ للإذلال

معنَى ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾: أنْ ترجعَ أيمانٌ إلى ورثةِ الموصي بعد

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/482 - 483.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482 - 483.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، وقد عقَّب السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483، على كلام ابن عطيَّة فقال: "كذا قدَّره ابن عطيَّة بواو، وهو خلافُ تقدير النُّحاة، فإنَّهم لا يقدِّرون (أو) إلّا بلفظ (إلّا) وحدها دون واو".

أيمانِ الشّاهدَيْن، فالرَّدُّ هنا مجازٌ عن الانْتقال، مِثْلَ قولِهم: قَلَبَ عليه اليمين، فَيُعيَّروا به بين النّاس[1]، وردُّ أيمان الشّاهدين من أكبر الحرج، وأشدِّ المواقف ذلَّة وهوانًا، خصوصًا إذا كان أمام القاضي، وبحضور جمٍّ غفير من النّاس؛ إذْ سرعان ما ينتشر الخبر، انتشار النّار في الهشيم، فيصبح أو يمسي حديث المجالس، فيغدو على الشّاهدين عارًا وشنارًا، ولا يتلذّذان بعده بصفو حياة، ولا يطمئنّان ببهجة عيش.

نُكتة بناء الفعل ﴿أَن تُرَدَّ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

إيــرادُ المصدرِ لتصويرِ شدَّةِ الخَوْفِ، من رَدِّ الأَيْمانِ، وتكذيبِ أصحابِها

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾، مبنيًا للمفعول، ولم يصرّح بالفاعل، بتأويلِ قوله: ﴿أَن تُرَدَّ﴾ بمصدر، أي: أَوْ يخافوا رَدَّ أيمانهم، والمصدرُ يفيدُ القوَّةَ والمبالغة في ردِّ أيمانهم، ولذلك سُبِقَ بـ ﴿يَخَافُوٓاْ﴾، ليُؤَكِّدَ تحقُّقَ الخوفِ في قلوبهم، من ردِّ أَيْمانهم، وفي هذا الخوفِ المحقَّقِ إثارةٌ لوازعٍ يمنعُهم من الكَذِب في الشَّهادة، وهو الحرصُ على عَدَمِ ظهورِ كَذِبهم، يعني: ضرورةَ أَنْ يصدُقواْ في شهادتِهم، وفي هذا زَجرٌ لهم عن الخيانةِ المؤدّيةِ لافْتضاحِ أمرهم، وإبطالِ أَيْمانهم والعَمَلِ بأَيْمانِ الوَرَثة[2]، وعليه فالاهتمام منصبٌّ على الإحراج الواقع جرّاء الكذب في هذه الأيمان، وهي تعكس مستوى القلق والاضطراب الّذي يعاني منه هؤلاء الشّهود الّذين يريدون في داخلة نفوسهم، أن يأتواْ بالشّهادة، "ولكنّهم يخافون أن يحلفواْ على ما ذكروه، لخوفهم من أن تردّ أيمان على الورثة بعد أيمانهم، فيظهر كذبهم، ويفتضحون فيما بين النّاس"[3].

سرُّ الجَمْعِ في لفظ: ﴿أَيۡمَٰنُۢ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَيۡمَٰنُۢ﴾ بصيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/483.

(3) فخر الدّين الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/456.

﴿بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ مع أنَّ أصحابَها شاهدان فقط، وذلكَ باعْتبارِ عُموم الآيةِ لسائرِ قضايا الوَصايا الَّتي من جِنْسها، على أنَّ العربَ تعدِلُ عنِ التَّثنيةِ كثيرًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4]، وكذلكَ فقد ذيَّلَ بيانُ اللهِ ﷻ هذا الحُكْمَ الجَليلَ بموعظةِ جميعِ الأُمَّة، فقالَ سُبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[1]، ويمكنُ أنْ يكونَ هذا الجمعُ في ﴿أَيۡمَٰنٌۢ﴾ وما سبَقه في قولِه: ﴿يَأۡتُواْ﴾ وإنْ كانَ عائدًا على مُثنًّى وهو الشّاهدان، فإنَّه عائدٌ كذلك على صِنْفَي الشّاهِدَيْن؛ بل هو عائدٌ على الشُّهودِ من النّاسِ كلِّهم، وفيه تَحْذيرٌ لهم من الخيانة، وتأكيدٌ على ضرورةِ أنْ يتحرَّوْا في شهادتِهم خوفَ الشَّناعةِ عليهم والفضيحةِ في ردِّ اليمينِ على المدَّعي[2].

الحُكْمُ في الآيةِ الكريمةِ ينطبق على سائرِ القضايا المشابهة

نكتةُ عدمِ ذكرِ مُتعلّق التَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

جاءَ الأمرُ بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ ذكرِ معلَّقه، وذلك لسببَيْن: الأوَّلُ: للعلمِ به، أي: واتَّقوا اللّه في شهادتِكم وفي الموصينَ عليهم، بألّا تَخْتلِسوا لهم شيئًا؛ لأنَّ القصَّةَ كانتْ بهذا السَّبب، والثّاني: قَصْدًا لإيقاعِ التَّقْوى، فيتناولُ كلَّ ما يُتَّقى منه[3].

الأمر بالتَّقوى: يشمل كلَّ مناطات الحياة

عِلَّةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾:

لم يذكرْ بيانُ اللّهِ مفعولَ ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾، إمّا اقْتصارًا أو اخْتصارًا، أي: اسْمعوا أوامرَه ونواهيَه من الأحكامِ المتقدِّمة، سماعَ تدبُّرٍ وعملٍ بمضمونِها، وهاتانِ الجملتان - بما حَملَتاه من أمرَيْن جَليلَيْن ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ وبما فيهما من اخْتصارٍ مع اتِّساعِ معانيهما - أدلُّ دليلٍ على عُلوِّ فَصاحتِهما، وسُموِّ دَلالاتهما، فتباركَ اللّهُ أصدقُ القائلين[4].

الحذف ملمحٌ بلاغيٌّ، يحرِّك الذِّهن، ويحفِّز القريحة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483 - 484.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/484.

ديدن المؤمن أن يسمع أمر ربِّه ويطيع

دَلالةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أمرٌ بالسَّمعِ المُستعمَلِ في الطّاعةِ مجازًا، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة: 7][1]، والمعنى في هذا السّياق: "﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه الَّتي من جملتها هذا الحُكْمُ، ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ما تؤمرون به كائنًا ما كانَ، سَمْعَ طاعةٍ وقَبول"[2].

في إظهارِ اسْمِ الجَلالةِ (الله) تربيةٌ للمهابةِ في النُّفوسِ، وتحذيرٌ من الفِسْقِ

نكتة الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

إظهارُ اسْمِ الجَلالةِ (الله) بدَل إضمارِه، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لتربيةِ المَهابةِ في القلوب، وأيُّ مَهابةٍ أعظمُ من مَهابةِ ذكرِ اسمِ اللّهِ ﷻ؟!، فجاءَ هذا اللَّفظُ الجَليلُ في سياقِ التَّحذيرِ والتَّخويفِ من تحريفِ الشَّهادة، فمَنْ فعلَ ذلكَ فهو فاسقٌ خارجٌ عن طاعةِ اللّه، فاللّهُ لا يَهْديه إلّا إذا تاب، فما أَفْصحَ هذه الجملةِ الزّاجرةَ الَّتي صُدِّرتْ باسْمِ الجلالةِ (اللّه)[3].

يطال عدمُ هدايةِ الفاسقينَ، مَنْ أَعرَضُوا، ومن لم يَتوبوا

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

نتساءل: هل حجبَ اللّهُ التَّوبةَ عنِ الفاسقين، بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؟ ونقول: إنَّ اللّه ﷻ لا يَهْديهم من حيث هم فاسقون، وإلّا فهو تعالى يهديهم؛ إذا تابوا، بعمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48]، ويحتملُ أنْ يكونَ لفظُ الفاسقينَ عامّا، والمرادُ الخصوصُ فيمن لا يتوب[4]، ويمكنُ أنْ يُرادَ أنَّ اللّه لا يَهدي القومَ الفاسقين، أي: المعرِضينَ عن أمرِ اللّه، فإنَّ ذلكَ لا يُستَهانُ به؛ لأنَّه يُؤدّي إلى الرَّيْنِ على القلبِ، فلا ينفذُ إليه الهُدَى من بعدُ، كما قالَ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/94.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/401، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/484.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/256.

رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطفّفين: 14][1]، وحمَلَ ذَيْلُ الآيةِ التَّهديدَ والوعيدَ لمن خالفَ حُكمَ اللهِ وأوامرَه[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الدُّنُوّ والقُرْب:

الدُّنُوُّ فيه مقابلةٌ بين الأشياء، وحملٌ للنُّفوسِ على تحرِّي العدالة

دَنا يَدْنو دُنوًّا، ودَنا منه: اقْترَبَ، وسُمّيت (الدُّنيا) لِدُنوِّها[3]، والدُّنوُّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بين شيئَيْن، تقولُ: دارُه دانيةٌ ومَزارُهُ دانٍ[4]، والدُّنوُّ واسعُ الدَّلالة، حيث يشملُ القُرْبَ بالذّات، أو بالحُكْم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلة، وبالمقابَلةِ بين الأصغرِ والأكبر، والأقربِ والأقصى، والأَسْوأ والخير[5]، والقُربُ عامٌّ في المسافةِ بين شيئَيْنِ وفي غيرِه، تقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، ولا تقولُ: تتدانَى، وتقولُ: هو قريبٌ بقلبِه، ولا يُقالُ: دانٍ بقلبِه إلّا عن بُعْدٍ[6]، وبالنَّظرِ في الفروقِ بين الكلمتَيْن: يتبيَّنُ أنَّ لفظ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أوْلى بالسّياق، من (أقرب)، فهي تتضمَّنُ المقابَلةَ بين الأشياء، وتُطلَقُ مجازًا على ما يكونُ أقربَ للنُّفوسِ في تحرّي العدالة، والالتزامِ بالحقِّ والصِّدْق، وهو ما جاءَ سياقُ الآيةِ في الدَّعوةِ إليه وتثبيتِه بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾.

الفِسْق والخُروج والفُجُور:

لفظ الفسقِ أعمُّ في إطلاقِه على المعاصي من الخروج والفجور

الفسقُ: خروجٌ مكروه، ومنه يُقالُ للفأرةِ: الفوَيْسقَة؛ لأنَّها تخرجُ من جُحرِها للإفساد، وإطلاقُ الفِسْقِ يقعُ على القليلِ من الذُّنوبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/456، وقال الفخر في ذيل تفسيره لهذه الآية: "فهذا هو القولُ في تفسير هذه الآية الَّتي اتّفق المفسّرون على أنّها في غايةِ الصُّعوبة إعرابًا ونظمًا وحُكمًا، وروَى الواحديُّ رحمه الله في (البسيط) عن عمر بن الخطّاب ﷺ أنّه قال: (هذه الآيةُ أعْضَلُ ما في هذه السّورة من الأحكام)"، ولعلَّ المراد ليس فقط هذه الآية وإنّما ما قبلَها لصلتها بها.
(3) الرّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (دَنا).
(4) العسكري، الفروق، ص: 236.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 318 - 319.
(6) العسكري، الفروق، ص: 236.

والكثيرِ منها، لكن تُعورِفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقالُ لمن أقرَّ بحكمِ الشَّرع، ثمَّ أخلَّ بجميعِ أحكامِه أو ببعضِها، ويُطلَقُ كذلكَ على الخروجِ من طاعةِ اللّهِ بكبيرة(1)، والخروجُ: يكون مذمومًا ومحمودًا، فهو يتناولُ ما يتعلَّق بالشَّرْعِ وغيره، والفجورُ: هو الانْبعاثُ في المعاصي والتَّوسُّعُ فيها، ولا يُقالُ لصاحبِ الصَّغيرةِ: فاجر، ثمَّ كَثُرَ اسْتعمالُ الفُجورِ، حتَّى خُصَّ بالزِّنى واللِّواطِ وما أشْبَه ذلك(2)، وممّا تقدَّمَ يظهرُ: أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أَوْلى بالسّياقِ من غيرِها، فهو أعمُّ في إطلاقِه، وفيه إخلالٌ بأحكام الشَّرعِ قليلِها أو كثيرِها، صغيرِها أو كبيرِها؛ ولذلك حَجَبَ اللّهُ هدايتَه عنِ الفاسقينَ الَّذينَ دَأَبوا على المعاصي، ولم يتوبوا منها، وخاصَّةً في المعاصي الكبيرةِ، كالخيانةِ والكذبِ في الشَّهادة.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 636 - 637، والعسكريّ، الفروق، ص: 406.

(2) العسكري، الفروق، ص: 406 - 407.

﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّمهيدُ لِذِكْرِ أَحْوالِ عيسى عليه السلام، وبيانِ مُعجزته

وردتِ الآيةُ متمِّمَةً لِلأَمرِ بإتيانِ الشَّهادةِ على وجهها، والتَّهديدِ والوعيدِ لِمَن خالفَ حُكمَ اللّه وأوامرَهُ، في الآية السّابقة [المائدة: 108]؛ فإنّه لمّا تَمَّ الكلامُ على الاستشهاد على وصايا المَخلوقينَ، وحذَّرَهم مِن تحريف الشَّهادة، وأمَر بتقوى اللّه، ناسبَ الانتِقال إلى ذِكْر شَهادَة الرُّسُل على وصايا الخالِقِ تعالى يومَ القيامة، تحذيرًا من ذلكَ المشهدِ العظيم، وتَوبيخًا لِمَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم(1)، ولِتكونَ الآيةُ تمهيدًا لذِكْرِ أحوالِ عيسى عليه السلام، فالآيةُ متمِّمَةٌ لِما قبلَها مُمهِّدَةٌ لِما بعدَها.

والظّاهرُ أنَّ هذه الآيَةَ مرتبطةٌ بسياقاتٍ متعدّدةٍ في سورة المائدة، ورد فيها ضُروبٌ من مخالَفاتِ أهلِ الكتاب، وتمرُّدِهم على أنبيائِهم وتعليماتِ كُتُبِهم، فذَكَر هنا ما يدلُّ على أنَّ اللّه سبحانه يُقرِّرُهم بموقف أقوامِهم منهم على سبيل التَّحذير لأتباع هؤلاء الرُّسلِ من تلك المخالَفات، ويدخل المُعرِضون من هذه الأمّةِ ضِمنًا في ذلك التّحذير.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَجۡمَعُ﴾: الجمعُ يَدُلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ بتقريب بعضِه من بعض، أو تضامِّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا، أو تلاحمًا، أو تراكمًا، يُقالُ: جَمَعتُهُ فاجتَمَعَ؛ أي: جاء به بعدَ أن كان متفرِّقًا، فالجَمْعُ هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/98.

تأليفُ المُتَفَرِّقِ المتجانِسِ، وضمُّ بعضِهِ إلى بعضٍ في موضعٍ واحدٍ[1]، و﴿يَجۡمَعُ ٱللَّـهُ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذا القبيلِ، والمعنى: يجمعُ اللّهُ جميعَ الرّسلِ الّذين بعثهم إلى الخَلْقِ.

2) ﴿أُجِبۡتُمۡۖ﴾: أصلُ الكلمةِ (جَوَبَ)، وتدلُّ على قطعِ الجَوبَةِ، وهي كالغائط مِنَ الأرض، ثمَّ يُستعملُ في قطعِ كلِّ أرضٍ أو صخرٍ، وسُمّيَ جوابُ الكلام جوابًا؛ لأنَّهُ يقطعُ الجوبَ، فَيَصِلُ مِن فمِ القائلِ إلى سَمْعِ المُستمع، أو لأنَّ المُجيبَ أمضَى في الكلام، وأَنفَذُه إلى مَظانِّ الإجابةِ والقَبول[2]. ومعنى ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾: ماذا أجابَكم قومُكم بعدَ أن طلبتم منهم توحيدي واتِّباعَ أَمري؟

3) ﴿عَلَّٰمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من عالم، والعربُ تَقولُ: رجلٌ عالمٌ، فإذا زادوا في المَدح قالوا: عليم، فإذا بالَغوا قالوا: علّام[3]، والعالمُ في وصف اللّه هو الّذي لا يخفى عليهِ شيءٌ في مُلكِه، ولا يجوزُ أن يُبنَى على صيغة (فَعّال) شيءٌ من صفاتِه تعالى إلّا ما جاء منه في القرآن الكريم، أو السُّنّةِ الصّحيحة، وإن كانَ أصلُهُ ثلاثيًّا، مثل: رزّاق، ووهّاب، وخلّاق[4]، ولم يرِد (علّامُ) في القرآن وصفًا للّه تعالى إلّا مضافًا.

4) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: جمعُ كثرةٍ لـ (غَيبٍ)، وهو المُطمَئِنُّ مِنَ الأرض، ويُقال: سمعتُ صَوتًا من وراء الغَيب؛ أي: مِن مَوضِعٍ لا أراهُ، وكلُّ مكانٍ لا يُدرَى ما فيه، أو لا يُدرَى ما وراءَه فهو غيبٌ، ولهذا جاءَ الغيبُ بمعنى الشَّكِّ لِنَفي العلم بما لا درايةَ فيه، وكُلُّ ما غابَ عَنِ العيونِ، سواءٌ كانَ مُحَصَّلًا في القلوب، أَمْ غَيرَ مُحَصَّلٍ فهو غيبٌ[5]، ومعنى: ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ أي: أنتَ تعلمُ ما غابَ عنّا من بواطن الأمور، ولا تخفى عليك خافيةٌ[6].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

في يوم القيامةِ يَجمَعُ اللّهُ جميعَ الرُّسُلِ عليهم السلام، فيسألُهم - وهو العليمُ سبحانه - عن جواب أُممهم لهم قائلًا: ماذا أجابَتكُم به أممُكم حينَ دَعَوتُموهُم إلى توحيدي وطاعتي؟

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (جمع).
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات: 1/581.
(4) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 153.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(6) الرّاغب، المفردات: (علم).

شهادةُ الرُّسلِ يومَ القيامة على الشّعوب، وردُّ العلم إلى علّام الغيوب

فيقولونَ تأدُّبًا مع اللّه، وتسليمًا لأمره، رادّينَ الأمر إليه: لا عِلمَ لنا إلّا العِلمَ الّذي أنتَ أعلَمُ به مِنّا، ولا عِلمَ لنا بعاقبةِ أمرِهِم، وبِما أَحدَثوا مِن بَعدُ، فأنتَ تعلمُ الأمورَ الغائِبَةَ والحاضِرةَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ حذف العامل، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ﴾:

عاملُ الظّرف المحذوف يُتيح للنَّفس تصوُّر أهوالِ الموقف

حُذِفَ عاملُ الظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾، وتنوَّعت تقديراتُ المُفسّرين للعامل المحذوف[2]، والظّاهِرُ: أنَّ كلَّ ما يصلحُ له المعنى، ويوافقُه السّياقُ، يصحُّ أن يُقدَّرَ؛ فحُذِفَ العاملُ لإفادة عُموم المعنى؛ لهولِ الموقفِ، ورهبتِه، وهَيبتِه؛ لِتَذهَبَ نَفسُ السّامعِ كُلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ مِنَ التَّهويل: فيصحُّ أن يكونَ تَقديرُهُ: يَومَ يَجمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ يكونُ هَولٌ عَظيمٌ لا يَبلُغُهُ طولُ التَّعبير فينبغي طَيُّهُ، وأصلُ نَظمِ الكلامِ: (يَجمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ يَومَ القيامة فَيَقولُ..)، فَغَيَّرَ نَظمَ الكلامِ إلى الأسلوب الّذي وقَعَ في الآية؛ للاهتمام بالسّؤال والجواب، ولبيان شدّة ذلك اليوم المَهولِ[3]. ويصحُّ تقديرُ أيِّ لفظ يحقّقُ المُرادَ، مثلَ: احذروا أوِ اتقّوا اللّه، أوِ اذكروا يوم يَجمعُ، ويكونُ ﴿يَوۡمَ﴾ على هذا التّقدير مفعولًا، وهذا الحذفُ كثيرٌ في مواقع التّهويل والتّفخيم، ومِنَ البلاغة بمكانٍ أن يكونَ الحذفُ أَزيدَ إفادةً في المعنى مِنَ الذِّكر.

سببُ إيثارِ الرُّسُل بالسُّؤال:

الرُّسلُ أئمّةٌ عند الخالق، وهمُ المُكلَّمون قبل الخلائق

تخصيصُ الرُّسُل بالذِّكر ليسَ لاختصاص الجمع بهم دونَ الأُمم، فذلكَ يومٌ مجموعٌ لهُ النّاسُ جميعًا، ولكنْ لإفادة: أنّهم أئمَّةُ الخَلقِ، وفي ضمن جمعِهم جمعُ الخلائق، فهُمُ المكلَّمونَ أوَّلًا؛ لِتقومَ الحُجَّةُ على الأمم، ويبدأَ حسابُهم على الواضحِ المستَبينِ[4].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/10، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/209، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/218، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/690.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/98.

(4) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 2/256.

ولإبانة شرفِهم وأصالتِهم، والإيذانِ بعدم الحاجة إلى التَّصريح بجمعِ غيرِهم، بناءً على ظهور كونِهم أتباعًا لهم[1].

ولأنّ الرُّسُلَ مكلَّفونَ بالتَّبليغ، والمقامُ مقامُ إجابةٍ عن ما حصلَ بعدَ تبليغ الرِّسالة.

ولإظهار أمانةِ الرُّسُل، وحرصِهم على تحرّي الصِّدق فيما يقولونَ؛ ليكونَ ذلكَ تنبيهًا على وجوب تحرّي الصِّدق في الشَّهادة، والبُعدِ عن قول الزّور[2].

وقد أشعر التّعبيرُ بـ ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ أنّهم أعلى النّاس مقامًا عندَ اللّهِ، وأنّ مقامَ الرِّسالة أفضلُ من مقام النُّبوَّة.

إفـادةُ تربيّةِ المهابة، وإظهارِ شدّةِ الهَوْل

وجهُ إظهارِ الاسم الأعظم، في السّياق الأكرم:

في إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضِع الإضمار؛ تربيةُ المهابة، وتشديدُ التّهويلِ لموقف السّؤال[3].

الاستفهامُ في خطاب المرسلين، توبيخٌ وتبكيتٌ للمكذّبين

دَلالةُ الاستفهام المَجازيِّ، وأسلوبِ التَّعريض في السّياق:

أفادت ﴿مَاذَآ﴾ عمومَ السُّؤال، فبدلًا من أن يقولَ: أيَّ إجابةٍ أُجبتُم، أَإجابةُ إيمانٍ وإقرارٍ أم إجابةُ كُفرٍ واستكبارٍ؟ أإجابةُ طاعةٍ أم إجابةُ معصيةٍ؟ وهكذا[4]، أَوْجَزَ هذا الكلامَ كلَّه في لفظ ﴿مَاذَآ﴾، فالسّؤالُ هنا عن نوع الإجابة، وهو مَجازيٌّ بغرض التّقرير الّذي يليقُ بخطاب الرُّسل، وقدِ التزموا في الجواب بتفويض العلم للّه بما يناسبُ جلالَ الموقف وهيبتَه، ومع هذا ففي الاستفهام تعريضٌ بالأقوام الّذين بُلِّغوا؛ بغرض توبيخ المُكذِّبين، وتبكيتِهم، وإعلامِهم بما ينتظرُهم من عقابٍ، وإقامةِ الحُجَّة عليهم، وفي هذا الأسلوب منَ التَّحذير ما فيه.

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/298.

(2) مجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1181.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/337، ورضا، تفسير المنار: 7/202.

كما أفادَ الاستفهامُ إظهارَ علم اللّه بكلِّ خافيةٍ وظاهرةٍ في موقفِ الجمعِ الأكبرِ يومَ القيامةِ، ولمّا كانَ المقامُ مقامَ حسابِ الخلقِ اقتضَى ذلك إظهارَ العلمِ المُطلَقِ.

سببُ إيثار صِيغة المَبنيِّ للمفعول:

المُعوَّلُ عليه في الحساب الاقتداءُ والتِزامُ الاتّباع

وردَ الفعلُ على صيغة المبنيِّ للمفعول، فقال: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾، وأصلُ الكلام: ماذا أجابَكم قومُكم؟ فقامَ المفعولُ مقامَ الفاعل؛ تكريمًا للرُّسُل، وإظهارًا لإبلاغهم الرِّسالةَ، ولإفادةِ أنَّ المُعوَّلَ في الحساب يومَ القيامة على طاعة الرُّسُل واتّباعِهم، وفيه من كمال تحقيرِ شأن الكفرة، وشدَّةِ الغَيظ والسُّخط عليهم ما لا يَخفَى[1].

سببُ سؤال الله تعالى عمّا هو به عليمٌ:

فَضحُ الكفرة على رؤوس الأشهاد عُقوبةٌ لهم يومَ المعاد

وقد يُقال: لمَ سَألَ اللّه الرُّسلَ عمّا هو أعلَمُ به منهم؟ وجوابُه: أنّه لمّا كفرتْ بعضُ الأمم، ونافقوا، وكذبوا على رسلِهم بعد مماتِهم، أرادَ اللّه أن يُعلِمَ رسلَهُ بذلكَ، وليفضحَ الكفرةَ على رُؤوس الأشهاد؛ ليكونَ ذلك نوعًا منَ العقوبة لهم[2]، ولم يسألْهم بقوله: (هل بلَّغتم رسالاتي) ؟ بل قال: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾؛ لإفادة خروجِهم عن عُهدة الرِّسالة بما بلّغوهُ، وقاموا به منَ التَّبليغ المبين كما ينبغي[3].

سرّ مجيء جوابِ الرُّسلِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهر:

براعةُ الإيجاز في الجواب، يُغني عن كلِّ جوابٍ

كان مُقتضَى الظّاهر أن يكونَ الجوابُ على وفْقِ السُّؤال، فيجيبَ الرُّسُلُ بقولهم: (أَطاعنا قومُنا أو لم يطيعونا)، أو بقولهم: (أقرّوا بتوحيدِك أو لم يُقرّوا)، ولو أجابوا بهذا لأعقبَهُ سؤالٌ عنِ السَّبب، فأجابوا بما ذُكر في الآية؛ ليكونَ الجوابُ مُغنيًا عن كلِّ جوابٍ، وعن ما يعقبُهُ لو أجابوا بغيره، إيجازًا واختصارًا، وليظهرَ علمُ اللّهِ يومَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/289.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/361.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93.

الجمع الأكبر أمامَ الخلق جميعًا، ولهذا حصروا علمَ الغيب باللّه تعالى. كما أفادَ هذا الجوابُ التعريضَ بتوبيخ الكفرة، كما أشعرَ به الاستفهامُ بـ ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾، وأنَّ الأمرَ لا حاجةَ فيه إلى الشَّهادة لِظهوره[1].

كلُّ ما يعلمُه الرُّسلُ، هو من علمِ الله ﷻ

سببُ إيثار النَّفي بـ ﴿لَا﴾، في قوله تعالى: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾:

تدلُّ ﴿لَا﴾ النّافيةُ للجنس على أنَّ الرُّسلَ نفَوا أيَّ علم حاصل لهم؛ إشعارًا بأنَّ ما يعلمونَه إنّما هو مِن علم اللّه، فالمقامُ مقامُ التَّسليم للّه تعالى، والخضوعِ لعلمه، ولهذا اختارَ الطّبريُّ قولَ ابنِ عبّاسٍ في تفسير هذه الجملة: (لاعلمَ لنا إلّا علمٌ أنتَ أعلَمُ به منّا)، كما يُشعرُ الجوابُ بالتّشكّي من أقوامِهم بما كابَدوا منهم[2]. وذهبَ بعضُ المُفسّرينَ إلى أنَّهُ ليسَ المرادُ نفيَ عِلمِهم على الإطلاق، وإنَّما هو نَفيٌ لِعلم الإحاطة والشّمول الَّذي هو خاصٌّ باللّه تعالى، لِعلْم الرُّسُل بظاهر ما أُجيبوا به مِن مُخاطِبيهم، ولم يَعلَموا بواطِنَهُم، ولا حالَ مَن لم يَرَوْهُ مِن أُمَمِهم، إلّا ما يوحيهِ تعالى إليهم مِن ذلك، وهو قليلٌ مِن كثيرٍ[3].

الاستئنافُ البيانيُّ، في قوله: ﴿قَالُواْ﴾:

التَّعبيرُ عنِ المُستقبلِ بالمُضيّ؛ دليلٌ على الوقوعِ اليقينيّ

في الآية استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من فحوى الكلام، كأنَّه قيلَ: فماذا يقولُ الرُّسُلُ عليهم السلام هنالكَ؟ فقيل: يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾.

وعبَّر بالماضي عنِ المستقبل الغيبيّ؛ لإفادة تحقّق الوقوع لِما تدلُّ عليه صيغةُ الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 50]، ونظائره. وفيه إشعارٌ بأنَّ قولَهم: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ قد قالوه واعتقدوه مِن قبلُ، وذكرَ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/35.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/211، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/148.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/203.

النَّيسابوريُّ سببين آخَرين: أحدُهما: أنّهُ جاء بصيغة الماضي للدَّلالة على قرب القيامة، حتَّى كأنَّها قد قامت ووقعت، كما يُقالُ: الجيشُ قد أتى، إذا قرُبَ إتيانُهم، والثّاني: أن يكونَ واردًا على الحكاية، كقول الرَّجل لصاحبه: كأنَّكَ بنا، وقد دخلنا بلدةَ كذا، فصنعنا كذا[1].

بلاغةُ أسلوبِ الحَصْر بالضّمير ﴿أَنتَ﴾:

تعدُّدُ الوسائل الدّالّةِ بيقينٍ على أنَّ العلمَ بالغيب مختصٌّ بالله ربِّ العالمين

في التّعبير القرآني: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ يأتي ضميرُ الفصل ﴿أَنتَ﴾؛ ليفيدَ الحصرَ، ويُؤكِّدَ مضمونَ الجملة[2]، والمعنى: اختصاصُ علم الغيب باللّه تعالى، وحصرُهُ به، وقد تأكّدَ مضمونُ الجملة، وهذا الاختصاصُ بـ (إنَّ)، ومجيءُ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه معرفتَيْن، وصيغةُ المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾، فتتابعتِ التّأكيداتُ والتّقريراتُ على علم اللّه بالغيب؛ لِتوبيخ الكفرة على ما توهَّموه وظنّوه، ولو لم يكنِ الضَّميرُ ﴿أَنتَ﴾ للحصر لَمَا حسُنَ؛ لأنَّ اللّه لم يزَل علّامَ الغيوب؛ أي: فتعلَمُ، يا ربَّنا، ما أجاب قومُنا وأَظْهَروه لنا، وما لم نَعلَمه ممّا أضمروه في قلوبهم، وفيه إظهارٌ للشَّكاة، وردٌّ للأمر إلى عِلمه تعالى بما لَقوا مِن قِبَلِهم منَ الخطوب، وكابَدوا منَ الكروب[3].

دَلالةُ وصف ﴿عَلَّٰمُ﴾، على المبالغة:

عِلمُ الله الواحد مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ

صيغةُ ﴿عَلَّٰمُ﴾ على وزن (فعّال)؛ للمبالغة، وهو أكثرُ مبالغةً من (عليم)، والمعنى: كَثيرُ العِلم؛ أي: بكَثْرَة المَعلومات، وإلّا فَعِلمُهُ واحدٌ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ إحاطةً كاملةً، ولم يَرد في القرآن انفرادُ الشّهادة بوصف اللّه بأنَّه علّام به، كما ورد في قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ تعظيمًا لأمر الغيب، وللإيذان بكثرته مقارنةً بعالَم الشَّهادة.

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/36.
(2) التّفتازانّي، المُطوَّل، ص: 388، والسّبكي، عروس الأفراح: 1/227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93 - 94.

ما غابَ عنِ النّاس من مكنونٍ أكثرُ ممّا هو مُشاهَدٌ بالعيون

دَلالةُ صيغة الجمع للَفظ (الغيب):

في قوله تعالى: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾، أفادت صيغةُ جمعِ الكثرة (فُعول) كثرةَ الغيب، ومنه: مشاهدُ البَعث، والنُّشور، وإتيانُ السّاعَة، وغيرُها، فما غابَ عنِ الخلقِ ممّا يعلمُهُ اللّهُ أكثرُ ممّا هو مُشاهَدٌ، فناسبَ مجيءُ صيغة المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾ مضافةً إلى جمع الكثرة؛ إيذانًا بكثرة الغيب، وتنوُّعه، وإحاطةِ علم اللّه به كلِّه، ويؤكّد هذا التَّناسُبَ بين الصّيغتَين: المُبالغةُ في ﴿عَلَّٰمُ﴾، والجمعُ في ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾؛ إذ إنّه لمّا أُفرِد الغيبُ، ولم يُجمَع، اكتُفي معه باسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: 26]، وقولِه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73].

قراءة الضمّ خفيفةٌ في اللّفظ

دلالةُ قراءة ﴿ٱلْغِيُوبِ﴾ بكسر الغين، على التّناسُبِ الصّوتي:

قرأ بكسر الغين منَ ﴿ٱلْغِيُوبِ﴾ - حيث وقع - : حمزةُ وشعبةُ عن عاصم[1]، وقرأ الباقون بضمِّ الغين، وهي القراءةُ المشهورةُ[2]، والتّناسبُ الصّوتيُّ أو الشّكليّ هو الغالبُ، فقراءةُ الكسر تناسبُ حرفَ الياء، لِثقَلِ الانتقال منَ الكسر (في الغين)، إلى الضّمّ (في الياء)، ولم يقرأ بها سوى حمزةَ وشعبةَ عن عاصم الكوفيِّ، أمّا قراءةُ ضمّ الغين فإنّها أخفُّ؛ لتوافُقِ حرفين متواليين في حركة واحدة (الضّمّ)، وقرأ بها الأكثرون منَ القُرّاء العشرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَعث إخراجٌ ونشورٌ منَ القبور، والجمعُ حشرٌ للنّاس في الصّعيد المذكور

الجَمع والبَعث:

بعثُ الخَلقِ: اسمٌ لإخراجهم من قبورِهم إلى الموقفِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52][3]، وهذا معنى عامٌّ قد يكون مع التّفرُّق، وقد يكونُ مع الاجتماع.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/226.

(2) العلميّ، تقريب المعاني، ص: 240.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 479.

لكنَّ الجمعَ لا يكون إلّا باجتماعٍ، وتضامٍّ، وتلاحمٍ مع تجانسٍ، كما يدلُّ استعمالُ المادّة[1]، ولذلك استُعمل في السّياق ما هو الأنسبُ لجمعِ اللّه الرُّسلَ في الموقف لتقريرهم بشأن أقوامِهم.

الرُّسل والأنبياء:

الرُّسلُ والأنبياء مبلِّغون عن الله، ويختصّ الرّسولُ بكتابٍ أو شريعةٍ من عند الله

الرّسلُ: جمعُ رسولٍ منَ الإرسال الّذي هو الانبعاثُ على تُؤَدة، فيقال: ناقةٌ رِسْلَةٌ؛ أي: سهلةُ السَّير، والإرسالُ: اسمٌ عامٌّ يتناولُ إرسالَ الملائكة، وإرسالَ الرّياح، وإرسالَ الشّياطين، والرَّسولُ: يُقال تارةً للقول المتحمَّل، وتارة لِمُتَحَمِّلِ القول والرِّسالة.

ورسلُ اللّه هم الّذين يبلِّغون عنِ اللّه أمرَه ونهيَه، وهمُ المقصودون عند الإطلاق، كما في الآية الكريمة، والرّسل تُرسَل إلى مخالفين؛ فيكذِّبهم بعضُهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذّاريات: 52]، وقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فُصّلت: 43]، والإرسالُ: يستلزمُ التَّحمُّلَ والتّبليغَ، والرّسالةُ: جملةٌ منَ البيان يحملُها القائمُ بها؛ ليُؤَدّيَها لغيره.

أمّا الأنبياءُ: فجَمعُ نبيٍّ منَ النّبأ، وهو الخبرُ ذو الفائدة العظيمة، الّذي يحصل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، فالأنبياءُ يُخبرُهم اللّهُ بأمره، ونهيه، وخبره، وهم يُنَبِّئون المؤمنين بهم ما أنبأهم اللّهُ به منَ الخبر والأمر والنّهي، فالنّبوءةُ فيها تكليفُ القيام بالوحي، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ [الحجّ: 52] يدلُّ على أنّ النّبيَّ مُرسَلٌ كالرّسول، ولكنّه لا يسمَّى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنّه لم يُرسَل إلى قوم إلّا بما يعرفونه، وكان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنّه حقٌّ؛ كالعالِم، ولهذا قال النّبيُّ ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء»[2].

وفي ضوء هذا التّفريق فإنَّ التّعبيرَ بالرُّسل في الآية هو الأنسبُ لمقام السّؤال عنِ التَّبليغ، وموقفِ الأقوامِ منه في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 480، والرّاغب، المفردات: (رسل - نبأ)، وابن تيميّة، النّبوّات: 2/718. والحديث أخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (3641)، والتّرمذيّ في جامعه، الحديث رقم: (2682)، وابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (223).

﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إشْهادُ الرّسلِ يومَ القيامة، وسؤالُ عيسى عنِ المعجزات والبَلاغ

لمّا وردتِ الآيةُ السّابقةُ: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ توبيخًا للأمم السّابقة، ناسبَ أن تتبعَها هذه الآيةُ في ذِكر أجدرِ الأُمَم بالتَّوبيخ والملامَة، وهمُ النَّصارى الَّذين وصفوا اللّه تعالى بما لا يَليقُ بعاقلٍ أن يَصِفَ الإلهَ به، وهو اتِّخاذُ الزَّوجةِ والولدِ، فكان ذكرُ النِّعمِ تَوبيخًا للنَّصارى، وتقريعًا لهم على سوءِ مَقالَتِهم؛ فإنَّ كُلَّ واحِدَةٍ من تِلكَ النِّعمِ المعدودةِ على عيسى تدُلُّ على أنَّهُ عَبدٌ، وليس بإلهٍ(1).

من ناحية أخرى، فإنَّ هذه الآيةَ شروعٌ في بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ واحدٍ منَ الرُّسُلِ المجموعينَ منَ المفاوضة على التَّفصيل إثرَ بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ الجميع على وجه الإجمال؛ ليكونَ ذلك كالأُنموذجِ لِتفاصيلِ أحوالِ الباقينَ، وتخصيصُ شأنِ عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلًا من بين شؤون سائر الرُّسل عليهم السلام؛ لِما أنَّ شأنه عليه السلام متعلِّقٌ بكلا الفريقينِ من أهل الكتاب الَّذينَ نُعيت عليهم في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/458، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/338.

السّورة الكريمة جناياتُهم، فتفصيلُه أعظمُ عليهم، وأَجلبُ لِحسرتِهم وندامتِهم، وأفتُّ في أَعضادِهم، وأَدخَلُ في صرفِهم عن غيِّهم وعنادِهم[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: الأَيدُ هو القوّةُ الشّديدةُ المضمَّنةُ معنى الحِفظِ، وكأنّ معنى اليدِ مضمَّنٌ في (أيدٍ)، فيقالُ: أيَّدَ فلانٌ فلانًا؛ أي: أخذَ معهُ بيدِهِ في الشَّيءِ الّذي يقوّيه فيه، وأيَّدتُكَ على معنى التّكثير؛ أي: قوَّيتُكَ قوّةً شديدةً معَ زيادةٍ في الحفظِ، والمصدرُ التّأييدُ[2].

2) ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾: هذا التّركيبُ الإضافيُّ من إضافة الموصوف إلى الصِّفة؛ للمبالغة في الاختصاص[3]، وأصلُه الرّوحُ القُدسُ؛ أي: الرّوحُ المقدَّسةُ، ومعنى القُدس: الطّهارةُ العلميَّةُ الدّائمةُ الّتي لا يلحقُها نجسٌ ظاهرٌ ولا رِجسٌ باطنٌ، فَروحُ القُدُسِ بمعنى: الرّوح المُطهَّرةِ المباركةِ، وهو وصفٌ لِجبريلَ[4] عَلَيۡهِ السَّلَامُ.

3) ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾: أَصلُ المَهد التَّوثيرُ، ويُقال للفراشِ: مِهادٌ؛ لوَثارته، ثمَّ أُطلقَ على المكانِ المُمَهَّد الموطَّأ، ومنه: المُهدةُ منَ الأَرض: لِما انخفضَ في سهولةٍ واستواءٍ، ومَهَّدتُ لكَ كذا: هيّأته وسوّيتُهُ، وتَمهيدُ الأُمورِ: تَسويَتُها وإِصلاحُها، ومَهدُ الصَّبيِّ: مَوضِعُهُ الَّذي يُهَيّأُ لَهُ، ويوَطَّأُ؛ لِيَنامَ فيه وقتَ تربيتِه[5].

4) ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾: الكَهل: يُقالُ لانتِهاء الشَّباب وكَمال قوَّته؛ لِوصولِ جسمِهِ إلى أقصى نموِّهِ وامتدادِهِ، ولهذا سُمّيَ الحليمُ العاقلُ بالكهل؛ للزومه لكمالِ النّموِّ. ورَجلٌ كَهلٌ، وامرأةٌ كهلةٌ: إذا انتهى شَبابُهما، وبدأت مرحلةُ عمرٍ جديدةٌ عندَهما، والكهلُ منْ عُمُرِ ثلاثٍ وثلاثينَ سنة، إلى الأربعين، أو إلى الخمسين سنة، والكاهِلُ للإنسان مُقدَّمُ الظّهر ما بين الكتفين[6].

5) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: الحُكْمُ بمعنى المنع لإصلاحٍ، فهو ضبطٌ يمنعُ منَ التّسيُّب، وحكَمَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أَيَدَ).
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/316.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قدس)، وابن جرير، جامع البيان: 2/320.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كهل).

الشَّيءَ وأحكمه: منعَه منَ الفسادِ وأصلحَه. ومن معنى الضَّبطِ الحُكْمُ بمعنى القضاءِ، والحاكمُ: السُّلطانُ الّذي يضبطُ أمورَ النّاسِ، ويمنعُها منَ التّسيُّب، والحكمةُ: وضعُ الشَّيءِ في مَوضِعه، وصوابُ الأمرِ وسدادُهُ للمنع منَ الفساد[1].

والحكمةُ في الآية بمعنى فهمِ معاني الكتابِ الّذي أنزلتُه إليكَ، وحسنُ التَّصرُّف في الأمور[2].

6) ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: الكتابُ الّذي أنزلهُ اللّهُ على موسى ﷺ، أَساسًا لشريعتِه، ولا يسمَّى به إلّا الكتابُ الّذي كانَ قبلَ التَّحريف والتَّبديل، فما يتداوله اليهودُ الآنَ، يحرُمُ تسميتُهُ التَّوراةَ.

7) ﴿وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾: الكتابُ الّذي أنزلَهُ اللّهُ على عيسى ﷺ، أَساسًا لشريعتِه، ولا يُسمّى به الكتابُ الّذي يتداولُه النّصارى بعدَ التَّحريف، فيحرمُ تسميتُهُ بالإنجيل[3].

8) ﴿تَخۡلُقُ﴾: الخلقُ هو التَّقديرُ المستقيمُ للشَّيءِ، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، مثلُ: خالق السّماوات والأرض، وخَلَقَ اللّهُ الأشياءَ خَلقًا، وهو الخالقُ والخلّاقُ؛ ولا تَجوزُ هذه الصِّفَةُ بالألف واللّام لِغير اللّه تعالى. ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشَّيء منَ الشَّيء، كخلق الإنسان من طينٍ. والاستعمالان مختصّان باللّه تعالى، أمّا الّذي يكونُ بالتَّحوُّلِ من حالةٍ إلى أخرى فيصحُّ أن يتَّصفَ به غيرُ اللّه في بعض الأحوال[4]، كما في هذه الآية، والعربُ تسمّي تصويرَ الشَّيءِ وتقديرَهُ: تخليقًا؛ فعلى ذلك جاءت كلمةُ ﴿تَخۡلُقُ﴾ في الآية[5].

9) ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾: اتِّخاذُ وضعٍ مناسبٍ لأمرٍ ما، وهي الحالةُ الظّاهِرَةُ الّتي يكونُ عليها الشَّيءُ، محسوسةً كانت أو معقولةً، لكنَّ استعمالَها في المحسوس أكثرُ، ففي معنى اللّفظ معنى تشكيلِ الشَّيءِ وإعدادِه؛ ليكونَ شيئًا معيَّنًا مطلوبًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/215.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/1180.
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 3/648.
(6) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هيأ).

10) ﴿وَتُبۡرِئُ﴾: بَرَأَ بمعنى خَلَقَ، والبارئُ هو الَّذي خَلَقَ الخَلقَ لا عن مِثالٍ، وقلَّما تُستَعمَلُ برأ في غير الحيوان، فيُقالُ: برَأَ اللّهُ النّسَمَةَ، وخَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، كما يدلُّ البَرءُ على التَّخليص منَ العيوبِ، والسُّقمِ، والتُّهمةِ، والدَّينِ، ويُقالُ بَرِئَ المريضُ منَ المرضِ: شُفيَ وتخلَّصَ ممّا فيه[1].

11) ﴿ٱلۡأَكۡمَهَ﴾: الكَمَهُ هو العَمَى الَّذي يولَدُ عليه الإنسانُ، والأكمَهُ: الَّذي يولَد لا بَصَرَ له، وإطلاقُهُ على الّذي لايُبصِرُ مِن عَرَضٍ أو مرضٍ من تقييدِ المُطلَقِ[2].

12) ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾: البَرَصُ: داءٌ؛ وهو بياضٌ يقعُ في الجسد، يصيبُ الجلدَ، ويتأثَّرُ به البدنُ، وينفِرُ النّاسُ منَ المصاب به، ولِمَن يُصابُ بالمرضِ يُقالُ له: أبرصُ، والجَمعُ بُرصٌ[3].

13) ﴿بِإِذۡنِي﴾: يقالُ: آذَنَني فُلانٌ أَعلَمَني، والإذنُ في الشَّيءِ الإعلامُ بإجازتِه والرُّخصةِ فيه، ويدلُّ كذلكَ على الأمرِ به، وكذا يدلُّ على المَشيئَةِ والتَّيسيرِ، وإذا أُسنِدَ الإذنُ أو أُضيف للّه سبحانه فيُراد به أمرُه، وإرادتُه، أو تيسيرُه[4].

14) ﴿كَفَفۡتُ﴾: الكفُّ: ا لمنعُ، ومنه قيلَ لكفِّ الإنسان: كفٌّ؛ لأنَّهُ يمنعُ ما فيه، ولمّا كانَ الكفُّ بمعنى المنع فقد أُطلقَ على الدَّفعِ، سواءٌ أكانَ ذلك بكفٍّ أم بغيرِها، وكففتُ في الآيةِ، بمعنى: منعتُ[5].

15) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جمعُ بيّنةٍ، بانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضحَ وانكَشفَ، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشَّيءُ مِنَ الدَّلالةِ وغيرِها، وفلانٌ أَبيَنُ مِن فُلانٍ؛ أي: أَفصحُ مِنه، وأَوضحُ كلامًا. وتأتي البيّنةُ بمعنى الأمرِ الواضحِ، وبمعنى الحُجَّةِ؛ لِأنَّه بها ينكشفُ الحقُّ، ويتّضِحُ، فالبيّنةُ لاينازِعُ فيها منازِعٌ لِوضوحِها[6]، والمرادُ بالبيِّناتِ هنا معجزاتُ سيِّدنا عيسى عليه السلام[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برص).
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن)، ورضا، تفسير المنار: 7/206.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/216.

16) ﴿سِحْرٌ﴾: هو تمويهٌ وتخييلٌ به يَرى الإنسانُ الشَّيءَ على غير حقيقته، فهو من خِداع الحواسِّ والقلبِ؛ لإخراج الباطل في صورة الحقّ. ولِدقّة السِّحر في خداع الحواسّ، ولطافتِهِ؛ أُطلقَ السِّحرُ على كلِّ ما لَطُفَ منَ الكلام، وأثَّرَ في القلوب(1).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مـنّـةُ الـلـهِ بـالـخـوارق على عيسى وأمّه من دون الخلائق

قال اللّه: يا عيسى بنَ مريمَ؛ اذكر نعمتي عليكَ؛ إذ خلقتُك من غير أبٍ، واذكر نعمتي على والدتِكَ حيث اصطفيتُها على نساء العالمين، وبرّأتُها ممّا نُسِب إليها من مذامٍّ وافتراء.

واذكر؛ حينَ تأييدي إيّاكَ بجبريل عليه السلام، وتكليمكَ النّاسَ، وأنتَ رضيعٌ قبلَ أوانِ الكلام، وتدعوهم إلى اللّه، وأنت كبيرٌ، قد اجتمعَتْ قوّتُك، وكمُل شبابُك، بما أوحاه اللّه إليك منَ التّوحيد.

واذكر نعمتي عليكَ؛ بتعليمِكَ الكتابَ، وإصابةَ الحقِّ؛ في الرّأيِ والقولِ والعملِ، وبتعليمِكَ التَّوراةَ والإنجيلَ.

واذكر نعمتي عليكَ؛ إذ تجعلُ قطعةً منَ الطّينِ مثلَ هيئةِ الطَّيرِ في شكلِها ومقاديرِ أعضائِها، فتنفخُ فيها - بعدَ ذلكَ - فتكونُ طيرًا بإذنِ اللّه وتكوينِه.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ جعلتُك تُبرِئُ مَن وُلِد أَعمى فتمنحُهُ الإبصارَ بإذني وتيسيري، وحينَ تُخرِجُ الموتى من قبورِهم أحياءً - بعدَ أن صارت رميمًا - بإذني وتيسيري.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ منعتُ بني إسرائيلَ عنك، وقد أرادوا قَتْلَك لَمّا جِئتَهم بالمعجزات الواضحات الدّالّاتِ على نبوَّتِك، فقال الكافرونَ منهم: ما جاءَ به عيسى منَ البيِّناتِ لم يكن إلّا سِحرًا ظاهرًا(2).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/55 - 56، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿قَالَ﴾ في السّياق:

ما سوف يَقَعُ مِن مَشاهِدِ القيامة يقينٌ لا رَيْبَ فيه

لَمّا كانَ السّياقُ دالًّا على أنَّ الكلامَ سيقعُ في يوم القيامة، كان التَّعبيرُ بالفعل الماضي عُدولًا عنِ الظّاهر؛ لِتنزيلِ المستقبلِ الّذي هو يومُ القيامةِ؛ نَظمًا له في سِلكِ المقطوعِ به لِصدورِهِ عن مَن لا خلافَ في إخبارِهِ، ووعدِهِ، ووعيدِهِ، منزلةَ الماضي المعلوم تذكيراً بما لذلكَ اليوم من تحتُّم الوقوعِ، وتصويراً لِعظيم تحقُّقِهِ، وتنبيهًا على أنَّه لِشدّةِ قُربِهِ، كأنَّهُ قد وقعَ ومضَى[1].

دَلالةُ إظهار اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، في مَوضِع الإضمار:

تـذكـيرٌ بمقام الألوهيّة المنزَّه عمّن سواه

لَمّا كانَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهُ﴾، قد ذُكِرَ مِن قريبٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ هنا: (إذ قال: يا عيسى بنَ مريمَ)، فعدلَ إلى الاسم الظّاهر، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾؛ للمبالغة في التَّهويل؛ لأنَّ المقامَ مقامُ توبيخٍ للكافرينَ يومَ القيامة، وفيه تذكيرٌ بمقام الألوهيَّة لِمَن هو في الدُّنيا كذلك[2].

دَلالةُ النِّداء بـ ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا ينفكّ عن كونِه عَبْدًا لربّ الأنام

ابتدأ الكلامَ بنداء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنسبةِ بنوَّتِه إلى أُمِّه؛ للإيذان بأنَّ كلَّ ما يفعلُهُ لايخرجُ عن كونِه عبدًا لله، وأنَّهُ ابنُ مريمَ، وليس ابنَ اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما يزعمُ كثيرٌ مِنَ النَّصارى، وفي ذلك إشارةٌ تعريضيّةٌ للقائلين بذلك منهم حتّى يُصَحِّحوا عقيدتَهم الفاسدةَ.

دَلالةُ لفظِ ﴿نِعۡمَتِي﴾ بين الاسميّة والمصدريّة:

ذِكْرُ المفردِ وإرادَةُ الجمعِ، على معنى تعدُّد أفراد النِّعَم

يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الاسمَ الحاصلَ مِنَ المصدر؛ أي: الأثرَ الّذي يكونُ على العبدِ، وذكرَ المفردَ وأرادَ الجمعَ؛ لأنَّهُ مضافٌ يصلُح للجنسِ، فاللَّفظُ مفردٌ ومعناه جمعٌ، على معنى تعدُّد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/339.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

أفراد النِّعَم. ويَحتملُ أنَ يكونَ لفظُ ﴿نِعۡمَتِي﴾ مصدرًا؛ بمعنى: إنعامي، والمعنى: اذكُر إنعامي عليك وعلى والدتِك[1]. والحملُ على الأوَّلِ أولى، ولاسيَّما أنَّ المرادَ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الجمعُ، فاللَّفظُ واحدٌ، ومعناه جمعٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34][2]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالأثر الظّاهر أحرى وأظهرُ في توبيخ الكافرينَ، ولأنَّ المقامَ مقامُ ذكر النِّعَم وليس الإنعامَ، كما يدلُّ عليه السّياقُ من ذكر تخليق الطَّير، وإبراءِ الأكمَهِ والأبرصِ، وغيرِها؛ بصيغة المضارع.

فائدةُ الإضافة للضّمير في التّركيب الإضافيّ: ﴿نِعۡمَتِي﴾:

لا نعمةَ موفورةٌ إلَّا نعمةُ الله تعالى

أفادتِ الإضافةُ تخصيصَ النِّعمة باللّه تعالى في مقام ظهور الخلائِق كلّها؛ ليفيدَ أن لا نعمةَ إلّا نعمةُ اللّه تعالى، كما أنَّ الإضافةَ أفادت تقويةَ إرادة الجمع في: ﴿نِعۡمَتِي﴾؛ لِصلاحيَّة اللَّفظ لإرادة الجنس[3].

الأمرُ بذكرِ النِّعَمِ يومَ القيامةِ، إظهارٌ لكرم المنعِم:

توبيخٌ من جعلوا عيسى إلهًا، أو أنكروا رسالتَه وهديَه

لمّا كانَ الأمرُ بذكرِ النِّعَم في الموقف يومَ القيامة، فليسَ المرادُ به ظاهرَهُ، وهو تكليفُ عيسى عليه السلام بشُكرِها، والقيامِ بواجبِها في ذلك اليوم؛ لِانتهاءِ التَّكليفِ يومَ القيامةِ، وإنّما المرادُ منَ الأمرِ لازمُهُ، وهو إظهارُ عيسى عليه السلام نعمَ اللّهِ بتعدادِها، والتّلذُّذِ بذكرها على رؤوس الأشهاد؛ لِتكونَ توبيخًا، وزجرًا للكفرة الّذينَ أفرطوا فيه فجعلوه إلهًا، أو فرَّطوا فأنكروا رسالتَهُ، فالسّياقُ على معنى توبيخ الكافرين، وتنبيهِ مَن هم في الدُّنيا إلى اتِّباعِ الحَقِّ[4]. ثمّ إنَّ نداءَ اللّه سبحانه لعيسى وأمرَه؛ يعني: أنّ هناك آمِرًا هو اللّه،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/101.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

ومأمورًا هو عيسى عبدُ اللّه ورسولُه، وفي ذلك برهانٌ لِمَن يعقلُ منَ النَّصارى حتّى يعلمَ الفرقَ بين اللّه الخالق الآمر، والعبدِ المخلوقِ الّذي يتلقّى الأوامرَ.

فائدةُ العطفِ وحرفِ الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾:

نعمةُ اللهِ على عيسى نِعمةٌ على أُمِّهِ البَتول

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ الدّالُّ على الاستعلاءِ استغراقَ نعمةِ اللّه على نبيِّ اللّهِ عيسى عليه السلام وعلى والدتِه، وعطفَ قولَه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾؛ لأنَّهُ في مقامِ تَعدادِ النِّعمِ وإظهارِها، فاقتضَى التَّفصيلَ، وأيضًا للزّيادَة في تبكيت اليهودِ وكمدِهِم؛ لأنَّهم تَنَقَّصوها بِأَقذعَ مِمّا تنقَّصوهُ، وثالثةً: لأنَّ النِّعمةَ على الولدِ نعمةٌ على أبويه، فإنَّ مكارمَ الأخلاق دليلٌ على طيبِ الأعراق.

وكرَّرَ حرفَ الجرِّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ معَ أنَّه واجبُ التَّكرير؛ للإشعار بأنَّ نعمتَه تعالى على عيسى عليه السلام مغايرةٌ لِنعمتِه على والدتِه، أمّا نعمتُه على والِدَتِه فإنه اصطفاها لطاعته، وطهَّرَها من كلِّ دَنَسٍ، واصطفاها على نساء العالمين في زمانها، وكان رِزقُها يأتيها مِن عندِه، وهي في محرابها[1].

مناسبةُ التَّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾، وغرضُه في سياق الآية الكريمة:

عَظَمةُ الزَّمن في عظمة ما فيه من أحداثٍ وتحدّيات ومِحَنٍ

لا تَرِدُ ﴿إِذۡ﴾ في بدايةِ كلامٍ إلّا عندَ ذكرِ أمرٍ ذي شأنٍ؛ لِأهمّيَّتِه، أولِغرابتِهِ، أو لِعظمتِه، بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ ما بعدَ (إذ) مثلًا للذِّكرى، والتّدبُّر، والعِظَة، فأَشعرت ﴿إِذۡ﴾ بعِظَمِ شأنِ كلِّ ما اقترنَ بها منَ الكلام في هذه الآية، ولمّا كانت (إذ) ظرفَ زمانٍ أفادت عِظَمَ زمن الأمور العظيمة الّتي ذُكِرت في هذهِ الآية؛ إذ يَعظمُ الزَّمنُ بِعظَمِ ما يقعُ فيه.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/101.

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾، ودلالةُ الجملة الحاليّة:

كان المسيحُ يكلِّمَ النّاسَ في المَهْدِ بتسخير الله جبريلَ لتأييدِه

عبَّر بقوله: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يملكُ لِنفسِه أن يكلِّمَ النّاسَ لولا تأييدُ جبريلَ له؛ وفيه دليلٌ على نفي الألوهيَّة عنه، فيتضمّنُ توبيخًا لِمَن نفى عبوديتَه للّه تعالى. ويُشعِرُ الكلامُ كذلك أنَّ التَّأييدَ بروح القُدُس مِنَ النِّعَم العِظام.

ومعنى الجملةِ الحاليّةِ ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾: قوَّيتُكَ، وأعنتُكَ بروح القُدُس في حال تكليمِكَ النّاسَ في حالَتَي الرَّضاعةِ قبل أوان الكلام، والنُّضوجِ وقد اجتمعت قوَّته، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُس مُقترنًا بتكليمه النّاسَ صبيًّا وكهلًا[1]. وتَحتملُ أن تكونَ الجملةُ عطفَ بيانٍ لقولِه: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾؛ لِورودها في معرضِ البيانِ؛ للتَّأييدِ بروح القدس[2]، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُس في الآيةِ خاصًّا بعيسى عليه السلام في المهدِ وكهلًا على التَّوجيهين، سوى أنّ اعتبارَ التّكليم حالًا للتّأييد، يعني: أنّها الحالُ الوحيدةُ الّتي يُؤيَّد فيها عيسى عليه السلام بروح القُدُس، لكنَّ اعتبارَ التّكليم بيانًا للتّأييد لا يمنعُ كونَهُ مُؤيَّدًا بروح القُدُس في أحوالٍ أُخرى.

إيثارُ صيغة المضارع، والعُدولُ عن ذِكْر القَوْم إلى ذِكر النَّاس:

مُعجزةُ عيسى عليه السلام معجزةٌ للبشريّة

جاءَ الفعلُ ﴿تُكَلِّمُ﴾ بصيغة المضارع؛ لتصوير حالة الإعجازِ واستحضارها حتَّى كأنَّ جميعَ الخلائقِ يشاهدونَها؛ إظهارًا لِمعجزاتِه وتقريرًا لِنِعَم اللّه تعالى.

وقال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، ولم يقُل: (تكلِّمُ قومَكَ)؛ للإشارة إلى ظهور كلامِه في المهد بينَ النّاس، وليسَ بينَ قومِه فقط؛ تعظيمًا لهذه النِّعمة، وتفخيمًا لها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/214.

(2) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على تفسير البيضاويّ: 7/598.

بلاغةُ الكناية بقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾:

التّعبيرُ بالكناية أبلغُ في التّعْداد، وأدلُّ على المراد المستفاد

عبّرَ بقوله: ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ على طريق الكناية، فالمرادُ لازمُهُ؛ لأنَّهُ يلزمُ مِن كونِه في المهد أن يكونَ صبيًّا، والتَّعبيرُ بالكناية هنا أبلغُ منَ التّصريح وأَولى؛ لأنَّ الصَّغيرَ يسمَّى طفلًا أو صبيًّا إلى أن يبلغَ الحلُم، ولهذا عدلَ عنه[1]، والمعنى: يكلِّمُ النَّاسَ صبيًّا وكهلًا، ولمَّا كان الكلامُ في سياق بيان النِّعَم عبَّر بأسلوب الكناية؛ لإفادة التَّعجيبِ من هذه النِّعمة أكثرَ ممّا لو أكّدهُ بقوله: (صبيًّا)؛ لِدلالة ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ على عدم القدرةِ على الكلام، وضعفِ القوى على سبيل الكناية، ولذلكَ قالَ قومُ مريمَ - حين أشارتْ إلى مولودِها عيسى؛ ليسألُوه، ويكلِّموه - مُنكرين عليها هذا الصَّنيعَ: كيف نكلِّمُ مَن لا يزال في مهدِه طفلًا رضيعًا؟! ممَّا يبيِّنُ بلاغةَ الكناية الحاصلة في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾؛ في إظهار هذه النِّعمة.

سببُ اقترانِ قولِه تعالى: ﴿وَكَهْلًاۖ﴾ بقوله ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾:

نُزولِ عيسى عليه السلام قبلَ يومِ القيامة مُعْجِزةُ النّهاية

جعلَ اللّهُ تكليمَ عيسى عليه السلام النّاسَ بدعوتهم إلى الحقِّ وقتَ الكهولةِ مِنَ النِّعَم الظّاهرة العظيمة، ولمّا كانَ الكلامُ حينَ الكهولةِ ليسَ مِنَ الخوارقِ، أفادَ الاقترانُ أنَّ كلامَه عليه السلام في حين الطُّفولة وحين الكهولة كان على نسقٍ واحدٍ، مِن غيرِ تفاوتٍ في كلامه في هاتينِ الحالتَين، صادرًا عن كمال العقل، مع أنَّ غيرَه يَتَفاوتُ كلامُهُ فيهما تفاوُتًا بَيِّنًا، وهذه خاصّيَّةٌ شريفةٌ كانت حاصلةً له، وما حَصَلَت لأحدٍ مِنَ الأنبياء قبلَهُ ولا بَعدَهُ. وبه استُدلَّ على أنَّه سينزلُ، فإنَّهُ رُفِعَ قبلَ أن يَكتهِلَ، وفيه إشعارٌ باستمرار حياته إلى سنّ الكهولة، فأفادتِ الكلمةُ بالاقتران معنًى غيرَ المعنى الّذي ستفيدُه لو جاءت وحدَها، فليس القصدُ أنَّ كلّا منَ الكلام في المهدِ وفي الكهولةِ آيةٌ[2]. وذهبَ بعضُ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/598.

المفسّرينَ إلى أنَّ ذكرَ الكهولةِ إشعارٌ بنزول عيسى منَ السَّماء؛ لأنَّه رُفِعَ قبلَ أن يتكهّل، فيكون كلٌّ منَ الكلام في المهد وفي الكهولة آيةً[1].

نُكتةُ التَّرتيب في ذكر ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾:

الكتب السّماويّة، نحت مَنحَّى تَرقويّا في تحصيل الأنبياء للعلوم

يحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب؛ للإشارة إلى صُحُفِ إبراهيمَ وغيرِها، فيكونُ تخصيصُ التَّوراةِ والإنجيلِ بالذّكر زيادةَ تشريفٍ لهما[2]. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ الكتابِ تعليمَ الكتابةِ والخطِّ، ونكتةُ التَّرتيب فيها على هذا القول؛ أنّه ذكرَ تعلُّمَ عيسى عليه السلام الكتابَةَ والقراءة اللّتين كانتا سببًا لِتعلُّمِ الحكمةِ الّتي هيَّأته لِتعلُّمِ التَّوراة، فتهيّأَ لأن ينزِّلَ اللّهُ عليه الإنجيلَ، فجاءَ التَّرتيبُ على جهةِ التَّرقّي في تحصيل العلوم، حتّى وصلَ إلى ما اختُصَّ به الأنبياءُ عليهم السلام.

نُكتةُ المضارع وحذفِ المفعول، في جملة: ﴿تَخۡلُقُ﴾:

معجزةُ عيسى عليه السلام، عظيمة بحيث لا يحيطُ بها وصفٌ

لمّا كانَ الخطابُ في يوم القيامة، ويقتضي أن يكونَ التَّعبيرُ عن خلقِ عيسى للطَّيرِ بصيغة الماضي، كانَ مجيءُ الفعل المُضارِع ﴿تَخۡلُقُ﴾؛ للتَّعبير عَن فِعلٍ مضى هو لِتَصوير حالة الماضي وتَمثيلِهِ حاضرًا في الذِّهن، كَأنَّهُ حاضِرٌ في الخارج، لا لإفادة الاستمرار، فإنَّه فعلٌ مضى وانتهى، والكلامُ على معنى التَّذكير به، كما دلَّت عليه ﴿إِذۡ﴾ المفيدةُ للظّرفيّة الماضية، وسياقُ الكلام[3]. ويجري الكلامُ مثلُه في الأفعالِ: ﴿فَتَنفُخُ﴾، ﴿فَتَكُونُ﴾، ﴿وَتُبۡرِئُ﴾، ﴿تُخۡرِجُ﴾.

أمّا الإيجازُ فلأنَّ أصلَ الكلام: تخلُقُ منَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطَّير أو أجسامًا كهيئة الطَّير، فحُذفَ للإيجاز لدلالة المشبَّه به عليه، وللإشعار بعظمة المعجزة، بحيثُ لايحيطُ بها وصفٌ ولا لفظٌ، وإنّما دلَّ عليها فعلُ التَّخليق.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/437، والخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/205.

نُكتةُ إيثار التَّشبيهِ بالكاف في سياق الآيةِ الكريمة:

تشبيهُ ما يُخْلَقُ بِهَيئة الطَّير، لا تَشْبيهُه بالطَّير ذاتِه

لمّا كانَ التَّشبيهُ بالكاف يُفيد تَشبيهَ الصِّفات بَعضِها بِبَعض، والتَّشبيهُ بالمِثْلِ يُفيدُ تَشبيهَ الذَّواتِ بَعضِها بِبَعض، آثرَ التَّعبيرَ بكاف التَّشبيه دونَ كلمةِ (مِثل)؛ لأنَّ المرادَ التَّشبيهُ بصفةٍ واحدةٍ هي هيئةُ الطَّير، وليس تشبيهَ الّذي خلقَهُ بذات الطَّير، فلو قالَ: (مثلَ هيئةِ الطَّيرِ)، لاقتضى المماثلةَ في نفخ الرّوح، وتقدير حياتِها ورزقِها وأحوالِها وغيرِه، وليسَ هو المقصودَ، فعبَّرَ بأداة التَّشبيه الكاف؛ لِمناسبة المراد.

سرُّ التّأنيث في ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، وسببُ إيثار تخليق الطَّير دونَ غيرِه:

خلقُ الطَّيرِ أعجبُ وأظهرُ في بديع الصُّنع، لتنوّعِها وتعقيدِها

أنّثَ الضَّميرَ في المَوضعينِ في قوله سبحانه: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾؛ لِعودِه إلى معنى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى عليه السلام، وينفخُ فيها؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يخلقُ هيئةَ الطَّيرِ؛ لأنَّها ليست من خلقِه، ولا من نفخِه في شيءٍ، بل كانَ يخلقُ الهيئةَ الّتي مِنَ الطّين، والمعنى: تخلُقُ مِنَ الطّينِ هيئةً مثلَ هيئةِ الطَّيرِ، فتنفخُ في الهيئةِ، فتكونُ طيرًا بإذن اللّه. واختارَ ابنُ عَطيَّةَ أن يكونَ الضَّميرُ هنا عائدًا بدلالة الاقتضاء إلى ما تقتضيه الآيةُ ضَرورَةً، وذلك أنَّ قولَه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يقتضي صوَرًا أو أجسامًا أو أشكالًا[1].

ولمّا كانَ الإنسانُ يَدِبُّ على الأرض، كانَ خَلْقُ ما يطيرُ في الجوِّ أعجبَ عندَهُ مِنَ المخلوقاتِ الّتي تدبُّ على الأرضِ، فلم يذكُرِ اللّهُ تعالى البقرَ أو الغنمَ أو الإبلَ، بلِ اختارَ مِنَ الآياتِ أشدَّها إعجازًا وتَعْجيبًا عندَ البشر؛ كما أنَّ في الطّير من ظهور بديع الصُّنع وحُسن الخَلق ما ليسَ في غيرِه؛ لِكي تتحقَّقَ المعجزةُ في أنفُس المُخاطَبين.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/258، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

سُرعة تعاقُبِ الأفعالِ، من طَلاقَة قُدْرةِ ذي الجلالِ

دلالةُ فاء التَّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾:

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ النَّفخ للتَّخليق، وتعقيبَ تكوين الطَّير لِنفخ عيسى ﷺ؛ للإشعار بانتفاء المُهلة وسُرعة الأمر مع عِظمِه؛ للإشارة إلى أنَّ المعجزةَ في الفعل، وفي سُرعة التَّكوين والتّحويل.

مُعجزاتُ عيسى ﷺ، كانت بعلمِ الله، وعَونِه

دلالةُ الحالِ في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾، ونكتةُ تكريرِها:

لَمّا كانَ قولُه: ﴿بِإِذْنِي﴾ حالًا دلَّ على اقتران إذنه تعالى بكلِّ فعلٍ من أفعاله المذكورة؛ ليفيدَ أنّ تخليقَ عيسى لِهيئةٍ كهيئة الطَّير كانَ بعلم اللّه، وعونِه، وتمكينِه، ونفخِه فيه، وإبراءَ الأكمهِ والأبرص، وإخراجَ الموتى كذلك. كما أنّهُ لّما كانَ الحالُ قيدًا لِعاملِه أفادَ أنَّ ﴿بِإِذْنِي﴾ قيدٌ لكلِّ فعلٍ مذكورٍ في الآيةِ ممّا فعله عيسى ﷺ.

وفي تكرير الإذنِ مُضافًا إليه سبحانه إشارةٌ إلى أنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذهِ القوَّةَ دائمًا على الاطِّرادِ في كلِّ الأحوال والأوقات، بل كانت هذه الآيةُ كغيرها لا تقعُ إلا بعلم اللّه، وتيسيرِه، ومشيئتِه، فتقعُ في الوقت الّذي يأذنُ به اللّهُ[1]. كما أفادَ التَّكريرُ التَّنبيهَ على أنَّ إذنَه تعالى مقترنٌ بكلِّ معجزةٍ من هذه المعجزات؛ حتَّى لا يتسرَّبَ إلى الذِّهن أنَّ تلكَ الخوارقَ من صُنع عيسى الذّاتيِّ. ولأنَّ مقامَ الآيةِ هنا مقامُ تعداد نِعم اللّه على عيسى ﷺ المقترنةِ بتأكيد كَونِ ذلك واقعًا بقُدرة اللّه تعالى وتخليقِه لا بقُدرة عيسى وإيجاده - ناسَبَه الإسهابُ[2]، فقرنَ قولَه: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربعَ مرّاتٍ معَ كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التَّخليق أوِ النَّفخ أوِ الإبراءِ أو الإحياء. كما أنّ تكرارَ الإذنِ مضافًا إليه سبحانَه يُزيلُ شُبهةَ النَّصارى في عِلَّة اتّخاذ عيسى إلهًا؛ بأنّه يحيي الموتى، ويخلقُ منَ الطِّين طيرًا، فبيّن النَّظمُ الجليلُ أنّه لا يستطيعُ أن يفعلَ هذا من نفسِه، ولكن بإذنِ اللّه، وإرادته، وتيسيره، وقدرته.

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/56.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/407، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

سببُ تخصيص كلمةِ ﴿بِإِذۡنِي﴾، في أربعة مواضعَ منَ الآية:

ما يُنسَبُ لكمال اللـه تـعـالى، غـيرُ مـا يُنسَبُ لـخـصـوصـيّـةِ عيسى عليه السلام

خصَّ كلمةَ ﴿بِإِذۡنِي﴾ في أربعةِ مواضعَ، ولم يذكرها مع قولِه: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾، ولا مع: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾؛ لأنَّهُ في هذين الموضِعين نسبَ اللهُ تعالى الفعلَ إلى نفسِهِ في: ﴿عَلَّمۡتُكَ﴾ و﴿كَفَفۡتُ﴾، فلا يناسبُه التَّقييدُ بـ (بِإِذني)، وأمّا الأمورُ الّتي خصَّ عيسى عليه السلام بها، ونسبَها إليه، وهي أمورٌ مِن اختصاصِ الخالقِ، فقد قيّدها بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾؛ ليكونَ الحالُ مقترنًا بالفعلِ وقيدًا له كما تقدّمَ، وأنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذه القوَّةَ دائمًا، بل كانتْ هذه الآيةُ كغيرها لا تقَعُ إلّا بإذنٍ منَ اللّه، وتأييدٍ مِن لَدُنه[1]. كما أنَّ تعليمَه الكتابَ والحكمةَ، وكفَّ بني إسرائيلَ عنه، قد شاركَ المسيحَ غيرُهُ، فلا يناسبُه التّقييدُ المذكورُ[2].

سببُ عدمِ البدْء بـ (إِذۡ) عند الكلامِ عن إبرائِه الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ:

مناسبةُ ترتيبِ الألفاظِ على غِرار ترتيبِ زمن وقوعِ الأحداث

لّما كانَ الإبراءُ بمعنى التَّخليقِ عطفَ ﴿وَتُبۡرِئُ﴾ على ﴿تَخۡلُقُ﴾، ولَم يَبدَأ بـ (إذ)؛ لأنَّ الإبراءَ فيه: بثُّ الحياةِ للأعمى فيبصرُ الدُّنيا، ولِلأبرصِ فيعودُ جلدُه سليمًا فلا ينفرُ منه النّاسُ؛ ليكونَ الإبراءُ المجموعُ في العاهتينِ آيةً واحدةً في الإعجاز، فناسبَ أن يكونَ الفعلُ ﴿وَتُبۡرِئُ﴾ معطوفًا على ﴿تَخۡلُقُ﴾. ولمّا كانَ إحياءُ الصّورة منَ الطَّير أعظمَ مُعجزةً مِن إبراء الأكمه والأبرص؛ ذُكِرَ الإبراءُ بالتَّبَع لإحياء الصّورةِ، فإبراءُ الأكمَهِ والأبرَصِ من جنس شفاء المرض الّذي قد يقعُ بعضُ أفرادِه على أيدي غير الأنبياء المرسَلين، ولا سيَّما مَن يَظنُّ المرضى فيهم الصَّلاحَ والولايةَ، فلمّا كان كذلك ذُكِرَ بالتَّبع لإحياء الصّورة منَ الطَّير، ولمّا كان إحياءُ الموتى أعظمَ منه جُعِل

---

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/491.

نعمةً مستقلَّةً فقُرِنَ بـ (إِذْ)[1]. كما أنَّ معنى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ متوسّطٌ بينَ معنى التَّخليقِ ومعنى الإحياءِ؛ لِوقوعِهِ بعدَ خلق الإنسان وقبلَ موتِه، فناسبَ ترتيبُ اللَّفظِ بتوسّط الفعل بينهَما ترتيبَ زمنِ وقوعِ الأحداث.

دَلالةُ (أل) في ألفاظ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

تعريفُ الألفاظِ بدلالةِ (ألْ) على العمومِ؛ مُنبئةٌ عنِ الإعجازِ المعلومِ

(أل) جنسيَّةٌ في ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا عهديَّةٌ، بمعنى: أنّها تفيدُ إرادةَ الجنس[2]، فليسَ المرادُ فردًا معهودًا معيّنًا مِنَ الأكمهِ والأبرصِ والموتى؛ ليكونَ الإعجازُ أعمَّ وأشملَ وأظهرَ، وهو المناسبُ لسياق الآية، ومع أنّ السّياقَ لم يُبَيّن عددَ مَن أبرَأهم عيسى، ولا عددَ من أحياهم، فإنَّ المفردَ يقومُ مقام الجمع، وإن كان الأكمهُ واحدًا والأبرصُ واحدًا؛ لأنّ العِبرَة بخاصّية القُدرة الّتي منحها اللّه لعيسى عليه السلام، حتّى إنَّ المفردَ يقومُ مقامَ الجمع، ولهذا بقيت (أل) فيهما دالّةً على جنس الأكمه وجنس الأبرص، أمّا ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فجاء جمعًا لتأكيد خاصيّة الإحياء الّتي منحها اللّه لعيسى، و(أل) دالَّةٌ على الجنسيّة كذلك.

بلاغةُ الكناية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

الفعلُ المضارعُ (تُخرج)، استدعاءٌ للصّورة العجيبةِ لإخراجِ الموتَى

قال هُنا: و﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ولم يقُل: (وتحيي الموتى)، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]، فورد الكلامُ على طريقة الكناية؛ لِمناسبة المقام التَّحدُّثَ بالنِّعم، والإسهابَ فيها تعظيمًا وتفخيمًا، وليس الإخبارَ كما في سورة آل عمرانَ، والكنايةُ هنا أبلغُ مِنَ التّصريح؛ لإفادتِها تعدُّدَ النِّعم بذِكر إخراج الموتى، ولازمه، وهو إحياؤُهم، والمعنى: تُخرِجُهُم من قُبورِهِم أحياءً، فأُطلِقَ الإخراجُ، وأُريدَ به لازِمُهُ، وهو الإحياءُ؛ لأنّ المَيِّتَ وُضِعَ في القبرِ لأجلِ

---

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.

(2) رضا، تفسير المنار: 7/206.

كَونِهِ مَيِّتًا، فكان إخراجُهُ مِنَ القَبر ملزومًا لانعكاس السَّبَب الَّذي لأجله وُضِعَ في القبرِ[1]، وفي التَّعبير عنِ الإخراج بالفعل المضارع ﴿تُخۡرِجُ﴾ استدعاءٌ لتلك الصّورة العجيبة الّتي يخرج فيها الميِّت، وقد بُثَّت الرّوحُ فيه، وعادتِ الحياة إليه.

الإيجازُ في ﴿إِذۡ﴾، وبلاغةُ التّرقّي في ذكرِ النِّعم:

تعليقُ الظّرفِ الزّمانيّ بالفعل دالٌّ على معانٍ، والتّرتيبُ دالٌّ على تقديم المَنْحِ على المَنْعِ

لمّا وردت ﴿إِذۡ﴾ في ثنايا الكلام خالفت بهذا ما تدلُّ عليه حينَ تكونُ مصدَّرةً في الكلام، فأفادت ﴿إِذۡ﴾ هنا - بسبب تعليق الظَّرف بمجيئهم بالبيّنات - كفَّ بني إسرائيل عن نبيّ اللّه عيسى عليه السلام في جميع مدَّة ظهور معجزاتِهِ بينَ قومِه، منذُ طفولته إلى حينِ رفعِه[2].

وبعدَ أن ذكرَ نِعمَ المنافعِ أتْبَعها بذكرِ ما دفَعَ عنه مِن مضارَّ، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾، وهذا مِن أعظَم النِّعَم؛ وهي نِعمَة العِصمَة، وكفّ بني إسرائيل عن عيسى عليه السلام، وليُشعِرَ الكلامُ أنَّ النِّعمَ نوعانِ عطاءٌ وكفٌّ، وفي ذكر كلٍّ منهما امتنانٌ على عيسى بالتّأييد والتَّعليم والعصمة منَ الأذى، وفي ذكرها جميعِها تنبيهُ النّصارى وإشعارُهم بقدرة الإله، وعبوديّة المسيح.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

البيّناتُ يُرادُ بها الآياتُ المذكورةُ، أو يُرادُ بها جنسُ البيّناتِ على الإطلاقِ

يَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ من لفظ (البيّنات) هذه البَيِّناتِ الَّتي تقدَّمَ ذِكرُها، وعلى هذا التَّقدير فـ (أل) للعهد. ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ منه جِنسَ البَيِّناتِ[3]، وهو الظّاهرُ لمناسبة السّياق تعميمَ النِّعمِ واستيعابَها.

سِرُّ التّعريفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

بيانُ قسوة قلوبِ الّذين كفروا، رُغمَ ما جاءهم من آياتٍ ومُعجزاتٍ

فيه بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ﴾، لإحضارِ صِلتِهِ: ﴿كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾؛ فأشعرتِ الصِّلةُ أنَّ كفرَهم، هو سببُ قولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وأنّهم كاذبون في قولهم، ويمكنُ أن تُشعِرَ الصِّلةُ بتعداد النِّعم أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ، فطعنُ الكفّار فيه يدلُّ على علوِّ شأنه وسُموِّ مكانته[1]. ولا يخفى بأنَّ التّعريفَ باسم الموصول لِذَمِّهم، بما في حيّز الصِّلة، ولتكونَ وصلَةً إلى مَقول القول؛ تنبيهًا على ما فيه من تشنيعٍ عليهم؛ لقسوة قلوبِهم بعد ما جاءهم من آياتٍ بيّناتٍ، ومعجزاتٍ ظاهراتٍ.

بديعُ حُسنِ الانتقالِ، من حالٍ إلى حالٍ:

التّنويعُ بين المعنى الظّاهر والضِّمْنيّ بالمِنّة على المؤمنين، هو تقريعٌ للكافرين

سبق أنَّ اللّه سبحانه امتنَّ على عيسى بنعمة التّأييد، والتّعليم، والعصمة؛ وذلك بكفِّ بني إسرائيل عنه، حين جاءهم بالآياتِ البيّناتِ، والمُعجزاتِ الظّاهراتِ، فتربّصوا به شرًّا متعلّلين بأنّه يخدعُ أبصارَهم كما في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾. وفي النّصّ على الّذين كفروا من بني إسرائيل تقريعٌ وذمٌّ ظاهرٌ تخلَّص منه إلى ثناءٍ وتكريمٍ مُتَضَمَّنٍ للمؤمنين المُصدِّقين بعيسى[2]، وهم الحواريّون كما يدلُّ قولُه بعده: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾. ومِن لطيفِ الكلام وبديع التَّعبير مجيءُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في الآية، فوضعَ الضَّميرَ (هم) لِذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة، ففيه معنى التَّأكيد؛ لِتكرار (الكافرين) اسمًا ظاهرًا وضميرًا عائدًا إليه، فـ (مِن) بيانيَّةٌ، وليست تبعيضيَّةً[3]. كما أفادَ الجارُّ والمجرورُ حُسْنَ التّخلُّص من تقريع الكافرين وتوبيخهم إلى تكريم المُصدّقين بنبيّ اللّه عيسى ، فلمّا كانت ﴿مِنۡهُمۡ﴾ تقييدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

للصِّلة أفادت أنَّ غيرَ الكافرينَ لم ينسبوهُ إلى السِّحر، ولم ينسبهُ إلى السِّحر إلّا الكافرونَ.

سببُ الاقتصارِ على دعوَى السِّحرِ، دونَ سِواها:

الرّغبةُ في قتل عيسَى عليه السلام؛ بحجّةِ أنّ السّحرَ محرّمٌ في شريعة اليهودِ

اقتُصِرَ مِن دَعاوي تكذيبِهِم إيّاهُ على قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّ ذلك الادِّعاءَ قَصَدوا به التَّوَسُّلَ إلى قَتله؛ لأنَّ حُكمَ السّاحِر في شريعة اليَهود القَتلُ، إذِ السِّحرُ عِندَهُم كُفرٌ[1]، وهذا شأنُهُم وخَصلَةٌ فيهم لم تَنسلِخ عنهم أبدًا، فكلّما أرادوا إفسادًا وقتلًا قدَّموا له الذّرائعَ الباطِلةَ؛ لتسويغ قتلِهم وإفسادِهم.

بلاغةُ أسلوبِ القصْرِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

البيّناتُ كثيرةٌ، والإصْرارُ على التّكذيب كَبيرةٌ تَوَهُّمًا وزَيْغًا

لّما كانَ أسلوبُ القصرِ يُسلَكُ فيه الكلامُ مع مُخاطَبٍ، يَعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّهُ مخطئٌ، ويُصرُّ على الخطأ[2]، أَفادَ قولُ الكافرين منهم على طريق القصر أنّهم كانوا يعتقدونَ كذِبَ عيسى عليه السلام فيما جاءَهم به مِنَ البيّناتِ، ولّما كانتِ البيّناتُ كثيرةً فقد كانوا يعتقدونَ إصرارَهُ على الكذب في كلِّ معجزةٍ واضحةٍ يجيءُ بها، وربّما كانتِ الآياتُ البيّناتُ الّتي جاءهم بها عيسى تدفعُهم إلى المبالغة في الاتِّهام، وإيهامِ العوامِّ بصدقِهم في قولِهم عن عيسى ذلك القولَ الباطلَ، ودأبُهم في الكذب وتأكيدُه بأسلوب القصر معروفٌ، كقولِهم لّما نُهوا عنِ الإفساد في الأرض: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

وعبَّر باسم الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لِتمييز المُشارِ إليه، وهي المعجزاتُ الواضحاتُ أكملَ تمييزٍ؛ ليُخبِرَ الّذين كفروا عنها بأنّها سحرٌ، وأفادَ استعمالُ اسم الإشارة القريب أنّهم قصدوا تحقيرَ المعجزات الواضحات استهزاءً منهم بها، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26]، وقولُه: ﴿أَهَٰذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

﴿ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، وإذا كانَ المقصودُ مِن ﴿هَٰذَآ﴾ عيسى عليه السلام، كما تدلُّ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ[1]: ﴿سَاحِرٌ﴾، دلَّ اسمُ الإشارة على أنّهم أرادوا تمييزَ عيسى عليه السلام أكملَ تمييزٍ؛ ليكون الحكمُ عليه واضحًا لأتباعِهم كذلكَ، ولأنَّهم قصدوا باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ تحقيرَ سيّدنا عيسى عليه السلام.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

الحرفُ (إِنْ)، أبلغُ في النّفيِ مِن (ما)؛ للمبالغة في الإيهامِ بِصِدْقِهم

قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ آثَرَ فيه إيراد ﴿إِنْ﴾ النّافية، فلم يقُل: (ما هذا إلّا سحرٌ مبينٌ)؛ لأنّها أكثرُ تأكيدًا مِن (ما)؛ لتفيدَ المبالغةَ في الحصرِ؛ لبيانِ عنادهم وشدّة مكابرتِهم، أو للرّغبةِ في الإيهام بصدقِهم، وعادةً ما يلجأ الكذّابُ إلى تأكيد كذبِه بوسائلَ متعدّدةٍ.

مناسبةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّبِينٌ﴾ في السّياق:

عُتوُّ الكافرين وتجهيلُ أتباعِهم، مُشعِرٌ بسُوءِ حالهم

وصفَ الّذين كفروا من قومِ عيسى عليه السلام السّحرَ بالمُبين؛ للتّعريض بالبيّناتِ الّتي جاءَ بها عيسى عليه السلام، فالاشتقاقُ من نفس المادَّة اللُّغويَّة، فأشعرَ التّعبيرُ بالوصفِ بِعتوِّهم في كفرِهم، وبتجهيلِ أتباعهم، فكأنّهم يقولون: ما جئتَ بهِ ليسَ منَ المعجزاتِ الواضحاتِ، بل هو منَ السِّحرِ الواضحِ، فأفادتِ الصِّفةُ التَّعجيبَ من قولِهم، وغُلوِّهم في كذبِهم وخداعِهم، وتَمويهِهم على قومِهم.

سببُ مقابلةِ لفظِ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، بالمفرد ﴿هَٰذَآ﴾:

مُكابرةُ الكافرين في جَعْلِ المعجزاتِ كلِّها شيئًا واحدًا

لّما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على صيغة الجمع؛ كانَ مقتضى ردِّ الّذينَ كفروا أن يكونَ بالجمع كذلك، لكنَّهُ جاءَ بصيغة المفرد، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للإشارة إلى مكابرتِهم وطعنِهم في المعجزات الواضحات المتنوِّعة، فجعلوها كلَّها شيئًا

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

واحدًا، ولها وصفٌ واحدٌ، هو السِّحرُ. وإذا كان اسمُ الإشارة دالًّا على عيسى عليه السلام، فالمعنى وصفُ البيِّناتِ بالسِّحر؛ لأنَّ ما يصدرُ منَ السّاحر هو السِّحرُ، فبدَلًا من أن يقولوا هذه المعجزاتُ سحرٌ، اختصروا الأمرَ فوصفوا عيسى عليه السلام بالسِّحر، كما توضِّحه قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَف.

توجيهُ قراءتَيْ ﴿سِحۡرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾:

تنوّعُ القراءاتِ مَلْمَحٌ للثّراء، ومَسْلَكٌ للتّأويلِ المُفيدِ

أولاً: اختلفَ القرّاءُ في قراءة ﴿سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، فقرأ الجمهورُ ﴿سِحۡرٌ﴾ بِغَير ألف، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿سَٰحِرٌ﴾ بالألف[1]، والرّسمُ يَحتملُ القراءتَين. فعلى قراءة الجمهور: يَحتمل اسمُ الإشارة أن يكونَ عائدًا إلى المعجزات الخارقة الواضحة؛ والمعنى: ما هذا الّذي جاءَ به منَ الآيات الخوارِق إلّا سِحرٌ وتمويهٌ وتخييلٌ لا حقيقةَ له، ويحتمل أن يكونَ عائدًا إلى عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ جَعَلوه نفسَ السِّحرِ على المبالغة في الإخبار بالمصدر عنِ الذّات، أو على حذف مضافٍ؛ أي: إلاَّ ذو سِحرٍ. وعلى قراءة ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالأَلِف بِصيغَةِ اسم الفاعِلِ - يكون اسمُ الإشارة عائدًا إلى عيسى؛ والمعنى: يُبيّنُ بأفعالِه، وما يأتي به من هذه الأمور العجيبة عن نفسه أنَّهُ ساحرٌ لا نبيٌّ صادقٌ. فمَن قرأَ ﴿سِحۡرٌ﴾ جعلَ الإشارةَ إلى البيِّنات والحديث وما جاءَ به، ومَن قرأَ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالأَلِف بِصيغَةِ اسم الفاعِلِ - جعلَ الإشارةَ إلى الشَّخص، إذ هو ذو سحرٍ عندهم، وهذا مطَّردٌ في القرآن كلِّه حيثما وردَ هذا الخلافُ، وهو في أوّل سورة يونس، وفي سورتي هود والصّفّ[2].

السِّحرُ مِن أكبَرِ الجرائمِ في كُلِّ العُصورِ، ولا يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أتى

بلاغةُ قراءتَيْ: ﴿سِحۡرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾ في التَّعبيرِ عنِ المعنى:

القراءتان مُتّفقتانِ في المعنى غيرُ مختلفتينِ مآلًا؛ لاقتضاءِ لازم

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/216، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، ورضا، تفسير المنار: 7/207.

معنى القراءة الأولى معنى القراءة الثّانية، ولازم معنى القراءةِ الثّانيةِ معنى القراءةِ الأولى، وذلك أنَّ كلَّ مَن كانَ موصوفًا بفعل السِّحر، فهو موصوفٌ بأنَّهُ ساحرٌ، ومَن كانَ موصوفًا بأنَّهُ ساحرٌ، فإنَّهُ موصوفٌ بفعل السِّحر. وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ اليَهودَ قالوا لعيسى كلتا المقالَتَين، بأن تكونَ صادرةً من جماعتين منهم على التَّفريق، أو أن تكون على اختلاف جماعاتِ القائِلينَ أو باختلاف أوقات القَول[1].

وعادةً ما يكونُ الاتِّهامُ في المرّة الثّانية أوكدَ منه في المرّة الأولى، وهذا يعني أنَّ قراءةَ ﴿سِحۡرٌ﴾ تدلُّ على موقفٍ واتّهامٍ سابقٍ، وأنّ قراءةَ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِفِ بِصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ - تدلُّ على موقفٍ واتِّهامٍ لاحقٍ أوكدَ وأقوى في التّكذيب والاتِّهام.

ثانيًا: قرأَ الجمهورُ ﴿طَيۡرًا﴾ بصيغة اسم الجمع، وقرأَ نافع وأبو جعفر ويعقوبُ ﴿طَيۡرًا﴾ بالمفرد[2]. والمعنى على قراءة الإفراد: تُقَدِّرُ هَيئَةً كهيئة الطَّير فَتَكونُ الهَيئَةُ طائِرًا؛ والمعنى: كُلُّ هَيئَةٍ تُقَدِّرُها تَكونُ واحدًا مِنَ الطَّير؛ أي: إنَّه كان يَخْلُقُ واحدًا ثمَّ واحدًا. والمعنى على قراءة الجمهورِ باعتبار تَعَدُّدِ ما يُقَدِّرُهُ من هَيئاتٍ كهيئة الطّير. والمعنى على القراءتينِ واحدٌ باعتبار المآل، وهو تعدّدُ الطَّير وكثرتُه؛ للإشارة إلى تكثير المُعجزات البيِّنات، وقد وردَ عن بعضِ اللُّغويّينَ أنَّ الطيرَ يقُالُ للجمع وللمفرد[3]، فتكون القراءتانِ على معنىً واحدٍ، هو الإفرادُ، والمرادُ تعدّدُ الأفراد وكثرتُها.

التّشابهُ اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِي﴾، وقوله في مواضعَ أُخرى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

الإِذْنُ مُؤذِنٌ بأنّ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ لا وجودَ له ولا بقاءَ

أوّلًا: ذكَر ﴿بِإِذۡنِي﴾ هنا في المَواضِعِ الأربعة، وفي سورة آل عمران:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/240.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/258.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مرّتين، فقال تعالى: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]، والسَّببُ هو الاعتناءُ بتحقيق الحقّ، ببيان أنَّ تلكَ الخوارقَ لَيسَتْ مِن قِبَلِ عيسى ﵇، بل هي مِن عند اللّه سُبحانَه قد أظهرَها على يديهِ معجزةً له ونعمةً خصَّه بها، فقيَّدَ فعلَ كلِّ مرحلةٍ من مراحل الإعجاز بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾، ومنه تقديرُ هيئة الطّيرِ قبلَ نفخ الرّوح؛ تنبيهًا إلى أنّه لا قدرةَ لعيسى ﵇ على فعلِ أيِّ معجزة من دونِ إذنه تعالى.

وفي التَّكرار توبيخٌ للكافرين يومَ القيامة، وتنبيهٌ لَمَن هم في الدّنيا، فناسبَه الإطنابُ والإيجازُ. وأمّا ذكرُه في سورة آلِ عِمرانَ مرّتين فلأنَّ ذلك موضعُ الإخبار، وليس في سياق تَعدادِ النِّعمِ(1).

التّشابهُ بين إضافةِ (الإذن) إلى الضّمير في: ﴿بِإِذۡنِي﴾، وإلى الاسم الظّاهر في ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

ثانيًا: عبَّر هنا في آية المائدة بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ مُضافًا إلى ضمير المتكلِّم، وهو اللّه ﷻ، وورد في سورة آلِ عمرانَ مُضافًا إلى اسمِه الجليلِ سبحانه؛ فقال: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]؛ لأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ في سياق الإخبار، فَوَردتِ الإضافةُ إلى الاسم الظّاهر (اللّه) لمناسبة السّياق، ولو جاءَ بالإضافة إلى ضمير المتكلِّم بَطَلَ المعنى؛ لأنَّ المتكلِّمَ هو عيسى ﵇. وفي مجيءِ الاسم الظّاهر تذكيرٌ بألوهيَّة اللّه تعالى في سياق الإخبار، وأمّا آيةُ المائدةِ هنا فهي في سياق نداء اللّه تعالى لعيسى ﵇ في مقام حضور الخلق أجمعين؛ لمناسبةِ إسماعِ الحاضرين، وتوبيخِ الّذينَ كفروا من قوم عيسى ﵇، وتعنيفِهم، فأضافهُ إلى ياء المتكلّم، والتّوبيخُ في سياق حضور المُخاطَبينَ يومَ القيامة أشدُّ تبكيتًا وتعنيفًا منه في سياق الغَيبة، فناسبَ كلُّ لفظٍ سياقَهُ.

التّشابهُ اللّفظيُّ، مع تذكيرِ الضّمير في: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾، وتأنيثِهِ في: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾:

ثالثًا: سببُ تذكيرِ الضَّمير في سورةِ آل عمران: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ [آل عمران: 49]، وتأنيثِهِ في سورة المائدة فقال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا﴾؛ أنَّه لمّا كانت آيةُ آلِ عمرانَ في

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/85، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

سياق الإخبار ذكرَ تخليقَ الطَّير على الإيجاز، فجعلَ تخليقَ هيئةِ الطَّيرِ مِنَ الطّين، ونفْخَ الرّوحِ فيه نعمةً واحدةً، إذ جاءَ قولُه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مرّةً واحدةً في مقابل هذهِ النِّعمةِ، فجاءَ الضَّمير (فيه) مذكَّرًا؛ لِرجوعِه إلى الطَّير. وفي آية المائدة جعلَ تخليقَ الطّينِ كهيئة الطَّير معجزةً ونعمةً، ونفخَ الرّوحِ في الهيئةِ معجزةً ونعمةً أخرى، فتعدَّدَ ذِكرُ النِّعَمِ؛ لأنَّ آيات المائدة بُنِيَت على توبيخ النّصارَى، وتعنيفِهم في مقالِهم في عيسى عليه السلام، فجاء الضَّمير مؤنَّثًا لِعَودِه إلى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى، وينفخُ فيها كما تقدَّمَ[1]، فناسب أن يكون الضّميرُ مؤنَّثًا لجعلِه تقديرَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطّيرِ معجزةً قائمةً بنفسها ونعمةً أخرى، فلمّا اختلَفَ القصدانِ اختلفتِ العبارتانِ. كما أنَّ اللّه تعالى قال في أوَّل الآية: ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، فكانَ كلُّ معجزةٍ مذكورةٍ نعمةً، وهي على التَّأنيث، فناسبَ التَّأنيث على اعتبار أنَّ التّخليقَ بإذن اللّه نعمةٌ مِنَ اللّه تعالى وذكرَ بعضُ العلماءِ وجوهًا في مناسبة تذكيرِ الضَّمير في آية آل عمران وتأنيثِه في آية المائدة[2]، والنِّكاتُ المذكورةُ في هذه المناسبة لاتتقاطعُ، وكلُّها مقبولةٌ على الانفراد وعلى المجموع.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المَهْدُ) و(الصِّبا):

المَـهْـدُ فِـراشُ الصّبيِّ الرّضيعِ، ويُـطْـلَـقُ مجـازًا على زَمَنِ الصِّبا

الصّبيُّ: من لم يُفطَم بَعدُ[3]. ومَهدُ الصَّبيّ: موضعُه الّذي يُهيَّأ له، ويوَطَّأ؛ لينام فيه وقتَ تربيته[4]، ثمّ أُطلق المهدُ على زمن الصِّبا على سبيل المجاز، وقد نُسي المجازُ، وصار المهدُ هو الصِّبا بحسب العُرف، لكن بقي للمجاز إيحاؤُه ودلالتُه على الغفلة، والضّعف، وعدم القُدرة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/84.
(3) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).

على الكلام، ومن هذا يتبيّن أنَّ التَّعبيرَ بالمهد أوقعُ في الدّلالة على مُعجزة اللّه لمريمَ؛ إذ أَنْطَق لها ابنَها، وهو في هذه الحالة؛ ليُبرِّئَ ساحتَها ممّا اتّهمَها به قومُها - عندما جاءت تحملُ مولودَها من مكانٍ بعيد - في قولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27].

(الإذْنُ) و(العلمُ):

في كلٍّ منَ الإذنِ والعلم إعلامٌ بشيءٍ ما، وخُصَّ الإذنُ بمعنى المشيئةِ مع التَّيسير، يقولُ الرّاغب: "بين العلم والإذنِ فرقٌ، فإنَّ الإذنَ أَخصُّ، ولا يكاد يُستعَملُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به"[1].

الإذْنُ والعِلْم كلاهما إعلامٌ بِشَيْءٍ، والإذنُ أَخَصُّ مِنَ العلمِ

ومِن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالإذن هنا دونَ العلمِ، فإنَّ اللّه سبحانه قدَّر ما شاء جريانَه على يدِ عيسى مع تيسيره.

(الأكْمَهُ) و(الأعمَى):

يجتمعان في مُطلَق فقدِ البصرِ، ويختصُّ الأكمهُ بالّذي وُلد مطموسَ العين بحسب الأصل فيه، فإيثارُ التَّعبير به في الآية أوقعُ في الدَّلالة على المعجزة؛ إذ ردُّ بصر مَن كان فاقدًا له بالكلّيَّة أصعبُ وأعزُّ من إرجاعِ بَصَر مَن فَقدَه لعارضٍ حدَثَ له[2].

الأكْمَهُ والأعْمَى كلاهما لا يُبصِران، ويَختصُّ الأكْمَهُ بأنّه مَطموسُ العَيْنَيْن

(الكفُّ) و(المَنع):

الكفُّ بمعنى المنعِ، ويزيد عنه معنى الدَّفع بقوّة، وقد اكتسب هذه الخُصوصيّةَ من أصل معناه، فأصلُه كفُّ الإنسان، يُقال: كفَفتُه: أصبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها[3]، فكان استعمالُ الكفِّ في الدّفع مجازًا مُرسَلاً بعلاقة الآليّة، ونُسي هذا المجازُ، وصار الكفُّ حقيقةً في الدّفع بالكفِّ وغيره بحسب العُرف. وفي الكفِّ معنى آخر ليس في المنع؛ هو امتناعُ موالاةِ الفعلِ[4].

الكفُّ يعني المَنْعَ بقوّةٍ وشدّةٍ، ويكونُ باليَدِ وغَيْرِها

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(2) الرّاغب، المفردات: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفف).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 112.

ومن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالفعل ﴿كَفَفۡتُ﴾ لما فيه منَ الدّفع بقوّة، ومنعِ موالاة الفعل وتكراره، وهذا يشيرُ إلى أنَّ بني إسرائيل كانت تتوالى وتتكرّرُ منهم محاولاتُ أذى عيسى عليه السلام؛ ممّا يدلُّ على إمعانِهم في الكيد، وكانَ اللّه سبحانه يكفُّ أذاهم أوّلاً بأوّل، ويدفعُ عنه بقوّةٍ منه سبحانه.

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّه تكذيبَ الّذين كفروا من قوم عيسى عليه السلام في نهاية الآية السّابقة، قابلَه بتصديق الحَواريّين وإيمانِهم على سبيل التّسرية، وجاءتِ الآيةُ عطفًا على ما سبقَ من جُملة تَعداد النِّعَم على عيسى عليه السلام بأن جَعلَ له أتباعًا يُصَدِّقونَهُ، ويَعملونَ بما جاء به. وفيه إشارةٌ إلى صاحبِ الرّسالة الّذي يتلقّى هذا الوحَي محمّد صلى الله عليه وسلم بأنّ انقسامَ النّاس مِن دعوته إلى مؤمنين وكافرين هو شأنُ سائرِ الأقوام مع رُسُلِهم(1).

العلاقةُ بين كَفِّ الكَفَرَة عنِ المسيحِ، واصْطِفائِه لِلْحواريّين مِنَ المؤمنين

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾: يدلُّ معنى الوحي على إعلام في إشارةٍ خفيَّةٍ وسريعةٍ، بمعنى: إيقاعِ المعنى في القلب بطريقةٍ خفيَّةٍ، ويشمل الوَحيَ بالكلام المباشر، وبواسطة الرُّسُل، وبالإلهام، وبالإشارة، والإفهام، وقد يكونُ بالخير، وقد يكونُ بالشّرّ، بأن يكونَ بمعنى الوسوسة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، والإسرارِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112].

ومعنى ﴿أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ في الآية: ألهمتُهم، أو أمرتُهم على ألسنَة الرُّسُل(2).

2) ﴿ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جَمعُ حَواريٍّ، ومعناه في أصل اللُّغة: الأبيضُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/408.
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/101، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/532.

النَّقيُّ اللَّونِ، ومنه قولهم: حَوَّرَتُ الثّيابَ؛ أي: بَيَّضتُها، فالحواريُّ مَن خَلُصَ لك، وأخلَصَ سرًّا وجهرًا في مودَّتِك، والحواريّونَ: أنصارُ عيسى عليه السلام، وخاصّةُ أَصحابه[1].

3) ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾: يدُلُّ معنى الكلمة على حُضورٍ وعِلم وإعلام. والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن علم حصلَ بمشاهدة بصرٍ أو بصيرةٍ، فيشتركُ فيها اللّسانُ بالقول، والعقلُ بالعلم، والبصرُ أو البصيرةُ بالمشاهدة، فهي إخبار بما عَلِمه، ممّا رآهُ إذ حَضَر. وشَهِدَ الشّاهدُ: بيّنَ ما يعلمُ وأظهرَهُ[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

نُصرةُ اللهِ لأنبيائه بالأتباعِ الصَّادقين، مِنَ الحواريّين المُخلَصِين

واذكر - يا عيسى - نعمةً أخرى عظيمةً مِن نِعمي عليكَ إذ يسَّرتُ لكَ أتباعًا وأعوانًا؛ حينَ ألهمتُ الحَواريّينَ أنصارَكَ وخلصاءَكَ، أو أمرتُهم بالوحي الّذي جاءكَ مِن عند اللّه؛ أن يُؤمِنوا بي، ويصدِّقوا بوحدانيتي، ويؤمنوا بنبوَّتِكَ ورسالتِكَ، فقالوا: صدَّقنا يا ربَّنا، واشهد علينا؛ بأنّنا خاضِعون لك، مستسلمونَ لأمرِك[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ و﴿أَنۡ﴾ على التّفسيريّةِ والمصدريّةِ:

تقريرُ الإيمانِ بوَحدانيّة الله تعالى وبرسالةِ عيسَى عليه السلام

يجري فيها الكلامُ كما ذُكرَ في الآية السّابقة، فتفيدُ التَّذكيرَ بأمرٍ ذي شأنٍ عظيم وغريبٍ، وهو تأكيدُ وحدانية اللّه تعالى، كركيزَةٍ من أهمّ ركائز رسالة عيسى عليه السلام. وتَحتملُ ﴿أَنۡ﴾ أن تكونَ تَفسيريَّةً، وأن تكونَ مصدريَّةً[4]؛ أمّا كونُها تفسيريَّةً: فإنَّه لمّا كانَ الإيحاءُ فيه معنى القول، وكان فيه إبهامٌ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وبيانٍ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حَوَرَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/218، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/408، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/104.

أردفهُ بـ ﴿أَنْ﴾ التَّفسيريَّةِ؛ لِبيان عِظَم الإيحاء وأهمّيّتِه، فجاءَ به مجمَلًا ثمَّ فسّره، فكأنَّه تكرَّر مرّتين؛ أي: يكونُ الإيحاءُ على معنى أمرتُهم بالإيمان بي وبرسولي؛ ليوافقَ مفسِّره، ففيه معنى التَّأكيد والتَّقرير للأمر بالإيمان بوحدانيَّة اللّه وبرسالة عيسى ﷺ. وتحتملُ أن تكونَ مَصدَريَّةً، والمعنى: وأوحيتُ إلى الحواريّين الإيمانَ بي، وبرسولي.

ومع أنّ الظّاهرَ هو ترجيحُ كونِها تفسيريّةً؛ لِما يترتّبُ على هذا من مجيءِ المعنى في صورتَين: الإجمال والتّفصيل؛ فإنَّ الاحتمالَين مقصودان على السّواء؛ مراعاةً لتعدُّد أفهامِ المُخاطَبين، ومستوى إدراكِهم، واختلافِ طبقاتِهم.

سِرُّ تعدُّدِ المُتعلَّقِ، في: ﴿ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾:

الإيمانُ بالله وبرسوله، هو لُبّ الإيمان، وتَحْقيقُ مَطْلوبِ الله تعالى

يدلُّ المتعلَّقُ الأوّلُ ﴿بِي﴾ على الإيمان باللّه الواحد وبصفاته العليا، وجاء بالتَّكلُّم لمناسبة كلام ربِّ العزّة على الإيمان بذاته، وعطفَ عليه رسولَه، مع إعادة حرف الجرّ لتأكيد المُغايرة، وأوردَ ذكرَ عيسى ﷺ بعنوان الرِّسالة؛ إيذانًا بأنَّ الإيمان به يكونُ بعنوانِ كونِهِ رسولًا مِن عند اللّه، فلا تُخرجوه عن حيِّزه حطّاً ولا رَفعاً[1]. كما أنَّ الإضافةَ هنا على التَّشريف والتَّكريم، ولاسيّما أنَّ السّياقَ في بيانِ تَعدادِ النِّعمِ، وتوبيخِ الكافرين من قوم عيسى ﷺ.

بلاغةُ الاستئنافِ البَيانيِّ، وحذفِ المتعلَّقِ، في: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾:

دَوْرُ السّياقِ في تحريكِ أشواقِ المُسْتَمِع، وتأثيرُ الحَذْفِ في تَكثيرِ المعنى

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ عن سببٍ عامٍّ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من فحوى الكلام[2]، فإنَّه لمّا كانَ الإيحاءُ بطلب الإيمان باللّه وبرسوله عيسى للحَواريّين اقتضى سؤالًا؛ لِتحريك السّامع بأن يسألَ، فماذا قالَ الحَواريّون؟ وماذا أجابوا؟، فقيلَ: قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96.

فهو جوابُ سؤالٍ مقدَّر، وليس منَ البلاغة أن يَعرَى الكلامُ عنِ الجواب. وفيه منَ الفوائد البلاغيَّة تكثيرُ المعنى بتقليل اللَّفظ.

وكذلك حذفُ المُتعلَّق فيَحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى عموم المُتعلَّق؛ أي: آمنّا بكلِّ ما أمرتَنا به منَ الإيمان بك وبرسولك وعلى وفْقِ ما أمرتَ، وهذا هو الظّاهرُ لِمناسبتِهِ قولَه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، فحذفَ متعلّقَ الإيمانِ لدلالة السّياق عليه. ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى الاقتصار؛ أي: صارَ الإيمانُ سجيَّةً لهم؛ مبالغةً في امتثالِهم للأمر.

تتابعُ التَّأكيدِ، في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾:

بـوادرُ الـشّـكِّ تـقـتـضِي تـتـابُعَ التّأكيدِ، لإزالّتِه ودَحْضِه

أكَّد الحَواريّون إسلامَهم وانقيادَهم بتأكيدَين، وكأنَّ بوادرَ الشّكِّ في إيمانِهم هي الَّتي اقتضت تتابُعَ التَّأكيد، فجاءَ الكلامُ مؤكَّدًا بتأكيدَين: بـ (أنَّ) المؤكِّدة لمضمون الجملة، وبمجيءِ الكلامِ بطريقة الجملة الاسميَّة، فأفادتِ الصّياغةُ تأكيدَ إسلامِهم.

إيثارُ تقديمِ الإيمانِ على الإسلامِ:

الإيـمـانُ بالقلبِ شُعورٌ وِجدانيٌّ، مُقدَّمٌ عـلى الانـقـيـادِ الظّاهريِّ

في قوله: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ قدَّمَ الإيمانَ على الإسلام؛ ليُعلَمَ أنَّ الإيمانَ الّذي يكونُ في القلب مقدَّمٌ على الانقياد بالظّاهر، ولأنَّ الإيمانَ صِفةُ القلب، والإسلامَ عبارةٌ عن الانقياد والخُضوع في الظّاهِر؛ يعني: آمِنوا بقلوبِكم، وانقادوا بظواهِركم[1]. وقد طلبوا إلى عيسى عليه السلام أن يشهدَ على إسلامهم دون إيمانهم؛ لأنَّ الإيمانَ محلُّه القلبُ، وإنّما يُستدلُّ عليه بالأعمال والأقوال الظّاهرة الّتي تدخلُ في باب الإسلام؛

لأنّ الإيمانَ في القلب، وهم يعلمون أنَّه لا يَطَّلعُ على ما في القلوب إلّا اللّهُ، ولمّا كانَ الانقيادُ والاستسلامُ من أعمال الظّاهر، وهو

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/461، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/73.

مُتَيَسِّرٌ لكلِّ إنسان؛ اقترنَ إثباتُهُ بإشهادهم عيسى - عليه السلام - عليه، فهذه الصّياغةُ في: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ تبيِّنُ أنَّ الحَواريّين كانوا حديثي عهدٍ بإيمانٍ، وقد ظهر هذا جليًّا في طلبِهم آيةً من عيسى تشهدُ له وهي: ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: 114]، وإذا رأيتَ من جماعةٍ ما اهتمامًا بإبرازِ أعمال الظّاهر، وإشهادِ النّاس على صلاحِهم، فاعلم أنّ ثمّة مشكلةً في بواطنهم.

التّشابهُ اللّفظيُّ:

في المائدة: المُتَكَلِّمُ هو الله جل جلاله، وفي آل عِمْرانَ إخْبارٌ عَنْ قَوْلِ عيسَى عليه السلام

جاء في هذه الآية حذفُ متعلّقِ الإيمان، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52]، وبيانُه أنّه في سورة آل عمران كان الإخبارُ عن قول عيسى في معرضِ النّصِّ على الاسم الجليل لتقرير الإيمان: اللّه، كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، ففيه إخبارٌ عنِ اللّه بصيغة الاسم الظّاهر، وفي سورة المائدة ورد الكلامُ في سياقِ الخطاب: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾، فناسبَهُ حذفُ الاسم الظّاهر؛ لمناسبتِه للخطاب[1]، فحينما ذُكِر اسمُ اللّه في الطّلب كان الجوابُ على شاكلته بذكر اسم اللّه كما في آل عمران، وحيثما طوي في الطّلب كان الجوابُ مثلُه كما في سورة المائدة؛ ليُشاكلَ الجوابُ الطّلبَ، وهي مواقفُ متعدّدةٌ لعيسى عليه السلام مع أنصاره. والظّاهرُ أنَّ الموقفَ الأوّلَ سجّلته سورةُ آل عمران، وناسبه إظهارُ اسم اللّه، والموقفُ الثّاني في سورة المائدة، مع تقارب المواقف، فالسّورتان مدنيّتان، ولكنّ آل عمران سابقةٌ في النُّزول وفي ترتيب المصحف على المائدة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/408.

في المائدة تفصيلٌ في ذِكْر المتَعلّق، فناسَبَهُ وُرودُ (أنّنا) على أوفى الحالَيْن

وجاء في سورة آل عمرانَ في الآية نفسِها: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52] بحذف النّون؛ لاجتماع الأمثال، وهنا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ بإثباتها، وهذا هو الأصلُ، والسَّبب: هو مناسبةُ التَّفصيل لإثباتِ النّون والإيجازِ لِحذفِها، فإنَّ آيةَ المائدةِ وردَ فيها التَّفصيلُ فيما يجبُ الإيمانُ به، وذلك قولُه: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾، فجاء على أتمِّ عبارةٍ في المطلوب وأوفاها، فناسبَ ذلك ورودُ ﴿بِأَنَّنَا﴾ على أوفى الحالَين، وهو الورودُ على الأصل، ولمّا لم يقع إفصاحٌ بهذا التَّفصيل في آية آل عمران إذ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، فلم يقع هنا (وبرسولِه) إيجازًا؛ للعلم به بشهادة السّياق ناسبَ هذا الإيجاز، كما ناسبَ الإتمامَ في آيةِ المائدةِ الإتمامُ فقيل هنا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، فجاء كلٌّ على ما يجبُ، ولو قُدِّرَ ورودُ العكسِ لَما ناسبَ(1).

وأيضًا لمّا كانت (أنّا) أَقَلَّ تأكيدًا مِن (أنّنا)؛ لِأنَّ المحذوفَ إحدى نونَي (إنَّ) المشدّدة، وكانت آيةُ آلِ عمرانَ قد وردت في مقام الإخبار عنِ الحواريّين أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، فلم تكن حاجةٌ لتقرير تأكيد انقيادهم، فليسَ المقامُ مقامَ إنكارٍ لاقتضاء التّأكيد. ولمّا كانت آيةُ المائدة قد أعقبَها طلبُ الحواريّينَ تنزيلَ مائدةٍ منَ السَّماءِ، وهو كلامٌ لا يردُ عن معظِّمينَ للهِ منقادينَ لِأمرِهِ، ناسبَهُ أن يأتيَ بإثبات النّون، فقالوا: (أَنَّنا) الّذي يفيدُ تقريرَ تأكيدِهم انقيادَهم لأمر الله؛ للتَّعجيب مِن حالِهم، فكيفَ يؤكّدون انقيادَهم، ويطلبونَ مطلبًا بعيدًا عنِ التَّسليم لأمر الله؟.

---

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/87.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]

❖ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين تَلْبيّة الحَواريّينَ لِنداء الله تعالى بالإيمان، وبين طَلَبِهم إنزالَ مائِدَةٍ مِنَ السّماء

لَمّا مدحَ اللّهُ الحواريّين بِعَدِّهم في عدادِ المُلَهَمين ومبادرتِهم إلى الإيمان؛ امتثالاً للأمر ثمَّ إلى الإشهاد على سبيل التَّأكيد بتمام الانقياد وسلب الاختيار، أعقبَهُ بذكرِ حوارٍ آخرَ بينَ عيسى عليه السلام والحواريّين، ذاكرًا ما يدلُّ على تعنُّتِهم معَ القربِ من زمن إيمانِهم، مذكِّرًا هذه الأمَّةَ بحفظِها على الطّاعة، وتأديبًا لها لِتُجلَّ رسولَها الكريمَ صلى الله عليه وسلم عن أن تبدأَهُ بسؤالٍ أو تقترحَ عليه شيئًا في حالٍ منَ الأحوالِ، ومبكِّتًا لبني إسرائيلَ بكثرة تقلُّبِهم وعدم ثباتِهم(1).

وفاصلةُ هذه الآية: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تلتفتُ إلى قولهم في الآية السّابقة: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، وتشير إلى أنّ الإيمان ليس قولاً باللّسان حتّى يطمئنّ به القلبُ، وفيه عِبرةٌ عند الرّبط بين المعاني.

❖ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَآئِدَةٗ﴾: فاعِلةٌ مِن مادَ يميدُ إذا تحرّكَ، فكأنّها تميدُ بما عليها، أو مِن مادَ فلانٌ فلانًا يَميدُهُ ميدًا، إذا أعطاهُ ورفدَهُ، بمعنى: مُعطيَة. ويَحتملُ أن تكونَ المائدةُ فاعلةً في معنى مفعولةٍ، وأصلُها مَميدَة، ميدَ بها صاحبُها؛ أي: أُعطيها، وتُفضِّلَ عليه بها. والمائِدَةُ في اللُّغة: الخوانُ الَّذي عليه الطَّعامُ، فإذا لم يَكن عليه طَعامٌ لا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/354.

يُسمَّى مائِدَةً، بل يُسمَّى خوانًا، فالمائدةُ أخصُّ منَ الخوان، وقَد يُطلَقُ لَفظُ المائدة على الطَّعام نَفسِهِ حقيقةً أو مَجازًا مِن إطلاق اسم المَحَلِّ على الحالّ فيه[1].

المَعْنَى الإِجْماليُّ:

سُؤالُ الحَوارِيّين أن يَطْلُبَ لهم عيسَى مائدةً من السّماء، وزَجْرُه لهم عن هَذِهِ المجازَفَةِ

اذكُر يا مُحمّدُ ﷺ للنّاس وقتَ قولِ الحواريّين لعيسى عليه السلام: يا عيسى هل يرضَى ربُّك ويختارُ أن ينزِّلَ علينا مائدةً مِنَ السَّماءِ إذا نحن سألناه أو سألتَهُ ذلك؟ فكانَ جوابُ عيسى عليه السلام: اتَّقوا اللّه أن تَسألوهُ شيئًا لم تسألهُ الأُمَمُ قبلَكُم، فَنَهاهُم عنِ اقتراح الآيات بعدَ الإيمان؛ إذِ المؤمن يحملُه ما معه منَ الإيمان على ملازمة التّقوى، والانقياد لأمر اللّه، ولا يطلبُ من آيات الاقتراحِ الّتي لا يَدري ما يكونُ بعدها[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ في الآيةِ الكريمة:

ما سألَه الحَواريُّونَ لا يَنْبَغي طَلَبُهُ

دلَّ مجيءُ ﴿إِذۡ﴾ في بداية الآية على أنَّ ما يُذكرُ بعدَها أمرٌ ذو شأنٍ، وأنَّ ما سألَه الحَواريّونَ ممّا لا ينبغي طلبُهُ، وأنّه ينبغي الحذرُ من فعلِه.

بَلاغةُ الإظهارِ في مَوضعِ الإضمار، في السّياقِ الحكيمِ:

المؤمنون لا يَسألونَ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ

أعادَ وصفَهم بِذِكْرِ الاسم الظّاهر، وبالوصف المفيد للمدح ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾، ولم يُضمرهُ معَ قرب ذِكْرِهم؛ للإشعار بأنَّ حالَهم هنا من سؤالِهم تنزيلَ مائدةٍ منَ السَّماءِ بعيدٌ مِن حالِهم الأوَّلِ حينَ قالوا: آمنّا واشهَدْ بأنّنا مسلمونَ، وأنَّ مَن هذا وصفُه لا ينبغي أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/106.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/102، ورضا، تفسير المنار: 7/210، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.

يسألَ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ[1]؛ ولهذا أعقبَهُ بقولِهِ: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

دلالةُ النِّداءِ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى﴾ منَ الآية الكريمة:

نـداءُ المسيح باسْمِهِ وأمِّهِ، لتأكيدِ بَشَرِيَّتِهِ، وأنّه ابْنُ مَريمَ لا ابْنُ الله

لم يُنادِ الحواريّون عيسى عليه السلام بوصفِهِ بالرِّسالة بأن يقولوا: يا رسولَ اللّهِ، ولا يا روحَ اللّهِ، ونحوَ هذا مِنَ ألفاظ التَّبجيل أَوِ التَّعظيم، فابتَدَؤوا خِطابَهُم بندائِهِ باسمِهِ لإفادةِ معانٍ منها[2]:

أنَّ ما سَيَقولونَهُ أمرٌ فيه اقتراحٌ وكُلفَةٌ له، وشأنُ مَن يُخاطِبُ مَن يَتَجَشَّمُ منه كُلفَةً أن يُطيلَ خِطابَهُ طَلَبًا لإقبالِ سَمعِهِ إليه؛ ليَكونَ أوعَى للمَقصود. وقد يكون نداؤُه عليه السلام باسمه؛ ليُنسَبَ إلى أمّه نسبةً تدلُّ على أنّهم لم يكونوا قد وقعوا فيما وقع فيه غيرُهم، ممّن قالوا: المسيحُ ابنُ اللّه.

نُكتةُ التَّعبير بـ ﴿هَلۡ﴾ في الاسْتِفهام، ودلالتُهُ في السّياق:

الاسـتـشـهـادُ أوِ التّلطُّفُ أوِ الاستيثاقُ مِنَ الطّلَب

لمّا كانَ الحواريّون قد طلبوا حصولَ التّصديق بالاستطاعة، وكانوا يقصدون تنزيلَ المائدة في المستقبل، وأيّدهُ اقترانُ ﴿أَن﴾ المصدريَّة بالفعل، وكانوا يريدونَ من عيسى عليه السلام الإجابةَ بالثُّبوت أو الانتفاء، ناسبَه مجيءُ ﴿هَلۡ﴾ في الاستفهام دونَ الهمزة[3].

ولمّا كانَ الحواريّونَ منَ المؤمنينَ، ومِن أخصِّ أصحابِ عيسى عليه السلام، دلَّ على أنَّ سؤالَهم ليسَ على حقيقة الطَّلب المُقتضي الشّكَّ في استطاعة المسؤول؛ لأنّهُ ينافي الإيمانَ، ومتى امتنعَ إجراءُ الاستفهام على الأصل تولَّدَ منه ما يناسبُ المقامَ، وعلى هذا فالمعنى له توجيهاتٌ ثلاثةٌ[4]:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 309.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/219، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/149، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/409، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/105.

الأوّل: أن يكونَ الاستفهامُ على حقيقتِه، ولكن ليسَ في السُّؤالِ عنِ الاستطاعةِ بمعنى القدرةِ، بل السُّؤالُ عنِ الاستطاعةِ على ما يقتضيه الرَّأيُ والحكمةُ، فهو على علم منه أنَّه يستطيعُ، ولكنَّه يُسألُ عنه: أيَفعلُ أم لا؟ لأنَّه قد يُقالُ: فلانٌ لا يستطيعُ كذا، وليسَ يعني أنَّ القدرةَ كذلكَ، وإنَّما يعني أنَّ رأيَه لا يتوجَّهُ إليه، ويؤيّدُهُ قراءةُ مَن قرأَ - وهو الكسائيّ- : (هَل تَّستَطيعُ رَبَّكَ)[1]، فَهُم على علمٍ منهم أنَّ عيسى يستطيعُ سؤالَ ربِّه، لكنَّهم قالوا ذلكَ للاسترشاد في الأمر.

الثاني: أن يكونَ الاستفهامُ على حقيقتِه كذلكَ، ولكن في أن يكونَ ﴿يَسْتَطِيعُ﴾، بمعنى: يُطيعُ، والتَّقديرُ: هل يطيعُ ربُّكَ؟ أي: هل يجيبُكَ؟ واستطاعَ بمعنى: أطاعَ، كاستجابَ وأجابَ.

الثالث: أن يكونَ الاستفهامُ على طريق الكناية في عرض الطَّلب والدُّعاء له، وهو الظّاهرُ منَ الاحتمالات، ودلَّ عليه السّياقُ، وبيانُه أنَّهم يقولونَ لِلمُستَطيع لأمرٍ: هل تستطيعُ كذا، وفيه كنايةٌ عن معانٍ لطيفةٍ عدَّةٍ هي:

التَّلطُّفُ في طريقة سؤال الحَواريّين لعيسى عليه السلام، أو التَّهييجُ والإلهابُ للاجتهاد في الدُّعاء لِتحصيل الإجابة، وربّما كان علمُ الحَواريّين بأنَّ تنزيلَ المائدةِ مستطاعٌ للّه تعالى، وأنَّه قادرٌ عليه، لِظهورِه غايةَ الظُّهورِ، وغرضُهم بهذا الأسلوب أنّ مطلوبَهم أمرٌ واضِحٌ لا يَجوزُ للعاقلِ أن يَشُكَّ فيه، أو حبُّ الحواريّينَ إجابةَ طلبِهم من غير مشقَّةٍ أو كُلّفةٍ على عيسى عليه السلام، أو التماس العُذرِ له إن لم يُجبهم إلى طلبهم[2]. ومهما قيل في تأويل طلبهم ذلك فإنّه يُشيرُ إلى قلّة ثقة بني إسرائيلَ في الأمور الغَيبيّة، فهذه طبيعةٌ موروثةٌ، وقد طلب آباؤهم من نبيّ اللّه موسى أن يريَهم اللّه جهرَةً بعد ما رأوا من معجزاتٍ على يديه كفَلْقِ الحجر، وهكذا يطلبُ ذرّيَّتُهُم من عيسى دليلًا حِسّيًّا نفعيًّا يدلُّ على صدقه بعد ما ظهر لهم على يديه من مُعجزاتٍ.

فقرينةُ الكنايةِ تَحَقُّقُ المَسؤول أنَّ السّائلَ يَعلَمُ استطاعَتَهُ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ في العرض والدُّعاء.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/105.

نُكْتَةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وأثرُها في المعنى:

إيثارُ طَلَب امتيازِ نِسبَةِ الرّبوبيّةِ إلى عيسَى، لِعِظَمِ المطلوبِ

وردتِ الإضافةُ إلى الضّمير العائد إلى اللّه تعالى دونَ أن يقولوا: (هل يستطيعُ ربُّنا) للإشعار بامتياز عيسى عليه السلام عليهم؛ لِما له مِن خصوصيَّة الرِّسالة وشَرفِها، وآثرَ اللَّفظَ الدّالَّ على الرُّبوبيَّة؛ لِمناسبتِه للرِّعاية والإنعام الّذي يدلُّ عليه سياقُ الآية.

دلالةُ العُدولِ عَنِ المَصدَرِ الصّريح (تنزيلٌ)، إلى المصدر المؤوّل ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾.

تَنَزُّلُ المائدةِ منَ السّماء، دليلٌ على عِظَمِها وخُصوصيَّتِها.

وقد أفاد مجيءُ الفعل بصيغة (يُفعِّل) تعظيمَ الفعل لِلتَّكثير؛ لِعلمِهم بِعِظَم تنزيل المائدة، وكونِها آيةً ظاهرةً على صدق نبيِّ اللّهِ عيسى عليه السلام، ولهذا عَدلَ عن إيراد المصدر الصَّريح (تنزيل) إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾، وللدّلالة على المستقبل، كما تقدَّمَ مِن اقتران الفعل بـ (أن) المصدريَّة. وممّا يدلُّ على علمِهم بعِظَم شأن تلك المائدة تعليقُ الفعل بالجارّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لإفادة أن لاصُنعَ للآدميّين فيها، وللإشارة إلى عِظَم المائدة؛ لِنزولِها من عُلوٍّ، ليختصّوا بها عمَّن تقدَّمَهم مِنَ الأُمَم، ولتكون لهم آيةً تُطمئِنُ قلوبَهم، وعِلَّةً للأمر بالتّقوى، في: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ، وعلّةُ الأمرِ بالتّقوَى، في: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ التّنطُّعِ في الطّلبِ، واقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ ناشئٍ مِن فحوى ما قبلَه؛ لِتشويقِ السّامعينَ، وإغنائِهم عنِ السُّؤالِ، ولِتكثير المعنى بتقليل اللَّفظ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حينَ قالوا ذلك؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]. ولمّا كانَ سؤالُهم عنِ الآياتِ وتعيينِ المُعجزاتِ جاريًا مجرَى التَّعنّت والتَّحكُّم،

(1) التّفتازانّي، المطوّل، ص: 447، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/97.

وفيه بشاعةٌ في اللَّفظ والسُّؤال، وهذا مِنَ العَبد في حَضرَة الرَّبّ جُرمٌ عظيمٌ، ولأنَّه أيضًا اقتِراحُ مُعجِزَةٍ بعدَ تَقَدُّم مُعجِزاتٍ كثيرةٍ، وهو جُرمٌ عظيمٌ، كذلك قال: اتَّقوا اللّه من أمثالِ هذا السُّؤالِ، فإنَّكُم لا تَدرونَ ما يَحِلُّ بكم عند اقتِراح الآيات بعدَ ظهور المُعجزات[1].

بَديعُ الأسْلوبِ الحكيم، وأهمِّيَّتُه في السّياقِ:

العُدولُ في الجوابِ عن مُقتضَى الظّاهِرِ؛ مِن بليغِ الأسلوبِ

لمّا كان السُّؤال بـ ﴿هَلۡ﴾ يقتضي الإجابةَ بالثّبوت أو الانتفاء[2] (نعم أو لا)، كان قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ من الأسلوب الحكيم[3] عُدولًا عنِ الجواب؛ لتذكيرِهم بما هو أصلحُ لهم وهو التّقوَى، وللإشعار بترك الكلام، والالتزام بالأفعال الحسنة، وترك الأفعال القبيحة، وفي هذا الأسلوب إيجازٌ؛ لأنّه ترك بيانَ خطئِهم صراحةً اكتفاءً بدلالةِ الجواب عليه ضِمنًا، وفيه حكمةٌ؛ لتجنُّب الدّخولِ في المِراء والخُصومة، مع توصيلِ المغزى بذلك الجواب الحكيم.

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

التّقوى ثمرةٌ للإيمان، ولهذا جاء النّظمُ لتأكيدِها والاحتِفاءِ بها

في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: يأتي هذا الأسلوبُ إذا كانَ المقصودُ تقريرَ الجواب وتأكيدَهُ عندَ المُخاطَبين، وعلى مذهبِ نُحاةِ البصرةِ يكونُ جزاءُ الشَّرطِ محذوفًا على نيّةِ تقديرِهِ مِنَ المذكور قبلَ الشَّرط، فيكونُ على نيّةِ تكرار الأمر بالتَّقوى من حيثُ المعنى، والتَّقديرُ: اتّقوا اللّه إن كنتم مؤمنين فاتّقوا اللّه عن مثل هذا السُّؤالِ. وعلى مذهبِ نُحاةِ الكوفةِ يكونُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/462، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/66، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/149، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/250.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 309.

(3) الأسلوبُ الحكيم: هو تلقّي المُخاطَب أو السّائل بغير ما يترقّبُ، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا له على الأهمّ، والأَولى بالقصدِ، وهو نوعٌ منَ العُدولِ على خلاف مُقتضَى الظّاهر، ومن أمثلته: قيل لشيخ كبير تقدّم لخِطبة فتاة: كم سنُّك؟ فقال: إنّي أَنعَم بالعافية، وأرغب في المزيد منَ الأولاد. السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 155.

﴿ٱللَّهَ﴾ هو الجزاءَ، ولمّا جاءَ متقدِّمًا على الشّرطِ أفادَ الاهتمامَ به، كما أفادَ تأكيدَهُ وتقريرَهُ، ولمّا كانَ الشَّرطُ في مقام السَّببِ للجزاءِ أفادَ الكلامُ أنَّ الإيمانَ سببٌ للتَّقوى، وهيَ مسبَّبَةٌ عنه، وثمرةٌ له، ولهذا كان المعنى في حاجةٍ إلى تقويةٍ وتأكيدٍ، وجاء في الشّرط بـ ﴿إِن﴾ خاصّةً؛ لإظهار خَشيةِ عيسى مِن أن يكون الباعثُ على طلبِهم هو الشّكُّ. قال ابنُ عاشور: "جاءَ بِـ﴿إِن﴾ المُفيدَةِ للشَّكِّ في الإيمان ليَعلَمَ الدّاعي إلى ذلك السُّؤال خَشيَةَ أن يَكونَ نشأ لهم عَن شكٍّ في صدقِ رَسولِهِم، فسَأَلوا مُعجِزَةً يَعلَمونَ بها صِدقَهُ بَعدَ أن آمَنوا به"[1].

تنوّعُ القراءاتِ القُرآنيّةِ، وأثرُها في تَرسيّةِ المعنى وبيانِه:

في قـــراءة الكِسائيِّ تقديرٌ يُفيدُ تلْطيفَ عبارَةِ الحَواريّين

قرأ الكِسائيُّ: (هَل تَّستَطيعُ رَبَّكَ) وبإدغامِ اللّامِ في التّاء، وقرأ الجمهورُ: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾[2]، فأمّا قراءةُ الجمهورِ فقد تقدّمَ بيانُ أوجُهِ المعنى فيها، وعلى قراءةِ الكِسائيِّ يكونُ التَّقديرُ فيها: هل تستطيعُ سؤالَ ربِّك؟ أو هل تستطيعُ دعاءَ ربِّك؟ بدلالةِ السّياقِ على المحذوف، والمعنى: هل تسألُهُ ذلك مِن غيرِ صارفٍ يصرِفُكَ عنه؟ وفي هذه القراءة تصريحٌ بتنزيهِ الحَواريّين عن ما يُتوهَّمُ من بشاعة معنى ظاهر اللَّفظ في قراءة الجمهور، كما تدلُّ على أنَّ قولَ عيسى عليه السلام: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تقريرٌ لإيمان الحَواريّين، كما هو الحالُ في توجيه قراءة الجمهور، فقد كانوا أخصَّ أصحاب عيسى عليه السلام[3]. ويَحتمِل أن تُمثِّل القراءتان موقفين متتابعَين، قالوا في الأوّل منه بالياء: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾، ثمّ عدلوا عنها في الموقف التّالي إلى الخطاب بالتّاء: (هَل تَّستَطيعُ)؛ تأدُّبًا وتحشّمًا لمّا استشعروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/106.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/218، وابن مجاهد، السّبعة: 1/249، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/410.

سوءَ أدبٍ في الأولى، أمّا أن تُحمل القراءةُ الأولى على معنى الثّانية فمستبعدٌ؛ للفرقِ الواضحِ بين القراءتَين.

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المائدةُ) و(الطّعامُ):

المــائـدةُ هي الــخُــوانُ أوِ الـطّـعـامُ، وفي التّعبير بها طلبٌ لمزيدِ التّكْريم منَ الربِّ الكريمِ

في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾: تدلُّ المعاني اللُّغويّةُ على أنَّ المائدةَ فيها إكرامٌ وتفضّلٌ يَميدُ به صاحبُه على مَن يُؤثره. والمائدةُ هي الخوانُ الّذي يوضَع عليه الطّعامُ، وهو شيءٌ مبسوطٌ له قوائمُ يُسمّى السُّفْرةَ، وقد يُطلقُ لفظُ المائدة على الطّعام نفسِه[1] على سبيل المجاز المُرسَل بعلاقة المحلّيّةِ؛ حيث سُمّي الطّعامُ باسم المحلِّ الّذي يوضعُ عليه، لكنّه صار حقيقةً بحسبِ العُرف. ويُفهَم من هذه الاستعمالاتِ أنَّ إيثارَ الحواريّين المائدَةَ بدلًا منَ الطَّعام، كما عبَّر عنهم القرآنُ، يُشيرُ إلى رغبتِهم في أن يكونوا مَوضِعَ تكريم، وإيثارٍ، وتفضّلٍ، واحتفالٍ بهم، ورشَّحَ هذا وقوّاه استعمالُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ مُقدَّمًا على ﴿مَآئِدَةٗ﴾.

(1) مجموعة منَ المؤلفين، المعجم الوسيط: (ميد) و(خون).

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَسْطُ أسبابِ طَلَبِ المائدةِ

لمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ السّابقةِ بمنزلةِ النَّهي عنِ السُّؤالِ؛ جاءت هذهِ الآيةُ لِتكونَ بمثابةِ اعتذارٍ منَ الحواريّين، فبَيَّنوا به سببَ سؤالِهم حينَ نُهوا عنه. كما أنَّ الآيةَ جاءَت على طريقة الاستئنافِ البيانيِّ؛ لِتكونَ جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ من فحوى الكلام السّابق، تقديرُه: فماذا أجابَ الحَواريّون؟ فناسبَ ذكرُ الجوابِ هنا، فالرَّبطُ بينَ الآيةِ وما قبلَها ظاهرٌ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَطۡمَئِنَّ﴾: من طَمِنَ، ويدورُ معنى الكلمةِ على السُّكونِ بعدَ الانزعاجِ. والطَّمأنينةُ: سكونُ النَّفس مِن ذهاب الخوف، وكلُّ ما في القرآن من معاني هذه المادَّةِ يدلُّ على سكونِ النَّفسِ والقلبِ؛ أي: الاستقرارِ النَّفسيِّ، وعدمِ القلقِ، والخوفِ، والحذرِ.

2) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جمعُ الشّاهدِ مِنَ الشَّهادةِ، وتقدّمَ بيانُ معناها في شرحِ مفرداتِ الآيةِ السّابقةِ.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تَبريرُ الحَواريّين لِطَلَبِ نُزولَ المائدة، وبَيَانُ أسبابِ ذلك الطّلبِ الغَريبِ

قال الحَواريّون: إنّا إنّما قلنا ذلك، وسألناك أن تسألَ لنا ربَّنا لنأكلَ منَ المائدة، وتسكُنَ قلوبُنا، ونعلمَ يقينًا صِدقَك في خبرك أنّك رسولُ اللّه ونبيُّه، ونكونَ على المائدة ممَّن يشهد أنَّ اللّه أنزلَها حجّةً لنفسه علينا في توحيدِه وقدرتِه على ما شاء، ولك على صدقِكَ في نبوّتِكَ[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/224.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن)، في قوله تعالى: ﴿ مِنۡهَا﴾:

الأكْلُ منَ المائدة تَبَرُّكًا وتشريفًا، لا سدًّا لِجوعٍ، ولا حاجَةً لِطعام

أفادَ حرفُ الجرِّ هنا التَّبعيضَ، بمعنى: نريدُ أن نأكلَ بعضًا منَ المائدة، فيُشعِرُ الكلامُ بأنّهم كانوا يريدونَ الأكلَ منها تبرُّكًا وتشريفًا لا حاجةً أو لِشدّةِ جوعٍ. ويَحتملُ أنّهم طلبوا الأكلَ لأجلِ الحاجةِ والتّمتّعِ[1]، فيكونُ طلبُهم على معنى تكثيرِ المائدة؛ لِموافقةِ (مِن) التَّبعيضيَّةِ، ويؤيّدُهُ دلالةُ التَّكثيرِ في قولِه تعالى: ﴿يُنَزِّلُ﴾.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾:

صِدْقُ عيسَى عليه السلام في الإخبارِ عن رسالتِه، وعن وَحدانيَّةِ رَبِّه

جاءَ اسمُ ﴿أَن﴾ المخفَّفةِ منَ الثَّقيلة ضميرَ شأنٍ محذوفًا في قوله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾؛ إيذانًا بتعلُّقِ العلم بأمرٍ عظيم، وهو عِظَمُ صدقِ عيسى عليه السلام في الإخبار عن نبوَّتِه، وعن وحدانيَّةِ اللّهِ، وتفخيمًا لِشأنِ الأمرِ[2]، وتأكّدَ المعنى وتقرَّرَ بمجيءِ ﴿أَن﴾ المخفَّفةِ الدّالَّةِ على تأكيدِ مضمونِ ما بعدَها، وزادَ الجملةَ تقريرًا اقترانُها بـ ﴿قَدۡ﴾ الدّالَّةِ على تأكيدِ الفعلِ الّذي يقتضي تأكيدَ مضمونِ الجملةِ كذلكَ، وهذه الجملةُ بيانٌ أو تأكيدٌ لقوله قبلها: ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، وإنّما يحدثُ اطمئنانُ القلبِ بعد العلم بصدقِ النَّبيِّ؛ لأنَّ المائدةَ دليلٌ حسّيٌّ، وهو أظهرُ وآكدُ ويُؤدّي إلى اليقين.

فائدةُ إطلاقِ شَهادتهم، في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

الرّؤيَةُ العَيْنِيّةُ أوْثَقُ دليلٍ، وما راءٍ كَمَنْ سَمِعا

ولمّا أَطلقَ شهادتَهم، ولم يقيّدها بأمرٍ ما دلَّ على عمومِ الشَّهادة، والمعنى: نَشهَدُ لكَ عليها عِندَ الَّذينَ لم يَحضُروها من بَني إسرائيلَ، لمشاهدتنا لها بالعَيْن، ونَكونُ عليها مِنَ الشّاهِدينَ للّه بكمال القُدرَة، ولك بالنُّبوَّة[3].

---

(1) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/80، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/102، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/411، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/97.

(2) الرّضّي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/70.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/463، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/366، البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/150.

مناسبةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهَا﴾ وتأخيرِ ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

اجتماعُ شهادةِ الحِسِّ والقلبِ والعقلِ، على نُزولِ المائدةِ المعجزةِ

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهَا﴾ الّذي هو في مَوضِعِ الحالِ؛ رعايةً للفاصلةِ[1]، وللاهتمام، والعناية بالمشهود عليه (المائدة)، وفي التَّقديم إشعارٌ بأنَّ المائدة عندهم أتمُّ مِن غيرِها منَ المُعجزات؛ لِاجتماعِ شهادةِ الحسِّ والقلبِ والعقلِ عليها؛ لِحثِّ عيسى عليه السلام على سؤالِها وطلَبِها. وكلُّ المعطوفات ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ داخلةٌ في الفعل ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾، والعطفُ على نيّة إعادة الإرادة، فهو شكلٌ من أشكال الإيجاز.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمَصدرِ المُؤوَّلِ، في ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾:

المضارعُ يَستَدْعِي المستقبلَ حاضرًا، ويدلُّ على الرّغبةِ في تَجَدُّدِه واستمرارِه

جاءَ الكلامُ على صيغة المصدر المؤوَّل بـ (أن والفعل)؛ لإفادةِ الاستقبالِ، ودلَّت صيغةُ الفعل المضارع على تصوير حال أكلِهم مِنَ المائدة في المستقبل، كما أفادتِ الصّيغةُ الإشارةَ إلى أنّهم سألوا تنزيلَ المائدةِ؛ لإرادتِهم استمرارَ اطمئنانِ قلوبِهم، وعلمِهم بصدقِ عيسى عليه السلام، واستمرارِ شهادتِهم على نزولِ المائدةِ منَ السَّماءِ، وأكلِهم منها.

مناسبةُ التَّرتيبِ في المعاطيفِ، عَبْرَ سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

التَّرتيبُ في اللَّفظِ على وَفْقِ ترتيبِ المعنى، من فصيحِ البيانِ

وأتَت هذه المَعاطيفُ مُرَتَّبَةً تَرتيبًا لَطيفًا، فتعلَّقَ فعلُ الإرادة بها جميعًا على معنى اجتماعِها كلِّها مرتَّبة؛ لتكونَ أوثقَ في التَّعليلِ، وبيانِ السَّببِ، فبدؤوا بما يكونُ بالحواسِّ وذلك أنَّهُم لا يأكلونَ منها إلّا بَعدَ مُعاينةِ نُزولِها، فيَجتَمِعُ على العلم بها حاسَّةُ الرُّؤيَةِ وحاسَّةُ الذَّوق باللّسان، فبذلك يَزولُ عَنِ القلب قَلَقُ الاضطِرابِ، ويَسكُنُ إلى ما عايَنَهُ الإنسانُ وذاقهُ، وإذا اطمأنَّ القلبُ بعد المعايَنة بالحواسِّ حصلَ العِلمُ الضَّروريُّ بصدق مَن كانَتِ المُعجِزَةُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/107.

يديه؛ إذ جاءَت طِبقَ ما سأل. ولمّا كانتِ الشّهادةُ أمامَ النّاسِ على صدقِ النُّبوَّةِ وتوحيدِ اللّهِ تعالى بصدقِ اللِّسان، وسكونِ القلب عن علمٍ يقينيٍّ، بحيثُ لايختلجُ بالشَّهادةِ ظنٌّ، ولاشكٌّ، ولا وهمٌ، ختموا بها الأفعالَ[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/411، ورضا، تفسير المنار: 7/211.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دعاءُ عيسى بنزول مائدةٍ منَ السّماء، جاء تلبيةً لطلَبِ الحواريّين

لمّا كان سؤالُ الآياتِ ينافي أدبَ الانقياد والإذعان لأَمرِ اللّهِ المُطلقِ، أخبرَ الحواريّون عيسى عليه السلام بأنَّ مقصودَهم من نزول المائدة زيادةُ الإيمان واليقينِ بصدقِ ما جاء به، فمُناسبةُ الآية مُرتبطةٌ بموضوع الدُّعاء الَّذي فيها، وقد جاء بناءً على طلب الحواريّين من عيسى عليه السلام، الّذي وعَظَهُم أن يتّقوا اللّه إنْ كانوا مؤمنين؛ وذلك من أجل أن "تطمئنَ قلوبُهم بسكونِ الفِكرِ، إذا عاينوا هذا المُعجزَ العظيمَ النّازلَ مِنَ السَّماء"[1]، فلمّا اطمأنَّ عيسى عليه السلام إلى مقصودِهم دعا اللّه تبارك وتعالى لقومه، بأنْ يُنزِل عليهم هذه المائدةَ، فيكونَ وقتُ نزولها عيدًا لتذكّر قُدرَة اللّه تعالى، فحَقَّق عيسى عليه السلام بنزول المائدة على قومه، مصلحتين: "مَصلحةَ الدّين بأن تكون آيةً باقيةً، ومصلحةَ الدُّنيا وهي أن تكون رِزقًا"[2]، وعطاءً وافيًا.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: قيل: معناه: يا اللّه، فأُبدل مِنَ الياء في أوّله الميمان في آخره، وخُصَّ بدُعاء اللّه، قال الفَرّاء: أَصلُه يا اللّه أُمَّنا بِخَير، فَكثر استعمالُها فقيل: اللهُمَّ، وتُركَتِ الميم مَفتوحَة، فرُكِّبَ تركيبَ (حيَّهلا). وقال الخليل وسيبويه وسائرُ البَصريّين: معناهُ يا اللّه، والميمُ المُشَدّدَةُ عوضٌ عَن ياء النّداء، والميمِ المَفتوحَةِ لسكونها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/411.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 249.

وسُكونِ الميم قبلها، ولا يُقال: يا اللهُمَّ؛ لِئَلّا يجمعَ بَين البَدَل والمُبدل، والفرق بين الله، واللهم: أنَّ الله: اسمُ الجلالة، واللهم: نداءٌ المراد به: يا الله[1]. وقد عبَّر به القرآنُ الكريم، على نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، وكذلك ورد في كثيرٍ منَ الأحاديث، على نحو:

إن تغفرِ اللهم تغفرْ جمّا *** وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمّا[2]

2) ﴿مَآئِدَةً﴾: قال الزَّجّاجُ: الأَصلُ عِندي في "مائدة"، أنَّها فاعلةٌ؛ مِن ماد يَميدُ، إذا تحرّك، وكأنَّها تميدُ بما عليها. ويُقال: إنَّما سُمّيت مائدةً؛ لأنَّها غياثٌ وعطاءٌ، من قول العَرَب: مادَ فُلانٌ فلانًا يميدُه ميدًا، إذا أحسَنَ إليه، وأفضلَ عليه، وأنشد:

.... *** إلى أمير المؤمنين المُمتاد[3]

أرادَ الَّذي يميد النّاس؛ أي: يُعطيهم، ويُحسن إليهم، فالمائدة على هذا القَول فاعلةٌ منَ الميد؛ بمعنى: مُعطيةٌ، وأصلُها مَمْيَدة، ميدَ بها صاحبُها؛ أي: أُعطيَها، وتُفضِّل عليه بها. والمائدة: الطَّبق الَّذي عليه الطَّعام[4].

3) ﴿عِيدًا﴾: العيدُ: الرُّجوعُ والعَودُ مرَّةً بعد أُخرى، وهو اسمٌ لِما يَعودُ منَ الاجتماع العامّ على وجهٍ مُعتادٍ، إمّا بِعَودِ السَّنَة، أو بعَود الأسُبوعِ، أو الشَّهر، أو نحوِ ذلك، أو هو كلُّ يَوم فيه جَمعٌ. واشتِقاقُهُ من عادَ، يَعودُ، كأنَّهم عادوا إليه. وقيل: اشتِقاقُهُ مِنَ العادَةِ؛ لأنَّهم اعتادوهُ. والجمعُ: أعيادٌ[5]، وفي المَثَل: (عُدْنا والعودُ أحمد)، قال الشّاعر:

جَزَيْنا بَني شَيْبانَ أَمْسِ بِقَرْضِهِمْ *** وجِئْنا بِمِثلِ البَدْءِ والعَوْدُ أَحْمَدُ[6]

4) ﴿وَءَايَةً﴾: الآيَةُ: العَلامَةُ والأمارَةُ، ومنه سُمّيَت الآيةُ مِنَ القُرآنِ بذلك؛ لأنّها علامَةٌ لانقِطاعِ الكَلامِ الّذي قَبلَها والّذي بَعدَها، وتُطلَق بمعنى جَماعَةِ الحُروفِ. ومِن معانيها:

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 4/295، وابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص: 295، والزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 32، وابن عبّاد، المحيط: (أله)، والنّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 140.

(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (لمم)، وهو من شعر أُميّة بن أبي الصّلت، كان النّبيّ ﷺ يتمثّل به. التّرمذيّ، السّنن: (3284)

(3) شطر بيت لرؤبة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (ميد).

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/159، والأخفش، معاني القرآن: 1/292، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مأد)، وابن منظور، لسان العرب: (ميد).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (عود).

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عود).

المُعجِزَةُ، والدَّليلُ، والبُرهانُ، والأَمرُ العَجيبُ، والعِبرَةُ[1]، والمعنى: علامةً وحجّةً منك - يا ألله - على وحدانيتك.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

المصالحُ المترتِّبة على دعاءِ عيسى بطلبِ نزولِ المائدة

استجاب عيسى عليه السلام لطَلَب الحواريّين، فدعا الله قائلًا: ربَّنا أنزل علينا مائدةَ طعام نتَّخذُ من يوم نُزولها عيدًا نعظِّمُه شكرًا لك، وتكونُ علامةً وبرهانًا على وحدانيّتك، وعلى صدق ما بُعِثتُ به، وارزقنا رزقًا يُعينُنا على عبادتك، وأنت يا ربَّنا خيرُ الرّازقين، وكان طلبُهم نابعًا من إيمان، وغايتُهم من سؤال المائدة الحصولَ على الاطمئنان، وتحصيلَ دواعي الثّبات والإيقان.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113] يُثيرُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا: ما كان ردُّ عيسَى عليه السلام على مقالَتِهم هذه؟ فجاءَ الجوابُ في قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا نحويًّا؛ لكونِ هذا القَوْلِ مَسوقًا لِبيانِ شُروعِ عيسَى عليه السلام بالدُّعاءِ بَعْدَ تَبيُّنِهِ صِدْقَهُم في طِلْبَتِهِم.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

إحضارُ القَائِلِ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ بِاسْمٍ يَخْتَصُّ بِهِ قَصْدًا إِلَى تَمَايُزِ الأَقْوَالِ فِي بَابِ المُحَاوَرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلميَّةِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (أيا).

﴿مَرۡيَمَ﴾؛ لإحضارِهِ في ذهنِ السّامِعِ ابتداءً باسْمٍ يخْتَصُّ بِهِ، فتتَمَيَّزُ الأَقْوالُ غايَةَ التَّمايُزِ في أُسْلوبِ المحاوَرَةِ الذي سِيقَت لَهُ الآياتُ.

سِرُّ الإِبْدَالِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

إِبْطَالُ أُلُوهِيَّةِ عِيسَى عليه السلام وَتَسْفِيهُ رَأْيِ مَنْ أَطْرَاهُ وَغَلَا فِيهِ أَوْ تَنَقَّصَهُ وَحَطَّ مِنْ قَدْرِهِ

﴿ٱبۡنُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿عِيسَى﴾، ويَجوزُ أن يكونَ نَعْتًا لَهُ[1]، وجيءَ بهذا التّابِعِ - بدلًا كان أو نَعْتًا - زيادةً في التَّصريحِ به تحقيقًا لَهُ، ولكونِه عليه السلام لا أبَ لَهُ، وفيه تسفيهٌ لمن أطْراهُ وغَلا فيهِ أو حطَّ مِنْ قَدْرِه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بوصفِ الألوهيّةِ الجامعةِ لكلّ الكمالاتِ في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾:

امتلاءُ (اللهم) بدلالة أسماء الله الحسنى؛ لأنَّ له خصوصيَّة المسمَّى

استهلَّ عيسى عليه السلام دعاءَه لقومه بندائه للّه، بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وهي في الأصل (يا اللّه)، فلمّا كثُرَ النِّداء بها حُذف منها حرفُ النِّداء الياءُ، ثمَّ عوِّض عنه بالميم.

وعنِ الحسن البصريِّ أنّه قال: "(اللهم) مُجتَمَعُ الدُّعاء، وعنِ النَّضر بن شُميل: مَن قال: (اللهم) فقد سألَ اللّه بجميع أسمائه"[3]، ولا نجدُ عَلَمًا منَ الأعلام في اللُّغة العربيَّة، تُحذف منه (يا) في النِّداء، وتُستبدَل بالميم إلّا في لفظ الجلالة، فتقول: (اللهم)؛ كُلُّ ذلك ليدُلَّ على أنَّ اللَّفظ في ذاته له خصوصيَّةُ المسمَّى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: 26]، وكأنَّ حذفَ حرف النِّداء هنا، يُعلِّمنا أنَّ اللّه هو وحده المُستدعَى بدون حرف نداء (اللهم)، وفي بعض لغات العربِ يجمعون الياء والميم، مثل قولِ الشّاعر:

إنّي إذا ما حَدَثٌ ألّما *** أقولُ يا اللهم يا اللهما

إنَّها خصوصيَّةٌ لصاحب الخصوصيَّة الأعلى[4]، أضف إلى

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/357.
(3) ابن حجر، فتح الباري: 11/155.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1396.

ذلك، أنّنا نستشعرُ في ابتداء الدُّعاء بـ (اللهم) نوعًا منَ الإجلال، لا توجدُ في لفظ (يا الله)، وكأنَّ هذا اللّفظ تتهيَّأ به نفسُ المؤمن لمناجاة الله في خشوعٍ وتبتُّلٍ، وكمالِ ثقةٍ، في أنَّه ﷻ قريبٌ مِن عبده إذا دعاه، وتجدر الإشارةُ هنا، إلى أنّه لم يُستعمل في القرآن النِّداءُ بـ (يا الله)؛ لأنَّ (يا) نداءٌ للبعيد، واللهُ قريبٌ مِن عباده، يجيب دعوةَ الدّاعين إذا دعَوه ﷻ.

سرُّ الجمع بين نداء الألوهيّة والرّبوبيّة، في التّعبير بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾:

الإلحاحُ في الدُّعاء دليلٌ على الإيمان، باستجابة الرّحيم الرّحمنِ

لم يَقُل عيسى عليه السلام: (اللهم رَبّي)، ولم يستعمل (يا) النِّداء: (يا رَبّنا)؛ وذلك للدّلالة على شعوره بقربه مِنَ الله، بل قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ أي: راح يُصحِّحُ ما قاله الحواريّون؛ إذ قالوا: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: 112]، فقد دعا بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة معًا، بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ أي: جمع بين الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة؛ استعطافًا لله ليجيب دعاءهم، ولتأكيد إظهارِ الرَّغبةِ الملحَّة في إجابة الدُّعاء، وهذا يدلُّ على كمال الإيمان في قَلب عيسى عليه السلام، مُقارنةً بإيمان هؤلاء الحواريّين[1]، زد على ذلك، أنَّ في هذا دلالةً على صِحّة نبوَّته عليه السلام، وإشارةً لمواضِع الدُّعاء وسياقاتِه دون التَّفصيل طلبًا للإيجاز، والإيجازُ هو لُبُّ الإعجاز المُتوخَّى في القرآن.

دِلَالَةُ الإِضَافَةِ فِي ﴿رَبَّنَآ﴾:

بَيَانُ عُمُومِ إِحْسَانِ اللهِ تَعَالَى فِي المَاضِي وَالحَاضِرِ

أُضيفَ الاسْمُ الأَحْسَنُ (الرَّبّ) إلى ضميرِ (نا) الدّالِّ على الجَمْعِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ لِكَوْنِ عيسَى عليه السلام يَدْعو اللهَ سُبحانَهُ لِأَجْلِ الحواريّين، ولِلإِشْعارِ بأنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَقْطَعْ إحسانَهُ إليْهِم فيما مضَى، فحريٌّ أن يُحْسِنَ إليهم في إجابَتِهِ طِلْبَتَهُمْ هذِهِ.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: المائدة، آية: 114.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الطَّلَبُ الصَّادِرُ مِنَ العِبَادِ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ عَلَى جِهَةِ التَّذَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ يُرَادُ بِهِ الدُّعَاءُ

فعلُ الأَمْرِ ﴿أَنزِلۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خرَجَ عَنْ حَقيقتِهِ في إرادَةِ الإلزامِ بالفِعلِ إلى معْنَى الدُّعاءِ؛ وذلِكَ أنَّ الطَّلَبَ صادِرٌ مِنْ عيسَى عليه السلام - وهوَ عَبْدُ اللّهِ ورسولُهُ - إلَى ربِّهِ ﷻ، فانْتَفَى مِنْ هذا الفِعْلِ الإلزامُ قَطْعًا، فهو مَجازٌ مُرْسَلٌ مركَّبٌ، بعلاقةِ الإطْلاقِ والتَّقييد؛ إذْ قَدِ اشترَكَ الأمْرُ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في مطلَقِ الطَّلَبِ، واختلفا في القَيْدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ.

دلالةُ تقديم شِبْه الجملة: ﴿عَلَيۡنَا﴾ على قوله تعالى: ﴿مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

القَصرُ يُفيدُ التَّوكيدَ، ويَنفي عنِ الفِكرِ كُلَّ إنكارٍ وشَكٍّ

تقديم شبْهِ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ﴾ عِلّتُه إفادةُ التّخصيص والقَصر؛ أي: أَنزِلْ علينا لا على غيرنا، إذ في مقدور اللّه، أن ينزّل المائدة على غيرهم، فيرونها نازلةً، لتقطع دابرَ الإنكار لديهم، ولكنّهم يُحرَمون لذّةَ التّنعّم بما تَميد به تلك المائدةُ، من شهيِّ الطّعام، ولذيذِ المأكولِ، ممّا تلذُّ له الأعينُ، وتَشتهيه الأنفسُ، وذلك ممكنٌ بسبب عنادهم الأصيل، وتطاوُلِهم المُريب، في مختلف مراحل تاريخهم المليءِ بالكُفران، والمُزدحم بالنُّكران، ولكنّ اللّه ما أراد بهم ذلك في هذا المَوقِف؛ لعلمه أنّ قصدهم - يعني الحواريّين - كان توخّيَ التّصديق، لا نكرانَ المنهج الّذي جاء به عيسى الصّديق، ولذلك وردَ تحديدُ جهة المُنزل عليهم، فجاءَت منطبقةً على ما طلبوه، فورد في الآية اللّاحقة قولُه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، كما أنَّ في هذا التَّقديم تشويقًا إلى المؤخَّر الَّذي حقّه التَّقديمُ؛ لأنَّه إذا أُخِّر تبقى النَّفس مُرتقبةً إيرادَه، ومُتشوّقةً إلى معرفته(1).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98.

عِلَّةُ الإسناد المجازيِّ للعيد إلى المائدة، في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾:

ابتهاجُ عيسى عليه السلام بعطاء الله الواسع، وكرمِه الفيّاض

قولُه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ بأن يجعلوا اليومَ الموافِقَ يومَ نزولها من كلِّ سَنة عيدًا، فإسناد العيد للمائدة إسنادٌ مجازيٌّ، وإنَّما العيدُ اليومُ الموافقُ ليوم نزولها[1]؛ وإنَّما أُسند ذلك إلى المائدة؛ لأنَّ شرفَ اليوم مُستعارٌ مِن شَرَفِها[2]، واختيار عيسى عليه السلام يومَ نزول المائدة ليكون عيدًا لأمّته، فيه إشارةٌ إلى "ابتهاج الرّوح بالنِّعمة لا من حيث إنَّها نعمةٌ، بل من حيث إنَّها صادرةٌ عنِ المُنعِم"[3]. وقد ورد في الرّوايات أنّه أظهر بهجتَه بعبوديّته لربّه، وسكب دموعَه الغزار، في مِحراب الخشيةِ للواحد القهّار[4].

دلالةُ القَصر والاختصاصِ بتقديم الجارِّ والمجرور، في قوله: ﴿لَنَا عِيدًا﴾:

الافتقارُ واللُّجوءُ إلى الله تعالى في الطَّلب، خيرُ ما يمتدُّ إليه السَّببُ

تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَنَا﴾ على ﴿عِيدًا﴾، يُفيد معنى القَصر والاختصاص، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَا﴾، وقد أفاد تأكيدَ الإحاطة والشُّمول، وفيه طِباقٌ بين الأوَّل والآخر، وكان نزول المائدة يومَ الأحد؛ إذ نَزَلَت عليهم يَومَ الأَحَدِ غُدْوَةً وعَشيَّةً، فلذلك جَعَلوا الأحَدَ عيدًا، فصار ذلك اليومُ عيداً لهم[5]، أو أنَّ: عيداً لنا؛ يعني: حجّة لنا، وآخِرِنا؛ يعني: حجّة لَمَن بعدنا[6].

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، في قوله تعالى: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

دلالةُ العيد على الفرح والسُّرور، إبرازٌ لجوّ البهجة والحُبورِ

لقد استُعير لفظُ العيد للسُّرور، وأدخل المشبَّه في المشبَّه به حتَّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/109، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/61.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/430.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/368.
(6) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1933.

صار من جنسه، وأَصبح يُعبِّر عنِ الفَرح والابتهاج بالعيد "والاستعارةُ أبلغُ؛ لأنَّ العادة جرَت في الأعياد بتوفير السُّرور عند الصَّغير والكبير، فتضمَّن مِن معنى السُّرور ما لا تتضمَّنه الحقيقةُ"[1]، وذلك على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، وقال الخليلُ بنُ أحمد: العيد كلُّ يوم مَجمَعٌ، كأنّهم عادوا إليه، وقال ابنُ الأنباريِّ: سمّي العيد عيدًا للعَود مِنَ التّرح إلى الفرح، فهو يومُ سرورٍ للخلق كلِّهم، ألا ترى أنَّ المسجونين لا يطالَبون ولا يعاقَبون، ولا تُصطاد فيه الوحوش والطّيور، ولا ينفذُ الصّبيان إلى المكتب[2].

عودةُ اللّام مع البدل، مجاراةٌ للمُبْدَل منه، في قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

دلالـــــةُ ذكـر الطّرفين، وإرادةِ الجميع

وجههُ وقوعُ: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، بدلَ كلٍّ منَ الضّمير (نا) المجرور مَحَلًّا باللّام؛ ولهذا أُعيدتِ اللّام جوازًا مع البدل مجاراةً للمُبدَل منه؛ وهو مفيدٌ للإحاطة والشّمول؛ لأنّ المرادَ: بأوّلنا وآخرنا - جميعًا - على عادة العرب؛ من ذكر طرفيِ الشّيء، وإرادةِ جميعه[3]، قال النّسفيّ: "﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: بدل مِن ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل؛ أي: لمَن في زماننا من أهل ديننا، ولمَن يأتي بعدنا، أو يأكل منها آخرُ النّاس، كما يأكل أوّلُهم، أو للمتقدّمين منّا والأتباع"[4]، والمفهوم من ذلك أنَّ هذه المعجزةَ موجّهةٌ لأجيال أُمَّة النَّصرانيَّةِ وآخِرها، وهُمُ الَّذينَ خُتِمَتْ بِهمُ النَّصرانيَّةُ عِندَ البَعثَةِ المُحَمَّديَّةِ، السّلفُ منهم والخلفُ.

قال ابنُ عاشور: "وهذا العيدُ الَّذي ذُكِرَ في هذه الآيةِ غَيرُ مَعروفٍ عِندَ النَّصارى، ولكِنَّهم ذَكَروا أَنَّ عيسى عليه السلام أكلَ مَعَ الحَواريّينَ على مائِدَةِ لَيلَةِ عيدِ الفِصحِ، وهي اللَّيلَةُ الَّتي يَعتَقِدونَ أنَّهُ صُلِبَ

(1) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 268.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/126.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/371، والأزهريّ، التّصريح: 2/162، والنّجار، ضياء السّالك: 3/212.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/486.

مِن صَباحِها. فلعلَّ مَعنى كَونِها عيدًا أنَّها صُيِّرَتْ يَومَ الفِصحِ عيدًا في المَسيحيَّةِ كما كان عيدًا في اليَهوديَّةِ، فَيَكونُ ذلك قَد صارَ عيدًا باختِلافِ الاعتِبارِ وإنْ كانَ اليَومُ واحدًا؛ لأنَّ المَسيحيّينَ وفَّقوا لأعيادِ اليَهودِ مُناسَباتٍ أُخرى لائِقَةً بالمَسيحيَّةِ إعفاءً على آثارِ اليَهوديَّةِ"[1].

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، بعد قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾:

عطاءُ الله رزقٌ لا ينقضي، وبركةٌ لا تنتهي

قولُ اللّه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، على القول بأنّها يأكل منها أوّلُنا وآخرنا، تفيد أنّها مائدةٌ واحدةٌ، ولكنّها معجزةٌ تستوعبُ الحاضرَ والقادمَ، من أوّل الآكلين وآخرِهم، وذلك لا يتأتّى إلّا في المعجزاتِ الخوارقِ، قال السّيوطيّ: "يريد أنَّ التّكرار في ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ لرفع التّفاوت بين قوم وقوم؛ يعني: لا تفاوت بين مَن يأكل أوّلاً، وبين مَن يأكل آخراً؛ لإنزال اللّه سبحانه البركةَ فيها، ومثلُه في التّكرير المعنويّ قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢﴾ [مريم: 62]، يريد الدّيمومةَ، ولا يقصدُ الوقتين المعلومَيْن"[2]، والمأثورُ أنَّ بقاءَ المعجزة في الاحتفال بها معنويٌّ، وليس مادّيًّا، وأنّ العيدَ المذكورَ في الآية، هو الّذي يتجدّد، وهو آثر في الزّمن، من بقاء المذاق في الأفواه، عند الألوف مِنَ الّذين أكلوا مِنَ المائدة فعلًا.

بَرَاعَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

عُمُومُ جَعْلِ نُزُولِ المَائدَةِ عِيدًا

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ طباقُ إيجابٍ بين ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ و﴿وَءَاخِرِنَا﴾، وفي الجَمْعِ بينَهُما تعميمٌ لجعْلِ نزولِ المائدَةِ عيدًا، وذلك بجمْعِهِ بينَ طرَفَيْنِ؛ فكأنَّ المَعْنَى: تكونُ عيدًا لنا ولجميع مَن يأتي بعْدَنا، إلّا أنّه اقتَصرَ علَى ذكْرِ الأوَّلِ والآخِرِ؛ لأنَّ غيرَهُما مندَرِجٌ تَحْتَهُما، لِما تقرَّرَ مِنْ أنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/110.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/319.

دلالةُ التّعبير بقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾:

كــلُّ مـعـجـزةٍ بــاهــرةٌ، فهي دليلٌ على قدرة الله القاهرة

قوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾؛ يعني: علامة الإعجاز الدّالّة على توحيدك، "وقيل: الّتي تدلّ على صدق أنبيائك، والشّكرِ على ما أنعمت به علينا من إجابتك، وقيل: ارزقنا ذلك من عندك"[1]، وكونُها آية؛ هي إشارةٌ إلى كون هذه المائدة دليلًا لأصحاب النَّظر والاستدلال.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَءَايَةً﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾:

الـمُـعْـجِـزَاتُ السَّمَاوِيَّةُ أَعْظَمُ وَأَعْجَبُ

نُكِّرت لفظُ ﴿وَءَايَةً﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيم، وذلكَ لِكَوْنِ المعْجِزاتِ التي تقدَّمَ ذِكْرُها كانت معجزاتٍ أرضيَّةً، وهذه الآيةُ معجزَةٌ سماويَّةٌ، فكانَتْ أعجبَ وأعظمَ[2].

وزادَ لفظَ ﴿وَءَايَةً﴾ دلالةً على التَّعظيم وصفُه بـ ﴿مِّنكَۖ﴾، وذلك أنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقٌ بمحذوفٍ نعتٌ لـ ﴿وَءَايَةً﴾[3]، فدلَّ مجموعُ هذا على أنَّ الآيةَ اجتمَع فيها التَّعظيمُ الذّاتيُّ المستفادُ مِنَ التَّنكير، والتَّعظيمُ الإضافيُّ المستفادُ مِنَ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنكَۖ﴾.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

اشْـتِـرَاكُ الأَمْـرِ فِي حَـقِـيـقَـتِـهِ مَـعَ الـدُّعَـاءِ فِي الـدِّلَالَـةِ عَـلَى مُطْلَقِ الطَّلَبِ

فعلُ الأمْرِ ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خرَجَ عَنْ أصْلِهِ في إرادَةِ الإيجابِ والإلزامِ بالفعلِ إلى معْنًى آخرَ وهوَ الدُّعاءُ؛ وذلِكَ أنَّ هذا الطَّلَبَ صادِرٌ مِنَ العَبْدِ - وهوَ عيسَى عليه السلام - إلَى ربِّهِ ﷻ، فانْتَفَتْ دِلالَةُ الإيجابِ والإلْزامِ قَطْعًا، فكانَ هذا مَجازًا مُرْسَلًا مركَّبًا، بعلاقةِ الإطْلاقِ والتَّقييدِ؛ وذلك لاشْتِراكِ الأمْرِ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في الدِّلالَةِ علَى مُطْلَقِ الطَّلَبِ، وإنَّما الخِلافُ بينَهُما في القَيْدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ.

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/85.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/463.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 7/63.

مِنْ أعْظَمِ المِنَنِ ابْتِهَاجُ الرُّوحِ بِالنِّعَمِ مِنْ جِهَةِ صُدُورِهَا مِنَ المُنْعِمِ

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ التَّدَلِّي:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا﴾ أسلوبُ تَدَلٍّ؛ وذلك أنَّه أشارَ بالعيد إلى ابْتهاجِ الرّوح بالنِّعْمَة، لا مِنْ جِهَة كونِها نعمةً، بل مِنْ جِهَةِ صدورِها مِنَ المُنْعِم، وفي ذِكْرِ الآيةِ - ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ - إشارَةٌ إلى كونِ هذه المائدَةِ دليلًا لأصحابِ الاستِدْلالِ والنَّظرِ، وفي طلَبِ عُمومِ الرِّزْقِ - ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ - إيماءٌ إلى حصَّةِ النَّفْسِ، فيكون قَد ابتدأ بالأشْرَفِ منتقِلًا إلَى ما دونَهُ[1].

اللهُ تعالى وحده مصدرُ الأرزاق، ولا أحدَ سواه

دلالةُ الفاصلة ومناسبتُها، في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

نلمح في هذه الفاصلة انتهاءَ الآية بفاصلة نونيّة، هي قولُه تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهي تتناسب مع فواصل الآيات قبلها: ﴿مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]، و﴿ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]، وفاصلة الآية بعدها: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهو ما يحفظُ للسّياق رتابةً تكسو السّياقَ مسحةً مِنَ السّكون والخشوع المؤثّرِ في الوجدان، ثمّ إنّ إيثار عيسى عليه السلام للفعل: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ دون سواه، من مثل: (وأعطنا) أو (وامنحنا)؛ وذلكَ لأنَّ الرِّزق عطاء اللّه ﷻ الحلالُ الَّذي يجري على الإدرار[2]، وهو نوعان: ظاهرٌ للأبدان، كالأقوات ونحوها، وباطنٌ للقُلوب والنُّفوس، كالإيمان والمعارف والعلوم[3]، وذلك ما يختصّ اللّه بعطائه، ولا أحدَ ينازعُه فيه.

الـرِّزقُ في اللّوح مكتوبٌ في الأزل، ولكنّ الإنسانَ مخلوقٌ مِن عجل

ملمحُ التّصدير البلاغيّ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

يلاحظُ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فيه ما يسمَّى بالتّصدير، أو ردَّ العَجُز على الصّدر، والاسمُ الأوّل أَوْلَى؛

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/464.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 160.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

لأنّه مطابق لمسمّاه، وهو بابٌ في البلاغة مذكورٌ، وتستعمله العربُ في الشّعر والنّثر، وهو في النّثر: "أن يجعل أحد اللّفظين المكرّرين؛ أعني: المتّفقين في اللّفظ والمعنى، أو المتجانسين، وهما المتشابهان في اللّفظ دون المعنى، أو الملحقين بالمتجانسين، وهما اللّفظان اللّذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه، في أوّل الفقرة واللّفظُ الآخر في آخرها، ومنه أن يكون اللّفظان مكرّرين، كقوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: 37]، ومن ذلك قول الشّاعر:

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلطِمُ وجهَه *** وليسَ إلى داعي النَّدى بِسَريع[1].

والتَّوافق هنا بين الفِعل: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ ولفظ: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهو ما يُسمَّى بالتَّصدير، قد أضفى على جوِّ الدُّعاءِ رِقَّةً وعذوبةً، وأكَّد حاجةَ عيسى عليه السلام إلى كرَم اللّه تعالى، وإجابةِ دعائه.

دلالةُ التّذييل الجاري مَجرَى التّعليل، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

اجتمعت جملةُ مؤكِّدات؛ لتقرير معنى التّفرّد في الصّفة

خُتِم الدُّعاءُ بما يُؤكِّد مضمونَ طلبه، فقال: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهذا الختامُ تذييلٌ جارٍ مجرى التَّعليل؛ أي: أنت خيرُ مَن يرزقُ؛ لأنَّك خالقُ الأرزاق، ومُعطيها بلا عوض، ويبرز هذا التَّأكيدُ من خلال ضمير الفَصل ﴿وَأَنتَ﴾، والقَصرِ المُستفادِ من ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، إضافة إلى صيغة التَّفضيل في ﴿خَيۡرُ﴾، والمبالغة المستوحاة من دخول (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]، وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ اجتماع جملة المؤكِّدات، مِن شأنه أن يُبرزَ معانيَ التّفرّد، في صفة اللّه المذكورة في السّياق، وهي قوله: ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

ملامحُ التّشابه في آيتي (المائدة) و(المؤمنون):

تأكيدُ أنَّ الله خيرُ الرّازقين

هنالك تشابه بين قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾ [المؤمنون: 72]، ولنا أن نسأل: لمَ خُصَّت

(1) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها: (التّصدير).

(2) السّلميّ، دعاء الأنبياء في القرآن الكريم، ص: 112.

كلُّ آية بما فيها منَ المبتدأ بالضّمير ﴿وَأَنتَ﴾ في الأولى، والضّمير (هو) في الثّانية؟
ونقول: إنَّ آية المائدة بُدِئت بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فلمّا كان عيسى عليه السلام يدعو اللّه؛ ناسبه قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أمّا آية المؤمنين فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: 72]؛ فلمّا كان يتحدّث عن نفسه ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾ [المؤمنون: 72].

ملامح التّشابه بين ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، و﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، و﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، و﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾:

نجد التّشابه في الآيات التّالية: قال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونسأل: لمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها منَ المبتدأ؟ والجواب على ذلك: أنَّ آية المائدة تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾؛ فلمّا طلبَ عيسى عليه السلام منَ اللّه الرِّزقَ ناسبه قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أمّا آية الأعراف فقد تقدَّم فيها قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]؛ فلمّا طَلب شعيبُ عليه السلام من ربِّ العزَّة الفتحَ بينه وبين قومه ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وأمّا آية الأنبياء فقد بُدئت بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ [الأنبياء: 89]؛ فلمّا كان المرادُ من ذلك أن يجعل لزكريا عليه السلام مَن يرثه مِن ميراث النُّبوَّة ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، وأمّا آيةُ (المؤمنون) فقد تقدَّم فيها قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: 29]؛ فلمّا طلَب نوحٌ عليه السلام من ربِّ العزَّة أن يُنزله خيرَ مُنزل ناسبه قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، وهذا منَ الإعجاز في تناسب القرآن، واتّساقِ آياته، بما لا طاقةَ للبشر به؛ لأنّه كلامُ اللّه الّذي أعجز البشرَ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النّساء: 82].

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

إجابةُ طلب عيسى في المائدة، والاستجابةُ المشروطةُ بترك دواعي الكفر

حينما طلب عيسى عليه السلام من ربّه أن يُنزّل عليه وعلى أصفيائه مائدةَ طعامٍ منَ السّماء، تكونُ عيدًا مشهودًا، وآيةً باهرةً، ورزقًا ظاهرًا لهم، جاءَت هذه الآية لتفصِّل على طريقة المحاورة، استجابةَ الله له، فقال: إنّي مُنزلها عليكم الآن، فكانتِ الآية استجابةً مشروطةً، وليسَت بوعد[1]، فحقَّقَ الله لهم وعدَه، فأنزلها عليهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَالَ﴾: القولُ، مَصدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أو لم يَكُن[2]، والقولُ: واحد الأقوال، وجمع الأقوال: أقاويل وأقاول بحذف الياء، وأصله مصدر، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34][3]، وقول الله وحيٌ لعباده، ومنه ما ورد في هذه الآية: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فهو وحي الله لعيسى بإجابة دعائه، وكلُّ قول منَ الله، فهو حقٌّ لاريبَ فيه، وعدلٌ لا جورَ فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: 122]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النّساء: 87].

2) ﴿مُنَزِّلُهَا﴾: التَّنزيلُ: نَقلُ الشَّيءِ من أَعلَى إلى أسفَل، يُقال: نَزَلَ الشَّيءُ، يَنزل، نُزولًا؛ أي: هَبَطَ وانحَدَرَ من عُلوّ إلى سُفل. وأَصلُه: الانحِطاطُ مِن عُلوّ. والتَّنزيلُ أيضًا: التَّرتيب، وهو: إنزال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (القول).

الشَّيء مُرتَّبًا شيئًا بعدَ شيءٍ[1]، قال الرّاغب في معنى التّنزيل: "ما وصل منَ الملأ الأعلى بلا واسطة، تعديتُه بـ (على) المختصّ بالعلوّ أولى، وما لم يكن كذلك، تعديتُه بـ (إلى) المختصّ بالاتّصال أولى"[2]، ومعنى الآية: مُنَزِّلٌ هذه المائدة الّتي طلبتم إنزالَها.

3) ﴿يَكۡفُرۡ﴾: الكُفرُ: نَقيضُ الإيمانِ، ويأتي الكُفرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، وأصلُ الكُفرِ: السَّترُ والتَّغطيَةُ، يُقال: كَفَرَ الشَّيءَ؛ أي: سَتَرَهُ وغطّاهُ، ومنه سُمّيَ غيرُ المُؤمِنِ كافِرًا؛ لأنَّه غطَّى الحقَّ والإيمانَ[3]، "والكفر أربعةُ أنحاء: كفرُ الجحود، مع معرفة القلب، كقوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وكفرُ المعاندة: وهو أن يعرفَ بقلبه، ويأبى بلسانه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، وكفرُ النِّفاق: وهو أن يؤمنَ بلسانه والقلبُ كافرٌ، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11]، وكفرُ الإنكار: وهو كفر القلب واللّسان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [الأحقاف: 3]"[4].

والمعنى: يجحد منكم رسالتي إليه، وينكرُ نبوّةَ نبيّي عيسى عليه السلام، ويخالفُ طاعتي.

4) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ به الشَّيءُ. ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهرِ الأرضِ من جميعِ الخَلْقِ. والجَمع: العَوالم. والعالَمون: أصنافُ الخَلْقِ، سُمّي بذلك؛ لاجتماعِهم، وقيل: العالَم هو ما احتواهُ الفَلَك، وقيل: هو مُختَصٌّ بمَن يَعقِل منَ الإنسِ، والجِنِّ، والمَلائِكة، والشَّياطين[5]، "وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ منَ الخَلقِ فهو في نَفسِه مَعْلَمٌ وعَلَمٌ. وقال قَومٌ: العالَمُ سُمّيَ لاجتماعِه. قال اللّهُ تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمِثْلِهِمْ في العالَمينا"[6]

والمعنى: عالَمي زمانهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نزل)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/40، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).

(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نزل).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، ولسان العرب: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.

(4) الخليل، العين: (كفر).

(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استجاب الله دعاء عيسى عليه السلام، فأخبره بأنَّه مُنزِّل المائدة عليهم، لكنْ مَن كفَرَ بعد إنزالِ هذه الآيةِ الباهرة، فإنَّه تعالى سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا، لا يُعذِّبُه أحدًا من عالَمي زمانهم؛ لأنَّه شاهدَ الآيةَ الباهرةَ، فكان كُفرُه كُفرَ عِناد، وحقَّقَ الله لهم وعده، فأنزلها عليهم[1]، ولم يبقَ بعد إنزال المائدة، وهي دليلٌ حسّيٌّ على صدق نبيِّهم عذرٌ لِمَن يكفر أو يستهزئُ بآيات الله، وأدلّتِه الدّالّةِ على وجودِهِ وقدرتِهِ[2].

استجابة الله لعيسى، بالإنزال المشروط للمائدة، وأنّه لا عذر بعد ذلك

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عمّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ ممّا قبلُ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، وهو: لقد دَعا عيسَى عليه السلام وألَحَّ وتضرَّعَ، فبِمَ أجابَهُ اللهُ تعالَى؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

دلالةُ ذكر لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

لفظ الجلالة (الله) عَلَمٌ لذاته العليَّة، مُستجمِعٌ لمعاني جميع أوصافه الكاملة، وأوصافه الشَّريفة، ما عُلم منها وما لم يُعلم، ولمّا كان الوحي موصولًا بين عيسى وربِّه، وهو: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النّساء: 171]، وكانتِ المعجزةُ المطلوبة تحدّيًا لقدرة الله العليا، كان منَ المعقول أن يكون القولُ منَ الله مباشرةً، لا من

لفظُ الجلالة (الله) علَمٌ على ذاته العليَّة المُستحقَّة لجميع المحامد الرّضيّة

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/519.

غيره؛ للتّدليل على عظيم القُدرة، وأنّه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

دلالةُ الاستئناف، وورودُ الإجابة بصيغةِ التّفعيل، في قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

وعدُ الله بتنزيل المائدةِ حقٌّ لا ارتياب فيه، وهو لا يخلفُ الميعادَ

جملةُ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ في محلّ نصبٍ مقولِ القول، استئنافٌ للكلام، إذ بعد إلحاح عيسى بالدّعاء الخاشع والضّراعة المتبتّلة للّه تعالى، وردتِ الإجابةُ بصيغة التّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، وجاء أسلوبُ التّوكيد في السّياق؛ "ليرفعَ أيَّ احتمال للشّكّ عند أقلّ المؤمنين إيمانًا باللّه، بأنّ المائدة لم تنزلْ، فكيف يقعُ لعقل عاقل أنّ كلمةَ اللّه لا تنفّذ، وأنّ قضاءَه لا يمضي؟"[1]، وهو الصَّحيح - الَّذي عليه الأكثَرونَ - أنَّها مُنزَلَةٌ؛ لأنّ اللّه تعالى لا يعدُ شَيئًا، ثمَّ يُخلِفُ، وقد قالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ويكون عدمُ ذكرها في الأناجيل الّتي بأيديهم، منَ الحظّ الّذي ذُكِّروا به فنسوه، أو أنّه لم يُذكَر في الإنجيل أصلًا، وإنّما ذلك كان متوارثًا بينهم، ينقله الخلفُ عنِ السّلف، فاكتفى اللّه بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدلُّ على هذا المعنى قولُه: ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. وقال الحسن ومُجاهد: إنّ المائِدَةَ لم تنزلْ أصلًا، فإنَّ اللّه تعالى لمّا أوعد على كفرهم بعد نزول المائِدَة؛ خافوا أن يكفر بَعضُهم؛ فاستعفوا عَن إنزال المائِدَة؛ فعلى هذا تَقديرُ قَوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ يعني: إن سألْتُم، إلّا أنّهم استعفوا فَلم ينزل[2].

نُكْتَةُ التَّأْكِيدِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

تَحْقِيقُ اسْتِجَابَةِ اللهِ تَعَالَى بِتَنْزِيلِ المَائِدَةِ

أُكِّدَتِ الجُملَةُ ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ تحقيقًا لِاسْتِجابَةِ اللّه تعالَى بِتَنْزِيلِ المائِدَةِ، ولأنَّ ظاهرَ سؤالِهم مِنَ الاستفهامِ عنِ الاستطاعَةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/80.

(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/80، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/249.

- ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ - يوهِمُ اضْطِرابَهُمْ في الاعتقادِ، فكان الأَنْسَبُ تقويةَ الجملةِ[1].

الإِعْلامُ بِأَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ بِالاسْتِجابَةِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالمُسْنَدِ اسْمًا فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

جيءَ بالمسنَدِ - ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ - اسْمًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إيذانًا بأنَّهُ سُبحانَهُ مُنجِزٌ وعْدَهُ بالاستجابَةِ، وتأكيدًا لهذا التَّنزيلِ وإشعارًا بالِاسْتِمْرارِ[2].

الظّرفُ وإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا، فإنّه لم يُقطَع عنها معنًى

دلالةُ الظّرف المقطوع عنِ الإضافة، في قوله تعالى: ﴿بَعۡدُ مِنكُمۡ﴾:

قوله: ﴿بَعۡدُ﴾، ظرفٌ للزّمان مقطوعٌ عنِ الإضافة، وقد بقي المضاف إليه في النّيّة، والتّقديرُ: أي: من بعد نزول المائدة، ومثلُه في القرآن قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الرّوم: 4]؛ أي: من قبْلِ الغلبة ومن بعدها، فإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا ومعنًى كان معربًا، نحو: (جئتُ بعْدًا)، ومنه قولُ الشّاعر:

فَساغَ ليَ الشَّرابُ وكُنتُ قبلًا *** أكادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفُراتِ[3].

وحيث إنَّ المراد هنا بعديّةٌ معيّنةٌ، محدّدةٌ بزمانِ ما بعد إنزال المائدة، عيّن ذلك بالإضافة، أو بحذف المضاف إليه، وبناءُ (بعدُ) على الضّمِّ، نحو قولنا: (جئتك بعدُ أو من بعدُ)، فالظّرف هنا وإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا لم يُقطعْ عنها معنى، والبعديّةُ هنا قُصِد بها الزّمانُ المعيَّن، ولم يُقصَد بها إلى التّنكير والإبهام[4].

التَّوكيدُ اللّفظيّ يُفيدُ تقريرَ المؤكَّد

العِلَّةُ من تعدُّد التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾:

أكَّد اللّه تعالى في الآية الكريمة عذابَه للكافر، بآياته بعد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/111.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(3) صافي، الجدول: 7/67.
(4) صافي، الجدول: 7/67.

ظُهورها، وقيام الأدلَّة على صِحَّتها بمُؤكِّدات، وهي: حرفُ (إنّ) في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾، والمصدرُ في قوله: ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، إذِ المفعول المُطلَق هنا؛ لتأكيد وقوع الفِعل، وهو العذاب، ووصفُ هذا العذاب بأنَّه لا يُعذَّبُ مثلَه أحدٌ منَ العالَمين، وهذه المؤكِّدات لوقوع العذابِ على الكافر بآيات اللّه بعد وضوحها، مِن أسبابه: أنَّ الكُفرَ بعد إجابةِ ما طلبوه، وبعدَ رؤيته ومشاهدته، وبعدَ قيام الأدلَّةِ على وحدانيةِ اللّه، وكمالِ قدرته، وبعد ظُهورِ البراهينِ الدّالّةِ على صِدقِ رسولِه، فالكفرُ بعد كلِّ ذلك، يكون سببُه الجُحودَ والعِنادَ والحسَدَ.

والجاحدُ والمعاندُ والحاسدُ، يستحقّون أشدَّ العذابِ، وأعظمَ العِقابِ[1].

دلالةُ اجتماع (إنّ) وخبرِها، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

وعدُ الله مُنجَزٌ لا محالةَ، طال الزّمنُ أو قصُرَ

في تصديرِ الجُملةِ الكريمة بلفظ التَّحقيق (إنّ) المُتضمِّنِ نونَ الإفراد؛ للدَّلالة على الوحدانيّة، وجَعلُ خبره اسمًا، وهو قوله: (مُنَزِّل)، تحقيقٌ للوَعد، وإيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى مُنجِزٌ له لا محالةَ، مِن غير صارفٍ يُثنيه، ولا مانعٍ يُلويه[2]، ومنَ الملاحظ أنَّ اللّه تعالى لم يقُل: (إنّي سأنزلها عليكم)، بل قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، مُعبِّرًا باسم الفاعل، الثّابت الدّائم الفِعل، وهو الَّذي يُسمّيه الكوفيّون الفِعلَ الدّائمَ؛ أي: هي واقعةٌ يقينًا عليكم.

سرُّ تَكرارِ (حرف العَين)[3] في الآية الكريمة، وأثرُه في تلاؤم الألفاظ:

صوتُ الحرف في لغة العرب صورةٌ عن معناه

يُلحظُ في الآية الكريمة تَكرارُ حرف العين ستَّ مرّات، ومع ذلك

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.

(3) قال تقيُّ الدّين الهلاليّ: "حرفُ العين خاصٌّ بالشّعوب السّاميّة الّتي خرجَت من جزيرة العرب، ولا يوجد عند غيرهم، فالشّعوب الّتي ليس في لغتها عين، كالأوروبيّين مثلًا، لا يستطيع الشّخص الّذي لم يسمع العين، ولم يتدرّب عليها مدّة طويلة، لا يستطيع أن ينطق بها أبدًا، إلّا إذا خالط شعبًا ساميًّا كالعرب، والسّريانيّينَ، والآشوريّينَ، والعبرانيّينَ، والقبطِ، والبربر، مدّة طويلة، وقد يخالطهم زمانًا طويلًا، ولا يستطيع أن ينطقَ بها". الهلاليّ، حديث مع زائر كريم، ص: 24.

فإنَّ القارئَ لا يحسّ بصُعوبة النُّطق به، أوِ الانزعاج مِن سماعه؛ بل يشعرُ أنَّ تكراره له وظيفةٌ خاصَّة تنسجمُ مع موضوع الآية، وذلك أنَّ صوت العين يتحقَّق فيه صورةُ العذاب، وتكرارُه يُضفي على السّياق انسجامًا رائعًا من حيث رصفُه وتآلفُه مع غيره في السّياق. وهذه الكلمات ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ﴿بَعۡدُ﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿عَذَابٗا﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

عِلَّةُ التَّعبير بصيغة التَّكثير، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

إنـزالُ المائدة، إظهارٌ لِلُطف الله وإحسانه، وتأكيدٌ لفضله وامتنانه

عِلَّة التَّعبير عن الجواب بصيغة التَّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، المُنْبِئَة عن التَّكثير، مع كونِ الدُّعاءِ منه ﷺ بصيغة الإفعال ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا﴾؛ لإظهارِ كمال اللُّطفِ والإحسانِ، مع ما فيه مِن مراعاةِ ما وقَع في عِبارة السّائلين[1]، إضافةً إلى ذلك أنَّ التّعبير بـ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ يعني تحوُّلَ الخطاب من عيسى ﷺ إليهم؛ وبذلك صار التفاتًا في الخطاب؛ لأنَّ اللّه تعالى سيأخذُ عليهم عهدًا مباشرًا، وليس بواسطة عيسى ﷺ.

توجيهُ القراءة في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾، يفسّحُ المعنى، وينوّعُ الدّلالةَ:

تنوّعُ القراءات القرآنيّة استيعابٌ للّسان، وإبرازٌ للبيان

في قوله تعالى: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ قراءتان متواتران: إحداهما: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بتشديد الزّاي - منَ التّنزيل، وهي تفيد التَّكثيرَ أو التَّدريج، كما تُنبئُ عن ذلك صيغةُ التَّفعيل، وبهذه القِراءة قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، وقرأ الباقون ﴿مُنزِلُهَا﴾ بكسر الزّاي - منَ الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة[2]، و"الجمهور أنّها نزلَت، وهو الّذي اختاره ابن جرير، قال: لأنّ اللّه تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ووعدُ اللّه ووعيدُه حقٌّ وصدقٌ، وهذا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 135، والفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/282، وابن مهران، المبسوط، ص: 189، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

القول هو، واللّه أعلم، الصّوابُ، كما دلّت عليه الأخبار والآثار، عنِ السّلف وغيرِهم"[1].

سرُّ التَّعبير بلفظِ: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ دون (إليكم)، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

دقّةُ ألفاظ القرآن وأناقتُها، تؤكّدُ تفرّدَ معجزة القرآن وسُموَّها

نلاحظُ أنّ قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، جاءَت جوابًا لقولهم:

﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: 112]، فاستعمل اللّفظ الّذي استعملوه هم، فقالوا: ﴿عَلَيۡنَا﴾ الدّالّة على العُلوّ والفوقيَّة، ولم يقولوا (إلينا)؛ لأنَّ (إلينا) فيها معنى التَّقريب لا الفوقيَّة، فهم أرادوا المائدة من فوق، فقال تعالى: آتيكم بها من فوق كما أردتم، وفي تنزيلِها وفق مرادِهم، إلزامٌ لهم بالحجّة، وتأكيدٌ أنَّ الإيمانَ بالآية، والإقرارَ بالرّسول الّذي جاء بها، وباللّه - الّذي غيّر بنزولها عليهم منَ السّماء قانونَ كونِه السّاريَ؛ في أنَّ المائدةَ تحضَّر بما خلق اللّه في الأرض، باتّخاذ الأسباب المألوفة، لا بنزولها، مائدةً مزخرفةً بألوان الطّعام، وقد تهيّأت بإرادة كُنْ فيكون؛ لتحقيقِ مرادِ اللّه في إقامة الحجّة على المعاندين، وقطعِ الأعذار عنهم، وإرجاعهم إلى الجادّة.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَذَابٗا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾:

عَظَمَةُ الذّنْبِ وَشِدَّةُ الجُرْمِ تُوجِبَانِ عَظَمَةَ العَذَابِ وَشِدَّتَهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٗا﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾ للدِّلالَةِ على تعظيمِ العذابِ وشدَّتِه، والمَعْنَى: فإنّي أعذِّبُهُ عذابًا عظيمًا شديدًا، ويُقوّي هذه الدِّلالَةَ قولُه ﷻ بعدُ: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/298.

بلاغةُ طِباق السَّلب، في قوله: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

إثبـاتُ الفعل ونفيُه في آنٍ واحـد؛ لتأكيد شـدّةِ العذاب وقوّتِه

يلاحظُ أنّ التَّضادّ في هذا اللَّون منَ الطِّباق، إنَّما هو تضادٌّ صوتيٌّ بإثبات الفعل ونفيِه في آن واحد، فقد أثبتَ العذابَ ونفاه، في الوقت نفسه، كما أنَّ طرفيِ الطِّباق ليسا محورَ هذا التَّضادّ الأُسلوبيّ، إنَّما المحور الحقيقيّ هو (أداة النَّفي)، إذ يتمّ في ضوئها هذا الانزياحُ الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ، كما أنّ الوظيفة الأهمَّ في توظيف طباق السَّلب صوتيًّا؛ هي الكشفُ عنِ الدَّلالة بأبعادها المختلفة، خلال هذه البِنية اللُّغويّة[1]، وهذا مَلمَحٌ منَ الإعجاز الصّوتيّ، تأنسُ به الأذن للقرآن.

دلالةُ انتصاب ﴿عَذَابًا﴾ على المصدريّة، أو على التّشبيه بالمفعول به:

المخـالـفُ بعد رؤية الخوارق، يستحقُّ عذابًا مغلّظًا جـزاءَ عنادِه

قوله: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، وهو"جنس منَ العذاب، لا يعذِّبُ به غيرَهم؛ لأنّهم كفروا بعد أن رأوا منَ الآيات ما لم يرَهُ غيرُهم، فكانوا أعظمَ كفرًا، فصاروا أعظمَ عذابًا"[2]، وفي لفظ: ﴿عَذَابًا﴾ وجهان: أوّلهما: أنّه اسمُ مصدرٍ منصوبٌ على المصدريّة، بمعنى: التّعذيب، وهو مفعول مطلق من نفس لفظ الفعل ومعناه، أو مصدرٌ على حَذفِ الزّوائد، نحو: (عطاءً) للفعل (أعطى)، والثّاني: وهو قول أجازه أبو البقاء العُكبَريُّ؛ "بأن يكون مفعولاً به على السّعَة، يعني: جَعل الحَدَث مفعولاً به مبالغةً، وحينئذٍ يكون نصبُه على التّشبيه بالمفعول به، كمعمول الصّفةِ المشبّهة، والمصدر، والظّرف المتّسع فيهما[3]، والمعنى في ذلك: سيكون عذابًا مُستحقًّا، سوف يَصْلونه يقينًا، بما كان منهم من مخالفة بعد أن أراهم اللّه دلائلَ قدرته، وألزمَهم الحجّة بإنزال المائدة المطلوبة.

(1) جاب الله، جماليّات التّلوين الصّوتيّ في القرآن الكريم، ص: 101.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/86.

(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/509.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِ ﴿أَحَدًا﴾:

جاءَ التَّعبير بلَفْظِ ﴿أَحَدًا﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قصدًا لإرادَةِ العُموم، وذلك أنَّ لفظَ ﴿أَحَدًا﴾ نكرَةٌ واردٌ في سياقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، وكلمةُ (أحد) مِن جملةِ ألفاظٍ جرَى استعمالُ العرَبِ لها لقَصْدِ الاستيعابِ والشُّمولِ إذا ورَدَت منفيَّةً، ذكرها ابنُ السِّكّيت في (باب ما يقال: ما بالدار أحدٌ)[1]، وبلغَ بها خمسةً وعشرينَ لفظًا.

بُلُوغُ العَذَابِ فِي الشِّدَّةِ حَدًّا لَا نَظِيرَ لَهُ

علّةُ اختصاص الحواريّين دون العَالَمين بالعذاب في الآية الكريمة:

لمّا كانتِ الآية الكريمة متضمِّنةً قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكان اللّه تعالى قد اختصَّ الحواريّين دون العالمين؛ بأن أنزلَ عليهم مائدة منَ السَّماء؛ ناسبه أن يختصَّ مَن كفَر بها بعذابٍ لا يعذِّبه أحدًا مِنَ العالمين، وفي هذا منَ التَّهديد والتَّرهيب ما لا يقادرُ قدره، قال ابن عمر: "إنّ أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة: المنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون"[2]، ولا شكّ أنّ عدل اللّه يقتضي أن يكون العذابُ متناسبًا شدّةً وخفّةً، مع عظم الجُرم وخفّته، ومع الإصرار وعدمه، ومع إقامةِ الحجّةِ بمعاينة المُعجزة، أو عدم ذلك، وهذا كلّه إمهالٌ لترك الفرصة لأوبة هؤلاء المعاندين، وتوبتِهم للّه ربّ العالمين، فإذا أصرّوا على ضلالهم فإنَّ اللّه تعالى بقدرته يُمهل ولا يُهمل، وحينها سيكون العذابُ شديدًا، بأكبرَ ممّا كانوا يتصوّرون، واللّه لا يظلمُ النّاس شيئًا، ولكنّهم يظلمون أنفسَهم فيهلكون.

العقابُ الواقعُ في مُنتهَى العدل الرّبّانيّ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ

أَثَرُ دِلَالَاتِ اللَّامِ فِي تَوْجِيهِ الـمَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

(1) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 275.

(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/118.

﴿أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوز أن تكونَ لِلْعَهْدِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبه أحدًا مِنْ عالَمي زمانِهم.

ويجوزُ أن تكونَ للاستغراقِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبُه أحدًا من العالمينَ مطلقًا[1]، وهذا أَظْهَرُ وأَقْوَى؛ لتقدُّم صيغَةِ العُموم قبل لفظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وهيَ النَّكِرَةُ - ﴿أَحَدٗا﴾ - في سياقِ النَّفْي.

بَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ بِالعذابِ في الآية:

التَّحْذِيرُ مِنِ اقْتِرَاحِ الآيَاتِ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تهديدٌ بليغٌ لِمَنْ يكْفُرُ بَعْدَ نُزولِ المائِدَة، وفيه تعريضٌ لهذه الأُمَّةِ بِنَهْيِها عن اقتراحِ الآياتِ[2]؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ العواقِبِ الوخيمَةِ حالَ التَّشكُّكِ فيها أو إنكارِها بَعْدَ وُرودِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العَالَمون) و(العَالِمون):

(العالَمون) بفتح اللّام: كلُّ ما سِوى اللّه ﷻ؛ أي: ربُّ الملائكة والجنِّ والإنس والسّماوات والأرض والجميع. وأحيانًا يُطلَق العالمَين على الإنس فقط، كقول اللّه ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47].

"والبابُ كُلُّه قياسٌ واحدٌ، ومِنَ البابِ العالَمونَ، وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِه مَعْلَمٌ وعَلَمٌ، وقال قَومٌ: العالَمُ سُمّيَ لاجتماعِه. قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أَجمَعونَ. وأَنشَدوا:

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمَثْلِهِمْ في العالَمينا"[3]

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

روي عنِ ابن عبّاس في تفسير: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربّ الجنّ والإنس، وقال قتادة: ربّ الخلق كلّهم، قال الأزهريّ: "والدّليل على صحّة قولِ ابن عبّاس قولُه ﷻ: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1]، وليس النّبيّ ﷺ نذيرًا للبهائم ولا للملائكة، وهم كلّهم خلق اللّه، وإنّما بُعِثَ نذيرًا للجنّ والإنس"[1].

وأمّا (العالِمون): بالكسر، فهم ذوو العِلْم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43][2]، وعن بعضهم أنّ التّعلّم هو تنبّه النّفس لتصوّر المعاني. وإذا قيل لك: اعلمْ كذا، قلتَ: قد علمتُ، وإذا قيل لك: تعلّمْ كذا لم تقُل: قد تعلّمتُ[3]، فالعالَمون بالفتح، تُستعمل للعوالم المكوّنة للكون، والعالِمون بالكسر، يقصد بها أهل العلم، وشتّان بين المعنيين، فالفرق بينهما جليّ، وفي العلم والعالِمينَ، وقال الشاعر:

ما الفَضلُ إلّا لِأَهلِ العِلمِ إِنَّهُمُ *** علَى الهُدَى لِمَنِ استَهدَى أَدِلّاءُ
فَقُمْ بِعِلمٍ ولا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا *** فالنّاسُ مَوتَى وأَهلُ العِلْمِ أَحْياءُ[4]

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(4) الجرجانّي، أسرار البلاغة، ص: 265.

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين عطاءِ اللـه لعيسى ابن مريم، ومساءلته عن تمحيض العبوديّة لربّه

لمّا كان الكلام قبل هذه الآية، في تَعداد النِّعم الَّتي أنعَم بها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي إلهامه للحواريّين الإيمانَ به وبرسوله، وفي طلب الحواريّين مِن عيسى إنزالَ مائدة مِنَ السَّماء، ثمَّ طلبِ عيسى مِن ربِّه إجابةَ مطلبهم، وإخبارِ اللّه تعالى بأنَّه أجابهم إلى ما طلبوا، أعقبَ الكلامَ في هذه الآية سؤالَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على مَرأى مِن قومه؛ توبيخًا وتقريعًا لهم على افترائهم، وإجابةَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك بالتَّبرُّؤِ مِن ذلك الذَّنب العَظيم الَّذي اقترفوه بعده، وهو القولُ بالتَّثليث[1]، إذ أقرَّ للّه بالألوهيّة، والالتزامِ بشرعه القويم، وأنّه لا يستطيع أن يكون إلّا عبدًا للّه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾: الاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِنَ الأخذِ، وهو: الاقتِناءُ. يُقال: أَخَذَ الشَّيءَ، يأخُذُه، أخذًا؛ أي: اقْتَناهُ. واتَّخَذَ الماشيَةَ لِلولادَةِ واللَّبَنِ والصّوفِ؛ أي: اقتَناها لِذلك. ويُطلَقُ على الاكتِسابِ. يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالًا، يَتَّخِذُه، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ. ومِن مَعانيهِ أيضًا: الاستِعمالُ، وصُنعُ الشَّيءِ[2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/61.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن الأثير، النّهاية: (أخذ).

والمعنى هنا: الجَعلُ والتّصيير؛ أي: اجعلوني وصيِّروني.

2) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ. يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا وسُبحانًا؛ أي: نَزَّهتُهُ وبَرَّأْتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقصٍ. وأَصلُه مِنَ السُّبْحِ، وهو: البُعدُ. والتَّسبيحُ: التَّبعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحتُ في الأَرضِ؛ أي: أَبعَدتُ فيها. ويأتي بمعنى قَولِ سُبحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ؛ أي: قال: سُبحانَ اللّهِ. ويُطلَقُ التَّسبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعبادةِ[1]، قال زيد بن عمرو بن نفيل، أو ورقة بن نوفل:

سُبحانَ ذي العَرشِ سُبحاناً يَدومُ لَهُ *** رَبُّ البَرِيَّةِ فَردٌ واحِدٌ صَمَدُ
سُبحانَهُ ثُمَّ سُبحاناً يَعودُ لَهُ *** وقَبلَنا سَبَّحَ الجوديُّ والجُمُدُ[2]

والمعنى هنا: تنزيهًا لك وتقديسًا.

3) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: جَمعُ مُفرده غَيب، والغَيبُ: المَستورُ والمحجوبُ، يُقالُ: غابَتِ الشَّمسُ، تَغيبُ، غَيْبَةً وغَيبوبَةً: إذا استَتَرَت وحجبت. والغَيبُ أيضًا: المخفيُّ، وضِدُّه: الشَّهادةُ والحضور[3]، و"كلُّ ما غابَ عنِ العُيونِ وكانَ مُحصَّلًا في القُلوب فهو غَيبٌ"[4]، مصدرٌ بمعنى الفاعل.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تقريعُ النَّصارى بما أحدَثوه مِنَ الكذب على الله

يُذكِّرُ اللّهُ تعالى بقولِه لعيسى عليه السلام يَومَ القيامة بحَضرةِ النَّصارى؛ توبيخًا لهم وتقريعًا: يا عيسى ابنَ مريم، هل أنتَ أَمَرْتَ النّاسَ أن يَجعلوك وأمَّك معبودَينِ، تُعبَدانِ مِن دونِ اللّهِ تعالى؟ فيُجيبُ عيسى عليه السلام بغاية الأدب: أُنزِّهُك يا ربِّ، عن كلِّ ما لا يَليق بك؛ لا يَنبغي لي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (سبح).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/51.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(4) الثّعالبيّ، فقه اللّغة، ص: 25.

أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ، إنْ كنتُ قلتُه فأنت تعلمُه؛ فإنَّه لا يَخفى عليك شيءٌ، فأنت تَعلمُ ما أُضمِرُه في نفسي، ولا أعلمُ ما تُخفيه في نفسِك؛ إنَّك أنتَ علّامُ الغيوب، ولايخفى عليك شيء في الأرض ولا في السّماء؛ لأنّك وحدك صاحبُ العلم المحيط، بكلِّ خفيٍّ وغائب(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

بَيَانُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى لِعِيسَى عليه السلام يَوْمَ القِيَامَةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ معطوفٌ علَى قَولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ [المائدة: 110]؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْن، وذلكَ لِاشْتِراكِهما في الخَبَرِيَّةِ، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ - (قالَ) - والمُسْنَدِ إليه - (اللّهُ)، وبينَهُما مناسبَةٌ وهي أنَّ كِلَيْهما اشتمَلَ على كلامِ اللّهِ سُبحانَهُ لعيسى ابنِ مريمَ يومَ القيامَةِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي عنِ المستقبل في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ الزَّمانيّةُ للفعل الماضي، لها أهمّيّتُها في سياق الآية

جاء التَّعبيرُ عنِ المستقبل بلفظ الماضي (قال)؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوعه، ودَلالَةً عَلى كَونِ الأمرِ وثُبوتِهِ، ونلحظُ هنا أنَّ الفعل يكتسبُ دلالتَه الزَّمنيّة منَ السِّياق الوارد فيه، لا مِن بنيته الصَّرفيّة فحسب، وغالبًا ما يكون وراء تحوّلها ماضيًا ومستقبلًا معنًى بلاغيٌّ(2)، وهذا السِّياق، يورد فيه اللّه ما سوف يقع مِن مساءلة يوم القيامة، وماذا سيكون الجواب؟ وهي إحاطةٌ كلّيّة بالغيب، لا يقدر عليها غيرُ اللّه سبحانه وتعالى.

دِلَالَةُ إِيجَازِ الحَذْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ حَذْفٌ بِإِضْمارِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 169.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262، والقزوينيّ، الإيضاح: 2/96، والإسفراييني، الأطول، ص: 1426، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/90.

فِعْلٍ، والتَّقديرُ: (اذْكُرْ)، والمَعْنَى: اذْكُرْ للنّاسِ إِذْ قالَ اللّهُ سُبحانَهُ يا عيسَى ابنَ مَرْيَم[1]؛ أي: إِذْ يَقولُ.

تَجدُّدُ التَّذْكِيرِ بِتَحْقِيقِ الأُلُوهِيَّةِ وَنَفْيِ الشَّرِيكِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ

فَفي الجملَةِ حذفٌ للفِعْلِ مع فاعِلِه، وفي تقديرِ هذا الفِعْلِ - (اذكُرْ) - إيماءٌ إِلَى تجدُّدِ هذا التَّذْكيرِ؛ لِما تضمَّنَهُ من تحقيق الأُلوهيَّةِ ونفيِ الشَّريكِ عن اللّهِ ﷻ.

دِلَالَةُ ﴿وَإِذۡ﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ؛ فَهُوَ مُحَقَّقُ الوُقُوعِ

(إِذْ) في الأصلِ ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، وتَرِدُ دالَّةً على المُسْتَقْبَلِ، كالوارِدَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ [غافر: 70 - 71]، و(إِذْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ يجوزُ أن تَكونَ للماضي، ولكنَّها استُعْمِلَتْ للحدَثِ المُسْتَقْبَلِ إيماءً إلى تحقُّقِ وُقوعِهِ، ولذا جيءَ بَعْدَها بالفِعْلِ ماضيًا - (قالَ) - ودِلالتُهُ مستقبَلِيّةٌ.

ويَجوزُ أن تَكونَ ﴿وَإِذۡ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ مُسْتَعْمَلَةً في معْنَى الاستِقْبالِ، والأَوَّلُ أظْهَرُ؛ إبْقاءً لـ (إِذْ) على أصْلِ دِلالَتِها.

سرُّ إظهار اسمِ الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

إقامةُ الظَّاهر مقامَ المُضمَر، غايةٌ بلاغيّةٌ مفيدةٌ في الدّلالة

أظهر هاهنا اسمَ اللّه تعالى في مقام الإضمار، إذ سبق ذِكره في الآية السّابقة، مع إمكانِ الإضمار، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، وكان ممكنًا أن يقول: (وإذ قالَ: يا عيسى ابنَ مَريمَ)؛ وذلك للمُبالغةِ، وإدخالِ الخوفِ، وتربيةِ المهابةِ، إذ إعادة ذِكر الاسم هنا تلفت النَّظر إلى تجدّدِ الموقفِ، وبيانِ خطرِ المشهدِ، والّذي يملك هذا هو الحقُّ ﷻ وحده، ولذلك يعلّمنا القرآن شرف الصّدق في الكلمة، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/100.

ٱللَّهُۚ﴿٢٤﴾ [الكهف: 23 - 24]، وعلى الإنسان أن يحترم قدرتَه المحدودةَ، وأن يتذكّر دائمًا قدرةَ الحقّ ﷻ عليه[1]، ولذلك ذكر اسمَه الجليل.

سرُّ استعمال أداة نداء البعيد (يا)، في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى﴾:

نـداءُ الـحـقِّ ﷻ، فـيـضٌ مـنَ التَّكـريـم والتَّنبيه، لكلّ عقلٍ نبيهٍ

للسّائل أن يَسأل لماذا استعملَ النِّداء بـ (يا) لنداء البعيد، واللّه ﷻ أَقربُ إلى عِباده من حَبل الوريد؟ الجواب: لعلَّ ذلكَ يرجع إلى عِظم هذه الأمور وأهمّيّتِها، فعَدَل عن نداءِ القريبِ إلى نداءِ البعيدِ؛ تحقيقًا للدَّلالات الآتية: لتنبيه المُخاطَب، ولفتِ نظره إلى هذا الأمر المهمِّ، ولعُلوِّ مكانة المُخاطِب المُنادي، والإشعارِ ببُعد منزلته؛ تنزيلًا للبُعد المعنويّ منزلةَ البُعد المكانيّ[2]، علاوةً على إظهار بشريَّة عيسى عليه السلام لمَنِ ادَّعى بأنَّه إلهٌ، وذلك ما لا يقبله عقل، ولا إنصاف.

إيثارُ ذِكر الكُنية في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

تأكيدُ حقيقةِ بشريَّةِ عيسى عليه السلام

إيثارُ ذِكر الكنية ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ لاقتضاء المقام، وتأكيدِ بشريَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّه مقام ادِّعاء النَّصارى أُلوهيَّةَ عيسى وأمِّه[3]، وهذا المذكور "صورة للمجاوبة الّتي تكون يوم القيامة بين الرّسل، وأقوامِهم، ومَن بعثوا إليهم بشكل عامّ، وخصّ عيسى عليه السلام في هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنّه كان أكثرَ الرّسل الّذين افْتُرِيَ على شخصهم النّبويّ الكريم، إذِ ادّعوا عليه الألوهيّةَ، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارة إلى الولادة الطّبيعيّة الّتي تنفي أن يكون إلهًا، أو ابنَ إله، أو فيه عنصرُ الألوهيّة بأيّ وضع منَ الأوضاع؛ لأنّ الألوهيّة والبشريّة نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشرُ فيه ألوهيّةٌ، ولا الإله فيه بشريّةٌ"[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3469.
(2) فيّود، من بلاغة النّظم القرآنّي، ص: 234.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2405.

دلالةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ﴾:

مـن وسـائـل التّعبير القرآنيّ إقـامـةُ الحجّة بطريقة الإقرار

هذا السُّؤالُ سؤالُ تفهيم، وليس باستفهام عن جَهلٍ ليَعلَمَهُ، وهو يَخرُجُ مَخرَجَ الاستفهام، وإنَّما يُرادُ به النَّهيُ عن ذلك، ويُتهدَّد به، وقد علِمَ قائلُهُ أكان ذلك أم لم يكن، ويسمّيه أبو هلال تجاهلَ العارف، أو مزجَ الشَّكّ باليقين[1]، ووُجّه السُّؤالُ لغرض بلاغيّ، وهو التَّنبيهُ ورفع الهيبة[2]، واللّه ﷻ عالمٌ بأنَّ النَّبيَّ عيسى عليه السلام بريءٌ، ولكنّ توجيهَ السُّؤال يكشفُ بعضَ الدَّلالات منها:

أوّلًا: التَّقريعُ والتَّهديد والتَّقريرُ الواقع على النّاس الذين اتّخذوهما إلهين من دون اللّه: فالغَرَض منه أن يقولَ ويقولون، ويسألُ ويجيبُ، فيكونَ تقريعُهم أشدَّ وأبلغَ حجّةً، وخجلُهم أشدَّ وأعظمَ، ويكونُ اختصاصُ ذلك لطفًا لمَن سمعه، وزجرًا لمَن اقتضى عليه، وهذا كما ادَّعت النَّصارى على عيسى عليه السلام "فهذا ليس استفهامًا، وإن خرج مَخرَج الاستفهام، وإنَّما هو توبيخ لمَن ادَّعى ألوهيَّة عيسى؛ ليكون إنكارُه بعد السُّؤال أبلغَ في توبيخ الكَفرةِ، وأشدَّ في التَّقريع، أو لتعريفه أنَّ قومه غيَّروا بعده، وادَّعوا عليه ما لم يقله[3].

ثانيًا: التَّوبيخُ والتَّبكيتُ: أي: توبيخُ الكفرة وتبكيتُهم، ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهو توبيخ، ولم يقُل: (اتَّخذوني ومريم)، وإنَّما إطلاقهُ صِفةَ الأُمومة، كأنَّه قيل: أأنت قلتَ ما قلتَ مع كونك مولودًا وأُمّك والدة، والإله لا يَلد ولا يولد؟[4]، ومثاله: ما ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التّكوير: 8 - 9]، أنّه قال: "إنّما

(1) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 387، والشّهريّ، الشّاهد الشّعريّ في تفسير القرآن الكريم، ص: 644.

(2) ابن حجّة، خزانة الأدب: 1/274.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/87، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/375، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/618.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/62.

تُسأل تبكيتًا لِمَن فعل ذلك بها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، فجعل السّؤال منَ الله لعيسى ﷺ، أيضًا تبكيتًا لقومه المتطاوِلين(1)، وهو منَ التّوبيخ المقرِّع المُخْرِس، وطرحُه بهذه الصّيغة أبلغُ وأوفى بالدّلالة.

ثالثًا: التَّعريفُ والتَّنبيه: أي: تعريف عيسى ﷺ وتنبيهُه؛ بأنَّ قومًا قدِ اعتقدوا فيه وفي أُمِّه، أنَّهما إلهان؛ لأنَّه يمكنُ أن يكون عيسى ﷺ لم يعرف ذلك إلّا في تلك الحال.

رابعًا: عمدةُ حجَّتهم بالألوهيَّة لعيسى ﷺ، ففي قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، عبَّر النَّظم القرآنيُّ عن مريم بالأُمومة؛ للدَّلالة على عمدة حجَّتهم في الألوهيَّة، وهو ولادته منها بغير أَبٍ، فالتَّعبيرُ به وأُمِّه أدلُّ وأبلغُ مِنَ التَّعبير بعيسى ومريم(2).

توالي إجابات عيسى ﷺ بجُمَل مفصولة:

مسؤوليّة الأنبياء عظيمة؛ لعِظَم المهمّة المُناطةِ بهم

يرى تمّامُ حسّان أنَّ الموقف، هو مَوقِف الفزَع، أو مُطلَق الانفعال، فالسُّؤال الإنكاريّ الَّذي ابتدأ بتحديد المسؤوليَّة الفرديَّة بقوله: ﴿ءَأَنتَ﴾، من شأنه أن يُفزع عيسى ﷺ، فكان جوابه بجُمل مُنفصلة، رُبِطت ربطًا معنويًّا، وهي: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، و﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، و﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾، و﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، و﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾(3).

عِلَّةُ تقديم المسنَد إليه على الخبر الفِعليّ، في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾:

المسيحُ هو محورُ المساءلة، والعنصرُ الأساسُ لإبطال المزاعمِ الباطلةِ

لتقديم المسنَد إليه على الخبر الفعليّ، دلالةٌ على أنَّ الاستفهامَ مُتوجِّهٌ إلى تخصيص عيسى ﷺ بالخبر دون غيره، مع أنَّ الخبر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/65.
(2) سمير داود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 55.
(3) تمّام حسّان، الخلاصة النّحويّة، ص: 19.

حاصلٌ لا محالة[1]، وإبرازُ المسنَد إليه باعتباره محورَ المساءلة، والعنصرَ المقصودَ بالتّهمة، والّذي من أجله كرّست الدّعايةُ، وألصق الإشهارُ بالوصف المندّدِ به بشخصه[2].

دِلَالَةُ لَامِ التَّعْرِيفِ فِي (النَّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾:

الاِعْـتِـقَـادُ الفَاسِدُ الرَّدِيءُ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

اللّامُ في (النّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ وهُم النّاسُ الذين أُرْسِلَ إلَيْهِم عيسَى عليه السلام مِنْ بني إسرائيلَ.

ويَجوزُ أن يَكونَ لَفْظُ النّاس عامًّا مُسْتَعْمَلًا في الخُصوصِ؛ فيكونُ مجازًا مرسلًا، علاقَتُه العموميَّةُ، والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادَةُ توبيخِهِمْ وتقريعهم؛ لِكَوْنِهِم اعتقَدوا هذا الاعتقادَ الرَّديءَ وفيهِم الكِتابُ، فكأنَّه لا ناسَ إلّا هُمْ[3].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾:

توبيخُ الكَفَرة الّذين اتّخذوا عيسى وأمَّه إلهينِ وتَبكيتُهم

قد يسأل سائلٌ: أنَّ النَّصارى لم يقولوا بإلهيَّة مريم، فكيف قال: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ﴾؟ والجواب: أنَّ النَّصارى لمّا ادَّعت في عيسى أنّه إلهٌ، ورأوا أنَّ مريم ولدته لزمَهم بهذه المقالة على سبيل التَّبعيّة[4]، "فالاستفهامُ فيها يُراد به التّقريعُ والتّوبيخُ بغيرِ عيسى عليه السلام، وهم المتَّخذون له ولأمّه إلهين، دَخَل على المبتدأ، لهذا المعنى الذي تقدَّم؛ لأنّ الاتّخاذ قد وقع لابدّ، واللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾: للتّبليغ فقط، و﴿ٱتَّخِذُونِي﴾، يجوز أن تكون بمعنى (صَيَّر) فتتعدَّى لاثنين، ثانيهما: ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾ ، وأن تكونَ المتعدّيةَ لواحدٍ فـ ﴿إِلَـٰهَيْنِ﴾ حالٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/113.

(2) إنّ تقديمَ الاسم يقتضي تشبيهاً بما اقتضاه في الفعل الماضي، منَ الإقرار بأنّه الفاعلُ، أو الإنكار أن يكون هو الفاعل، فمثال الأوّل: قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس: 99]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، فحكمُ المضارع في الآية الأولى حكمُ الماضي في الآية الثّانية. ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 117.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/363.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿مِن دُونِ﴾:

مَنْ عَبَدَ اللهَ تَعالَى وَعَبَدَ غَيْرَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ سُبْحَانَهُ أَصْلًا؛ لِعَدَمِ الاِعْتِدَادِ بِعِبَادَتِهِ الشِّرْكِيَّةِ

﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها التَّوكيدُ، ولفظُ (دون) مستعمَلٌ في الأصْلِ للمكانِ المُجاوز، إلّا أنّه يَرِدُ كثيرًا مرادًا به المكانُ المجازيُّ بمَعْنَى المغايَرة، فيكون مرادِفًا لـ (سِوَى)، والتَّقديرُ: (أَأَنت قلتَ للنّاسِ اتَّخذوني وأمّيَ إلَهَيْنِ سِوَى اللّهِ تعالَى)، والمقصودُ: أَتُشْرِكونَ مع اللّهِ سُبحانَهُ غيرَهُ في العبادَةِ، وليس المرادُ: أتعبدونَ معبودًا وتترُكونَ عبادَةَ اللّهِ تعالَى[1].

لَكِنْ لَمّا كانَ حَقُّ اللّهِ تَعالَى في العِبادَةِ لا يَنْبَغي أَن تَدْخُلَهُ الشَّرِكَةُ؛ جُعِلَ مَن عَبَدَ اللّهَ تعالَى وعبَدَ غيرَهُ، كمَن لَمْ يَعْبُدِ اللّهَ تعالَى أصلًا؛ لِعَدَمِ الاعتدادِ بعبادَتِه الشِّرْكيَّة.

إيثارُ إظهارِ اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾:

فضحُ شناعةِ ما اتَّخذته النَّصارى، مِن إشراكٍ لله في ألوهيّته

إيثار إظهارِ اسمِ الجلالة (اللّه)، وكان المقامُ مقامَ إضمار، فيقال: (مِنْ دوني)؛ لبيان شناعة هذا الاتِّخاذ، والنّعي على قائليه بالحُمق والسَّفه[2]. والتَّعبير بالاتّخاذ يدلُّ على أنَّ الشَّيءَ المتَّخذَ ليس أهلًا لذلك[3]، فالمعبودُ أصلًا، والمُؤَلَّهُ حقًّا، هو اللّه دون سواه، والمتّخَذُ إلهًا ليس له حقُّ العبادة، ولا قيّوميّةُ الألوهيّة، وإنّما صنعَته أوهامُ عابديه، ورفعَته إلى ذلك المقام العالي، ظنًّا منها أنّها بذلك تصنع منه إلهًا من دون اللّه، ولهذا ورد التّشنيع بهذا الزّعم، وفضحُ ضلالته وبطلانه.

سقوطُ قرينة النّغمةِ لوضوح الكلام بدونها، وإغناء غيرها عنها:

قد تسقطُ قرينةُ النّغمة لوضوح الكلام بدونها، وذلك عند قراءة قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 6/288، و7/113.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.

(3) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 338.

في إدراك نظامِ تضافرِ القرائن، ما يفسِّر الكثيرَ مِنَ الظَّواهر اللّغويّة

﴿دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فإنّك لو وقفت عند لفظ الجلالة، فإنّك لا تقف في التّلاوة بنغمة الاستفهام، ولكن بنغمة التّرتيل العاديّ، ولا يحصلُ استغرابٌ عند السّامع، كما لو سمع جملة "هل رأيتَ محمدًا؟ " بنغمة التّقرير الّتي في (قد رأيتُ محمدًا) مثلًا، وهو ما أكّده تمّام حسّان، في مَعرِض تحليله لتضافر القرائن، بقوله: "والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها، وفي إدراك هذه الحقيقة تفسيرٌ لكثير ممّا عدّه النّحاة مسموعًا يُحفَظ ولا يُقاس عليه، أو عَدّوهُ شاذًّا، أو قليلًا، أو نادرًا، أو خطأً، وكم أبدأ النّحاة وأعادوا في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: 63]، ونحن ندرك من فهمنا لظاهرة تضافر القرائن، وإغناء بعضها عن بعض، أنّ المنافسةَ الصّوتيّةَ دعَت إلى إهمال العلامة الإعرابيّة؛ لأنّ الرّتبة واقتران الخبر باللّام، أوضحا أنَّ لفظ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ لا يمكن فيه إلّا أن يكون اسم إنّ، ولم يعُد للعلامة الإعرابيّة بعد ذلك منَ الأهمّيّة، ما يحتّم الاحتفاظ بها، ولا سيّما أمام إرادة المناسبة الصّوتيّة بين أصوات المتلازمين"[(1)].

دلالةُ الفَصْل بينَ قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾:

اختلافُ طرفي الإسنادِ ومتعلّقاتِه يُوجِب الفصلَ بين الجملتين

يرجع هذا الفصل إلى سببين، الأوّل: اعتبارُ الاستئناف البيانيّ فيها؛ لتنزيلها منزلةَ جوابٍ عن سؤال مقدَّر نشأ عمّا قبلها، وهذا هو الأظهرُ فيها عند المفسّرين، أو هو المتعيِّن، إذ لم يذكروا غيره، يعني: شبه كمال الاتّصال. الثّاني: كمال الانقطاع؛ لاختلاف طرفي الإسناد في الجملتين، واختلاف لواحق الإسناد، فالمسنَد إليه في الأولى هو الله ﷻ، والمسنَد إليه في الثّانية هو عيسى عليه السلام، ومتعلّقاتُ الإسناد في الأولى اتّخاذُ غير الله إلهًا من دون الله، ومتعلّقاتُ

(1) تمام حسّان: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 240 - 338.

الإسناد في الثّانية تنزيهُ اللّه عنِ الشّريك والمماثل، فأنت ترى أنَّ كمالَ الانقطاع ملحوظٌ هنا، كما لُحِظ شبهُ كمال الاتّصال، فعلى أيّ الاعتبارين الفصلُ واجبٌ بين الجملتين[1].

فنُّ المذهبِ الكلاميّ[2] في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾:

الألوهيَّة حقٌّ خاصّ لله تعالى، لا ينازعه فيها أحد

قال ابنُ عاشور رحمه اللّه: "وقد أفاد الكلامُ تأكيدَ كون ذلك حقًّا له بطريق المذهب الكلاميّ؛ لأنّه نفى أن يُباح له أن يقول ما لا يحقّ له، فعلم أنّ ذلك ليس حقًّا له، وأنَّه لم يقله لأجل كونه كذلك، فهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة والتّفنُّن"[3]، وشبيهُه قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]؛ أي: (الفساد مُنتفٍ، فكذلك الإلهيّة مُنتفيةٌ)، وقولُه تعالى أيضًا: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]؛ أي: (الكوكب آفل، وربّي ليس بآفلٍ)، ينتج منَ الثّاني: الكوكب ليس بربّي[4]

وقد حُذِفَت ألف (سبحان) هنا، وفي بقيَّة الآيات سوى ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّ المراد منَ التَّسبيح فيها أمرٌ ملكوتيٌّ، لا يدركه الحسُّ، وهو تنزيهُ اللّه تعالى عمّا يُشركون، وعمّا يصفون به اللّه ﷻ ممّا لا يليق به، وثبتَتِ الألف في المَوضِع الثّالث: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّه تسبيحٌ المقصودُ منه التَّعجّبُ من أمرٍ مُلكيٍّ خاصٍّ بالكفّار، وهو إصرارُهم على طلبهم إلى الرَّسول ﷺ أمورًا لا يقدر عليها إلّا اللّه[5].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(2) المذهب الكلاميّ: هو أن يأتي البليغ على صحّة دعواه، وإبطال دعوى خصمه بحجّة عقليّة قاطعة، تصحّ نسبتها إلى علم الكلام. السُّبكي، عروس الأفراح:/264، والإسفراييني، الأطول: 1/107، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/114.
(4) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 208.
(5) ابن البنّا، عنوان الدّليل من مرسوم خطّ التّنزيل، ص: 73.

فائدةُ التَّعبير بلفظ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

تأدُّبُ الرُّسلِ عليهم السلام مع ربِّهم ﷻ، دليلٌ على معرفتِهم به

سُبحانَ: مَصدَرٌ بمعنى التَّسبيحِ، وهو ممّا أُميت فِعلُه الَّذي هو سَبَّحَ من حيث دلالتُه على التَّسبيح، بمعنى: التَّنزيه، فقد أُهملَتْ صيغة (فَعَلَ)، وحلَّ محلَّها صيغة (فعَّل) الدّالّةُ على التَّكثير، وهي أنسبُ في التَّعبير عنِ الدَّلالة هنا[1]، فضلًا عنِ المبالغة في التَّنزيه، واشتقاقِ المفردة منَ السَّبح؛ وهو الإبعاد في الأرض والذَّهاب، من جهة النَّقل إلى صيغة التَّفعيل والعُدول عنِ المصدر إلى الاسم الموضوعِ له، خاصَّة المشيرِ إلى الحقيقة الظّاهرة في الذِّهن، وإقامتِه مقام المصدر، مع الفعل ممّا لا يخفى[2].

ونضيف إلى أنّ منَ الدَّلالات السّياقيّة لهذه المفردة؛ هي التَّأدّبُ في الحوار، فمِن أدبِ العُبوديَّة أن يُسبِّح العَبد ربَّه، إذا سمع ما لا ينبغي أن يسمعَ فيه تعالى، أو ما يخطر بالبالِ تصوّرُ ذلك، وعليه جرى التَّأديب الإلهيّ في كلامه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: 116]، فعيسى عليه السلام، لمّا سمع ذِكر ما لا يليق نسبتُه إلى ساحة الجلال الإلهيّ، والعَظَمة الرّبّانيّة؛ وهو اتّخاذُ النّاس إلهين من دون اللّه، شريكَيْن له سبحانه، بدأ حوارَه بلفظةٍ تحمل دلالةَ الأدب الرَّفيع، والخُلُقِ العظيم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

نُكتَةُ التَّعبِيرِ بِالمُضَارِعِ ﴿يَكُونُ﴾:

وُجُوبُ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى تَجَنُّبِ المَقَالَاتِ البَاطِلَةِ وَالِاعْتِقَادَاتِ الفَاسِدَةِ

جاءَ النَّفْيُ بالفِعْلِ المضارِعِ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما كانَ لي أَن أقولَ)؛ للإيماءِ إلى مَعْنَى الاسْتِمرارِ فيه، فأفادَ هذا أنَّ هذا القولَ لا يزالُ ممْنوعًا على تطاوُلِ السِّنينَ[3].

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/235 - 236، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 516، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/63.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/364.

نأيُ عيسى عليه السلام عمّا لا حقَّ له في اعتقاده أو قولِه

دلالةُ التَّضمين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾:

ذكر أبو البقاء: أنَّ ﴿مَا﴾ مفعول على تضمين ﴿أَقُولَ﴾ معنى (أدَّعي)، ومثله السَّمين الحلبيّ[1]، وقد تجيء هذه الصّيغة فيما لا ينبغي ولا يحسنُ مع إمكانه، ومنه قولُ الصّديق رضي الله عنه: "ما كان لابن أبي قحافة أن يصلّي بين يديّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم"، ثمّ قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فوفّقَ اللّه عيسى عليه السلام لهذه الحجّة البالغة"[2]، وهذا الّذي نفاه السّياقُ على لسان عيسى عليه السلام، يؤكّد براءتَه ممّا قالوا، وانبتاتَه عمّا زعموا ظلمًا وزورًا.

براءة عيسى عليه السلام من فِرية النّصارى

بلاغةُ المجاز المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾:

في قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ مجاز مُرسَل علاقتُه المسبّبيَّةُ، والأصلُ: ما يجوز لي، والجوازُ سببٌ في (الكون)، فنفى المُسبَّبَ وأراد السَّبَبَ، وهو أبلغُ في هذا المقام مِن نفي السَّبب، مسارعةً منه عليه السلام إلى نفي ما نُسب إليه منَ النَّصارى.

ملمحيّةُ الاستئناف لنفي الاتّهام، وظهور دلالته، وتعظيم المُستحقّ للمقام

وجهُ إيثار ﴿لَيْسَ﴾ على الفعل المنفيّ:

في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، نجد "لفظ ﴿مَا﴾ عبارةً عنِ القولِ المذكورِ؛ أي: (ما يستقيم، وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحِقّ لي أن أقوله)، وإيثارُ ليس على الفعل المنفيِّ؛ لظهور دلالتِه على استمرار انتفاءِ الحقيّة، وإفادةِ التّأكيد بما في حيِّزه منَ الباء، فإنّ اسمَه ضميرُه العائدُ إلى ﴿مَا لَيْسَ﴾، وخبرَه ﴿بِحَقٍّ﴾، والجارّ والمجرور، فيما بينهما، للتّبيين، كما في:

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/471، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/512.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262. والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1201، 1204) مفرّقًا، ومسلم، الحديث رقم: (421)، وأبو داود، الحديث رقم: (940)، والنّسائيّ، الحديث رقم: (793) باختلاف يسير، وابن ماجه، الحديث رقم: (1035) مختصرًا، وأحمد، الحديث رقم: (22807).

(سُقياً لك) ونحوه"[1]، ويُلمحُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ للتّنزيه ومبيّن للمُنزَّه منه، وفي هذا بلاغةُ استيضاح، ويقينُ إيضاح.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ دون عبارة: (لم أقله):

اتِّساقُ التّركيب، وانسجامُه مع المعنى

عَدَل بالتَّعبير بالجملة الكريمة: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ عن قوله: (لم أقله)؛ وذلك للمُبالغة في التَّبرئة من ذلك؛ إذ نفى أن يوجد استحقاقٌ له به، أن يقول ذلك القولَ، وذلك أبلغُ، فنفى أنْ يُباح له أن يقول ما لا يحقُّ له، فلا يحقُّ له دعوةُ النّاس إلى عبادته، وظهر ذلك من خلال العُدول عنِ القول المباشر، والنَّفي بـ"ليس"، واقترانِ الخبر بالباء، وهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة، وأدَّتِ الأدواتُ النَّحويّة الكثيرَ منَ الاتِّساق والانسجام بين المعنى والتَّركيب.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿لِيٓ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾:

بُعْدُ عِيسَى عليه السلام عَـنْ طَـلَـبِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؛ مُشْعِرٌ بِطَلَبِهِ مَا هُوَ حَقٌّ لَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما لَيْسَ بحقٍّ)؛ لكونِ الأوَّلِ أخصَّ، ونفيُ الأخصِّ لا يسْتَلْزِمُ نفيَ الأَعَمِّ، فكانَ لفظُ الآيةِ دالًّا على أنَّه يطلبُ ما هو حقٌّ لَهُ.

دِلَالَةُ البَاءِ فِي ﴿بِحَقٍّۚ﴾:

عِـظَـمُ حَـقِّ اللـهِ تَـعَالَى فِي أُلُوهِيَّتِهِ يُوجِبُ المُبَالَغَةَ فِي نَفْيِ جَمِيعِ مَا يُخِلُّ بِهَذَا الحَقِّ

الباءُ في ﴿بِحَقٍّۚ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ صِلَةٌ[2] يُرادُ بها التَّوكيدُ، وأصلُ التَّركيبِ: ما لَيْسَ لي حَقًّا، والغرضُ مِنَ التَّوكيدِ المبالَغَةُ في نَفْيِ الإخلالِ بحقِّ الألوهيَّةِ عَنْهُ؛ لِعِظَمِ حقِّ اللّهِ تعالَى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانُهُ: 3/52.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

عُمُومُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِالظَّوَاهِرِ وَالخَفِيَّاتِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ عن قولِهِ سُبحانَهُ قَبْلُ: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾؛ لوقوعِهِ تَعْليلًا[1] بالأولويَّةِ والأَحْرَويَّة، وذلك أنَّه إذا كان اللّهُ ﷻ يعْلَمُ ما في النَّفْسِ؛ فعِلْمُهُ بالقَوْلِ أَوْلَى وأَحْرَى.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (النَّفْس) في قوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾:

دلالـةُ النَّفس عـلى الأمـور المغيّبة

المراد بقوله ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾: تعلَمُ ما عِندي ولا أعلَم ما عِندك، وتعلَمُ حقيقتي ولا أعلمُ حقيقتك، أو تعلَمُ مغيبي ولا أعلَمُ مَغيبك، فكان فحوى ذلك: تعلَمُ ما أعلَمُ ولا أعلَمُ ما تعلَمُ[2]، وهو من فصيح الكلام وبيِّنه[3].

وخصَّ النَّفس بالذِّكر؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الكتم، والانطواءِ على المعلومات[4].

وجهُ سَوقِ صور تعليلات عيسى عليه السلام:

ظهور عبوديّة المسيح لربّه، وبراءته من كلّ اتّهام، وطهارة باطنه وظاهره

قول عيسى عليه السلام: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، فيه تقرير أنَّ اللّه العليم، بما تكنّه الأنفس، وما تخفي الصّدور، يعلمُ براءةَ نفسِ عيسى وقلبِه، من كلّ شائبة تحول بينه وبين ربّه، وقد أورد الشّعراويّ ثلاث صور في هذه الآية: "الصّورة الأولى: هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، والصّورة الثّانية: هي قول عيسى: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾، والصّورة الثّالثة:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/223، والواحديّ، التّفسير البسيط: 7/601، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 5/540.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/115.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/263.

هي: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾"[1]، وهذه الدّلائل أوردها القرآنُ على لسان عيسى عليه السلام؛ لتبرئة ساحته العقائديّة، ومشاعره الإيمانيّةِ، مِن أن تُزَنَّ بريبة، من هذا النّبيِّ المعصوم، الّذي هو روح اللّه، وكلمته.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾:

التَّبَايُنُ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ ثَابِتٌ فِي الذَّاتِ وَفِي الصِّفَاتِ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ طباقُ سَلْبٍ بين ﴿تَعۡلَمُ﴾ و﴿وَلَآ أَعۡلَمُ﴾، ونُكْتَتُهُ بيانُ شدَّةِ التَّمايُزِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في الأوصافِ كما أنَّ بينَهُما تمايُزًا في الذّاتِ.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لِمَعْرِفَةِ الغُيُوبِ حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِخَبَايَا النُّفُوسِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عن قولِه ﷻ قَبْلُ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾؛ لوقوعه تَعْليلًا[2]، فهو تعليلٌ للتَّعْليلِ، وذلك أنَّ مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لمعرِفَةِ الغيوبِ حَرِيٌّ أن يكونَ عالِمًا بِخبايا النُّفوسِ.

دلالةُ الفاصلة وبلاغتُها في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

إِثْبَاتُ عِلْمِ الغيبِ لله ﷻ، تتويجٌ لعلمه بتلك الغيوب المذكورة

أكّد اللّهُ علمه تعالى للغيب بأربعة مُؤكِّدات: بلفظ (إنَّ) المؤكّدة، وبضميرِ الفَصل ﴿أَنتَ﴾، بَيْنَ طَرَفَيِ الجُملةِ، وهذا يدُلُّ على الحَصرِ، يعني: (أنت لا غيرُك علّامُ الغيوبِ)[3]، وبصيغة المبالغة الَّتي تُعدُّ مُبالغةً بالنّسبة للعبيد، ولكنَّها حقيقةٌ فوق ما نتصوّر بالنِّسبة للّه تعالى العليم الحكيم، وإنَّ هذا أقصى ما تتّسع له لغتُنا القاصرةُ عنِ التَّعبير عنِ الحقائق الإلهيَّة.

وبجمع ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾، فلم يُفردِ الغيب، بل قال: الغيوب بكلِّ أنواعها؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3472.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.
(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة، ص: 2/548.

ما وقع في الماضي، وما يقع في المستقبل، وما يتعلّق بالكائنات كلِّها[1]، والدّاعي البلاغيُّ لهذا التّوكيدات: هو أنَّ مضمونَ الكلام حقيقةٌ عظيمةٌ؛ ومن حقِّ الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوبٍ فخمٍ عظيمٍ مثلِها.

وجهُ المبالغة في ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من (عَالِم) في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

أمّا صيغة المبالغة في اسم الفاعل ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من عالِم فللتّكافؤ مع كثرَة المعلوم؛ وهو ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾، وهذه هي المرّة الثّانية في سورة المائدة، تأتي فيها كلمة: ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ جمعًا للغيب، وفي كلتا المرَّتين، قوبل هذا الجمع ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ بصيغة المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾، أمّا إذا جاء الغيب مفردًا فإنّ القرآن يقابله بـ (عالِم) لا علّام، وذلك كثير في التّنزيل الحكيم، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجنّ: 26][2].

أنواع المشتقّات تتناسب مع السّياقات إفرادًا وجمعًا

نُكْتَةُ جَمْعِ الغُيُوبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

جُمِعَ الغَيْبُ علَى ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنواعِ الغيوبِ، ما كان مِنْها ماضيًا أو مستقبَلًا، وما تعلَّقَ بالحسّيّاتِ أو المعنويّاتِ، وما كان غَيْبًا في نفسِهِ أو غيبًا بالنِّسبةِ للبَشَرِ جميعًا أو لطوائفَ مِنْهُمْ؛ كلُّ هذا يَعْلَمُهُ اللّه تعالى، وفي هذا إشْعارٌ بعمومِ عِلْمِ اللّه ، وأنَّه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ[3].

الإِشْعَارُ بِعُمُومِ عِلْمِ اللهِ ، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

مناسبة الفاصلة للسِّياق: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

جاءتِ الفاصلة تعليلًا لمضمون الجُمَلتين منطوقًا ومفهومًا، وهذا تقريرٌ وتأكيدٌ للجُملتَين: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ وقوله: ﴿تَعۡلَمُ

النّص القرآنيّ نصٌّ متكاملٌ مؤتلفٌ، ولو كان من عند غير الله لاختلف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2408.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/277.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2408.

﴿مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾؛ لأنَّ ما انطوَتْ عليه النُّفوسُ مِن جُملة الغيوبِ، ولأنَّ ما يَعلمُه علّامُ الغيوبِ، لا يَنتهي إليه عِلمُ أحدٍ[1].

المتشابه بين آيتي المائدة [110، 116]، من حيث الفصلُ والوصلُ، ومقولُ القول:

الآيتان هما قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: 110]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، والسّؤال المطروح في التّشابه: لمَ خُصَّت كلُّ آية بما فيها منَ الفَصل أو الوَصل، وبما فيها من مَقول القَول؟ والإجابة كالتّالي: الآية الأولى: يسبقها قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فلمّا كان قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدلًا من قوله: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ ناسبه الفَصل، أمّا الآية الأخرى فيسبقُها: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: 110]؛ فلمّا أُريد مواصلةُ حوار اللّه مع عيسى، بذكر قولٍ آخرَ، والجمعُ بين القولين، ناسبَه الوصلُ بالواو، ولمّا خُتمَتِ الآيات قبل هذه الآية بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان أشدَّ مظاهر كفر النَّصارى بعد ذلك إشراكُهم باللّه، وأُريد توبيخهم على ذلك، وإقامةُ الحجَّة عليهم، ببيان براءة عيسى عليه السلام من ذلك، ناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ الآية.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(أخذ) و(اتَّخذ):

الأخذُ مصدر أخَذتُ بيدي، ويُستعار فيُقال: أخذَهُ بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذاب، وأصلُه في العربيَّة الجمعُ. والاتِّخاذُ أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرّ فيه، مثل: الدّار يتَّخذها مسكنًا، والدّابّة يتَّخذها قِعدة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميّةَ والحُكمَ[2]. ومنَ المعلوم أنَّ (أخذ) تدلُّ على فِعل الأخذ بكلِّ طواعيّة وحُبٍّ، وأنَّ (اتَّخذ) تدلُّ على الافتعال

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/693، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 100 - 101/3.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

والتَّكلّف، في أمور الحياة العامّة والخاصّة، وأمّا في العبادة باتّخاذ آلهة غيرِ اللّه، فهو محضُ التّمرّد على الخالق، والخروجِ عنِ الفطرة الّتي فطر اللّه النّاس عليها، وهذا ما عليه معنى الآية، فهو أمرٌ قائمٌ على التَّكلّفِ، ومخالفةِ المألوفِ الَّذي عليه النّاس، ممّا رضيه اللّه لعباده، من عبادته تعالى، وعدمِ الشِّرك به.

الأمّ والوالدة:

الأمّ هي: "الوالدة، والجميع: الأمّهات، ويقال: تأمّم فلان أمًّا؛ أي: اتّخذ لنفسه أمًّا. وتفسيرُ الأمِّ في كلّ معانيها: أمّة، لأنّ تأسيسه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصليّة، ولكنّ العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللَّبس"[1]. والأمُّ تدلُّ على الأصل والرِّعاية، والحنان والرَّحمة، والأُمُّ تُطلَق على الوالدة القريبة الَّتي ولدت، والبعيدة الَّتي ولدت مَن ولدته؛ ولهذا قيل لحواء: هي أُمُّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط[2]، أمّا الوالدة فلا تُطلق إلّا على مَن ولدت، والرّضاعة تتعلّق بها، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: 233].

التَّسبيح والتَّقديس:

التَّسبيح: قول (سبحان اللّه)، وهو: "تنزيه للّه عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف به، ونصبه في مَوضِع فعل على معنى: تسبيحًا للّه، تريد: سبّحتُ تسبيحًا للّه؛ أي: نزّهتُه تنزيهًا"[3]، والتَّسبيح: مُشتقٌّ منَ السَّبح، وهو المرُّ السَّريعُ في الماء أو في الهواء، فالمُسبِّحُ مُسرعٌ في تنزيه اللّه وتبرئتِه منَ السّوء، والتَّقديس: التَّطهير والتَّعظيم، ووَصْفُه بما يليق به من صفات الكمال، فيكونُ التَّسبيحُ نفيَ ما لا يليق، والتَّقديسُ إثباتَ ما يليق[4]، وقال بعضهم: "بين التّسبيح والتّقديس فرقٌ، وهو أنّ التّسبيحَ هو التّنزيه عنِ الشّرك والعجز والنّقص، والتّقديس هو التّنزيه عمّا ذكروه عنِ التّعلّق بالجسم، وقبول الانفعال، وشوائب الإمكان، وإمكان التّعدّد في ذاته وصفاته، وكونِ الشّيء من كمالاته بالقوّة"، والتّقديس أعمٌّ، إذ كلُّ مُقدِّسٍ مُسَبِّحٌ من غير عكس"[5].

(1) الخليل، العين: 8/434.
(2) المناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(3) المناويّ، التّوقيف: 3/151.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 2/60، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 297، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/92.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نفيُ عيسى لتُهمِ الألوهيّة، وتأكيدُ بلاغه أوامرَ الله، إلى أنْ رفعه الله

لمّا نَفى عيسى عليه السلام عن نفسه ما يستحقُّ النَّفيَ، ودلّ عليه في الآية السّابقة، أثبتَ ما قاله لهم على وجه مصرّح بنفي غيرِه في هذه الآية؛ ليكونَ ما نُسب إليه من دعوى الإلهيَّة منفيًّا مرَّتين: إشارةً وعبارةً، فقال مُعبِّرًا عنِ الأمر بالقول مُطابقةً للسُّؤال، وفسّر بالأمر بيانًا؛ لأنَّ كلَّ ما قاله من مُباح أو غيره دائرٌ على الأمر، من حيث الاعتقادُ؛ بمعنى: أنَّ المخاطَبَ بما قاله الرَّسولُ مأمورٌ بأن يعتقدَ فيه أنَّه بتلك المَنزلة، لا يجوز أن يعتقدَ فيه أنَّه فوقَها ولا دونَها، يعبُدُ اللهَ تعالى بذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدًا﴾: الشَّهادَةُ: الحُضورُ والمُعايَنَةُ، يُقالُ: شَهِدَ الشَيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبارِ والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ بالأَمرِ: إذا أَخبَرَ به وأعلَمَ غَيرَهُ به، فالشَّهادَةُ: إخبارٌ عن علمٍ يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونَحوِ ذلك. ومِن مَعانيها: العِلمُ والرُّؤيَةُ والإدراكُ[2]، والمعنى هنا: شاهدًا عليهم، وعلى أفعالهم وأقوالهم.

2) ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾: وفَى: كلمةٌ تَدلُّ على إكمالٍ وإتمام. مِنه الوَفاء: إتمامُ العَهد وإكمالُ الشَّرط. ووَفَى: أَوفَى، فهو وفيٌّ. ويقولونَ: أَوفيتُك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 365 - 366/6، والسّريح، التّناسب بين الآيات: 2/133.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والزّبيدي، تاج العروس: (شهد).

الشَّيءَ، إذا قَضيتَه إيّاه وافيًا. وتوفَّيتُ الشَّيء واستوفيته؛ إذا أخذته كلَّه حتَّى لم تترك منه شيئًا. ومنه يُقال للميِّت: تَوفّاه اللّه[1]؛ والمعنى: "فلمّا انتهى أجل إقامتي الّذي قَدَّرته بينهم"[2].

3) ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾: الحارِسُ، يُقالُ: رَقَبَ الشَّيءَ، يَرقُبُه، وراقَبَهُ، مُراقَبَةً ورِقابًا؛ أي: حَرَسَهُ، ورَقيبُ القَومِ: حارِسُهُم. ويأتي بمعنى الحافِظِ والرّاعي والأَمينِ والمُنتَظِرِ والرّاصِدِ[3]. "والرّقيبُ اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى، يعني: أنّه ﷻ المُطّلعُ على ما أكنّته الصّدور، القائمُ على كلّ نفس بما كسبَت، الحافظُ للمخلوقات، المراقبُ لجميع أحوال الإنسان، والمطّلعُ على سرائره"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيد عيسى أنّه بلّغ رسالة ربّه كما أمر، وأنّه بريءٌ من تحريفهم بعد رفعه إليه

تتضمّن الآية قولَ عيسى عليه السلام: ما قلتُ لهم إلّا ما أوحيتَه إليَّ، وما أمَرْتَني به؛ أن يَعبدوك؛ ويفردوك بالتّوحيد والتّقرّب، فإنَّك ربّي وربُّهم، وكنتُ شاهدًا على أعمالِهم حينَ كنتُ بين أظهرهم، فلمّا قبَضْتَني برَفعي إلى السَّماء حيًّا، كنتَ أنتَ المُطَّلِعَ على سرائرهم، والعالمَ بما فعلوه في ظواهرهم وبواطنهم، وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، لا تخفى عليك خافيةٌ في الأرض، ولاتغيبُ عنك غائبةٌ في السّماء، وأنت الّذي تُجازي عبادَك بما تعلَمُه فيهم من خير أو شرّ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نَفيُ عيسَى عليه السلام عَنْ نَفْسِهِ صُدُورَ جَميعِ الأَقْوَالِ المُغَايِرَةِ لِلْمَأْمُورِ بِهِ

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا مسوقًا لبيانِ ما صدَرَ منْهُ عليه السلام، حيثُ إنّه قَدْ أَدْخَل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (وفى).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 170.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رقب).
(4) حسين المهديّ، صيد الأفكار: 2/85.

فيهِ عَدَمَ صدورِ القولِ المذكورِ عَنْهُ - ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ - علَى آكَدِ وجهٍ وأَبْلَغِه؛ وذلك أنَّه نفَى صدورَ جَميعِ الأقوالِ المغايِرَةِ للمأمورِ بِهِ، فانْدَرَجَ فيهِ انتفاءُ صدورِ القولِ المذكورِ عَنْهُ قَبْلُ دخولًا أوَّليًّا[1].

دلالةُ تكرارِ ﴿مَا﴾:

لفظ (ما) له مَعانٍ عِدَّةٌ يُجلِّيها السِّياقُ، وتستبين بها الدّلالةُ

تكرَّرت ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ مرَّتين؛ مرَّة على أنَّها نافيةٌ، والأُخرى على أنها اسمٌ موصولٌ، وهذا من براعة العَربيَّة في استعمال اللَّفظ لمعانٍ عدَّةٍ يُجلّيها السّياقُ، بالإضافة إلى الأثر الصّوتيّ الَّذي يتركُه في التّالي للقرآن، مِن حيث لا يدري، فالاسمُ الموصول (ما) الثّانية تعود على القول في قوله: ﴿مَا قُلْتُ﴾، ودلالتُهما مُترابطةٌ، وتعني نصيَّةَ القول المأمور بتبليغه للنّاس، وأنّها مُطابقةٌ لما قاله تمامًا.

دلالةُ التَّصريحِ بالقول في الآية: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾:

الإتيانُ بالجوابِ مُوافقاً للسُّؤال من بَلاغة البيان في الآيةِ الكريمةِ

هذا ارتقاءٌ في الجواب، فهو استئنافٌ بمنزلة الجواب الأوَّل، وهو: ما يكون لي أن أقولَ .... إلخ، صرَّح هنا بما قاله؛ لأنَّ الاستفهامَ عن مقاله، والمعنى: ما تجاوزتُ[2]، وقد كانَت "إجابتُه توبيخًا لِمَن ادّعى غيرَ إجابته، ودليلًا على أنّ قومَه غيّروا بعده، وبدّلوا، وادّعوا عليه كذبًا وبهتانًا لم يقله. وإنكارُه بعد سؤاله أشدُّ في التّوبيخ، وأبلغُ في التّكذيب"[3].

عِلَّةُ وضْعِ القَولِ مَوضِعَ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾:

حُسنُ الأدب في التّعليل، وتبليغُ المسيح عليه السلام ما أُمِر به

الأصلُ في الجُملة الكريمة أن يُقال: ما أمرتُهم إلّا بما أمرتَني به، إلّا أنَّه وضع القول مَوضِع الأمر؛ نُزولًا على موجب الأدب الحَسَن؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/115.
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 1/582.

وإنّما عدل لئلّا يجعلَ نفسَه وربّه آمِرَيْن معًا، ودلَّ على أنَّ الأصلَ ما ذكر (أنْ) المفسّرة، ويضاف إلى ذلك أنّه اختير ﴿أَمَرْتَنِي﴾ على (قلت لي) مُبالغةً في الأدب أيضًا[1]، وفي الجملة مَلمَحٌ مهمٌّ، وهو الإشارة إلى أَّن المسيحَ مأمورٌ، وأنّه لا يقول شيئًا من عنده، وإنّما هو رسولٌ يبلّغ ما أمره به ربُّه، وقد بلَّغ رسالةَ ربِّه[2]، فقال: "لم أقل لهم إلّا ما أمرتني به، بعبادة اللّه ربّي وربّكم، وإنّي عبدٌ من عبادك مثلهم، وكنتُ المراقبَ على أحوالهم، أشهدُ على ما يفعلون، وأمنعُهم منَ القول الباطل، وأطالبُهم بقول الحقّ"[3].

دلالةُ قصْر القَلبِ، في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾:

الطَّاعةُ وحسنُ الأدب مع الله ﷻ، من مأمورات الشّرائعِ

هذه الجملةُ في الآية الكريمةِ مثالٌ لقَصْر القَلبِ، لا قصرَ الإفراد؛ فإنَّه ليس المرادُ من قول عيسى عليه السلام: لم أزد على ما أمرتني به، بل المراد أنّني قُلت ما أمرتني به، وهذا يقتضي أنَّ قصرَ القَلب ليس فيه نفيٌ لغير المذكور، وليس كذلك، والمراد أنّني قلتُ ما أمرتني به صحيح، ولا ينافي ذلك أن يكون نفيُ الزّيادة عليه، فهذه هي حقيقةُ القَصر، نعم هو قصرُ قلبٍ لغير ما ذكره، وهو أنَّه واقع في مقابلة قول النَّصارى عنه أنَّه قال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ نسبتَهم ذلك إليه، لا تجتمع مع نسبتِهم إليه الاعترافَ بالوحدانيَّة[4].

سرُّ التَّعبير بأسلوب النَّفي والاستثناءِ في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾:

دعوى ألوهيّة المسيح وأمّه غريبة عجيبةٌ تقتضي توكيدَ نفيها

الأسلوبُ الَّذي استعمله عيسى عليه السلام (المُتكلِّم) في نقل المعنى إلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/417، والآلوسّي، روح المعاني: 4/64، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/116.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/84.

(3) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/521.

(4) القزوينيّ، الإيضاح: 3/41، والسّبكّي، عروس الأفراح: 1/412 - 413، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 157، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2409.

السّامع هو أسلوبُ النَّفي والاستثناء؛ وعليه لا يتأتَّى هنا تصوُّر حالٍ للمُخاطب؛ لأنَّ عيسى عليه السلام، يخاطب ربَّ العزَّة، وقد ألقى الخبر مُؤكَّدًا؛ لأنَّه بصدد الإجابة عن أمرٍ عجيبٍ، ودعوى غريبة، وهي اتِّخاذُه وأمِّه إلهين من دون اللّه، وهل قال ذلك للنّاس؟ إنَّها دعوى غريبة تقتضي التَّوكيد دفعًا لتلك الغرابة[1]، ومن أجل ذلك جاء القصرُ بالنَّفي والاستثناء، وفضلًا عن ذلك، فإنَّ هناك دلالةً أُخرى يكشف عنها التَّركيبُ، فعيسى عليه السلام يقرُّ ويعترفُ بأنَّه عبدٌ مأمور، ولم يقُل لقومه إلّا ما أمره اللّه تعالى.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

تَكْذِيبُ مَنِ اتَّخَذَ عِيسَى عليه السلام وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مَعْبُودَيْنِ

الجملَةُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ حكايةً عَنْ عيسَى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذِ الجملَةُ خبريَّةٌ، إلّا أنَّها خرجَتْ عن أصلِ دِلالَتِها؛ فَلا يُرادُ بها فائدَةُ الخَبرِ ولا لازِمُها، وإنَّما المقصودُ أحدُ أمرَيْن:

أوَّلُهُما: تكذيبُ مَنِ اتَّخذَ عيسَى عليه السلام إلهًا معبودًا.

والآخَرُ: الشَّهادَةُ بذلكَ على أُمَّتِهِ فيما أَمَرَهُم بِهِ مِنْ عِبادَةِ اللّهِ سُبحانَهُ[2].

دِلَالَةُ ﴿أَنِ﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾:

أَثَرُ دِلَالَاتِ الحُرُوفِ فِي تَوْجِيهِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

﴿أَنِ﴾ في قَوْلِه سُبحانَه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ يجوزُ أن تكونَ مخففَّةً مِنَ الثَّقيلَةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأْنِ محذوفٌ، ويَجوز أن تكونَ تفسيريَّةً؛ لتقدُّم ما فيهِ معنَى القولِ دونَ حروفِه وهو (أَمَرْتَني)[3]، فالقولُ الذي قالَهُ عيسَى عليه السلام هوَ القَوْلُ الذي أَمَرَهُ اللّهُ سُبحانَهُ بقولِه[4].

(1) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 61 - 62.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/89.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/116.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الأَحْسَنِ (الله) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

ادِّعَاءُ الأُلُوهِيَّةِ لِمَنْ لَمْ يَجْمَعْ صِفَاتِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالكَمَالِ اعْتِدَاءٌ عَلَى مَقَامِ الأُلُوهِيَّةِ

عُلِّقَ فعلُ العبادَةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ بالاسْمِ الأحسنِ (الله) في قولِ الله ﷻ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾، إيماءً إلى عِظَمِ شأنِ العبادَةِ وأنَّ الذي يستحقُّها هوَ الجامِعُ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، فادِّعاؤُها لِمَنْ لم يجْمَعْ هذه الأوصافَ اعتِداءٌ على مقام الألوهيَّة[1].

المعنى العامّ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

الدّعوةُ إلى إخلاص العبوديّة لله تعالى أُولى المهامّ في البلاغ عن الله

في الجملة السّامية، أقام اللّه تعالى الدَّليلَ على استحقاقه وحدَه للعبادة؛ أي: أنَّه هو المستحقُّ للعبادة؛ فقال على لسان عيسى عليه السلام: أنَّه هو وحده الَّذي خلقني، فأنا مخلوقٌ، فكيف أكون إلهًا؟! وهو الَّذي خلقكم وحده، فكيف تعبدون غيره؟! وفي هذا التَّعبير أثبتَ وحدانيَّة الخَلْق والتَّكوين، ووحدانيَّةَ الذّات الإلهيّة المُتفرّدة بالجلال، كما أثبتَ تصريحُ اللَّفظ وحدانيَّةَ العبادة، وبراءةَ عيسى عليه السلام ممّا ادَّعوه فيه[2].

نُكْتَةُ البَدَلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

مِنْ طَرَائِقِ القُرْآنِ الِاسْتِدْلَالُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ

﴿رَبِّي﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ بدلٌ مِنَ ﴿ٱللَّهَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ صفةً له، ونُكْتَةُ البدَلِ أو الصِّفَةِ الإيماءُ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ تعالَى كما استحقَّ العبادَةَ لذاتِه؛ يستحقُّها أيضًا لإنعامِهِ وإحسانِهِ إلى الخَلْقِ[3]، وفيه استدْلالٌ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ إِثْبَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ عَلَى إِثْبَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ:

في قولِ اللّه ﷻ حكايةً عَنْ عيسَى عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/417، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2409.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.

﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾ قُدِّم إثباتُ ربوبيَّة اللّه تعالَى لعيسَى ﷺ علَى إثباتِها لهُمْ؛ لثلاثِ نكاتٍ:

الرَّدُّ عَلَى غُلُوِّ النَّصَارَى فِي عِيسَى ﷺ نَاسَبَهُ إِثْبَاتُ كَوْنِهِ مَرْبُوبًا قَبْلَ إِثْبَاتِ كَوْنِهِمْ مَرْبُوبِينَ

أحدُها: أن يكونَ الكلامُ جاريًا على طريقةِ التَّدَلّي.

ثانيها: أَنْ يُسْتَدَلَّ بربوبيَّةِ اللّهِ تعالَى لهُ على ربوبيَّتِه لهم مِنْ بابِ أَوْلَى وأحرَى، فيكونُ قولُهُ بعدُ: ﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾ بمنزلَةِ التَّأكيدِ والتَّقوية.

ثالثها: لأنَّ النَّصارَى غَلَوا فيه ﷺ فجعلوهُ إلهًا، فكان الأنسَبُ إثباتَ كونِهِ مربوبًا قبلَ إثباتِ كونِهمْ مربوبينَ؛ ردًّا لهذه الفِرْيَةِ العظيمَةِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في الجملة:

اعْتِذَارُ عِيسَى ﷺ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يُؤَكِّدُ مَا تَقَدَّمَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ لإرادَةِ القَصْرِ، أي: إنَّما كانَ عِلْمي بشأنِهم حالَ وجودي بينهم، أمّا بعدَ أن رفَعْتَني إليْكَ فلا عِلْمَ لي بما أَحدَثوه مِنَ الكذبِ والافْتِراء.

وَوَجْهُ القَصْرِ في ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ أنَّ عيسَى ﷺ لمّا فهِمَ مِنْ سُؤالِ اللّهِ ﷻ لهُ أنَّ أتباعَهُ قد غَلَوْا فيه؛ نَزَّه اللّه سُبحانَهُ مِنْ ذلك، وأخبرَه بما أمرَ قومَهُ بِه في حقِّ ربِّه ﷻ مِنَ الحقِّ الواجبِ، واعتذَرَ عن نفسِهِ بما يُؤَكِّدُ ما تقدَّم نفيًا وإثباتًا، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿شَهِيدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾:

رُسل الله تعالى شهداءُ على أممِهم ما داموا فيهم

الشَّهيد في الآية، بمعنى الرَّقيب، كالشّاهد على المشهود عليه؛ أي: (أمنَعُهم من قول ذلك، وأن يتديَّنوا به)، ونسب لنفسه الشّهادةَ؛ لأنّه لا يرى سوى ظاهر أعمالهم، وأتَى بصيغة (فعيل) للمُبالغة؛ بمعنى: كثير الحِفظ عليهم، والملازمةِ لهم، و(ما) ظرفيَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.

و(دام) تامَّة؛ أي: ما بقيتُ فيهم؛ أي: شهيدًا في الدُّنيا، ويجوز حملُ معنى الشَّهيد على الرُّؤية، ويجوز حملُه على العِلم، ويجوز حملُه على الكلام؛ بمعنى: الشَّهادة، فالشَّهيد من أسماء الصِّفات الحقيقيَّة على جميع التَّقديرات(1).

أثرُ المقابلة والمشاكلة في ثراء المعنى وتكامله:

المشاكلة من مباحث البديع الدّقيقة، ولها أثر مهمّ في هذه الآية

في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، أسلوبُ مقابلةٍ ومشاكلةٍ(2)، أعطى عمومَ شهادة اللّه، وإحاطةِ علمه ﷻ في حال وجود عيسى عليه السلام، وفي حال غيابه، فجعل عيسى عليه السلام ربَّه شاهدًا على ما جرى بينهم بأسلوبِ المدحِ(3).

سِرُّ العدولِ من لفظ (الشَّهيد) إلى لفظ ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ في الآية:

استعمالُ أدقّ الألفاظ لمَا يقتضيه حالُ الكلام

إن قلتَ: إذا كان (الشَّهيد) بمعنى (الرَّقيب)، فلِمَ عَدَلَ منه إلى ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ في قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، مع أنَّه ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؟ فالجواب: أنّه قد خولِف بينَ العِبارتين؛ ليميِّز بين الشَّهيدين والرَّقيبين، فكونُه عليه الصَّلاة والسَّلام رقيبًا، ليس كالرَّقيب الَّذي يمنعُ ويُلزم، بل هو كالشّاهد على المشهود عليه، ومنعُه بمجرَّد القول، وأنَّه تعالى هو الَّذي يمنعُ منعَ الإلزام، بنصب الأدلَّة، وإنزال البيِّنات، وإرسال الرُّسل، زِد على ذلك أنَّ الشَّهيد مَن يرى ما يقعُ في محيط حواسّه، ممّا يدانيه ويختلط به، والرَّقيب: مَن يرى من مكانٍ عالٍ، وهو المَرْقَب، حيث

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/467، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/419.

(2) المُشاكَلة: المُماثَلة والمضاهاة، وعرّفوها بأنّها: ذكر الشّيء بِلَفظ غَيره، لوُقوعه في صحبته تَحقيقًا، أَو تَقديرًا. السّيوطيّ، مقاليد العلوم، ص: 101، وقيل: "المشاكلة: هي اتّفاق الشّيئين في الخاصّة، كما أنّ المشابهةَ اتّفاقهما في الكيْفيّة". الكفويّ، الكلّيّات، ص: 843، وقال الكفويّ أيضًا: "ولا شكّ أنّ المشاكلة من قبيل المجاز، والعلاقة فيها التّقارن في الخيال لا الوقوع في الصّحبة، كما هو المشهور؛ لأنَّ العلاقة مصحّحة للاستعمال الّذي به الوقوع في الصّحبة، ومقدّمة عليها". الكفويّ، الكلّيّات، ص: 844.

(3) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 339.

ينكشف له ما لا ينكشف لغيره؛ ولهذا كان التَّعبير في جانب المسيح عليه السلام بالشَّهيد، والتَّعبير في جانب اللّه بالرَّقيب؛ لكونه الحافظَ الّذي لا يغيب عنه شيء، وهذا تمثيلٌ، وللّه سبحانه وتعالى المثلُ الأعلى[1].

دلالةُ التَّعبير بلفظ: ﴿تَوَفَّيۡتَنِي﴾:

وفاةُ عيسى عليه السلام وفاةُ رفْعٍ إلى السَّماء

التَّوفّي: هو أَخذُ الشَّيء وافيًا؛ أي: كاملًا، وقد جاء التَّوفّي بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ [آل عمران: 55]، فهو إتمام مدّة إقامة عيسى عليه السلام في الأرض، ولا يصحُّ أن يُحمَل التَّوفّي على الإماتة في هذه الآية[2]؛ لأنَّ إماتة عيسى عليه السلام في وقت حصار أعدائه له، ليس فيها ما يسوِّغ الامتنانَ بها، ورفعُه إلى السَّماء جثَّةً هامدةً سُخفٌ منَ القول، وقد نزَّه اللّه السَّماء أن تكون قبرًا لجثث الموتى، وإن كان الرَّفع بالرّوح فقط، فأيُّ مزيّة لعيسى عليه السلام في ذلك على سائر الأنبياء؟!، والسَّماءُ مُستقرُّ أرواحهم الطّاهرة، فالحقُّ أنَّه عليه السلام رُفِع إلى السَّماء حيًّا بجسده وروحه؛ رحمةً به وتكريمًا له، حيث نجّاه منَ القتل والصّلب، وجعل ذلك آيةً من آياته الّتي يؤتيها مَن يَشاء مِن رسله، واللّه على كلِّ شيءٍ قدير. وقال الحسن: الوفاة وفاةُ الموت، ووفاةُ النَّوم، ووفاةُ الرَّفع[3].

حُسنُ نظْم الآية وتكامُلِ بنائها، وأثرُ ذلك في قوّة البيان وجمالِه:

دقّةُ اللّفظ القرآنيّ ومناسبتُه لمواضعه في الآيات، يؤكّد سموَّه وإعجازَه

في قوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾، ذَكر نبيُّ اللّه عيسى عليه السلام شهادتَه عليهم، وهو حيٌّ قائمٌ برسالته مُؤدٍّ لها على وجهها، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/545، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/66، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/84.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/66، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/92، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/351.

شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، يذكر انتهاء مُهمَّته بوفاته، ويفوِّض أمرهم إلى ربِّهم في ألطف تعبيرٍ وأدَقِّ إشارةٍ[1].

فائدةُ التَّعبير بضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

دلائلُ بلاغيّةٌ قويّةٌ، تتناسب وقوّةَ معنى هذه الجملة القرآنيّة

أضاف استعمالُ ضمير الفصل توكيدًا قويًّا في معنى الجملة، والمعنى: كُنتَ أنتَ الرَّقيب عليهم وحدك دوني، إذْ تَوَفَّيتَني أَجَلي بينهم، ورفعتَني بعيدًا عنهم، فليس لي رقابَةٌ عليهم[2]، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ بِنْيةَ الجملة كلَّها مكوّنةٌ من كلمات قويّة تتناسب وقوّةَ معنى الجملة؛ فقوَّةُ الفعل وفاعلِه في ﴿كُنتَ﴾، والتَّوكيدُ الكامن في ضميرِ الفصلِ ﴿أَنتَ﴾، والتّعريفُ الدّاخل على الاسم ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ الّذي أضاف التَّخصيصَ والقصرَ إلى قوَّة معناه، زد على ذلك معنى الفوقيّة والاستعلاء الّتي تشمل جميع خلقه في: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، كلُّ ذلك؛ ليصوِّر لنا قدرةَ اللّه، واطّلاعَه على خلْقه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

سِرُّ دخولِ (أل) على كلمة ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾:

دلالـةُ ضمير الفصل على القَصر، وكونِ المقصور هو المقترنَ بـ(أل)

في قوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، نلحظ المسندَ ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ قد عُرِّف بـ (أل) الّتي للجنس، فدلَّ على قَصر الرّقابة للّه لا لغيره، واللّه ﷻ كان ولم يزل رقيبًا عليهم، في جميع الأحوال والأزمان، ولكنْ بتوفّيه عيسى ﷺ، الذي كان شهيدًا عليهم يراقبُهم ويأمرُهم بعبادة اللّه تعالى، لم يبقَ لهم رقيبٌ إلّا اللّه تعالى.

وفضلًا عن ذلك، فإنَّ ضميرَ الفَصل مُؤَكِّدٌ للدَّلالة على القَصْر، وأنَّ المقصور عليه هو الخالي من (أل)، والمقصورُ هو المُقترن بها؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2410.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101.

إذ دلَّ الإسناد على قصْر الجنس الَّذي تحمله (أل)، وتفرغُه في الكلمة المقرنةِ بها على الطَّرف الآخر الخالي مِن (أل)[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾:

اجْتِمَاعُ التَّنَاسُبِ الصَّوْتِيِّ وَالمَعْنَوِيِّ فِي آيِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ اهتمامًا بعموم الأشياءِ التي يندرِجُ تَحْتَها مقالَةُ عيسَى عليه السلام وحقيقَةُ دَعْوَتِه لقَوْمِه، ومراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لفواصِلِ الآيِ[2]؛ فإنَّ خاتِمَةَ الآيةِ قبلَها ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، وبينَ الحرفَيْنِ تناسُبٌ ظاهِرٌ.

بَرَاعَةُ رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ:

البَلَاغَةُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ الكَلَامِ دَالًّا عَلَى آخِرِهِ، وَآخِرُهُ مُرْتَبِطًا بِأَوَّلِهِ

في قَوْلِ اللّهِ جل جلاله: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ردُّ العجُزِ على الصَّدْرِ؛ حيثُ وردَ لفظُ ﴿شَهِيدٗا﴾ قبْلُ، ثُمَّ خُتِمَ الكلامُ بهِ في قولِه: ﴿شَهِيدٌ﴾، وفي هَذا تقريرٌ وتَوْكيدٌ لاطِّلاعِ اللّهِ سُبحانَهُ على الأشياءِ كُلِّها، وفيهِ أَيْضًا شدَّةُ ربْطِ الكلامِ بعضِه ببعضٍ؛ إذِ البلاغَةُ أن يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على آخرِه، وآخرُهُ مرتبِطًا بأوَّلِه.

دلالةُ الاعتراض التّذييليّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾:

شهادةُ اللهِ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الكونَ قائمٌ به

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، جملةٌ تفيدُ الاعتراضَ التّذييليَّ المُقرِّرَ لِما قَبْلَه، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى كان هو الشهيدَ على الجميع، حين كونِه عليه السلام الشَّهيدَ فيما بينهم، وشِبهُ الجُملة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، مُتعلّق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾، وتقديمُه لمراعاةِ الفاصلة[3]، ثمّ إنّ خطاب اللّه بقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ أي: أنّك شهيدٌ: "علمًا وسمعًا وبصرًا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات،

(1) فيّود، من بلاغة النّظم القرآنّي، ص: 201 - 202.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/66.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/102، والآلوسّي، روح المعاني: 4/66.

وسمعُك بالمسموعات، وبصرُك بالمبصَرات، فأنت الّذي تجازي عبادَك بما تعلمُه فيهم من خير وشرّ"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القول والكلام:

الكلام: هو الدَّلالةُ والمعنى الكائن في الذّات المُتكلّمة، و"الكلام: اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير. والكَلِمُ لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنّه جمع كلمة، وعيسى ﷺ كلمة اللّه سبحانه؛ لأنّه لمّا انتفع به في الدّين، كما انتفع بكلامه، سمّي به، كما يُقال: فلان سيف اللّه، وأسد اللّه"[2]، والقَولُ: هو صياغةُ هذا الكلامِ بقالبٍ لغويٍّ عَبر لُغةٍ محدّدة، أو القول: يدلّ على الحكاية، وليس كذلك الكلام[3]، أو القول: "الكلام على التّرتيب، أو كلّ لفظ مَذَلَ - أي سمح - به اللّسانُ تامًّا كان أو ناقصًا، تقول: قال، يقول، قولًا، وقال الحَرالّي: القول إبداءُ صور التّكلّم نظمًا، بمنزلة ائتلاف الصّور المحسوسة جمعًا، فالقول مشهودُ القلب بواسطة الأذن، كما أنّ المحسوسَ مشهودُ القلب بواسطة العين وغيرها"[4].

الرَّبّ والإله:

الرَّبُّ في اللُّغة هو المالك للشَّيء، ويُطلَق على السَّيّد المالك للعَبد، وعلى المُربّي، ولا يُقال (الرَّبّ) مُطلَقًا بغير إضافةٍ لشيءٍ إلّا للّه تعالى، المُتكفِّل بمصالح الخلق، أمّا بالإضافة فيُطلَقُ على غير اللّه، كرَبِّ الدّار وربِّ الفرَس. والإلهُ بالتَّعريف اسمٌ للمعبود بحقٍّ، وهو اللّه سبحانه، وإذا ذُكِرَ بدون التَّعريف (إله) كان اسمًا لكلِّ معبودٍ ولو باطلًا. والإلهُ حقُّه ألّا يُجمع، إذ لا معبود سواه، لكنَّ العرب - لاعتقادِهِم أنَّ هاهنا معبوداتٍ - جمعوه فقالوا: الآلهة[5].

الشَّاهدان، والشُّهداء، والشُّهود:

الشَّهادة: خبر قاطع، تقول منه: شهد الرّجل على كذا، وشهده شهودًا: أي: حضره، فهو شاهد. وقوم شهود؛ أي: حضور. والشّهيد: الشّاهد، والجمع: الشّهداء، وأشهدته على

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/249.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: 5/2024.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 437 - 438.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 30/292.
(5) الرّاغب، المفردات: (ربب) و(أله).

كذا فشهد عليه؛ أي: صار شاهدًا عليه، والشّهيد: القتيل في سبيل الله، وقد استُشهد فلان، والاسم الشّهادة[1]، والشّاهد: اسم فاعل يدلُّ على الفِعل وفاعله، والشَّهيد: صِفةٌ مُشبَّهة تدلُّ على الثُّبوت، وقد دلَّ التَّعبير في الآية الكريمة على أنّ السّياق مُتعلِّقٌ بالرُّسوخ في الشَّهادة، ومعناه: "وكنت شهيدًا على أعمالهم حين كنت حيًّا بينهم، فلمّا توفّيتني كنت أنت الشّاهد الرّقيب عليهم، وأنت على كلّ شيءٍ شهيدٍ"[2].

المُتوفِّي والمُتَوَفَّى:

للتّوفية في القرآن ثلاثة معانٍ: أوّلها: الموتُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: 42]، وثانيها: النّومُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، وثالثها: الرّفعُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: 117]، وما يهمّنا هنا معنى الموت والرّفع، وهما مُحتملان في دلالة اللّفظينِ المختَلِفي الصّيغَة، وعليه فإنَّ المُتوفّي اسمُ فاعل، والمُتوفَّى اسمُ مفعول، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، فالإنسان مُتَوَفَّى، ويجوز - في لغة ضعيفة جدًّا - أن نجعلها اسم فاعل مُتَوَفٍّ؛ أي: متوفٍّ أجله ورزقه؛ أي: قد استوفاه واستكمله، لكنَّ الأوَّل هو الأصحُّ[3].

الرَّقيب والحفيظ:

الرّقيب: تقول: رقبتُ الشّيء أرقبه رقوبًا، إذا رصدتَه[4]. وفي أسماء الله تعالى (الرّقيب)، وهو الحافظ الّذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل[5]، وأمّا الحفيظ فهو "الموكَّل بالشّيء يحفظه، كالحافظ، يُقال: فلان حفيظ عليكم؛ أي: حافظ. وفي الصّحاح: الحفيظ: المحافظ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾ [الأنعام: 104]، والحفيظ في الأسماء الحسنى: الّذي لا يعزب عن حفظه مثقالُ ذرّة، في السّماوات ولا في الأرض[6]، وللفرق بين اللّفظين، يقولون: إنَّ الرَّقيب هو الَّذي يرقبُك؛ لئلّا يخفى عليه فِعلُك. والحفيظ لا يتضمَّن معنى التَّفتيش عنِ الأمور، والبحث عنها[7].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 787.
(3) ابن عثيمين، الشّرح الممتع: 13/347.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (رقب).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 260.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الإقرار بألوهيّة الله ورقابته، وكونِ عباده بين عذابه وغفرانه

لمّا كان ما سلَفَ منَ الآياتِ كلِّه - سُؤالًا وجوابًا وإخبارًا - حمدًا للّه تعالى وثناءً عليه بما هو أهلُه؛ بالتَّنزيه له، والاعترافِ بحقِّه، والشَّهادةِ له بعلم الخفايا، والقُدرة، والحكمة، وغيرِ ذلك من صفات الجلال والجمال، وكان هذا السُّؤال يُفهِمُ إرادةَ التَّعذيب للمسؤول عنهم، مُشيرًا إلى الشّفاعة فيهم على وجه الحمد للّه ﷻ، والثَّناء الجميل عليه؛ لأنَّ العذابَ - ولو للمطيع - عدلٌ، والعفوَ عنِ المعاصي - بأيّ ذنب كان - فضلٌ مُطلَقًا، وغفرانَ الشِّرك ليس ممتنعًا بالذّات: قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: التَّعذيبُ: مَصدَرُ عَذَّبَ، وهو الشِّدَّةُ والعُقوبَةُ، وأَصلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ. ويأتي التَّعذيبُ بمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ(2)، و"عذّبته تعذيبًا عاقبتُه، والاسم: العذاب، وأصله في كلام العرب الضّربُ، ثمّ استُعمل في كلّ عقوبةٍ مؤلِمة، واستُعير للأمور الشّاقّة، كالسّفر، فقال ﷺ: «السّفرُ قطعةٌ منَ العذاب»(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذب).
(3) الحديث أخرجه البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1804)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1927)، والنّسائيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (8783)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، الحديث رقم: (2882)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (9740). ويُنظر: الفيّوميّ، المصباح المنير: (عذب).

2) ﴿عِبَادُكَ﴾: جمع عَبْدٍ، والعبادةُ: الطّاعةُ والقُربَةُ. يُقال: عبدتُ اللهَ، أعبدهُ، عِبادةً؛ أي: أطعتُه وتقرَّبتُ إليه. وأصلُ العِبادَةِ: التَّذلُّل واللّين. ومن معانيها: الخُضوع، والانقياد[1]، قال الخليل: "إلّا أنّ العامّة اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عباد الله، والعبيد المملوكين، يُقال هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمعْهم يشتقّون منه فعلًا، ولو اشتقّ لقيل عَبُدَ؛ أي: صار عبدًا، وأقرّ بالعُبودة، ولكنّه أُميت الفعلُ فلم يُستعمل. قال: وأمّا عَبَدَ يعبد عبادةً، فلا يُقال إلّا لمَن يعبُد الله تعالى"[2].

3) ﴿تَغْفِرْ﴾: الغُفرانُ: المُسامَحَةُ والعَفوُ، والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغفِرَةِ. ويأتي الغُفرانُ بِمعنى التَّجاوُزِ عنِ الذَّنبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ به. وأَصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفْرِ، وهو: التَّغطيَّةُ والسَّترُ والإِدخالُ، ومنه سُمّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنَّهُ سَترٌ لِلذَّنبِ، وإِدخالٌ لِلعَبدِ في العَفوِ[3].

4) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: العَزيزُ في كلامِ العَرَبِ على أَربعَةِ أَوجُهٍ، العَزيزُ: الغالِبُ القاهرُ، والجليلُ الشَّريفُ، والقويُّ، والشَّيءُ القليل الوجودِ المنقطعُ النَّظير. ويجوزُ وصفُ الله ﷻ بالثّلاثة الأوَل، يُقال: (الله العزيز): بمعنى: الغالب القاهِر، و(الله العزيز)؛ أي: هو الجَليلُ العَظيمُ، و(الله العزيز): بمعنى القَويّ[4].

5) ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الّذي يُحكم الأشياء ويُتقنها، أو ذو الحكمة، والحكيمُ مَن يضع الأمورَ في نصابها، وقد امتنّ الله تعالى على لقمان بأن آتاه الحكمة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12][5]، والحكيم هنا هو الله تعالى، المتّصف بالحكمة في تدبير كونه، وهو الَّذي أَفعالُهُ مُحكمَةٌ مُتقَنَةٌ، لا تَفاوتَ فيها ولا اضطِرابَ، ومِنهُ قيلَ: (بِناءٌ مُحكَمٌ)؛ أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ، فالله ﷻ حَكيمٌ كما وصَفَ نفسَهُ بذَلكَ؛ لإتقانِ أفعالِهِ واتِّساقِها وانتظامِها، وتعلُّق بعضها ببَعضٍ[6].

(1) الأزهريّ، مقاييس اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عبد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (غفر).
(4) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 237، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عزّ).
(5) الحازميّ، الآثار التّربويّة لدراسة اللّغة العربيّة، ص: 496.
(6) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 52، والزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 60، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).

۞ المَعنَى الإجمَاليُّ:

تبرّي عيسى ﷺ من مقالةِ قومه، وردُّ المشيئة إلى الله

يقول عيسى ﷺ لربّه ﷻ يوم القيامة - مُتبرِّئاً ممّا حكاه قومُه -: إنْ تُعذّب هؤلاء يا ربِّ، فإنَّهم عبادُك، تفعل بهم ما تشاء، وإن تَمُنّ على مَن آمنَ منهم بالمغفرة، فلا مانع لكَ مِن ذلك، فأنتَ العزيز الَّذي لا يُغالَب، فمغفرتك صادرةٌ عن تمام عزَّةٍ وقدرةٍ، وليست عن عجزٍ، وأنتَ الحكيمُ في تدبيرك، فمقتضى حكمتِك أن تغفرَ لِمَن أتى بأسباب المغفرة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَفْوِيضُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ ﷻ فِي التَّعْذِيبِ وَالغُفْرَانِ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتَين شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك أنَّ سؤالَ اللّهِ تعالَى لِعيسَى ﷺ يُشْعِرُ بإرادَةِ تعذيبِ المسؤولِ عَنْهُمْ، وذلك قَدْ يَكونُ حاملًا لعيسَى ﷺ على الشَّفاعَةِ فيهم، فيَرِدُ في نفسِ المتلَقّي سؤالًا: هَلْ شفَعَ فيهم عيسَى ﷺ؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا مقالَتَهُ ﷺ المتضَمِّنَةَ تفويضَ الأمرِ إلى اللّهِ ﷻ وحْدَهُ؛ بأنَّه إن عذَّبهم على ما بدرَ مِنْهُمْ فهم عبادُهُ يفعَلُ بِهِمْ ما يشاءُ، وإن يغفِرْ لِمَنْ تابَ مِنْهُمْ فلم يُؤاخذه على ما بدَرَ مِنْهُ مِنَ الكُفْرِ والضَّلالِ قبل التَّوبة؛ فإنَّه سُبحانَهُ عزيزٌ حكيمٌ.

ويجوزُ أن تَكونَ الجملةُ استئنافًا يُرادُ بِهِ الاستعطافُ.

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِالحَرْفِ ﴿إِن﴾:

قَبُولُ اللهِ ﷻ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ مِنْ عِبَادِهِ: مَحْضُ فَضْلٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قول اللّه ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ بالحرف ﴿إِن﴾؛ لأنَّه موضوعٌ في الأَصْلِ لِما لا يُقْطَعُ بوقوعِه، وذلك لأنَّ المعذَّبين إن كانوا قدْ تابوا من مقالةِ الكُفْرِ، فإنَّ قبولَ اللّهِ ﷻ توبتَهُمْ تفضُّلٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 127، جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 127.

منهُ عليهم، وجائزٌ أن يُؤاخِذَهُمْ على ما صدَرَ مِنْهُمْ، وإن كانوا لم يَتوبوا وبَقَوْا على شِرْكِهم فإنَّ اللّه سبحانَهُ قضَى عليهم بالتَّعذيب في النّار جَزْمًا، ويكونُ استعمالُ حرفِ الشَّرْطِ ﴿إن﴾ مِنْ باب تأدُّبِ عيسَى عليه السلام معَ ربِّهِ سُبحانَهُ، حيث لَمْ يتقدَّم بينَ يديْه بالحُكْمِ عَلَيْهِمْ.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ دون غيره:

تنوّعُ المعاني أثرٌ لانتقاء اللّفظ القرآنيّ

تحملُ الآيةُ جانبًا لطيفًا وهو قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فإنَّه تعالى لم يَقُل: (إنْ تُعذِّبهم فإنَّهم أحقّاء بذلك) أو (فذلك عَدْلٌ)؛ لكونهم عِبادًا للّه، ومعناه: أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ دون غيره، وأنَّه الإلهُ الحقّ، فلو قال: (فإنَّهم أحقّاء بذلك)، أو قال: (فذلك عَدْلٌ) لم يعنِ ذلك أنَّهم عبادُه، فالنّاسُ ليسوا عبادًا لَمَن يعدلُ، كما أنَّهم إذا كانوا أحقّاء بالعَذاب، فليس معناه أنَّهم عبادٌ لَمَن عذَّب، فالَّذي يعذِّب شخصًا أو جماعة لا يعني أنَّ المعذَّبين عبادُه، فاختيارُ لفظِ العبوديّةِ أنسبُ شيء في هذا المقام. يُضاف إلى ذلك أنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ولم يقُل: (فَهُم عبادك)؛ لتأكيد عبوديّتهم للّه ﷻ، وبذلك يفعل اللّه تعالى بهم ما يشاء، فليس هناك مِن مُعترِض على ما يفعل بِهم من تعذيبٍ أو مَغفرةٍ، فالأمرُ كلُّه إليه، ومتروك لمشيئته، ومُناط بعزَّته وحكمته وحُكمه، فإنَّه هو العزيز الحكيم(1).

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

العِبَادُ جَمِيعًا مِلْكٌ للهِ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَمَا يَشَاءُ بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ داخِلَةٌ على جوابِ الشَّرْطِ؛ لِكَوْنِ جملةِ الجوابِ جملَةً اسميَّةً فوجبَ اقترانُهُ بالفاءِ، وفي تَرْتيب هذا الجَوابِ علَى الشَّرْطِ تفويضُ الأَمْرِ إلى اللّهِ ﷻ؛ إذْ هوَ المالكُ لهُمْ مُلْكًا تامًّا، يتصرَّفُ فيهم كما يشاءُ سُبحانَهُ كما تقتَضيه حكمَتُهُ.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 1/90، والسّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 80.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾:

تـأكيد الاسْتِسْلَامِ للهِ تَعالَى وَتَفْوِيضِ الأُمُورِ إِلَيْهِ

قُرِنَت جملةُ الجَوابِ ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ بأداة التَّوكيدِ (إنَّ) تأكيدًا لِلاسْتِسْلامِ للّهِ سُبْحانَهُ وتَفْويضِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، ومبالغَةً في تفويضِ الأمْرِ إليه.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾:

تَسْلِيمُ عِيسَى عليه السلام لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتِجَارَتُهُ مِنْ عَذَابِهِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرْطِ أنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ لا يُرادُ بِهِ فائدَةُ الخبَرِ ولا لازِمُها، بل خرَجَ عَنْ أَصْلِهِ إلى إرادَةِ أحدِ معْنَيَيْن:

أحدُهما: أنَّه خبرٌ يُرادُ به الاستعطافُ والرَّأْفَةُ بهِمْ.

والآخَرُ: أنَّ خبَرٌ يُرادُ به التَّسليمُ لأمْرِ ربِّهِ والاسْتِجارَةُ مِنْ عذابِهِ[1].

فالجملَةُ على هذا مجاز مرسَلٌ مركَّبٌ، والمعنيانِ المذكوران لا تعارُضَ بينَهُما، بَلْ تَجوز إرادَتُهُما معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

دلالةُ تقديم لفظ (التَّعذيب) على لفظ (المغفرة):

كلُّ لفظٍ مُقدَّم في القرآن هو أولى بالتَّقديم، ولا يصلحُ غيرُه مكانَه

جيء بهذه الآية الكريمة بهذا التّرتيب؛ إذ قُدّم فيها التَّعذيبُ على المغفرة؛ ليناسب سياقَ الآيات السّابقةِ في مَواضِعَ مهمّةٍ منها:

الأوَّل: أنّ الآية جاءَت في سياق التَّهديدِ والوعيد بالعذاب الشَّديدِ،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/89.

لَمن يكفرُ بعد نزول المائدة منَ السَّماء: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والآخر: أنَّ الآية وردت في سياق التَّبرُّؤ من قولٍ قالته طائفةٌ منَ النَّصارى، ونسبتْه إلى عيسى ﵇، حكاه الله تعالى بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾. فهاتان المسألتان تفسِّران تقديمَ التَّعذيب على المغفرة في الآية.

بلاغةُ تناسبِ الأطراف في الآية:

خَتمُ الكلامِ بما يناسب أوّلَه في المعنى من اتّساق النّظم وإحكامه

ذَكر الزَّركشيُّ في بُرهانه بيانَ علَّةِ تناسبِ أطراف الآية الكريمة[1]، فقال: "لا يَغفرُ لَمن استحقَّ العذاب إلّا مَنْ ليس فوقه أحدٌ يردُّ عليه حُكمه، فهو العزيزُ؛ أي: الغالب، والحكيمُ: هو الَّذي يضَع الشَّيءَ في محِّله. وقد يَخفى وجهُ الحكمة على بعض الضُّعفاء في بعضِ الأفعال، فيتوهَّم أنَّه خارجٌ عنها، وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراسٌ حسَن؛ أي: وإنْ تغفر لهم مع استحقاقهم العذابَ فلا مُعترِضَ عليك لأحدٍ في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته"[2].

فنُّ التَّخيير والتَّناسبِ في الآية:

تسليمُ الأمور وتفويضُها لله ﷻ من دلائل الإيمان

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يوهمُ أنَّ الفاصلةَ هي (الغَفور الرَّحيم)؛ لمناسبة ما بين الغُفران والغَفور، وهو من فنّ التخيير والتناسب[3]، ولكن لو جاءتِ الفاصلةُ (الغفور الرَّحيم)، بعد ذِكر

(1) تناسب الأطراف: هو أن يبتدئ المُتكلّم كلامه بمعنى، ثمّ يختمه بما يتناسب مع ذلك المعنى الّذي ابتدأ به، وهذا النّوع جعله الخطيب في التّلخيص والإيضاح من مراعاة النَّظير، قال: ومِن مراعاة النَّظير ما يسمّيه بعضُهم تشابه الأطراف، وهو أن يختمَ الكلامَ بما يناسب أوّلَه في المعنى. الإسفرايينيّ، الأطول: 2/383، وابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 306، والصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.

(2) الزّركشّي، البرهان: 1/89 - 90، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/139، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 1/36 - 37.

(3) التَّخيير: الإتيانُ بكلامٍ يَسوغُ أن يُقفّى بقوافٍ شتّى، فيُتخيَّرَ منها قافيةٌ مُرجَّحة على سائرِها، ويُستدلُّ بإيثارِه إيّاها على حُسن اختيارِه، وصِدق حسِّه، وقد تَقضي البداهةُ الأولى بأنْ تكونَ غيرَ ما اختاره، ولكنَّه عزَفَ عن ذلك لسرٍّ دقيقٍ، وفي هذه الآية: البداهةُ البدائيةُ تَقضي بأنْ تكون الفاصلةُ: (إنَّك أنت الغفور الرّحيم)، لملاءمتِها لقوله: إنْ تَغْفِرْ، ولمناسبته ما بين الغُفران والغفور، ولكنَّ هذا الوهمَ النّاجمَ عن هذه البداهةِ سَرعانَ ما يَزولُ أثرُه عندما يَذكُر المتوهِّم أنَّهم استحقّوا العذابَ لا الغُفران. السُّبكيّ، عروس الأفراح: 2/311، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

الغُفران، لكان في ذلك تسجيلٌ بالغُفران، وهم لا يُغفر لهم، وتقتضي البلاغةُ أن تكونَ الفاصلةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّه لا يغفر لَمن يستحقّ العذابَ إلّا من ليس فوقه أحدٌ يرُدّ عليه حكمَه، ولا بدَّ أن يوصف بالحكمة، لأنَّه الحكيمُ الَّذي يضع كلَّ شيءٍ في مَوضِعه[1].

أهمّيّةُ قصْر صفتَيِ العزّة والحكمة على الله دون سواه، في هذه الآية:

العـزيـزُ كـنـايـةٌ عـن غـفـرانـه، والحكيم دلالةٌ عـن تـدبـيره لأكوانه

استعمل عيسى عليه السلام القصرَ بأسلوب التَّعريف؛ أي: تعريف المسنَد إليه، مع توظيف أداة التَّوكيد (إنَّ)، والتَّوكيد اللَّفظيّ بالضَّمير ﴿أَنتَ﴾، وتعريف: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ للدَّلالة على توكيدِ الحُكم، وقصرِ العزَّة والحكمة عليه، والكمالِ فيما وُصِف به، فإنَّه في الحقيقة لا عزيزٌ إلّا هو سبحانه، ولا حكيمٌ عداه، ولا حاكمٌ سواه، فإنَّه لم يقل: (فإنَّك عزيزٌ حكيمٌ)؛ وذلك أنَّ هذا التَّعبيرَ لا يفيد قصْرَ الصِّفتين عليه سبحانه ولا كمالَهما فيه[2]، فضلًا عن ذلك فإنَّ هذا التَّركيب الَّذي ائتلف دلاليًّا وسياقيًّا كشف لنا دلالةً أُخرى، وهي نفيُ الأُلوهيَّة عن غير اللّه تعالى، وإثباتُها له فهو المتفرِّد بذاته وصفاته لا يشاركُه ولا يشابهُه فيهما أحدٌ، فهو الإله حصرًا والعزيز الحكيم حصرًا[3]، يُضاف إلى ذلك، أنّ كلمة: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ كنايةٌ عن كونه يغفرُ عن مَقدرَةٍ، وذكر: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لمناسبته للتَّفويض؛ أي: المُحْكِمُ للأُمور العالِم بما يليق بهم[4].

بَرَاعَةُ الكِنَايَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

غُـفْـرَانُ الـلـهِ تَـعَـالَى الـذُّنُـوبَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ الـقُـدْرَةِ وَكَـمَالِ الحِكْمَةِ

في اسْمِ اللّهِ (العَزِيز) مِنْ قولِ اللّهِ جل جلاله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كِنايَةٌ عَنْ كَوْنِهِ سُبحانَهُ يغفِرُ عَنْ مقدِرَةٍ[5]، فاسْمُ اللّهِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

(2) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وامحمد صافي المستغانميّ، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 148.

(3) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وداود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 50.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/117.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/117.

العزيزُ دالٌّ على مَعْنَى الغالبِ والقاهِرِ والعَظيم والقَويِّ، ودالٌّ بطريقِ الكِنايَةِ كذلكَ على أنَّ غُفْرانَهُ الذُّنوبَ صادِرٌ عَنْ تمامِ القُدْرَةِ وكمالِها.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ فِي الآية الكريمة:

أَفْـعَـالُ اللهِ تَـعَـالَى غُـفْـرَانًـا وَتَـعْـذِيـبًـا وَغَيْرَهُمَا صَادِرَةٌ عَـنْ حِـكْـمَـتِـهِ سُبْحَانَهُ

في قول الله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ احتباكٌ، وهو المسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذْفَ المقابَليَّ، وذلك أنَّ كَوْنَ الخَلْقِ عبادًا لله تعالَى يقتَضي تمامَ التَّصرُّفِ فيهم مغفَرةً وتعذيبًا كما تقتضيه حكمتُهُ سُبحانَهُ، وغُفْرانُه تعالَى لِلْعِبادِ أو تعذيبُهُ لهُمْ هوَ من مقتضياتِ عِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ، فكانَ تقديرُ الآيةِ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ تَمْلِكُهُم، وأنتَ العزيزُ الحكيمُ؛ بحكمَتِكَ وعزَّتكَ كان عقابُهُم، وإن تغفِرْ لهُمْ وتستُرْ قبائِحَهُمْ؛ فإنَّهم عبادُكَ تتصرَّفُ فيهم كما تشاءُ بما تقتضيه حكمتُكَ، وهو غُفْرانُ الغالِبِ القاهِرِ الذي يضعُ الأمور في مواضِعَها[1].

المتشابهُ اللّفظيّ:

عِـلَّـةُ الـذِّكْـرِ والـحَـذفِ، في آيـتَـي المـائـدة والممتحنة

بالمقارنة بين قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ [الممتحنة: 5]، نتساءل: لِمَ خُصَّت آية المائدة بالفاء دون آية الممتحنة؟ والجواب: أنّ آية المائدة، تقدّم فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾؛ فلمّا كانت جملة جواب الشّرط اسميّةً وجب اقترانُها بالفاء؛ لذا ناسب دخولُها على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. أمّا آية الممتحنة فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ [الممتحنة: 5]؛ فلمّا أُريد تعليلُ الحكم ناسبه الفَصلُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2412.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذاب والعقاب والجزاء:

العِقابُ يُنبِئ عن استحقاق، وسُمّي بذلك لأنَّ الفاعل يستحقّه عَقيب فِعْلِه، ويجوز أن يكون العذاب مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، وأصلُ العقاب التّلوّ، وهو تأدية الأوَّل إلى الثّاني، يُقال: الثّاني عقب الأوَّل إذا تَلاه، وذَكر الكفويُّ أنَّ العِقاب هو جزاءُ الشَّرّ، والنَّكالُ أخصُّ منه، وأنَّ الجزاء إذا أُطلق في مَعرِض العقوبات يُراد به ما يجب حقًّا للّه تعالى بمقابلة فِعل العبد؛ لأنَّه المجازي على الإطلاق... والعذاب: الألم الثَّقيل[1]، وقد ورد في السّياق لفظُ العذاب في الآية؛ لأنّه الأنسب للجزاء الوِفاق، الّذي يصطلي به مُستحقّوُه ممّن ألّهوا عيسى، وافتروا على اللّه الكذبَ، وعبدوا غيرَه، وانحرفوا عن مأمور اللّه في كتابه المُنزَلِ عليهم.

العِباد والعَبيد:

فرَّق الكفويُّ بينهما بأنَّ العَبدَ المضافَ إلى اللّه تعالى، يجمع على عِباد، وإلى غيره على عبيد، وهذا هو الغالبُ، وفي عُرف القُرآن إضافةُ العِباد تختصّ بالمؤمنين، والعبيد إذا أُضيف إلى اللّه فهو أعمُّ منَ العِباد. وما ذَكره الكفويُّ فيه نظَر؛ فلم ترِد عبيد في القرآن مضافةً ألبتّة، إنَّما وردت معرفة بـ (ال)[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّـهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فُصّلت: 46]، وغيرها.

الصَّفح والعَفو والغُفران:

الصّفح أصلُه الإعراضُ بصفحة الوجه، كأنّك أعرضتَ بوجهكَ عن ذنْبِ المذنبِ، والعفو: تركك إنسانًا استوجب عقوبةً، فعفوت عنه، وهو ضدّ العقوبة، بينما الغفران من غُفْران الذّنوب: وهو سترُها، والمعهود أن يُطلَب منَ اللّه، قال اللّه في محكم تنزيله: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3].

وقد فرَّق العسكريُّ بين الغُفران والصَّفح؛ بأنَّ الغُفرانَ يقتضي إيجاب الثَّواب، والصَّفحَ التَّجاوزَ عنِ الذَّنب، مِن قولك: صفحت الورقة، إذا تجاوزتها، وقيل: هو ترك مُؤاخذة المُذنب بالذَّنْب، وأن تبدي له صفحةً جميلةً؛ ولهذا لا يُستعمل في اللّه تعالى.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 364، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 653 - 654.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 649، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 15/1234.

وفرَّق بين الغُفران والعَفو بأنَّ الغُفران يقتضي إسقاطَ العِقاب، وإسقاطُ العقاب هو إيجاب الثَّواب، فلا يستحقّ الغُفرانَ إلّا المؤمنُ المُستحِقُّ للثَّواب، وهذا لا يُستعملُ إلّا في اللّه، والعفو يقتضي إسقاطَ اللَّوم والذَّمّ، ولا يقتضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُستعملُ في العبد[1].

العزيز والقاهر:

العزّ: خلاف الذّلّ، وعزّ فلان يعزّ؛ أي: صار عزيزًا، وقَويَ بعد ذلّة[2]. وفي أسماء اللّه تعالى (العزيز)، وهو الغالب القويّ الّذي لا يغلب[3]، أو بعبارة أخرى: العزيزُ هو المُمتنع الَّذي لا يُنالُ بالأذى، ويُقال: عزَّ يعزُّ إذا صار عزيزًا، وعزَّ يعزُّ عزًّا إذا قهر باقتدار على المنع، والقهر: الغَلبة، والأخذ من فوق[4]، والصِّفة بعزيز لا تتضمَّن معنى القَهر، والصِّفة بقاهر تتضمَّن معنى العزِّ، يُقال: قهر فلانٌ فلانًا إذا غلبه، وصار مُقتدرًا على إنفاذ أمره فيه، والعزيزُ في الأصل: الغالب الَّذي لا يفوته شيءٌ، ولا يُعجزه شيءٌ[5]. واستعمال "العزيز" ملائمٌ لسياق الآية ومعناها.

الحكيم والعالم:

الحكيمُ على ثلاثة أوجه، أحدها: بمعنى المُحكِم، مثل: البديع بمعنى المُبدع، والسَّميع بمعنى المُسمِع. والثّاني: بمعنى مُحكَم، وفي القرآن: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدّخان: 4]؛ أي: مُحكَم، وإذا وُصِف اللّه تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك من صفات فِعله. والثّالث: الحكيم بمعنى: العالِم بأحكام الأمور، فالصِّفة به أخصُّ منَ الصِّفة بعالِم، وإذا وُصف اللّه به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته، ويضاف إلى ذلك، أنَّ العالِم هو الَّذي يَعلَم الأشياء، والحكيم: الَّذي يَعمل بما يوجبُه العِلمُ[6].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 387، و388، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 666.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزز).
(4) الخليل، العين: (قهر).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 357 - 358.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/227، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/54.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين براءة عيسى من عابديه، وطمأنة الله للمؤمنين بالجنان والرّضوان

لَمّا انقضى جوابُ عيسى عليه السلام على الوجه الجليل، تشوَّف السّامعُ إلى جوابِ اللّه له، فقال تعالى مُشيرًا إلى كون جوابِه حقًّا ومضمونِه صدقًا، مُنبِّهًا على مدحه حاثًّا على ما بُنيت عليه السّورةُ من الوفاء بالعقود: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، في يوم ينفع الصّادقين صدقُهم، "وستكون لهم جنّات تجري الأنهار في جنباتها، جزاءً وِفاقًا، وسيكونون فيها خالدين أبدًا، حيث فازوا برضا ربّهم ورضوانِه، ورضوا عمّا أكرمهم به ربُّهم، وأنعم به عليهم، وهذا هو الفوز العظيم الّذي لا أعظمَ منه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُ﴾: منَ النّفع: ضدّ الضّرّ، يقال: نفعته بكذا فانتفع به، والاسمُ المنفعة[3]، هو ما يُستعان به في الوصول إلى الخير، وقد نفعه نفعًا، وانتفع به، والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريّ[4]، والمنفَعة: الفائدةُ، وكلُّ ما يُستفادُ منَ الشَّيء فهو مَنفعةٌ، وضِدُّ المنفعةِ: المضرَّةُ، وأَصلُ النَّفعِ في اللُّغةِ: الخَيرُ، وكلُّ ما يُستعانُ به في الوُصولِ إلى المَطلوبِ. ومِن مَعاني المنفَعةِ أيضًا: المَصلحةُ والثَّمَرَةُ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/368.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 789.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفع).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (نفع).

والمعنى: الفائدةُ الّتي تَنال الصّادقين من توحيدهم، وتعودُ عليهم.

2) ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾: الصّادُ والدّالُ والقافُ أصلٌ يدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغيرَهُ. ومِن ذلكَ الصِّدقُ: خلافُ الكذبِ؛ سُمّيَ لقوّته في نَفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّة له، هو باطلٌ. وأصلُ هذا مِن قَولِهِم شَيءٌ صَدْقٌ؛ أي: صُلْبٌ[1]. يُقال: صدقتُ في الحديث، وصدقتُ غيري الحديثَ، يتعدّى ولا يتعدّى. قال اللّه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152][2]

والمعنى: الّذي صدَقوا اللّه فيما وعدوه، فوَفَّوا به للّه.

3) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الظَّفَرُ بالخَير، والنّجاةُ مِنَ الشّرّ، والفَوزُ أيضاً: الهلاك. تقول منهما: فازَ يَفوزُ، وفَوَّزَ؛ أي: مات، وكُلُّ مَنْ أصابَ خَيراً فقد فازَ به؛ أي: أفلَحَ[3]. "وأفازه اللّه بكذا ففاز به؛ أي: ذهب به. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي: بمنجاة منه. والمفازة أيضًا: واحدة المفاوز.. قال الأصمعيّ: سمّيت بذلك تفاؤلًا بالسّلامة والفوز"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثـمـرةُ صـدقِ النّيّاتِ والأقوالِ والأعمالِ

قال اللّه مُجيبًا لعيسى عليه السلام: هذا اليوم - الَّذي هو يومُ القيامة - هو الوقتُ الَّذي يَنتفعُ فيه الصّادقون بصِدقِهم، جزاؤهم جنّاتٌ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، وقد نالوا متعة الجسم في الجنّات، ومتعة الرّوح بالرّضوان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (صدق).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فوز).

من ربّ الأرض والسّماوات، إذ ﷺ فقَبِل حسناتِهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزيل ثوابه، ذلك الجزاء والرّضا منَ اللّه، هو الفوز العظيم الّذي لا يقاربُه جزاءٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

طَرِيقَةُ الحِوَارِ تَقْتَضِي فَصْلَ جُمَلِ المُحَاوَرَةِ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ﴾ جاءَ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ التي قَبْلَها؛ إذْ قولُهُ سُبحانَهُ حكايةً عن عيسَى ﷺ أنَّه قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ يبعَثُ في نفسِ المُتَلقّي سؤالًا وهوَ: فما كان قولُ اللّهِ ﷻ؟ فجاءَ الجواب: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا المَعْنَى الذي فُصِلَت الجملَةُ لأجْلِهِ هوَ مرادُ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ العِلْم: إنَّ الفصلَ حاصِلٌ على طريقةِ الحوارِ[2].

ويجوزُ أن تكونَ الجملَةُ استئنافًا ابتدائيًّا؛ خُتِمَ به حكايةُ ما يقعُ في يوم القيامَةِ، وأُشيرَ إلى مآلِهِ وعاقبَتِهِ[3].

بلاغةُ الخطاب في قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾:

جماليّةُ اتّساعِ المعنى في أُسلوب الحَذف والتّقدير حسبَ القراءة القرآنيّة

هذا الخِطابُ موجَّهٌ مِنَ الحقِّ ﷻ لعباده جميعًا، يُخبرهم عن عاقبة كلٍّ منهم، فبيَّن جزاءَ الصّادقين، وهو الفوزُ برضاه تعالى، ودُخولُ جنَّة الخُلد إلى الأَبد، وأضمر جزاءَ الفريق الآخر؛ لدلالة السّياق عليه؛ حتَّى تذهب النُّفوس في تخيُّلِه كلّ مذهبٍ، كما أضاف هذا الإضمار على السّياق مِنَ التَّرهيب والتَّخويف من سوء المآل ما لا يخفى.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/353، وجماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/117.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/102، والآلوسي، روح المعاني: 4/68.

ومن جهة أخرى، فقد قرأ الجمهور برفع ﴿يَوۡمُ﴾ من غير تنوين، باعتباره خبرًا لاسم الإشارة؛ أي: قال الله تعالى: (إنّ هذا اليوم هو اليوم الّذي ينتفع الصّادقون فيه بصدقهم في إيمانهم وأعمالهم) ...، وقرأ نافع ﴿يَوۡمَ﴾ بالنّصب من غير تنوين، على أنّه ظرفٌ لـ (قال)؛ أي: قال الله تعالى هذا القول لعيسى، يومَ ينفعُ الصّادقين صدقُهم"[1]، وفي التّقديرين مجالٌ لإعمال الفكر، وربطِ عناصر السّياق بالمعنى المُتوخّى من هذا السّياق البليغ.

عِلّةُ العُدول إلى صيغة الماضي بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا﴾:

استخدامُ صِيغة الماضي لتأكيد الوقوع في المستقبل

ابتدأتِ الآيةُ الكريمة بصيغةِ الماضي: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ للتّعبير في تشوّفٍ يقينيٍّ عنِ المستقبَل الَّذي سَيكونُ يومَ القيامةِ؛ للدَّلالةِ والتَّنبيه على تَحقُّقِ الوقوعِ لا محالة، وأنَّ ما هو للوقوع كالواقع. والتَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لإظهار الجلالةِ، وتربيةِ المهابةِ مع ما فيه من تأكيد القول ووثوقِه.

سِرُّ التَّعبير باسْمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، ودلالةُ المشاكلة في الآية الكريمة:

تـعـيّنُ اسـمِ الإشـارة طريقًا إلى إحـضـار المشار إليه بعيْنِه في ذِهن السَّامع

التَّعبيرُ عن يوم القيامة باسْمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الَّذي يدلُّ على القُرب، وكأنَّ الأمرَ يحصلُ أمامَ المُخاطَب، ويجوزُ أن يكون اسمُ الإشارة مُستعمَلًا في حقيقته لكونه في الآخرة، حيث يُقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾، وفيه مشاكلةٌ توحي بأنَّ الجزاءَ من جنس العمل. واستعمالُ اسم الإشارة بهذا الأسلوب يُسمَّى الاستبدالَ، وهو من وسائل السَّبك النَّحويّ، وبه ينقلنا الله تعالى إلى ذلك الوقت الَّذي سيُحاسِب فيه الخلقَ أجمعين، كما ينقلنا إلى أهواله العظيمة لحظةَ السُّؤال، وما بعد ذلك منَ الجزاء[2].

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/353.
(2) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 343.

دلالةُ التَّعبير بكلمة ﴿يَوۡمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾:

الصِّدقُ ينفع العبادَ في المَعاد، وتُنَالُ به الجنّةُ يومَ يقوم الأشهاد

جاء النَّظمُ القرآنيّ بكلمة ﴿يَوۡمُ﴾ نكرةً، وقد أضافها إلى الجملة الفعليّة وعرّفها بها، كأنَّه يقول: (إنّ هذا الأمرَ قد فُرِغَ منه؛ فغفر اللّه لَمَن شاء، وعذَّب مَن شاء)، فهو من باب الإسناد إلى السَّبب.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَنفَعُ﴾:

العَاقِبَةُ الحَمِيدَةُ لِلصِّدْقِ وَدَوَامُ نَفْعِهِ لِأَصْحَابِهِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارِعِ ﴿يَنفَعُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للإيماء إلَى دوام هذا النَّفْعِ واستِمْرارِهِ؛ حيث إنَّ صدْقَهُمْ يورثُهم نعيمًا أبديًّا دائمًا من دخولِ الجنّاتِ وما فيها وحلولِ رضْوان اللّه تعالى عَلَيْهِمْ.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ دون: (صَدَقْتَ):

الحثُّ على الصِّدق والتَّرغيب فيه، لأنّه من أعظم القيم

جيءَ بالتَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾، وعدلَ عن قوله: (صَدَقت)؛ ليطابقَ مقتضى الظّاهر؛ وذلك لأنَّ عيسى عليه السلام لمّا مهَّد عذرَه بتلك العبارات الفائقة البالغة في التَّبرّي عمّا يُنسب إليه، ونزّه اللّه التّنزيهَ الكاملَ، قابله اللّه تعالى بالشَّهادة له بالصِّدق بما هو أبلغُ ممّا أتى به في التّنصّل، حيث عمَّ المكلَّفين كلّهم، وعمَّ أوقاتهم؛ ليدخلَ عليه السلام في ذلك العامّ دخولًا أوّليًّا[1]، ولذلك عبّر بتأكيده "أنّ هذا اليوم هو يومُ القيامة، اليوم الّذي ينفع فيه الصّادقين صدقُهم في إيمانهم، وفي سائر أقوالهم وأحوالهم"[2].

دِلَالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الكَامِلُونَ فِي الصِّدْقِ هُم كَامِلُو الانْتِفَاعِ يَوْمَ القِيَامَةِ

اللّامُ في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دالَّةٌ علَى الكَمالِ، فالمرادُ بالصّادقين: الكاملونَ في الصِّدْقِ، وهُمْ أَهْلُ الإيمانِ لا كُلُّ مَنْ صدرَ مِنْهُ صدْقٌ أيًّا كانَ.

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/550.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

بَيَانُ أَكْمَلِ أَحْوَالِ نَفْعِ الصِّدْقِ لِأَصْحَابِهِ فِي الآخِرَةِ

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوُرودِها استئنافًا بيانيًّا، فبينَها وبين الجملةِ قبلها شبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللهَ ﷻ لمَّ قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أورَثَ ذلك في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهوَ: ينفعُهُمْ بأيِّ شيءٍ، أو: ما لهم من الجزاءِ على هذا الصِّدْقِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ بيانًا للجملةِ قبلَها، فيكونُ بين الجملتينِ كمالُ الاتِّصالِ، فجملَةُ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قد بيَّنت النَّفْعَ في قوله تعالَى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ باعتبارِ أنَّ ذلك أكمَلُ أحوال نفع الصِّدْقِ[2].

ما يُقَدِّمُه السّياقُ من بشارات، يؤجّجُ الأشواقَ إلى نعيم الجنّات

دلالةُ أسلوبِ الحصْرِ بتقديم الخَبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

يدلُّ تَقديم الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ على الحَصرِ، بمعنى: أنَّ هذا الثَّوابَ يختصُّ به الصّادِقونَ دون سواهم، "فهؤلاء الصّادقون أعَدّ الله لهم جنّاتٍ يعجز عنها الوصفُ، تجري من تحت أشجارها الأنهار، ثوابًا من عند الله، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا"[3]، وقصرُ الجنّات عليهم بتقديم الخبر على المبتدأ، من شأنه أن يملأ قلوبَهم باليقين، وأنفسَهم بالطّمأنينة، فيعيشون في رغدِ حالٍ، وطمأنينةِ بالٍ، لا خوفٌ عليهم في الدّنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة.

دلالةُ التَّعبير بكلمة ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

تنكير كلمة ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في الآية أفادت تعظيمًا وتفخيمًا لها؛ أي:

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/423، والبقاعي، نظم الدرر: 6/368، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/103.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/119.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

كلُّ لفظٍ للجنَّة يُفيد التَّفخيمَ والتَّعظيم؛ تدليلًا على الجزاء والتّكريم

هي جنّات عظيمة، وآثر القرآن التَّعبيرَ بصيغة الجمع دون المفرد فلم يقُل: (جنَّة)؛ للإيماء إلى أنَّها واسعةٌ فسيحةٌ حتَّى كأنَّ كل ناحيةٍ منها جنَّةٌ.

زيادةً على ذلك، أنَّها تأتي في القرآن مُفردةً ومجموعةً ومثنّاةً، أمّا الإفراد فباعتبار الجنس، فتشمل كُلَّ ما كان منَ الجنّات، وأمّا الجمع فباعتبار الأنواع؛ لأنَّها درجات متعدّدة أعدَّ اللّه للمُجاهدين في سبيله مئةَ درجة، وأمّا التَّثنية فباعتبار الجنس، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمن: 46]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ [الرّحمن: 62][1].

بلاغةُ المجاز العقليّ، في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

براعةُ الوصف في تصوير الجنَّات، لا يتأتّى لغير البيان القرآنيّ

في إسناد الجَري إلى الأنهار، مجاز عقليٌّ علاقتُه مكانيَّةٌ، فقد أَسند النَّظمُ القرآنيُّ الجريَ إلى الأنهار مع أنَّها مكانُ جري الماء، ولم يُسنده إلى الماء؛ للإشارة إلى شِدَّة جري الماء وسرعة اندفاعه وتدفُّقه[2]، وهذا التَّعبيرُ يوحي إليك أنَّ المكانَ كلَّه يجري، وهذا كما ترى من روائع التَّصوير، ولطائفِ التَّعبير في نظم القرآن، وجملة: ﴿تَجْرِى﴾ إمّا حالٌ منَ الجنّات، وإمّا صفةٌ لها.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ دون (تجري تحتها):

ما في الجنّة من ثمار وأنهار، يُعجزُ العقلَ، وتتقاصرُ عنهُ العبارةُ

دلالةُ ﴿مِن﴾ في الجملة الكريمة ابتدائيةٌ تُبيِّن ابتداءَ جري الأنهار، بأنَّه مِن تحت الجنّات؛ ولذلك آثر القرآنُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، ولم يقُل: (تجري تحتها)؛ للإشارة إلى هذا المعنى، وقدِ اقتضتِ البلاغةُ القرآنيَّة إضافةَ كلمة (تحت) إلى ضمير الجنّات هنا دون إضافتها إلى ضمير الصّادقين، كما جاء في آيات أُخر؛ لتأكيد ابتداء جري الأنهار مِن تحتها؛ ولأنَّ الحديث في هذا

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/567.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/9335.

السّياق عنِ الجنّات، لا عنِ المؤمنين؛ ولذلك آثرَ النَّظمُ إضافة (تحت) إلى ضميرها مراعاةً لمطابقة مُقتضَى الحال[1].

دِلَالَةُ وَصْفِ الأَنْهَارِ بِجَرْيِ مِيَاهِهَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جَمَالُ الجَنَّةِ وَجَمَالُ مَا فِيهَا

وَصْفُ الأَنْهارِ بِجَرْيِ مياهِها يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحْسَنَ المياهِ ما كانَ جاريًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضي كونَه جديدًا كلَّما اغْتُرِفَ أوِ اغتُسِلَ منهُ.

وَأَصْلُ الجَرْيِ: شِدَّةُ سُرعةِ المَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلان الماء سَيْلًا متكرِّرا مُتَعاقبًا: مَجازٌ[2]، وفيه مَسْلَكانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالاسْتِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيلانُ الماءِ سَيْلًا مُتَكرِّرا متعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ بجامِعِ سُرعة الانْتِقال والحركةِ في كلٍّ مِنْهُما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقْييدِ، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشيِ، واستعمِلَ في شِدَّة السُّرعة مطلقًا.

وهوَ على كِلا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضائهِ المُبالغةَ في جِدَّته بشدَّة جَرْيِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

مِنْ تَمَامِ التَّنَعُّمِ بِالجَنَّةِ جَرْيُ الأَنْهَارِ فِيهَا

اللّامُ في الأَنْهار من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لِتَعْريفِ الجِنْسِ، فيكونُ في قوَّة النَّكرة.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لمّا ذُكرتِ الجنَّةُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾؛ اسْتَحْضَرَ السّامعُ لَوازِمَها ومقارناتها؛ فساغَ لِلْمُتَكلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهودِ، فَجيء باللّام.

(1) الأنصاريّ، نصوص التّرغيب والتّرهيب في القرآن الحكيم، ص: 305.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

ويجوزُ أن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيهِ إلَى قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ﴾ [محمد: 15].

بَرَاعَةُ الكِنَايَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

رِفْعَةُ الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ مَكَانَةً وَمَكَانًا

في ذِكْرِ جَرْيِ الأنْهارِ مِنْ تحتِهِم في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كنايةٌ عَنْ عُلوِّهِمْ، وعُلوُّهم مكانًا مُشْعِرٌ بعلوِّهم قَدْرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخلودِ والأبدِ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾:

سرُّ ذكرِ الثَّواب مع الخلود ولفظِ (أبدًا)، وذكرِ العقاب مع الخلود فقط

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لدلالته على طول الزَّمان، زيادةً في إكرام الصّادقين بما يلقونه في الجنّات مِن نعيم لا يزولُ ولا يحولُ، والتّعبيرُ بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ إشارةٌ إلى بقائهم وخلودهم في تلك الجنّات، ولزيادة ترغيبهم بها؛ كَنَّى عنها بالضَّمير على أسماعهم، أمّا كلمة ﴿أَبَدًاۖ﴾ فهي عبارةٌ عن مدَّة الزَّمان الممتدّ الَّذي لا انقطاعَ له، ذلك أنّه لمّا أُتبع الخلودُ بالأبد عُلِم: أنَّه يُراد به الدَّوامُ؛ الَّذي لا ينقطع على الإطلاق، وهي إشارةٌ إلى تأبيد الدَّيمومة في جنّة الخلود، ويصحُّ القولُ: إنّ الخلود هو المكثُ الدّائم ما لم يقمْ دليلٌ على أنَّه مُؤقّتٌ، فإن أُكِّد بالأبديّة انقطع القولُ، بأنَّه خلودٌ طويل(1).

عِلَّةُ فَصلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

إِفَاضَةُ اللهِ تَعَالَى مِنْ رِضْوَانِهِ عَلَى الصَّادِقِينَ مَا لَا يُعْرَفُ مِقْدَارُهُ

فُصِل قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لكونِهِ استِئْنافًا آخرَ، فبينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها: شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللّه ﷻ لمّا ذكر جزاءَ الصّادقين بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾؛ أورث ذلك في نفسِ المتلقّي سؤالًا آخرَ وهو: هل لهُمْ جزاءٌ غيرُ هذا؟ فجاء الجوابُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 2/628.

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ لبيانِ أنَّه سُبحانَهُ قد أفاضَ عَلَيْهِم مِنْ غيرِ المذكور مِنَ الجنّات ما لا يُعْرَفُ مقدارُهُ وهو رِضوانُهُ سُبحانَهُ عَلَيْهِمْ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المَاضِي فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

مَا أَخْبَرَ اللهُ ﷻ بِهِ مُتَحَقِّقُ الوُقُوعِ

جاءَ التَّعبيرُ في فِعْلَي الرِّضا في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بصيغَةِ المُضيِّ، والمرادُ: الإخبارُ أنَّ اللّه سُبحانَهُ سَيَرْضَى عَنْهُمْ وسيرْضَوْنَ عَنْهُ رِضًا خاصًّا؛ وذلك لأنَّ السّياقَ في ذِكْرِ أَحْوال الآخرَة، ولَكِنْ عُبِّر عَنْ ذَلِكَ بالفِعْلِ الماضي - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - للدّلالَةِ على تحقُّقِ وقوعِ هذا الرِّضا، وأنَّهُ ممّا لا بُدَّ أن يكونَ.

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

تَعْظِيمُ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى وَتَفْخِيمُ شَأْنِهِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضْمار، وذلك لتقدُّمِ التَّصريح بالاسْمِ الأحسنِ (اللّه) في قولِهِ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾، فكان مقتضَى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (رَضيَ عَنْهُمْ ورضوا عَنْهُ)، إلّا أنَّه أظهَرَ في محلِّ الإضْمار تعظيمًا لشأنِ هذا الرِّضا وتفخيمًا لحالِهِ؛ إذْ هوَ صادِرٌ ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

ويَجوزُ أن تكونَ الآيةُ مِنْ قَبيلِ الالتفاتِ بالنَّظَرِ إلى جملةِ مقولِ القولِ وأنَّها في قوَّة أسلوبِ الخِطابِ، فَعُدِلَ عَنْهُ إلى الاسم الظّاهرِ - وهوَ بمنزِلَةِ الغَيْبَةِ - ؛ ليُعَلَّقَ الرِّضا بصريحِ الاسْمِ دونَ ضميرِهِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/103.

دلالةُ التَّعطف[1] في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

رضا الله ﷻ من أعظم النّعم، في الدّنيا والآخرة

أتى في الآية الكريمة بالتَّعطف في قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فرِضى اللّه مُستعملٌ في إكرامه وإحسانه، ورضى الخَلْق عنِ اللّه، هو محبَّته، وحصولُ ما أمّلوه منه، وبما نالوه منَ النّعيم المُقيم، بحيث لا يبقى في نفوسهم مُتطلَّعٌ، حتَّى لكأنَّه رضى مُتبادلٌ بين الخالق والمَخلوقين، والمعبود والعابدين، فسُبحانه من ربٍّ كريم، برٍّ رحيم[2].

بَرَاعَةُ التَّرَقِّي فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

اجْتِمَاعُ مُتْعَةِ الأَجْسَامِ مَعَ مُتْعَةِ الأَرْوَاحِ لِأَهْلِ الصِّدْقِ فِي الآخِرَةِ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أسلوبُ تَرَقٍّ؛ حيثُ ذكرَ اللّهُ سُبحانَهُ ما للصّادِقينَ من النَّعيم الذي به مُتعَةُ الأجسام في الجنّاتِ وما يتْبَعُها من جَرْيِ الأَنْهار، ثُمَّ ذكَرَ ما تَحصُلُ به مُتعَةُ الأَرْواح، وهوَ رِضْوانُ اللّه تعالى عَلَيْهِمْ وهوَ أَعْظَمُ، كما قال اللّه تعالَى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72].

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة (ذَلك) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

من دلالات اسم الإشارة صرفُ الذّهن إلى تعظيم المُشار إليه

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية الكريمة جيء به لتعظيم المشار إليه، وهو الجنّات والرّضوانُ، وأشار إليه بإشارة البُعد دون القُرب؛ وذلك لعُلوِّ مرتبته وارتفاعِها، فإنَّه فوزٌ لا نظير له[3]، والتّعظيمُ باسم الإشارة المتّصلِ بلام البُعد (ذلك) مسلكٌ في البيان يسلكه القرآن؛ ليُضفيَ هالةً منَ التّعظيم على المشار إليه باسم الإشارة، وهو هنا ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

(1) التّعطُّف: أن يأتي الشّاعرُ في المصراع الأوَّل منَ البيت بلفظة ويعيدها بعينها، أو بما يتصرّف منها بالمصراع الثّاني، فشُبّه مصراعا البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعطفين، في كون كلّ عطف منهما يميل إلى الجانب الَّذي يميل إليه الآخر. العسكريّ، الصّناعتين، ص: 420، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/313، وابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 468.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/86، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/240.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568.

أَكْمَلُ أَنْوَاعِ الفَوْزِ دُخُـولُ الجَنَّةِ وَمَـا يَتْبَعُـهَا مِـنَ الـنَّعِـيـمِ وَتَحْصِيلُ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يُرادُ بها الكمالُ والتَّعظيمُ، أي: ذلكَ المذكورُ مِنَ النَّعيم الجسديِّ والنَّعيم الرّوحيِّ هوَ الفوْزُ الكاملُ العظيمُ.

اجْتِمَاعُ العَظَمَةِ الذَّاتِيَّةِ وَالعَظَمَةِ الإِضَافِيَّةِ فِي فَوْزِ الآخِرَةِ

دِلَالَةُ وَصْفِ الفَوْزِ بِالعَظَمَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

وُصِفَ الفَوْزُ بِالعَظَمَةِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مبالغَةً في تفخيم شأنِ هذا الفَوْزِ، فاجتَمَع في الفَوْزِ العظمَةُ الذّاتيَّةُ المستفادَةُ مِنْ تعريفِ الكلمَةِ باللّامِ، والعَظَمَةُ الإضافيَّةُ المستفادَةُ مِنْ وصْفِ الفَوْزِ بالعَظَمَةِ.

لا فوزَ أعلى من رضوان الله

بلاغة المجاز المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

في الآية الكريمة مجاز مُرسَل، وعلاقتُه التَّعلّقُ الاشتقاقيّ، حيث عبَّر بالمصدر عنِ المفعول؛ والمعنى: ذلك المَفوز به[1]، وبعد أن شاهدنا العرضَ القرآنيّ لذلك المشهد المهولِ، وسمعنا تفاصيل الاستجوابِ الإلهيّ للمسيح وأتباعِه، منَ الملحّين في طلب معجزة المائدة، وجدنا بلاغةَ القرآن في طريقته الإبداعيّة التّصويريّة المشوّقة، لم تدعْه وعدًا يوعدُ، ولا مُستقبلاً يُنتظرُ، ولم تدعْهُ عباراتٍ تسمعُها الآذان، أو تقرؤُها العيونُ، إنّما حرّكتْ به المشاعِرَ، وجسَّمَتْه واقعًا، تسمعه الآذان، وتراه العيون.

التّشابهُ بين آيتَي سورة المائدة والتّوبة، وسرُّ تقديم الرّضا في إحداهما دون الأخرى:

الآيتان قيدَ السّؤال هما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وقوله تعالى:

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/324.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التّوبة: 100].

لمَ خُصَّت كلُّ آية بما فيها من تقديم الرّضا أو تأخيره؟

والجواب كالتّالي: ابتدأَتْ آية المائدة بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾؛ فحينما كان النَّفعُ أكثرَ ارتباطًا بما هو محسوسٌ ناسبه تقديمُ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ على ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾. أمّا آية التَّوبة فكانت بدايتُها بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾؛ فلمّا ذَكر هؤلاء مرتَّبين حسب أفضليّتِهم، وكان رضَى اللّهِ عنهم أفضلَ ممّا أعدَّ لهم منَ الجنّات، ناسبه تقديمُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ على ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾[1].

الفرق بين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ وبين: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: 100]:

كلّ مَوضِع في القرآن ذُكِر فيه ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ فهو عامٌّ لقوم فيهم الأنبياءُ وغيرُهم، بل هم أوَّلُهم، والمَوضِعُ الَّذي لم يُذكَر فيه ﴿مِن﴾، إنَّما هو لقوم مخصوصينَ، ليس فيهم الأنبياءُ؛ و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، والأنهارُ مباديها أشرَفُ، والجنّاتُ الَّتي مبادئ الأنهار من تحت أشجارها، أشرَفُ من غيرها؛ ولذا ناسبَ أن تكون لقوم فيهم الأنبياء، فلمّا خرجَ الأنبياءُ عنِ الآية الَّتي في سورة براءة؛ لأنَّ اللَّفظ لم يشتَمِل عليهم؛ لم يُخبرْ عن جنّاتهم بأنَّ أشرفَ الأنهار، على مَجرَى العادة في الدُّنيا، تحت أشجارها، كما أخبرَ به عنِ الجنّات الَّتي جعلها اللّه لجماعةٍ خيارُهم الأنبياءُ؛ كما في قوله تعالى مثلًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]، وكما في جميع مَواضع القرآن الّتي ذُكِر فيها جريانُ الأنهار تحت الجنّات، سوى مَوضِع التّوبة هذا[2]، على قراءة جمهور القراءِ، وقرأ ابنُ كثير بزيادة ﴿مِن﴾ في هذا المَوضِع من سورة التّوبة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/472 - 473، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/208، 2/1159، والسّامرائّي، برنامج (لمسات بيانيّة في آي القرآن الكريم): الحلقة 16.

والفرقُ بين القراءتين هنا بكونِ المعنى على قراءة ابن كثير المكّيّ بزيادة ﴿مِن﴾؛ أنَّ مبتدأ جَرْيِ الأنهار من أسفل الجنّات؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، والمعنى على قراءة جمهور القراء بترك زيادة ﴿مِن﴾: أنَّ الأنهار جاريةٌ من جهة أسفلها[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(اليوم) و(النَّهار):

اليومُ الواحدُ مِنَ الأيّام، ثمّ يستعيرونه في الأمر العظيم[2]، "والجمع أيّام، وأصلُه أيْوامٌ فأُدْغم، قال الأخفشُ في قوله تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التّوبة: 108]، قال: من أوّل الأيّام، كما تقول: لقيت كلَّ رجل، تريد كلَّ الرّجال. وعاملتُه مُياوَمَة، كما تقول: مشاهرةً، وربّما عبّروا عنِ الشّدّة باليوم. يقال: (يومٌ أيْوَمُ)، كما يُقال: (ليلةٌ ليلاء)"[3]، ويُعبَّر باليوم عنِ الحَدَث العظيم، كيوم القيامة ويوم الحساب، وهو ما عليه معنى الآية[4]، وأمّا النّهار: فضدّ اللّيل. ولا يُجمع كما لا يُجمع العذاب، والسّراب، فإن جمعته قلت في قليله نُهُر، مثل: سَحابٍ وسُحُب[5]، والنّهار: انفتاح الظّلمة عنِ الضّياء، ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشّمس[6].

النَّفع والإحسان:

النّفع: ضدّ الضّرّ، يقال: نفعتُه بكذا فانتفع به، والاسمُ المنفعةُ[7]، وفي البصائر: هو ما يُستعان به في الوصول إلى الخير[8]. و"النّافع مِن أسماء اللّه الحسنى، وهو الّذي يوصل النّفع إلى مَن يشاء مِن خلقه، حيث هو خالقُ النّفع والضُّرّ، والخير والشَّرّ"[9]، وأمّا الإحسان فضدُّ الإساءة، والفرق بينه وبين الإنعام: أنّ الإحسان يكون لنفس الإنسان وغيرِه، والإنعام لا يكون إلّا لغيره[10]، ويُروَى: الإحسان يَستعبد الإنسانَ. قال الشّاعر:

(1) ابن أبي مريم، الكتاب الموضَح في وجوه القراءات وعللها: 2/603.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (يوم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 551.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نفع).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حسن).

أَحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعْبِدْ قُلوبَهُمُ***فطالَمَا استعبَدَ الإنسانَ إحسانُ[1]

والنَّفع قد يكون من غير قَصدٍ، والإحسان لا يكون إلّا مع القَصد[2].

الجنَّة والفِردوس:

الجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ، وسُمّيت الجنَّة؛ إمّا تشبيها بالجنَّة في الأرض - وإن كان بينهما بَونٌ - ، وإمّا لستره نِعمَها عنّا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ [السّجدة: 17]. والفِردوسُ أصلُه البستان الَّذي هو الجنَّة بالحقيقة لانخفاض ما دونه عنه، وسترِ مَن يدخله بكثرة أشجاره، وسُمّيت الجنَّة بالفردوس؛ - وهو البستانُ يكونُ فيه الشَّجَرُ والزُّهورُ والنَّباتاتُ - وهي اسمٌ لأعلى الجَنَّةِ؛ لأنَّها درجةٌ في أعلى الجِنان وأوسطِها، وهي أفضَلُ وأعلى منزلةً في الجنَّةِ، وفي الفردوس مَنازِلُ الأنبياءِ، وجاء في الحديث: «الجنةُ مئة درجةٍ، كلُّ درجةٍ منها ما بين السّماءِ والأرضِ، وإنّ أعلاها الفردوسُ، وإنّ أوسطَها الفردوسُ، وإنّ العرشَ على الفردوسِ، منها تفجَّرُ أنهارُ الجنّة، فإذا ما سألتم اللّه فسلوهُ الفردوسَ»[3].

الأبَد والسَّرمد والأَمَد:

قالوا: الأبد: الدّهر، وجمعُه آباد، والعرب تقول: أبدٌ أبيد، كما يقولون دهرٌ دهير، والأَبَدَة: الفَعْلَة تبقى على الأبد[4]، والأبدُ هو استمرار الوجود في أزمنة مُقدَّرة غيرِ متناهية في جانب المستقبل، والسَّرمدُ ما لا أوَّل له ولا آخر، وهو الَّذي لا فصلَ يقع فيه، وهو اتِّباع الشَّيء الشَّيءَ، وقالوا: (السّرّمد) الدّائم، والميم فيه زائدة، وهو من سرد، إذا وصل، فكأنّه زمان متّصل بعضه ببعض[5]، والسّرمد: دوام الزّمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل، وفي التّنزيل العزيز: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: 72][6]، وأمّا الأمد فيكون ظرفًا منَ الزَّمان والمكان، يُضاف إلى ذلك، أنَّ الأمد مدّةٌ لها حدٌّ مجهول، وقد

---

(1) السَّراج، اللّباب في قواعد اللّغة، ص: 267.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.

(3) أخرجه ابن ماجه، الحديث رقم: (4331)، وأحمد، الحديث رقم: (22140)، وصحح إسناده الألبانيُّ في صحيح ابن ماجه، الحديث رقم: (3512). الرّاغب، المفردات: (جنَّ)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/149.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبد).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (السّرمد).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (السّرمد).

ينحصر[1]. ومن هنا نقفُ على حكمة استخدام القرآن الكريم للفظ (أبدًا) في هذا السّياق؛ لاستمرار خلود أهل الجنّة فيها وتَنَعُّمِهم بها دون انقطاعٍ.

الرّضوان والرّضا:

الرِّضوان: بكسر الرّاء وتُضَمُّ، اسم مبالغة في معنى الرِّضى، هو الرِّضى الكثير.

وقرأ القراء كلّهم الرِّضوان، بالكسر إلّا شعبةَ عن عاصم فقرأ بالضّمّ[2]، ولمّا كان أعظمُ الرِّضى رِضى الرَّحمن، خُصَّ لفظُ الرِّضوان في القرآن، بما كان منَ الله تعالى[3].

الظَّفَر، والفَوز، والنَّجاة، والفَلاح:

فرَّق العسكريُّ بين الظَّفر والفَوز؛ بأنَّ الظَّفر هو العُلوُّ على المناوئ المنازع، وقد يُستعمل في مَوضِع الفوز، ولا يُستعمَل الفوز في مَوضِع الظَّفر.

وفرَّق بين النَّجاة والفَوز؛ بأنَّ النَّجاةَ هي الخلاص منَ المكروه، والفوز هو الخلاص منَ المكروه، مع الوصولِ إلى المحبوب، وذَكَر أنَّ الفلاحَ نيلُ الخير والنَّفع الباقي أثرُه، ويُقال أيضًا لكلِّ مَن عَقل وحزم، وتكاملَت فيه خلالُ الخير: قد أفلح[4].

العظيم والكبير:

العظيم: منَ العظم: مصدر الشّيء العظيم، تقول: عَظُمَ يَعْظُم عُظْمًا، وعظّمته أنا، فإذا عَظُم في عينيك، قلتَ: أعظمتُه واستعظمته[5]، والعظيم قد يكون من جهة الكثرة، ومن غير جهة الكثرة، ولذلك جاز أن يوصف الله تعالى بأنّه عظيم، وإن لم يوصف بأنّه كثير، وقد يعظمُ الشّيءُ من جهة الجنس ومن جهة التّضاعف. وأضاف الكفويُّ أنَّ العظيمَ نقيضُ الحقير، كما أنّ الكَبيرَ نقيضُ الصَّغير، والعظيم فوق الكَبير؛ لِأَنّ العَظيم لا يكون حَقيرًا لِكَونِهما ضِدّين، والكَبير قد يكون حَقيرًا، كما أنَّ الصَّغير قد يكون عَظيمًا، إذ لَيسَ كُلٌّ منهما ضِدّ الآخر[6].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71 - 276، والرّاغب، المفردات: (أمد)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 7/118.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/238، والزَّبيديّ، تاج العروس: 38/157.

(3) الرّاغب، المفردات: (رضي)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478، والمناوي، التّوقيف، ص: 178.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 340 - 532 - 321.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عظم).

(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 361، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 631.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفنيدُ دعاوى النّصارى بألوهيّة المسيح، وتأكيدُ مُلْك الله وقدرته

لَمّا ادَّعتِ النَّصارى في عيسى عليه السلام وأمِّه الأُلوهيَّةَ، اقتضتِ الدَّعوى أن يكونا مالِكَين قادرين، فردَّ اللّه عليهم[1]، والآية تذييلٌ مُؤذنٌ بانتهاء الكلام؛ لأنَّ هذه الجُملة جمعَت عُبوديَّة كُلّ الموجودات للّه تعالى، فناسبت ما تقدَّم مِنَ الرَّدِّ على النَّصارى، وتضمَّنت أنّ جميع الكائناتِ في تصرّفه تعالى، فناسبت ما تقدَّم من جزاء الصّادقين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: المُلْكُ هو ضبطُ الشَّيءِ المتصرَّف فيه بالحكم، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ كالسُّلطان؛ ومُلكُ اللّهِ تعالى ومَلَكوتُه: سُلطانُهُ وعَظَمَتُه، وهو الحقُّ الدّائم للّه؛ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التّغابن: 1][3]، قال الشّاعر:

لولا مَلِكٌ رَؤوفٌ رَحيمٌ *** تَدارَكَني برَحمَتِهِ هَلَكتُ[4]

والمعنى: للّهِ سلطانُ السّماوات والأرض.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تنبيهُ اللهِ خلقَه على سَعة مُلكه ونافذِ قُدرته

يخبرُ تعالى أنَّ له سلطانَ السّماوات والأرض وما فيهنّ، دون عيسى وأُمِّه اللّذَين زُعِمَ أنّهما إلهان، فهما عبدان مملوكان للّه، مثل جميعِ مَن في السّماوات ومَن في الأرض؛ فاللّه قادرٌ على إهلاك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(4) ابن سيده، المحكم: (عقص).

عيسى وأمِّه، ومَن في الأرض جميعًا كما ابتدأ خلْقهم، لا يُعجزُه ذلك؛ لأنّ قدرتَه القدرةُ الّتي لا تشبهها قدرةٌ، وسلطانَه السّلطانُ الّذي لا يشبهه سلطانٌ؛ فهو خالقُهما ومدبِّرُ أمرهما، وله مُلك ما فيهنّ من جميع المخلوقات، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، فلا يُعجزه شيءٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

أَثَـرُ الِاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا بيانيًّا، فَبَيْنَه وبينَ ما قبلَهُ شِبْهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ قبْلُ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهو: مَن يُعْطيهم ذلك الفوزَ العظيمَ؟ أَوْ: مَن يَمْلِكُ ذَلِكَ ليُعْطيَهُم إيّاهُ؟ فأُجيبَ عن ذلك بقولِهِ: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: يُعطيهمُ الفوزَ العظيمَ الذي له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ[2].

ويَحْتَمِلُ أَن تَكونَ الجملَةُ استئنافًا ابتدائيًّا مقطوعًا عمّا قَبْلَهُ، والمرادُ بذلك خطابُ النَّبيِّ ﷺ[3].

والأَوَّلُ أظهَرُ لئَلّا ينقطِعَ نظمُ الكلامِ.

بلاغةُ الحصر في تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

اختصاصُ كلِّ شيءٍ باللّه ﷻ، دليلٌ على هيمنته على الوجود

ابتدأتِ الآيةُ الكريمةُ بتقديمِ متعلَّقِ الخَبرِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ مُلكِ السّماواتِ والأَرضِ وما فيهنَّ باللّهِ ﷻ؛ فتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحصرَ، سواءٌ كان هذا الَّذي حقُّه التَّأخيرُ خبرًا

(1) الطّبريّ، جامع البيان: 9/143، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469، والآلوسي، روح المعاني: 4/69.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/264.

أم مفعولًا، أو غيرَ ذلك ممّا حقُّه التَّأخيرُ[1]، ولذلك فإنَّ الملكَ كلَّه والقدرةَ كلَّها للّه وحده، فلا يجوز لإنسان أن يتوجّه إلّا إليه[2].

دلالةُ التَّصريح بذكر السّماوات والأرض وما فيهنَّ:

كلُّ شيء مخلوقٌ للّه ﷻ، ولا خالق للكون سواه

جيء بذِكر السَّماوات والأرض، والتَّصريح بما فيهنَّ؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ شيءٍ فيهنَّ مخلوقٌ له سبحانه، وليس فوقه أحدٌ، فلا يُقال: إنَّ أحدًا له سُلطان بجوار سلطانه، وإنَّ المعجزات الَّتي تجري على أيدي بعض النَّبيّينَ مِن خَلْقه، هو الَّذي خلقه على يديه، وليس النَّبيّ خالقَها[3]، وهو بذلك يتناول الأجناس كلّها تناولًا عامًّا، ويفيد أنّه تعالى المُهيمنُ على كلِّ المخلوقات، فلا يندُّ عن سلطانه وقدرته شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض.

عِلَّةُ تقديم السّماوات على الأرض، في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

شرفُ السّماواتِ وكِبَرُها، وآياتُها أدلُّ وأكثرُ مِنَ الأرض

في الجملة الكريمة تقدَّمتِ السّماواتُ على الأَرضِ؛ وعلَّةُ ذلك أنَّ السّماواتِ أشرفُ وأكبرُ، وآياتها أدلُّ وأكثرُ مِنَ الأرض على اتِّساعِهما وعِظَمِهما وتباعُدِ ما بينهما[4]، إضافةً إلى ذلك أنَّ بينهما طباقًا، ومجيءُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مُفردًا معرّفًا بلام الجنس يُفيد العموم أيضًا، والسّماوات العالية، والأرض الرّاقية، هما ظرفان للوجود بكلّ ما فيه من موجود، وقد اتّسعتِ السّماوات لمختلف الكائنات، وضمّتِ النّجومَ والكواكب والمجرّاتِ، وكانتِ الأرضُ جزءًا من ذلك الملكوتِ المتّسعِ الّذي لا يحيط بمعرفة سعتِه إلّا اللّه، لأنّ ذلك كلَّه للّه، مِلْكًا ومُلْكاً فهو سبحانه الّذي يملكُ كلَّ شيء، ويملكُ كذلك المالكَ للشّيء، فبدأ بما هو أظهرُ في العظمة والسّعة، وما هو أوضحُ في الاستدلال والبيان[5].

(1) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة: 2/576.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 251.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2415.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/370.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/482.

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، عوض عن (ومن فيهنّ):

التَّنبيهُ على أنَّ المخلوقاتِ العاقلةَ منَ الإنس والجنِّ والملائكة، مُسخَّرونَ لله

قال تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، ولم يقُلْ: (وَمَنْ فيهنَّ)، فغلَّب غيرَ العُقلاءِ على العُقلاءِ؛ لأنَّ كلمة (ما) تتناول الأجناس كلّها تناولًا عامًّا، بأصل الوضع، و(مَنْ) لا تتناول غيرَ العُقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال (ما) هنا أَولَى، والسَّببُ فيه التّنبيهُ على أنَّ كلَّ المخلوقاتِ العاقلة منَ الإنس والجنّ والملائكة، مُسخَّرونَ في قبضةِ قَهْره وقُدرته، وقَضائِه وقَدَره، وهم في ذلك التَّسخيرِ كالجَماداتِ الّتي لا قُدرةَ لها، وكالبَهائِمِ الّتي لا عَقلَ لها، فعِلْمُ الكلِّ بالنِّسبة إلى عِلمه كَلا عِلمٍ، وقُدرةُ الكلِّ بالنّسبة إلى قُدرَته كَلا قدرةٍ[1]، إضافةً إلى ذلك، أنَّ السّماواتِ والأرض فيهنَّ شيء، وهذا أمر معلوم، فالسّماوات فيها الملائكة، والأرضُ فيها الإنس والجنّ والشَّياطين، كذلك الجماداتُ، وكلّها ملكُها ثابتٌ للّه ﷻ[2].

بَرَاعَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تَحْرِيضُ العِبَادِ عَلَى تَعْلِيقِ الآمَالِ بِاللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بها إعلامُ عمومِ مُلْكِهِ سُبحانَهُ، وفيهِ تَنْبيهٌ علَى عُبوديَّة عيسَى عليه السلام.

وفي هذه الجُمْلَةِ أيْضًا تحريضٌ للعبادِ على تعليقِ الآمالِ باللّهِ تعالَى وحْدَهُ[3]؛ لأنَّ جميعَ ما يأمَلُهُ العبادُ هو مِلْكٌ للّهِ ﷻ، فكانَتْ هذه الجُمْلَةُ جامعةً بينَ المَعْنَى الحقيقيِّ الذي يُفيدُهُ أصلُ الإخبار، والمَعْنَى المجازيِّ اللّازم مِنْ هذا الإخبارِ، وهذا ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ استعمالِ اللَّفْظِ المُشْتَرِكِ في مَعْنَيَيْهِ أو معانيه، وهوَ جائزٌ علَى الصَّحيح.

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469، والبيضاويّ، أسرارُ التَّنزيل: 2/151، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 5/551، والزَّركشيّ، البرهان: 3/307.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة: 2/578.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/606.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (الْأَرْضِ) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

شُمُولُ لَفْظِ الْأَرْضِ لِجَمِيعِ الْبِقَاعِ

اللّامُ في (الأَرْضِ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ (الأَرْضِ) الأرضونَ السَّبْعُ كُلُّها.

نُكْتَةُ عَدَمِ جَمْعِ (الْأَرْضِ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

تَصَرُّفُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي الْأَلْفَاظِ جَمْعًا وَإِفْرَادًا بِمَا يُحَقِّقُ جَزَالَتَهُ وَانْسِيَابَهُ

لَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأَرْضِ) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلَقًا، فإنَّ السَّماءَ إذا ذُكِرَت مجموعَةً جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميع مواضِعِها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِهِ، والجُسْأَةُ التي تعرِضُ للَّفْظِ حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيخْتَلُّ بسببِ ذلك[1].

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

عمومُ قدرة الله ﷻ على كلِّ شيء، لايماري فيه إلّا معاندٌ كنودٌ

تقديم الجارّ والمجرور، يفيد كمالَ قدرة اللّه تعالى على الأشياء، والتّقديم للمجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾، للرِّعاية على الفاصلة المبنيَّة على حرفين، بينهما حرف مدّ[2]، والتّقديم له فائدة شكليّة في مراعاة الفاصلة، الّتي تعطي السيّاقَ انسيابيّةً وجماليّةً وروعة، تنسجم فيها التّلاوةُ، وتأنس لها الآذان، وترتاح لها الأنفسُ، وله فائدة معنويّةٌ، حيث يستوعب الدّلالةَ المرادةَ من لَفت اللّه العقولَ والأبصارَ، إلى قدرته على كلّ شيء، وأنَّ مَن يكفرُ به ويعانده، لن يعجزَه أمرُه، ولكنّه يمهل الظّالمَ، حتّى إذا أخذه لم يفلتْه.

بَرَاعَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

عُمُومُ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى وَشُمُولُ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرَى المَثَلِ؛ لِعَدَمِ استقلالِهِ، وافتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ، وفائدتُهُ أنَّ اللّه سُبحانَهُ لمّا ذكرَ مُلْكَهُ للسّماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ،

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/120.

وذلك مُقْتَضٍ قُدْرَتَهُ على ذلكَ كُلِّه؛ عَمَّمَ الحُكْمَ في جُملَةِ التَّذْييلِ، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾.

بلاغةُ حُسن خِتام السُّورة، في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾:

حسنُ الانتهاء وبراعةُ المقطع، من بلاغة القرآن الرّاقية

ختم اللّه تعالى سورةَ المائدة، بأحسن خاتمة وأجزلها؛ لاشتمال الآية على التَّعظيم والتَّبجيل، وأنَّها مُتَّسقةٌ كلَّ الاتِّساق، لأنْ تكون خاتمةً لهذه السّورة العظيمة الَّتي ساقَت ما ساقَت مِن تشريعاتٍ وأحكام، وآدابٍ وهدايات، ومِن حُججٍ حكيمةٍ، وأدلَّةٍ ساطعةٍ، دحضَتْ بها الأقوالَ الباطلةَ الَّتي افتراها أهلُ الكتاب، - خصوصًا النَّصارى - ، على عيسى وأمِّه مريم عليهما السلام، وبرهنت على أنَّ عيسى وأمَّه، ما كانا إلّا عبدين من عباد اللّه، يدينان له بالعبوديّة والطّاعة والخُضوع، ويأمران غيرَهما بأن ينهج نهجهما في ذلك[1].

مناسبةُ مُفتتح السُّورة ومُختتمِها:

التَّـكـامـلُ في بِـنـيـةِ الـسُّـورة بـين الـتّـشـريـع وصـفـاتِ الـلـهِ الـمُـشـرِّعِ على أحسن الوجوه

إنَّ مُفتتح سورة المائدة، كان بذِكر العَهد المنعقِد بين الرُّبوبيّة والعُبوديَّة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، وكمالُ حالِ المؤمن في أن يَشرعَ في العبوديَّة، وينتهيَ إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلّيَّة، فالأوَّل هو الشَّريعة، وهو البداية، والآخر هو الحقيقةُ، وهو النِّهاية، فمُفتتح السّورة مِنَ الشَّريعة ومختتمُها بذِكر كبرياءِ اللّه وجلاله، وعِزَّتِه وقُدرته وعُلوِّه، وذلك هو الوصولُ إلى مقام الحقيقة، فما أحسنَ المناسبةَ بين ذلك المُفتَتح، وهذا المُختتَم![2].

دلالةُ ذكْر عبارة ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ في آية سورة المائدة دون آية سورة الشّورى:

الآيتان هما قولُ اللّه تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ

(1) الزّركشي، البرهان: 1/183، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/354، الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/324.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469.

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وقولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشّورى: 49]، والسّؤال: لمَ خُصَّت آية المائدة بورود قوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ دون أن تُذكر في سورة الشّورى؟ وللإجابة عن ذلك نذكر ما يأتي:

بيانُ سَعة ملكِ اللـه، لدحض شبهة مشاركته فيه سواه

إنّ آية المائدة وردَت في نهاية سياق تمام الرّدِّ على النَّصارى، الَّذين اتَّخذوا عيسى بن مريم وأمَّه عليهما السلام إلهين من دون اللّه؛ فلمّا كان ذلك دالًّا على المشاركة في الملك ناسبه المبالغةُ في بيان سَعة مُلك اللّه، بذكر عبارة: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، ولمّا كان الملكُ لا قوامَ له إلّا بتمام القُدرة وسعتها ناسبه قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، أمّا آية الشّورى فيسبقها قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشّورى: 48]؛ فلمّا لم يذكرْ ما يتعلّق بالشِّرك أو المنازعة في الملك ناسبه عدمُ ذكر: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ بقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

تغيّرُ الأسماء الحسنى بين ﴿قَدِيرٌ﴾ و﴿وَكِيلٞ﴾ و﴿شَهِيدٌ﴾ في مَواقعها من سورها:

الملاحظ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾ [سبأ: 47]. والسؤالُ: لِمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها من الأسماء الحسنى؟

آية المائدة بُدِئت بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾؛ فلمّا كان الملكُ لا قوامَ له إلّا بتمام القُدرة وسعتها ناسبه قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

وأمّا آية الأنعام فقد بُدئت بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: 102]؛ فلمّا كانتِ العِبادة قد يعكّر صفوَها الانشغالُ بالرِّزق والمعاش ناسبه طمأنةُ العِباد؛ بأنَّ اللّه هو القيِّمُ الكفيل بأرزاقهم وأرزاق غيرهم بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وأمّا آية سبأ فقد بُدئت بقوله: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: 47]؛ فلمّا كانت هذه شهادةً مِنَ اللّه تعالى أمر الرَّسولُ ﷺ بتبليغها لأُمَّته، كي يشهدوا بذلك، ناسبه بيانُ أنَّ اللّه هو الشَّهيد على ذلك، وعلى غيره بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُلك والملكوت:

المَلكوت هو عالمُ الغَيب المُختَصُّ بالأرواح والنّفوس والعجائب، وفي التَّنزيل العَزيز: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185][1]، واللّه تعالى" له الملكوت والعزّة والجبروتُ، خلق الخلقَ وأعمالَهم، وقدّر أرزاقهم وآجالَهم، لا تُحصى مقدوراتُه، ولا تتناهى معلوماتُه، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب عنه مثقالُ ذرّة في الأرضِ ولا في السّماواتِ"[2]، وأمّا المُلك فيُقال: "ملك الشّيء وامتلكه وتملّكه، وهو مالكه وأحدُ مُلاكه، وهذا ملكُه وملكُ يده، وهذه أملاكه. ومَلَكَ عليه أمره إذا استولى عليه[3]، وفي الفرق بينهما، قال أهلُ العربيَّة: الملكوتُ أبلَغُ مِنَ المُلك؛ لفخامة لفظه، زِد على ذَلك، أنَّ المُلك الحقّ الدّائم للّه، فالمُلكُ ضبطُ الشَّيء المُتصرَّفِ فيه بالحُكم، والملكوت مختصٌّ بملكِ اللّه تعالى، وهو مصدرُ مَلَكَ أُدخِلَتْ فيه التّاءُ[4].

الأرض، والحافرة، والسَّاهرة:

الأرض: الجِرْمُ المقابل للسَّماء. وهي اسمُ جنس، وقالوا: أرضون فجمعوا بالواو والنّون، على غير قياس، جعلوا الواو والنّون عوضًا من حذفهم الألف والتّاء، وتركوا

(1) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 2/886.
(2) الأبشيهيّ، المستطرف في كلّ فنّ مُستظرف، ص: 11.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/227.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 155، والرّاغب، المفردات: (ملك).

فتحة الرّاء على حالها، وربّما سُكّنت، والأراضي أيضًا على غير قياس، وكلّ ما سفل فهو أرض[1]، والحافرة: الأرض الّتي تُحفر فيها قبور النّاس، والمعنى المحفورة. والسّاهرة: أرضُ المحشر، تُسمَّى ساهرة؛ لأنَّه مِن شدَّة الخوف فيه يطير النَّوم عنِ الإنسان، فتلك الأَرض الّتي يجتمع الكفّارُ فيها في موقف القيامة، يكونون فيها في أشدِّ الخوف[2].

القدرة والاستطاعة:

والاستطاعة: هيَ التّهيُّؤ لتنفيذ الفِعل بإرادَة المُختار من غير عائق، قالَ المُحَقِّقونَ: هي اسمٌ للمعاني الَّتي يتَمَكَّن المَرء بها مِمّا يُريدهُ من إِحداث فعل؛ وهي أخصّ منَ القُدْرَة، والحقُّ ما صرّح به الإِمام أبو حنيفَة أنّ القُدرَة تصلح للضّدّين؛ بمعنى: أنَّها قوَّةٌ بها يتَمَكَّن الحَيُّ مع الفِعل والتّرك، وصِحَّةِ الأَمر والنَّهي، وقيل: القُدرَة ما يظهر منَ القوَّة، بِقدر العَمَل، لا زائِدًا عليه ولا ناقِصًا منهُ، ونفيُ الاستِطاعَة قد يُراد به نفيُ القُدرَة والإمكان، وقد يُراد به نفيُ الامتِناع، وقد يُراد به الوُقوعُ بِمَشَقَّة وكُلفةٍ[3].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أرض).

(2) الرّاغب، المفردات: (أرض)، والفرّاء، معاني القرآن: 3/232، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 31/37.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 108 - 109.

سُورَةُ الأَنعَامِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ

التَّعريفُ العامُّ بالسُّورة:

سـورةُ الأنعـامِ هـيَ أوّلُ سـورةٍ مكّيّةٍ مِنَ السَّبعِ الطِّوال السَّنيّة

سورةُ الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحفِ، وهي مكّيّة بالاتّفاق "وهي مئةٌ وخمسٌ وسِتّونَ آيَةً في الكوفيّ، وستٌّ في البَصريّ والشّاميّ، وسبعٌ في المَدَنيّين والمكّيّ"[1].

وهي أوّلُ سورةٍ مكّيّةٍ منَ الطّوال في ترتيبِ المصحفِ، وتُعدّ في ترتيب النّزول الخامِسَةَ والخَمْسينَ في أَحَدِ الأقوال المُعتبرة، وقد نزلَت ليلًا في السّنة الرّابعة منَ البعثة، بعدَ سورة الحِجْرِ وقبلَ سورة الصّافّات[2].

ويرى بعضُ المفسّرين أنّ فيها آياتٍ مدنيّةً[3]، والّذي عليه المحقّقون منَ المفسّرين، وترتاحُ إليه القلوب، وتطمئنُّ له النّفوس، هو أنَّ السّورةَ بكلِّ آياتها مكّيّة، وذلك للأسباب الآتية:

أوّلًا: كثرةُ الآثار الّتي صرّحَت بنزولها بمكّة دُفعةً واحدةً، وهي منقولةٌ عنِ ابن عبّاس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما، والّتي تناقلها معظمُ المفسّرين في تفاسيرهم.

فقد روي في بيان منزلة هذه السّورةِ أنَّها نزلَت مرّةً واحدةً، وشيّعها سبعونَ ألفَ ملكٍ، طبّقوا ما بين السّماوات والأرض، لهم زَجَلٌ بالتَّسبيح، فقال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: «سبحان اللّه»!، وخرّ

(1) الدّانيّ، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 151.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/123، وجعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 3/6.

(3) انظر تفاصيل ذلك في: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/433، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2416، وابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 2/58، والزّمخشريّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 2/3.

ساجدًا[1]، ومن ذلك ما رَواه الطَّبَرانيُّ في المعجم الصّغير بسَندِهِ إلى عَبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «نَزَلَت عليَّ سورةُ الأَنعامِ جُملَةً واحِدَةً، وشَيَّعَها سَبعونَ أَلفًا مِنَ المَلائِكَةِ، لَهُم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ»[2].

ثانيًا: أنّ المحقّقين منَ المفسّرين عندما بدؤوا في تفسير سورةِ الأنعامِ صرّحوا بأنّها جميعها مكّيّةٌ، وأنّها قد نزلَت جملةً واحدةً، ولم يذكروا روايةً واحدةً تُثبت أنّ فيها آيةً أو آياتٍ قد نزلَت بالمدينة، ومن هؤلاء ابن جرير الطّبريّ[3]، والواحديّ[4]، والنّسفيّ[5]، وابن كثير[6]، والسّيوطيّ[7]، وغيرهم منَ الحفّاظِ النّقادِ وأهلِ الرّواياتِ وأصحابِ التّفسيرِ بالمأثور.

ثالثًا: جميعُ الرّوايات الّتي اعتمد عليها القائلون بمدنيّةِ بعض الآيات، هي رواياتٌ فيها مَقال، ولم يعتمدها المحقّقون منَ العلماء، ولم يصحَّ بها نقل.

رابعًا: القارئُ لسورة الأنعامِ بتدبّر يجد فيها سماتِ القرآن المكّيِّ واضحةً جليّةً، وفي كلّ آياتها، فهي تتحدّث باستفاضة عن وحدانيّة اللّهِ، وعن مظاهرِ قدرتِه، وعن صدق النّبيّ ﷺ في دعوته، وعنِ الأدلّة الدّامغةِ الّتي تؤيّدُ صحّةَ البعث والثّواب والعقاب يوم القيامة، وغيرها منَ الموضوعات المرتبطة بالعقيدة والتّوحيد، ومن أجل ذلك اقتضَتِ الحكمةُ الإلهيّةُ أن تنزلَ - مع طولها وتنوّع آياتها - جملةً واحدةً.

خامساً: ثبت أنّ بعضَ الآياتِ كانَت تصدقُ على وقائعَ تحدثُ بعد نزولها أو قبله للاستشهاد أو الاحتجاج بها في الواقعة منها، فيظنّ مَن سمعها حينئذٍ منَ الصّحابة، ولم يكن سمعها من قبل، أنّها نزلَت في تلك الواقعة[8].

---

(1) قال الزّركشّي: "ذكر أبو عمرو بن الصّلاح في (فتاويه): أنَّ الخبَر من حديث أبيّ بن كعب عنِ النّبيّ ﷺ، وفي إسناده ضعفٌ، ولم نرَ له إسنادًا صحيحًا، وقد روي ما يخالفُه، فروي أنّها لم تنزلْ جملةً واحدةً، بل نزل منها آيات بالمدينة". الزّركشيّ، البرهان: 1/186.

(2) الطّبرانّي، المعجم الصّغير، حديث رقم: (220).

(3) الطّبريّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 9/144.

(4) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/250.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/489.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/237.

(7) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور: 3/243.

(8) رضا، تفسير المنار: 7/237.

أسماءُ السّورة، على الرّوايات المشهورة:

اشتُهِرَت سورةُ الأنعام بهذا الاسم دون غيره، وذكر الفيروزاباديّ أنَّ لسورة الأنعام اسمًا آخر هو: سورةُ الحجّة[1]؛ لأنّها اشتملَت علمًا كثيرًا من دلائل حجّةِ النّبوّةِ، وأيضاً تكرّرت فيها الحجّةُ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: 83]، و﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]، وهذه التّسمية اجتهادٌ منَ الفيروزاباديّ ومَن تبعه، ولا يوجد ما يؤيّده من سنّة النّبيّ ﷺ بخلاف الاسم الأوّلِ المذكور صراحةً في السّورة، وفي أكثر من مكان، والوارد في أحاديث النّبيّ ﷺ.

فعند ابن عاشور[2] ليس لسورة الأنعام إلّا هذا الاسم مِن عَهدِ رَسولِ اللّه ﷺ حتّى الآن، وقد ثبتَتْ تسميتُها في المصاحف وكتب التّفسير والسّنّة بهذا الاسم، فلم تُعرَف بسواه.

سببُ تسميتِها بالأنعام:

أمّا سببُ تَسْميَتِها بهذا الاسم فقد ذكروا في ذلك أقوالًا منها:

أنّ لفظَ الأنعامِ تكرّرَ في السّورة ستَّ مرّاتٍ من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ – إلى قولِه – ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 136 - 144]، ولما ورد من تفصيل أحوالِها مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾ [الأنعام: 142] إلى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [الأنعام: 144] حيث لم يرِد هذا التّفصيلُ في غيرها منَ السّور، ولأنّ السّورةَ انفردَت بهذا التّفصيل، استحقّتِ التّسمية بها[3].

وسورةُ الأنعامِ سُمّيَت بهذا الاسم لأنّ أكثرَ أحكامِها وجهالاتِ المشركين فيها، وفي التّقرّب بها إلى أصنامهم مذكورةٌ فيها[4].

المحورُ العامُّ لسورةِ الأنعامِ:

يدورُ محورُ السّورةِ الكريمةِ حولَ حشدِ الأدلّةِ الدّامغةِ والبراهينِ السّاطعةِ الدّالّةِ على توحيدِ اللّه وألوهيّته، ومحاجّةِ المشركين، وردِّ مزاعمِهم الباطلة ومعتقداتِهم الفاسدة،

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/187، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 7/121.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 2/65.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/308.

توحيدُ الألوهيَّةِ، ومحاجَّةُ المشركين بردِّ مزاعمِهم الباطلةِ ومعتقداتِهم الفاسدةِ

وهذا واضحٌ من خلال مجرياتِ السّورةِ الكريمةِ وأساليبِها المتنوّعةِ، وذكر شهابُ الدّين الخفاجيُّ بأنّ قطبَ هذه السّورةِ الكريمةِ يدورُ على إثباتِ الصّانعِ، ودلائلِ التّوحيدِ، ونُقِلَ عن أبي إسحق الإسفراييني رحمه الله: في سورة الأنعام كلُّ قواعدِ التّوحيدِ[1].

وذكر القرطبيُّ أنَّ هذه السّورةَ أصلٌ في محاجّةِ المشركين وغيرهم منَ المبتدعينَ، ومَن كذّبَ بالبعث والنّشور، وهذا اقتضى إنزالَها جملةً واحدةً لأنّها في معنًى واحدٍ منَ الحجّة، وإن تصرّفَ ذلك بوجوهٍ كثيرةٍ، وعليها بنى المتكلّمون أصولَ الدّين؛ لأنّ فيها آياتٍ بيّناتٍ تردّ على القدريّة[2].

وأوجزها سيّد طنطاويّ بأنّ سورةَ الأنعام قد "جمعَتْ كلَّ العقائدِ الصّحيحةِ، وعُنيَت بالاحتجاج لأصولِ الدّين، وتفنيدِ شُبَهِ الملحدين، وإبطالِ العقائدِ الفاسدةِ، وهذه المعتقداتُ والمناظراتُ وكثرةُ الدّلائلِ والحججُ والبراهينُ والمحاوراتُ والسّجالاتُ بين الأنبياء وأقوامهم تتوافقُ وطبيعةَ المرحلةِ الّتي كانَت تجتازُها الدّعوة الإسلاميّة في ذلك الوقت"[3].

ملمحُ ارتباطِ التَّسميَةِ بِمِحْوَرِ السُّورَةِ:

الّذي يغلبُ عليه الظّنّ أنّ تسميةَ السّورة بحسب تكرّر لفظةٍ ما فيها ليس أمرًا مطّردًا ليكون سببًا للتّسمية، بل لا بدّ من ارتباطٍ أعمق بمحورِ السّورةِ الكريمةِ، كما هو الحال هنا في كون محور السّورة يقوم على تقرير توحيدِ الألوهيّةِ المتضمّنِ حقّ الله وحدَه بالتّحليل والتّحريم دون غيره، وأنّه لا مُشرِّع سوى الله ﷻ دونَ تشريعاتِ البشرِ القاصرةِ، كما هو الشّأن في تشريعات أهلِ الجاهليّة فيما

(1) الخفاجيّ، عِنايةُ القاضي: 3/307.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/383.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/7.

كانوا يعتقدونه في أحكام هذه الأنعام وغيرها، وكما هو الشّأن أيضًا في تشريعات أهلِ الكتابِ فيما حرّموه على أنفسهم دون ما شرعه اللّه تعالى لهم، فكانَت تسميتُها بالأنعام تحملُ إشاراتٍ إلى مَعلمٍ بارزٍ من معالمِ توحيدِ الألوهيّةِ، وحقّ اللّه وحدَه بالتّحليل والتّحريم.

اعـتـنـاءُ ســورةِ الأنـعامِ بعقائدِ الإسلامِ، وإلزامُ أهــلِ الـبـاطـلِ الحُجَّةَ

قال الشّيخ رشيد رضا: "لَو سُمّيَتْ سورُ القُرآنِ بما يدُلُّ على جُلِّ ما تَشتَمِلُ عليه كلُّ سورةٍ أو على أهَمِّه؛ لسُمّيَتْ هذه السّورةُ سورَةَ عَقائدِ الإسلام، أو سورَةَ التَّوحيدِ، على ما جَرَى عليه العُلماءُ مِنَ التَّعبيرِ عَن عِلمِ العَقائدِ بالتَّوحيدِ؛ لأَنَّهُ أساسُها وأَعظَمُ أركانِها، فهي مُفَصِّلَةٌ لِعَقيدَةِ التَّوحيدِ مَعَ دَلائِلِها، وما تَجِبُ مَعرِفَتُهُ مِن صِفاتِ اللّهِ تعالى وآياتِهِ، ولِرَدِّ شُبُهاتِ الكُفّارِ على التَّوحيدِ، وما يَتبَعُ ذَلِكَ مِن هَدمِ هَياكِلِ الشِّركِ وتَقويضِ أَركانِه، ولإثباتِ الرِّسالَةِ والوَحي، وتَفنيدِ شُبُهاتِهِم على الرَّسولِ ﷺ، وإلزامِهِمُ الحُجَّةَ بآيةِ اللّهِ الكُبرَى؛ وهيَ القُرآنُ المُشتَمِلُ على الآياتِ الكَثيرَةِ، مِن عَقليَّةٍ وعِلميَّةٍ ومُبَيِّنَةٍ لِوظائِفِ الرّسولِ ودَعْوتِه وهَدْيِه"[1].

۞ الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ لسورةِ الأنعامِ:

تمتازُ سورةُ الأنعام بعددٍ منَ الخصائصِ الموضوعيّةِ والأسلوبيّةِ الّتي مازتها عن غيرها منَ السّور، فمِن ذلك: أنّها منَ السّبعِ الطّوالِ الّتي وردَت عنِ النّبيّ ﷺ فعَن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ قالَ: «مَن أَخَذَ السَّبعَ الأُوَلَ مِنَ القُرآنِ فَهوَ حَبْرٌ»[2]، والسّبعُ الأُوَلُ هي: البقرة، وآل عمران، والنّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال ومعها براءة؛ لأنّهما بحكم السّورةِ الواحدةِ، ولذلك لم يفصلِ الصّحابةُ بينهما بـ"بسم اللّه الرّحمن الرّحيم".

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/238.

(2) أخرجه أحمد، الحديث رقم: (24531) واللّفظ له، والبزّار كما في مجمع الزّوائد للهيثمي: 8/165، باختلافٍ يسيرٍ، والطّحاويّ، شرح مشكل الآثار، الحديث رقم: (1377) مختصرًا.

نزلَتْ دُفعةً واحدةً تشيِّعُها الملائكةُ، وهي مِنَ السُّوَرِ المُحَمِّداتِ

ومن خصائصها: أنّها أوّل سورة مكّيّة جاءَت في ترتيب المصحفِ الشّريفِ بعدَ البقرةِ وآلِ عمران والنّساءِ والمائدة، وأنّها نزلَت جملةً واحدةً ليلًا، وشيّعها سبعون ألفًا مِنَ الملائكةِ حتّى سدّوا الأفق ما بين السّماء والأرض، فقد جاء في المعجم الكبيرِ عَنِ ابنِ عبّاسٍ، قالَ: «نَزَلَتْ سورَةُ الأَنعامِ جُملَةً بِمكَّةَ لَيلًا وحَولَها سَبعونَ أَلفَ مَلَكٍ يَجرونَ بالتَّسبيحِ»(1).

وروي أنّها من نجائب القرآنِ؛ أي: بمعنى: أفضله، ونواجبه أيضًا لبابه؛ فقد روى الدّارميّ في مُسنده عن عمر بنِ الخطاب ﵁، أنّه قال: «الأنعامُ من نواجبِ القرآن»(2).

فيها تسميةُ ثمانيةَ عشرَ نبيًّا

وهي أيضًا مِنَ المحمِّدات الخمسة إضافةً إلى الفاتحة والكهف وسبأ وفاطر.

وهي كذلك أكثرُ سورةٍ ذكرًا للأنبياء ﵈، فقد ذكرَت ثمانيةَ عشرَ نبيًّا من أصل خمسةٍ وعشرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 83 - 86].

وممّا امتازَت به السّورة الكريمة كذلك أنّها ذكرَتْ جانبًا فريدًا من قصّة سيّدنا إبراهيم ﵇ في حواره مع أبيه وقومه، جاءَت في الآياتِ [74 - 83]، والقصّةُ هذه حوارٌ عقليٌّ منطقيٌّ لإثبات وحدانيّةِ اللّه تعالى بالحجّة والبرهان.

(1) الطّبرانّي، المعجم الكبير، الحديث رقم: (12757).
(2) الدّارميّ، سنن الدّارميّ، الحديث رقم: (3444).

أكثرُ السُّورِ تصويرًا لأحوالِ العَربِ في الجاهليَّةِ، وردًّا لِشُبُهات المشركين

ومن خصائصها أنّها من أكثر السّورِ جمعًا وتصويرًا لأحوال العربِ في الجاهليّة، ومن أكثرِ السّورِ جدالًا مع المشركين في ردّ شبهاتهم جملةً وتفصيلًا، وأشدّها مقارعةً وجدالًا لهم، واحتجاجًا على سفاهة أحوالهم، من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الآية: 136]، وفيما حرّموه على أنفسهم ممّا رزقهم اللّه.

وفي صحيح البخاريّ أنَّ ابنَ عبّاس رضي الله عنهما قال: "إذا سرَّك أن تعلمَ جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين ومئة في سورةِ الأنعام ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ [الآية: 140]"(1).

تفرُّدُ سورَةِ الأنعامِ بذِكْرِ بعضِ المُحرَّمات

ومن خصائصِها الموضوعيّةِ ذكرُ بعضِ المحرّماتِ الّتي لم تَرِد إلّا فيها، كما ورد في الآيات 143 إلى 146. وحديثها عنِ الخائضِ في آيات اللّه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [الأنعام: 68].

واختصّتِ السّورةُ بذِكر عَشْرِ وصايا مُتتاليَةٍ، وهي الواردة في الآيات 151 إلى 153.

تَميُّزُ سورَةِ الأنعامِ بِأسلوبَي التَّقرير والتَّلقين.

ومِن ميِّزاتها أسلوبان بارزان فيها أكثر من أيّ سورةٍ أخرى: أسلوب التّقرير ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾ وأسلوب التّلقين ﴿قُلۡ﴾، و"هذان الأسلوبان قد تناوبا معظم ما تضمّنته هذه السّورةُ الكريمةُ منَ الحُجَج وقضايا التّبليغ، وهما أسلوبان من أساليب الحُجّة القويّة الّتي تدلُّ على قوّةِ المعارضين وإسرافِهم في الدّعوة، ويدلّ على أنّهما صدرا في موقفٍ واحدٍ، وإيحاءٍ واحدٍ، وفي مقصدٍ واحدٍ، لخصم واحدٍ؛ ولهذا اقتضَتِ الحكمةُ الإلهيّةُ أن تنزلَ مع طولها جملةً

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (3524).

واحدةً"[1]، وقد اجتمع الأسلوبان في أكثر من مَوضِع كما في الآيات من 161 إلى 165.

فقد وردَ أسلوبُ التّلقينِ - كما تقدّم - بـ (قل) نحو (44) مرّة، فهي أكثرُ سورةٍ حظيَت بهذا الفعل الّذي يدلُّ على أهمية ما يأتي بعده، حتى إنّ النبيّ ﷺ هو الّذي يتولّى تبليغَه بنفسه، وكذلك أسلوب التّقرير بـ (هو) الّذي ورد فيها نحو (35) مرّة.

تـميُّزُ الـسُّـورَةِ بِـجُـذورٍ لُغويَّةٍ ذاتِ مَـدْلـولٍ خـــــاصٍّ، وانفرادِها بألفاظٍ لَمْ تَرِدْ إلّا فيها

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ كثرةُ استخدامِ بعضِ الموادِ والجذورِ اللّغويّةِ ذاتِ المدلولِ الخاصِّ، ومنها استخدامُ صيغِ الجذورِ (حجج، رأى، نظر) الدّالّة على الحجّة والمحاجّة والرّؤية والنّظر المؤدّية إلى العبر، حيث وردت مادّة (حجج) نحو أربع مرّات[2].

ونلحظُ أنّ سورةَ الأنعامِ هي من أكثرِ السّور في استعمال هذه المادّةِ مقارنةً مع عددِ آياتِها، وهذا يدلُّ على التّركيزِ على دلالة هذه المفردة.

واستُعمل الجذرُ (رأى) في خمسةَ عشرَ مَوضِعاً، واستُعمل الجذرُ (نظر) في تسعةِ مَواضِعَ.

وهذه الكثرةُ في استعمالِ هذه الموادِ إنّما يتّسقُ تماماً مع محور السّورةِ في محاورة المشركين بالحجّة، والبرهان، ولفت الأنظارِ لآياتِ اللّهِ في الكون؛ لإثبات ما جاء به النبيُّ ﷺ.

وممّا امتازَت به هذه السّورةُ الكريمةُ كثرةُ استخدام الجذرِ اللّغويِّ (شَهِدَ) الدّالّة على الشّهود والشّهادة، وهي من أعظم الأدلّة في المحاجّة، وإثباتُ الشّيء أن تشهدَ عليه، حيث استُعملَت اثنتا عشرةَ مرّة.

(1) شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص: 305 - 306.

(2) سورة الأنعام: الآيات 80 (مرّتان) - 83 - 149.

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ كذلك كثرةُ استعمالِ تصاريفِ الفعلِ (افترى)، فقد ورد مقطعُ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الأنعام: 21] في السّورة ثلاثَ مرّاتٍ(1)، وورد قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾ [الأنعام: 157] مرّةً واحدةً(2)، وكثرةُ استعمالِ (الافتراء) في السّورة يتّسق مع محورها من حيث إنّ المفتريَ لا ينطقُ من حجّة ولا برهان، وإنّما افتراءٌ هكذا دون بيِّنة، وجاءَت في مَعرِض ذكر الرّسالةِ والتّحليلِ والتّحريمِ، وهما منَ المحاورِ الرئيسةِ الّتي جاءَت السّورة لتعالجها بالحجّة والبرهان لا بالافتراء.

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ ذِكْرُ بعضِ العباراتِ والجُملِ والقضايا الّتي لم تُذكَر بهذه الصّورة في غيرها نحو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18، 61]، وهي صريحةُ الدّلالةِ في ارتباطها بتوحيد الألوهيّةِ الّذي هو معقِدٌ أساسٌ في هذه السّورة.

فضلًا عنِ انفرادها بألفاظٍ لم ترد إلّا فيها نحو: ﴿حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: 71]، ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95]، ﴿قِنْوَانٌ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ [الأنعام: 143]، و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ [الأنعام: 143]، ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

والملاحظ على هذه الألفاظ الفريدةِ:

- أنّ منها ما هو وصفٌ لحال المجادلِ المُنْهَكِ الّذي له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى، وما زال مُتردّداً لا يحير جواباً.

- ومنها ما كان من خلال بيانِ قدرةِ اللّهِ ومنّتِه على خلقه بأنْ خلقَ ويسّرَ، فالّذي خلقَ وأبدعَ، ولطفَ بعباده يستحقُّ وحدَه العبادة، وجاء ذلك من خلال المفردات: ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95]، ﴿قِنْوَانٌ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99].

- ومنها ما جاء بالإضافة إلى ما سبق منَ الخلقِ والإبداعِ في سياقِ نقاشِ قضيّةِ التّحليلِ والتّحريم، وأنّ المُستحِقَّ المُتَفَرِّدَ بذلك هو اللّه تعالى فقط، وجاء ذلك من خلال المفرداتِ: ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ [الأنعام: 143] و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ [الأنعام: 143]، ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

وانفردتِ السّورةُ كذلك باشتقاقاتٍ لبعض الألفاظِ الّتي لم ترد إلّا فيها نحو: ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ

(1) سورة الأنعام: 21 - 93 - 143.
(2) سورة الأنعام: 157.

﴿٥٧﴾ [الأنعام: 57]، ﴿رَطْبٍ﴾ [الأنعام: 59] و﴿يَابِسٍ﴾ [الأنعام: 59]، ﴿حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: 76]، ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99] و﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: 99]، ﴿عَدْوًۢا﴾ [الأنعام: 108]، ﴿مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: 113]، ﴿مُنَزَّلٌ﴾ [الأنعام: 114] و﴿مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]، ﴿صَغَارٌ﴾ [الأنعام: 124]، ﴿سَفَهًۢا﴾ [الأنعام: 140]، ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142]، ﴿طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: 145]، ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ [الأنعام: 146]، ﴿تَمَامًا﴾ [الأنعام: 154]، ﴿قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161].

ومِنَ المؤكّد هنا أنّ هذه الأبنيةَ التي انفردَت بها السّورةُ الكريمةُ مرتبطةٌ بمعاقدها الرّئيسة مِن أنّ لله الحكمَ المُطلَقَ والتّشريعَ المُطلَقَ، ومِن إظهارِ ألوهيّته في الكون، وشريعتِه التّامّةِ القيَميّةِ الّتي يصلحُ بها حالُ الخلق.

تناسُقُ مَطلَعِ السُّورةِ مع خاتِمَتِها

ومن مزايا هذه السّورة الكريمة تناسقُ مَطلَعِها مع خاتمتها، فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165] هو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 164] هو معنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: 1]، فجاءَتِ الخاتمةُ متّسقةً مع البداية، فكانتِ الرّوعةُ في الاستهلالِ والبداياتِ، والبراعةُ والعظمةُ في الختامِ والنّهايات(1).

وممّا سبق تبيّن لنا أنّ هذه الخصالَ الفريدةَ للسّورة تسهمُ في تشكيلِ محورِ السّورةِ، وهو إثباتُ ما جاء به النبيّ ﷺ مِنَ التّوحيد، والبعثِ بالحجّة والبرهان، ولفتِ الأنظار إلى آيات الله في الكون.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/346.

❁ مناسبةُ السُّورةِ الكريمةِ مع السُّورةِ قبلَها:

التَّرابطُ الوثيقُ مِنَ النَّاحيتَين: الموضوعيَّةِ والأسلوبيَّةِ بين سورتَي المائدةِ والأنعامِ

على الرّغم منَ الاختلافِ بين مكيّةِ سورةِ الأنعامِ ومدنيّةِ سورةِ المائدةِ إلّا أنّ هنالك تناسبًا وترابطًا وثيقًا من النّاحيتين: الموضوعيّة والأسلوبيّة بين السّورتين بشكل عامّ يتمثّل فيما يأتي:

أَنَّ اللّه ﷻ لَمّا ذَكَرَ في خواتيمِ المائدةِ ما قالَتْهُ النَّصارى في عيسى وأمّه مِن كَونِهما إلَهَينِ من دونِ اللّه، وجَرَت تلكَ المُحاوَرَةُ، وذَكَرَ ثَوابَ ما للصّادِقينَ، وأَعقَبَ ذَلكَ بأنَّ لَهُ مُلكَ السّماواتِ والأَرضِ وما فيهنَّ، وأنَّهُ قادرٌ على كُلِّ شَيءٍ، ذَكَرَ بأَنَّ الحَمدَ لَه المُستَغرِقَ جَميعَ المَحامِدِ فلا يُمكِنُ أَنْ يَثبُتَ مَعَهُ شريكٌ في الإلهيّة فَيُحمَدَ، ثُمَّ نَبَّهَ في مَطلَعِ سورةِ الأنعامِ على العِلَّةِ المُقتَضيَةِ لجميعِ المَحامِدِ والمقتضيةِ كونَ مُلكِ السّماواتِ والأَرضِ وما فيهِنَّ له بوَصفِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأَنَّ الموجِدَ للشَّيءِ المُنفَرِدَ باختِراعِهِ لَه الاستيلاءُ والسَّلطَنَةُ عليه[1].

لمّا كان ختامُ السّورةِ السّابقةِ إثباتَ سلطانِ اللّهِ تعالى الكاملِ، وقدرتِه الشّاملة، وأنّه لا يعجزُه شيءٌ في السّماء ولا في الأرض، إذ قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، فناسبَ ذلك أن يكونَ في مَطلَعِ سورة الأنعام - الّتي أعقبتها - في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، بيانُ السّببِ في كمال سلطانه، والمَظْهَرِ الأعظم لكمالِ قدرتِه، وهو خلقُ السّماواتِ والأرضِ، وخلقُ الإنسانِ، فهو مظهرٌ كاملٌ لكمالِ قدرته[2] سبحانه وتعالى.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/427.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2429.

وقد بيّن جلال الدّين السّيوطيّ[1] بعضَ أوجه هذا التّناسب، فذكر منها: أنّ سورةَ الأنعام افتُتِحَت بالحمد، والمائدة خُتِمَت بفصل القضاء، وهما متلازمان، كما قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزّمر: 75]؛ لأنّ الفصلَ في القضاء، وتحقيقَ العدلِ بين الخلق، يستحقُّ التّمجيدَ والثّناءَ للّه وحمدَه على ذلك.

ومن الأوجه كذلك هو ما ذُكر في آخر المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120] على سبيل الإجمال، فافتتح هذه السّورة بشرح ذلك وتفصيله.

وأنّه خلقَ النّوعَ الإنسانيّ، وقضى له أجلًا مسمًّى، وجعل له أجلًا آخرَ للبعث، وأنّه مُنشئُ القُرونِ قرنًا بعد قرنٍ، ثمّ قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: 12]، فأَثبت له مُلكَ جميعِ المنظورات.

فضلًا عن عنايةِ كلا السّورتين الكريمتين بتقريرِ أصولِ العقيدةِ، والرّدِّ على شبهِ الكافرين وتفنيدِ مزاعمهم؛ فسورةُ المائدة معظمها في محاجّة أهلِ الكتابِ، والأنعامُ معظمُها بل كلّها في محاجّة المشركين.

ولمّا كان مِن مقصودِ سورةِ المائدة إبطالُ مزاعمِ النّصارى في تأليه عيسى عليه السلام؛ ناسَبَ أن تُعقَبَ سورة المائدة بسورة الأنعام الّتي يدور قطبُ رحاها على إثباتِ الصّانعِ، وإرساءِ قواعدِ التّوحيدِ ودعائمِ دلائلِه[2].

كما أنّ كلتا السّورتين قد تعرّضتا لذِكرِ أحكامِ الأطعمةِ المحرَّمة، بَيْدَ أنّ سورةَ المائدة قد فصّلَت في ذلك، فقد قال اللّه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾ [المائدة: 3]، بينما أتَت سورةُ الأنعام على ذِكر الأطعمةِ المُحرَّمةِ على وجهِ الإجمالِ، وذلك في

(1) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن: 86-1/80.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/73.

قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: 121].

اشتراكُ السُّورتَين الكريمتَين في عَرْضِ مَشاهِدَ مِنْ يومِ الحَشْرِ

وممّا يجدرُ التّنبّهُ إليه في هذا المقام اشتراكُ السّورتين الكريمتين في عرضِ مشاهدَ من يومِ الحشرِ، حيث أجملَتْها سورةُ المائدة في بعض مَواضِع منها، نحو قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة: 36]، وقوله ﷻ: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]، بينما فصّلَت سورةُ الأنعام في عرضِ مشاهدِ الحشرِ يومَ القيامة في مَواضِعَ شتّى، نحو قوله تعالى:

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾ [الأنعام: 22]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]، وكذا قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام: 30]، وغيرها من مَواضِعِ سورةِ الأنعامِ الّتي عُنيَت ببسطِ مشاهدِ الحشرِ يومَ القيامة.

۞ مناسبةُ السُّورةِ الكريمةِ مع السُّورة بعدَها:

ذكرَ السّيوطيّ[1] أوجهَ التّناسبِ بين سورة الأنعام وسورة الأعراف التي أعقبَتْها، وممّا ذكره في ذلك:

أوّلاً: ركّزَت سورةُ الأنعام في مَطلَعها على ثلاثة أمور هي: بيان

(1) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن: 1/36.

الخَلْق، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وبيان القرون في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: 6]، وأيضاً أشير فيها إلى ذِكْرِ المرسَلين، وتَعدادِ كثيرٍ منهم، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: 10]، وكانتِ الأمورُ الثّلاثةُ على وجه الإجمالِ من غيرِ تفصيلٍ، فذُكِرت في سورة الأعراف عقبها؛ لأنّها مشتملةٌ على شرحِ الأمورِ الثّلاثةِ وتفصيلِها، فبُسطت قصّةُ آدم في الأعراف، وكان ذلك تفصيلًا لما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وكذلك تفصيلُ قصصِ الأنبياءِ والمرسلينَ وأممهم وهلاكهم في سورة الأعراف كان بيانًا وشرحًا وافيًا لما أُجمل من ذكرِ الأنبياءِ والمرسلينَ في سورة الأنعام، وكذلك التّوسّعُ في بسطِ حالِ القرونِ الأولى وهلاكِهم كان مُنسجِمًا مع القرون الّتي تحدّثت عنها سورة الأنعام.

ثانيًا: صدَّر سورةَ الأعراف بخلق آدمَ الّذي جعله اللّهُ في الأرض خليفةً، فجاء ذلك تفصيلاً لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقوله تعالى في قصّة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، وقوله تعالى في قصّة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]

ثالثًا: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، كان مختصرًا وموجزًا، فبسطَته سورةُ الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156] إلى آخره، فبيَّنت الآيةُ مَن كتبَ اللّهُ ﷻ الرّحمةَ لهم.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: مصدر (حَمِدَ يَحْمَدُ حَمْدًا)، وهي أوَّلُ كلمةٍ في كتابِ اللهِ بعدَ البسملةِ في فاتحة الكتابِ، وجذرُها اللّغويُّ من (حَمِدَ)، والحمدُ نقيضُ الذّمّ[1]، وهو "الثَّناءُ باللّسان على الجميل، سواء تعلَّقَ بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبرّ"[2]، وورد عن ابن سيده تعريفه بأنّه "الوصفُ بالجميل على جهة التّفضيل"[3]، وهو مِن أصحِّ التَّعريفات.

ويقربُ منه ما ذكره ابنُ تيميّة من أنّ الحمدَ هو الإخبارُ بمحاسنِ المحمودِ، مع المحبّة له، ومعناه في الآية: "الحمدُ الكاملُ للّه وحدَه لا شريكَ له، دون جميعِ الأندادِ والآلهة"[4].

2) ﴿خَلَقَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وهو الجذرُ اللّغويُّ لمصدر (الخَلْق)، ومنه: الخَليقةُ بمعنى الطَّبيعة، والخالقُ بمعنى الصّانع، وخُلُقُ الإنسانِ هو ما كان طبيعةً له، ولأصله معنيان: الأوَّلُ تقديرُ الشَّيء، والثّاني ملاستُه، وهو أيضًا السّجيّة، كأنّ صاحبَه قد قُدِّر له[5].

وأجادَ الرّاغبُ في الحديثِ عنه، فذَكر أنّه يُستعملُ "في إبداعِ الشّيءِ من غير أصلٍ ولا احْتِذاء... ويُستعمَل في إيجاد الشّيءِ منَ الشّيءِ"[6]، والخلقُ هنا بمعنى التّقدير[7].

3) ﴿وَجَعَلَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وجذرُه اللّغويُّ (جعل)، وهو يأتي على أنحاءَ عدّةٍ، منه اللّازمُ، ومنه المتعدّيّ لواحد واثنين، و(جَعَل) في الآية مِن أفعالِ التَّحويلِ والتَّصيير يتعدّى إلى اثنين، ولـ (جَعَلَ) كلماتٌ "غيرُ منقاسةٍ، لا يشبهُ بعضُها بعضًا"، و" وجعلتُ الشَّيءَ: صنعتُه، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من "فعلَ" و"صنعَ" وسائر أخواتها.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمد).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 201، والرّاغب، المفردات: (حمد).
(3) ابن سيده، المخصّص: (حمد).
(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 6/259، وابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خلق).
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/154.

ومعنى (جَعَلَ)، وما تصرّف منها في القرآن يكونُ للتَّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخَلْقِ، وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاء هيئةٍ جديدةٍ[1]، ومعنى الجَعْل في الآية: بمعنى الخَلْق؛ أي: وخَلَقَ.

4) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جمعُ مؤنَّثٍ سالم، جذرُه اللّغويُّ من (ظلم)، وله أصلان صحيحان، أحدُهما خلاف الضّياءِ والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيءِ غير موضعه تعدّيًا. والمراد هنا هو الأصل الأوّل. ومعناه المحوريّ "حجب ما ينبغي أو ما يُستَحقّ؛ أي: منعه أو انتقاصه، كمنعِ الضَّوءِ في حالةِ الظُّلمةِ، وكمنعِ المطرِ عنِ الأرضِ المظلومةِ"[2].

والمقصود بالظّلمات في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾؛ أظلم اللّيل، وأنار النّهار[3].

5) ﴿وَٱلنُّورَۖ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجذرُ اللّغويُّ من (نَوَر)؛ وهو الضّياءُ بصورة عامّة، والأصل في معناه "إضاءةٌ واضطرابٌ وقلّةُ ثبات، منه: النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأنَّ ذلك يكون مُضطربًا سريعَ الحركة"، وهو الضَّوءُ المنتشرُ الّذي يعينُ على الإبصار[4].

6) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى الجماعة، جذرُه اللّغويُّ من (عَدَلَ)، والعدلُ ما رضي منَ النّاس منَ القول والحكم، فـ" العدلُ منَ النّاس المرضيُّ المستوي الطَّريقة، يُقالُ: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ، والعدلُ: الحكمُ بالاستواء، ويُقالُ للشَّيء يساوي الشَّيء، وقال أيضًا في تفسير (العدل): إنّه "نقيضُ الجَوْرِ، تقول: عَدَلَ في رعيّته، ويومٌ معتدلٌ، إذا تساوى حالا حَرِّهِ وبَرْدِهِ". و"العدالةُ والمعادلةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة... لكنّ العدلَ يُستعملُ فيما يُدرَكُ بالبصيرة كالأحكام"[5]، ومعنى المساواة منطبقٌ على المفردةِ الواردةِ في الآية؛ إذ إنَّ الكافرين قد ساووا آلهتَهم المزعومةَ في العبادة والتّعظيم باللّه الخالقِ المُنعمِ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الثّناءُ الجميلُ على اللّه تعالى بكمال الحمد للّه، وهو المُستحقُّ لكلِّ أنواعِ الحمدِ ومراتبِها، فهو الّذي قدَّر إيجادَ السّماواتِ والأرضِ، وصيَّر في الكون الظّلماتِ والنّورَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/144.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نور).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عدل).

لا يعدِلُ اللهَ أحدٌ في استحقاقِ جميع صفاتِ الكمالِ، ونُعوتِ العظَمَةِ والجلالِ

وتعاقبَ اللّيلُ والنَّهارُ، فما لهؤلاء الكافرين يشركون بالله؛ فيساوون الخالقَ العظيمَ بهذه الآلهةِ المزعومةِ في العبادةِ والتّعظيمِ، مع عظيم دلائلِ الخالقِ القاطعةِ بقدرته وعلمه واستحقاقه العبوديَّة!

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ الاستهلالِ في افتتاحِ السُّورة:

المحامِدُ كُلُّها للهِ، في مبتدَأِ الأمْرِ ومُنْتَهاهُ

في افتتاح سورةِ الأنعام بجملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حسنُ استهلالٍ، وبراعةٌ في المَطلَع؛ حيث إنَّ ابتداءَ السّورة به يَلفتُ الانتباهَ إلى الإيجاد والإمداد، وكفى بهما نعمتين، في كلٍّ منهما نِعَمٌ كثيرةٌ، قد يغفُلُ الإنسانُ عنها؛ لاعتياد مشاهدتِها، ومنها خلقُ السّماواتِ والأرضِ، وجعلُ الظّلماتِ والنّور.

دلالاتُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

تَعْريفُ اللَّفظِ باسْتِغراقِ الجِنْسِ والعهدِ والكمالِ، فصاحةٌ وجَمالٌ

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ، وردَت بهذا التّركيب في مَواضِعَ كثيرةٍ في سبعَ عشرةَ سورةً منَ القرآن الكريم[1]، كلُّها مكّيَّة[2]، وهذا هو الموضعُ الثّاني بعد فاتحةِ الكتابِ. والألفُ واللّامُ في الحمد تحتملُ دلالاتٍ عدّةً؛ أرجحُها أن تكونَ للاستغراق، وهو رأيُ ابن عطيّة[3]؛ فإنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ فهو صاحبُ الفضلِ والمنّةِ في كلّ نعمه وآلائه، وذكر البيضاويّ أنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ في إشارةٍ منه إلى ترجيحِ جانبِ الاستغراق[4]

قال القشيريّ: حقيقةُ (الحمد) الثَّناءُ على المحمود بذكر نعوتِه الجليلةِ، وأفعالِه الجميلةِ، واللّام هاهنا للجنس، ومقتضاها

(1) وردَت جملةُ (الحمد لله) ثلاثًا وعشرين مرّة. عبد الباقي، المعجم المُفهرس: (حمد).

(2) وهي سور: الفاتحة: 2، الأنعام: 1 - 45، الأعراف: 43، يونس: 10، إبراهيم: 39، النّحل: 75، الإسراء: 111، الكهف: 1، المؤمنون: 28، النّمل: 15 - 59 - 93، العنكبوت: 63، لقمان: 25، سبأ: 1، فاطر: 1 - 34، الصّافّات: 182، الزّمر: 29 - 74 - 75، غافر: 65.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/66.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/27.

الاستغراق، فجميعُ المحامدِ للّه سبحانه إمّا وصفًا وإمّا خلقًا، له الحمدُ لظهورِ سلطانِه، وله الشّكرُ لوفورِ إحسانِه، والحمدُ للّه لاستحقاقِه لجلالِه، والشُّكرُ للّه لجزيلِ نوالِه، وعزيزِ إفضالِه[1].

وهي "للجنس[2] تَنْبيهًا أنَّ الحمدَ كلَّه في الحقيقة لا يستحقُّ سواه، وإنَّ كلَّ حمدٍ لغيره فهو عاريةٌ له، واللّهُ تعالى هو المُستحقُّ له في الحقيقة"[3]، وهذا تصريحٌ بأنَّ اللّه تعالى هو الّذي يستحقُّ الحمدَ بأجمعه؛ لأنَّ الألفَ واللّامَ في (الحَمد) لاستغراق الجنس[4].

وتَحتملُ أن تكون (أل) عهديّةً على معنى أنّه "الحمدُ الّذي حَمِدَ به نفسَه، وحَمِدَه به أولياؤه"[5]. وقد تكون (أل) للكمال، وهو تخريجٌ ينبني على قولٍ لسيبويه في (أل) الدّاخلة على الصّفات[6].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالحَمدِ دُونَ الشُّكرِ والمَدحِ في الآيَةِ الكريمة:

الحَمدُ حُبٌّ وتعظيمٌ، واشتمالٌ على فَضائِلَ وفَواضِلَ

اختيرَ لفظُ الحَمدِ دونَ الشُّكرِ؛ لكونِ الحَمدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكرِ؛ فإنّه خاصٌّ بالفواضل، فأوثِرَ اللّفظُ الأعَمُّ.

وجاء التَّعبيرُ بالحَمدِ دونَ المَدحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِه قَد يَعرى عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، والأبلَغُ في الثَّناءِ اختيارُ اللَّفظِ الّذي يكون نصًّا في الحبِّ والتَّعظيم؛ وذلك هو لفظُ الحَمدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

استحقاقُ الحَمْدِ واستغراقُهُ ودوامُهُ مِن نِعَمِ اللهِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميّةٌ منَ المبتدأ والخبر[7]، وأوثر التّعبيرُ بالاسميّة على الفعليّة في قول: (أحمدُ اللّه) لجملة أمور، منها:

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/45.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52، والكرمانيّ: غرائب التّفسير: 1/97.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/265.
(5) الواحديّ، البسيط: 482 - 483/1.
(6) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(7) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/61.

أولاً: التّعبيرُ بالاسميّة فيه معنى استحقاق الحقّ ﷻ للحمد، قبل أن يحمدَه الخلقُ، وفيه استغراقُ المحامد كلِّها.

والتّعبيرُ بالفعليّة (أحمدُ اللّه) فيه إيهامٌ بالقدرة على توفية اللّهِ حقّه منَ الحمد، وليس ذلك بكائنٍ من لدُنِ البشر.

ثانيًا: ممّا قرّره اللّغويّون والبلاغيّون[1] أنَّ الجملةَ الاسميّةَ دالَّةٌ على الثُّبوت والاستقرار، وأنّ الجملةَ الفعليّةَ تدلُّ على التَّجدّدِ والحدوثِ، وممّا يناسبُ هذا المقامَ التعبيرُ بالجملة الاسميّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "وإنّما عدل عنه إلى الرّفع؛ ليدلّ على عموم الحمدِ وثباته، دونَ تجدّدِه وحدوثِه. وفيه تعليمُ اللّفظ، مع تعريض الاستغناء؛ أي: الحمد للّه، وإن لم تَحمدوه، ولو قال (أحمد اللّه) لما أفادَ هذا المعنى"[2].

بلاغةُ القولِ بخبريّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لفظًا ومعنًى:

استحقاقُ اللهِ الحمْدَ أصالةً، قبل أن يَحْمَدَهُ الحامدونَ إقرارًا

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، تَحتملُ هذه الجملةُ أن تكونَ إنشائيّةً من جهة المعنى؛ "لحصول الحمد بالتّكلّم بها مع الإذعان لمدلولها"[3]، "يقول: أخلصوا الحمدَ والشّكرَ للّذي خَلَقَكم، أيّها النّاس، وخلقَ السّماواتِ والأرضَ"[4].

وتَحتملُ أن تكونَ خبريّةً من جهة اللّفظِ والمعنى، وهو أبلغُ مِن سابقه؛ لأنَّ القولَ بإنشائيتها يُلزِمُ الحمدَ عند نطقها، أمّا الخبريّةُ فالحمدُ واقعٌ قبلَ نطقِها، فالحقُّ ﷻ مُستحِقٌّ للحمد قبل أن يحمَدَه الحامدون، وقال ابنُ عاشور: "ثمَّ إنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هنا خبرٌ لفظًا ومعنًى؛ إذ ليس هنا ما يَصرِفُ إلى قصدِ إنشاءِ الحمدِ بخلاف ما في سورة الفاتحة؛ لأنَّه عُقِّبَ بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]"[5].

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 1/76، وحسن، النّحو الوافي: 2/145.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/53.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ تفيدُ استحقاقَ اللّه تعالى الحمدَ وحدَه دونَ غيره؛ لأنّها تدلُّ على الحصر، واللّام لتعريف الجنس، فدلّت على انحصار استحقاقِ هذا الجنسِ للّه تعالى، "قَصْرًا إضافيًّا؛ للرَّدِّ على المشركين الَّذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تخيَّلوه مِن إسدائها إليهم نِعمًا ونصرًا وتفريجَ كربات"(1)، وكونها للقَصْر الإضافيّ على معنى: أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه أحدٌ إلّا الحقّ تبارك وتعالى.

الحمْدُ بكمالِه وتمامِه، لا يستحِقُّهُ إلَّا اللهُ بعظمتِهِ وجلالِهِ

سرُّ إيثارِ تركيبِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، على: (لله الحمد):

جاء قوله تعالى هنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وورد في سورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: 36]، والفرقُ بينهما أنّ جملةَ (الجاثية) فيها معنى القصرِ بتقديم الخبرِ على المبتدأ، وليس كذلك في آية الأنعام؛ لأنّ الغرضَ منها تعليمُ العبادِ الثّناءَ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له، ولأنّ آيةَ الجاثيةِ "على تقدير الجوابِ بعد إرغام المُكذِّب وقهرِه، ووقوعِ الأمرِ مُطابقًا لأخبار الرّسول ﷺ، وظهورِ ما كذّبَ الجاحدُ به، فعند وضوحِ الأمرِ كأن قد قيل: لِمَنِ الحمدُ، ومَن أهله؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: فلله الحمدُ، نظيرُ هذا قولُه تعالى: لِمَنِ الملكُ؟ ثمّ قال: للّه الواحدِ القهّارِ"(2).

الحـمْـدُ فيه تـدريـبٌ على الـشُّـكـرانِ، لا يستحِقُّهُ إلَّا ربُّ الأكوانِ

دلالةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾، وأثرُها في السِّياقِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: لفظ الجلالة داخل عليه حرف الجرِّ اللّام، وهو مُتعلِّقٌ بخبرٍ محذوفٍ، وهذه اللّام تحتملُ أن تكونَ للاستحقاق، أو المُلك، أو الاختصاص(3)؛ إذ دلّت على أنّ جميعَ المحامدِ مختصَّةٌ به تعالى؛ إذ هو مُستحِقٌّ لها(4) جلّ وعلا.

لا يختصُّ اللهُ إلَّا بما يَليقُ بجلالِهِ وكمالِهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/126.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/12.

(3) الواحديّ، البسيط: 1/483، والقنّوجيّ، فتح البيان: 11/161.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/153.

فكونها للاستحقاق؛ فلأنّ هذه اللّام حقّها أن تقع بين معنىً وذات[1]، فالمعنى هنا الحمد، والأخرى الذّات العليَّة، قال ابن عاشور: "جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تفيد استحقاقَ اللّه تعالى الحمدَ وحدَه دون غيره"[2].

التَّلذُّذُ والتَّبرُّكُ باسمِهِ تعالى عِبادةٌ وقُرْبٌ

الغرضُ مِن ذِكْرِ اسمِ (الله) في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

لَمّا كان الغرضُ منَ الحمد إثباتَ اختصاصِ اللّه به وحدَه، واستحقاقه به دون سواه - كان ذكرُ اسمِ الجلالةِ مُقترِنًا بالحمد؛ لتعلّقه بالألوهيَّةِ، والوحدانيَّةِ، واستحقاقِ العبوديَّةِ، ولمناسبته استغراقَ جنسِ الحمدِ؛ إذ إنَّ اسمَ الجلالة يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

وهذا هو السِّرُّ في اقترانه بلفظ الحمدِ دون غيره، كالرّحيم أو الرّحمن أو سواهما؛ لكونه دالًّا على الجمال والكمال، وعلى أنّ الحمدَ مُستحِقٌّ لذاته تعالى؛ ولأنّه هنا يرفعُ توهّمَ استحقاقِ الحمدِ لصفةٍ دون أخرى، فلو عُلِّقَ الحمدُ بالرّحمن؛ لتوهّمَ مُتوهّمٌ أنّه تعالى مُستحِقٌّ للحمد لرحمته دونَ غفرانه وكرمه وعظمته، وهلمّ جرًّا، وهو غيرُ مراد؛ فإنّ الحمدَ استحقاقٌ له تعالى بجميع أسمائِه وصفاتِه؛ إذ إنّ تعليقَ حكم بلفظٍ مُشتقٍّ مُشعرٌ بعليّةِ ما منه الاشتقاق[3].

فائدةُ وصفِ اسمِ الجلالةِ بالاسم الموصولِ:

استحضارُ عظمةِ قدرةِ اللهِ تعالى تحقيقٌ لعبوديَّتِهِ

وُصِفَ اسمُ الجلالة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ توصُّلًا به إلى بيان أثرٍ من آثارِ قدرته، وعظيمِ آلائه بأن يحمدَه الحامدون على ما أنعم عليهم، بأن خلقَ لكم "السّماواتِ الّتي تُظِلُّكم، مشتملةً على الأنوار

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/226.

الّتي تضيءُ عليكم، ومحلًّا لنزولِ الرّحماتِ والأمطارِ عليكم، وخلقَ الأرضَ الّتي تُقلُّكم، وفيها نباتُ معاشِكم في العادة"(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالخَلْقِ والجَعْلِ، واختصاصُ كُلٍّ في الآيةِ الكريمة:

الخَلْقُ: قُدرةٌ وإبداعٌ، والجَعْلُ: تسخيرٌ وانتِفاعٌ

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، جاءَ بفعلِ الخلقِ مُقترِنًا بالسّماوات والأرض، هنا وفي كلِّ موضعٍ في القرآن الكريم(2)، وجاء بفعلِ الجعلِ مع الظّلمات والنّور هنا، وليس له نظيرٌ في القرآن الكريم، والسّرُّ في ذلك محاجّةُ المشركين بالاستدلال بآثار صنعةِ اللّه، وإبطالِ ما هم عليه من شرك، وأنّ الخلقَ فيه معنى التّقدير، وفي الجعل معنى التَّضمين، كإنشاء شيءٍ من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان؛ لأنّ الظّلماتِ منَ الأجرامِ المتكاثفة، والنّورُ منَ النّار(3).

والتّفرقةُ "بين فعلِ (خَلَقَ)، وفعلِ (جَعَلَ) هنا معدودٌ من فصاحةِ الكلماتِ، وإنَّ لكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقامًا، وهو ما يُسمَّى في عُرفِ الأدباء برشاقة الكلمة، ففعلُ (خَلَقَ) أليقُ بإيجاد الذَّوات، وفعلُ (جَعَلَ) أليقُ بإيجاد أعراضِ الذَّواتِ وأحوالِها ونظامِها"(4).

ولمّا كان تقديرُ العوالم العلويَّةِ ثابتًا قبلَ خلقِ الإنسانِ، وكان إنشاءُ الظّلماتِ والنّورِ مُتعلِّقًا بالمخاطَبين - سواء أكان المرادُ بهما الحقيقة أم المجاز - قابلًا للتّغيير والتّحويل؛ ناسب كلُّ فعلٍ ما اقترن به.

سرُّ تقديم (السّماواتِ) على (الأرض):

السّماوات رمزٌ للعظمة والسُّموِّ، ومورِدٌ للتَّنزُّلِ بالوحي المتلوِّ

قُدِّمَ ذكرُ السّماواتِ على الأرض في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لمجموعةٍ منَ الأسباب، هي:

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/96.

(2) اقترن الفعلُ (خلق) بالسّماوات والأرض، في تسعة وعشرين مَوضِعًا، وجاء مرّةً واحدةً مع السّماوات دونَ الأرضِ في الآية (10) من سورة لقمان.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.

أوّلًا: جريًا على عادة القرآنِ الكريم؛ فإنّ القرآنَ قدَّم ذكرَ السّماواتِ على الأرض بما يزيدُ على مئة آيةٍ، ولم يتأخَّر ذكرُها إلّا في آيتين لموجبٍ دلاليّ.

ثانيًا: تقديم السّماوات على الأرض هنا من باب التّقدّم الزّمنيِّ في الخلق؛ فقدّم الأسبق خلقاً، وهي السّماوات[1]؛ ولا سيّما أنّهما واردان في سياقِ الخلقِ؛ بدلالةِ الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنّه منَ المهمِّ مراعاةُ السّياق الّذي تجري فيه الآية.

ثالثًا: تقديمُ الأعظم والأعلى والأشرف، فالشّأنُ أن يتقدَّم ذكرُ الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، إلّا إن كان هناك ما يوجبُ خلافَه؛ فقدّمَ ذكرَ السّماواتِ على الأرض؛ باعتبارها الأشرف[2]؛ لما تحويه منَ المخلوقات العظيمةِ كالعرش.

فالأرضُ بالنّسبة إلى السّماوات كالخرزة في العقد، ومعلومٌ أنّ الآياتِ في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لِسعتِها، وعِظَمها.

رابعًا: التّقديمُ للأهمّيّة والقداسة، فالسّماواتُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنّارُ، وسوى ذلك منَ الغيبيات.

سرُّ جمعِ (السّماواتِ)، وإفرادِ (الأرضِ):

صيغةُ اللّفظ إفرادًا وجمعًا، تعتمدُ على الخفَّةِ والدِّقَّةِ ومناسبةِ السِّياق

تدبّرَ بعضُ العلماءِ ذلك، وحاولوا بيانَ سرِّ جمعِ السّماواتِ هنا، وفي بعض المواضعِ، وإفرادِها في مواضعَ أُخَرَ، وإفرادِ الأرضِ في القرآن الكريم كلِّه، ويَتَّضِحُ بعضُ ما ذكروه فيما يأتي:

أوّلاً: لفظُ (أرض) بمقابلة لفظِ (السّماء أو السّماوات) تعني الوصف، مثل: (تحت وسُفل)، فسماءُ كلِّ شيء أعلاه، وأرضُه

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/153.

أسفلُه، ولا يُقصَدُ بها الجرمُ أو الذّاتُ؛ فمن ثَمَّ جيء به مُفردًا؛ ليجري مَجرى المصدر لفظًا ومعنىً، ولأنَّ الجمعَ ثقيلٌ، سواء أكان جمعَ تكسير: (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُروض كفُلوس)، أو ملحقًا بجمعِ المذكّر السّالم: (أَرَضون وأَرَضين).

ولمّا أرادَ القرآنُ تعدُّدَها قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطّلاق: 12]، وتأمَّلْ كيف جاءَت مجموعةً في الحديث الشّريف في قوله: «طوِّقَه من سَبع أَرَضين»[1]؛ لمّا اعتمد الكلامَ على ذات الأرضين، دونَ الوصفِ لها بتحتٍ أو سُفلٍ في مقابلةِ فوقٍ وعُلوٍّ، فاستثقلوا هذا اللّفظَ؛ إذ ليس فيه منَ الفصاحةِ والحسنِ والعذوبةِ ما في لفظ (السَّماوات)، وأنت تجدُ السّمعَ يَستَثقِلُهُ بقدر ما يستحسنُ لفظَ (السّماوات)، ولفظ (السّماوات) يلجُ في السّمع بغير استئذان؛ لنصاعتِه وعذوبتِه.

ثانيًا: قد يكون لإفرادِ الأرضِ مع جمعِ السّماواتِ وجهٌ آخر، إذا أُريد بها الجرمُ والذّاتُ؛ للإشارة إلى وحدتها في الجملة بالنّسبة إلى عالم السّماواتِ، وإن كانتِ الأرضُ طبقاتٍ؛ وللإشارة إلى أنَّ ما في الأرضِ ليس إلّا مظهرًا من حركات السّماء، وأنَّ الأرضَ شيءٌ صغيرٌ بجوار السّماوات وما فيها.

ثالثًا: أنَّ لفظَ (السّماوات) بالجمع، ولفظ (السَّماء) بالإفراد لم يأتِ في القرآن إلّا مناسبًا للسّياق؛ فإذا أراد تعدُّدَ ذاتِها جُمِعَ، وإذا أرادَ الوصفَ بالعُلوّ والفوق جاء مفردًا، ولكلٍّ سياقُه المناسبُ[2].

المتشابهُ اللَّفظيُّ بين آية سورة الأنعامِ، وآية سورةِ طهَ:

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الألفاظِ تقديمًا وتأخيرًا

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وقال

(1) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (2452)، ومُسلم، الحديث رقم: (1610) باختلافٍ يسيرٍ.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 120 - 123/1، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/47، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/355، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/935.

سُبحانَهُ: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤﴾ [طه: 4]، ووجهُ الاختلافِ بينَ الآيتينِ أنَّ السَّماواتِ قُدِّمت في آيةِ الأنعامِ، وأُخِّرت في سورةِ طه، وذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ صُدِّرت بقولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان الحَمدُ أكثرَ تعلُّقًا بما كانَ عظيمًا شريفًا، وكانت السَّماواتُ أعظمَ وأشرفَ؛ لخلوِّها ممَّن يعدِلُ عنِ التَّوحيدِ إلى الشِّركِ؛ فكانَ الأنسبُ تقديمَ السَّماواتِ، بخلافِ سورةِ طه، فقد صُدِّرت بقولِ اللّه تعالى: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾، فلمّا كان التَّنزيلُ أكثرَ تعلُّقًا بأهلِ الأرضِ وبتشريفِ المُنزَلِ عليهِ وهو النَّبيُّ ﷺ؛ كان الأنسبُ تقديمَ الأرضِ، ووُصِفَتِ السَّماواتُ بـ (العُلَى)؛ لأنَّ المرادَ الدِّلالةُ على علوِّ المُنَزَّلِ والمُنزَّلِ عليه، ولِمُراعاةِ التَّناسُبِ الصَّوتيّ لآيِ القرآنِ الكريمِ.

المُتَشابِهُ اللّفظيُّ:

ذِكـرُ اللَّـفـظِ القُـرآنِيِّ أو حَـذفُـهُ، مَـنُـوطٌ بملاءمَةِ السِّياقِ ومُقتضَى الحالِ

قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وقال عزَّ من قائلٍ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأنعام: 73]، فقَد خُصَّتِ الآيةُ الثّانيةُ مِنَ الأنعامِ بتقييدِ فِعلِ الخَلقِ بالحقِّ دونَ الآيةِ الأولَى منها؛ لأنَّ الأولَى صُدِّرت بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان حمدُ اللّهِ ﷻ لا يكونُ إلّا بما هو حقٌّ؛ استُغنيَ بذلك عن تقييده به، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ، فإنَّها في سياقِ إنكارِ ما يُدعَى من دونِ اللّهِ ﷻ، وذلك المدعوُّ من دونِ اللّهِ سُبحانه باطلٌ وليس حقًّا، فكان الأنسبُ تقييدَ خَلقِ السَّماواتِ والأرض بكونِهِ ليس بالباطِلِ، بَل بالحقِّ.

بلاغةُ إفرادِ (النُّورِ) وجمعِ الظُّلماتِ:

النُّـورُ: إشـعـاعٌ غامِرُ السَّريانِ، والظُّلماتُ: موجٌ يـلـفُّ بعتَمَتِهِ الأكوانَ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أفرد النّورَ، وجمعَ الظّلماتِ، وسرُّ ذلك أنّه أراد بالنّور جِنْسَه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقّة: 17]، "أو لأنَّ الظّلماتِ كثيرةٌ؛ لأنّه ما من جنسٍ من

أجناسِ الأجرامِ إلّا وله ظِلٌّ، وظِلُّه هو الظُّلْمَةُ، بخلاف النّور فإنّه من جنسٍ واحدٍ، وهو النّار"[1].

دلالةُ لفظَي (النُّورِ) و(الظُّلماتِ)، وأثرُ تنوُّعِ معانيهما في السِّياق:

طـريـقُ الـنُّـور واحدٌ، ومسالكُ الظُّلماتِ شتَّى

تَحتملُ لفظةُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أن تكونَ بمعنى الكفرِ أو الجهلِ، ويَحتملُ أن يكونَ النّورُ بمعنى الإيمانِ أو العلمِ[2]، وهو تفسيرٌ يعتمدُ على الجانب المعنويّ؛ أي: أنّه لا يعني بالنّور الضّوءَ المادّيَّ، كما لا يعني بالظُّلمات الظّلامَ المادّيَّ، فإفرادُ النّور لأنّه طريقُ الحقِّ وهو الإسلام، وهو واحدٌ غيرُ مُتفرِّقٍ أبدًا، مهما بدا ذلك من تعدُّدِ المذاهبِ والآراءِ والاجتهاداتِ؛ لأنّ طريقَ الإسلام والهدى واحدٌ، وطرقَ الضّلالِ كثيرةٌ[3]، فهي طرقُ الغَوايةِ والباطلِ، والّتي عبّر عنها بصيغة الجمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ فالشّيطانُ يعرضُ أمامَ ابنِ آدم مختلِفَ الطّرقِ الباطلةِ ليغويه، فتارةً بالمال، وتارةً بالنِّساء، وتارةً بالجاه، وتارةً بالمنصب، ولو أردنا استقصاءَ طرقِ الباطلِ الّتي عبّرَ عنها بالظّلمات لما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، أمّا طريقُ الحقِّ والإسلامِ فهو واحدٌ، وآيةُ ذلك كلّه ما أُثر عنِ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في الحديث: «خطَّ رسولُ اللّهِ ﷺ خطًّا بيده، ثمَّ قال: هذا سبيل اللّه مُستقيمًا، قال: ثمَّ خطَّ عن يمينه، وشماله، ثمَّ قال: هذه السُّبلُ، ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]»[4]. فانظرْ كيف جعلَ لطريق اللّه خطًّا واحدًا، وجعلَ لِطُرُقِ الشَّيطان خطوطًا متعدِّدةً، فهذا الخطُّ الواحدُ هو النّورُ، والمتعدِّدةُ هي الظُّلماتُ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2237.

(4) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (4437)، والنّسائّي، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (11174)، والدّارميّ، سنن الدارمي، الحديث رقم: (202).

سرُّ تقديمِ لفظ (الظُّلماتِ)، على لفظ (النُّورِ)، في سيَاقِ الآية:

العــــدَمُ في المُـحْـدَثـات، مُـتـقـدِّمٌ على الوجـود في كلِّ مُحدَثٍ موجودٍ

تقدّمَ لفظُ الظّلماتِ على لفظ النّورِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ لِسَبَبٍ؛ وهو "أنّ الظُّلمةَ عبارةٌ عن عدمِ النّور عن الجسمِ الَّذي مِن شأنه قبول النّور، وليست عبارةً عن كيْفيَّةٍ وجوديَّةٍ مضادَّةٍ للنّور... وإذا ثَبَتَ هذا فنقول: عدمُ المُحدَثات مُتقدِّمٌ على وجودها، فالظُّلمةُ مُتقدِّمةٌ في التَّقديرِ، والتَّحقُّقِ على النّور، فوجب تقديمُها في اللَّفظ"[1].

تقدُّمُ الظُّلماتِ علـى الـنُّـور من بــاب تـقـديـم الكثرةِ على القلّةِ

عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، فإنّه لم يرد في القرآن الكريم إلّا على هذه الصّورة، "وحكمةُ ذلك أنَّ النّورَ شيءٌ واحدٌ، وإنْ تعدَّدَت مصادرُه، ولكنَّه يكون قويًّا، ويكون ضعيفًا، وأمّا الظُّلمةُ فهي تحدُثُ بما يَحجُبُ النّورَ منَ الأجسام غير النَّيِّرة، وهي كثيرةٌ جدًّا"[2]، فهو من بابِ تقديمِ الكثرةِ على القلّةِ، وهو واقعٌ كثيرًا في آي الذِّكْر الحكيم.

الظُّلماتُ أسبقُ مـنَ الـنُّـور في جانبها المعنويِّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾: تَحتملُ الظُّلماتُ والنّورُ جانبًا معنويًّا، وهو الضَّلالُ والهدى، فإن كان كذلك فالظُّلماتُ في جانبها المعنويّ أسبقُ منَ النّور، "فإنَّ نورَ العلمِ والهدايةِ كَسْبيٌّ في البشر، وما كان غيرَ كَسْبيٍّ في ذاته كالوحي فتلقّيه كسبيٌّ، وفَهمُه والعملُ به كَسْبيّان، وظلماتُ الجهل والأهواء سابقةٌ على هذا النّور، فالرَّسولُ لا يولَدُ رسولًا، وإنَّما يُؤتَى الرِّسالةَ إذا بلغَ أشدَّه واستوى، والعالمُ لا يولَدُ عالمًا، ولا الفاضلُ فاضلًا"[3]، وقد ورَدَ في الحديث الشّريفِ «إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّم»[4].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 159 - 160/12.

(2) رضا، تفسير المنار: 7/245.

(3) رضا، تفسير المنار: 7/246.

(4) أخرجه البخاريّ مُعلَّقًا بصيغة الجَزْم: كتاب العلم، باب رقم (10)، وأخرجه موصولاً الطّبرانّي: 19/395، الحديث رقم: (929)، والبيهقيّ، المدخل إلى السّنن الكبرى، الحديث رقم: (352) باختلافٍ يسيرٍ، وحَسَّنَهُ الحافظ في (الفتح).

إيثارُ الظُّلماتِ والنُّورِ بالذِّكر دون غيرهما:

تعريضٌ بحالَيِ المُخاطَبين بالآية من كفرِ فريقٍ وإيمانِ فريقٍ

الظُّلماتُ والنّورُ منَ الأعراضِ والأحوالِ في حياةِ الإنسانِ، وهناك أعراضٌ أخرى كثيرةٌ، لكنّه آثرَ هنا ذكرَ هذين العَرَضَين "دونَ غيرهما منَ الأعراض إيماءً وتعريضًا بحالَـيِ المُخاطَبين بالآية مِن كُفرِ فريقٍ، وإيمانِ فريقٍ، فإنَّ الكُفرَ يشبهُ الظُّلْمةَ؛ لأنّه انغماسٌ في جهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يشبهُ النّورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ"[1]؛ فتناسبَ كلُّ فعلٍ مع قرينِه.

دلالةُ (ثمّ) على جملةٍ من المعاني في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تـعـدُّدُ معاني حـرفِ العطفِ (ثمّ)، ينفسِحُ به السِّياقُ لدلالاتٍ شتَّى

الأصل في (ثمّ)، أنّها "حرفُ عطفٍ يقتضي ثلاثةَ أمورٍ: التَّشريكُ في الحكم، والتَّرتيبُ، والمهلةُ"[2].

ويرى الزّمخشريُّ أنَّ معنى "ثمَّ" هنا الاستبعاد؛ أي: استبعادُ أن يعدلوا به بعدَ وضوح آيات قدرته[3]، فجيء بكلمة (ثمّ) الّتي للتَّراخي؛ دلالةً على الاستبعاد.

و ﴿ثُمَّ﴾ هنا "دالَّةٌ على قبح فعل الَّذين كفروا؛ لأنّ المعنى أنَّ خلقَهُ السّماواتِ والأرضَ وغيرَهما قد تقرّر، وآياته قد سطعَت، وإنعامَه بذلك قد تبيّن، ثمّ بعدَ هذا كلّه عَدَلوا بربّهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتُكَ، وأكرمتُكَ، وأحسنتُ إليك، ثمّ تشتمني؛ أي: بعدَ مهلةٍ من وقوع هذا كلّه، ولو وقعَ العطفُ في هذا ونحوه بالواو لم يلزمِ التّوبيخَ كلزومه بـ (ثُمَّ)"[4].

وتَحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّعجيبَ من أمر هؤلاء، بأنّهم على الرّغم من ظهور آياته تعالى في الخلقِ والجعل؛ عَدَلوا عنِ الإيمانِ به وعبادته، "وذلك شأنُ (ثمَّ) إذا وردت عاطفةً جملةً على أخرى، فإنَّ عدولَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/226.

المشركين عن عبادة اللّه، مع علمهم بأنّه خالقُ الأشياءِ، أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن علمهم بذلك"(1).

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في ثنايا الآيةِ الكريمةِ:

الكُفرُ سَبَبٌ لِلفَسادِ، وتَطاولٌ على مقامِ ربِّ العبادِ

عُرِّفَ المسنَدُ إلَيهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾؛ للإشعارِ إلى نَوعِ الخَبرِ المَحكومِ بِهِ على المسنَدِ إلَيهِ؛ وأنَّه مِن جِنسِ الفسادِ والانحرافِ الّذي يصدُرُ عادةً بسببِ الكُفرِ.

دِلالَةُ (أل) في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في سياقِ الآيةِ:

الكافِرونَ باللهِ واقِعونَ في الشِّركِ لا محالةَ

اللّامُ في الاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ يُرادُ بها الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ باللّهِ تعالى مِن أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ.

نُكتَةُ إيثارِ التَّعبيرِ بِجُملَةِ الصِّلَةِ، فِعلًا ماضِيًا في الآيةِ الكريمةِ:

تَحقُّقُ الكُفرِ في المذكورين

جاءَت جملةُ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإيماءِ إلى حُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِهِ فيهم وتشبُّعِهم منهُ، لتلبُّسهم به في الظّاهر والباطن.

فائِدَةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ مِن سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

جُرْأَةُ المُشرِكينَ على اعتقادِ ما لا يليقُ باللهِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، وهو الأَمرُ الّذي كُفِرَ بِه، لإرادَةِ العُموم؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بالعُموم، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهِم أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

دلالةُ تقديمِ المُتعلَّقِ ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ عليهِم، منوطٌ بِفسادِ الفعلِ والاعتقادِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، تقدّمَ المُتعلَّق ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، "أي: الَّذين كفروا يَعْدِلون بربِّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/128.

غيرَهُ، والّذين كفروا مبتدأ، ويعدلون الخبر، والمفعولُ محذوفٌ"[1]، وفي التَّقديم زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ؛ فقد خلقَ لهم السّماواتِ والأرضَ، وجعلَ الظُّلماتِ والنّورَ، ومع ذلك مالوا، وانحرفوا، وبربّهم عَدَلوا.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾:

تجاوزُ الكفَّارِ عِبادةَ اللهِ إلى غيره، سفاهةٌ وتفاهةٌ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، الباء هنا حرف جرّ، والغالبُ فيها الإلصاقُ، لكنّها هنا أفادَت معنى المجاوزة[2]؛ "بمعنى (عَن)، فلا يكون في الكلام مفعولٌ محذوفٌ، بل يكون ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ لازمًا؛ أي: يعدلون عنه إلى غيره"[3].

سرُّ العدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ (الله)، إلى لفظ (الرَّبِّ):

بيانُ عِظَمِ جُرمِ الكافرين، وبشاعةِ اعتقادِهم

لمّا ذكَّرهم باستحقاقه العبوديّة، لكمالِ أُلوهيَّتِهِ، وعظيمِ قدرته على الخلقِ والإيجاد، وكان منهم الكفرُ والجحودُ - وضَحَ أنَّهم عَموا عن رؤيةِ دلائلِ ربوبيَّتِه، وآياتِ قدرته الشّاهدة على أنَّه ربُّهم الّذي أمدَّهم بالنّعم؛ فلذلك أوثِر التَّعبيرُ بلفظ ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، لإظهار قبحِ عملِهم، وإنكارِ فعلِهم، وتسفيهِ عقولِهم، واستنهاضِ فطرتِهم الّتي كفَّروها بجرائمهم، فإذا كانوا قد عَموا عن دلائلِ ربوبيّته، فَهُم عن جلائلِ ألوهيَّتِهِ أشدُّ عَمًى، وأضلُّ سبيلًا.

وجهُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الغائبين ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾:

الزِّيادةُ في التَّعجيب بإقامة الحُجَّة عليهم في قُبحِ إنكارِهم

في إضافةِ الرّبِّ إلى ضميرِ الغائبين زيادةُ تعجيب؛ وإقامةُ الحُجّةِ عليهم في قُبْحِ إنكارهم؛ إذ إنَّ دلائلَ ربوبيَّته ظاهرةٌ في كلّ مَربوب، وليسوا بمُطالَبين بإنْعامِ النّظرِ في غيرهم حتَّى يؤمنوا، ويُقِرّوا بالرّبِّ ﷻ، بل إنَّ ما أمدَّهم به ربُّهم من أصول النِّعم وفروعها لكفيلٌ بإرجاعهم إلى دائرةِ الحقِّ، ونورِ الإيمانِ، وعلى الرّغم من وضوح ذلك يشركون به!

---

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/479.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 141.

(3) العكبريّ، التّبيان: 1/479.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الفعلُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ أشملُ معنًى، وألصقُ بسياقِ التَّعبيرِ:

وردَ التّعبيرُ بالفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بالمعنى نفسه هنا، وفي قوله تعالى منَ السّورةِ نفسِها: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: 150]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النّمل: 60].

ولا يَعدِل هذا الفعلَ لفظٌ آخرُ؛ فلا يصلُح وضعُ (يكفرون) موضعَه؛ لِسَبق وصفهم بالكفر، ولا يحلُّ محلَّه (يُشركون)؛ لأنَّه لا يَعْدو وصْفَهم بأنَّهم جعلوا مع الله آلهةً أخرى، وهذا داخلٌ في دائرةِ الكفرِ المذكور.

فظهرَت مناسبةُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ للسّياق؛ إذ إنَّ مادّتَه - كما سبق - يلزمُ عنها معنى الشّرك والكفر، ويزادُ عليه معنى الموازنةِ، والتَّساوي، ومحاولةِ التَّرجيح، وفي ذلك دعوةٌ إلى النَّظرِ، والتَّفكُّرِ، والتَّأمُّلِ في دلائلِ الرّبوبيَّةِ، وفي آية سورة النَّمل المذكورة منَ الآيات العُلويَّة والأرضيَّة ما يدلُّ على جلاء تلك الدَّعوة، ويُسْرِ السّبيل إليها.

والفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ مناسبٌ للموازنة بين ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾؛ إذ إنَّ عدلَ المؤمن الّذي هو ضدُّ الظُّلم (نور)، وعدلَ الكافر الّذي هو مساواةُ ربِّه ﷻ بغيره (ظلمات)، فَعُدولُهم عنِ الإيمان بربِّهم دليلٌ على طَمْس بصيرتهم، ومساواتُهم الخالقَ بالمخلوق برهانٌ على النُّكران والكفران.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الاستـمـرارُ على البـاطِـلِ، رُغـمَ ظُهورِ الأَدِلَّةِ على زَيفِهِ وتهافتِهِ

عُبِّر بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ في قَولِ اللَّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإشعارِ باستمرارِ شِركِهم ودوامِهم عليه مع ظُهورِ الآياتِ والبيِّناتِ الدّالَّةِ على خلافِهِ، وهذا دالٌّ على شدَّةِ عنادِ هؤلاء الكفرَةِ وتَأَصُّلِ جُحودِهِم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ٢﴾ [الأنعام: 2]

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

الـرَّبـطُ بين خلْقِ الأكوانِ وخلْقِ الإنسانِ، لدحضِ الإفكِ والكفرانِ

لمّا استدلَّ في الآيةِ السّابقةِ بخلقِ السّماواتِ والأرضِ، وجعلِ الظُّلماتِ والنّورِ، على وجود الصّانعِ الحكيمِ، أتبعَه بخلقِ الإنسانِ من طيّن، فأبْطَلَ كفرَهم بالبعثِ مع مشاهدتهم ما يوجِبُ الإيمانَ به، بعد إبطالِ إشراكِهم به مع معاينتهم دلائلَ وحدانيَّته، وفي ذلك استدلالٌ بخَلْقِ العالَمِ الأصغرِ بعد العالَمِ الأكبرِ، وكلُّها واقعةٌ عنده تعالى بين الكاف والنّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طِينٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (طَيَنَ)، والطّينُ معروفٌ، وأصلُه منَ الأرض، ويُقال: فلانٌ منَ الطّينةِ الأولى نسبةً إلى الخِلْقة والجِبِلَّة، وهو أيضًا الأصل في معناه، وهو الطّين المعروف[1].

و"الطّينُ: التّرابُ والماءُ المختلطُ، وقد يسمّى بذلك وإن زال عنه قوّةُ الماء، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ١١﴾ [الصّافّات: 11][2]، والطّينُ مذكورٌ في القرآن الكريم في مواضعَ كثيرةٍ كلّها بمعنى المادَّة المعروفة المتكوّنة منِ امتزاجِ التُّرابِ بالماء[3].

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعلٌ ماضٍ معتلّ الآخر، جذرُه اللّغويُّ من (قَضَيَ)؛ لأنّ مضارعَه (يقضي)، ومنه القضاء بمعنى: الحُكْم؛ أي: حَكَمَ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طين).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (طين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طين).

وهو الأصل في معناه؛ أي: أنْ يُحكِمَ الأَمْرَ ويُتْقِنَهُ، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: 12]، وعمومُ لفظِ القضاءِ وما اشتُقَّ منه يأتي بمعنى الحُكْم[1]، وهو من الألفاظِ المُشْتَرَكَةِ الدَّلالةِ، ويتعيّنُ معناه بحسب السّياق الواردِ فيه، وهو هنا بمعنى إحكامِ الأمرِ وإمضائِه.

3) ﴿أَجَلًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (أَجَلَ)، وهو مُنتهى الوقت في انقضاء حياةِ الإنسانِ؛ أي: موته، وهو نقيضُ العاجل، وهو قريبٌ من أحد أصولِ معناه الخمسة عند ابن فارس[2].

والأجلُ: المدّةُ المقرّرةُ للشَّيء، ويُستعمَل كثيرًا للمدّة المقرَّرةِ المضروبةِ لحياة الإنسان في الدّنيا، فيُعبَّر عن ذلك بدُنوِّ الأجل، وهو حدُّ الموت، وحلولُ أجلِ الإنسان[3].

ومعناه في الآية: البقاءُ في الدّنيا حتّى الموت، أو البقاءُ في القبور حتّى النُّشور، أو النَّومُ حتّى الاستيقاظ[4].

4) ﴿مُّسَمًّى﴾: اسمُ مفعولٍ منَ الفعل المزيدِ (سمّى)، الجذرُ اللّغويُّ منه (سمو)؛ لأنّه مُشتقٌّ منَ السُّموِّ[5] على أرجح الأقوالِ، والفعل منه (سَما يَسْمو) فآخره واو، والسّموّ هو الارتفاع والعلوّ، "وسما إليه بصري؛ أي: ارتفعَ بصرُك إليه، وإذا رُفِعَ لك شيءٌ من بعيد فاستبنتَه"، والأصلُ في السّموّ العلوُّ والارتفاعُ أيضًا، والاسمُ هنا أُضيفَ إلى الضّمير العائد عليه سبحانه؛ فيرادُ به عند إضافتِه له تعالى ما يدلُّ على الذّات الإلهيّةِ، مع صفةِ الكمالِ القائمةِ به[6]. ومعنى المُسمَّى في هذه الآية - وهو صفةٌ للأجل - هو مدّةُ الأجلِ المضروبِ لبَعثكم يوم القيامة عند اللّه[7].

5) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مسنَدٌ إلى الجماعة، الجذرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (قضي).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أجل).
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/8.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: 38/305.
(6) الخليل، العين: (سمو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمو)، والرّاغب، المفردات: (كلم)
(7) الطّبريّ، جامع البيان: 11/259.

اللّغويُّ منه (مَوَرَ)، من (مارَ يمورُ مَوْرًا)، ومعنى المَوْر: التّردُّد وعدم الاستقرار، "والبعير يمورُ عَضُداه، إذا تردَّدا في عرض جنبيه. والطّعنةُ تمورُ إذا مالت يمينًا أو شمالاً. والدّماءُ تمور في وجهِ الأرضِ، إذا انصبّت فتردّدت"، ولخّص ابنُ فارس أصلَ معناه في التّردُّد[1]. ومعنى ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ في الآية: تشكّون وتجادلون؛ تشكّون منَ المِرْيَةِ، أو تجادلون منَ المِراءِ[2]؛ فالشّاكُّ يكون مُتردّدًا مُتحيّرًا لا استقرارَ له.

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

بيانُ خلقِ الإنسانِ، وامتحانُهُ في حالِهِ ومآلِهِ، ليؤمِنَ باللهِ دونَ امتراءٍ

ابتدأ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالضّمير ﴿هُوَ﴾ إشارةً إليه ﷻ الّذي خلقهم من طين، فأثبتَ أصلَ الإنسان، ثمّ جعل للابتلاء والامتحان أجلًا، وهو الدُّنيا، وجعل للعاقبة أجلًا، وهو الآخرة بعدَ البعثِ، وهو أجلٌ معيّنٌ عنده، لا يطّلعُ عليه سواه سبحانه، وبعدَ ذلك كلّه أنتم تشكّون في قدرةِ اللّه تعالى على البعث بعدَ الموتِ، ولا تؤمنون!

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ:

السِّياقُ تعجُّبٌ من إنكارِهم الأجلَ المسمَّى بضلالِهم المعمَّى

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئنافٌ لغرضٍ آخر للتَّعجيب من حال المشركين، إذ أنكروا البعثَ؛ فإنَّه ذكّرهم ابتداءً بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجِبَ من حالهم في تسويتهم ما لم يخلقِ السّماواتِ ولا الأرضَ باللّه تعالى في الإلهيَّة، ثمّ ذكَّرهم بخلقهم الأوَّل، وعجِبَ من حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنَّ اللّه هو خالقُهم الخلقَ الأوَّلَ فكيف يمترون في الخلق الثّاني[3].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

سرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾ لمتقدِّمٍ على مفسِّرِه:

التَّشويقُ لما بعد الضَّمير، تحصيلٌ للبيان بعدَ الغُموضِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ ابتداءٌ وخبرٌ[1]، والضّميرُ ﴿هُوَ﴾ هنا ضميرُ غَيْبَةٍ، وضميرُ الغَيْبَةِ يقتضي مَرجِعًا يفسِّره يكون سابقًا عليه، إلّا أنّ مرجعَه هنا مُتقدّمٌ عليه، فهو ضميرُ الشّأن[2]، وسرُّ التّعبيرِ بضمير الشّأنِ الّذي يكون مُتقدِّمًا على مُفسِّرِه إفادةُ التّشويقِ؛ فإنّ المؤمنَ مُترقِّبٌ ومُتشوِّقٌ لما بعدَ الضّمير؛ فيكون أحسنَ وقعًا في النّفس، وأشدَّ تمكّنًا لما فيه منَ البيانِ بعدَ الغموض.

فائدةُ أسلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

الدَّعوةُ إلى العودةِ للخالقِ قبلَ انقضاءِ الأجلِ مع الخلائقِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ جملةٌ ابتدائيّةٌ من معرفتين؛ الضَّمير والاسم الموصول، فالمسنَدُ والمسنَدُ إليه مُعرَّفان، والجملةُ تفيدُ القصرَ في ركنَيْها ومُتَعَلَّقِها، ومعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ أي: هو خالقُكم على جهةِ القَصْرِ والتَّخصيصِ لا غيره[3]. وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على الرُّجوعِ والعودةِ إلى الخالق بالإيمان به، والتَّوبةِ والإنابةِ إليه قبلَ انقضاءِ الأجل.

إعجازٌ مبينٌ في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾:

الإنسانُ والأرضُ مُشتركانِ في عناصِرِهما؛ لأنَّه مخلوقٌ من طينٍ

من خلال استعراضِ آياتِ القرآنِ الكريم يتّضحُ لنا أنَّ اللّه تبارك وتعالى قد خلقَ الإنسانَ منَ الأرض، وهي تحوي التُّرابَ والماءَ، وباختلاطهما يتكوَّنُ الطّين، ثمّ يصيرُ الطّينُ لازبًا ذا لزوجة، ثمّ تتغيَّرُ رائحتُه، فيصيرُ حَمَأً مَسْنونًا، ثمّ يتبخَّرُ منه بعضُ الماء، ويصيرُ صَلصالاً كالفَخّار.

ولقد ثبَتَ في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ أنَّ الطّينَ الّذي خُلِقَ منه أبونا آدم عليه السلام

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/3.

(2) ضميرُ غَيبةٍ تليه جملة تفسّره، مثل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. ابن جنّي، الخصائص: 1/106.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

أُخذَ من جميع الأرض: «فَجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ، جاءَ منهمُ الأَبْيَضُ والأَحْمَرُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والخَبيثُ والطَّيِّبُ، والسَّهْلُ والحَزْنُ، وبَيْنَ ذَلِكَ»[1]. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الرّوم: 22]. وخَلَقَ اللهُ أُمَّنا حوّاءَ عليها السّلام من ضِلَعِ آدمَ، وخَلَقَ عيسى عليه السلام من أمِّه مريم عليها السّلام، من دون أب، وخَلَقَ الذُّرّيَّةَ كلَّها من نُطفةِ الذَّكرِ وبوَيْضَةِ الأُنثى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [النّساء: 1]؛ للدّلالة على طلاقةِ قدرةِ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54].

فقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يَحتملُ أن يكونَ المعنى: خَلَقَ أصلَكم آدمَ عليه السلام من طينٍ، فيكون إيجازًا بالحذف، و(مِن) ابتدائيَّة أو تبعيضيّة على اعتدادِ أنَّ أبانا آدمَ عليه السلام خُلِقَ من قبضةٍ من ترابِ الأرضِ، كما ورد في الحديث[2].

بَراعَةُ أُسلوبِ البَحثِ من خلالِ الآية:

قَلْبُ الدَّليلِ على المُخالِفِ، بِجَعْلِ دَليلِهِ دليلًا عليهِ، مِن أقوى طُرُقِ الاستدلال

في قولِ اللهِ عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أسلوبُ البَحثِ[3]، الّذي يُسمّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ، وذلك أنَّ في التَّنصيص على مادَّةِ الخَلقِ بقولِهِ: ﴿مِّن طِينٍ﴾ إظهارًا لفسادِ استدلالِ المُشركينَ على إنكارِ الخَلقِ الثّاني في الآخرَةِ؛ وذلك أنَّهم استبَعدوا إعادَةَ خلقِ الإنسانِ بعد أن يصيرَ ترابًا، وهُم يُقرّونَ أنَّهم يصيرونَ بعدَ الموتِ ترابًا، ويُقرّون أيضًا أنَّهم خُلِقوا من ترابٍ، فاستدَلّوا على إنكارِ الخلقِ الثّاني بما هو حقيقٌ أن يكونَ دليلًا على إمكانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ صيرورَتَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادَةَ خَلقِهم؛ لكونِهم قد صاروا

(1) أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582)، ورقم: (19642).

(2) الإمام أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582).

(3) ابن عبد الحقّ العمريّ، درر الفرائد المستحسنة، ص: 443.

إلى مادَّةِ الخَلقِ الأوَّلِ، وهم مُقِرّونَ بها، وهذا القَدحُ في استِدلالِ المُشركِينَ يُسمَّى في عِلمِ الجدَلِ: القولَ بالموجَبِ. والمُنبَّهُ عليهِ من خطأِ استدلالِهِم يُقال لَهُ: فسادُ الوضعِ(1).

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطاب:

تلوينُ أساليبِ الخطابِ، ذو أثرٍ في التَّوبيخِ والتَّشنيعِ عليهم

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ مبنيٌّ على الخطاب، وفيه التفاتٌ عن قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فقد بناها هنا على الغَيبة، "والالتفاتُ لمزيدِ التّشنيع والتّوبيخِ؛ أي: ابتدأ خلقَكم منهُ؛ فإنّه المادّةُ الأولى للكُلِّ، لما أنّه منشأُ آدمَ الذي هو أبو البَشَرِ"(2).

إضافةُ الخَلْقِ إلى ضميرِ المخاطَبين في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

إشارةٌ إلى وجوبِ الإيمانِ بالبَعْثِ، لتعلُّقِه بالمصيرِ الأخيرِ

لفظة ﴿خَلَقَكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، جاءت فيها إضافةُ الخلْقِ إلى ضميرِ المُخاطَبين؛ للإشارة إلى "إيجابِ الإيمانِ بالبعثِ، وبطلانِ الامتراءِ؛ لتوضيحِ منهاجِ القياسِ، وللمبالغة في إزاحةِ الاشتباهِ والالتباسِ، مع ما فيه من تحقيق الحقّ"(3)؛ فإنّ بعثَكم منَ الطّين أمرٌ مُحقَّقٌ.

دِلالَةُ (ثُمَّ) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾:

إفادةُ التَّرتيبِ، بصدورِ القضاءِ قبلَ الخلقِ، ووقوعِ المقدورِ بعد الخَلقِ

(ثُمَّ) من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّرتيبِ، وفي ذلكَ مَسلَكانِ: أحدُهُما: أن تكونَ للتَّرتيب في الذِّكرِ دونَ التَّرتيبِ في الزَّمانِ، وذلك إذا حُمِلَ معنَى القضاءِ على وجه الكِتابَة والتقدير، إذ إنّ ذلك متقدّمٌ وهو مكتوبٌ قبل إنشاء الخلق.

والآخَرُ: أن تكونَ للتَّرتيبِ في الزَّمانِ، إذا جاءت ﴿قَضَىٰٓ﴾ بمعنَى: أظهَرَ، فيقعُ المقدور ويحدُث بعد الخلق(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/431.

ويجوزُ أن يُرادَ بـ (ثُمَّ) مَعنَى المُهلَةِ، إذا حُمِلَ مَعنَى ﴿قَضَىٰٓ﴾ على: (استَوفَى)، فقَضَى لهُ أجلَهُ، أي: استَوفاهُ لَهُ، ومَعنَى المُهلَة في (ثُمَّ) هيَ باعتبارِ التَّوزيعِ؛ أي: أنَّ اللّه ﷻ خلقَ كُلَّ فَردٍ مِنَ البشَرِ ثُمَّ قضَى لَهُ أَجَلَهُ[1].

دلالةُ لفظ ﴿أَجَلٗاۖ﴾، ولفظِ ﴿أَجَلٞ﴾ في السِّياقِ:

دلالةُ النَّصْبِ في الجملة الفعليَّةِ التَّغيُّر، ودلالةُ الرَّفْعِ في الجملة الاسميَّةِ الثُّبوتُ

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾: في الآية أَجَلان؛ أَجَلٌ منصوبٌ بـ ﴿قَضَىٰٓ﴾، والأجلُ الثّاني على الابتداء[2]؛ ولذلك يحسنُ الوقوفُ على الأجل الأوّل، والواو فيما بعده للاستئناف[3]، ولم يأتِ معطوفًا على ﴿أَجَلٗاۖ﴾، "لأنّ الأجلَ المسمّى الّذي عنده لا يعلمُه غيره، والأجلُ الأوّلُ أجلُ الدّنيا وانقضاؤها"[4]، لكون المنصوب ﴿أَجَلٗاۖ﴾ واقعًا في جملة فعلية، والمرفوع ﴿وَأَجَلٞ﴾ واقعًا في جملة اسمية، والجملة الاسمية دالّة على الثّبوت. وفيه مناسبةٌ بيّنةٌ في أنّ الأجلَ الأوّلَ منقطعٌ، وهو أجلُ الدُّنيا، والأجلُ الثّاني ثابتٌ، وهو أجلُ الآخرة.

تقديمُ ﴿أَجَلٗاۖ﴾ على ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾:

ترتيبُ الأجلِ وَفقَ التّقدُّمِ الزّمنيِّ لفظًا ومعنًى، أساسٌ في فَهْمِ المرادِ مِنَ السِّياق

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾: في الآية أَجَلان، قُدِّمَ أَحَدُهما على الآخر، وسببُ تقديم الأوّل ﴿أَجَلٗاۖ﴾ على الثّاني ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾ من باب التّقدّم الزّمنيّ لفظًا ومعنًى، أمّا من جهة اللّفظِ فإنّ النَّكرةَ المُطلَقَةَ سابقةٌ النّكرةَ المخصّصةَ، وأمّا من جهة المعنى فلأنّ "الأجلَ الأوّلَ مِنَ الولادةِ إلى الموت، والأجلَ الثّانيَ مِنَ الموت إلى البعث... وقال مجاهد وسعيد بن جُبير: الأجلُ الأوّلُ أجلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/293.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/362.
(4) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/629.

الدُّنيا، والأجلُ الثّاني أجلُ الآخرة"(1)، فأجلُ الدّنيا مُتقدِّمٌ على أجل الآخرة طبيعةً.

الأجلُ الأوّلُ زائلٌ، والأجلُ الثّاني دائمٌ

دلالةُ تنكيرِ ﴿أَجَلٗاۖ﴾، وتخصيصِ ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ أجلان؛ الأوّلُ: نكرةٌ محضةٌ ﴿أَجَلٗاۖ﴾، والثّاني مخصَّصةٌ ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾، والتَّخصيصُ يقرّب النّكرةَ منَ التّعريف في جواز الابتداء بها؛ لأنّها ذاتُ فائدة، فهنا تخصّصَ بالصّفة؛ فأصبح قريبًا منَ المعرفة(2) فـ "الأجلُ الأوّلُ هو أجلُ الموتِ، والأجلُ المُسمَّى عندَ اللّه هو أجلُ القيامة؛ لأنَّ مدَّةَ حياتهم في الآخرة لا آخرةَ لها ولا انقضاءَ، ولا يعلم أحدٌ كيّفيَّةَ الحالِ في هذا الأجل إلّا اللّه ﷻ"(3).

إفادةُ التَّفخيم والتَّعظيم، هو العلَّةُ في التَّأخير والتَّقديم

دلالةُ تقديم النَّكِرةِ المخصَّصةِ ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾ على الظَّرف ﴿عِندَهُۥۖ﴾:

لفظة ﴿وَأَجَلٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ نكرة، وقد خصّصها بالوصف ﴿مُّسَمًّى﴾، وقد قدّمَها على الظّرف ﴿عِندَهُۥۖ﴾ أنّ المعنى: وأيّ أجلٍ مُسمّى عنده! تعظيمًا لشأن السّاعة، فلمّا جرى فيه هذا المعنى وجبَ التّقديم(4)، فالتّقديمُ جاء هنا لأجل التّعظيم والتّفخيم.

لكلِّ أجلٍ كتابٌ، واللهُ وحدَهُ المطَّلِعُ على ميقاتِ المآبِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿عِندَهُۥۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ ذكرَ آجالَ الماضين قبله، وآجالُ هؤلاء المقضيّةُ باتَت معلومةً، أمّا مَن لم يقضِ أجلَه فقد عبّر عنها بقوله: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾، و"المرادُ منه آجالُ الباقين منَ الخلق... فهم بعدُ لم يموتوا، فلم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/127.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/480. وجاء هذا التعليل على القول بأن الأجل الثاني هو أجلُ يوم القيامة.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.

تَصِرَ آجالُهم معلومةً؛ فلهذا المعنى قال: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾"[1]؛ أي: لا يعلمُها سواهُ تعالى.

اعتـقـادُ المُشرِكينَ، أنَّهُ إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ، باطلٌ من القول والمعتَقَدِ

بَراعَةُ الاعتِراضِ في ثنايا سياق الآية الكريمة:

في قوله اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ اعتراضٌ بينَ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ونُكتَةُ هذا الاعتِراضِ: إعلامُ الخَلقِ بأنَّ اللّه ﷻ عالمٌ بآجالِ النّاسِ كُلِّهم، ردًّا على مقالَةِ المُشرِكينَ الزّاعمَةِ أنّه إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ[2].

الاعتراف بخَلْقٍ دونَ خَلْقٍ، محضُ افتراءٍ وامتراءٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ عطفَ هذه الجملةَ على ما سبقها، وصدَّرَها بالضّمير، وسرُّ ذلك إظهارُ العَجَب من حالهم بعد تذكيرهم بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجبُه من أنّهم ساوَوا بين مَن يَخْلُقُ ومَن لا يَخلُقُ، "ثمَّ ذكَّرهم بخَلْقهم الأوَّل، وعَجِبَ من حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ اللّه هو خالقُهم الخَلْقَ الأوّل، فكيف يمترون في الخلق الثّاني؟!"[3]، فكيف لهم بعد كلّ ذلك أن يشكّكوا في ما جئنا به منَ الخَلقِ؟!.

العـجَـبُ من مقابَلةِ المشركين إنـعـامَ الـلـه بـالـمـاراةِ بعدَ إمـهـالٍ وطـولِ بيان

إفادة ﴿ثُمَّ﴾ جملةً مِنَ المعاني:

حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قد يومئُ إلى معنًى له علاقة بجملةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ فيدلّ هنا على قبح هؤلاء المُخاطَبين وتوبيخِهم؛ لأنّه تعالى قد خلقهم، وبيّنَ أصلَ خَلْقهم، ثمّ بعد ذلك هُمْ يَمْترون، ويُشكّكون بذلك؛ فقد قابلوا الإنعامَ والإكرامَ بالماراة والشّكّ بعد مهلةٍ وتراخٍ، وهذا ما تحقّقُه ﴿ثُمَّ﴾ فيما لا تحقّقُه حروفُ العطفِ الأخرى.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/162، ويأتي هذا التعليل على ضوء معنى: أنّ الأجل الثاني هو الأجل الذي لم ينقضِ بعدُ.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 130 - 131/7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

وقد تفيدُ ﴿ثُمَّ﴾ التَّعجيبَ من حالهم، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، فحرفُ العطفِ هذا فيه معنى آخرُ بعد عطفِه هذه الجملة على سابقتها، وهي قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ وهذا المعنى هو التَّعجيبُ من حالِ هؤلاء؛ فإنّ مماراةَ هؤلاء، وارتيابَهم بعد أن علموا أنّه خالقُهم، وأنّ أصلَهم من طين لَهوَ أمرٌ يثيرُ العجبَ من حالهم، لعلّه أعجبُ مِن علمِهم ذاك.

تحتمل (ثمَّ) معنى الاستبعاد

وتحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ معنى الاستبعاد، "والمرادُ استبعادُ امترائهم في وقوعِ البعثِ، وتحقّقه في نفسه مع مشاهدتهم في أنفسهم مِنَ الشَّواهد ما يقعُ مادَّةَ ذلك بالكلِّيّة، فإنَّ مَن قَدَر على إفاضة الحياةِ على مادَّةٍ غير مستعدّة لشيءٍ من ذلك، كان أوضحَ اقتدارًا على إقامته على مادّة قد استعدّت له، وقارنته مُدَّة"[1].

نُكتَةُ ذِكرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿أَنتُمْ﴾:

تقريعُ المُشركينَ، جزاءُ امترائِهم

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، جيءَ بالمسنَدِ إلَيهِ ﴿أَنتُمْ﴾ ضميرًا بارزًا في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، والمرادُ بهِمُ المُشركونَ؛ لإرادَةِ المبالغَةِ في التَّقريعِ والتَّوبيخِ[2].

دلالَةُ الجُملَةِ الاسمِيَّةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

شِدَّةُ العِنادِ، تُلهي عَنِ النَّظَرِ في الآياتِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ

في التَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ إيماءٌ إلى استمرارِهم في باطلِهم بالشَّكِّ في قُدرَةِ اللّهِ ﷻ على البَعثِ، وأنَّ الأدلَّةَ والبراهينَ الّتي نصَبَها اللّهُ ﷻ لإثباتِهِ لَم يُزَحزِح هذا الاعتقادَ الفاسدَ مِن قلوبِهم؛ لقوَّةِ عنادِهم، واستكبارِهم عنِ التَّأمُّلِ في أدلَّةِ ذلك.

سِرُّ تَقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعليِّ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قُدِّمَ فيه المسنَدُ إليه

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/131.

﴿أَنتُمۡ﴾ على المسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾؛ لتقويَةِ الإسنادِ؛ لاقتضائِه تكرارَهُ، فقد أُسنِدَ الامتراءُ إلى ضميرِ المُشركِين ﴿أَنتُمۡ﴾، وهو مِن إسنادِ الخبرِ إلى المبتدَأ، وأُسنِدَ الامتراءُ أيضًا إلى واوِ الجماعةِ الرّاجعةِ إليهم، وهوَ مِن إسنادِ الفِعلِ إلى فاعِلِه.

تأكيدُ انحرافِ المُشركينَ في نظرتِهم العقديَّةِ لقُدرَةِ اللهِ ﷻ

ونكتةُ تَكرارِ الإسنادِ تأكيدُ تحقُّقِ امترائِهم في قُدرَةِ اللّهِ ﷻ في البَعثِ؛ بيانًا لشدَّةِ عنادِهم واستكبارِهم وإعراضِهم عن آياتِ اللّه تعالى الدّالَّةِ على خلافِ اعتقادِهمُ الرَّديءِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿تَمۡتَرُونَ﴾:

استِمرارُ المُعَانِدِينَ على اعتِقاداتِهِمُ السَّخيفةِ

عُبِّر بالفِعلِ المضارِعِ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾؛ للإشعارِ باستمرارِهم على هذا الباطِلِ الّذي اعتقَدوهُ مِنَ الشَّكِّ في قدرَةِ اللّهِ تعالى، على إحياءِ الموتَى وبَعثِهم.

عِلَّةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الفِعلِ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾:

طَيُّ الألفاظِ الّتي تُدرَكُ مِن السِّياقِ، ممَّا يُستَحسَنُ في بابِ الإيجازِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾، حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفِعلِ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾؛ لِظُهورِه مِنَ السّياقِ، والمرادُ: أَنتُم تمترونَ في إمكانِ البعثِ بعدَ الموتِ، ودلَّ على أنَّ هذا الأمرَ هو المُمارى فيه قولُهُ سُبحانَهُ قَبلُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾، وذلك أنَّهُ لَولا إرادَةُ التَّذكيرِ بدليلِ إمكانيَّةِ البعثِ بعدَ المَوتِ؛ لَما كانَ لِذكرِ الخَلقِ مِنَ الطّينِ، وذِكرِ الأجَلَينِ مُرجِّحٌ للتَّخصيصِ بالذِّكرِ[1].

المتشابهُ اللفظيُّ بَينَ آيةِ الأنعامِ وآياتِ الأعرافِ، والرّومِ، وغافر:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها البليغةِ

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأعراف: 189]، وقال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/132.

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ﴾ [الرّوم: 54]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ [غافر: 67]؛ فتَنَوّعت هذهِ الآياتُ في ذِكرِ مادَّةِ الخَلقِ، ووجهُ ذلكَ:

أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، فلمّا كان ذلك دالًّا على قدرةِ اللهِ سُبحانَهُ على جمعِ الأضدادِ؛ ناسبَهُ أَن يكونَ المخلوقُ مِنهُ الطّينَ؛ لأنَّ فيه الجَمعَ بين الضِّدَّينِ، وهُما الماءُ النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، والتُّرابُ المستَقِرُّ في الأرضِ، والأوَّلُ شفّافٌ، والآخَرُ كثيفٌ.

وأمّا آيةُ الأعرافِ فَتَقدَّمها قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: 188]، فلمّا كان ذلك دالًّا على عدَمِ التَّفريقِ بين الرَّسولِ ﷺ وغيرِهِ منَ بَني آدمَ في خصوصِ ما ذُكِرَ؛ لكونِ الجميعِ بشَرًا يرجِعونَ إلى آدمَ عليه السلام؛ ناسبَهُ قولُهُ تعالَى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأعراف: 189].

وأمّا آيةُ الرّومِ فتقدَّمها قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾ [الروم: 52 - 53]، فلمّا دلَّ ذلك على عَجزِ جميعِ بَني آدمَ على إسماعِ المَوتَى، ناسبَهُ بيانُ سببِ هذا العَجزِ؛ وهو الضَّعفُ الّذي خُلِقوا منه، فقال ﷻ: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الروم: 54].

وأمّا آيةُ غافرٍ فتقدَّمَها قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر: 59] والآياتُ بَعدَها، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بمُنكِري البعثِ؛ ناسبَهُ التَّصريحُ بقدرَةِ اللهِ ﷻ على الخَلقِ؛ حيث خلقَهُم اللّهُ تعالى من شيءٍ لا قُدرَةَ له ولا حركَةَ، وهو التُّرابُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [غافر: 67].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ألوهيَّةُ اللهِ تعالى نتيجةٌ حتميَّةٌ لبدائعِ صُنْعِهِ في خلقِ الأكوانِ والإنسان

بعد أن حَمِدَ اللّه نفسَه بكونه خالقَ السّماواتِ والأرضِ، مبدعَ الكائناتِ كلِّها، وخلقَ الإنسانَ من طين؛ عَطفَ هذه الجملة على "قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾؛ أي: خلقكم ولم يهملْ مراقبتَكم، فهو يعلمُ أحوالَكم كلَّها"[1] من سرٍّ وجهرٍ، ويعلمُ كسبَكم من خير وشرّ؛ فتكون هذه الآيةُ مُتعلِّقةً بما قبلها تعلُّقَ النّتيجةِ بالسّبب، بدءًا من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حتّى هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، والجذرُ اللّغويُّ منه (عَلِمَ)، ولمعناه أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على أثرٍ بالشّيء يتميّزُ به عن غيره، من ذلك العلامة". ومن معانيه أنّه ضدُّ الجهلِ ونقيضُه.

والعلم بمعناه الاصطلاحيّ "إدراكُ الشَّيءِ بحقيقته، وذلك ضربان: أحدُهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ له، أو نفيُ شيءٍ هو منفيٌّ عنه"[2].

والعلمُ يدلُّ أيضًا على "اليقين، يُقال: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تيقَّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا، كما جاءَت بمعناه ضُمِّنَ كلُّ واحدٍ معنى الآخر؛ لاشتراكهما في كون كلِّ واحدٍ مسبوقًا بالجهل"[3].

وعلمُ اللّهِ تعالى يفيدُ أنّه عالمٌ بكلِّ ما كان، وكلِّ ما هو كائنٌ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة، الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).

يوم القيامة، ثمّ ما يكون بعد ذلك، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولا يخفى شيءٌ من أمر الغيبِ كلِّه.

2) ﴿سِرَّكُمْ﴾: السّرُّ اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (سرر)، والسّرُّ هو كتمانُ الشّيءِ وإخفاؤه، والأصلُ في معناه إخفاءُ الأمرِ أيضًا، وهو خلافُ الإعلانِ والإظهارِ، ويكونُ استعمالُه في الأعيان والمعاني، وأيّ حديث كُتِمَ في النّفس فهو من هذا الباب[1]. والسّرُّ هو الجوفُ بعمقٍ. وسرُّ الوادي: وسطه، وهو مناسبٌ للمعنى المعروفِ منَ الإخفاءِ والكتمان[2].

ويجوزُ في معنى هذا الفعلِ الإظهارُ خلاف الكتمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ [يونس: 54]، فله معنيان متضادّان الإظهارُ والكتمانُ[3]، إلّا أنّ معناه في الآية هو الكتمانُ والإخفاءُ وعدمُ الإظهار؛ لأنّه لا يخفى عليه شيءٌ[4]، ولأنّه ذكرَ الجهرَ بعدَه نصًّا.

3) ﴿وَجَهۡرَكُمۡ﴾: الجهرُ اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (جَهَرَ)، والجهر معناه الإعلان، وهو نقيضُ السّرِّ، وكلُّ ما يبدو فقد جهر، والأصلُ في معنى الجهرِ الإعلانُ والإظهارُ والعلوُّ، ويُقال الجهرُ: "لظهور الشّيء بإفراطِ حاسّةِ البصرِ، أو حاسّةِ السّمعِ"[5].

والجهرُ: الظّاهرُ المكشوفُ المناقضُ للسّرِّ، ويُقال: جهرتِ البئرُ، بمعنى: أظهرت ماءَها، والجهرُ: وضوحُ الشّيءِ، وانكشافُه، وبروزُه بزوال ما كان يغشاه[6].

4) ﴿تَكۡسِبُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مُسندٌ إلى الجماعة، جذرُه اللّغويُّ من (كَسَبَ)، ومعنى الكَسْب هو طلبُ الرِّزق عمومًا[7]، أمّا الأصلُ في معناه فهو دلالته على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، فالكسبُ من ذلك، ومن معانيه أيضًا "ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيه اجتِلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يظُنُّ الإنسانُ أنّه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر)، الرّاغب، المفردات: (سرر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/261.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، الرّاغب، المفردات: (جهر).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).

يَجلِبُ مَنفعةً، ثمّ استُجلِبَ به مَضَرَّةٌ، والكسبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِهِ ولغَيرِه"[1].

وفعلُ الكسبِ في الآية ليس خاصًّا بالمال أو نحوه، بل هو عامٌّ في تحصيلِ المنافعِ المادّيّةِ وغيرِ المادّيَّةِ كالاعتقادات والأفعال والأقوال[2].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

استحقاقُ الله تعالى للعبوديّةِ المُطلَقةِ

يخبرُ الحقُّ تعالى عن نفسه على جهة الالتفاتِ أنّه الإلهُ المعبودُ بحقٍّ في السّماوات وفي الأرض، ومن دلائل ألوهيّته أنّه يعلمُ جميعَ ما تخفونه - أيّها النّاس - وما تعلنونه؛ فخطابه للكافرين قصدًا، وللمؤمنين تنبيهًا، ويعلمُ فوقَ ذلك ما تكسبونه منَ الحسناتِ، والسّيّئاتِ، والأرزاقِ، والأموالِ، والخطايا، وسواها؛ فهو العليمُ الخبيرُ جلّ جلاله الإلهُ المستحقُّ للعبادة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَولِ اللهِ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ بِما قَبلَهُ:

شُمولُ أَحكامِهِ لِجَميعِ الخَلقِ، وإحاطَتُهُ بِأَحوالِ العِبادِ وكسبِهِم

وُصِلَ قَولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بِما قَبلَهُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾؛ لِما بينَهُما منَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين، وذلك لاشتراكِ الجُملتينِ في الخبريَّةِ، وكلاهُما خبرٌ عنِ اللّهِ تعالى وعَن أوصافِهِ وأَفعالِهِ، وبين الجُملَتَينِ تناسُبٌ من جِهَةِ أنَّ كِلتَيْهِما جملةٌ اسميَّةٌ، والمُسنَدُ إليه فيهما ضميرُ الغائبِ (هوَ) الرّاجعِ إلى اللّهِ عزّ وجلّ.

والجملَةُ معطوفَةٌ لبيانِ شمولِ أحكامِ ألوهيَّةِ اللّهِ سُبحانَهُ لجميعِ الخَلقِ، وإحاطتِهِ بدقائقِ أحوالِ العبادِ وأعمالِهم الّتي يَتَرَتَّبُ عليها الجَزاءُ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/268.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

سرُّ تأخيرِ الاسمِ الظَّاهرِ عنِ الضَّميرِ في ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾:

البَدءُ بالتَّعبيرِ بالضَّميرِ، يجعلُ النَّفسَ مُتشوِّقةً إلى معرفةِ التَّفسيرِ

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ ابتدائيّةٌ من مبتدأ وخبر[1]، و(وهو) ضميرُ غَيبةٍ، والاسمُ الظّاهرُ الّذي يفسّرُه هو لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ المتأخّر عنه، وهو ممّا يقتضي تشويقًا وتطلّعًا منَ السّامع لمعرفة المفسّرِ بعد قوله: ﴿وَهُوَ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1]. كما أنّ تأخّر الاسم الظّاهر ﴿ ٱللَّهُ﴾ على الضّمير ﴿هُوَ﴾، فيه دلالةٌ على انفراده ﷻ بالألوهيَّة، "ولمّا كان اسمُ الجلالةِ معروفًا عندهم لا يلتبسُ بغيره، صارَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ في معنى الموصوف بهذه الصِّفات... كما يقول مَن يذكرُ جوادًا، ثمّ يقول: هو حاتمٌ في العرب، وهذا لقصد التَّنصيص على أنّه لا يشاركُه أحدٌ في صفاته، في الكائنات كلِّها"[2].

دلالةُ الظَّرفيّة بالحرف (في)، وتعلُّقُها باسم الجلالة:

اللهُ هو المعبودُ المالكُ، والمتصرِّفُ المدبِّرُ في السَّماواتِ والأرضِ

معنى قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾: هو الخالقُ العالِمُ بما يصلحُ به أمرُ السَّماءِ والأرض، المتفرّدُ بالتَّدبيرِ في السّماواتِ والأرض[3]، فمُتعلَّقُ الجارِّ والمجرور - على ما قيل - بالمعنى الوَصفيّ الّذي تضمَّنَهُ الاسمُ الجليلُ، كما في قولك: هو حاتمٌ في طَيِّئٍ على معنى الجَوادِ.

والمعنى الّذي يُعتَبَرُ هنا يجوزُ أن يكونَ هو المأخوذُ من أصلِ اشتقاقِ الاسمِ الكريم، أعني: المعبودَ، أو ما اشتُهِر به الاسمُ من صفاتِ الكمالِ، إلّا أنَّه يُلاحِظُ في هذا المقام ما يقتضيهِ منها، أو ما يدلُّ عليه التَّركيبُ الحَصريُّ لتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ فيه من

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 132 - 133/7.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/228.

التَّوحيد، والتَّفرّدِ بالألوهيّةِ، أو ما تقرَّر عندَ الكُلِّ من إطلاقِ هذا الاسمِ عليه تعالى خاصّةً فكأنَّه قيل:

وهو المعبودُ فيهما، أو هو المالكُ والمُتصَرِّفُ المُدَبِّرُ فيهما، حسبما تقتَضيهِ المشيئةُ المَبنيّةُ على الحِكَمِ البالغةِ أو هو المُتوحِّدُ بالألوهيّة فيهما، أو هو الّذي يُقال لهُ: اللّهُ فيهما لا يُشرَكُ به شيءٌ في هذا الاسم، ومعنى ذلكَ مُجرَّدُ مُلاحظةِ أحَدِ المعاني المذكورة في ضمن ذلك الاسمِ الجليلِ، ويكفي مثلَ ذلكَ في تعلُّقِ الجارِّ لا أنّهُ يحمِلُ لفظُ اللّه على معناه اللّغويِّ[1].

دلالةُ الوقفِ والابتداءِ على تعلُّقِ الظَّرفيَّة:

تـمـامُ المعنـى على آخرِ الآية؛ لأنَّـه المعبودُ في السَّماوات والأرض

يرى بعضُ أهل العلم أنَّ الوقفَ على قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ تامٌّ، وقال آخرون: إنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقفٌ تامٌّ، ثمّ استأنفَ الخبرَ فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، وهذا اختيارُ ابنِ جرير[2]. والتَّمامُ على آخر الآية، وهو الرّاجحُ عند أبي عمرو الدّانيّ وغيره[3]؛ لأنَّ المعنى على التَّقديم والتَّأخير: وهو اللّهُ يعلمُ سرَّكم وجهرَكم في السّماوات وفي الأرض، وهذا قولُ ابنِ عبّاس، أو المعنى: وهو المعبودُ في السّماوات وفي الأرض، أو المتفرِّدُ بالتَّدبير فيهنَّ[4].

السّماواتُ بينَ الجمعِ هنا، والإفرادِ في غيره:

المعبودُ في السَّماوات، يُرادُ به المعبودُ من طرفِ جميع الكائناتِ

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وردتِ السّماواتُ هنا بصيغةِ الجمعِ، فيما وردَت في آيات أخرى بالإفرادِ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذّاريات:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/315.

(2) نقله ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/240، عنه، وهذا الوقفُ غيُر ظاهرٍ من كلام ابن جرير في تفسيره.

(3) الدّانّي، المُكتفى في الوقف والابتداء، ص: 65.

(4) النّحّاس، القطع والائتناف، ص: 219، وابن جرير، جامع البيان: 11/261، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/390، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/123.

23]؛ فإنّ المرادَ هنا الجنسُ، فهو تعالى ربُّ كلِّ ما عَلا، وكلِّ ما سَفَلَ؛ لذلك "أتى بالاسم الشّاملِ لكلِّ ما يُسمَّى سماءً، وكلِّ ما يُسمَّى أرضًا، وهو أمرٌ حقيقيٌّ لا يتبدلُ ولا يتغيّرُ، وإن تبدّلَت عينُ السّماءِ والأرضِ"[1]، أمّا ورودُها مجموعةً فعلى معنى كونه المعبودَ في كلِّ سماءٍ منها، وذكرُ الجمع أبلغُ، وأكثرُ مطابقةً منَ التَّعبير بالإفراد.

علَّةُ تقديمِ لفظ (السّماوات) على لفظ (الأرض) في الآية:

ترتيبُ عناصرِ الجملةِ له مزيَّةٌ بلاغيَّةٌ في مراعاةِ الرُّتبةِ في الخطاب

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قدّم الحقُّ ﷻ السّماواتِ على الأرض، لأسبابٍ عدّة، منها: التّعظيمُ؛ فإنّ ملكَها أعظمُ شأنًا، وأكبرُ سلطانًا منَ الأرض، ومنها: الفضلُ والشّرفُ؛ فإنّها مشتملةٌ على الملائكةِ والأنبياءِ والمرسلين، ونحو ذلك، ممّا لا ريبَ في فضله وشرفه، وعلوِّ مكانته ومنزلته، ومنها: القِدمُ والأوليّةُ؛ فإنّ السّماءَ موجودةٌ قبلَ الأرضِ ببراهينَ وأدلّةٍ كثيرةٍ، لا يحدُّها حصرٌ ولا بيانٌ.

عِلَّةُ فَصلِ علْمِ السِّرِّ والجهرِ عمَّا قَبلَهُ في السّياق:

انفِرادُ اللهِ تعالى بالألوهيَّةِ، يَقتَضي عِلمَهُ بأحوالِ الخَلقِ بالكليَّةِ

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لِكَونِهِ مُقرِّرًا لمعنَى قولِه قبلُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، فالجملةُ مُنَزَّلةٌ منزلةَ التَّوكيدِ المعنويِّ، وذلك لأنَّ انفرادَهُ بالألوهيَّةِ في السَّماواتِ والأرضِ يقتضي عِلمَهُ بأحوالِ الخَلقِ[2]، فبَينَ الجُملَتَينِ كمالُ الاتِّصالِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين السِّرِّ والجهر:

البيانُ والتَّوكيدُ

قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ تقريرٌ وتوكيدٌ لما قبله؛ لأنَّ الّذي يستوي في علمه السِّرُّ والعلانيةُ هو اللّه وحده[3].

وبينَ السّرِّ والجهرِ طباقٌ؛ أي: ما أسررتموه، وما جهرتُم به منَ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/73.

الأقوالِ، أو منها ومنَ الأفعالِ، وهو بيانٌ للمراد من معنى الظّرفيَّةِ السّابقةِ، وتوكيدٌ لما يُفهَمُ منَ الكلام، وعلمُه تعالى يشملُ ما ذكرَ منَ السّرِّ والجهرِ، وما لم يذكرْ من أحوالِ السّماواتِ والأرضِ، وما بينهما، وما تحت الثَّرى، ولكنَّه خصَّهما لمناسبة المُخاطَبين.

سببُ تقديمِ السِّرِّ على الجهر في ﴿سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾:

السِّـرُّ علَّـةٌ للجهر، وتقديمُ العلَّةِ أولى عند أهلِ البيانِ

في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾، قدّمَ السّرَّ على الجهر، ومعنى السّرِّ الصّفاتُ القلبيّةُ الدّاعيَةُ للفعل، أو الصّارفةُ عنه، أمّا الجهرُ فهو الأفعالُ الحقيقةُ الظّاهرةُ، "وإنّما قدّمَ ذكرَ السّرِّ على ذكرِ الجهرِ؛ لأنّ المُؤثِّرَ في الفعل هو مجموعُ القدرةِ مع الدّاعي، فالدّاعية الّتي هي من باب السّرِّ هي المؤثِّرةُ في أعمالِ الجوارح المُسمّاة بالجهر، وقد ثبتَ أنّ العلمَ بالعلّة علّةٌ للعلم بالمعلول، والعلّةُ مُتقدِّمةٌ على المعلول"[1].

نُكتَةُ إضافَةِ السِّرِّ والجَهرِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِينَ:

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ العِبادِ، دليلٌ على أنَّه لا تخفى عنه خافيةٌ

أُضيفَ السِّرُّ والجَهرُ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ مع أنّه لو وردَ النَّظمُ القرآنيُّ بـ (يعلَمُ السِّرَّ والجَهرَ) لكانَ أعمَّ؛ ووجهُ ذلك أنَّ المقامَ مقامُ توجيهِ الخطابِ للسّامعينَ، فهو في قوَّةِ الوعدِ والوَعيدِ، وذلك أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ إذا كان يعلَمُ الخَيرَ كُلَّهُ سرًّا كانَ أو جَهرًا؛ فهو يُجازي عليه الجزاءَ الحسَنَ، وإذا كانَ يعلَمُ الشَّرَّ كُلَّهُ سرًّا كان أو جهرًا؛ فإنَّهُ يعاقِبُ عليه، والخيرُ والشّرُّ اللّذانِ يتعلَّقُ بهما الثَّوابُ والعقابُ هُما الصّادِرانِ عنِ المُكلَّفينَ منَ العِبادِ، فناسبَ ذلك أن يُضافَ الخيرُ والشَّرُّ إليهم.

السِّرُّ في تكرارِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَكۡسِبُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾؛ "أي: ما تفعلونه لجلبِ نفعٍ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/165.

إظهارُ الاعتناءِ بالكسب، وتعريضٌ بالوعدِ والوعيدِ، لمن ناكفَ وخالفَ

أو دفعِ ضرٍّ، منَ الأعمالِ المكتسَبةِ بالقلوبِ والجوارحِ سرًّا وعلانيةً، وتخصيص ذلك بالذِّكر مع اندراجه فيما تقدَّم على تقدير تعميم السّرِّ والجهرِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ به؛ لأنَّه مدارُ فَلَكِ الجزاءِ، وهو السّرُّ في إعادةِ ﴿يَعْلَمُ﴾"[1].

ولمّا كانَ الكسبُ في الخيرِ وفي الشّرِّ، وفي الحسناتِ والسّيّئاتِ، وفي الأعمالِ والاعتقاداتِ؛ فإنّ التّعبيرَ هنا به تعريضٌ بالوعد والوعيد[2]، بالوعد على جهةِ الخيرِ، والوعيد على غيرِ ذلك، ولكي لا يكونَ من باب عطفِ الشَّيءِ على نفسه فيمَن جعلَ الكسبَ مساويًا للسّرِّ وهي أفعالُ القلوبِ، والجهر وهي أفعالُ الجوارحِ.

دِلالَةُ (مَا) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾:

شُمولُ عِلمِ اللهِ ﷻ دليلُ الإحاطةِ والعظمةِ

(ما) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ موصوليَّةٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقدير: ويعلَمُ ما تكسِبونَهُ، وهو من إيجازِ الحذفِ، وفي التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ إيماءٌ إلى شمولِ عِلمِ اللّهِ ﷻ جميعَ ما يكسِبُهُ العبادُ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ يدلُّ على العُمومِ. ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدريَّةً، فتُسبَكُ مع ما بعدَها بمصدَرٍ، والتَّقدير: ويعلَمُ كَسبَكُم.

دلالَةُ الخبرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾:

تَنبيهُ الكُفَّارِ، وتَذكيرُ أهلِ الإيمانِ الأبرارِ

الجُملَةُ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، والمُخاطَبُ جميعُ السّامعينَ، سواءٌ أكانوا مسلِمينَ أم كُفّارًا، والخَبَرُ حينئذٍ لَهُ دِلالَتان:

إحداهُما: تعليمٌ وإيقاظٌ بالنِّسبَةِ للكُفّارِ. والأخرَى: التَّذكيرُ بالنِّسبَةِ لأهلِ الإيمانِ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133. والتّعريض: الإشارةُ على وجهِ الإجمالِ، والإيهامِ، وعدمِ التّصريح.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤﴾ [الأنعام: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ ما يدلُّ منَ البيّناتِ على التّوحيد، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الّذين طُمست فطرتُهم، فلم تدرك الحقَّ لذاتِ الحقِّ لا تجدي معهم البراهينُ، مهما قويَت، ولا الآياتُ مهما بيِّنَت، فبيّن أنّهم مُعرضون كمَن يرى ضوءَ الشّمس، فيضعُ غشاوةً لكيلا يراها، ومَن يسمعُ الحقَّ فيضعُ ثِقَلًا في أذنه، وما تأتيهم حجّةٌ إلّا أعرضوا[1].

على قلبِ المستكبِرِ غِشاوةٌ، فلا ينفعُ برهانٌ، ولا يدخُلُ إيمانٌ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡتِيهِم﴾: فعل مضارع مبدوء بحرف المضارعة، والجذرُ اللّغويُّ منه (أتي)، ومنه أَتى يَأْتي، ومصدرُه الإِتْيانُ بمعنى المجيء، ومن معانيه أنّه "مجيءٌ بسهولة... والإتيانُ يُقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويُقال في الخير وفي الشّرِّ، وفي الأعيان والأعراض"، ومعناه المحوريّ "وصولٌ أو تقدُّمٌ، وحضورٌ إلى مكان، أو شيء بتهيئة، أو قوَّةٍ تُزيلُ ما يعوق"[2]، ومعنى الإتيانِ هنا البلوغُ والوصولُ؛ أي: أنَّ الآيةَ تبلغُ إليهم[3].

2) ﴿ءَايَةٖ﴾: اسمٌ مؤنَّثٌ، الأصلُ فيه (أأْية)، ثمَّ صارتا مدّةً، والآيةُ بمعنى العلامة والنّظر، وهي مُشتقَّةٌ منَ التّأيّي الّذي هو التّثبّتُ، والإقامةُ على الشّيء، والآيةُ تأتي بمعنى العلامة والشّخص والجماعة،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أتا)، والرّاغب، المفردات: (أتي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/31.

وسُمّيت آية القرآن بهذا الاسم لكونها مؤلّفةً منَ الكلمات والجمل، ولأنّها "طائفةٌ منَ القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعض إلى انقطاعها، طويلة كانت أو قصيرة"[1]، و"الآيةُ هنا: العلامةُ على وحدانيّة اللّه وانفراده بالألوهيّة، وقيل: الرّسالة، وقيل: المعجز الخارق"[2].

3) ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: اسم فاعل مجموع، فعله منَ المزيد (أعرض) فهو مُعرِض، وجذرُه اللّغويُّ من (عَرَضَ)، والإعراضُ هو الصُّدود، وأعرض: أظهر عَرْضه؛ أي: ناحيتَه. "وأعرضَ بوجهه، وعن فلان هو من هذا، كأنّه انحرفَ عنه، وولّاه عُرْضه: جانبه، أو عارِضَه: جانِبَ وجهه لا مقدَّمه"[3]. والإعراضُ: التّولية، فمُعرضون؛ أي: مولّون عَرْضهم؛ أي: نواحيهم[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إعراضُ المشركين عـنِ الـحـقِّ، وصـدودُهـم عـن البـيِّـنـاتِ الواضحةِ

يخبرُ اللّهُ تعالى عن إعراضِ المشركين، وشدَّةِ تكذيبِهم وعداوتِهم، بأنّهم إذا جاءتهم الُحجَجُ الواضحةُ والدّلالاتُ البيّنة على وحدانيّة اللّه - ﷻ - ، الدّالّةُ على الحقِّ دلالةً قاطعةً، وعلى صِدقِ رسولِه محمدٍ ﷺ، الدّاعية لهم إلى اتّباعه، حتّى أعرضوا عن قَبولها، ولم يؤمنوا بها، وانصرفَت قلوبُهم إلى غيرها، فهي لا تَنْفَعُ فيهم ولا تؤثِّر[5]..

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم﴾:

بَـيـانُ كُـفـرِ المُشركينَ بآياتِ اللهِ سُبحانَهُ

الواوُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ استئنافيَّةٌ، والكلامُ بعدَها مستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، يُرادُ به بيانُ كُفرِهم بآيات اللّهِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أي)، والرّاغب، المفردات: (أيّ).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 250، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 128.

سُبحانه وإعراضِهم عنها بالكلّيَّةِ، بعدما بيَّنَ ﷻ في الآيةِ الأولَى إشراكَهُم بِهِ وإعراضَهم عَن آياتِ توحيدِهِ[1].

نكتةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

الإشعارُ بضرْبِ الخِطاب صَفْحًا عـن أعمالـهم النَّشاذِ

انتقلَت هذه الآيةُ منَ الخطاب في خواتيم الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ إلى الغَيبةِ في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ على طريقةِ الالتفات؛ "للإشعارِ بأنَّ ذِكْرَ قبائحِهم قد اقتَضى أن يُضرَبَ عنهُمُ الخطابُ صَفْحًا، وتُعَدَّدَ جناياتُهم لغيرِهم ذمًّا لَهم، وتقبيحًا لحالِهم"[2]، فهو من باب المعاقبةِ بالمثل؛ فمَن قَبُحَ عملُه صحَّ في حقّه الالتفاتُ عنه.

بلاغةُ الاستِعارةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾:

ظُـهـورُ الآيـاتِ الـدَّالَّـةِ على وَحـدانـيَّـةِ اللـهِ تعالى

في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ بلوغُ الآياتِ إلَيهِم بمَجيءِ الجائي، فحُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشَّبهِ به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وذلك مبالغةً في بيانِ ظهورِ هذهِ الآياتِ وقوَّتِها، حتَّى صارَت بمنزِلَةِ المَحسوساتِ[3].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذفِ في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾:

طَـيُّ ما دَلَّـتِ الـقَـرِيـنَـةُ عليه اختصارٌ لِلكلامِ

قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فيه إيجازٌ بالحذفِ، وذلك بِحَذفِ ما يدلُّ على الجانبِ المأتيِّ منه، والتَّقدير: (وما تأتيهم من عِندَ ربِّهم آيةٌ من آياتِهِ إلّا كانوا عنها مُعرضين)، وإنَّما حُذِفَ ذلك؛ لظهورِهِ من قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[4].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن) في قوله: ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وردَ فيه حرفا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.

(مِن) للجنس في الموضعين، وأفادتِ الأولى التّوكيدَ، والثّانيةُ التّبعيضَ

جرٍّ هما: ﴿مِّنۡ﴾ الثّانية، وتفيد الجنسَ، أمّا الأولى فعلى تقدير: (وما تأتيهم آيةٌ)، وكثيرٌ منَ النّحويّين والمُعرِبين يجعلُها زائدةً[1]، ولفظ ﴿ءَايَةٖ﴾ مرفوعةٌ على الفاعليّة، وزيادة ﴿مِّنۡ﴾ الأولى نظرًا إلى جانب الصّناعة النّحويّة، وفائدتُها التّوكيدُ الموصلُ إلى زيادةِ التّشنيع على المُخاطَبين المُعرِضين عنِ الآيات، وتفيدُ استغراقَ الجنسِ، فضلاً عنِ التّوكيد؛ فإنَّ بينهما علاقةً ووصلًا"، كقولك: ما أتاني مِن أحد، والثّانية وهي قوله: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ للتّبعيض، والمعنى: وما يظهرُ لهم دليلٌ قطُّ منَ الأدلّة الّتي يجبُ فيها النَّظرُ والاعتبارُ، إلّا كانوا عنه مُعرِضين"[2].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾ وبَراعَةُ الاحتِباكِ:

شِدَّةُ الإعراضِ، وقُوَّةُ الإنكارِ، مَعَ تَجَدُّدِ وُرودِ الآياتِ

الفعلُ المضارعُ ﴿تَأۡتِيهِم﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ معناهُ المُضيُّ، لقولِه تعالى: ﴿كَانُواْ﴾، ونُكتَةُ استعمالِ المُضارِعِ الدِّلالَةُ على تجدُّدِ وُرودِ الآياتِ عليهم[3]، وهذا أدخَلُ في بيانِ شدَّةِ إعراضِهم وقوَّةِ إنكارِهم.

ويَحتَمِلُ أن يكونَ الفِعلُ باقيًا على دلالَتِه على الحالِ، ويكون قولُهُ: ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا بمعنَى المضارعِ لقولِه قبلُ: ﴿تَأۡتِيهِم﴾ دالًّا على ذَلِكَ[4].

وبالجَمعِ بينَ هذه المعاني يتحصَّلُ في الآية احتباكٌ، وهو المُسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذفَ المقابَليَّ، والتَّقدير: وما أتَتهُمْ أو تَأتيهم مِن آيةٍ مِن آياتِ ربِّهم إلّا كانوا ويكونونَ عنها مُعرضينَ، فحُذِفَ مِن أوَّلِ الكلامِ (أتَتهُم) ما دلَّ عليهِ آخرُهُ ﴿كَانُواْ﴾، وحُذِفَ مِن آخرِهِ (يكونونَ) ما دلَّ عليه أوَّلُه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾.

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/480، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/98.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.

نُكتَةُ إضافَةِ الآياتِ في: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾:

تهويلُ الجَراءَةِ على آياتِ اللهِ تعالى

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الاسمِ الأحسن (الرَّبِّ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تعظيمًا لَها وتفخيمًا لشَأنِها، وذلك يَستَتبِعُ تهويلَ ما اجترَؤوا عليه من تكذيبِها والإعراضِ عنها[1].

سِرُّ إضافَةِ اسمِ اللهِ (الرَّبِّ) إلى الضَّميرِ (هُمْ):

جُحودُ إحسانِ اللهِ تعالى، ومُقابَلَتُه بالعُقوقِ والإعراضِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أُضيفَ فيه الاسمُ الأحسَنُ (الرَّبُّ) إلى الضَّميرِ (هُمْ) العائِدِ إلى المُشرِكينَ؛ للإيماءِ إلى أنَّه سُبحانَهُ أحسنَ إليهم بنصبِ الأدلَّةِ الدّالَّة على توحيدِهِ، وأرسلَ إليهم رسولًا، ورزقَهُم عقولًا يمكنُهُم الفِقهُ بها، ثُمَّ كان مآلُهُم أن أعرضوا، فالإضافَةُ وارِدَةٌ لقصدِ التَّسجيلِ عليهم بالعقوقِ لحقِّ الألوهيَّةِ[2].

بلاغَةُ القَصْرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم ... إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾:

الإعراضُ عَنِ الحَقِّ عادَةٌ لَهُم لاينفكُّون عَنها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، وطريقُهُ النَّفيُ والاستِثناءُ، وقد دلَّ القصرُ على إثباتِ أنَّ الإعراضَ عَنِ الحقِّ عادَةٌ لهم لا يتخلَّونَ عنها[3]، حتَّى كأنْ لَيسَ لَهُم صفةٌ إلّا ذلكَ.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المسنَدِ:

المبالغةُ في التَّشنيعِ، من بابِ القَصْرِ الادِّعائيِّ، ومراعاةِ الفاصلة

في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾ على المُسنَدِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاص، فكأنّه يريدُ القولَ: إنّهم مِن بعد ما جاءَتهم الآياتُ من ربّهم لهم جعلَ الإعراضَ عن هذه الآياتِ وحدَها دون سواها؛ لأنّ الاستثناءَ "دلَّ على أنهم لم يكنْ لهم حالٌ إلّا الإعراض"[4]، وهو من بابِ القصْرِ الادّعائيِّ؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/20، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.

للمبالغة في التَّشنيع على هؤلاء المُعرضين؛ لأنَّ الإعراضَ عنِ الآياتِ يستحيلُ أن يكونَ مقصورًا عليها؛ فالمبالغةُ في القَصْر جاءَت اهتمامًا لهذا الأمر، ولذلك رأى العلماءُ أن يكونَ الوقفُ على ﴿مُعۡرِضِينَ﴾[1]، وهناك سببٌ آخر لهذا التّقديم، وهو مراعاةُ الفاصلة[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

قَصدُهم إلى العِنادِ؛ لِئَلَّا تَلزَمَهُم حُجَّةٌ في زَعمِهِم

في التَّعبيرِ بفعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الإعراضَ صِفَتُهم على سبيلِ الدَّوامِ والاستِمرارِ؛ قصدًا مِنهُم إلى العِنادِ؛ لئلّا تَلزَمَهُم في زَعمِهِم حجَّةٌ[3].

وجهُ التَّعبيرِ بالإعراضِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

صرفُ الوجهِ عنِ الآياتِ المُبصَرَةِ، إعراضٌ عن آياتِهِ المقرَّرةِ

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾: التّعبير بـ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ هنا يشملُ أن يكونَ من بابِ الحقيقةِ "فيشملُ المعنى الحقيقيَّ بالنّسبة إلى الآياتِ المُبصَراتِ كانشقاقِ القمر، ويشملُ تركَ الاستماعِ للقرآن"[4]، ومن بابِ المجازِ؛ لأنّ حقيقتَه الإظهارُ والبروزُ فحقيقتُه جسميّةٌ، قال أبو حيّان: "والإعراضُ ضدّ الإقبال، وهو مجازٌ؛ إذ حقيقته في الأجسام"[5]، وقال الآلوسيّ: "وأصلُ الإعراض صرفُ الوجهِ عن شيءٍ منَ المحسوسات، واستعمالُه في عدم الاعتناءِ، أو ترك النّظرِ مجازٌ"[6].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ في قولِه: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾:

الدّلالةُ على ثبوتِ المشركين وإصرارِهم على الكفر المُهين

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾: عبّر عن إعراضهم هنا بالصّيغةِ الاسميّةِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، "وإيثاره على أن يُقال: إلّا أعرضوا عنها، كما وقعَ مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ

(1) السّخاويّ، جمال القرّاء، ص: 699.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/169.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/20، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/135.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/92.

﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [القمر: 2]؛ للدَّلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات"[1]؛ فدلالةُ الصّيغةِ الاسميّةِ على الثّبوتِ والاستمرارِ خلاف الصّيغةِ الفعليّةِ الدّالّةِ على التّجدّدِ والحدوث.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/169.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾ [الأنعام: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين صدودهم عن البيّنات، واستهزائهم وتكذيبهم بالآيات

لمّا بيَّنَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ جزءًا من صفاتِ الكافرين، ومنها الإعراضُ الدّائمُ عنِ الآياتِ البيّناتِ، ذكرَ هنا أنَّ ذلك التّباعدَ كان سببًا في تكذيبهم بالحقّ والقرآن، وما جاءَ به الرّسول ﷺ: "فبسبب ذلك الإعراض العامّ عنِ النّظر في الآيات كذّبوا بالحقِّ الّذي جاءهم، حين جاءهم، ولم يتريّثوا، ولم يتأمّلوا؛ لأنّهم سدّوا على أنفسهم مسالكَ العلم"(1)، وانتهى بهم الأمرُ إلى سمةِ المُستهزِئين؛ ليصلوا بذلك إلى الرّتبة الثّالثةِ بعد رتبةِ الإعراضِ في الآية السّابقة، ورتبةِ التّكذيبِ في الآيةِ اللّاحقةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل ماضٍ، جذرُه اللّغويُّ (كَذَبَ)، ومصدرُهُ التّكذيب، والكَذِبُ عمومًا ضدُّ الصّدق، و"المعنى المحوريّ نقصُ الحِدّة، والشّدّةُ الجاريةُ في الشّيء... ومنه: الكذبُ منَ القول؛ لأنّه نقصٌ، بل فَقْدٌ للمتوقَّع منَ الكلام، بل لما وُجِد من أجله، وهو التّعبيرُ عن حقيقةِ ما في النّفس"(2).

وجمعَ الرّاغبُ بين الصّدقِ والكذبِ، وقال: إنّ "أصلَهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلاً، وعدًا كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلّا في القول، ولا يكونان في القول إلّا في الخبر، دون غيره من أصنافِ الكلامِ"(3).

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/74.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كذب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدق).

2) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، جذرُه اللّغويُّ (حقق)، وعموم معناه أنّه نقيضُ الباطلِ، وله دلالةٌ على إحكام الشّيءِ وصحّتِه، وإذا حقَّ الشّيءُ فقد وجب، و"الحقُّ في الأصل: الثّبوتُ، والشّيءُ الثّابتُ، يُقال: حقَّ الأمرُ يَحِقُّ حَقًّا، فهو حقٌّ؛ أي: ثَبَتَ واستقرَّ"[1]. والحقُّ في الآية: القرآنُ والدّينُ، أو النّبيُّ ﷺ، وما أنزلَ اللّه لعباده عن طريق أنبيائِه ورسلِه، ويُفسَّرُ أيضًا "بالصّحيح الصّواب؛ أي: ضدّ الباطل الزّائف[2]، إذا جاء في سياقاتِ الدّين، وإنزالِ القرآن.

3) ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ﴾: جمعٌ مُكسَّرٌ، مفرده (نَبَأٌ)، وهو بمعنى الإخبار، أصلُه من (نَبَأَ)، ومعناه في الأصلِ المجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، والعلاقةُ مع الخبرِ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ، والمنبِئُ: المُخْبِرُ، وهو عند الرّاغب "خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحْصُلُ به علمٌ، أو غَلَبَةُ ظنٍّ"[3].

ومعنى الأنباء في الآية "جمعُ نَبَأٍ، وهو الخبرُ الّذي له أهميّة، وأُطلِقَ النّبأُ هنا على تحقيقِ مضمونِ الخبرِ"[4].

4) ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مُسنَدٌ إلى الجماعة، والجذرُ اللّغويُّ منه (هزء)، ومعناه يدلُّ على السّخرية، وفسّره الرّاغب بأنّه المزحُ في الخفاء، أو ما يشبهُ المزحَ[5].

وأصلُ الاستهزاء "استخفافُ المُستهزئِ بالمُستهزَأ به، وذهابُ قيمتِه عنده... وكلُّ ما وردَ في القرآن منَ التَّركيب فهو بمعنى الاستهزاء: السّخرية، مع استخفافِ قدرِ المُستهزَأ به"[6]، والمعنى في الآية "أنّ مَن كذّبَ بشيءٍ؛ فقد استهزأَ به، واستخفَّ به"[7].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين، عمدة الحفّاظ: (حقّ).
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/115، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حق).
(3) لخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.
(5) الخليل، العين: (هزء)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ)، والرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كان).
(7) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/5279.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

إعلانُ الحربِ على المُستهزِئين بآياتِ اللهِ، جزاءَ صدودِهم ونكرانِهم للحقِّ

كان ينبغي على هؤلاء المكذِّبين أن يتَّبعوا الحقَّ الّذي جاءهم من ربِّهم، وتواترتِ الأدلَّةُ على صدقه؛ جَهْلًا منهم بالله، واغترارًا بإمهاله إيّاهم، لكنَّهم كذَّبوا به، فالوعيد لهم بقرب عذابِهم وعقابِهم على جرائمِهم العظيمةِ، فإنّه سيأتيهم العذابُ؛ جرّاءَ ما ارتكبوا، وقريبًا يكابدون وبالَ أمرِهم، ويذوقون عاقبةَ جحدِهم، وسوءَ استهزائِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾:

نتاجُ الإعراضِ عنِ آياتِ اللهِ، التَّكذيبُ بالحقِّ وهداهُ

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾، ابتدأ الآيةَ بالفاء الفصيحة الَّتي تفصحُ عمّا قبلَها، وهي نتيجةٌ لما قبلها؛ وهي الّتي تُفصِحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المُخاطَب منَ السّياق، وجمهورُ البيانيّين يشترطون تضمينَ المُقدَّر شرطًا، وهو ليس بلازم؛ فإنّهم لمّا أعرضوا عن آياتِ ربِّهم الّتي كانت تأتيهم استحقّوا التّكذيبَ بالحقِّ الّذي وُصِفوا به، قال الزّمخشريّ: "﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ مردود على كلامٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: إن كانوا مُعرِضين عنِ الآيات، فقد كذّبوا بما هو أعظم آية وأكبرها"[(1)]، فالفاءُ "رابطةٌ، أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مُقدَّرٍ؛ لأنّها واقعةٌ في جوابٍ لكلامٍ مُتقدِّمٍ محذوفٍ"[(2)].

دلالَةُ (قَد) على التَّحقيقِ في: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾:

(قَد) في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ مُؤَكِّدَةٌ للخَبَرِ، مُشعِرَةٌ بقوَّةِ تكذيبِهم وتحقُّقِه، وأنَّه ليسَ تكذيبًا عارِضًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321 - 322.
(2) عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 3/178.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ الماضِي ﴿كَذَّبُواْ﴾:

تَرتيبُ التَّهديدِ على التَّكذيبِ بالحَقِّ المبين

عُبِّر بالفِعلِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَحقُّقِ التَّكذيب بالحقِّ فيهم؛ ليكونَ مُلائِمًا للتَّهديدِ الوارِدِ بَعدُ في قولِه ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

دِلالَةُ (أل) مِن قَولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

مَن كَذَّبَ بِشَيءٍ مِنَ الحَقِّ المُنَزَّلِ؛ كانَ بِمَنزِلَةِ مَن كَذَّبَ بجميعه

اللَّامُ في (الحَقِّ) مِن قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ للاستِغراقِ، والمَعنَى: أنَّهم كذَّبُوا بالحقِّ كُلِّه، ووجهُ ذلك: أنَّ مَن كذَّبَ بشيءٍ كان بمنزِلَةِ مَن كذَّبَ بالجميعِ؛ إذِ الجميعُ مِن عِندِ اللّهِ تعالى[1].

ويجوزُ أن يُرادَ بالحقِّ خصوصُ القرآنِ الكريمِ؛ وذلك أنَّهم قد كذَّبوا بِهِ حينَ أعرضوا عنه آيةً آيَةً، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وما تَأتيهم مِن آيَةٍ مِن آياتِ رَبِّهم إلّا كانوا عَنها مُعرِضينَ، فقَد كَذَّبوا بها)؛ فأظهَرَ في مقامِ الإضمارِ؛ إظهارًا لكمالِ فظاعَةِ ما فعَلوهُ بِهِ مِنَ التَّكذيبِ[2].

التَّرقِّي، وتصعيدُ المعاني:

اختلافُ أحوالِ الكفَّارِ، حسبَ مراتبِ التَّكذيبِ والإنكارِ

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ مع ما قبلَه مِن قوله تعالى: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ مُترتِّبٌ منَ الأقلّ إلى الأكثر؛ فقد رتّبَ الحقُّ ﷻ: "أحوالَ هؤلاء الكفّارِ على ثلاثِ مراتبَ، فالمرتبةُ الأولى: كونهم مُعرِضين عنِ التّأمّلِ في الدّلائلِ، والتّفكُّرِ في البيّناتِ، والمرتبةُ الثّانيةُ: كونهم مُكذِّبين بها، وهذه المرتبةُ أزيدُ ممّا قبلها... والمرتبةُ الثّالثةُ: كونهم مُستهزئين بها؛ لأنّ المُكذِّبَ بالشّيء قد لا يبلغُ تكذيبُه به إلى حدِّ الاستهزاءِ، فإذا بلغَ إلى هذا الحدِّ فقد بلغَ الغايةَ القصوى"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/21.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/88.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.

نُكتَةُ تَعلِيقِ التَّكذِيبِ على مُطلَقِ مَجيءِ الحَقِّ:

شِدَّةُ تَعَنُّتِهِم في رَدِّ الحَقِّ، بلغَ غايتَه ومنتهاهُ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ عُلِّقَ تَكذيبُ المُشركينَ على مُطلَقِ مَجيءِ الحَقِّ إليهِم في الآية الكريمة؛ إظهارًا لكمالِ عنادِهِم وشدَّةِ تعنُّتِهِم؛ حيث سارَعوا إلى التَّكذيبِ بمجرَّدِ مجيءِ الحقِّ مِن غيرِ تأنٍّ مِنهم ولا تأمُّلٍ لهذا الحقِّ الّذي جاءَهُم[1].

وجهُ دخولِ حرفِ التَّسويفِ ﴿فَسَوۡفَ﴾ في الجزاء:

تأكيدُ حصولِ النَّكالِ عليهم في المستقبل يقينًا

عبَّر اللّهُ تعالى عمّا سينالُ هؤلاء المُستهزئين منَ النَّكالِ والعذابِ في العاجلة والآجلة بقوله سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ﴾، ودخولُ حرفِ التّسويفِ هنا يفيدُ تأكيدَ حصولِ ذلك عليهم في المستقبل[2]؛ جزاءً لما صنعوه واقترفوه.

دلالةُ استعمالِ الاستعارةِ في الفعلِ ﴿يَأۡتِيهِمۡ﴾:

إلـقـاءُ تـحـقُّـقِ الموعود في رُوعِ المُستهزِئين

آثر القرآنُ استعمالَ فعلِ الإتيانِ في سياقِ الآية؛ للإشعار بأنّ الواقعَ على هؤلاء المُستهزِئين في الإصابةِ والحصولِ على سبيلِ الاستعارةِ؛ تفنّنًا في الإلقاء في روعِهم تحقُّق ما توعَّدهم تعالى به.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ﴾ في مقامِ الوعيد:

الزِّيادةُ في تهويلِ مَا سيقعُ بهم مـنَ الـعـذاب، إنذارٌ بسوءِ المآبِ

الزِّيادةُ في تهويلِ مَا سيقعُ بهم مـنَ الـعـذاب، إنذارٌ بسوءِ المآبِ

الأنباء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، جمع تكسير بمعنى: الأخبار، وهذا ليس مرادًا في الآية، بل "المرادُ منه الوعيد والزّجر عن ذلك الاستهزاء، فيجب أن يكونَ المرادُ بالأنباء لا نفس الأنباء، بل العذاب الّذي أنبأ اللّهُ تعالى به"[3]، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88]. فأنباؤه ما سيحيق بهم منَ العقوباتِ العاجلةِ والآجلة، عبَّر عنها بذاك؛ إمّا لكونها ممّا نبَّأ بها القرآنُ الكريمُ، وإمّا لأنَّهم بمشاهدتها يقفون على

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/142.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.

حقيقةِ حالِ القرآن، كما يقفون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ، وفيه تهويلٌ له؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلّا على خبرٍ خطيرٍ، له وقعٌ عظيمٌ؛ أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصْداق ما كانوا يستهزئون به قبلُ من غير أن يتدبّروا في أحواله، ويقفوا عليها.

وقد يظهر سرُّ إيثارِ لفظِ (أنباء) مرادًا به العذاب، وهو أنَّ ما سيحلُّ بهم من جرّاء سماعِهم أخبارًا مؤكَّدة، لا تحتمل كذبًا، لهو أشدُّ وقعًا على أنفسهم منَ العذاب؛ لأنَّ ترقُّبَ البلاء وانتظارَه أشدُّ عذابًا من وقوعه.

دلالَةُ (مَا) في قَولِه: ﴿أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ﴾:

تَعظيمُ شَأنِ الحَقِّ المُنَزَّلِ، وتَهوِيلُ مُخالَفَتِهِ

(ما) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهو عبارةٌ عنِ الحقِّ المذكور في قولِه تعالى قبلُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾، وعُبِّر عَنِ الحقِّ بالاسم الموصول؛ لِما في الموصولِ منَ الإبهام الصّالِحِ لإرادَةِ التَّهويل، وفيه أيضًا تعليلٌ للحُكم بما في حيِّزِ الصِّلَةِ[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

دَوامُ المُشرِكِينَ على الاستِهزاءِ، صَيَّرَهُ طَبعًا لَهُم وَجِبِلَّةً

التَّعبير بِفِعلِ الكَونِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ استهزاءَهُم بالآياتِ كانَ صفةً لَهُم على جهةِ الدَّوامِ والاستِمرارِ، حتَّى صارَ ذلك طَبعًا لهُم وجِبِلَّةً[2].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

اخـتـصـاصُ اسـتـهـزائِهـم بالحقِّ، كأنَّهم لم يستهزئوا إلَّا به

تقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، "فيه اختصاصٌ نسبيٌّ؛ أي: لا يستهزئون إلّا بالحقّ، وقلوبُهم مُعرِضةٌ، ونفوسُهم مصروفةٌ عنِ الحقّ إلى الباطل"[3]، فكأنّهم لم يستهزئوا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/89.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/21.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/5338.

إلّا بما جاءهم، وقد خصّصوا اهتمامَهم له، مع ما لهذا التَّقديم من زيادةِ ترهيبٍ وتخويفٍ، وبيان الفرقِ الهائلِ بينَ ما تصوّروه منَ العذابِ المتوعّدِ به، وما يأتيهم منَ العذابِ العظيمِ.

دلالَةُ الخَبَرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ﴾:

التَّهديدُ والزَّجرُ عَنِ الاستِهزاءِ بالحَقِّ، ضرورةٌ لردعِ المكذِّبين

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ خبَرٌ، لا يُرادُ بِهِ مُجرَّدُ الإعلامِ، بل يُرادُ بِه التَّهديدُ والوعيدُ والزَّجرُ عنِ الاستهزاءِ بالحقِّ[1]، فكانَ هذا مَجازًا مُرسَلًا مُركَّبًا، وفي التَّعبير عن هذا التَّهديدِ بالخَبَرِ إشعارٌ بتحقُّقِهِ فيمَن تجرَّأَ على الحقِّ بالاستهزاءِ.

نُكتَةُ تَعليقِ الوَعيدِ بالاستِهزاءِ:

الاستِهزاءُ هُوَ الغايَةُ القُصوَى في رَدِّ الحَقِّ وإنكارِه

عُلِّقَ الوعيدُ والتَّهديدُ بالاستهزاء في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وكان مُقتضَى الظّاهرِ تعليقُهُ بالتَّكذيبِ؛ لتقدُّمِ التَّصريح به في صدرِ الآيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾، ونُكتَةُ هذا العدولِ أنَّ الاستِهزاءَ مُتضمِّنٌ للإعراضِ والتَّكذيب، فالاستهزاءُ هوَ الغايَةُ القُصوَى في ردِّ الحقِّ وإنكارِهِ[2].

العدولُ عنِ الاسمِ والفعلِ الماضي إلى الفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

الإعلامُ بمقارنة الإعراضِ والتَّكذيبِ للاستهزاء

في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ذكرَ استهزاءَهم بالعذاب بصيغة المضارع، وعَدَلَ عمّا يقتضيه سائر ما سلفَ منَ الإعراض، بصيغة اسم الفاعلِ في قوله: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، والفعل الماضي في قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ والتّكذيب؛ للإيذان بأنَّهما كانا مُقارنين للاستهزاء، كما أُشير إليه حسبما وقعَ في الآية الكريمة[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/484.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/437.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/234.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في تقييد التَّكذيبِ بالحقِّ، والتَّعبيرِ بـ(سوف) في الأنعام، و(السّين) في الشُّعراء:

الأنعامُ مُتقدِّمةٌ على الشُّعراء، فلمَّا أعادَها؛ اختصرَ، وجاءَ بحرف التَّنفيسِ الأقصرِ

قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشّعراء: 6]، في الآية الأولى جاءَ بحرف التّنفيس الأطولِ (سوف)، وفي الآية الثّانية جاءَ بحرف التّنفيس الأقصرِ (السّين)؛ لأنّه في "الآية الثّانية اعتمدَ على الاختصار لما سبقَ في الأولى منَ البيان، واقتصر على قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾، فصار قولُه تعالى في الشّعراء مِن هذا القبيل، بعدَ البيانِ الّذي سبقَ في سورة الأنعام"[1].

وذكرَ ابنُ الزّبير الغرناطيّ أنّ آيةَ الأنعام مبنيّةٌ على الإطنابِ والبسطِ، مِن حمدِه سبحانه، وخلقِه السّماوات والأرض، والنّور والظّلمات وغير ذلك[2]؛ ممّا يناسب حرفَ التّنفيسِ الأطول (سوف)، وممّا يناسبُ تقييدَ التّكذيبِ هنا، وإطلاقَه هناك.

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/479، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 104.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/140.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستشهاد لِبَيان المقصود بالموعود مِنَ الأنباء

جاءَت هذه الآية استئنافًا مَسوقًا "لِتَعْيين ما هو المراد بالأنباء الّتي سبقَ بها الوعيد، وتقرير إتيانها بطريق الاستشهادِ"[1]؛ لترويَ لهم الأنباءَ المُشار إليها في الآيةِ السّابقةِ من إهلاكِ مَن تقدَّمَهم، ممّن هم أشدُّ قوّةً وشكيمةً منهم، وممّن أنعمَ اللّهُ عليهم بأسبابِ الخيراتِ، ثمّ طَغَوْا؛ فأهلكهم اللّهُ، وأنشأَ بعدَ هلاكِهم قومًا آخرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ، الجذرُ اللّغويُّ منه (هلك)، ومعنى الهلاكِ: السّقوطُ والموتُ، والأصلُ في معناه "يدلُّ على كسرٍ وسقوطٍ، منه الهلاك: السّقوط؛ ولذلك يُقال للميّت: هلك"، وجعله الرّاغب على ثلاثةِ أنحاءَ: الأوّل: "افتقادُ الشّيءِ عنك، وهو عندَ غيرك موجودٌ... وهلاكُ الشّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ... والثّالث: الموت"[2]. ومعنى الإهلاك في الآية هو: الاستئصالُ، والمحوُ، والموتُ.

2) ﴿قَرْنٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (قرن)، ومعنى القرنِ: الأُمَّةُ والمدّةُ، والأصلُ في معناه اجتماعُ الشّيءِ إلى مثله، ومنه الأُمَّةُ مِنَ النّاس؛ لأنّهم مُجتمعون في وقتٍ واحدٍ، وهو "الأُمَّةُ تأتي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/170 - 171.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (هلك).

بعدَ الأمّة، جيل ينشأُ بعدَ جيل، كأنّها دفعةٌ منَ النّاس خارجةٌ أو ناشئةٌ بعدَ دفعة... ثمّ يُطلَقُ القرنُ على زمانِ الجيلِ منَ النّاس"[1]، "واختلفَ النّاسُ في مدّة القرن كم هي؟ فالأكثر على أنّها مئةُ سنةٍ"[2].

وذهبَ بعضُهم إلى تحديدِ القرنِ بالحالةِ الاجتماعيّةِ الّتي يكونُ عليها القومُ، بحيثُ إنَّه عبارةٌ عن أهلِ عصرٍ فيهم نبيٌّ، أو فائقٌ في العلم، أو مَلِكٌ منَ الملوك، وهذا أقربُ إلى استعمالِ القرآنِ، فالظّاهرُ أنَّ قومَ نوحٍ قرنٌ، وإنِ امتدَّ زمنه فيهم زُهاء ألفِ سنةٍ، وقومَ عاد قرنٌ، وقومَ صالح قرنٌ، ويُطلَقُ القرنُ على الزّمان نفسه[3].

3) ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: فعل ماضٍ مزيد من (مَكَّنَ يُمَكِّنُ تَمْكينًا)، وجذرُه اللغويُّ من (مَكَّنَ)، وهو من المكانة، "والمُكْنَةُ: التّمكن، تقول العربُ: إنّ بني فلان لذو مُكْنَةٍ منَ السُّلطان؛ أي: ذو تمكُّن". والمكانُ هو الموضعُ الّذي يحوي مَن فيه كالأشياء ونحوها، والمتمكّنُ هو ذو القدْرِ والمنزلةِ العالية، ومن معانيه أيضًا "رسوخُ الشّيءِ مُتجمِّعًا... التّمكّنُ: رسوخٌ في باطن، مكَّنَه منَ الشّيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطانًا... التّمكينُ منَ الشّيء: (إنالة) ما يصحّ به الفعلُ منَ الآلاتِ والقوى"[4].

ومعنى مكّناهم في الآية: "أعطيناهم ما لم نعطكم، يُقال: مكّنتُه ومكّنتُ له: إذا أقدرتَه على الشّيء بإعطاءِ ما يصحُّ به الفعلُ منَ العدّة"[5].

4) ﴿مِّدْرَارًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ على زنة مِفعال، منَ الفعلِ المُضعّفِ (درّ)، والجذر اللّغويّ منه (درر)، والدَّرُّ يُستعملُ في اللَّبن حقيقةً، ويُستعملُ مع المطر مجازًا، ومنه درّتِ السّماءُ إذا كان مطرُها غزيرًا، والأصلُ في معنى "الدّال والرّاء في المضاعف يدلُّ على أصلين: أحدهما تولُّدُ شيءٍ عن شيء، والثّاني اضطرابٌ في شيء"، وكلا الأصلين علاقتُه واضحةٌ مع معنى الكلمة[6]، والتّعبيرُ عنِ المطرِ في الآية بالمِدرار بمعنى "المِغزار،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرن).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/268.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/255.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/10.
(6) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (در).

ومِفعال من أسماء المبالغة، يُقال: ديمةٌ مِدرارٌ، إذا كان مطرُها غزيرًا"[1].

5) ﴿وَأَنشَأۡنَا﴾: فعل ماض مزيد بالهمزة الدّالّة على التّعدية، الجذرُ اللّغويُّ منه (نشأ)، والإنْشاءُ: البدء، ومنه "أَنْشَأَ فلانٌ حديثًا؛ أي: ابتدأ حديثًا ورفعه"، والأصلُ في معناه الارتفاعُ، ومنه: أنشأَه اللّه، بمعنى: رفعه، وهو أيضًا إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه وإيجادُه[2].

و" الإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْق، وكلُّ مَن ابتدأ خلقَ شيءٍ، واخترعَه، فقد أنشأَه، ومنه: أنشأَ الشّاعرُ القصيدةَ، وأنشأَ فلانٌ يفعل كذا؛ أي: ابتدأ في فعله، والإنشاءُ الاختراعيُّ غير المسبوقِ بمثالٍ لا يليقُ إلاّ بالباري تعالى، "والنّشوءُ يشملُ الإيجادَ، والدّخولَ في مرحلة النّمو، والتّكاملَ حتّى الاستواء"[3].

ومعنى ﴿وَأَنشَأۡنَا﴾ في الآية: الإيجادُ المُبتَكَرُ، وليس المرادُ بالإنشاء الولادةَ والخلقَ؛ لأنّ ذلك أمرٌ مستمرٌّ في البشر لا ينتهي، وليس فيه عِظةٌ ولا تهديدٌ للجبابرة المشركين"[4].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

سُنَّةُ اللهِ في إهلاكِ الأممِ الظَّالمةِ، في كلِّ الصِّراعاتِ القائمةِ

أرشدَ الحقُّ ﷻ في الآيات السّابقةِ إلى دلائل وحْدانيَّتِهِ، ولكنّهم لم يؤمنوا، وكفروا وكذّبوا؛ فتوعّدهم اللّهُ بمجيء الأنباءِ الّتي لا تسرُّهم، فلينظروا إلى الأمم المُكذِّبةِ قبلَهم وما حلَّ بهم من هلاكٍ وتدمير، أَفَلَم يكونوا أكثرَ منهم قوّةً وأشدَّ تمكينًا في الأرض، وأكثرَ نصيبًا واحتفالًا بخيرات الدّنيا، وأسباب المعيشةِ؛ إذ أنعمَ اللّهُ عليهم بإنزال الأمطارِ وجريان الأنهارِ من تحت مساكنِهم؛ استدراجًا

(1) الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/564.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.

وإملاءً لهم، لكنّهم مع ذلك جعلوا همَّهم الفوزَ بالطّيّبات، ووطّنوا قلوبَهم على كواذبِ الأمنياتِ، فجاءهم عذابُنا وأُهلكوا، ثمّ أنشأنا بعدهم قَرْنًا آخرين غيرهم، سكنوا مساكنَهم؛ فهذه سنَّتُه تعالى انتقامًا من أعدائه، وإكرامًا لأوليائه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ عمَّا قَبلَهُ:

تعيينُ الأنباءِ المُتَوَعَّدِ بِها، والاستشهادُ على الهلاكِ من بعدِ التَّمكينِ

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللّه سُبحانَهُ لمّا ذكرَ الأَنباءَ المُتوعَّدَ بها؛ أثارَ ذلك في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا وهو: ما الأنباءُ الّتي تُوُعِّدوا بها؟ فجاءَ الجوابُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾؛ لتعيينِها وتقريرِ إتيانِها بطريقِ الاستشهادِ[1].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ:

السِّياقُ يحمل معنى التَّيئيسِ ممَّن لا يتَّعظُ بما حصل للأممِ المُهلَكَةِ

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾: الهمزة هنا للاستفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ، وفيه تيئيسٌ من أن يتّعظ هؤلاء، أو يتفكّروا بما حصلَ من إهلاكِ القرونِ الماضية "الّذين أهلكَتْهم حوادثُ خارقةٌ للعادة، يدلُّ حالُها على أنّها مُسلَّطةٌ عليهم منَ اللّه عقابًا لهم على التَّكذيب"[2].

دلالَةُ (كَمْ) في قَولِه تعالى: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾:

كَثرَةُ المُهلَكِينَ مِنَ الأُمَمِ الكافِرَةِ، عِبرةٌ لمن طغى وتجبَّر

﴿كَمۡ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ خبريَّةٌ، وهيَ الدّالَّةُ على العددِ الكثيرِ المُبهَمِ، وهيَ في الآيةِ مُفيدَةٌ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110، والآلوسّي، روح المعاني: 4/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.

كثرةَ المُخبَرِ عنهم تهويلًا لهذا الخَبَرِ[1]، وفيه تعريضٌ بأنَّ إهلاكَ المُكذِّبينَ المُخاطَبينَ بالآيَةِ أصالَةً أمرٌ يسيرٌ على اللّهِ سُبحانَهُ.

التَّعبيرُ بالهلاكِ؛ لأنَّ الكافرَ قد باعَ الدِّينَ بالدُّنيا

دلالةُ التَّعبيرِ بالهلاكِ، مع أنَّه أمرٌ واقعٌ على الجميع:

ظاهرُ قولِه: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ مع ما تقدّمه من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ يوهِم بأنّ التَّعبيرَ هنا من باب الزَّجرِ والرَّدعِ، وهو غيرُ مرادٍ؛ لأنّه "ليس المقصودُ منه الزَّجرَ بمجرَّد الموتِ والهلاكِ، بل المقصود أنّهم باعوا الدّين بالدُّنيا؛ ففاتهم وبقوا في العذاب الشَّديدِ بسبب الحرمانِ عنِ الدّين، وهذا المعنى غيرُ مُشْتَرَكٍ فيه بين الكافرِ والمؤمنِ"[2]، فكلاهما يقضي عليه الموتُ، إلّا أنّ خسارةَ الكافرِ أعظمُ من خسارة المؤمنِ، ويؤيّدُه أنَّ (كم) في هذا الموضعِ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ جاءَت لإفادة التّعظيم[3].

قُوَّةُ إهلاكِ المُكَذِّبينَ بالآياتِ وشِدَّتُهُ

سِرُّ إسنادِ فِعلِ الإهلاكِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ في: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

أُسنِدَ فِعلُ الإهلاكِ إلى (نا) الدّالَّةِ على العَظَمةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ إشعارًا بشدَّةِ هذا الإهلاكِ وقوَّتِهِ؛ فإنَّ اللّه سُبحانَهُ أهلَكَهُم بعظَمَتِهِ[4]، وما كانَ كذلِكَ فإنَّ إهلاكَهُ يكونُ شديدًا.

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في إفادَةِ دَقائِقِ المَعاني

دلالَةُ ﴿مِن﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾:

﴿مِن﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ أفادَت معنَيَيْنِ:

أحدُهُما: تَوكيدُ المَعنَى وتَقويَتُهُ، وهذا هو المَعنَى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (قَبلُ) و(بَعدُ).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/137.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/168.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/481.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/23.

والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ المرادَ ناسٌ مُعَيَّنونَ لم يستغرِقوا زمنَ القَبلِ، والمرادُ بهم أهلُ التَّمكينِ الزّائدِ، كقومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ[1].

وجهُ الإيجاز في قوله: ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾:

الحذفُ على تقديرِ: أهلِ قرنٍ

قوله: ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾، القرنُ هو المدّةُ منَ الزّمانِ في أحد معانيه[2]، ولمّا كان الهلاكُ مختصًّا بالأناسيّ والبشر؛ فإنّ قولَه: ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾ هو على تقديرٍ من أهلِ قرنٍ على حذفِ مُضافٍ؛ للإيجاز.

عِلَّةُ فَصلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قَبلَهُ:

بَيانُ كَيفيَّةِ هَلاكِ المُكَذِّبِينَ وَتَفصِيلُ دواعيه

فُصِلَ قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فَبَينَ الجُملتَينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أَورَثَ في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهو: ما كانَ مِن حالِ هؤلاءِ؟ فجاءَ الجَوابُ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ لبيانِ كيّفيَّةِ إهلاكِهِم وتفصيلِ مبادئِه[3].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ:

التَّعريضُ بالمُخاطَبين، من كونهم أقلَّ تمكينًا ممَّن سبقَهم

قولُه تعالى: ﴿مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾، ﴿لَّكُمۡ﴾ تعبيرٌ فيه التفاتٌ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ لأنّ ما قبلَه هو قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي تعبيراتٌ دالّةٌ على الغَيبةِ من ﴿يَرَوۡاْ﴾ و﴿قَبۡلِهِم﴾ و﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾، ثمّ انتقل إلى الخطابِ ﴿نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾، "ولكم خطابٌ لهم فهو التفاتٌ... وفي هذا الالتفاتِ تعريضٌ بقلّةِ تمكينِ هؤلاء، ونقصِهم عن أحوالِ مَن سبق، ومع تمكين أولئك في الأرض؛ فقد حلّ بهم الهلاكُ، فكيف لا يحلُّ بكم على قلّتِكم، وضيقِ خطّتِكم؟!"[4]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/22.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/128.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/439، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/438.

وهذا التفاتٌ موجَّهٌ إلى الّذين كفروا؛ لأنّهم المُمكَّنون في الأرض وقتَ نزول الآيةِ، وليس للمسلمين يومئذٍ تمكينٌ، والمعنى فيه: أنَّ الأممَ الخالية منَ العربِ البائدةِ كانوا أشدَّ قوّةً وأكثرَ جمعًا منَ العرب المُخاطَبين بالقرآن، وأعظَمَ منهم آثارَ حضارةٍ وسطوةٍ.

وحسبُك أنَّ العربَ كانوا يضربون الأمثالَ للأمور العظيمةِ بأنّها عاديَّةٌ أو ثموديَّةٌ أو سَبئيَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الرّوم: 9]؛ أي: عَمر الّذين من قبل أهلِ العصر الأرضَ أكثرَ ممّا عمرها أهلُ العصر[1].

والالتفاتُ لما في مواجهتهم بضعف حالِهم منَ التَّبكيت ما لا يخفى. وقيل: ليتَّضحَ مرجعُ الضّميرين، ولا يشتبهُ من أوَّل الأمر، وهي نكتةٌ في الالتفات لم يُعرِّج عليها أهلُ المعاني، كما ذكر الآلوسيّ[2].

الفرقُ بين (مكَّنه) و(مكَّن له)، وأثرُ ذلك في السِّياق:

مكَّنه: جعله مُتمكِّنًا من التَّصرُّف التّامّ فيه، ومكَّنَ له: هيَّأ له أسباب التَّصرُّف

كان الظّاهرُ أن يُقال: مكّنّاهم في الأرض؛ أي: القرون ما لم نمكّنهم؛ أي: الكفّارُ المحكيُّ عنهم المُستفهَمُ عن حالهم، فعَدَل عن ذلك بالالتفات عنِ الغَيبةِ إلى الخطابِ لما في إيرادِ الفعلين بضميرَي الغَيبة من إيهامِ اتّحادِ مرجعِهما، وكونِ المثبَتِ عينَ المنفيِّ، فقيل: ما لم نمكّنْ لكم، وإنّما لم يقُلْ: (ما لم نمكّنكم) أو (ومكّنّا لهم ما لم نمكّنْ لكم)، وهو مُقتضَى المطابقة لنكتة دقيقةٍ لا يدركُها إلّا مَن عَلِم الفرقَ بين مكَّنَه ومكَّنَ له، "والتَّحقيقُ أنَّ معنى مكّنه في الأرض أو في الشّيء: جعلَه مُتمكّنًا منَ التَّصرُّفِ، تامَّ الاستقلالِ فيه. وأمّا مكَّن له فقد استُعملَ في القرآن مع التّصريح بالمفعول به ومع حذفه، فالأوّل: كقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ [النّور:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/138.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/90.

55]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: 57]، والثّاني: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: 56]، وقوله في ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾ [الكهف: 84]، فلا بدّ في مثلِ هذا من تقديرِ المفعولِ المحذوفِ مع مراعاةِ ما يناسبُ ذلك من نُكَتِ الحذفِ، ككون المفعول في هاتين الآيتين عامًّا يتناولُ كلَّ ما يصلحُ للمقام، كأن يُقال: مكّنّا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميعَ أسبابِ الاستقلالِ في التّصرف.

وجوهُ البلاغةِ في قوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾:

الأممُ السّابقةُ كانت أشدَّ تمكينًا في الأرض، وأكثرَ بطشًا وقوَّةً

في هذه الآية احتباكٌ[1]، وهو منَ الأنواع البديعيّةِ، وهو مُترتِّبٌ على فَهْم ما سبق منَ الفرق بين (مكَّنه) و(مكَّن له) أنَّ في الآية احتباكًا تقديره: (مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكِّنكم)، و(مكّنّا لهم ما لم نمكِّن لكم)، ومعنى الأوّل: أنَّهم كانوا أشدَّ منكم قوّة وتمكّنًا في أرضهم، فلم يكن يوجدُ حولهم مَن يضارعهم في قوّتهم، ويقدرُ على سلب استقلالِهم، ومعنى الثّاني: أنَّنا أعطيناهم من أسبابِ التّمكُّنِ في الأرض، وضروبِ التَّصرُّفِ، وأنواعِ النِّعمِ ما لم نعطكم. فَحُذِفَ مِن كلٍّ منَ المتقابلين ما ما أُثْبِتَ نَظيرُهُ في الآخر، وهذا من أعلى فنون الإيجازِ، الّذي وصل في القرآن إلى أوج الإعجازِ، ويصدقُ كلٌّ منَ التّمكينَين على قوم عادٍ وثمودَ وقوم فرعونَ وغيرهم، كما يُعلَمُ مِن قصص الرُّسلِ في القرآن، ومن التّاريخ العامِّ[2].

ويُكنَّى بالتّمكينِ عنِ الإقدار وإطلاقِ التّصرّفِ؛ لأنَّ صاحبَ المكانِ يتصرّفُ في مكانه وبيته، ثمّ يُطلَقُ على التّثبيتِ والتّقويةِ والاستقلالِ بالأمر، ويُقال: هو مكينٌ بمعنى ممكَّن، فعيلٌ بمعنى مفعول. قال

(1) الاحتباك: وهو نوعٌ عزيزٌ، وهو أن يُحذَفَ منَ الأوّل ما أُثبت نظيُره في الثّاني، ومنَ الثّاني ما أُثبت نظيرُه في الأوّل.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/257.

تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]، فهو كناية أيضًا بمرتبةٍ ثانيةٍ، أو هو مجازٌ مُرسَلٌ مُرتَّبٌ على المعنى الكنائيّ. فمعنى مكَّنه: جعله متمكِّنًا، ومعنى مكَّن له: جعله متمكّنًا لأجله؛ أي: رعيًا له، مثل: حَمِدَه وحَمِدَ له، فلم تزِدْهُ اللّام ومجرورُها إلّا إشارة إلى أنّ الفاعلَ فعلَ ذلك رغبةً في نفعِ المفعول. واستعمالُ التّمكينِ في معنى التّثبيتِ والتّقويةِ كنايةٌ أو مَجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّه يستلزمُ التّقوية، وقد شاعَ هذا الاستعمالُ حتى صار كالصّريح أو كالحقيقة(1).

دِلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على عبادِهِ، إمدادُهُم بأسبابِ التَّمكِينِ في الأَرضِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ لامُ العَهدِ العِلميِّ، والمُرادُ: تمكينُ اللّهِ تعالى لهؤلاءِ في الأَرضِ الّتي في حيِّزِهِم، لا في عموم الأرضِ.

ويجوزُ أَن تكونَ اللّامُ لامَ الجنسِ المُفيدَةَ عمومَ البقاعِ المندرجةِ تحتَ هذا اللَّفظِ، ويكونُ مِن العامِّ الّذي يُرادُ بهِ الخصوص، على طريقةِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقَةِ العموميَّةِ، ونُكتَةُ التَّعبيرِ بالعُمومِ: الإيماءُ إلى أنَّ تمكينَهُم في الأرضِ الّتي في حيِّزِهِم بمنزلَةِ تمكينِهِم في عمومِ الأرضِ؛ لأنَّ ما أوتوهُ من أسبابِ التَّمكينِ في أرضٍ خاصَّةٍ صالِحٌ للتَّمكينِ في أرضٍ أُخرى.

نُكتَةُ إسنَادِ فِعلِ الإرسالِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا﴾:

الإيماءُ إلى رفعة قَدرِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّمَاءِ

أُسنِدَ فِعلُ الإرسالِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ إيماءً إلى رِفعَةِ هذا الإرسالِ وشرَفِه، وجليلِ منزلَةِ المُرسَلِ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قولِه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه المحليّة؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/138.

الإرسالَ لا يكونُ للسّماء؛ "فالآيةُ تريدُ بالسّماء المطرَ، ولهذا فقد ذكرتِ المحلَّ الّذي يأتي منه المطرُ (السّماء)، وأرادتِ المطرَ نفسه؛ فالعلاقةُ إذًا محليّةٌ"[1].

علاقةُ المجازِ المحليَّةُ؛ للدَّلالة على الكثرة

وجهُ صيغةِ المبالغةِ على زنة (مفعال) في قوله: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾:

التَّعبيرُ بالمبالغةِ للإشارة إلى فَيضِ كرمِهِ تعالى على خلقِهِ

لفظ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾، "أي: ذات غيثٍ كثيرٍ، ومِفعال من أسماء المبالغة، يُقال: ديمةٌ مدرارٌ، إذا كان مطرُها غزيرًا دائمًا، وهذا كقولهم: امرأةٌ مذكارٌ، إذا كانت كثيرةَ الولادةِ للذّكور، وكذا مئناث في الإناث"[2]، فالتَّعبيرُ عنِ المطر بالمدرارِ دالٌّ على الكثرةِ والغزارةِ؛ إشارة إلى فيضِ كرمِه تعالى على خلقه، وإنعامِه عليهم، قال الفخرُ الرّازيُّ: "يُقال: سحابٌ مِدرارٌ إذا تتابعَ أمطارُهُ، ومِفعالٌ يجيءُ في نعتٍ يُرادُ المبالغةُ فيه، قالَ مُقاتلٌ: (مِدرارًا) مُتَتابعًا مرّةً بعدَ أُخرى، ويستَوي في المِدرارِ المذكّرُ والمؤنّثُ"[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجَعلِ دُونَ الإجراء:

من مِنَنِ اللهِ على العِبادِ: تَسخيرُهُ الأنهارَ لَهُم، وإدَامَتُهُ جَرَيانَها

عُبِّر بالجَعلِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، دُونَ الإجراءِ، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وأَجرَينا الأنهارَ من تَحتِهم)؛ لِما في التَّعبيرِ بالجَعلِ مِنَ الدِّلالَةِ على كونِها مُسخَّرةً لهُم، دائمةَ الجريانِ على الوَجهِ المذكورِ في الآيةِ ما ليسَ في: (وأَجرَينا الأنهارَ مِن تَحتِهم)[4]، ففيه إبرازُ عظيمِ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَهُ عليهم، ويلزَمُ من هذا شناعَةُ كُفرانِهم وجحودِهم.

دِلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾:

الأنهارُ شريانُ الحياةِ عند الأممِ

اللّامُ في الأَنهارِ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن

(1) ديب، علوم البلاغة، ص: 226.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/229.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.

﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، لِتَعريفِ الجِنسِ، فيكون في قوَّةِ النَّكرةِ، والمَعنَى: وجعلنا أنهارًا تجري مِن تَحتِهم.

ويجوزُ أن تكونَ لِلعَهدِ الحضوريِّ، والمرادُ: الأَنهارُ الّتي يتَمتَّعونَ بِمياهِها شُربًا واغتِسالًا ونظرًا، وغيرَ ذلكَ مِن وجوهِ الانتفاعِ والاستِمتاعِ.

دلالةُ المجازِ العقليِّ في قوله: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي﴾:

الأنهارُ لا تجري إنَّما الَّذي يجري ماؤُها

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقته المكانيّة، وقوله: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي﴾ فيه إسنادٌ إلى المحلّ، أو المكان؛ "فقد أسندَ الجريَ إلى الأنهار، وهي أمكنةٌ للمياه، وليست جاريةً، بل الجاري ماؤها"[1]، والغايةُ توسيعُ النِّعم عليهم، يؤيّده سياقُ الجملة المشتملُ على ضروبٍ منَ التّعبيرات الجَمْعيَّة، كالضّمير (نا) في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وصيغة جمعِ التّكسيرِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾، وضمير الجمعِ (هم) من ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، ومع كلّ ذلك، لكنّهم كَفَروها.

دلالَةُ وَصفِ الأَنهارِ بِجَريِ مائِها:

أحسَنُ المِيَاهِ ما كانَ جاريًا؛ لأنَّه متجدِّدٌ

وَصفُ الأَنهارِ بِجَريِ مائِها في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحسَنَ المياهِ ما كانَ جاريًا؛ لأنَّ ذلك يَقتَضي كونَه جَديدًا كلَّما اغتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منه. وَأَصلُ الجَري: شِدَّةُ سُرعةِ المَشي، وإطلاقُهُ على سَيَلان الماء سَيلًا مُتكرِّرًا مُتَعاقبًا مَجازٌ، وفيهِ مَسلَكانِ: أحدهما: أنَّه مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلانُ الماءِ سَيلًا مُتَكرِّرًا مُتعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجامِعِ سُرعةِ الانتِقال والحركةِ في كلٍّ مِنهُما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ، فأصلُ

(1) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 255.

الجري: شدَّةُ سُرعة المشي، ثُمَّ أُطلِقَ عَن قَيدِ المشي، واستُعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مُطلَقًا. وهو على كِلا الوَجهَينِ أدخَلُ في مَدحِ الماءِ الجاري؛ لاقتِضائه المبالَغةَ في جِدَّتِهِ بشدَّةِ جَريه.

دلالةُ دخولِ ﴿مِن﴾ على الظَّرف ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾:

تفجُّرُ الأنهارِ يكونُ من منابعها السَّخيَّةِ بعنصرِ الحياةِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾: ﴿مِن﴾ حرف جرٍّ، داخلٌ على الظَّرف ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، وهي ابتدائيّةٌ، أو لبيانِ ابتداءِ جريانِ الأنهارِ؛ فيصوّرُ تفجّرَها من منابعها، وهي إذ ذاك أطيبُ طعمًا، وأغنى شربًا؛ لأنَّه لو قال: (تجري تحتهم) لَفُهِم أنّها تنبعُ من مكان بعيدٍ، ثمّ تصلُ إليهم ممّا قد يحصل فيه تغيّرٌ لطعمها مدّةَ جريانها.

بلاغةُ تقديمِ إرسالِ السَّماءِ على جعلِ الأنهارِ تجري:

إرسالُ السَّماءِ سببٌ لجريانِ الأنهارِ، وبه اتِّساعُ الأرزاقِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، ذكرَ جملتين قدّمَ إحداهما على الأخرى؛ فقدَّمَ إرسالَ السّماءِ عليهم مدرارًا على إجراء الأنهارِ من تحتهم، "والمعنى: أنّه تعالى مكّنَهم التّمكينَ البالغَ، ووسّعَ عليهم الرّزقَ؛ فذكرَ سببَه، وهو تتابعُ الأمطارِ على قَدْرِ حاجاتِهم، وإمساكُ الأرضِ ذلك الماء، حتّى صارتِ الأنهارُ تجري من تحتهم؛ فكثُرَ الخصبُ؛ فأَذْنَبوا؛ فأُهلِكوا بذنوبهم"[(1)]، فالجملةُ الأولى سببٌ للثّانية.

دلالةُ عطفِ الإهلاكِ، على جعْلِ الأنهارِ تجري:

الكفرُ والعصيانُ بعدَ الإنعامِ يؤدّي إلى الإهلاكِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، جملةُ الإهلاك معطوفةٌ على ما سبقَ مِن جعلِ الأنهار، وظاهرُ الجملةِ الثّانيةِ أنّه حصلَ الإهلاكُ بعدَ الإنعامِ عليهم بتلك النّعم، فظاهرُه حصولُ الإهلاكِ بعد الإنعام؛ لأنَّ الفاءَ للتّعقيب؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/440.

فيكون ثمّة محذوفٌ تقديره فكفروا، ثمّ عصوا؛ فأهلكهم اللّهُ[1]؛ فيكون كفرُهم وعصيانُهم سببًا لإهلاكهم، وليس الإنعامُ هو السّبب، على طريقة أنِ ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: 60]، أي: فضرب فانفجر.

سِرُّ التَّعبيرِ عَنِ الكُفرِ بالذّنبِ في: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

التَّحذيرُ مِن مُطلَقِ الذُّنوبِ؛ لأنَّها مُهلِكَةٌ

الذُّنوبُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يُرادُ بها الكفرُ وتكذيبُ الرُّسُلِ، كما يَدلُّ على ذلك التَّنظيرُ بحالِ مَن قالَ اللّه فيهم: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، و﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾، و﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، و﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾[2]، والذُّنوب في الأصلِ أعمُّ منَ الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسلِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ العموميَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلكَ: التَّحذيرُ من مُطلَقِ الذُّنوبِ؛ لكونِ الذُّنوبِ يَجُرُّ بعضُها بعضًا، ولأنَّ الإهلاكَ الشَّديدَ كان بسَبَبِ الكُفرِ، وهو ضربٌ منَ الذُّنوبِ، فيُخشَى لِمَن تلبَّسَ بالذُّنوبِ الّتي هيَ دونَ الكُفرِ أن يُصيبَهُ نصيبٌ منَ الإهلاكِ، وإن كانَ دوْنَ الإهلاكِ الشَّديدِ الّذي ينالُ أهلَ الكُفرِ الأكبَرِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإنشاءِ في الآية الكريمة:

التَّعريضُ بهلاك الكافرين، وأنَّ غيرهم سيحلُّون محلَّهم

في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾: الإنشاءُ هنا ليس المرادُ منه الخلقَ والولادة، فإنّ ذلك أمرٌ دائمٌ مستمرٌّ في البشر حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عليها، وليس فيه تهديدٌ أو وعيدٌ لهؤلاء، إنّما المقصودُ "من هذا تعريضٌ بالمشركين بأنّ اللّه مهلكُهم، ومنشئٌ من بعدهم قَرْنَ المسلمين في ديارهم، ففيه نِذارَةٌ بفتحِ مكّةَ وسائرِ بلادِ العربِ على أيدي المسلمين"[3].

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.

دِلالَةُ (مِنْ) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في إفادَةِ دَقائِقِ المَعاني

﴿مِنۢ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أفادَت معنَيَين:

الأوَّلُ: تقويَةُ المَعنَى وتَوكيدُهُ، وهذا المَعنَى هو الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (بَعدُ) و(قَبلُ).

والآخَرُ: أنَّ قولَه: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَم يجعَلْ لأحدٍ الخُلدَ، ولذا أدخلَ الجارَّ فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: فيما كانوا فيه[1].

نُكتَةُ وَصفِ ﴿قَرۡنًا﴾ بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

إفناءُ اللهِ تعالى للقرونِ المُكَذِّبةِ فَناءً تامًّا

وُصِفَ القَرنُ بالآخَرينَ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ للدِّلالَةِ على أنَّ اللّه ﷻ لَم يُبقِ مِنَ المُهلَكينَ أَحَدًا، وأنَّ هذا القَرنَ الثّاني المذكورَ في قولِه: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ لا يَرجِعُ إلى القرنِ الأوَّلِ بِنَسَبٍ[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ في سرِّ دخولِ الواوِ بعدَ الاستفهامِ، في مواضعَ، وخلوِّه منها هنا:

دخولُ الواوِ مُؤذِنٌ بالتَّبكيت والتَّقريعِ لغفلتِهِم

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾، ذكرَ في هذا الموضعِ ﴿أَلَمۡ﴾ الهمزةَ وحرفَ الجزم، وذكرَ معها الواو (أولم) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشّعراء: 7]، فَيُسْأَلُ عنِ الفرقِ بين الموضعين؟ والجواب عن ذلك: أنَّ كلَّ "موضعٍ فيه بعد ألفِ الإنكارِ واو؛ ففيه تبكيتٌ على ما يسهّل الطّريقَ إلى ما بعد الواو، فالاعتبارُ به لكثرةِ أمثاله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشّعراء: 7]، كأنّ قائلاً قال: كذّبوا الرّسولَ، وغفلوا عنِ الفكرِ والتّدبّرِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.

فقد فعلوا ذلك، ولم ينظروا إلى المشاهداتِ الّتي تنبّهُ الفكرَ فيها منَ الغفلة"[1]؛ لأنّ مثلَ تلكم الآياتِ معطوفةٌ على ما قبلها بالواو، أمّا غيرُ المعطوفة بالواو فالاعتبارُ حاصلٌ ابتداءً من غير عطفٍ، فذكر في تكملة الآيةِ من إهلاكِ مَن قبلهم، والتّمكينِ، وإرسالِ الرّسلِ وغيرها. وآيةُ الأنعامِ هذه لم يتقدّمْ قبلها ما يشيرُ إلى التّذكّرِ والعِبرة المُفضيَيْنِ إلى التّقريع، وعن قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾، أجابَ الغرناطيُّ عن خلوِّ هذه القطعة منَ الآيةِ من حرفِ العطفِ (الواو): بأنّ هذه الجملةَ "لم يتقدّمْ قبلها التّنبيهُ على ما به التّذكار والاعتبار، مُفصحًا به تنبيهًا مع تخويفٍ وتهديدٍ، مُتأكّدٍ مُكرّرٍ يستدعي التّقريعَ والتّوبيخَ، بمقتضى الهمزةِ الدّاخلةِ على واو العطف، كما في سورة الشّعراء"[2]، أمّا سورةُ الشّعراء فقد تقدَّم قبلها ما هو أوضحُ في التّخويف والتّنبيه.

سرُّ دخولِ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبۡلِهِم﴾ هنا، وخلوّهِ منها في آيات أخرى:

للتّهديدِ وشدَّةِ التّخويفِ لِعِظَمِ ما اقترفوه

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾، في هذه القطعةِ منَ الآية أدخلَ حرفَ الجرّ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبۡلِهِم﴾، فيما لم تردْ في آياتٍ كثيرةٍ أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم: 74]، وغيرها منَ الآيات، وسرُّ دخولها هنا لإفادتها التّوكيد؛ فإنّها "تزاد في هذه الآي حيث يرادُ تأكيده ضمن الآي منَ المعطيات، والإشارة إلى الوعيد... فحيث ورد في هذه الآي ما قبله استيفاءُ تفصيلِ وعيدين في أمّةٍ بعينها، أو أكثر، أو تكرّرُ التّهديد، وشدّةُ التّخويف من مُقتضى السّياقِ وفحوى الكلام؛ فذلك موضعُ زيادتِها، والتّأكيدُ بإثباتها، وحيثُ لا يتقدّمُ في اقتضاءِ مُقتَضاها نفوذُ الوعيد؛ فهذا يناسبُه الإيجازُ بحذفها"[3]؛

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/483.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/141.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/142.

فقد تقدّمَ هذه الآيةَ حمدُه سبحانه، وخلقُ السّماواتِ والأرضِ، وجعلُ الظّلماتِ والنّورِ، ثمّ إعراضُهم عنِ الآيات الّتي تأتيهم، ثمّ تكذيبُهم واستهزاؤُهم؛ فهذه كلّها تدلُّ على عظيم مرتكباتِهم، وقبائح أفعالِهم؛ فورد التّأكيدُ بورود ﴿مِن﴾ مع ﴿قَبۡلِهِم﴾؛ لزيادة التّأكيد المناسبِ للتّهديد والوعيد الّذي يستحقونه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين هلاكِ المكذِّبين، وبيانِ تكذيب النَّبيِّ ﷺ رغم المعجزاتِ

لمّا كان الرّسول ﷺ شديدَ الحرص على إيمانهم؛ كان لسانُ الحالِ يقتضي أن يقولَ: "أنزِلْ عليهم يا ربّ ما ينتقلون به منَ النّظر بالفكر إلى العيان، كما اقترحوا عليَّ، فأخبره أنّهم لا يؤمنون بذلك"[1]، ولو أنزلَ عليهم كتابًا في صحيفةٍ يلمسونه حقيقةً، ويرونه عيانًا، لكنّهم كفروا به، وكانت مقالتُهم فيه أنّه سحرٌ، وتمويهٌ، وخيالٌ مبينٌ ظاهرٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ مُضعّف، الجذرُ اللّغويُّ منه (نَزلَ)، والنُّزولُ هو الانتقالُ من علوّ إلى سُفْل، والأصلُ في معناه دلالتُه على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه، ونزل عن دابّته نزولاً، ونزل المطرُ منَ السَّماء نُزولًا، و"النُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوّ... ونزل في مكان كذا: حطَّ رحله فيه"[2].

و"المعنى المحوريّ انحدارٌ أو انفصال، وخلوصٌ إلى مقرّ أو حيّز يوجدُ فيه بقوّة، فالوجودُ معنى لزوميّ هنا، كالنّزول في المنزل"[3]. ونزّلنا في الآية يدلُّ على التّنزيل منَ السّماء، وأنّه ليس مكتوبًا في الأرض[4]، إلّا أنّه ليس نُزولًا حسّيًّا، مثلما دلَّ عليه التّفسيرُ اللّغويُّ في هبوطِ الشّيء، إنّما عبّر عن ذلك؛ لعلوّ شأن المنزَّل.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/25.

2) ﴿قِرْطَاسٍ﴾: اسمٌ خماسيٌّ، جذرُه اللّغويُّ من (قَرْطَسَ)، خلافًا لَمَن يرى أنّه مُعَرَّبٌ، وهو معروفٌ يتّخذُ من بَرْديٍّ مصرَ للكتابة، وهو "رَقٌّ ينبسطُ ممتدًّا يُخرَقُ بسهم، أو يُؤَثَّر فيه بما يشبهُ ذلك، وهو الكتابةُ بقلم له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه"[1].

والقِرْطاسُ ما "يُكتَبُ فيه كالرَّقّ والكاغَد ونحوِها، لا كالخشبة والحجر، وإن كانَ يُكتَبُ فيه؛ ولذلك قال ابن عرفة: العربُ تسمّي الصّحيفةَ قِرطاسًا من أيّ شيء كانت، فأجد في مسمّاه الصّحيفة، وهي مختصّةٌ بما يُطوَى ويُنشَر"[2]. وقد نشأتِ الكتابةُ نقشًا في الحجارة، وخَدْشًا في الطّين، ورسمًا على العُسُب.

ومعنى القِرْطاس في الآية: الصّحيفةُ الثّابتةُ الّتي يُكتَبُ فيها بقلمٍ له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه[3].

3) ﴿سِحْرٌ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، أو مصدرٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (سَحَرَ)، وله معانٍ عديدة، منه: معونة الشّيطان، وأخذة العين، والبيان في الفطنة، وله أصلٌ لمعناه وهو الخداعُ، والتَّخييلُ، والإيهامُ، وإخراجُ الباطلِ على صورةِ الحقِّ، وهو أيضًا "الخداعُ وتَخْييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو: ما يفعله المشعوذُ بصرف الأبصارِ عمّا يفعلُه لخفّة يدٍ، وما يفعلُه النّمّامُ بقولٍ مُزخرَفٍ عائقٍ للأسماع"[4].

ومعنى السّحر في الآية؛ أي: "ما هذا الّذي جئتنا به إلّا سحرٌ سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقةٌ ولا صحّةٌ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

عِظَمُ عنادِ المشركين للنَّبيِّ الأمينِ، ومكابرتِهم، رغمَ الأدلَّةِ المفحِمَةِ

يخبرُ الحقُّ تبارك وتعالى عن سابق علمِه وإحاطته بحال هؤلاء الكافرين بأنَّ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قرطس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/265.

تكذيبَهم ليس لقصورٍ فيما جئتَهم به أيُّها الرّسول، ولا لجهلٍ منهم بذلك، وإنّما هو ظلمٌ وبغيٌ منهم وعنادٌ واستكبارٌ، فلو أَراهُمُ اللّهُ بيِّنةً محسوسةً في إنزال كتابٍ في صحيفةٍ مكتوبةٍ يلمِسونه بأيديهم يحوي مرسومَ التَّنزيل، وبَيَّن لهم كلَّ طريقٍ وسبيلٍ، لما ازدادوا إلّا كفرًا وعنادًا، ولنَطقَتْ ألسنتُهم بأنَّ ما نزلَ ما هو إلّا منَ السّحرِ والتّخييلِ والإيهامِ، وزادوا من وقاحتهم بِنَعْتِه بالواضحِ المبينِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ تلوينِ الخطابِ في معنى (الواو):

العطفُ على أن تكونَ الآيةُ أوضحَ الآياتِ، دلالةٌ على صدقِ النبوَّةِ

الآيةُ جملةٌ مستأنَفةٌ سيقَت بطريق تلوينِ الخطابِ؛ لبيانِ شدّة شَكيمَتِهم في المكابرة، وما يتفرّعُ عليها منَ الأقاويل الباطلةِ، إثرَ بيانِ إعراضِهم عن آيات اللّهِ تعالى، وتكذيبِهم بالحقّ، واستحقاقِهم بذلك لنزول العذابِ، ونسبةُ التّنزيلِ ههنا إليه ﷺ مع نسبة إتيانِ الآياتِ، ومجيءِ الحقِّ فيما سبق إليهم؛ للإشعار بقَدْحِهم في نبوّته ﷺ في ضمن قَدْحِهم فيما نزل عليه صريحًا[1].

ويجوزُ أن تكونَ الواو عاطفةً، والمعطوف عليه جملة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الآية، وما بينهما جملًا تعلَّقَت بالجملة الأولى على طريقة الاعتراضِ، فلمّا ذكرَ الآياتِ في الجملة الأولى على وجه العموم، ذكر هنا فرضَ آيةٍ تكون أوضحَ الآيات دلالة على صدق محمّد ﷺ، وهي أن يُنزِلَ اللّهُ عليه كتابًا منَ السّماء على صورة الكتبِ المُتعارَفَةِ، فَرَأَوْهُ بأبصارِهم، ولمسوهُ بأيديهم - لما آمنوا ولادَّعَوا أنّ ذلكَ الكتابَ سحرٌ[2]. ويجوزُ أن تكونَ الواو للحال من ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: أنكروا كونَ القرآن من عند اللّهِ، وكَوْنَه آيةً على صدق الرّسولِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.

وزعموا أنّه لو كانَ من عند اللّهِ لنزلَ في صورة كتابٍ منَ السّماء، فإنّهم قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، وقالوا: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: 93]، فكان قولُه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ مُشتمِلًا بالإجمال على أقوالهم، فَصحَّ مجيءُ الحالِ منه، وما بينهما اعتراض[1].

معنى استعمال (لو) في ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا﴾:

الـدّلالـةُ على الامـتـنـاعِ بـأنَّ إنزالَ الكتابِ، لا يصحُّ أن يصدرَ عنه تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾، صدّر الآيةَ بعدَ العطفِ بالحرفِ (لو)، والّتي سمّاها سيبويه لما "كان سيقعُ لوقوع غيره"[2]، "حرف امتناع لامتناع؛ أي: أنّ اللّه سبحانه يمتنعُ عن أن يفعلَ ذلك، لأنّه عبثٌ لا يليقُ أن يصدرَ عن ذاته العليّة؛ إذ لا ثمرةَ له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوّةُ الدَّليل"[3]، وهو تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ هؤلاء لن يؤمنوا، فكانت ﴿وَلَوۡ﴾ مُعبِّرةً عن حالتهم خيرَ تعبيرٍ؛ لأنّ قلوبَهم مُشربةٌ بالضّلال ومُتمكّنةٌ فيه.

وجهُ مجيءِ الفعلِ ﴿نَزَّلۡنَا﴾ على صيغة (فعَّل) بالتَّضعيف:

الدّلالةُ على كثرة التـنـزُّل لقطْعِ الحجَّةِ عليهم

مجيءُ الفعلِ ﴿نَزَّلۡنَا﴾ على زنة (فعّلنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ يفيدُ تكثيرَ الفعلِ غالباً[4]، ومجيئه على هذه الصّيغةِ الدّالّة على المبالغة يفيدُ "أنّ هؤلاء الكفّار لو أنّهم شاهدوا نزولَ كتابٍ منَ السّماء دفعةً واحدةً عليك يا محمّد ﷺ لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنّه سِحْرٌ ومَخْرَقَةٌ"[5].

نُكتَةُ إسنادِ فِعلِ التَّنزيلِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ في قَولِه: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا﴾:

الإيـمـاءُ إلى عَظَمَةِ التَّنزيلِ ومُتَعَلَّقَاتِه

أُسنِدَ فِعلُ التَّنزيلِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمةِ في قولِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/224.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2441.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/69.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/169.

اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ إيماءً إلى عظمَةِ هذا التَّنزيلِ ومُتعلَّقاتِهِ؛ من بيانِ جلالَةِ المُنَزِّلِ سُبحانَهُ، وشرفِ المُنَزَّلِ، ورفيعِ مكانَةِ المُنَزَّلِ عليه ﷺ.

سِرُّ تَنكيرِ ﴿كِتَٰبٗا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾:

تَعظِيمُ الكِتابِ، يَستَلزِمُ شَناعَةَ تَكذِيبِهِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كِتَٰبٗا﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ لِقصدِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كما يُشعِرُ بذَلكَ تعظيمُ المُنَزِّلِ في قَولِهِ: ﴿نَزَّلۡنَا﴾، وهذا التَّعظيمُ لِلكِتابِ المُنزَّلِ دالٌّ على شدَّةِ عنادِ المُكذِّبينَ؛ فإنَّ العظَمَةَ أحاطَت بالتَّنزيلِ وتوابِعِهِ، ومعَ ذَلكَ قابَلوا ذَلكَ بالجُحودِ والإنكارِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّمسِ دونَ المعايَنةِ:

دفْعُ افترائِهم بأنَّه من سِحرِ النَّظرِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، عبّر عنِ الكتابِ المشتملِ على الآيات، ولم يعبّر بالنّظر إليه ومعاينته فقط؛ "لئلّا يقولوا سُكِّرَت أبصارُنا، ولا تبقى لهم علّةٌ، لقالوا: إن هذا إلّا سحرٌ مبينٌ تعنُّتًا وعنادًا"[1]؛ لأنّ السّحرَ يكون أشدَّ فعلاً ووقعاً مع النّظر؛ فإنّ البصرَ قد يُخدَعُ بالسّحر والتّخيّل؛ ولقوله تعالى حكايةً عن سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]، ولا تكونُ المظاهرُ السّحريّةُ ممّا يُدرَكُ باللّمس؛ ولأنّ اللّمسَ أبلغُ في إيقاعِ العلم منَ النّظر.

فائدةُ ذكرِ الأيدي بعدَ اللَّمسِ:

تأكيدُ النُّزولِ، ورفْعُ توهُّمِ أن يكونَ من بابِ المجازِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، ذكرَ الأيدي بعدَ اللّمسِ، مع أنّ اللّمسَ عادةً يكونُ بالأيدي، لكنْ في ذكره هنا "تأكيدٌ لمعنى اللّمسِ؛ لرفع احتمالِ أن يكونَ مجازًا في التّأمّل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾ [الجنّ: 8]،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/325.

وللإفصاح عن مُنتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتّكذيب"[1].

سرُّ الإظهارِ في مقام الإضمار:

التّسجيلُ عليهم بأنّ دافعَهم إلى هذا التَّعنُّتِ، هو الكفرُ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ أن يقولَ: (لقالوا)، على سبيل الإضمارِ والاختصارِ، كما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: إظهارًا في مقام الإضمارِ؛ لقصد تسجيلِ أنّ دافعَهم إلى هذا التّعنُّتِ هو الكفر؛ لأنّ الموصولَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بالتّعليل[2].

دِلالَةُ العموم في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِهِ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

الاسم المَوصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُرادُ به الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ كُلَّ معانِدٍ مِمَّن كَفَرَ باللّهِ تعالى، فهم لا يَنقادونَ لِلحَقِّ، ولَو كانَ في غايَةِ الوُضوحِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِالفِعلِ المَاضِي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ في الآية الكريمة:

جيءَ بِجُملةِ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لِلإشعارِ بِحُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِهِ فيهم وتشبُّعِهم منه.

سِرُّ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

كُفرُ المُكَذِّبينَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهو الأَمرُ الّذي كُفِرَ به، وذلك قصدًا لِإرادَةِ العُمومِ؛ إذْ إنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُشعِرٌ بِالعُمومِ، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهِم أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

دِلالَةُ القَصرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

بُلوغُ الكافِرينَ غايَةَ العِنَادِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، وطريقُهُ النَّفيُ والاستِثناءُ؛ فإنَّ (إنْ) نافيَةٌ، والمَعنَى: لقال الّذين كفروا ما هذا إلّا سِحرٌ مُبينٌ، وفي سلوكِهم مسلَكَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.

القصرِ في الكلامِ تأكيدٌ مِنهُم لحُكمِهم الباطِلِ، وهذا ناشئٌ عَن غايَةِ عنادِهِم.

دِلالَةُ وَصفِ السِّحرِ بِكَونِهِ مُبِينًا فِي الآيةِ الكريمةِ.:

مَن بَلَغَ غايَةَ العِنَادِ، لا يَنفَعُ فِيهِ مُعجِزَةٌ، ولا يُجدِي مَعَهُ دَلِيلٌ

وُصِفَ السِّحرُ بكونِهِ مُبيناً في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ومُرادُهُم: أنَّه بيِّنٌ واضِحٌ في كَونِهِ سِحرًا، وهذا دالٌّ على أنَّ تبجُّحَهُم بالتَّكذيبِ بلغَ الغايَةِ، وأنَّ مكابرتَهُم كذَّبَت ما شهِدَت حواسُّهُم بصِدقِهِ، والقومُ الّذينَ بلَغوا هذه الدَّرجَة مِنَ العنادِ والمكابَرةِ لا تَنفَعُ فيهم معجِزَةٌ، ولا يُجدي معَهُم دليلٌ[1].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/41.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُـهـاتـراتُ الـكـافـريـن متواليةٌ

هذه الآيةُ تتمَّةٌ لما سبقها؛ حيث أشارتِ الآيةُ السّابقةُ إلى ما أشارَ عليهم اليهودُ باقتراحهم من إنزال الكتابِ، فأَخبر هنا أنّهم اقترحوا لهم ظهورَ المَلَكِ، وبيّن لوازمَه، فإنّهم قالوا: لو بعثَ اللّه رسولاً لوجبَ كونه ملكًا؛ ليكون أكثرَ علمًا، وأقوى قدرةً، وأظهرَ امتيازًا عنِ البشر، فتكون الشّبهةُ في رسالته أقلّ، والحكيمُ إذا أراد تحصيلًا مهمًّا كان الأَولَى تحصيلَه بما هو أسرعُ إيصالاً إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكٞۖ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (مَلَك)، وفيه خلافٌ في أنّ جذرَه اللّغويّ مِن (ألك)، والملك هو واحدُ الملائكة، ولفظه مَفعَل منَ الأُلوك، وهو الرّسالة، و"الميم واللّام والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء"، "وأمّا المَلَك فالنّحويّون جعلوه من لفظِ الملائكة، وجعلَ الميمَ فيه زائدةً، وقالَ بعضُ المُحقِّقين: هو منَ المِلْك، قال: والمُتَولّي منَ الملائكة شيئًا منَ السَّياسات يُقال له: مَلَكٌ بالفتح"[2].

"وقالوا: إنّ المَلَكَ كجبلٍ مِن هذا، وأصلُه مألك، ثمّ بالنّقل ملأك، ثمّ خُفِّفَ فصار ملكًا؛ لأنّ المَلَكَ رسولٌ يحملُ رسالةً منَ اللّه ﷻ إلى مَن أرادَ مِن عبادِه"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/25 - 26.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألك - لأك).

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ مِن (أمرَ يأمرُ أمرًا)، وجذرُه اللّغويُّ مِن (أَمَرَ)، وله معانٍ عدّة، ومنه: "الأمرُ نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ من أمور النّاسِ، وإذا أمرت منَ الأمر"، "فأمّا الواحدُ منَ الأمور فقولهم: هذا أمرٌ رضيتُه، وأمرٌ لا أرضاه، وفي المثل: أمرٌ ما أتى بك"، و"الأمر: الشّأن، وجمعه أمور... إذا كلّفتَه أن يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها"[1].

والأصلُ في الأمر طلبُ الفعلِ، لكنّه قد يُطلَقُ "باعتبار الحالِ والبيانِ، فيشمل ذلك الأقوالَ والأفعالَ"[2]. ومعنى قُضي الأمر في الآية: "لَوَجَب العذابُ، وفُرِغ منَ الأمر، وهذا سنّةُ اللّهِ في الكفّار أنّهم متى اقترحوا آيةً فأُنزِلَت، ثمّ لم يؤمنوا استُؤْصِلوا بالعذاب"[3].

3) ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل مضارع مبنيٌّ للمفعول، مسندٌ إلى الجماعة، الجذرُ اللّغويُّ منه (نَظَرَ)، والنّظرُ معروفٌ لكنّه على شطرين؛ نظرُ العينِ ونظرُ القلبِ، والأصلُ في معنى النّظر "تأمّلُ الشّيءِ ومُعايَنَتُه، ثمّ يُستعارُ، ويُتّسَعُ فيه"، و"النّظر: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراك الشّيءِ ورؤيته، وقد يُرادُ به التّأمّلُ والفحصُ، وقد يرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحصِ، وهو الرَّويّةُ، يُقال: نظرتَ فلم تَنْظُر؛ أي: لم تتأمَّلْ ولم تَتَروَّ، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101]؛ أي: تأمّلوا"[4].

ومن معانيه: "الإمهالُ والانتظارُ المأخوذُ اشتقاقيًّا منَ التّرقُّبِ والتّفحُّصِ في المواجهة في المعنى المحوريّ، فإنّ التّفحُّصَ والتّأمُّلَ يستغرقُ زمنًا"[5]، وهو الواردُ في الآية؛ فإنّ معنى ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ "لا يؤخَّرون، ولا يُمَهَلون ليُؤمنوا"[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وكان من أمانيهم الكاذبةِ قولُهم تحضيضًا: هَلّا أُنزل على محمّد مَلَكٌ منَ السّماء؛ كي نصدِّقه، ونؤمنَ به! فبيَّنَ الحقُّ ﷻ أنّكم لا تطيقون التّلقّي عنِ المَلكِ، وأنّ مِن حكمته

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمر).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أمر).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/129.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نظر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/80.

تعالى بكم أن لا يجيبَكم إلى ما طلبتم؛ فإنّه لو أنزل المَلَكَ، ثمّ نظروا إليه وعاينوه، ولم يؤمنوا؛ فعندئذٍ سيُعاجَلون بالعذابِ والعقوبةِ، ثمّ لا يُمهَلون لتوبةٍ؛ فقد سبقَ في علمِ اللّهِ أنّهم لا يؤمنون.

الصُّورةُ الثَّانيةُ مِن تعنُّتِ الكافرين بطلب نزول مَلَكٍ مِن السَّماء

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ استعمالِ ﴿لَوۡلَآ﴾ الدَّالَّةِ على التَّحضيضِ:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، ﴿لَوۡلَآ﴾: حرفٌ يفيدُ التّحضيضَ[1] بأن تكونَ بمعنى هَلّا، "والتّحضيضُ مُستعمَلٌ في التّعجيز على حسب اعتقادِهم"[2]؛ أي: أنّه لن يستطيعَ ذلك بحسب زعمِهم وظَنِّهم.

التَّعجيزُ بحسبِ اعتقادِهم

بلاغةُ تقديمِ المُتعلّقِ على نائب الفاعل:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ قَدَّم المُتعلَّقَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿مَلَكٞۖ﴾، والأصلُ تأخيرُه، والتّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ، اختصاصَ نزولِ المَلَكِ عليه لا على غيره؛ ليشهدَ له بالرّسالة، وفي طلبهم هذا محاولةُ تعجيزه ﷺ؛ ولأنّ الضّميرَ في المُتعلَّقِ عائدٌ عليه ﷺ[3]، وهو مفهومٌ منَ المقام.

اختصاصُ إنزالِ المَلَكِ على الرَّسولِ لا على غيره

تناسبُ جُملَتَي التَّحضيض ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾، والشَّرطِ ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا﴾، هنا جملتان الأولى تحضيضيّة ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾، وهي بمعنى: هَلّا[4]، والثّانية شرطيّة، وهو تناسبٌ يُعدُّ من محسّنات الوصلِ[5]، أن تكونَ الأولى مُطلَقةً عنِ التّقييد، والثّانية مُقيّدةً؛ لوجود الجواب، وهو قضاؤُه بهلاكهم، وعدمُ الإيمانِ منهم مُقيّدٌ بطلبهم إنزالَ المَلَكِ؛ لذلك حسُن الوصل عطفًا بالواو بين الجملتين.

جملةُ التَّحضيضِ مُطلَقةٌ، وجملةُ الشَّرطِ مُقيَّدةٌ، وهو من محسِّناتِ الوصلِ

(1) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصّفات، ص: 4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/11.
(5) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 2/575.

دلالةُ فِعْلَي الجوابِ بينَ البناءِ للفاعل، والبناءِ للمفعول:

العظمةُ وتربيةُ المهابةِ، وتوهينُ المخاطَبين

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، جاءَ بالفعل (أنزلنا) مبنيًّا للفاعل مع إسناده إلى (نا) الجمع الدّالّة على العظمة، "مع كونه في السّؤالِ مبنيًّا للمفعول؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ، وبناءُ الثّاني للمفعول للجري على سنن الكبرياءِ"[1]، كما أنّ البناءَ للمفعول في الفعل (يُنظَرون) فيه توهينٌ واستصغارٌ للمُخاطَبين من أن يُقال في حقّهم: ثمّ لا ينظرُ اللّهُ إليهم.

نُكتَةُ حَذفِ حَرفِ الاستِعلاءِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾:

سَدَّ القرآنُ الكَريمُ جَميعَ مَداخِلِ أهلِ الضَّلالِ

نُصَّ على حرفِ الاستعلاءِ (عَلَى) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، وحُذِفَ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾، ولَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ولو أنزلنا عليهِ ملكًا)، وذلك لنُكتَتَينِ:

إحداهُما: عَدَمُ الاحتياجِ إلى ذكرِها في ردِّ كلامِهم؛ اكتفاءً بذِكرِها أوّلًا.

والأُخرَى: لئلّا يَكونَ فيه تسليمٌ لِما أَلَمحوا إليهِ من إنكارِهم نزولَ المَلَكِ عليهِ بالوَحيِ مِنَ اللّهِ تعالى[2].

وجهُ مجازِ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

قضاءُ الأمرِ بإهلاكهم، لا يحصلُ إلّا بعد تكذيبِهم

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، فيه مجازٌ بالحذف، التّقدير: ولو أنزلنا ما يطلبون منَ المَلَك، فإمّا أن يصدّقوا فينجوا، وإمّا أن يكذّبوا فيُقضَى عليهم الأمرُ بعذابهم وهلاكهم[3]، على الاحتمالين. أو المعنى: لو أنزلنا مَلَكاً فكفروا بعد ذلك؛ لَعَجَّل لهم العذابَ، ففي الكلامِ على هذا حذفٌ[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/26.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/270.

(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/254.

معنى (اللّام) الواقعةِ في جواب ﴿لَوْ﴾:

العوضُ عن المضاف إليه

تفيدُ اللّامُ الواقعةُ في جواب ﴿لَوْ﴾ العِوضَ عنِ المضافِ إليه بقرينة السّياقِ؛ أي: لَقُضي أمرُ عذابِهم الّذي يتهدّدهم اللّهُ به[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بـ (ثمّ) في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾:

نفيُ الإنظارِ أشدُّ من وقوعِ العذابِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ عبّر بحرف العطفِ الّذي يقتضي التّرتيبَ مع التّراخي، وفائدتُه "التّنبيهُ على أنّ عدمَ الإنظار أشدُّ من قضاءِ الأمر؛ لأنّ مفاجأةَ الشِّدّةِ أشدُّ من نفسِ الشِّدّةِ"[2].

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بَينَ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ وَقَولِهِ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ﴾:

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنِيِّ في استِعمالِ حُروفِ المَعاني في سِياقاتِها المُلائِمَةِ لها

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]، فَخُصَّت كلُّ آيةٍ بحرفِ جرٍّ مغايرٍ، ووجهُ ذلك أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمَها قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾، فلمّا خُصَّ إنزالُ الكتابِ بحرفِ الجرِّ (علَى)؛ ناسبَهُ أن يُخصَّ إنزالُ المَلَكِ بالحرفِ نفسِه.

أمّا آيةُ الفرقانِ فقد صُدِّرت بقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، فلمّا كان هؤلاءِ يُريدونَ أن يكفَّ رسولُ اللّهِ ﷺ عنِ التَّنقُّلِ والحركَةِ، وأن يصِلَ إليهِ ما يُريدُهُ من غيرِ تعبٍ منه؛ كان الأنسبُ التَّعبيرَ بحرف الجرِّ (إلَى).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/171.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعليل سببِ بَوارِ منطقِهم

لمّا اقترحَ المُشركون بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ: "قالوا: يا محمَّدُ ﷺ، لن نؤمن لك حتَّى تأتيَنا بكتابٍ من عند اللّه، ومعه أربعةٌ من الملائكةِ، يشهدون أنَّه من عندِ اللّهِ وأنَّك رسولُهُ"[1]؛ جاءت هذه الآيةُ ردًّا على قولِ من قال منهم هذا الكلامَ، فبيَّنَتِ الآيةُ: أنَّ اللّه لو أنزلَ ملكًا؛ لظهرَ لهم بزيِّ رجلٍ، فلا يعرفونَهُ أنَّه ملكٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾: جذر الكلمةِ هو (جعل)؛ وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فعل (صنع)[2]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، أي: خلقَهُما. و﴿وَجَعَلَ﴾ في الآية بمعنى: صيَّر، المقتضي تصييرَ شيءٍ آخر، أو تعويضه به[3].

2) ﴿وَلَلَبَسۡنَا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لَبَس): من لَبَس يَلْبِس، واللَّبْسُ: خَلط الأمور بعضِها ببعض؛ إذا التَبَسَت، يُقال: لبستُ عليه أمره، قال: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 82][4]، والأصل الثّاني لهذه المادَّةِ هو اللِّباسُ: وهو ما واريتَ به جَسَدَك، من: لَبِسَ يَلبَس، ومنه: اللَّبوسُ: الدِّرع، وكلُّ ما تَحَصَّنتَ به، ولباسُ التَّقوى: الحَياءُ، وجعل التَّقوى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/441.
(2) الراغب، المفردات: (جعل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/145.
(4) الراغب، المُفردات: (لبس).

لباسًا على طريقِ التَّمثيلِ والتَّشبيهِ، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: 26]. ومعنى اللَّبس هنا: خلطٌ يعرض في الصِّفاتِ والمعاني، بحيث يعسرُ تمييزُ بعضِها من بعض.

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إبطالُ مَطلَبِ المشركين، في بَعْثِ الرَّسولِ على صُورةِ مَلَكٍ أمينٍ

يردُّ اللّهُ تعالى على المشركينَ مقترحَهُم؛ إذ لو جُعِلَ الرَّسولُ المرسلُ إليهم مَلَكًا - كما اقترحوا - لصُيِّرَ في صورةِ رجلٍ، وهو أمر يسير على اللّه تعالى؛ حتى يستطيعوا السَّماعَ منه ومخاطبتَه؛ لأنَّ النّاسَ لا طاقةَ لهم على رؤيةِ المَلَكِ في صورتهِ الملائكيَّةِ، فلو جعل اللّهُ الرَّجلَ المرسلَ إلى البشر ملكًا؛ لفرّوا من مقاربتهِ وما أنِسوا به، ولداخلهم الرُّعبُ من كلامِه، فلا تتحقَّقُ المصلحةُ والانتفاع بالرِّسالة، ولو نقلَ اللّهُ الرَّسولَ الملائكيّ الذي افترضوه عن صورةِ الملائكةِ إلى مثلِ صورتهم لاشتبهَ الأمرُ عليهم، كما اشتبهَ عليهم أمرُ محمَّد ﷺ، ولقالوا: لستَ مَلَكًا، وإنَّما أنت بشرٌ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الرَّسولَ ينبغي أن يكونَ من نوعِ المرسَلِ إليهم، كما أشارَ تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ۝٩٥﴾ [الإسراء: 95][2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّرقِّي في إجابةِ طلبِهم، بإنزالِ مَلَكٍ بالرّسالةِ:

القُدراتُ البشريَّةُ قاصرةٌ عن إدراكِ الغيبِ، دونَ إيمانٍ ولا وحْيٍ

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ عُطِفَ على قوله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: 8]، فهو جوابٌ ثانٍ عن مقترحِهم، فيه ارتقاءٌ في الجوابِ، فكان الأوَّلُ اقتراحَ إنزالِ المَلَك على هيئتِهِ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/425، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/242.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/218.

الحقيقيَّةِ، والثّاني: إنزالَ المَلَكِ بما يناسب حالةَ المخاطبين، فيكون مثلَهم؛ لأنَّ الإنسانَ عن الإنسانِ أفهمُ، وطباعَهُ بطباعِهِ آنسُ، وعلى قدرِ ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه[1]، فيكونُ بهيئةِ رَجُلٍ، وهذا ما يستدعي اللَّبسَ عليهم مرَّةً أخرى.

ومقترحُهُم يستلزمُ الاستغناءَ عن بعثةِ رسولٍ من البشرِ؛ لأنَّه إذا كانت دعوةُ الرَّسولِ البشريِّ غير مقبولةٍ عندهم، فقد صار مجيءُ رسولٍ بشريٍّ إليهم، غير مجدٍ للاستغناءِ عنه بالمَلَكِ الَّذي يُصاحِبُهُ، على أنَّهم صرَّحوا بهذا اللّازم فيما حُكي عنهم في غيرِ هذه الآيةِ، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصّلت: 14]، فجاء هذا الجوابُ الثّاني صالحًا لردِّ الاقتراحين[2].

سِرُّ إيثارِ استخدامِ الجُملةِ الشَّرطيَّةِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿لَوۡ﴾:

امتناعُ حُصولِ مقترَحِ إرسالِ المَلاكِ، صونٌ للبشريَّةِ منَ الهَلَاكِ

وقدِ اصطَفَى النَّظمُ الكَريمُ الجُملةَ الشَّرطيَّةَ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾، وهو حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ في الجَوابَين، وهو الأنسَبُ؛ لأنَّه يقيمُ الجوابَ على امتناعِ حصولِ ما يطلبون، إمّا صونًا لهم عن الهلاكِ التّامِ ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]، وفي هَلاكِ هؤلاءِ وأمثالِهم هلاكٌ للبشريَّةِ وانحسارٌ لها، وفي ذلك حكمة إلهيَّةٌ عظيمةٌ، وإمّا لعدمِ حصولِ اليقينِ بالتَّلبيسِ الَّذي يَصونُهم أيضًا مِنَ الهَلاكِ لو حَصَلَ ما طَلَبوا كما أرادوا.

ثَراءُ موقِعِ الضَّميرِ، في ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾ ... ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾:

الضَّميرُ له أثرٌ بالغٌ في سَعَةِ المعنى وإيجازِ اللَّفظِ

إن عادَ الضَّميرُ للمطلوبِ (الملك)؛ فهو جوابٌ ثانٍ، وإن عاد الضَّميرُ للرَّسولِ، فهو اقتراحٌ ثانٍ، فإنَّهم تارةً يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، وتارةً يقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [فصّلت: 14]، والمعنى: ولو جعلنا قرينًا لك مَلَكًا يُعاينونه، أو الرَّسولَ ملكًا لمثَّلناهُ

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان: 1/35.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/145.

رجلًا، كما مَثُلَ جبريلُ - عليه السلام - في صورة الصَّحابيِّ دِحيَةَ الكلبيِّ أمام النَّبي ﷺ؛ فإنَّ القوَّة البشريَّة لا تقوى على رؤية المَلَكِ في صورتهِ الحَقيقيَّةِ التي خَلَقه اللّه عليها، وإنَّما رآهم كذلك الأفرادُ مِنَ الأنبياءِ - عليهم الصلاة والسلام - بقوَّتهم القُدسيَّة[1]، فشملَ موقعُ الضَّميرِ الحالتين المذكورتينِ في القرآنِ مع إيجازٍ وبلاغةٍ.

نُكتةُ تَفصِيل الحِكمَةِ في جَعْلِ المرسَلِ بالوحْي، رَجُلًا لا مَلَكًا:

لا يُحَقِّقُ المَلَكُ الرَّسُولُ رُوحَ الرِّسَالَةِ وغَايَتَهَا

وحكمةُ جعلِ المَلَكِ المُقترحِ لأداءِ الرِّسالةِ رجُلًا؛ لعلمهِ سبحانه بعدمِ إمكانِ أداءِ الرِّسالةِ إلّا أن يكون الرَّسولُ رجُلًا؛ لاختلاف جنسِ النّاس عن جنسِ الملائكةِ، ثمَّ إنَّه لو جعله ملكًا على حقيقته؛ فلعلَّ ذلك يكون سببًا في هلاكِهم خوفًا أو قهرًا أو طبيعةً، ثُمَّ إنَّ أصلَ الرِّسالةِ وقبولَها كونُها طواعيَّةً لا عنوةً أو جبرًا، ولو شاء اللّهُ لخلقَ النّاس مجبرين على الإيمانِ، ولو أنَّه أنزل ملكًا رسولًا؛ لهابهُ النّاس وآمنوا به ظاهرًا، ولانشغلَ النّاس بإخفاء ما في دواخلِهم من الكُفرِ والنِّفاقِ، وأظهروا الإيمانَ لرسولهم المَلائكيِّ وقايَةَ بَطشِهِ، وهكذا فلا يُحقِّق المَلَكُ الرَّسولُ روحَ الرِّسالةِ، وهي الإيمانُ بالطَّواعيَّةِ، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29].

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ، في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾:

قوَّةُ الشَّبَهِ بين الطَّرَفَيْن تُوهِمُ أنَّهما واحدٌ، وهما مُنفكّان عقلًا وواقعًا

قولُه: ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾؛ أي: لجعلناهُ في صورةِ رجلٍ[2]، فيلبس عليهم كونه ملكًا، فقالوا: كيف يكونُ المَلَكُ رجلًا[3]؟ فحذف وجه الشَّبهِ وأداة التَّشبيهِ، فهو تشبيهٌ بليغ، دلَّ على قوَّةِ الشَّبهِ الموهِمَةِ عدمَ تحقُّقِ المطلوبِ، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ: ﴿رَجُلٗا﴾ على بشرٍ؛ إيذانًا بأنَّ الجعلَ بطريقِ التَّمثيلِ، لا بطريقِ قلبِ الحقيقةِ، وفيه

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/155.

(2) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/319.

(3) سفيان الثوري، تفسير سفيان الثّوري: 1/106.

تعيينٌ لما يقعُ به التَّمثيلُ[1]، كما أنَّ في التَّشبيهِ البليغ بيانًا لرحمتِهِ - تعالى - بخلقِه.

سِرُّ ترتيبِ الضَّميرَيْنِ وتَكْرارِ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

المناسبةُ التَّامَّةُ بين الأسلوبِ والمعنى المرادِ، من بلاغةِ البيانِ المستفادِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾: روعي في تركيبِ اللّفظ ما يناسبُ المعنى الثّاني لكلامهم، فمعنى: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ الأولى: اخترنا، ومعنى ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ﴾ الثّانية: صيَّرنا أو صوَّرنا، أي: لو اخترنا رسولًا إليهم ملكًا؛ لتعيَّن أن نصوِّرَ ذلك المَلَكَ بصورة رجلٍ ليطيقوا رؤيتَه وخطابَه، وقد أحاطَ بالكلمتين سياقٌ واضحٌ في تحديدِ المرادِ من اللَّفظتين، ولم يقلِ النَّظْمُ: ولوِ اخترناه ملكًا لصيَّرناهُ رجلًا، وإنَّما جاء كذلك تناسبًا مع ما ينتجهُ مقترحُهم مِنَ اللَّبْس والخلطِ عليهم، فشاكلَ اللَّفظَ المرادَ؛ إذ يوهم عند بادِهِ النَّظرِ أنَّ معنى اللَّفظَتين واحدٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ الضِّمنيِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾:

تمامُ الحُجَّةِ قاطعٌ، في عدمِ تحقيقِ مطلوبِهم التّعجيزيِّ المتوهَّم

"جملة ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ من تمام الدَّليلِ والحجَّةِ عليهم بعدم جدوى إرسال المَلَك[2]، والجملةُ تشبيهٌ ضمنيٌّ؛ إذ يفهمُ المشبَّهُ والمشبَّهُ به ضمنًا لا صراحةً، والمعنى: للبسنا عليهم لبسًا كالَّذي يلبسونهُ على كون الرَّسولِ بشرًا، وورودُ التَّعبيرِ على صورةِ التَّشبيهِ الضِّمنيِّ هو الألصقُ والأبرُّ بالمعنى المقصود؛ لما في التَّلبيس من خفاءِ وجهِ المراد، وتعدُّدِ الاحتمالاتِ، قال أبو حيان: أو كان يحصلُ التَّلبيسُ لاعتقادِهم أنَّ الملائكةَ إناثٌ، فلو رأوه في صورةِ رجلٍ حصل التَّلبيسُ عليهم كما حصلَ منهم التَّلبيسُ على غيرِهم"[3].

"أي: ولَلَبَسْنا عليهم لَبْسَهُم الَّذي وقعَ لهم حين قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 4/320.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/145.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/443.

﴿عَلَيۡهِ مَلَكٗ﴾، أي: مثل لبسِهم السّابق الَّذي عَرَضَ لهم في صدق محمَّدٍ ﷺ[1]، ولخلَطنا عليهم ما يخلطون على أنفسِهم حينئذٍ، فإنَّهم سيقولون: إذا رأوا المَلَكَ في صورةِ إنسانٍ: هذا إنسانٌ وليس بمَلَكٍ[2].

ردُّ ما قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهِم﴾، بأنَّ المَعنَى في أهلِ الكِتَاب:

سيـاقُ الآيـةِ يشـملُ جميعَ الـمُـنـاوِئين، وهو لكفَّار مكَّةَ خاصَّةً

عند قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾: قال الضَّحّاك: يعني أهلَ الكتابِ؛ لأنَّهم غيَّروا صفةَ النَّبي ﷺ في كتابهم، وعَصَوا ما أمروا به، وقال الكسائيُّ: يُقال لبستُ عليهم الأمْرَ ألبسُهُ لَبسًا؛ إذا خلطْتُهُ، أي: أشكلْتُهُ[3]، وأورد الطَّبريُّ قولَ الضَّحّاكِ: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾، يعني: التحريفَ، هم أهل الكتاب، فرَّقوا كُتُبهم ودينَهم، وكذَّبوا رسلهم، فلبَّس اللّٰهُ عليهم ما لبَّسوا على أنفسهم[4]. وقد ورد في معنى اللَّبسِ كثيرٌ من الآياتِ في أهلِ الكتابِ وتحريفهم للكِتابِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 82]، ويقال: في الأمرِ لُبسَةٌ، أي: التِباسٌ، ولابَسْتُ الأمر؛ إذا زاولْتُهُ، ولابَسْتُ فلانًا: خالطْتُهُ[5].

والمعنى المستفادُ من سياقِ الآيةِ عامٌّ، وهو شاملٌ لجميع المُعارضين، لكنَّه يخصُّ كفّارَ مكَّةَ أكثرَ من غيرهِم، فهم من أنكرَ الرِّسالَةَ، وهم مَنْ كذَّبَ رسولَ اللّٰه ﷺ بحجَّةِ أنَّهُ بشرٌ مثلهم، فاشترطوا أن يكون الرَّسولُ ملكًا، كما اشترطوا من قبل لإيمانهِم آياتٍ مقترحاتٍ؛ ليصدِّقوا بالرِّسالة وبالرَّسول.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/146.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/8.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 2/403.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/271.
(5) الراغب، المفردات، ص: 735.

بلاغةُ الاحتِباكِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾:

إرخاءُ العِنانِ للخصمِ، إلجاءٌ له ليُسَلِّمَ بالحقّ

وفي الكلام احتباكٌ عند ابن عاشور؛ لأنَّ كلا اللّبسَينِ هو بتقديرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه حرمَهُم التَّوفيقَ، فالتَّقديرُ: (وللبسْنا عليهم في شأنِ المَلَكِ ما يَلْبَسونَ على أنْفُسِهِم في شَأْنِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وهذا الكلامُ كلُّه منظورٌ فيهِ إلى حملِ اقتراحِهم على ظاهرِ حالِه من إرادتِهم الاستدلالَ، فلذلك أجيبوا عن كلامِهم إرخاءً للعنان، وإلّا فإنَّهم ما أرادوا بكلامِهم إلّا التَّعجيزَ والاستهزاءَ، ولذلك عقبَهُ بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ الآية[1]، فدلَّ على ذلك، ودلَّ كذلك على أنَّ مقترحَهم لم يكن نتاجَ شديدِ حرصِهم على طلبِ الإيمانِ، وإنَّما من منطلق الاستهزاءِ والتَّعجيز.

غرضُ طريقةِ الالتفاتِ الفعليّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾:

تناسخُ الأفكارِ والأفعالِ، ملمحٌ لِلْفَشَلِ والاضمحلالِ

التفتَ من الماضي إلى المُضارع بين ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم﴾ و﴿يَلۡبِسُونَ﴾، فجعلَ ما سيكونُ مستقبلًا في صيغة الماضي لما فيهِ من يقينِ التَّحقُّق، وأن لا احتمالَ سوى ذلك، فالتفتَ في الفعلِ مِنَ الماضي إلى المُضارعِ في قوله: ﴿يَلۡبِسُونَ﴾، ودلالةُ هذا الفعلِ على التَّجدُّدِ والاستمرار هو دليلٌ واضحٌ على إصرارِهم في محاولاتِ تعجيزِهم للرَّسول، ومحاولاتِ الاستهزاءِ، وتجدُّدِ المقترحاتِ والأفكارِ في ذلك.

معنى ﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا يَلۡبِسُونَ﴾:

تناسُبُ إبهامِ (ما) مَعَ إبهامِ اللَّبسِ عليهِم، مِنْ بلاغةِ السّياقِ

(ما) اسمُ موصولٍ بمعنى (الذي)، أي: ولَلَبَسْنا عليهم الذي كانوا يَلبِسون على أنفسِهم، وتقع (ما) على ذواتِ ما لا يعقلُ، وعلى صفاتِ من يعقلُ، وقوله: ﴿مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ هي مثالُ الأوَّلِ، وهي مبهمةٌ تقعُ على كلِّ شيءٍ، جاء في بدائعِ الفوائدِ: "أن (ما) اسمٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/146.

مبهمٌ في غاية الإبهام، حتى أنَّها تقعُ على كلِّ شيءٍ، وتقعُ على ما ليس بِشَيءٍ، ألا تراك تقول: (إنَّ اللّه يعلم ما كان، وما لم يكن)، لفرطِ إبهامِها"[1].

وبناءُ (ما) يوافقُ استعمالها المتَّسع، فإنَّ مَدَّةَ الألفِ المُتَّسعة في آخرِها، تُشاكِلُ الاتِّساعَ في معناها في الأجناسِ[2]، فتظهرُ من ذلكَ عظيمُ اللَّبسِ الَّذي سيكونُ عليهم؛ إذ إنَّهم سيخفى عليهم: هل أنَّ الرَّسولَ الذي أرسل إليهم مَلَكٌ أم بَشَرٌ لِعَظيمِ اللَّبس، فأفادَ استعمالُ (ما) ودِلالَتُها المُتَّسعة على كُلِّ شَيءٍ في شكل المَلَكِ الَّذي سيظهرُ كالبَشَر تَمامًا بتمام، فيلتبس عليهم الأمرُ كلُّه، صوتُه وحركاتُه وإيماءاتُه، بل تلتبسُ عليهم حياتُه كُلُّها، فلا يُدركون أنَّه ملكٌ.

بيانُ العبرةِ المُستفادةِ مِنَ اللَّبسِ عليهم:

اللَّبْـسُ على المـخـاطـبـينَ، يُظهِرُ الضّعفَ، ومحدوديَّةَ قُدرةِ البشرِ

اللِّباسُ يعني: الشَّبيهَ في قوله: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ يعني: (ولشبَّهْنا عليهم ما يشبِّهون)[3]. والمعنى: أضلَلْناهُم بما ضَلّوا به قبلَ أن يُبْعَثَ الملكُ[4]، أي: لو أنزلنا إليهم ملكًا على هيئتِهِ لم يروه، فإذا جعلناهُ رَجُلًا؛ التبَسَ عليهم أيضًا ما يلبسون على أنفسِهم، فكانوا يقولون هذا ساحرٌ مثلُك، وقال أبو إسحاق: كانوا يقولون لِضَعَفَتِهم: (إنَّما محمَّدٌ بشرٌ، وليس بينه وبينكم فرقٌ)، فَيَلبسونَ عليهم بهذا، ويُشَكِّكونَهُم، فأعلَمَ اللّهُ تعالى أنَّهُ لو أنزل ملكًا في صورة رجلٍ؛ لوجدوا سبيلًا إلى اللَّبس كما يفعلون[5].

واللَّبس يُظهر محدوديَّةَ القُدرةِ البشريَّةِ في التَّمييز بين الواقع

---

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/131.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/131.
(3) يحيى بن سلاّم، التّصاريف في تفسير القرآن: 1/120.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 151.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/57.

والحَقيقةِ، فالمَلَكُ حقيقتُهُ أنَّهُ ملكٌ، ولكنَّ واقع ما سَيَكونُ عليه أنَّه سيأتي بهيئةِ بشرٍ، فيختَلِفُ الواقعُ عنِ الحقيقةِ، وقد أفادَ هذا المعنى: أنَّ كثيرًا من الحقائقِ تكونُ مغيَّبةً عن إدراكِ النّاسِ، فيأتي الوحيُ مِن عندِ اللهِ ليكشفَ للنّاسِ عن تِلكَ الحقائقِ، فَمن آمنَ بالغيبِ؛ فقد نجى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3].

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الأنعام: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلَبُهم لِلمَلَك الرّسول مَحْضُ استهزاء

بعد أن ذكرَ طلبَهم فيما سَبَق أن يُنزِّل عليهم ملكًا رسولًا؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك الطَّلبَ إنَّما كانَ على سبيلِ الاستهزاءِ برسولِ اللّه ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، فدلَّ على أنَّ مقترحَهم كان استهزاءً، وأنَّهم لم يطلبوا ذلك بقصد الإيمانِ والتَّحقُّق، وبيَّن لرسولِه أنَّ هذا الطَّلبَ كان له سابقةُ أذيَّةٍ في قرونٍ خَلَتْ مع الرُّسلِ قبلَ بعثتهِ ﷺ، فناسبَ وقوعُ الآيةِ من سابقتها موقعَ التَّسليةِ والتَّصبيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (هزأ)، من: هَزَأَ الرّاحلةَ؛ إذا حَرَّكها، والهُزءُ: مزحٌ في خفَّةٍ[1]، وأصل المادَّةِ من استخفافِ المستهزِئِ بالمُسْتَهزَأ به، وذَهاب قيمتهِ عندَهُ، وكلُّ ما ورد في القرآنِ من هذا التركيبِ؛ فهو بمعنى الاستهزاءِ والسُّخريةِ مع استخفافِ قدْرِ المستهزَأ بهِ[2].

2) ﴿فَحَاقَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حيق)، والمصدرُ: الحَوْقُ والحوقُ لغتان، وهو نزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، والحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسانِ من مُنكَرٍ أو سوءٍ يعملُهُ، فينزلُ به ذلكَ، تقولُ: أحاقَ اللّهُ به مكرَهُ[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ترجعُ

(1) الراغب، المفردات: (هزؤ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هزأ).
(3) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).

عاقبةُ مكرهِم إلّا عليهم![1] والحَوقُ: الكَنْسُ، حُقْتُ البيتَ أحوقُهُ؛ إذا كنستُهُ[2]، وهذا المعنى يدلُّ على جميلِ التَّعبيرِ في الآيةِ الكريمة في قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾، فصاروا باستهزائِهم من الرُّسُلِ كالأوساخِ الَّتي تُكْنَسُ.

3) ﴿سَخِرُواْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (سخر): يقال: سَخِرَ منهُ وبه، أي: استهزأَ، والسُّخريَّةُ: مصدرٌ في المعنيين جميعًا، قال اللّهُ جلَّ وعزَّ: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون: 110]؛ أي: سُخريَّة، وسِخريًّا في الاستهزاء[3].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تسليتُهُ ﷺ بأنَّ الاستهزاءَ بالرُّسلِ - عليهم السلام - ليس أمرًا حادِثًا

لمّا حكى اللّهُ طلبَ المشركينَ إنزالَ المَلَكِ على جهةِ الاستهزاءِ بمحمَّد ﷺ؛ بيَّن تعالى له أنَّ الاستهزاء بالمرسلين - عليهم السلام - ليس خاصًّا بك وحدَكَ، وهذا تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ عمّا كان يلقَى من قومِه، وتأسٍّ بمن سبَقَ من الرُّسلِ، وتثبيتٌ للرَّسولِ على عدم اكتراثِهِ بهم، وأنَّه تعالى يكفيه شرَّهم وإذايتهم، إذ قد وقعَ من الكفّارِ السّابقين مع أنبيائهم، فأحاطَ بهم العذابَ والعقابَ الشَّديدَ المرتَّبَ على الاستهزاءِ الَّذي كانوا ينكرون وقوعَهُ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العطفِ بالواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

بيانُ أنَّ التَّعجيزَ ضربٌ مِنَ الاستهزاءِ، وهو دَيدنُ المكذِّبين في كلِّ العصورِ

مناسبةُ عطفِ قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبْلِكَ﴾، على قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]: أنَّهم كانوا في قولِهم ذلك قاصِدين التَّعجيزَ والاستهزاءَ معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلّا عن يقينٍ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (حيق).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حيق).
(3) الخليل، العين: (سخر).
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/444، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 129.

منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، فابتدِئَ الرَّدُّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كلامِهم بقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: 8]. ثمَّ ثنَّى بتهديدِهم على ما أرادوهُ مِنَ الاستهزاءِ، فقالَ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيحيقُ بهمُ العذابُ، وأنَّ ذلك سنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأتْ برسولٍ له، والعطفُ لبيان تفنُّنِهم في المكابرة والعنادِ تصلُّبًا في شركِهم وإصرارًا عليه، فلا يتركون وسيلةً من وسائلِ التَّنفيرِ من قبولِ دعوةِ الإسلامِ إلّا توسَّلوا بِها[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلامِ القَسَم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

سنَّةُ اللهِ إهلاكُ المستهزئين، ممّن دأبُهم الاستهزاءُ بالرُّسلِ في كلّ حين

قولُهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، اللّامُ للقسم فيه، و(قد) للتَّحقيقِ، وكلاهما يدلُّ على التَّأكيدِ، والمقصودُ تأكيدُ الإخبارِ باعتبار ما تفرَّع عنهُ، وهو قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ إلخ، فحالُ المشركين حالُ المتردِّدِ في أنَّ سببَ إهلاكِ السّالفين مِنَ الأمم الاستهزاءُ بالرُّسلِ، وفي التَّأكيدِ زيادةُ تصبيرٍ وتسليةٌ وتثبيتٌ للرَّسولِ ﷺ.

سِرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

الاستهزاءُ بالرُّسلِ دأبُ الكافرين، وهو معهودٌ مع الرّسُلِ أجمعين

من أسبابِ البناءِ للمَفعولِ مراعاةُ غرضِ السّامِعِ، فلو كانَ السّامِعُ لا غَرَضَ له في ذكر الفاعِلِ، أو أنَّ الفاعِلَ لا يعنيهِ في شَيءٍ، فلا حاجَةَ لذِكرِه، ومثالُهُ في هذهِ الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ فليس مهمًّا هنا عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ أن يَعلَمَ من الذي استهزأَ بالرُّسُل من الأقوامِ الَّتي فعلت ذلك، ولكنَّ المُهمَّ أن يَعلَمَ أنَّ الاستهزاءَ بالرُّسُل كانت سُنَّةً كونيَّةً حصلتْ مع رُسُلٍ كثيرين.

ويكونُ الغرضُ من البناءِ للمفعول تحقيرَ الفاعلِ وتهوينَ أمرِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/146.

فلا يُذكرُ، وهذا غرضٌ آخر يُضافُ إلى البناء للمفعولِ في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وجاء ذلك في قولِه تعالى مخاطبًا رسلَهُ يوم القيامة: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، أي: بأيِّ شيءٍ أجابتْ أممُكُم وأقوامُكُم لمّا أمرتُموهُم بعبادةِ اللّهِ وحدَهُ؟ إلا أنَّ فاعل أَجَبْتُم حُذِفَ، وبُني الفعل للمفعول؛ لأنَّه لا يستحقُّ الذِّكْرَ تحقيرًا لشأنِه، قال الآلوسيُّ في تفسيره: "وفي العدولِ عن ماذا أجاب أممُكُم ما لا يَخفَى من الإنباءِ عن كمالِ تحقيرِ شأنِهم، وشِدَّةِ السَّخَطِ والغَيظِ عليهم، والسُّؤالُ لتوبيخِ أولئِكَ أيضًا، وإلّا فهو سبحانه علّامُ الغُيوب"(1).

بلاغةُ التَّنكيرِ، في قولِه تعالى: ﴿بِرُسُلٍ﴾:

الاستهزاءُ بالرُّسل سُنَّةٌ مجتمعيَّةٌ؛ لكراهةِ الحقِّ من كفّارِ البشريّةِ

قال: ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ولو شاءَ لقالَ: (بِالرُّسُلِ من قَبلِكَ)، وذلك لفائدتين الأولى التَّكثيرُ: فتنكيرُ (رُسُل) هنا أفادت معنى: (أنَّ كثيرًا من الرُّسلِ من قَبْلِكَ قد استهزَأَتْ بِهِم أقوامُهُم)؛ ليُعلَمَ أنَّ أمرَ الاستهزاءِ سُنَّةٌ مجتمعيَّةٌ، وهي سُنَّةُ اللّهِ في رُسُله، فأكثر النّاس يكرهون الحقَّ، ويرفضون الهُدى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزّخرف: 78]. والفائدةُ الثّانية: أنَّ التَّعريف يفيدُ جميع الرُّسلِ، ولعلَّ بعض الرُّسل لم يتعرَّضوا إلى ذلك الاستهزاءِ، مثالُ ذلك قومُ يونسَ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: 98].

دلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾، في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

زيادةُ حرفِ الجرّ مع الظّرف، مُوحٍ بإيغالِ ظاهرةِ الاستهزاءِ بالرُّسُلِ في الزّمن

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ للتَّوكيدِ، فلم يقلْ: (ولقد استُهزئ برسلٍ قبلك)؛ وتُزاد (مِن) إنْ كانَ المجرورُ بها نكرةً، وفائدتُها: الإشعارُ بعميقِ الزَّمانِ الَّذي لاقَت فيه الرُّسُل ذلك الاستهزاءَ من أقوامِها، وعلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/53.

مدى القُرونِ، فقد لاقت الرُّسُلُ من عهدِ نوحٍ عليه السلام - وهو أوَّلُ الرُّسلِ - قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]، إلى عيسى عليه السلام -وهو آخرهم- قبل محمَّد صلى الله عليه وسلم، فكُلُّ أولئكَ لاقَوا ما لاقوا من الإنكارِ والعناد والاستهزاء والإيذاء.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفاءِ التَّفريعِ، في قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾:

قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ تفريعٌ، على قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وقدِ اصطفى النَّظمُ الكريمُ ﴿فَحَاقَ﴾ على (أهلَكَ) لما فيها من الإحاطةِ؛ دلالةً على تمكُّنِ ذلك منهم، وعدمِ إفلاتهِ أحدًا منهم، وفائدةُ ذلك التَّفريع؛ أنَّه لمّا كان الَّذين سَخِروا يدعون النّاس إلى السُّخريَّةِ من الرُّسل، فقد أحاطتْ بهم ذنوبُهُم، وذنوبُ الَّذين سخروا، وحقَّ عليهمُ العذابُ، قال الزَّمخشريُّ: فأحاطَ بهمُ الشَّيءُ الَّذي كانوا يستهزئونَ به، وهو الحقُّ، حيثُ أُهلِكوا من أجلِ الاستهزاءِ بهِ[1].

إهــلاكُ السَّاخِرينَ إعلامٌ بدفاعِ اللهِ عن أوليائِه المرسلين

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، في قولهِ تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

وعبَّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾، بدلًا من أن يَقولَ: (بالسّاخرين)؛ للإشعارِ بعلّةِ الحُكمِ، فالعُقوبَةُ والإحاطَةُ أصابَت الَّذين سَخِروا خاصَّةً، والباءُ للإلصاقِ تناسُبًا مَعَ دِلالةِ ﴿فَحَاقَ﴾، وما فيها من الإحاطةِ، وفي ذلك كلِّهِ تأكيدٌ على الهَلاكِ التّامِّ بسببِ الاستهزاءِ بالرُّسلِ.

تكونُ العقوبةُ والإحاطةُ بالَّذين سَخِروا خاصَّةً، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا

وَجهُ عَودِ الضَّميرِ، في قوله تعالى: ﴿مِنْهُم﴾:

وللتَّعبيرِ بالضَّميرِ في ﴿مِنْهُم﴾ موقعٌ بديعٌ، فيحتملُ أن يكونَ عائدًا على ﴿بِرُسُلٍ﴾، والمعنى: (فَحاق بالَّذينَ سَخِروا مِن الرُّسُلِ)،

تخصيصُ الهلاكِ بمن يستحقُّه، ولا يجني العقوبةَ إلّا من زرعَ المخالفة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/8.

ويحتملُ أن يكونَ عائدًا على ﴿بِٱلَّذِينَ﴾، والمعنى: (فَحاقَ بالسّاخِرينَ أنفسَهُم)، فيكونُ فيه تخصيصُ الهلاكِ بمن سَخِرَ لا يتعدّاه لغيرِه.

بلاغةُ الاحتباكِ، في ثنايَا الآيةِ الكريمةِ:

سُننُ اللهِ في الوجودِ أقوَى وأبلغُ وأجدَى

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يدلُّ على جملتينِ مطويَّتينِ إيجازًا، دلَّ على حذفِ جملةِ: (ولقدِ استهزئَ بك)، وإثباتِ جملةِ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دلَّ على حذفِ جملةِ: وسيُحاقُ بالَّذين سخروا منك ما كانوا به يَستَهزِئونَ، فأثبتَ ما وقعَ، وحذفَ ما لم يقع؛ اكتفاءً بالقياسِ على ما وقعَ، وهو أسلوبٌ بديعٌ موجزٌ.

معنى (الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿بِهِۦ﴾:

إلصاقُ الاستهزاءِ بالرُّسُلِ وبالرِّسَالَاتِ؛ لبيانِ ما جنتهُ الضّلالاتُ

الباءُ للإلصاقِ تناسبًا مع دلالةِ ﴿فَحَاقَ﴾، وما فيها من الإحاطةِ، قال ابن هشام: "وهو معنًى لا يفارقُها، فلهذا اقتصرَ عليه سيبويه"[1]، وكلامُ سيبويهِ يفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معنًى أصليٌّ، وغيره من المعاني تابعٌ له، فقد أُلْصِقَ الاستهزاءُ بالرُّسلِ وبالرِّسالات، لِبَيانِ شَنيعِ ما تفعلُهُ الأقوامُ بالرُّسلِ من التَّكذيبِ والاستهزاءِ، ولبيانِ أنَّ هذه صفةٌ ملتصقةٌ بالأقوام، فهي سُنَّةُ اللّهِ في الرُّسُلِ وأقوامِهِم.

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

الهُزءُ بالدِّينِ والشَّرائعِ، أبشعُ صُورِ السُّخريةِ

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لتعديةِ فعلِ الاستهزاءِ، ووجود الباءِ مانعٌ من جعلِ ﴿مَّا﴾ غيرَ موصولةٍ، والمرادُ بـ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما أنذرَهُمُ الرُّسلُ بِهِ من سوءِ العاقبةِ وحلولِ العذابِ بهم، فحصلَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ المستهزئينَ كانوا يستَهزِئون بالرُّسل، وبخاصَّةٍ فيما ينذرونَهُم به من حلولِ العذابِ، إنِ استمرّوا على عدمِ التَّصديقِ، بما جاؤوا به.

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137.

بلاغةُ المجازِ العقليّ في سياقِ الآية الكريمةِ:

إسنادُ الهلاكِ لسببِهِ تفظيعٌ للاستهزاءِ، وتحفيزٌ على سُرعةِ الإقلاعِ عنهُ

قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أصلُ تركيب الآيةِ: فحاقَ بالَّذين سَخِروا منهم العقابُ لاستهزائهم بما أُنذِروا به، وفي الآية الكريمة تمَّ إسنادُ الفعلِ إلى السَّببِ المؤدّي للعقابِ، وهو الاستهزاءُ بالمرسلين، وفي هذا الإسنادِ تبشيعٌ للسَّبب، وتفظيعٌ له في التَّصويرِ كأنَّه المُعاقِبُ، كما أنَّ في هذا الأسلوب إيجازًا ومبالغةً.

وقد ردَّ الآلوسيُّ هذا الإسنادَ إلى الفعل، فقالَ: "ومن النّاس من زعمَ أن (حاق بهم) كنايةٌ عن إهلاكهم، وإسنادُه إلى ما أسندَ إليه مجازٌ عقليٌّ من قبيلِ: أقدمني بلدَك حقٌّ لي على فلانٍ؛ إذ من المعلوم من مذهبِ أهل الحقِّ أنَّ المُهلِكَ ليس إلّا اللّهُ تعالى، فإسنادُهُ إلى غيره لا يكونُ إلّا مجازًا، وأنت تعلم أنَّ الحيقَ: الإحاطةُ، ونسبتها إلى العذابِ لا شبهةَ في أنَّها حقيقةٌ، ولا داعي إلى تفسيرِهِ بالإهلاكِ وارتكابِ المجازِ العقلي، ولعلَّ مرادَ من فسَّر بذلك بيانُ مؤدَّى الكلامِ ومجموعِ معناهُ، نعم إذا قلنا: إنَّ الإحاطةَ إنَّما تكون للأجسامِ دون المعاني، فلا بدَّ من ارتكاب تجوُّزٍ في الكلامِ على تقديرِ إسنادِها إلى العذابِ، لكن لا على الوجهِ الَّذي ذكرهُ هذا الزَّعمُ كما لا يخفى"[1].

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

كلُّ ما له صِلةٌ بالسُّخرِيةِ، قد حَاقَ بالأقوامِ نَكالُه ليُهلِكَهُم

﴿مَّا﴾ هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، و(ما) تقعُ على ذواتِ ما لا يَعقِلُ، وعلى صفاتِ من يَعقِلُ، وبذلك فإنَّ (ما) أكثر إبهامًا مِنْ (مَنْ)، وتقعُ على كلِّ شيءٍ[2]. و﴿مَّا﴾ أفادت هُنا أنَّه قد حاقَ بالَّذين سخروا كُلُّ ما كانوا به يستهزئونَ، فكلُّ ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى السُّخريَّة مِنَ الرُّسُل ومن الرِّسالاتِ الَّتي جاؤوا بها من عندِ اللّهِ، قد حاقَ بهم، وأحاطَ بهِم نكالُه ليُهلِكَهُم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/97.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/309.

سرُّ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، في الآية الكريمة:

قدِ استشهد بالآيةِ في موضع التَّصديرِ، أو ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وفائدةُ هذا الفنِّ البلاغيِّ في الآيةِ الكريمة بيانُ ما قد أحاطَ بهؤلاءِ القوم من غَوايةِ الشَّيطان وإضلالِه، وتأكيدِ سببِ العذابِ.

تدورُ الدَّوائرُ على المقتفين غيرَ الحقِّ، والمعانِدين بالباطلِ

التَّشابهُ اللَّفظيُّ مع آية الرّعد:

يظهرُ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ للآيةِ مع قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرعد: 32]. وهذه الآية تُفسِّرُ معنى (حاق) في آية الأنعام، فذكرَ بعد ما وقع مِنَ الأقوام من الاستهزاءِ بالرُّسلِ، فقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والذين كفروا هم أنفُسُهُم الذين استهزؤوا بالرُّسُل، وقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾، فجعل معنى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أن يتضمَّنَ الإملاءَ لهم، ثمَّ أخذهم بما أملَى عليهم.

الحوقُ يَتَضمَّنُ الإملاءَ لهم، ثمَّ أخْذَهم بما أُمليَ عليهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حاق) و(أحاط):

قولهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨﴾ [هود: 8]. قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ينزلُ ولا يصيب إلّا أهلَهُ، وأصلهُ حقٌّ، فَقُلِبَ[1]. فَحاقَ تَضَمَّنَتْ معنى إنزالِ العذابِ والإصابة، وما يُحقِّقُه من الأثرِ العظيم على خلاف الإحاطةِ، فالحائطُ الجدارُ الَّذي يحوطُ بالمكانِ، والإحاطةُ تُقالُ على وجهين: أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكانٍ كذا، أو تستعملُ في الحفظِ والقدرة نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظٌ له من جميع جهاته، وقادر على التَّصرُّف به، وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلّا أن تمنعوا. والثاني: في العلم نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، وذلك ليسَ إلّا للّهِ تعالى، وقال ﷻ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ

لفظةُ (حاقَ) أبلغُ من (أحاطَ)، في معنى وقوعِ العذابِ وتلبُّسِهم به

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 266.

﴿بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: 39]، فنفى ذلكَ عنهم[1]، فتكونُ الإحاطةُ تحتمل الحفظَ وتمام العلم، وتكونُ كلمةُ (حاق) أبلغَ في وقوعِ العذابِ وتلبُّسِهم به.

(سخروا) و(استهزأوا):

السُّخريَّةُ والاستهزاءُ يمكن أن يحدثا في موقفٍ واحدٍ، فهما درجتان أو مرحلتان؛ والاستهزاءُ يأتي أوَّلًا ثمَّ السُّخريَّةُ، والاستهزاءُ مزحٌ في خفَّةٍ، والسُّخريَّةُ المُبالغةُ في الاستهزاءِ وتسخير الجهدِ فيه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾ [الصّافّات: 14]، أي: يدعو بعضُهم بعضًا للاستهزاءِ والسُّخريَّةِ.

الاستهزاءُ مزحٌ في خفَّةٍ، والسُّخريَّةُ المُبالغةُ فيها

والاستهزاءُ مرادفٌ للسُّخريَّةِ في كلامِ أئمَّةِ اللُّغة، فذكر ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ أوَّلًا لأنَّه أشهرُ، ولمّا أعيدَ؛ عبَّر بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، ولما أعيدَ ثالثَ مرَّةٍ؛ رجعَ إلى فعل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّه أخفُّ من (يسخرون)، وهذا من بديعِ فصاحةِ القرآنِ المعجزة.

وأصلُ مادَّةِ (سخر) مؤذنٌ بأنَّ الفاعلَ اتَّخذ المفعولَ مسخَّرًا يتصرَّف فيه كيف شاءَ بدون حُرمة؛ لشدَّةِ قربِ مادَّةِ (سخر) المخفَّفُ من مادَّةِ التَّسخيرِ، أي: التَّطويعِ، فكأنَّهُ حوَّله عن حقِّ الحرمةِ الذّاتيَّةِ، فاتَّخذ منه لنفسِه سخريَّةً[2].

ولقد تعدَّى استهزأَ بـ (الباء)، وسَخِر بـ (من) كما قال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]، وبالباءِ تقولُ: سَخِرْتُ به، وتكرَّرَ الفعلُ في آيةِ هودٍ لخفَّةِ الثُّلاثي، ولم يتكرَّرْ في ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، فكان يكونُ التَّركيبُ، فحاقَ بالَّذين استهزَؤوا منهم؛ لثقلِ (استفعل)، والظّاهرُ في (ما) أن تكون بمعنى الَّذي، وجَوَّزوا أن تكونَ (ما) مصدريَّةً[3].

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 152.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/148.

(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/445.

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ما حاقَ بالسّابقِين، والدّعوةِ إلى النّظرِ في عاقبةِ المكذِّبين

هذه الجملةُ افتُتِحَتْ بالأمرِ بالقولِ؛ لأنَّها واردةٌ موردَ المحاورةِ على قولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]، ووِزَانُها وزانُ البيانِ لمضمونِ الجُملةِ الَّتي قبلَها؛ ولذلك فُصِلت، فإنَّ الجملةَ الَّتي قبلَها، تُخبر بأنَّ الَّذين استهزَؤُوا بالرُّسل، قد حاقَ بهم عواقبُ استهزائِهم، وهذه تحدُوهُم إلى مشاهَدَةِ ديارِ أولئك المُستهزئين، وأن يشاهدوا مصارعَ من تمكَّن في قلوبِهم عِلمُ أنَّهم أُهلكوا بمثل تكذيبِهم، من قومِ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرِهم؛ ليغنيهم ذلك عن مشاهدةِ ما اقترحوا، وليس افتتاحُ هذه الجملةِ بخطابِ النَّبيِّ ﷺ منافيًا لكونها بيانًا؛ لأنَّه خُوطبَ بأن يقول ذلك البيان، فالمقصودُ ما بعدَ القولِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيرُواْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (سير)؛ والسَّير: معروفٌ، سار يَسير سَيرًا ومَسيرًا[2]، ورجل سَيّارٌ، وقوم سيّارةٌ، وساروا من بلدٍ إلى بلدٍ، وسارَ دابَّتَهُ وسيَّرها وأسارها إلى المرعى، وسيَّره من البلدِ: أشْخَصَهُ وغرَّبَهُ[3].

والمعنى في الآية: أوقعوا السَّيرَ للاعتبارِ.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عقب)، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وتجمعُ على أعقابِ، وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُه وولد ولَده الباقونَ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/29، ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/148.
(2) الخليل، العين: (سير).
(3) النيسابوري، المستدرك: 1821.

بَعدِه(1)، والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقبِ الشَّيءِ، أي: آخره، أي: هي ما يؤولُ إليه أمرُهُ، ثمَّ تكونُ حَسَب حالَ الشَّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ(2). فالعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]، والعاقبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وقد تُستعملُ في العقوبة، قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، والعُقوبةُ والمُعاقبةُ والعقابُ يُختصُّ بالعذابِ، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126](3).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الآيةُ الكريمةُ خطابٌ للرَّسولِ ﷺ لمُشركي مكَّةَ بأن يَسيروا في الأرضِ طلبًا للمنافع، وأن ينظُروا أحوالَ الهالكينَ من الأممِ السّابقةِ، لعلَّهم يرتدعون بالمكذِّبين الَّذين أهلكَهُم تكذيبُهم بمشاهدةِ آثارِهم وسماعِ أخبارِهم.

الدَّعوةُ إلى مشاهَدةِ مصارعِ المكذِّبينَ، للاعتبارِ بمصيرِهم المهينِ

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ هذا السَّيرَ المأمورَ بِه، هو سَيْرُ القلوبِ والأبدانِ الَّذي يتولَّد منه الاعتبارُ، وأمّا مجرَّدُ النَّظرِ من غيرِ اعتبارٍ، فإنَّ ذلك لا يُفيدُ شيئًا(4).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ﴾ وما بعده:

قولُه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾: هذه بدايةُ سلسلةِ ردودٍ وأجوبةٍ عن مقالتِهم المحكيَّةِ آنفًا لتضمُّنها التَّصميم على الشِّركِ وتكذيبِ الرِّسالة، فكانت منحلَّةً إلى شُبَهٍ كثيرة، أريد ردُّها وتفنيدُها، فكانت هاتِه الرُّدودُ كلُّها مفتتحةً بكلمة

الحُججُ الإلهيّةُ الموحَى بها، مُقنِعةٌ للعقل، داحضةٌ للخَصمِ

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 129.

﴿قُلۡ﴾ عشرَ مرّاتٍ حتى نهايةِ الآيةِ التاسعةَ عشرةَ من هذا السياق التَّفنيديِّ لمقالاتِ المشركين، وجاءت الحجَّةُ ملقَّنةً بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ دلالةً على قوَّتها باعتبار من صدرت منهُ، وهو الحقُّ - ﷻ -[1]

تَنوُّعُ الأسلوبِ ودلالتُهُ بين الحقيقةِ والمجازِ، من فصيحِ البيانِ

معنى قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ﴾، وقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ في الآيةِ الكريمة:

الآيةُ حضٌّ على الاعتبارِ بآثارِ من مضى ممَّن فعل فِعلَهم[2]، والظّاهرُ أنَّ السَّيرَ المأمورَ به، هو الانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وأنَّ النَّظرَ المأمورَ به، هو نظرُ العينِ، وأنَّ الأرضَ هي ما قَرُبَ من بلادِهم من ديارِ الهالكين بذنوبهم؛ كأرضِ عادٍ ومَديَنَ ومدائن قوم لوطٍ وثمود، وأريد هُنا من السَّيرِ في الأرضِ: سيروا فيما حولكُم مِنَ القُرى، فذكرَ الكلَّ، وأراد الجُزءَ.. على سبيل المجاز، والعلاقةُ الكُلِّيَّة[3].

والنّاظرُ في الآيةِ الكريمةِ يراها جملةً نحويةً واحدةً إنشائيَّةً، تتابعَ فيها فعلُ الأمرِ ثلاثَ مرّاتٍ، والاستفهامُ مرَّةً ﴿قُلۡ﴾ ﴿سِيرُواْ﴾ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، والأسلوبُ الإنشائيُّ الطَّلبي أسلوبٌ حواريٌّ لا تلقيني، وهو الأنسبُ مع نهج الحوار وطرائقِهِ، والأمرُ الأوَّلُ على سبيل الحقيقةِ، والأمر الثّاني خرجَ من الأمر إلى الإباحَةِ، والأمرُ الثّالث عادَ إلى الحقيقة، فالنَّظرُ للتدبُّر، والاعتبارُ واجبٌ، وأسلوبُ الاستفهام خرجَ إلى المجازِ للتَّخويفِ والتَّهديدِ من عاقبة السّابقين، وإلماع لهلاكهم كما هَلَكوا، والآيةُ الكريمةُ على وجازتِها ضمَّت كلَّ هذه المعاني.

انتشارُ حالاتِ العِقابِ الإلهيِّ، للأقوامِ في عُمومِ الأرض

معنى الحرف ﴿فِي﴾ ودلالتُه في الآيةِ الكريمةِ:

فائدةُ حرفِ الجرِّ (في) عند قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ هي الظَّرفيَّة المكانيَّةُ، وجاء في المُقتضَبِ: "وأمَّا (في)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/149.
(2) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/318.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/445.

فهي للوعاءِ"[1]، تقول: هو في الجِرَاب، وفي الكِيسِ، وهو في بطن أمِّه، وإن اتَّسعَتَ في الكلامِ، فهي على هذا، وإنَّمَا تكونُ كالمَثَلِ يجاءُ بِهِ يقاربُ الشَّيءَ، وليسَ مثلَهُ[2]، فالمعنى المُستفادُ هُنا من الظَّرفِيَّةِ المكانيَّة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، هو انتشارُ حالاتِ العذابِ في عموم الأرضِ، وهو مناسبٌ لتكثيرِ حالاتِ الاستهزاءِ بالرُّسُلِ. وتكون هنا بمعنى (على)، وإنما أتت ﴿فِى﴾ بمعنى (على)؛ لبيانِ أنَّهُ ينبغي أن يكونَ السَّيرُ في الأرضِ عميقًا، كأنَّما يسيرون في جوفِ الأرضِ؛ لاستجلابِ العظةِ والاعتبارِ.

معنى لفظِ (الأرضِ)، في الآيةِ الكريمةِ:

جعـلَ الـلـهُ في الأرضِ آيـاتٍ تَستَحِقُّ التّدبّرَ والتَّفكُّرَ

والأرضُ هي ما قربَ من بلادِهم من ديارِ الهالكين بذنوبهم، كأرضِ عادٍ ومدين ومدائنِ قوم لوطٍ وثمود، أو أنَّ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هنا لفظٌ عامٌّ؛ لأنَّ في كلِّ قطرٍ منها آثارًا لهالكين، وعبرًا للنّاظرين[3]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والسَّيرُ عمومًا يكونُ في الأرضِ، ودلالةُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: في مواطنَ مختلفةٍ مِنَ الأرض، ويمكنُ أن يُفهمَ أيضًا تنوُّعُ الغايةِ مِن ذلك السَّيرِ، كأن تكونَ للعَملِ، أو التِّجارة، أو السّياحة، أو غير ذلك، فإذا سِرْتُم لهامِّكُم؛ فانظُروا في مواطنَ مختلفةٍ من الأرض، وما تركَ اللّهُ فيها من آياتٍ تَستَحِقُّ التَّفكُّرَ، مِمّا أصابَ الأقوامَ المستهزئةَ بالرُّسلِ.

فائدةُ التَّرقِّي، منَ السَّيرِ إلى النَّظرِ إلى الاستنتاجِ:

الـسَّيرُ والنَّـظرُ مـيدانٌ عظيمٌ، في توعيّةِ الفكرِ والرُّقيِّ به

استخدمتِ الآيةُ حرفَ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ لبيان التَّراخي الرُّتبي، كما هو شأنُها في عطفِ الجُملِ، فإنَّ النَّظرَ في عاقبةِ المكذِّبين هو المقصدُ من السَّيرِ، فهو ممّا يُرتقى إليه بعدَ الأمرِ بالسَّيرِ؛ ولأنَّ هذا

(1) المُبّرد، المُقتضب: 4/139.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/308.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/445.

النَّظرَ محتاجٌ إلى تأمُّلٍ وترسُّمٍ، فهو أهمُّ من السَّيرِ، وبهِ يتحقَّقُ مناطُ السَّيرِ والغرضُ منه.

أمّا قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ فمعناه إباحةُ السَّيرِ في الأرضِ للنَّظرِ في عظيمِ خلقِ اللّهِ ولتحقيقِ منافعَ أخرى غيرها، وإيجابُ النَّظرِ في آثارِ الهالكين، ونبَّهَ على ذلك بـ ﴿ثُمَّ﴾، لتباعدِ ما بين الواجبِ والمُباح(1).

دلالةُ استعارة النَّظرِ بالعينِ الباصرةِ، في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

ويمكنُ أن يكون النَّظرُ مجازيًّا، ففي قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ استعارةُ محسوسٍ لمعقول، فاستعار النَّظَرَ بالعَينِ الباصِرَةِ للتَّفَكُّر الذِّهنيِّ وهو عقليٌّ، ونكتتُه البلاغيَّةُ الإشارةُ إلى أنَّ المطلوبَ هو التَّفكُّرُ العميقُ الذي تتولَّدُ عنه حقائقُ الإيمانِ حتَّى لكأنَّها تُرى بالعين(2).

النَّظرُ هُنا للتَّفكُّرِ الذِّهنيِّ، والتّبصُّرِ الواعِي

معنى الاستفهامِ بقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ﴾.

التَّعجيبُ من حالِ المكذِّبين، وما يؤولُ إليه حالُهم المهينُ.

كيفَ: اسمٌ مبنيٌّ على الفتح يستعملُ للاستفهامِ الحقيقيِّ ولغيرِ الحقيقيِّ.

و﴿كَيۡفَ﴾ معلّقةٌ لفعلِ النَّظرِ، ومحلُّ الجملةِ النَّصبُ بنزعِ الخافضِ، أي: تفكَّروا في أنَّهم كيفَ أهلكوا بعذابِ الاستئصالِ؟

ومعنى "كيف" هنا "حال"، أي: انظرْ حالَ عاقبةِ المكذِّبين بعد موتِهم أين البطشُ الَّذي كانوا يبطشونه، والجبروتُ الذي كانوا يطغونَ به، وأين المالُ والبنونَ وما كانوا يغترّون به؟

سِرُّ تعليقِ ﴿كَيۡفَ﴾ بفعلِ النَّظرِ:

النَّظرُ يكونُ بمعاينةِ الأحداثِ، والعِبرةُ بالمُرورِ بمواطنِها وآثارِها

في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فعلّق ﴿كَيۡفَ﴾ بفعلِ النَّظرِ، والنَّظرُ لا يكون إلا بمواطنِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/10.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/282.

الأحداثِ والمُرور بها، فدلَّت ﴿كَيۡفَ﴾ على المشاهدةِ الفعليَّةِ لتلك المواضعِ ومُعاينتها، ومكانُ بدءِ السَّير ناءٍ عن مكان الأحداث، وإلا لَما أمرنا بالسَّير إليه، فجاءت (ثُمَّ) للدِّلالةِ على التَّباعد بين المكانين، أو جاءت ثمَّ للتَّباعُدِ في الرُّتبة؛ لأنَّ رتبةَ التَّأمُّل والنَّظر فوق رتبة مجرَّدِ السَّيرِ[1]، وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فمجموعُ هذا التَّركيبِ مستعملٌ في التَّعجيبِ ممّا حدث لهم، والتَّعريضُ بمشركي العربِ لمشابهةِ حالهم حال الأممِ الهالكةِ[2].

سِرُّ تذكيرِ الفعلِ: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، دونَ تأنيثِه: (كانت عاقبة):

تأتي العاقبةُ بمعنى محلِّ العذابِ أوِ العذابِ نفسِه

في لغةِ العربِ يجوزُ تذكيرُ الفعلِ وتأنيثُه، فإذا كان المعنى مؤنَّثًا؛ يُستَعملُ الفعلُ مؤنَّثًا، وإذا كان المعنى مذكَّرًا؛ يُستعملُ الفعلُ مذكَّرًا، والأمثلةُ في القرآنِ كثيرةٌ، منها هذه الآيةُ، وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: 73]؛ إذ المقصودُ بالعاقبةِ هنا (محلُّ العذاب)؛ فجاء الفعلُ مذكَّرًا، أو (العذاب) نفسُه وهو مُذكَّرٌ، فجاء الفعل مُذكَّرًا أيضًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العاقبة)، دون مرادفاتها، في سياق الآيةِ الكريمة:

التَّوعُّدُ في الآيةِ بأنَّ خواتيمَ هؤلاءِ، ستؤُولُ إلى سُوءِ المصيرِ

و(العاقِبةُ) آخرُ الشَّيءِ ومآلُه، وما يعقبُهُ من مسبِّباتِه، وفيها معنى التَّوعُّدِ بأنَّ خواتيمَ هؤلاءِ ستكونُ من السّوءِ بمكان، والاسميَّةُ في قوله: ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لدلالةِ الاستقرارِ والثَّباتِ على حالِ التَّكذيب، فانسجَمَ ذلك المعنى مع معنى العاقبةِ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

المتشابهُ اللَّفظيُّ، ووجهُ العطفِ بالحرف ﴿ثُمَّ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾، وفي موضعٍ آخرَ بالفاء ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل: 69]، وقال هُنا ﴿عَٰقِبَةُ

(1) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/282.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/283.

سياقُ آيةِ الأنعامِ للأمرِ بالسَّيرِ، وآيةِ النَّملِ ونظائرِها، للأمرِ بالنَّظرِ بعدَ السَّيرِ

﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وفي النَّمل: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ [النمل: 69]، وتفسير ذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ ظاهرةٌ بالأمرِ في السَّيرِ في بلادِ المُهلَكين، فناسَبَ (ثُمّ) المُرَتِّبةُ على السَّيرِ المأمورِ به، وفي المَواضِعِ الأُخَرِ الأمرُ بالنَّظرِ بعد السَّيرِ المُتقدِّم، كقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [الرّوم: 9]؛ فناسبَ أن يأتيَ بالفاءِ، كأنَّه قيل: (قد ساروا فلينظروا)، أو (قد ساروا فنظروا عند سيرهم)، ولما تقدَّمَ هُنا قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام: 5]، ناسَبَ قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، ولم يتقدَّم مثلُه في النَّمل[1].

ويرى فخرُ الدّين الرازيُّ أنَّ الفرقَ بين الفاء و(ثمَّ) يتمثَّل بأنَّ "قوله: (فانظروا) يدلُّ على أنَّه تعالى جعل النَّظرَ سببًا عن السَّير، فكأنَّهُ قيلَ: سيروا لأجلِ النَّظرِ، ولا تسيروا سيرَ الغافلينَ، وأمّا قولُه: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ فمعناهُ إباحةُ السَّيرِ في الأرضِ للتِّجارةِ وغيرِها من المنافعِ، وإيجابُ النَّظرِ في آثارِ الهالِكين، ثُمَّ نبَّهَ اللّهُ تعالى على هذا الفرقِ بكلمةِ (ثُمّ) لتباعُدِ ما بين الواجبِ والمُباح"[2].

وجهُ الجمعِ بين النّهيِ النَّبويِّ، عن دخولِ ديارِ المُهلَكِين، والأمرِ في الآيةِ بهِ:

لا تُدخلُ ديارُ المُهلَكينَ إلَّا للاعتبارِ والادِّكارِ

الواضحُ من الآيةِ ما وردَ من جوازِ السَّيرِ في الأرضِ بشرطِ التَّفكُّرِ والنَّظَرِ والتَّدبُّرِ فيما حدثَ في أزمانٍ غابرةٍ، بتلك الأقوامِ التي أنكرتِ الرِّسالاتِ، وكفرتْ واستهزأتْ برسلِها، أَمّا ما وردَ من أحاديثَ نبويَّةٍ حول نهيِ النَّبيِّ عن دخولِ مواطنِ العذابِ، فقد ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ نهي المسلم عن الدُّخولِ إلى مواطنِ العذابِ والمُرورِ بها؛ إلّا أنْ يكونَ المارُّ باكيًا خاشعًا، فقد روى البخاريُّ عن عبدِ اللّه بن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «لا تَدْخُلوا عَلَى هؤلاءِ المُعَذَّبينَ إِلّا أَنْ تَكونوا باكينَ، فَإِنْ لَمْ تَكونوا باكينَ فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِمْ، لا

(1) ابن جماعة، كشف المعاني: 92 - 93.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/488.

يُصيبُكُمَ ما أَصابَهُمَ»[1]. وكان هذا النَّهي منه ﷺ لمّا مرَّ مع أصحابه بالحِجْرِ، وهي ديارُ ثَمودَ عند توجُّهِهم إلى تَبوك، وجامعُ ذلك ألّا يدخُلَ الإنسانُ تلك المَواضع إلا أن يكونَ لغايةِ العبرةِ واستذكارِ عظمةِ اللّه تعالى، وأن يسألَه رحمتَه والتَّوبةَ عليه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّكذيب والاستهزاء:

التَّكذيبُ يجمعُ بين المستهزئينَ والسَّاخِرين في مُشتَركاتِ الطِّباعِ

وإنَّما وُصِفوا بـ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دون (المُستهزئين)؛ وذلك لأنَّ التَّكذيبَ يجمعُ المُستهزئينَ والسّاخرين، ويضمُّ إليهم كذلك كلَّ من كذَّبَ، حتَّى وإن لم يسخر أو يستهزئ، للدَّلالة على أنَّ التَّكذيبَ والاستهزاءَ كانا خُلُقين من أخلاقهم، وأنَّ الواحدَ من هذين الخُلُقين كافٍ في استحقاقِ تلك العاقبةِ؛ إذ قالَ في الآيةِ السّابقة: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾. وهذا ردٌّ جامعٌ لدحضِ ضَلالاتِهم الجاريةِ على سُنَنِ ضَلالات نُظَرائِهِم مِنَ الأمَمِ السّالِفَة مِنَ المُكذِّبين[2].

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (433).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/149.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّدرُّجُ من النّظرِ في عاقبةِ المكذّبينَ، إلى التّبصُّرِ بالقُدرة على الحشرِ يومَ الدِّين

بعد أن أمرَ المُخاطَبينَ بالسَّير والنَّظر إلى مواقعِ المُكذِّبين ومساكنِهم، من أهل القرى الَّتي حولَهم وغيرِها، لَفتَ هُنا أنظارَهم إلى عظيمِ ما خلقَ اللّهُ من السّماوات والأرضِ، وأمر رسولَه بمحاجَّةِ غيرِ المؤمنين بذلك، ثمَّ بيَّن أنَّ من خَلَقَ هذا الخلقَ لم يخلقْهُ عبثًا، وإنَّما سيجمعُ النّاسَ كُلَّهم إلى ذلك اليومِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيۡبَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (ريب)؛ وأصلُ الرَّيبِ: الشَّكُّ، أو الشَّكُّ والخوفُ، والرَّيب: ما رابك من أمرٍ تخوَّفتَ عاقبتَهُ[1]، والرَّيبُ والرَّيبةُ الظِّنَّةُ والتُّهمةُ، وربَّتُهُ أوصلْتُ إليهِ الرّيبَةَ، وقيل: رابني علمتُ منه الرَّيبةَ، وأرابني ظننتُ ذلك بهِ[2]، والرَّيبُ: صَرفُ الدَّهرِ، وعَرَضُه وحَدَثُهُ[3]، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور: 30]، أي: نازلةُ الموتِ، والرَّيبُ أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهَّمُهُ[4]، والرَّيبُ هنا: بمعنى الشَّكِّ.

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (خسر)؛ والخُسرُ: النُّقصانُ[5]، والخسرانُ كذلك[6]، وسائرُ ما في القرآن من هذا التركيبِ هو

(1) الخليل، العين: (ريب).
(2) ابن سيده، المحكم: (ريب).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (ريب).
(4) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (ريب).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (خسر).
(6) الخليل، العين: (خسر).

بمعنى فَوْتِ ما كان يمكنُ أن يفوزَ به صاحبُه من ثوابٍ ونعيمٍ، لو آمنَ باللّهِ واتَّبعَ شرعَهُ[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ أَدلَّةِ وجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِهِ، وشُمولِ مُلْكِهِ، وجمْعِه للعبادِ يومَ المعادِ

يبيِّنُ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ أَدلَّةَ وجودِ اللّه ووحدانيَّتِهِ وشمولِ مُلْكِه، ففيها أمرٌ من اللهِ لنبيِّه ﷺ أن يقرِّرَ قومَه بأنَّه - سبحانه - مالكُ السّماواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، وأنَّه استعبَد كلَّ شيءٍ، وقهرَ كلَّ شيءٍ بملكِهِ وسُلطانِهِ، وأوجبَ على نفسهِ الرَّحْمةَ التّامَّة، فضلًا منه وكرمًا، فلا يعجِلُ بعبادِه العقوبةَ، ويقبل منهم الإنابةَ والتَّوبةَ، ومن مقتضى واسعِ رحمته أن يجمعَكُم - أيُّها النّاسُ - إلى يوم القيامةِ الَّذي ليسَ من شأنه أن يرتابَ فيه من تدبَّرَ دلائلَ رحمةِ اللّهِ وحكمتَهُ وقدرتَهُ، فالذين خسروا أنفسهم بإهدارِ قواهم العقليَّةِ، وتعطيلِها عن النَّظرِ في آياتِ اللّهِ، هؤلاءِ لا يؤْمنون بما دعوتَهم إليه - أيُّها الرسول - من توحيدِ اللّه، والإيمان بيوم البعثِ والنشورِ. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى استعطافِ اللّهِ الرَّحيمِ للمُعرضين عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوبةِ، وإلى تحفيزِ المؤمنين على زيادةِ الطّاعةِ رغبةً فيما عندَ اللّهِ من حسنِ الجزاءِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ، في مَطلعِ الآيةِ الكريمة:

النَّظرُ إلى الكونِ البديعِ، يُنبئُ بأنّه صنْعُ ذي الجلالِ الرّفيعِ

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، هذا السُّؤالُ سؤالُ تبكيتٍ وتقريرٍ، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ تقريرٌ لهم، أي: هو للّهِ لا خلافَ بيني وبينكم[2]، والاستفهامُ مجازيٌّ؛ لأنَّ المُستفهمَ لا يطلبُ معرفةَ علمٍ لم يكن يعلمُهُ، بل هو تقريرٌ مُرادٌ بِهِ لازمُ معناهُ، وهو تبكيتٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/10.

للمشركين، وإلجاؤُهُم إلى الإقرارِ بما يفضي إلى معتقدِ الشِّركِ عندَهُم، فهو مستعملٌ في معناه الكنائيِّ مع معناه الصَّريح، فالمقصودُ هو المعنى الكنائيِّ[1]، والاستفهامُ مستعملٌ مجازًا لتقريرِ عظيم خَلقِ اللّهِ تعالى؛ إذ تفتح الآيةُ أمام النّاظرين المخاطَبين صفحةَ الكون، ولتقرير حقيقة الإيمان الّتي هي خضوعُ عظيم هذا الخلقِ، لعظيم القدرة الإلهيَّة، ويجوز أن يجعلَ تصديرَ هذا الكلامِ بالأمرِ بأن يقولَهُ مقصودًا به الاهتمامُ، بما بعد فعل الأمرِ[2].

وجهُ الحذفِ الواقعِ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

قيُّوميَّةُ اللهِ هي الشّاهدُ الأعظمُ، على إبداعِه لهذا الخلْقِ

وفي الكلام حذفٌ تقديرُهُ: فإذا لم يُجيبوا، فقل: للّه، وقال قومٌ: المعنى: أنَّهُ أمَرَ بالسُّؤال، فكأنَّهُ لمّا لم يُجيبوا؛ سألوا، فقيلَ لهم: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، وللّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، التَّقديرُ: قل: ذلك أو هو للّهِ، والجوابُ معروفٌ، الغايةُ منه تنبيهُ الغافلين إلى عظيم خلقِ اللّه، وإعادةِ النَّظرِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في عظمةِ الخالقِ سبحانه.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

السّماواتُ والأرضُ وعاءُ المخلوقاتِ، الدّالّةِ على ربِّ الموجوداتِ

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، (ما) اسمُ موصولٍ بمعنى (الّذي)، وهو لغيرِ العاقل، فشمل ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الموجوداتِ كلَّها؛ بل إنَّه شمل السّماواتِ والأرضَ نَفسَيهِما، وضمَّ معهُما الأمواتَ والأحياءَ، وما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ؛ لأنَّ السّماواتِ والأرضَ وعاءُ ذلك كلِّه.

إفادةُ الحَصْرِ في قولهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

الفطرةُ السَّليمةُ تَهدِي بالتّفكير، إلى الخالقِ الخبيرِ

قولُهُ: ﴿لِّلَّهِۚ﴾: خبرُ مبتدأ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآية، ويُقدَّر المبتدأ مؤخَّرًا عن الخبرِ على وِزان السُّؤالِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ الحَصرِ، واللّامُ في قوله: ﴿لِّلَّهِۚ﴾ للمُلْك، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/150.

استدلالٌ على المشركينَ بأنَّ غيرَ اللهِ ليسَ أهلًا للإلهيَّةِ؛ لأنَّ غيرَ اللهِ لا يملكُ ما في السّماواتِ وما في الأرض؛ إذ مُلْكُ ذلكَ لخالقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقولِه بعده: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يهملُ محاسبتَها[1].

سِرُّ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤالِ، دونَ انتظارِ جوابِهم في: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

فنُّ السّؤالِ المسبوكِ، والجوابِ المَحْبوكِ، من أرقى أساليبِ الحِجَاجِ

الاستفهامُ يرادُ به الإلجاءُ إلى الإقرارِ؛ لذا كان الجوابُ عنه بما يريدُه السّائلُ من إقرارِ المسؤولِ محقّقًا لا محيصَ عنه؛ إذ لا سبيلَ إلى الجحدِ فيه أو المغالطة، فلذلك لم ينتظرِ السائلُ جوابَهم، وبادرَهم الجوابَ عنه بنفسِه بقولِه: ﴿لِّلَّهِۚ﴾ تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ مساقَ إبلاغِ الحجَّةِ مقدَّرٌ فيه المُحاورة، وليس هو مُحاورةً حقيقيَّةً، وهذا من أسلوبِ الكلامِ الصّادرِ من متكلِّمٍ واحدٍ، وهو واحدٌ من أساليب القرآنِ في الحِجاجِ، فتارةً لا يُذكر جوابٌ منهم كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرعد: 16]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكرُ ما سيُجيبون به بعد ذكرِ السُّؤالِ منسوبًا إليهم أنَّهم يجيبون به، ثمَّ ينتقل إلى ما يترتَّبُ عليهِ من توبيخٍ ونحوه، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [المؤمنون: 84 - 89][2].

دلائلُ الفعلِ ﴿كَتَبَ﴾، بينَ الحقيقةِ والمجاز:

رحمةُ اللهِ شاملةٌ جميعَ خلقِه، فيما يُخُطّه القدرُ من نفعٍ وضُرٍّ

قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، التزمَها تفضُّلًا وإحسانًا، والمرادُ بالرَّحمةِ ما يعمُّ الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفتِه، والعلمُ بتوحيدِه بنصبِ الأدلَّة، وإنزالِ الكتبِ، والإمهالِ على الكفر[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/155.

وأريدَ حقيقةُ (الكَتْب)، والمعنى: أمرَ بالكتبِ في اللّوح المحفوظِ، وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ هنا مجازٌ بمعنى (وعد) بها فضلًا وكرمًا، أو بمعنى (أخبَرَ) أو (عَلَّمَ)، وقيل: (أوجب) إيجابَ فضلٍ وكرم[1]، لا إيجاب لُزوم، وقيل: قضاها وأنفذها[2]، وإنَّما عبَّر بـ ﴿كَتَبَ﴾ لبيان أنَّ رحمةَ اللّهِ لا تتخلَّفُ كالأمرِ الواجبِ المكتوب، فإنَّهم كانوا إذا أرادوا تأكيدَ وعدٍ أو عهدٍ؛ كَتَبوه، فالرَّحمةُ هنا مصدرٌ، أي: كَتَبَ على نفسِهِ أن يرحمَ، وليس المرادُ الصِّفةَ، أي: كتبَ على نفسِهِ الاتِّصافَ بالرَّحمة، أي: بكونهِ رحيمًا؛ لأنَّ الرَّحمةَ صفةٌ ذاتيَّةٌ للّه تعالى واجبةٌ له.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، في الآيةِ الكريمة:

إعـــلامُ الـلـه النَّاسَ برحمته، لتحسُّسِها في حياتِهم المعيشةِ

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾ للتَّخصيص، وأصلُ الجملة: (كتبَ الرَّحمةَ على نفسِه)، وفائدةُ هذا التَّخصيص بيانُ عظيمِ شأن الرَّحمةِ في خلقِهِ للسَّموات والأرض، وأنَّ هذا التخصيصَ من عظيمِ رحمتِه بكم.

وجهُ التَّعميمِ في ذكرِ (الرَّحمةِ)، في الآيةِ الكريمة:

رحمةُ اللهِ عامَّةٌ مُستفيضةٌ، تُصيبُ المؤمنين وغيرَهم

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، والرَّحمةُ هنا: الظّاهرُ أنَّها عامَّةٌ تعمُّ المُحسنَ والمُسيءَ في الدُّنيا، وهي عبارةٌ عن الاتِّصال إليهم، والإحسانِ إليهم، ولم يَذكُرْ متعلَّقَ الرَّحمةِ لمن هي، فذُكِرَتْ على العموم، وقيل: الألفُ واللّامُ للعهدِ، فيُرادُ بها الرَّحمةُ الواحدةُ الَّتي أنزلها اللّه - تعالى - من الرَّحمةَ الَّتي خلقها، وأخَّر تسعًا وتسعين يرحمُ بها عبادَه في الآخرةِ، ومناسبةُ ذكرِ رحمتِه هنا سبحانه[3]، ما ذكرتْه الآيةُ السّابقةُ من قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فخصَّ الَّذين سَخِروا بالإحاطةِ والإحاقةِ دونَ غيرِهم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/446.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/319.

(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/447.

بلاغةُ الاعتراضِ، بقولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾:

رحمةُ اللهِ بالخلائقِ سِرُّ عدمِ التَّعجيلِ بأخْذِهِم

من معاني جملةِ الاعتراضِ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للّه ما في السّماواتِ وما في الأرض يثيرُ سؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أَخْذِهم على شركِهم بمن هم ملكُهُ، فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولون صدقًا؛ لعجَّلَ لنا العذابَ، والمؤمنُ يستبطِئُ تأخيرَ عقابِهم، فكان قولُه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ جوابًا لكلا الفريقين بأنَّهُ تفضَّل بالرَّحمةِ[1]، فأجابَ عن السُّؤالِ بأسلوبِ الحكيم، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، وكان يُنتظَرُ أن يذكر معاني العزَّة والقوَّة، فيقول: قل: للّهِ القادرِ الجبّارِ العزيزِ المقتدرِ الَّذي له ملكُ كلِّ شيءٍ وخالقُ كلِّ شيءٍ.

ومعنًى آخرُ من معاني الاعتراضِ أنَّهُ ذكرَ رحمةَ اللّهِ تعريضًا ببشارةِ المؤمنينَ وبتهديدِ المشركين[2]، وبين قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ وقولِه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ معنى المقابلةِ؛ إذ الرَّحمةُ تقتضي التَّركَ والعفوَ، والجمعُ ليوم القيامةِ يقتضي المحاسبةَ والعقابَ، فشملتِ الآيةُ الوعدَ والوعيدَ، وفائدةُ هذه المقابلةِ تقديمُ صورةِ الامتزاجِ بينَ الوعدِ الوعيدِ.

تحقيقُ الوَعيدِ باللّامِ والنُّونِ، في قوله تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾:

أوَّلُ بوادرِ الجمعِ الموتُ، فمَن ماتَ؛ فَقَد قامَت قيامتُهُ

جملة: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمُسَبَّبِ من السَّببِ، فإنَّه لمّا أَبطلت أهليَّةُ أصنامِهم للإلهيَّة، ومُحِّضت وحدانيةُ اللّه بالإلهيَّة؛ بطلُت إحالتُهم البعثَ بشبهةِ تفرُّقِ أجزاءِ الأجسادِ أو انعدامِها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/151.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/151.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/152 - 153.

و ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: اللّامُ لامُ القسمِ، أَي: واللّهِ ليجمعنَّكم[1]، ونونُ التَّوكيدِ بعدَها، أفادتا تحقيقَ الوعيدِ، والمرادُ بـ (الجمع) استقصاءُ متفرِّقِ جميعِ النّاس أفرادًا وأجزاءً متفرِّقة، وتعديته بـ (إلى) لتضمينه معنى السَّوق، وضميرُ الخطاب في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ مرادٌ به خصوصُ المحجوجين من المشركين؛ لأنَّهم المقصودون من هذا القولِ من أوَّلِه، فيكونُ نذارةً لهم وتهديدًا وجوابًا عن أقلِّ ما يحتملُ من سؤالٍ ينشأ عن قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾[2].

أوجهُ التَّنَوُّعِ في عَوْدِ الضَّميرِ على (الجمعِ) أو على (القيامةِ):

تعزيزُ المعنى في عَودِ الضَّميرِ وتوكيدِهِ

قولُه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، أي: لا ريبَ في اليومِ أو الجمعِ[3]. وفي إمكانِ عودِ الضَّميرِ عليهما تعزيزٌ للمعنى، وتحقيقٌ لما أفادهُ القسمُ من توكيدِ المعنى، وكلُّ ذلك زيادةٌ في الوعيدِ وإعلاءٌ للتَّهديد.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الجمعُ يكونُ بموتِ الخلائقِ، ويَستمرُّ بحياةِ البَرزخِ إلى يومِ القيامَةِ

الأصلُ في (إلى) أن تكونَ لانتهاءِ الغايةِ، وتَحتَمِلُ معنًى آخرَ يرجعُ في حَقيقَتِهِ إلى معنى الانتهاءِ، جاءَ في المُقتضب: "وأمّا (إلى) فإنَّما هي للمُنتَهى"[4]. فعلى الأرجحِ أنَّها في قولِه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تكون ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في)، أي: (ليجمعنَّكم في يوم القيامة)، وأيضًا يمكن أن يُفهم المَعنى: ليجمعنَّكم في الدُّنيا بموتِكم إلى يوم القيامةِ، أي: يستمرُّ هذا الجَمعُ إلى يومِ القيامَةِ. قالَ أبو حيّان: "وأبعدُ من زعم أن ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في) أي: (في يوم القيامة) وأبعدُ منه من ذهب إلى أنَّها صلةٌ، والتَّقديرُ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ يوم القيامة"[5].

(1) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 2/91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/153.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/156.
(4) المُبرِّد، المُقتضب: 4/137.
(5) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/448.

دلالةُ معاني القيامةِ في الآيةِ الكريمة:

تَلوّنُ أسماءِ القيامةِ، دليلٌ على تنوُّعِ الأحداثِ وجَلالتِها.

سُمّيَ اليومُ الآخرُ بهذا الاسمِ لأمورٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: قيامُ النّاسِ من قبورِهم لربِّ العالمين، بصيحةٍ واحدةٍ يحضرون كلُّهم لا يتخلَّف أحدٌ، وهذا قيامٌ عظيمٌ جدًّا، حتى الَّذي أكلتهُ السِّباعُ، وأحرقتهُ النّارُ، وأغرقَهُ الماء، لا بدَّ أن يخرجَ، ودليلهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6]. والثّاني: لأنَّهُ يُقامُ فيه العدلُ، حتَّى يقتصَّ للشّاةِ الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناء، فقولهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: لليومِ الَّذي يُقام فيه العدلُ.

والثّالث: يقومُ فيه الأشهادُ الذين يشهدونَ، فهذه الأمَّةُ تشهدُ على الأممِ السّابقةِ، والرَّسول ﷺ يكون شهيدًا على هذه الأمَّة، فدليلُ المعنى الثّالث قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51][1].

دلالةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

تنبيهُ المشركينَ إلى أنَّ الخَسارةَ ستُحيطُ بجميعِ أنواعِ الخُسرانِ

الخسرانُ مستعارٌ لإضاعةِ ما شأنُه أن يكونَ سببَ نفعٍ، فالخسرانُ كالإضاعةِ، فذكرَ المُشبَّهَ، وحذفَ المُشبَّهَ به، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفائدةُ هذه الاستعارةِ تحقيرُهم[2] كما أنَّ في الاستعارة تجسيدًا لمعنى عدمِ الانتفاعِ، وفي التَّجسيدِ عونٌ على الإقلاعِ عمّا هم عليه.

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الذّاتِ بالنَّفسِ:

خُسرانُ النَّفسِ بعدمِ الإيمانِ، هو أعظمُ الخُسرانِ

النَّفسُ بمعنى حقيقةِ الشَّيءِ وجملته، يقالُ: قَتَلَ فُلانٌ نَفْسَهُ، أي: ذاتَهُ وجُملتَهُ، وأهلَكَ نَفْسَهُ، أي: أوقعَ الإهلاكَ بذاتهِ كلِّها[3]،

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 66.
(2) العلوي، الطّراز: 3/146.
(3) ابن سيدة، المُحكم: 8/525.

"والتَّكَبُّر: هو أن يرى المرءُ نَفْسَهُ أكبرَ من غيرِه"[1]، أي: ذاته، وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ تكونُ بهذا المعنى، أي: خسروا ذواتَهم كُلَّها بعدم إيمانِهم، وذلك هو الخسرانُ المبين.

عـدمُ الإيـمـانِ بالـلـهِ، يَجمعُ الخُسرانَ كلَّهُ

وجوهُ تنوُّعِ إعرابِ جُملةِ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقعتِ الجملةُ موقعًا بديعًا؛ إذ تنوَّعَ إعرابُها، وكلُّ إعرابٍ ينتجُ عنه معنًى، وكلُّها متعانقةٌ، فالجملةُ إمّا أن تكون بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويكون الرابطُ محذوفًا تقديرُه (منهم)، وإمّا أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقديرُ: وأنتم الَّذين خسروا أنفسَهم، وإمّا أن تكونَ جملةً استئنافيَّةً، فيكون الاسمُ الموصولُ مبتدأً، ويكون الخبرُ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وتكون الفاءُ واقعةً في الخبر لِتَضَمُّنِ الاسمِ الموصولِ معنى الشَّرط، وإنَّما أُشْرِبَ الموصولُ معنى الشَّرط؛ ليفيد شمولَه كلَّ من اتَّصفَ بمضمون الجملة، وإمّا أن يكونَ الاسمُ الموصولُ منصوبًا على الذَّمِّ، والتقدير: أذمُّ الذين خسروا[2]، وهذه الوجوهُ كلُّها متعانقةٌ في التَّعاونِ على التَّأكيدِ على خسرانِ غيرِ المؤمنين.

سِرُّ الفَصاحةِ بذكرِ السَّببِ بعدَ المسبَّبِ:

الـتَّرهـيـبُ بـخُـسـرانِ الأنـفُـسِ، مُناسِبٌ لخطابِ الكافرينَ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأصلُ التَّعبيرِ أن يُقال: (الذين لا يؤمنون، فقد خسروا أنفسهم)، لكنَّه قدَّم المُسبَّبَ أو النَّتيجةَ، ثُمَّ أتبعها بذكرِ السَّببِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وسرُّ ذلك أنَّ الكلامَ في الآيةِ عن المستهزئين المُعاندين، فقدَّمَ خسارةَ النَّفسِ على خسارةِ الإيمانِ، لأنَّ خسارةَ الإيمانِ لا تهمُّهُم بشيءٍ، لكن ما يهمُّهُم هي ذواتُهم وأنفُسُهُم،

(1) أبو البقاء، الكلّيّات، ص: 28.

(2) ينظر في هذه الوجوه: الزّمخشري، والكشّاف: 2/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

فجعلها هي السَّابقةُ اهتمامًا بها، وترهيبًا للسَّامِعينَ منهم، أنَّهم يُقبِلُون بعملهم هذا على الخُسران المُبين:

وجهُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

المُستهزِئُون بالرِّسالةِ لا يُؤمنون، مهمَا قَوِيتِ الأدلَّةُ

عبَّرَ بالمضارعِ لبيان نفي إيمانِهم، والمضارعُ يفيدُ تجدُّدَ ذلك النَّفي مع الزَّمنِ، فهم لا يؤمنون مهما استدعَتْهم الأدِلَّةُ إلى الإيمانِ، وأُفْحِمت عُقولُهم الحُجَجَ؛ فلا يؤمنون، فأولئك الَّذين حقَّ عليهم ما قدَّمتهُ الآيةُ من المصيرِ الرَّهيبِ، أنَّهم خسروا أنفسَهم، فجعل الخُسران بصيغةِ الماضي، مع أنَّ الإيمانَ جاءَ بصيغةِ المُضارعِ.

دلالةُ الالتِفاتِ في صُورِ الفعلِ، منَ الآيةِ الكريمةِ:

الانشغالُ بالنَّفسِ وتَرقِيَتِها، أَوْلَى منَ الانشغالِ بالآخَرين

الالتفاتُ الفعليُّ بيِّنٌ واضحٌ من الماضي ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ إلى المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وفائدتُه الالتفاتُ إلى واقعِ حالِ الَّذين لا يُؤمنون، فقد أشركوا باللّهِ وأهلكوا أنفسَهم، فهم لا يوحِّدون اللّه، ولا يصدِّقونَ بوعدِهِ ووعيدِه، ولا يقرّونَ بنبوَّةِ محمَّد ﷺ، فهم سائِرونَ على نهجٍ مُنحرفٍ، وطريقٍ متحقِّقٍ خسرانُهُ.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(كتَبَ) و(فرضَ):

لفظُ (كتبَ) في القرآنِ الكريمِ، جاءَ في سياقِ ما أوجبَهُ اللّهُ على نفسِهِ سُبحانه

(كتب)، أي: ما قدَّرهُ من الحكمةِ، وذلكَ إشارةٌ إلى قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقيل: إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، وقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]؛ يعني: ما قدَّرهُ وقضاه[1].

والفَرْض: الإيجابُ قال تَعالَى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾، فَهو بمَعنى الإيجابِ، والمعنَى: قد علمَ اللّهُ ما يجب فَرضه على المُؤمنينَ في الأزواجِ والإماء من المهر في الأزواج، وكلُّ مَوضِعٍ وردَ في القُرآن

(1) الراغب، المفردات، ص: 700.

(فرض اللّه عَلَيْهِ)؛ فَفي الإيجاب، و(ما فرض اللّه لَهُ) وارِدٌ في مُباحٍ أَدخلَ الإِنْسانُ فيهِ نَفسَهُ، وقَوله تَعالَى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، أَي: وقت[1].

ومما ذُكر يظهر أنَّ (كَتَبَ) فيها معنى الإيجاب بالاختيار، دون أن يكون على مَنْ كَتَبَ تأثيرٌ خارجيٌّ يفرضُ عليهِ الكِتابَة، أمّا قولُهُ: (فَرَضَ)؛ فتكون منها الإيجابُ بتأثيرٍ وضغطٍ خارجيٍّ، فيُفرض الأمرُ من جهة خارجيَّةٍ، من هنا فقد جاء الفرضُ في القرآن الكريم في سياقِ فرْضِ اللّه تعالى على عبادهِ، وجاء (كَتَبَ) في سياقِ ما أوجبَهُ اللّهُ على نفسِهِ سبحانهِ.

(1) أبو البقاء، الكُلّيّات: 688 - 689.

﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

[الأنعام: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اكتمالُ الحُجَّةِ العقليَّةِ، بلَفْتِ النَّظَرِ إلى مُعجزةِ الزّمن

الآيةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، للّهِ ما في السّماواتِ والأرض، وله ما سكنَ، فهو داخلٌ تحت ﴿قُل﴾، وهو احتجاجٌ ثانٍ على المشركين، فلمّا استنارتِ الأدلّةُ استنارةَ الشّمسِ، وانتصبتِ البراهينُ حتّى لم يبقَ أصلًا نَوعُ لبسٍ؛ عمَّ بالخبرِ عمّا تقدَّم ممّا يشاهدونه وغيره، فقال ذاكرًا الزَّمانَ بعد المكانِ، وقدَّمَهُ؛ لأنَّه أظهرُ، فتمَّ بذلك الخبرُ عن الزَّمان والزَّمانيّات والمكان والمكانيّات[1]، وبعد أن ذكرَ عظيمَ خلق اللّهِ في السّماواتِ والأرض، وهذا الفضاءُ العظيم، والكونُ الهائلُ؛ لَفَتَ الأنظارَ إلى الأزمنة، وذكرَ منها اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لتكتمل الحجَّةُ العقليَّةُ لدى المُخاطبين في أسلوبٍ علميٍّ نادرٍ صالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك كلَّهُ ملكٌ للّهِ سبحانه، ولا أحد يستحقُّ أن يملك شيئًا منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكَنَ﴾: السُّكونُ: ذهابُ الحركةِ، سكنَ المتحرِّكُ، وأسكنْتُهُ وسكنْتُهُ، وتناسبت حركاتُهُ وسكناته[2]، وكلُّ ما هدأ: فقد سكنَ، كالرّيح والحرِّ والبرد والمطر[3]، وسكن، أي: سكتَ، وسكنَ الغضبُ[4]، فالسُّكونُ ثبوتُ الشَّيءِ بعد تحرُّكٍ[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/33.
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (سكن).
(3) الخليل العين، وابن سيده، المحكم: (سكن).
(4) الخليل، العين: (سكن).
(5) الراغب، المفردات: (سكن).

قال القرطبيُّ: "المعنى: ما خَلَق، فهو عامٌّ في جميع المخلوقاتِ متحرِّكها وساكِنها، فإنَّه يجري عليه اللَّيلُ والنَّهار، وعلى هذا فليس المرادُ بالسُّكونِ ضدَّ الحركة، بل المرادُ الخلقُ، وهذا أحسنُ ما قيلَ؛ لأنَّهُ يجمعُ شَتات الأقوال"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيانُ ما يَشْهدُ بشُمولِ عِلْمِ اللهِ وإحاطتِه وقُدرتِه

ثمَّ أخبرَ اللّهُ سبحانه عن عمومِ ملكِهِ ﷻ، فهو مالكُ كلِّ شيءٍ وحركتِه وسكونِه وزمانِه، وهذا احتجاجٌ على المشركينَ؛ لأنَّهم لم ينكروا أنَّهُ خالقُ الكلِّ ومدبِّرهُ[2]، وهو تعالى يسمعُ كلَّ مسموعٍ وغيرَ مسموعٍ، ويعلم كلَّ معلومٍ وغيرَ معلومٍ، فلا يخفى عليه شيءٌ سبحانه.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّه ﷻ يَمْلك النّاسَ وما حولهم لا يخرجون عن قدرته، وهو المهيمنُ عليهم، إن شاءَ خَسَفَ بمن يخالفُهُ، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديّارًا، وأنه عليمٌ بما يكون من الطّائعين، فيجزيهم، ويهديهم، وما يكونُ من العصاةِ، فيعاقبُهم ويرديهم، وفيه إنذارٌ للمشركين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

كلُّ موجودٍ هو للهِ وحدَه، ما تُدركُهُ حواسُّنا وما لا تُدركُهُ

العطفُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ لتقرير عُمومِ الملك للّه تعالى بأنَّ ملكَه شَملَ الظّاهراتِ والخفيّات، فقوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على ﴿لِلَّهِ﴾[4]. من قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12] الذي هو في تقديرِ الجملة، والمعنى: (للّه ما في

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/191.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/493.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/155.

السَّماواتِ والأرضِ، ولهُ ما سكنَ)، فعطفَ الخاصَّ، وهو ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ على العام: وهو (للّٰه ما في السماوات والأرض).

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المسنَدِ إليه:

كلُّ شيءٍ في هذا الكونِ بإذنِ اللهِ، ولا حركةَ ولا سكونَ إلّا به

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾ في قوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، للدَّلالة على الحَصر، فهي للّٰه وحده سبحانه؛ لأنَّه هو الخالقُ المُقدِّرُ القيّوم على حركات اللَّيل والنَّهار وما يسكنُ فيهما، ثمَّ إنَّ اللَّيلَ أصلٌ والنَّهارَ طارئٌ، وهو حَصرَ السّاكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كون أنَّ مُلكَها التّامَّ له، كما تقدَّمَ في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ شيءٍ له مسكنُهُ وبيئته ومحيطُه في هذا الكونِ، فهو مقهورٌ في محيطِهِ لا يملكُ التَّحوُّلَ عنه إلّا بإذنِ اللّٰه تعالى.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿سَكَنَ﴾ وسرُّ البدْءِ بِهِ:

السَّكنُ شاملٌ لكلِّ موجوداتِ الدُّنيا

قوله: ﴿سَكَنَ﴾: فعل ماضٍ مِنَ السُّكنى، وتعدّيه بـ (في) كما في قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [إبراهيم: 45][1]. وإلى ذلك ذهبَ ابن عطيَّةَ، فقال: هي من السُّكنى ونحوه، أي: ما ثبتَ، وتقرَّر[2]، وهذا المعنى يحقِّقُ فائدةَ أنَّ كلَّ مخلوقٍ له سُكنى في هذا الكونِ، وإنَّما بدأ به؛ لأنَّه صفةُ أكثر الموجوداتِ، كما أنَّ لفظَ ﴿سَكَنَ﴾ يحتملُ حملهُ على الكنايةِ، فالسُّكونُ استقرارُ الجسم في مكانٍ، أيَ: حيِّزٌ لا ينتقلُ عنه مدَّةً، فهو ضدُّ الحركةِ، وهو من أسبابِ الاختفاءِ؛ لأنَّ المختفيَ يسكنُ، ولا ينتشرُ، والأحسنُ أن يكون كنايةً عن الخفاءِ، مع إرادةِ المعنى الصَّريح، ووجهُ كونِه كنايةً أنَّ الكلامَ مسوقٌ للتَّذكيرِ بعلمِ اللّٰهِ تعالى، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكُم، وهو مُحاسبكُم عليها، يوم يجمعُكم إلى يومِ القيامة، فهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/320.

كقولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ﴾ [الرعد: 8 - 10][1].

دلالةُ الظَّرفيّةِ الزّمانيّةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فِي﴾:

اللَّـيـلُ وعـاءٌ للسُّكْنَى، وآيةٌ عـلى انـتـظـامِ الزّمنِ وتعاقُبِه

فائدةُ تعديةِ السُّكنى بـ (في): أنَّ السُّكنى تكونُ في أيِّ وقتٍ من أوقات اللَّيل، وقد تستمرُّ تلك السُّكنى مع ذهابِ اللَّيلِ وطُلوعِ النَّهارِ، وهي على خلافِ دلالةِ قولِه: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرّعد: 10]؛ إذ إنَّ شرطَ الاستخفاءِ هو العتمَةُ، ووظيفةُ حرفِ الباءِ الإلصاق، ويكون الاستخفاءُ ملتصقًا باللَّيل وبعتمته، وتظهر دلالة الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ لـ (في) أنَّها للوِعاء، فصارَ اللَّيلُ وعاءً للسُّكنى، فقدَّم الأنموذجَ الّذي تستقرُّ فيه المخلوقاتُ، وتَسكُنُ.

سِرُّ البدْءِ بلفظِ (اللَّيل) قبْلَ لفظِ (النّهار):

الـسَّـواكـنُ في الـلَّـيـلِ تَـزدادُ خفاءً

وتخصيصُ اللَّيلِ بالتّقديم في قوله تعالى: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾؛ لأنَّ السّاكنَ في ذلك الوقتِ يزدادُ خفاءً، فهو كقولهِ: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 59]، وعطفَ النَّهارَ عليهِ لقصد زيادَة الشُّمولِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لمّا كان مظنَّةَ الاختفاءِ فيهِ، قد يظنُّ أنَّ العالمَ يقصدُ الاطِّلاعَ على السّاكنات فيه بأهمّيَّة، ولا يقصد إلى الاطلاعِ على السّاكناتِ في النَّهارِ، فذكر النَّهارَ لتَحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمَعلوماتِ.

بلاغةُ تقديمِ المكانِ على الزَّمانِ في السِّياق:

المكانُ هو الحيِّزُ في الوجودِ، وهو يقابِلُ الزَّمانَ

لمّا ذكر - تعالى - أنَّهُ له مُلْك ما حوى المكان من السّماوات والأرض، في الآيةِ السّابقةِ بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أعقبهُ بذكرِ ما حواهُ الزَّمان من اللَّيل والنَّهار، بقوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وإن كان كلُّ واحدٍ من الزَّمانِ والمكانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154 - 155.

يستلزمُ الآخرَ، لكنَّ النَّصَّ عليهما أبلغُ في توكيدِ الملكيَّةِ، وقدَّمَ المكانَ؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ من الزَّمان[1].

دلالةُ الطِّباقِ في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

اللَّيلُ والنَّهارُ يَشملانِ الأوقاتِ، ظَرفاً لحياةِ جميعِ المخلوقاتِ

معلومٌ أنَّ بين اللَّيل والنَّهارِ طباقًا فائدته الشُّمولُ، فاللَّيل والنَّهار يشملانِ الأوقاتِ كلَّها، فيكونُ كلُّ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ لابدَّ له أن يسكُنَ في ساعةٍ من ساعات اللَّيلِ والنَّهار، كما أنَّ لها إشارةً مهمَّةً، مفادها: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ لا بدَّ لها وأن تسكُنَ في اللَّيلِ أو النَّهار، من أصغر خليَّةٍ إلى أكبرِ مخلوقٍ، ثُمَّ فيها معنى الضَّعفِ لتلك المخلوقاتِ الَّتي تحتاجُ إلى السُّكون، ولا يمكنها العيشُ أو استمرارُ حياتِها دون ذلك السُّكون، وقد عَرَّف اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لبيانِ أنَّهما ليلُ الأرضِ ونهارُها، وذلك بقرينةِ المخاطَبين بذلك، فهم أهلُ الأرضِ.

بلاغةُ الاكتفاءِ بـ ﴿سَكَنَ﴾، وحذْفِ المقدَّرِ في الآية:

السُّكُونُ صفةٌ للكائناتِ، يأتي بعدَ الحركةِ في الموجوداتِ

اكتفى بذكرِ السُّكونِ دونَ الحركةِ، إذا قَصَدَ معنى السُّكونِ، وليس السُّكنَى، فاكتفى بأحدِ الضِّدَّين عن الآخر[2]؛ لأنَّ الأجسامَ والمخلوقاتِ منها ساكنٌ ومنها متحرِّكٌ، فما هو ساكنٌ مُرادٌ بذاته وما يتحرَّك لابدَّ له من السُّكونِ، والمعنى: (ما سكن وما تحرَّك)[3] لمعطوفٍ محذوفٍ، وقيلَ: لا محذوفَ هنا، واقتصرَ على السّاكنِ؛ لأنَّ كلَّ متحرِّكٍ قد يسكنُ، وليس كلُّ ما يسكن، يتحرَّكُ[4].

قال أبو زهرة: "لا مانعَ من أن يُرادَ المعنيان معًا، إذ يعلمُ سبحانه كلَّ ما استقرَّ في السّماوات والأرض، ويعلمُ حركاتِهما وسكناتِهما"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(3) ابن معصوم، أنوار الرّبيع: 1/183.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.

بلاغةُ خَتْمِ الآيةِ بما يُناسبُ الوعيدَ والتَّهديدَ:

العلمُ بقُدرة اللهِ المُخصيّةِ والمُجَازيَةِ، أقوَى رادعٍ

قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، منها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ مسموعٍ، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكلِّ معلوم، فلا يخفى عليه شيءٌ، ويجوز أن يكونَ وعيدًا للمشركين على أقوالِهم وأفعالِهم[1]، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لما تقدَّم ذكرُ محاوراتِ الكفّارِ المكذِّبين، وذكرُ الحشرِ الَّذي فيه الجزاء؛ ناسبَ ذكرُ صفةِ السَّمع لما وقعت فيه المحاورةُ وصفة العلم لتضمُّنها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديد[2].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

مغزَى ذكرِ اللَّيلِ والسَّمعِ، وذكْرِ النَّهارِ والعِلمِ

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، كان به خَتْمُ الآيةِ الكريمةِ كالنَّتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللّه يملك السّاكناتِ، هو التَّمهيدُ لإثباتِ عموم علمه، وإلّا فإنَّ مُلكَ المُتحرِّكات المُتصرِّفات أقوى من مُلكِ السّاكِنات الَّتي لا تُبْدي حَراكًا، فظهرَ حسنُ وقعِ قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[3].

وفي الآيةِ لفٌّ ونشرٌ على التَّرتيبِ؛ إذ ذكرَ اللَّيلَ، وذكَرَ السَّمْعَ باعتبارِها الحاسَّة الَّتي تعملُ في الظَّلام، وذكرَ النَّهارَ والعِلم؛ إذ يكونُ في النَّهارِ نشاطُ المخلوقاتِ في الحَرَكة واكتِساب العِلم والخِبرَة والمَعرِفة.

دلالةُ وجهَي السَّمْعِ في الآيةِ الكريمةِ:

اللّه سميعٌ لا يَغيبُ عنه بالفَوْتِ، أدْنَى صَوتٍ.

من أسماءِ اللّهِ وصفاتهِ "السميعُ"، وسمْعُ اللّهِ تعالى قسمان: سمعُ إجابةٍ، وسمْعُ صوتٍ، فسمعُ الإجابةِ مثلُ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/156.

وسمْعُ الصَّوتِ أقسامٌ وأنواعٌ، النَّوعُ الأوَّلُ: المقصودُ بهِ التَّأييدُ والنَّصرُ، كقولِ اللّهِ ﷻ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]. والثاني: المرادُ بهِ التهديدُ، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: 80]. والثالثُ: المرادُ به الإحاطة، كقول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1][1].

وجهُ المُبالَغَةِ في صِفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

اللـهُ سُبحانه سميعٌ لا يُدرَكُ سمعُهُ، وعليمٌ لا نهايةَ لعلْمه

أفادَ تعريفُ الاسمينِ (السَّميعُ العَليمُ) المُبالغَةُ في معناهُما، فهو سبحانهُ يسمعُ ما تسمعَهُ المَخلوقاتُ، وما لا تَسمَعُهُ، ويَعلَمُ ما تعلمُ وتُدرك المخلوقاتُ، وما لا تَعلَمُ أو تُدركُ، وجاءت صفتا (السَّميع) و(العَليم) كصِفَتَي مُبالغَةٍ لدلالَتِهما على ذلك.

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 73.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين إحاطةِ الله بالكونِ والزّمنِ، والتّعجُّبِ من عبادةِ سِواه

بعد أن قدَّم في الآيةِ السّابقةِ الأدلَّة الدّامغةَ على عظيمِ خلق اللّهِ تعالى، شاملًا المكان والزَّمان، استفهم هُنا تعجُّبًا وإنكارًا على أولئك الذين يتَّخذون غير اللّهِ خالقِ السّماواتِ والأرض وليًّا أو إلهًا، ثُمَّ أوغلَ في ذكرِ صفاتِ اللّهِ، فذكرَ أنَّه سبحانه قد تكفَّلَ بأرزاقِ الأحياءِ وأقواتها، ثُمَّ أعلنَ الرَّسولُ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ إلى دينِ اللّهِ سبحانه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَّخِذُ﴾: جذر الكلمة هو (أخذ)، وتَخِذَ، بمعنى: أخذ[1]. تَخِذتُ زيدًا خليلًا، بمعنى: جعلتُه، واتَّخذتُه كذلك[2]، ومنه قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النّساء: 125]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125][3].

تلخيصٌ لمعاني ما جاء من مادة (أخذ) في القرآن: الأخذُ يعبِّر عن حوزٍ في الأثناءِ بغلظٍ، أي: قبضٍ بقوَّةٍ، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى القبض الحقيقي أو المجازيِّ (55 مرة)، وجاء نحو (78 مرَّةً)، الأخذُ فيها بمعنى: إنزالِ عقوبةِ إهلاكٍ، وهذا قبضٌ؛ لأنَّه جَوْح واجتلاف، ومنها (18 مرَّةً) في أَخْذِ الميثاق، وهو تقييدٌ من بابِ القبضِ، وجاءت صيغةُ المؤاخذةِ للمحاسبةِ والمعاقبة تسعَ مرّاتٍ،

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (تخذ).
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تخذ).

وهي نيلٌ بالعقوبةِ من باب القبضِ، وأخيرًا جاء على صيغة افتعل (اتخذ) وما تصرَّفَ منها نيِّفًا ومئة مرة، وأصلُ معناها - كما في الآية الكريمة - أَخْذٌ لنفسِه، فهي قَبْضٌ أيضًا[1].

2) ﴿فَاطِرِ﴾: جذر الكلمة هو (فطر) الشَّيءَ يفطُرُه فطرًا، وفطره: شقَّه، والفطرُ: الشَّقُّ، وجمعُه: فُطورٌ، قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]. وفطرَ الشَّيءَ، وتفطَّرَ، وانفطرَ، وفي التَّنزيلِ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: 18][2]. وفطر اللّهُ الخلقَ، وهو فاطرُ السّماواتِ: مُبتدعُها[3]. وقد فطرَ هذه البئرَ، وفطر اللّهُ الشَّجرَ بالورق، فانفطر به وتفطَّر، وتفطَّرتِ الأرضُ بالنَّباتِ[4]، وعن ابنِ عبّاسٍ ﵄: "ما عرفتُ معنى الفاطِرِ حتَّى اختصمَ إليَّ أعرابيّان في بئرٍ، فقالَ أحدُهما: أنا فطرتُها، أي: ابتدأتُها"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الحُججُ الدَّالَّةُ علـى وجـوبِ وَلايـةِ اللـه، والإسـلامِ لـه، دونَ إشراكٍ به

سيقتْ هذهِ الآيةُ تبكيتًا على الشِّركِ بأبلغِ ما يكونُ؛ فقد وجَّه الرَّسولُ ﷺ الإنكارَ إلى نفسِه بدلًا من توجيهِهِ إليهم؛ تقريرًا لكونِ ما يدعو إليه من اختصاصِ العبادةِ والتَّوجُّهِ للّهِ وحدَهُ تعالى هو الحقُّ المُبينُ، ثم دلَّل - سبحانه - على أنَّهُ هو وحده المستحقُّ للعبادةِ: بأنَّه مُبدِعُ السَّماواتِ والأرضِ منظِّمُهما، وبأنَّه يرزقُ من يشاءُ من عبادِه، ولا أحدَ من عبادِهِ يرزقُه، فهو الغنيُّ عنهم، وفي هذين الدَّليلين تعريضٌ بمنِ اتَّخذ أولياءَ من دونِه مِنَ البشرِ، المُحتاجين للطَّعامِ والعاجزينَ عن الخَلْقِ والإيجاد[6]. ثمَّ أمره تعالى بالخضوع له وبالبراءةِ من شِرْكهم ومن أفعالهم القبيحةِ: قل - أيُّها الرَّسولُ-:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخذ).
(2) ابن سيده، المحكم: (فطر).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(5) النّسفي، مدارك التنزيل: 2/7.
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/193.

إنّي أمرني ربي سبحانه أن أكونَ أوّلَ مِن انقادَ للّه، وخضَعَ له من هذه الأمَّةِ، ونهاني أن أكونَ من الَّذين يشركونَ معهُ غيرَه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ، في ثنايَا الآيةِ الكريمةِ:

الولاءُ للهِ وحدَهُ سَندٌ في الدُّنيا، ومَلجأٌ في الآخِرةِ

دخلت همزةُ الاستفهامِ على الاسم دون الفعلِ الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾؛ لأنَّ الإنكارَ في اتِّخاذِ غيرِ اللّهِ وليًّا، لا في اتخاذِ الوليِّ، فكان أولى بالتَّقديم[2]، ونظيرُ ذلك قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: 64]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمّا تقدَّم أنَّهُ تعالى خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وأنَّهُ مالك لما تضمَّنه المكانُ والزَّمانُ، أمر تعالى نبيَّهُ أن يقولَ لهم ذلك على سبيلِ التَّوبيخِ لهم[3]، وانتصاب ﴿أَغَيْرَ﴾ على أنَّها مفعولٌ أولُ لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾[4].

بلاغةُ التَّقديمِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾:

تـعـيـينُ المـرادِ بـالاسـتـفـهـامِ، وأنَّـهُ لـيس أهلًا للوَلايةِ إلَّا اللهُ تعالى

قدَّم المفعولَ الأول لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾ على الفعلِ وفاعله ليكون مواليًا للاستفهام؛ لأنَّهُ هو المقصودُ بالإنكارِ، لا مطلقُ اتِّخاذ الوليِّ، فالتَّقديمُ للاهتمام به، وداعي التَّقديم هو تعيينُ المرادِ بالاستفهام، والحقُّ أنَّ التَّقديمَ هنا ليس إلّا للاهتمام بشأن المقدَّم، ليَلِيَ أداة الاستفهامِ، فيُعْلَمَ أنَّ محلَّ الإنكارِ هو اتِّخاذُ غيرِ اللّهِ وليًّا[5]، كما أنَّ تقديمَ المفعولِ به دلَّ على أنَّ إنكارَ اتِّخاذ غيرِ اللّهِ لا يبقى معه إلّا اتِّخاذُ اللّهِ وليًّا، فكان هذا التركيب مستلزمًا معنى القَصر، وليس هو بدالٍّ على القَصر مطابقةً، ولا مفيدًا لما يفيده القصرُ الإضافيُّ

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 129.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/157.

من قلبِ اعتقادٍ، أو إفرادٍ أو تعيينٍ، فلو كان المفعولُ خلافَ كلمةِ ﴿أَغَيْرَ﴾ لما صحَّ اعتبارُ القَصر(1).

بلاغةُ المجازِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

أرزاقُ اللهِ للعبادِ مُنهمرةٌ، وهو الرَّازقُ بعَطاءاتِه الغامرة

قولهُ: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ، بمعنى: وهو يرزُقُ، ولا يُرزَقُ(2)، فقد ذكر الطَّعامَ وأراد الرِّزقَ، أي: ذكر المُسبَّب وأراد السَّببَ، فهو مجازٌ علاقتُه المُسَبَّبيَّة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾؛ إذ أريد أنَّه لا يُرزَق، وهذا استدلالٌ على المشركين بما هو مسلَّمٌ عندهم؛ لأنَّهم يعترفون بأنَّ الرازقَ هو اللّهُ وهو خالقُ المخلوقاتِ، وإنَّما جعلوا الآلهةَ الأخرى شركاءَ في استحقاقِ العبادةِ، وقد كثر الاحتجاجُ على المشركين في القرآنِ بمثل هذا كقولهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63، 64](3).

والمعنى: أنَّ المنافعَ كلَّها من عنده، ولا يجوزُ عليه الانتفاع(4).

وجهُ التَّعريضِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

أسبابُ الرِّزقِ والإطعامِ، بتصريفِ ذي الجلالِ والإكرامِ

في قولهِ: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ تعريضٌ بالمُشركين الذين اتَّخذوا لهم آلهةً يقدِّمون إليهم القَرابين، فعرَّضَ بهم وبأفعالِهم، فقال: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾، فهو سبحانه مالك المُلك، فلا يَحتاج من أحدٍ شيئًا، فلا يُطعَم من أحدٍ، بل إنَّ أسبابَ الرِّزقِ والإطعام كلَّها بيدِهِ سبحانه.

بلاغةُ طِباقِ السَّلبِ، في قوله تعالى: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

ملاءمةُ المحاوَرةِ لأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ في الآيةِ

وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾، أي: يَرزُقُ ولا يُرزَق، كقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذّاريات: 57]، أي: إنَّ المنافعَ كلَّها من عندِ اللّه، وخصَّ الإطعام من أنواع الرِّزقِ لَمسِّ الحاجةِ إليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/ 156 - 157.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/158.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

وشهرتهِ واختصاصِه بالإنسان[1]، وطباقُ السَّلبِ هو الألصقُ بسياق المحاورة؛ إذ هو تفريقٌ بين المعبودِ الحقِّ والمعبوداتِ العاجزة الَّتي اتَّخذوها أولياء، وقد جرى في سياقِ الإنكار التَّوبيخي على اتِّخاذ غيرِ اللّٰه وليًا، فكانتِ الجملةُ الحاليَّةُ الواردةُ طباقَ سلبٍ زيادةً في الإنكار وتأكيدًا له، وهذا واردٌ على كلِّ قراءةٍ واردةٍ كقراءة ﴿يُطْعِمُ﴾ بكسر العين، فيكون الرِّزقُ بتقديرِه واختياره، فيُطعِمُ من يشاء، ويَمنَعُ من يشاء.

وقرأ مجاهدٌ وابنُ جبير والأعمشُ وأبو حيوة وعمرو بنُ عبيد وأبو عمرو في رواية عنه (ولا يَطعَمُ) بفتح الياءِ والعين، والمعنى: أنَّه تعالى منزَّهٌ عن الأكلِ، ولا يشبه المخلوقينَ.

وفي قراءةِ من قرأَ باختلافِ الفعلين تجنيسُ التَّشكيلِ، وهو أن يكونَ الشَّكلُ فرقًا بين الكلمتين، وسمّاهُ أسامة بن مُنْقذ في بديعته (تجنيس التّحريف)، وهو بتجنيس التَّشكيل أولى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون المعنى: وهو يُطعم تارةً، ولا يُطعَم أخرى على حسب المصالح، كقولك هو يُعطي، ويَمنع، ويبسطُ، ويقدرُ، ويُغني، ويُفقر[3].

سِرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

الإطعامُ يَتأتَّى مِنَ الخالقِ للمخلوقِ، ولا يتأتَّى مِنَ المخلوقِ للخالقِ

البناءُ للمفعولِ في قولهِ: ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ فائدتهُ: (عَدَمُ تَخصيص الفاعلِ) لِقِلَّةِ شَأنِه، وفائدَتُهُ هُنا أيضًا لبَيان عَدَمِ وُجودِ فاعلٍ أصلًا، وذلك لوجود النَّفي في النَّصِّ، فقال: ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾. وهذه المفردةُ مهمَّة جدًّا في بيانِ عظيم شأنِ الإله، وهي لا تكونُ إلا للّٰهِ وحده سبحانه، أنَّه هو وحدهُ ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452، وهذه القراءة - (ولا يَطْعَم) - قراءة شاذة. الأخفش، معاني القرآن: 2/270، والسمين، الدر المصون: 3/21.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

بلاغةُ إعادةِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾، في الآيةِ الكريمة:

الاهتمامُ بالمقُول، وتقريرُ وجوبِ إفرادِ اللهِ بالعبادةِ

لم تُعطف جملةُ ﴿قُلۡ﴾ على نظيرتها في أوَّلِ الآية للإشعارِ باستقلالِ موضوعِها عن الأولى؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ تضمَّنت غرضًا بحالها غير الَّذي أمر فيه بالقولِ قبلَهُ، فإنَّهُ لمّا تقرَّرَ بالقول السّابقِ عبودية ما في السّماوات والأرضِ للّه، وأنَّ مصيرَ كلِّ ذلك إليه، انتقلَ إلى تقريرِ وجوبِ إفرادِهِ بالعبادة؛ لأنَّ ذلك نتيجةٌ لازمةٌ لكونه مالكًا لجميع ما احتوته السّماواتُ والأرضُ، فكان هذا التَّقريرُ جاريًا على طريقة التَّعريض؛ إذ أمرَ الرَّسول ﷺ بالتبرّي من أن يُعبدَ غيرُ اللّه، والمقصودُ الإنكارُ على الَّذين عبدوا غيرَهُ واتَّخذوهم أولياءَ؛ لدلالة المقام على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يصدرُ منه ذلك، كيف وقد علِموا أنَّه دعاهم إلى توحيدِ اللّه من أوَّلِ بعثته[1]، وقد ذكر ابنُ عطيَّةَ عن بعض المُفسّرين أنَّ هذا القولَ أُمِرَ به الرَّسولُ ﷺ ليُجيبَ المُشركينَ الَّذين دعوه إلى عبادةِ أصنامهم، أي: هو مثلُ ما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: 64][2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأوَّليَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾:

تنوُّعُ الأغراضِ في الأوَّليَّةِ، دالٌّ على الصِّدقِ في كلِّ مَنحَى

قوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ قال الزَّمخشريُّ: لأنَّ النَّبيَّ سابقُ أمَّتِهِ في الإسلام، كقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: 163]، وكقول موسى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143][3]، قال ابن عطيَّةَ: المعنى: أوَّلُ من أسلمَ من هذه الأمَّةِ وبهذه الشَّريعةِ، ولا يتضمَّنُ الكلامُ إلّا ذلك[4]. وهو قولُ الحسن؛ إذ يقول: معناهُ: أوَّلُ من أسلمَ من أمَّتي، وهذا المعنى على الحقيقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/156.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/11.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321

وقيلَ: وفي هذا القولِ نظرٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يصدرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريق التَّعريضِ على الإسلام، كما يأمرُ المَلِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يتبعهُ بقولِه: أنا أوَّلُ من يفعل ذلك ليحملَهم على فعلِ ذلك.

ويمكنُ أن يكون التَّعبيرُ كنايةً عن صفةِ السَّبقِ والفضيلةِ؛ إذ أراد الأوَّليَّةَ في الرُّتبةِ والفضيلة، كما جاءَ في الحديثِ: "نحن الآخِرون الأوَّلونَ يومَ القيامةِ"، وفي رواية "السّابقون"[1]، فالأوَّلُ كنايةٌ عن الأقوى والأمكنِ في الإسلامِ؛ لأنَّ الأوَّلَ في كلِّ عملٍ هو الأحرصُ عليه والأعلقُ به، فالأوَّليَّةُ تستلزم الحرصَ والقوَّةَ في العمل.

ويمكن أن يكون أيضًا ﴿أَوَّلَ﴾ بمعنى: هو أسرعُ إيمانًا باللّهِ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسبَّبيَّةُ، والخطابُ للنّاسِ جميعًا، قال تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]. ويمكن أن يكون ﴿أَسۡلَمَۖ﴾ بمعنى أخلصَ، ولم يَعْدِل باللّهِ شيئًا، ويصلح معنى استسلمَ، أو أراد دخولهُ في دين إبراهيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: 78]، أو يكون ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ يوم الميثاقِ، فيكون سابقًا على الخلقِ كلِّهم، كما قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾[2].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ المتكلِّمِ إلى المُخاطَبِ في الآيةِ الكريمةِ:

الإسلامُ حَصانةٌ مِنَ الغيِّ، ووِقايةٌ مِنَ الشِّركِ

الالتفاتُ في قولهِ تعالى: ﴿أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]. التفتَ بفعلِ الكينونةِ من المتكلِّمِ إلى المُخاطَب، وفائدةُ ذلك أنَّهُ لما أعلن نفسه أوَّلَ من أسلمَ، وهذا مقتضى حالِ كلِّ مسلمٍ أن يقول: أنا أوَّلُ المسلمين، أي: أنشطُهم روحًا وطلبًا

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453، والحديث أخرجه البخاري (برقم: 876)، ومسلم (برقم: 855)، وغيرُهما.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

(3) الصّعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 1/139.

وحُبًّا للإسلام، ثمَّ التفتَ إلى المخاطَب بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أفادَ الخطابُ الإلهيُّ أنَّ على كلِّ مؤمنٍ أن يحذرَ مداخلَ الشيطانِ الَّتي تؤدّي به إلى الشِّرك، والالتفاتِ عن دواعيه والانصرافِ عن المشركين في جميع أحوالِهم.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بين الكِنايةِ والمجاز:

الـثَّـبـاتُ على الإيمانِ، وِقايةٌ مـنَ الـوقـوعِ في بَراثنِ الشِّركِ

قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: كُن مؤمنًا، فالنَّهي عن الشِّرك كنايةٌ عن التزام التَّوحيدِ والإيمان الصَّحيح والمُعتقد القويم، فهي كنايةٌ عن نِسبة، فلا تنتسب إلى الشِّرك، ولا يُنتسب إليك الشِّرك والمُشركون.

أو أنَّ الخطابَ للرَّسول ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والمرادُ أمَّتُه وهذا هو الظّاهرُ على سبيلِ المجازِ المرسل بعلاقة الجزئيَّةِ؛ إذ ذكرَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الرَّسولَ، وأراد الرَّسولَ وأمَّتَه جميعًا، لقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزّمر: 65]؛ والعصمةُ تنافي إمكانِ الشِّرك، لذلك فإنَّه خطابٌ للأمَّة[1] ومجيئُه على هذا النَّحوِ فيه تربيةٌ لخُلُقِ التَّواضعِ في الأمَّةِ، وإلماعٌ إلى شدَّةِ التَّحرّي من الوقوعِ في براثنِ الشِّرك.

دلالةُ قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ و﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بين الإفرادِ والجمْع:

الإسلامُ طريقٌ واحدةٌ للهدايةِ، والشِّركُ طرائقُ شتَّى للغَوايةِ

سياقُ الآيةِ الإفرادُ لا الجمعُ، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾، ولم يقل: إنّي أمرتُ أن أكونَ أوَّلَ المسلمين، فاقتضى قولَه: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ أن يناسِبَ آخرُ الآية أوَّلها في السّياق، فيقولُ: ولا تكوننَّ مشركًا، ولكنَّهُ آثرَ الجمعَ على الإفرادِ أولًا؛ لأنَّ الشِّرك طرقُهُ كثيرةٌ منوَّعةٌ، ومداخلُ الشَّيطان هائلةٌ لا تُعدُّ، ولا تُحصى، فمن خرجَ من دائرةِ الإيمانِ، وهي سبيلٌ واحدٌ لا ثاني له، فقد أوغلَ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

في سُبُل الشِّركِ وتاه في أنواعِه وأشكالِه وطرقِه، ثمَّ إنَّه لم يُنسب إليه الشِّركُ ثانيًا رفعًا لمقام الإسلام، وصيانةً لمن قال: ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: 12].

بيانُ التّشابُهِ اللَّفظيِّ بين آيةِ الأنعام (14)، وآية الزّمر: (12):

الإســــلامُ ديــنُ اجتـمـاعٍ وفاعليّةٍ، لا دينُ عُزلةٍ ورَهبانيَّةٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ يتحدَّثُ عن الإيمانِ أو عدمِه، فإمّا إيمانٌ وإسلامٌ، وإمّا كفرٌ وإعراضٌ، فقال: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾؛ وهذا لا ينبغي إلّا لرسولِ اللّه حقيقةً، ومعناهُ: أنَّه رسولُ هذه الأمَّةِ، وأنَّه قد أُمر بأداء الرِّسالةِ، فهو أوَّلُ من أسلمَ، أمّا قولهُ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 12]، فسياقُ الآياتِ في سورة الزُّمرِ يخاطب جماعة المؤمنين، فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزّمر: 10]، فأتبعها بقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 11 - 12]، فجعلَ الخطاب في جماعة المسلمين، فقالَ: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزّمر: 12]، تناسقًا وانسجامًا مع سياق الآيات، فثمَّةَ جماعةٌ مسلمةٌ ومجتمعٌ مسلمٌ، وقد أُمِرَ كلُّ مسلم أن يتصدَّر مجتمعه بالتَّقوَى والإيمان، فيكون أوَّلَ المسلمين. ثُمَّ إنَّهُ لم يقل: (وأمرت أن أكون مسلمًا)، وذلك لبيان أهمّيَّة الانتماءِ إلى المجتمع المسلم، وأنّ الإسلامَ دينُ مجتمعٍ وأخوَّةٍ، لا دين تفرُّدٍ وعُزلةٍ ورهبانيَّةٍ، والآياتُ القرآنيَّةُ الكريمة والأحاديثُ الصحيحة التي تؤيِّدُ ذلك كثيرةٌ.

دلالةُ معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ولا تكونَنَ مشركًا)؛ لأنَّ القصدَ ألّا ينتمي إلى جماعة المُشركينَ أو إلى مجتمع المشركينَ،

فيكون منهم، وإن كان مُسلِمًا، ولو قال: (ولا تكونَنَّ مشركًا)؛ لاكتفى بصفةِ الإشراكِ، لكنَّه أوغلَ في النَّهيِ، فنهى المُسلمَ أن ينتَميَ إلى مجتمع المُشركين؛ لأنَّ من عاشَ بين المشركين؛ أوشكَ أن يقعَ في الشِّركِ، وخيف على دينهِ.

مـنْ عـاشَـرَ المشركينَ؛ خِيْفَ عليه من ضَياعِ الدّينِ

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: 15]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال بيانِ أنَّ الشِّركَ بالله العظيمِ، جزاؤُه العذابُ الأليمُ

الآيةُ استئنافٌ مكَرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشترك بينهما، فبعدَ أن ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ لدين الله سبحانه، وأنَّه أمرَ أن يتجنَّبَ الشِّركَ وأهلَه؛ بيَّن في هذه الآية خوفَه من عظيمِ العذابِ يومَ القيامة[1]، يوم يُجمَعُ النّاس إليه، ويُحشرون من أجداثِهم ومن كلِّ مكانٍ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَافُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (خوف)، والخَوفُ: ضدُّ الأَمن، خافَ يخاف خوفًا[2]. والخوفُ: الفزع[3]، وخَوَّفتُ الرَّجلَ: جعلت فيه الخَوفَ، والخيفةُ: الخوف[4].

2) ﴿عَصَيۡتُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عَصَوَ)، عَصَى يَعصي عِصيانًا ومَعصية، والعاصي: اسم الفصيلِ خاصَّةً؛ إذا عصى أمَّه في اتِّباعها[5]. وعصى عِصيانًا؛ إذا خرج عن الطّاعةِ، وأصلهُ أن يتمنَّعَ بعصاه، قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121][6]. يقالُ: عَصا؛ إذا صَلُبَ واشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ: اشتدَّ، واعتصَتِ النَّواةُ قاصر: اشتدَّت، ومن هذا جاء العِصيانُ، فأصلهُ الصَّلابةُ وعدمُ الانثناءِ أو الانقياد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 36][7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/160.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خوف).
(3) ابن سيده، المُحكم: (خوف).
(4) الخليل، العين: (خوف).
(5) الخليل، العين: (عصو).
(6) الراغب، المفردات: (عصا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصا).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تجنُّبُ المعصيّة، طَمعًا في رحمةِ الله، وخوفًا من عقابِه

أمرَ اللّهُ نبيَّه أن يتابعَ البيانَ عن جزاءِ من يخالفُ أمْرَه لهؤلاء المشركين مع اللّهِ غيره بالأسلوبِ السّابق نفسهِ بأن يقولَ: إنّي أخافُ إن عصيتُ ربي، فخالفتُ أمرَهُ، وأشركتُ معه غيره في عبادته، أن ينزلَ بي عذابٌ عظيم يوم القيامةِ، والكلامُ مسوقٌ على جهةِ الفَرْضِ، أي: على فَرْضِ ظهور العِصيان منّي، وهو لونٌ من ألوان شدَّةِ البيان، أو تحقُّق الخوفِ على كلِّ من عصى، على نهجِ القرآنِ في مثله. وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا اليومَ لا محاباةَ فيه لأحدٍ مهما كان عظيمًا، وأنَّهُ منوطٌ بالأعمال[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ التَّرقّي في رفضِ الشِّركِ، بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

الارتـقـاءُ في مَدارجِ الإيمانِ، تجنُّبٌ للشِّركِ وأهلِه

هذا استئنافٌ مكَرَّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشترك بينها، من أنَّ الشِّركَ باللّهِ متوعَّدٌ صاحبُه بالعذابِ، وموعودٌ تاركه بالرَّحمةِ، فقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآيةُ: رفضٌ للشِّرك بالدَّليلِ العقليِّ، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية، رفضٌ للشِّرك امتثالًا لأمرِ اللّهِ وجلالِه، وقوله هنا: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الآية تجنُّبٌ للشِّرك خوفًا من العقابِ وطمعًا في الرّحمةِ، وقد جاءتِ الآياتُ مترتِّبةً على ترتيبها في نفسِ الأمرِ[2]. وهو من قبيلِ التَّرقّي في رفضِ الشِّرك بحسبِ الغرض الَّذي سيقت من أجله العباراتُ المُتواليةُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّةِ دون (إذا):

لا يمكنُ أن يَعصيَ الأنبياءُ ربَّهُم؛ لأنّ هذا مُستحيلٌ في حقِّهم

قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ (إذا) تتضمَّنُ معنى الشَّرط، وهي كـ (إنْ)، ويفترقان في أنَّ (إنْ) تُستعمَلُ في المُحتَمَلِ المَشكوكِ فيه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/293، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/160.

والمَوهومَةِ والنّادرة[1]، والمُستَحيلَةِ وسائر الافتراضاتِ الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيرِهِ عمومًا، فمِنَ المَعاني المُستَحيلَةِ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزّخرف: 81]، فاستعملَ أداة الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾، فجعل ذلك من الأمور مُستَحيلَة الوُقوع؛ إذ لا يمكن أن يعصي الأنبياءُ ربَّهُم سبحانه.

فائدةُ صيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿عَصَيۡتُ﴾:

إبـرازُ المـاضِي في صُورةِ الحاصلِ؛ لـلـتَّـنـفـيرِ مـنَ الشِّركِ

لفظةُ ﴿عَصَيۡتُ﴾: عامَّةٌ في أنواع المعاصي، ولكنَّها ههنا إنَّما تشير إلى الشِّركِ الَّذي نُهيَ عنه[2]، والخوفُ ليس بحاصلٍ لعصمتِهِ؛ بل هو معلَّق بشرطٍ هو ممتنع في حقِّهِ ﷺ وجوابُهُ محذوفٌ وجوبًا[3]. واستخدمَ هنا ﴿إِنۡ﴾ الدّالَّةَ على احتمالِ وقوع مدخولها، وهو هنا جرْيٌ على العادة، لكنَّ المعصيةَ ممتنعةٌ عليه ﷺ، وفي التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَصَيۡتُ﴾ إبرازٌ له في صورةِ الحاصلِ على سبيل الفرضِ، ومعلومٌ أنَّ خوفَ المعصوم من المعصية لا يُنافي العِصمة.

وجهُ الكنايةِ في العُدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ إلى ﴿رَبِّي﴾:

الاستـسـلامُ لـلـهِ ركـونٌ إلى ربِّ المخلوقاتِ جميعِها

يفهمُ من قولِهِ: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أنَّ الآمرَ له بأن يكون أوَّلَ من أسلمَ والنّاهي عن كونِهِ من المشركينَ هو اللّٰه تعالى، وفي العدول عن اسم الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيف يعصيه؟ ففي قوله: ﴿رَبِّي﴾ كنايةٌ عن الولاءِ للّٰه والاستسلام إليه سبحانه.

بلاغةُ الإطنابِ والإيغالِ في لفظ ﴿يَوۡمٍ﴾:

جُعلتِ القيامةُ يـومًـا، لتأكيدِ حتميَّةِ قُدومِها

كان من الممكن أن تكونَ صيغةُ الكلامِ: (عذابًا عظيمًا)، لكنَّهُ ذكرَ اليومَ هنا إطنابًا في التَّعبيرِ وإيغالًا في المرادِ، وفائدةُ ذلك بيانُ

(1) الزّركشي، البرهان: 2/360.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457.

أنَّ هذا اليومَ وعدٌ محتومٌ، فكما تأتي الأيامُ المشهودةُ على النّاس في الدُّنيا، فسيأتي هذا اليومُ حتمًا على النّاس في الآخرةِ، ويوفَّى كلٌّ حسابَه، وفيهِ كذلك عظيمُ تهويلٍ من شديدِ العذابِ.

الوجهُ البلاغيُّ في وصْفِ ﴿عَذَابَ﴾، بأنّه ﴿عَظِيمٍ﴾:

إضافةُ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ، تَستلزِمُ عِظَمَ ما يَقعُ فيه

قوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾: أضيفَ العذابُ إلى (يومٍ عظيمٍ) تهويلًا له؛ لأنَّ في معتادِ العربِ أن يُطلقَ اليومُ على يومِ نصرِ فريقٍ وانهزامِ فريقٍ من المُحاربين، فيكونَ اليومُ نكالًا على المنهزمين؛ إذ يكثُرُ فيهم القتلُ والأسرُ، ويُسام المغلوبُ سوءَ العذاب، فَذِكْرُ (يوم) يُثير من الخيالِ مخاوفَ مألوفةً، ولذلك قال اللّهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: 189]، ولم يقل: عذابُ الظلَّةِ إنَّه كان عذابًا عظيمًا، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ؛ كنايةً عن عِظَمِ ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليومِ العظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقعُ فيه عرفًا[1].

بلاغةُ الاعتراضِ، بالجملةِ الشَّرطيّةِ المحذوفةِ الجوابِ:

وجهُ وصفِ (العذابِ)، بكونِه عظيمًا

قوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، أصلُ التَّركيبِ: قل: (إنّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيمٍ)، لكنَّه اعترضَ بجملةِ الشَّرطِ ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾، وهذه الجملةُ الشَّرطيَّةُ - لا موضعَ لها من الإعرابِ، كالاعتراضِ بالقَسَم - اعتراضٌ بين الفِعْل وهو ﴿أَخَافُ﴾ وبين مفعولِه وهو ﴿عَذَابَ﴾، وليس ﴿أَخَافُ﴾ جوابَه، لكنَّه دليلُ جوابِه على الرّاجحِ[2]، والتَّقدير: إن عصيتُ أَخَفْ، وكأنَّ التَّعبيرَ بالخوفِ مرَّتين، المرَّة المصرَّح بها، وعلى التَّقديرِ في جوابِ الشَّرطِ، ممّا يدلُّ على عظيمِ الخوف، ففي الكلامِ مبالغةٌ في قطعِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/160.

(2) السّمين، الدّر المصون: 4/559.

أطماعِهم، وتعريضٌ باستحقاقِهم العذابَ لكونهم عُصاةً[1]. ولمّا كان عظمُ الظَّرفِ بعظمِ مظروفِهِ، قال: ﴿عَظِيمِ﴾، وهو عظيم، بما فيهِ من أمورٍ تحصلُ يوم القيامةِ، من تجلّي اللّه ﷻ، وحسابه وعقابه، والتَّنكيرُ في اللَّفظ للتَّعظيم، فهذا العذاب ذو عظمةٍ متكرِّرةٍ.

بيانُ التَّشابهِ اللَّفظيِّ بين آيةِ الأنعام: (15)، وآيةِ يونس (15):

دَأْبُ المُشركين في جميع الأزمنةِ؛ إحداثُ التَّبديلِ في الدِّينِ، لمعانَدةِ ربِّ العالمين

في الآية تطابقٌ لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]؛ إذ تضمَّنَتْ آيةُ الأنعامِ الأمرَ من اللّهِ بالقَول، أمّا آيةُ يونس ومن خلال سياقها؛ فتحكي قول رسول اللّه ﷺ وطاعته للّه تعالى، واتِّباع ما يوحى إليه من اللّهِ سبحانه، فيتَّضح من سياقِ الآيتين أنَّ آيةَ يونسَ قد فَسَّرتْ ما ورد في آية الأنعام وما قبلها، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فسَّرتها آيةُ يونس بقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]، فما ذُكِرَ في هذه الآية يُظهِرُ دعوةَ المُشركين إلى تبديلِ ما أوحيَ إلى الرَّسولِ، والتَّبديلُ بذاتِهِ إشراكٌ باللّه أو هو انعكاسٌ للإشراكِ باللّهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/116.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

[الأنعام: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نزولُ هذه الآيةِ، مَوقعَ الصِّفةِ منَ الموصوفِ مع سابقتِها

بعد أن أبانَ اللّٰهُ تعالى هولَ ذلك اليومِ الَّذي لا ريبَ فيه بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، تابع في هذه الآيةِ وصفَ ذلك اليَوْمِ بالهولِ، فقالَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: يُصرفُ عنه عذابُ ذلك اليومِ، فقد أصابتْهُ رحمةُ اللّٰهِ، وفازَ بالجِنانِ، فوقعتِ الآيةُ من سابقتها موقعَ الصِّفةِ من الموصوف.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصۡرَفۡ﴾: جذرُ الكلمة هو (صرف): ويدلُّ على رجعِ الشَّيءِ، من ذلك: صرفتُ القومَ صرفًا، وانصرفو؛ إذا رجَّعتَهم، فرجعوا، وكلُّ (صَرَفَ) ومضارعِها، وأمرِها، المبنيِّ للمفعول منها، كلُّها بمعنى التَّحويلِ[1]. والمعنى هنا: يُردُّ عنه العذابُ.

2) ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: جذر الكلمة هو (بين)، وبانَ الشَّيءُ بَينًا، وبانَ عنه، واستبان وبيَّنَ وتبيَّن: ظَهر ووضَح[2]، ورجلٌ بيِّنٌ: فصيحٌ ذو بيانٍ، والبيانُ: الكشفُ عن الشَّيءِ، وهو أعمُّ من النُّطق مختصٌّ بالإنسان، ويُسمَّى ما بُيِّن به بيانًا[3]، والمعنى هنا: الظّاهرُ الواضحُ.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الفوزُ الحقيقيُّ المبينُ، لمن شملَتْه عِنايةُ أرحمِ الرّاحمينَ

تقرِّرُ الآيةُ أنَّ من أنجاهُ اللّٰهُ مِنَ العذابِ المذكورِ؛ فقد رَحِمَهُ رحمةً شاملةً وآتاه الثَّوابَ لا محالةَ؛ لأنَّ صرْفَ العذابِ، وحصولَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرف).
(2) الخليل، العين: (بين).
(3) الراغب، المفردات: (بين).

الرَّحْمَةِ هو النَّجاةُ والفلاحُ المُبين[1]، لما يتبعُ ردَّ العذابِ ودفعَه من النَّعيمِ المُقيم الَّذي لا ينقطعُ، ولا يزولُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾:

البُشرَى في صرْفِ العذابِ تقتضي بُشرَى الرَّحْمَةِ ودخول الجِنانِ

قوله: ﴿يُصۡرَفۡ﴾ مبنيٌّ للمفعولِ، ومعلومٌ أنَّ الصّارِفَ هو اللّهُ تعالى، فحُذِفَ للعلمِ به أو للإيجاز؛ إذ قد تقدَّمَ ذكرُ الرَّبِّ، وتُبَيِّنُهُ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وشعبةَ وخلفٍ ويعقوبَ بالبناءِ للفاعل[2]، وفوقَ ما في الحذفِ من إيجازٍ؛ فإنَّ فيه لفتًا للسّياقِ لتقديرِ المعنى المحذوفِ.

إيثارُ تنوينِ العِوضِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

تظهرُ براعةُ النَّظْمِ في الإيجازِ وجمالِ المعنى المُقدَّرِ

ويجوزُ في هذا الوجهِ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يُصۡرَفۡ﴾ عائدًا على ﴿مَّن﴾، والتَّنوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنوينُ عوضٍ من جملةٍ محذوفةٍ يتضمَّنُها الكلامُ السّابقُ، والتَّقديرُ: (يومَ إذ يكونُ الجزاءُ)؛ إذ لم يتقدَّمْ جملةٌ مصرَّحٌ بها، يكون التَّنوينُ عوضًا عنها[3]، وأفادَ ذلك براعةً في الإيجازِ، وجمالًا في تقديرِ المعنى.

وجهُ الإطنابِ في تكريرِ ذكْرِ (اليومِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

تكرارُ ذكرِ يوم القيامةِ، لتأكيدِ عظيمِ شأنِهِ

بعد أن ذكرَ اليومَ في الآيةِ السّابقةِ، فقال: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، كرَّر ذكرهُ في هذه الآيةِ لبيانِ عظيمِ شأنِ هذا اليومِ، فقالَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾، وفائدةُ التَّكريرِ ليُفهم أنَّ هذا اليوم آتٍ لا محالةَ، وأنَّه يومٌ ليس كسائرِ الأيّامِ، وإنَّما هو ميزانُ أيّامِ الدُّنيا كُلِّها.

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 2/122.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/257.

(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/455 - 456.

حُسنُ اختيارِ الفِعلِ معَ الضَّميرِ في ﴿رَحِمَهُۥ﴾:

عينُ الرَّحمةِ بالإنسانِ، أن يُصرفَ عنهُ ما في العذابِ من هوانٍ

البناءُ للمعلومِ في قوله: ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ على خلاف ما سبقَ؛ إذ قال: ﴿يُصۡرَفۡ﴾، فلم يُسَمِّ فاعِلَه، وعلى القراءةِ الأخرى الشّاذَّة (فقد رُحِمَ) ليتناسبَ الفعلان[1]، والكلامُ عن إنسانٍ تجاوز مِحَنَ ذلك اليومِ، فصرفَ اللّهُ عنه عذابَه، وتلك هي عينُ الرَّحمةِ بذلك الإنسانِ، فقال تعالى: ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾.

حكمةُ اتِّحادِ الشَّرطِ والجَزاءِ في المَعنَى:

المُبَالَغةُ في تعظيمِ رحمةِ اللهِ، مقصدٌ عقديٌّ مهمٌّ

في الآيةِ اتِّحادُ فعلِ الشَّرطِ وهو ﴿يُصۡرَفۡ﴾، والجَزاءِ وهو ﴿رَحِمَهُۥ﴾ في المعنى؛ إذ إنَّ من يُصرَفُ عنه شرُّ ذلكَ اليوم، فذلكَ عينُ الرَّحمةِ، فوقعَ في الجَزاءِ اتِّحادٌ معنويٌّ مع الشَّرط في قوله: ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾، وإذا اتَّحدَ الشَّرطُ والجَزاءُ؛ عُلِمَ منهُما المُبالَغة في تعظيمِ الرَّحمةِ؛ إذ ليس بعد تلك الرَّحمةِ ما يستدعي الخوفَ والقلقَ قَطعًا، ولَيسَ بَعدَها إلّا الفوزُ بِرضاءِ اللّهِ وفَضلِه.

دلالةُ جمالِ المقابلةِ، بطريقِ المَذهَبِ الكَلاميِّ:

مقابلةُ الحالاتِ المتعارِضةِ، تُقدِّمُ أفضلَ الأدلَّةِ الضَّروريَّةِ للإقناعِ

ومعنَى وصفِ العذابِ بمضمونِ جملةِ الشَّرطِ والجزاءِ، أي: من وفَّقَهُ اللّهُ لتجنُّبِ أسبابِ ذلك العذابِ؛ فقد قدَّرَ اللّهُ له الرَّحمةَ، ويَسَّرَ له أسبابَها، والمقصودُ من هذا الكلام إثباتُ مقابل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، كأنَّهُ قال: أرجو إن أطعْتُه أن يرحمَني ربّي؛ لأنَّ من صرفَ عنه العذابَ؛ ثبتَت له الرَّحمةُ، فجاء في إفادةِ هذا المعنى بطريقةِ المذهبِ الكَلاميِّ، وهو ذكرُ الدَّليل ليُعلَمَ المدلولُ، وهذا ضربٌ من الكنايةِ وأسلوبٌ بديعٌ؛ بحيث يدخلُ المحكومُ له في الحكمِ بعنوان كونه فردًا من أفرادِ العمومِ الَّذين ثبت لهم الحكمُ[2].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/161 - 162.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ بالبَعيدِ، تعظيمٌ لشأنِ الفَوزِ الّذي وصَفَهُ بالعَظيمِ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾: يقترنُ اسمُ الإشارةِ بالكافِ ليدُلَّ على البعدِ، فتقولُ: (ذاك)، وللزّيادةِ في البُعدِ تُزاد اللّام، فيُقال: (ذلك)، وقد يُنزَّلُ القريبُ منزلةَ البعيدِ للتَّعظيم، كقولِ اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2]، وليس المقصودُ من البُعد هنا البُعد المَكانيُّ ولا الزَّمانيُّ، بل بُعد المَنزِلَة، ومِثلُه قولُ اللّه تعالى مُخبرًا عن يوم القيامةِ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ [هود: 103]. ومثلُ ذلك في الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ [النساء: 13]. فأشارَ باسمِ الإشارةِ للبَعيدِ أرادَ تعظيمَ شأنِ ذلك الفَوزِ الذي وصَفَهُ بالمُبين.

وجهُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

النَّجاةُ في الآخرةِ فوزٌ عظيمٌ، لا تَخفَى دَلائلُه على أحدٍ

قالَ سيبويه: "واعلم أنَّ النَّكرة أخَفُّ عليهم من المَعرفة، وهي أشَدُّ تَمكُّنًا؛ لأنَّ النَّكرة أوَّلُ، ثمَّ يدخلُ عليها ما تُعرَّفُ به، فمن ثَمَّ أكثرُ الكلام ينصرفُ إلى النَّكرةِ"[1]، أي: إنَّ النَّكرةَ تأتي أوَّلًا، ثمَّ تأتي المعرفةُ بعدَها، فالنَّكِرَةُ بمفردِها تدلُّ على الإطلاقِ، وأمّا المعرفةُ، فيُفهَمُ منها ذاتُ المعيَّن، ويُفهَمُ منها كونُه مَعلومًا للسّامِعِ، لِدِلالَةِ اللَّفظِ على التَّعيين، فيفيدُ التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تعيينَ ذلكَ الفوزِ للَّذي قد صُرِفَ عنهُ سوءُ ذلك اليوم، وفي ذلك التَّعريفِ دلالةٌ على أنَّهُ هو فوزٌ عظيمٌ، بيِّنُ العظمة، فلا تَخفَى على أحدٍ عظَمَةُ ذلك الفوزِ.

سرُّ التَّذييلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

دفعُ العذابِ يومَ القيامةِ دخولٌ في رحمةِ اللهِ الشَّاملةِ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: الصَّرفُ أو الرَّحمةُ[2]، والجملةُ تذييلٌ لما قبلها، فبعد أن ذكرَ صرفَ العذابِ، ووجوبَ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/22.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.

الرَّحمة، بيَّن موجزًا أنَّ ما ذُكر هو الفوزُ المُبينُ بعينه، الَّذي لا يلحقُ به فوزٌ مكانةً وضمانًا، والإشارةُ موجَّهةٌ إلى الصَّرفِ المأخوذِ من قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ أو إلى المذكورِ، وإنَّما كان الصَّرْفُ عنِ العذابِ فوزًا؛ لأنَّه إذا صُرِفَ عن العذابِ في ذلك اليوم، فقد دخلَ في النَّعيمِ في ذلك اليومِ، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ اسمُ فاعلٍ من أبانَ بمعنى بانَ[1].

بيانُ التَّشابهِ اللَّفْظِيِّ بين آيةِ الأنعام (16)، والجاثيّةِ (30):

الـدُّخـولُ في رحمةِ اللهِ، هو أعلَى دَرَجَاتِ الفَوزِ في الآخرةِ

في سورةِ الأنعام قالَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفي آيةِ الجاثيةِ قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾ [الجاثية: 30]. فسياقُ الأنعامِ هو صرفُ عذابِ يوم القيامةِ، فقالَ: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وأمّا سياقُ الجاثيةِ؛ فالحديثُ عن رحمةِ اللّٰهِ وإدخالِ المؤمنين في رحمته - سبحانهُ - فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾. والفرقُ كبيرٌ بين صرفِ العذابِ وبين الدُّخول في رحمةِ اللّٰهِ تعالى، ولذلك فقد خصَّصَ الثّانيةَ، وحَصَرَ الفوزَ المُبينَ عليها، فكان حالُ المؤمنينَ في رحمةِ اللّٰهِ أرقى مآلًا من حالِ مَن صُرِفَ عنه عذابُ يوم القيامةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/162.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين جزاء الإنكارِ الأثيمِ، وبيانِ أنّه لا نافعَ ولا ضارَّ إلّا اللهُ العظيمُ

بعد أن بيَّنَ عنادَ المنكرينَ للرِّسالةِ وللرَّسولِ في الآياتِ السّابقةِ، والإصرارَ على الاستهزاءِ والسُّخْرِيَةِ؛ أتى في هذه الآيةِ بما ينهجُهُ القرآنُ على إثر بيان عنادِ المُنكرين من تثبيتهِ ﷺ، ضدَّهم ووعده بالحفظِ من مكرهم، وذكر ذلك بِصورَةِ حقيقةٍ عامَّةٍ على نهج القرآن في مثلهِ، وقد نظمَهُ في سلكِ دليلِ التَّوحيدِ، وجعلَهُ تكميلًا له[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (مسس) استعملَ في الإصابةِ بمكروهٍ، كقوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ [آل عمران: 140]. وقد وردَ المسُّ بمعنى إيقاعِ الضُّرِّ ونحوه، كالعذاب والنَّفحةِ منه، والنّارِ، والسّوءِ، والشَّرِّ، والضُّرِّ، والطّائِفِ الشَّيْطانيِّ، واللُّغوب، والنَّصَب في أكثر ما ورد في القرآنِ الكريم[2].

2) ﴿كَاشِفَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (كشف)، والكَشْفُ: رَفعُكَ شيئًا عمّا يواريه ويغطّيه، كرفع الغطاءِ عن الشَّيء[3]، ومن المجاز: كشفَ اللّهُ غمَّهُ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾[4].

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/294.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مسس).
(3) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (كشف).
(4) عياض، مشارق الأنوار: (كشف).

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تفرُّدُ اللهِ بكشفِ الضُّرِّ وجلْبِ الخيرِ

يبيِّنُ اللّهُ أَنَّ الأمرَ في هذهِ الدُّنيا والتَّصرُّفَ فيه، إنَّما هو بمشيئتِه وحده، فإن يَمَسَّكَ اللّهُ - أيُّها الإنسانُ - بشدَّةٍ وبليَّةٍ، فلا يدفعُ ذلك الضُّرَّ إلّا اللّهُ - ﷻ - وإن يَمسَسكَ بعافيةٍ ونعمةٍ ممّا ينالُ الإنسانَ من لذَّةٍ وفَرَحٍ وسُرور، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ من دفع الضُّرِّ وإيصال الخير[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ المؤمنَ الصّادقَ في إيمانِه عليه ألّا يطلبَ شيئًا من أمورِ الدُّنيا والآخرة: من كَشْفِ ضُرٍّ، وصَرْفِ عذابٍ، أَو إيجادِ خيرٍ، ومَنْحِ ثوابٍ، إلّا مِنَ اللّهِ تعالى وحده، دونَ غيرِه من الشُّفعاءِ والوسطاء، والمتكهِّنةِ، والأَولياء الذين لا يملكونَ لأَنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّرقِّي في المُحاجَجَةِ، وإثباتِ الدَّليلِ:

تدرُّجُ الخطابِ في بيانِ قُدرةِ اللهِ، وإحاطتِها بالزّمانِ والمكانِ

الآيةُ في سياقِها سنامُ التَّرقّي في شمولِ قدرتِه - سبحانه - إذ بدأَ بشمولِ الأزمنةِ، فقالَ: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وهذا الشُّمولُ يَتَّحِدُ بالفضاءِ والمكانِ، فارتقى بالخطابِ بإتباعِها قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فشملَ المكانَ والفضاءَ كلَّهُ، ولمّا ذكرَ الأرضَ؛ فقدِ اقتضى أن يدبِّرَ أقواتها، فقالَ: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾، فذكر ما يشيرُ إلى الأرزاقِ والأطعام والأقواتِ، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فصّلت: 10]، والأقواتُ تقتضي شمولَ الأقدارِ، فختمَ هذا التَّرقّي بقولِه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾.

---

(1) الخازن، لُباب التأويل: 2/122 - 123. بتصرف.

(2) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 3/1207.

ومن وراءِ ذلك إثباتُ أنَّ المُتصرِّفَ المُطلقَ في أحوالِ الموجوداتِ هو اللّه - تعالى - بعد أن أثبتَ بالجملِ السّابقةِ أنَّه مُحدِثُ الموجوداتِ كلِّها، في السَّماءِ والأرضِ، فجعل ذلك في أسلوبِ تثبيتٍ للرَّسول ﷺ على عدمِ الخشيةِ من بأسِ المشركين وتهديدِهم ووعيدِهم، ووعدَهُ بحصولِ الخيرِ له من أثر رِضا ربِّهِ وحده عنه، وتحدّي المشركينَ بأنَّهم لا يستطيعون إضرارَه، ولا يجلبون نفعَه، ويحصلُ منه ردٌّ على المشركين الَّذين كانوا إذا ذُكِّروا بأنَّ اللّه خالقُ السّماواتِ والأرض، ومن فيهن، أقرّوا بذلك، ويزعمون أنَّ آلهتَهم تشفعُ عند اللّهِ، وأنَّها تجلبُ الخيرَ، وتدفعُ الشَّرَّ، فلمّا أبطلتِ الآياتُ السّابقةُ استحقاقَ الأصنامِ الإلهيَّة؛ لأنَّها لم تخلق شيئًا، وأوجبت عبادةَ المُستحِقِّ الإلهيَّةَ بحقٍّ؛ أبطلت هذه الآيةُ استحقاقَهم العبادةَ؛ لأنَّهم لا يملكون للنّاسِ ضُرًّا ولا نفعًا[1].

دلالةُ الاستعارتَيْنِ التّبعيّتين، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾:

تصويرُ عظيمِ أثرِ أقلِّ الضُّرِّ على الإنسانِ

﴿يَمۡسَسۡكَ﴾: معناهُ يُصِبْكَ، وحقيقةُ المسِّ هي بتلاقي جِسمين، فكأنَّ الإنسانَ والضُّرَّ يتماسّان، والضُّرُّ (بضم الضاد) سوءُ الحال في الجسمِ وغيره[2]، والمسُّ حقيقتُه وضعُ اليدِ على شيءٍ، وقد يكون مباشرةً، وقد يكونُ بآلةٍ، ويستعملُ مجازًا في إيصالِ شيءٍ إلى شيءٍ، فيُستعارُ إلى معنى الإيصالِ، فيكثُرُ أن يذكرَ معهُ ما هو مُستعارٌ للآلة، ويدخلُ عليه حرفُ الآلةِ، وهو (الباء) كما هنا، فتكونُ فيه استعارتان تبعيَّتان؛ إحداهما في الفعلِ، والأخرى في معنى الحَرفِ[3]، وقدِ اصطفى النَّظمُ الكريمُ المسَّ على الإصابةِ لبيانِ أقلِّ الضُّرِّ، وفائدةُ هذه الاستعارةِ تصويرُ عظيمِ أثرِ أقلِّ الضُّرِّ على الإنسانِ.. فما بالُه إن أصابَه من عذابِ الآخرة؟ وأمّا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/162 - 163.

(2) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

الخيرِ؛ فقولُه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، وهو قليلٌ مهما بلغَ، إن قورنَ بعظيمِ نعيمِ الآخرة.

معنى (الباءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿بِضُرٍّ﴾:

تظهرُ حاجةُ الإنسانِ إلى اللهِ، عندما يمسُّهُ أقلُّ ضُرٍّ

الباءُ للإلصاقِ، وهو المعنى المُلازِمُ لَها، قال سيبويه: "وباء الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط... فما اتَّسع من هذا في الكلام، فهو أصلُهُ"[1]، ولا يفارقُها هذا المعنى[2]. وفي الآية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ إلصاقٌ مجازيٌّ؛ إذ التصقَ ضرٌّ بهِ، أي: بالمُخاطب. ويُصوِّرُ هذا الإلصاقُ حاجةَ هذا الإنسانِ إلى اللهِ تعالى عندما يمسُّهُ أقلُّ ضرٍّ.

دلالةُ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ، في قولهِ تعالى: ﴿بِضُرٍّ﴾:

لا كاشفَ للضُرِّ كُلِّهِ إلَّا اللهُ سُبحانه

دلالةُ النَّكرةِ في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ للتَّقليلِ والتَّهوينِ من شأنِ ذلك الضُّرِّ، فمهما كان ذلك الضُّرُّ صغيرًا؛ فإنَّهُ لا كاشفَ له إلا اللّهُ سبحانه، ولو قال: (وإن يمسسكَ اللّهُ بالضُّرِّ)، فيكون المعنى: بالضُّرِّ كلِّه، أو بعمومِ أنواعِ الضُّرِّ، أو أقوى أنواعِ الضُّرِّ، لكنَّهُ نكَّرَ الضُّرَّ لشُمولِ أهونِ أنواعِ الضُّرِّ أوَّلًا، ولفائدة بيانِ علم اللّهِ بأدقِّ ما يصيب إنسانًا، أو أيَّ مخلوقٍ آخرَ.

وجهُ الطِّباقِ بين (الضُّرِّ) و(الخير):

كلُّ ما أصابَ الإنسانَ من خيرٍ أو شرٍّ، فهو من ربِّ البشر

و(الضُّرُّ) بفتحِ الضّادِ ضدُّ (النَّفع)، ونابَ (الضُّرُّ) في هذه الآيةِ منابَ (الشَّرِّ) وإن كان (الشَّرُّ) أعمَّ منه، فقابلَ (الخير)، وهذا في الفصاحةِ عدولٌ عن قانونِ التَّكلُّفِ والصَّنعة، فإنَّ بابَ التَّكلُّفِ وترصيعِ الكلامِ أن يكونَ الشَّيءُ مقترنًا بالَّذي يختصُّ به بنوعٍ من أنواعِ الاختصاصِ موافقةً أو مضادَّةً[3]. و(الضُّرُّ) الفقرُ، و(الخير) الغِنَى، والأحسنُ العمومُ في (الضُّرِّ) من المرضِ والفقرِ

(1) الكتاب، سيبويه: 2/304.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/101.
(3) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

وغير ذلك، وفي الخيرِ من الغِنَى والصِّحَّةِ وغير ذلك، وفائدتُه بيانُ أنَّ كلَّ ما أصابَك من خيرٍ أو شرٍّ مهما قلَّ أو كَثُرَ؛ فهوَ من عند اللّهِ، فلا كاشفَ للضُّرِّ إلّا اللّهُ، ولا مانعَ للخير إلّا هو سبحانه، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وفي حديثِ ابن عبّاسٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «واعلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجتَمَعوا على أَن يَنفَعوكَ، لَم يَنفَعوكَ إلّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، ولَوِ اجتَمَعوا على أَن يَضُرّوكَ، لَم يَضُرّوكَ إلا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيكَ؛ رُفِعَتِ الأَقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ»(1).

بلاغةُ تقديمِ (الضُّرِّ) على (الخير):

مناسبةُ تقديم (مسِّ الضُّرِّ) على (مَسِّ الخَيرِ) ظاهرةٌ؛ لاتِّصالِه بما قبلَه، وهو التَّرهيبُ الدّالُّ عليه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، فيكونُ بين الآيتينِ شبهُ اللَّفِّ والنَّشرِ، فالآيةُ السّابقةُ فيها اللَّفُّ، وعنصراهُ الأوَّلُ قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، والثّاني قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وهذه الآيةُ تضمَّنت نشرَه، فقالَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ثم قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾. وفائدتُه إلجاءُ العبادِ إليهِ - سبحانه - في طلبِ الخيرِ لَهُم، وصرفِ الضُّرِّ عنهم.

بيانُ تلهُّفِ الإنسانِ، إلى رفعِ الضَّراءِ حينَ وقوعِها

بلاغةُ الحصرِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾:

جاء جوابُ قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بالحصرِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ مبالغةً في الاستقلالِ بكشفِه، فحَصَرَ كشفَ الضُّرِّ على قُدرته - ﷻ - فلا يقدرُ أحدٌ على كشفِ الضُّرِّ إلّا اللّهُ، فبيَّنَ أنَّ إصابةَ الضُّرِّ بيده، ولا يكونُ كشفُه إلّا منه سبحانه. وفي قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ حذفٌ، تقديرُه: فلا كاشفَ له عنك إلّا هو(2).

المصيبُ بالضُّرِّ هو الكاشفُ له وحدَه، فلا لجوءَ لِسواه

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (2669)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (2516).
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/456 - 457.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ، في: ﴿قَدِيرٌ﴾:

الأقــدارُ كلُّها بيدِهِ سبحانَه، يُصرِّفُها كيف يشاءُ

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ بصيغةِ (فَعيل) هي صيغةُ مبالغةٍ لبيانِ عظيمِ قدرتِهِ سبحانه على كلِّ شيءٍ، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: ناسبَ أن يكونَ دليلًا على جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّه علَّةُ الجوابِ المحذوفِ، والجوابِ المذكورِ قبلَهُ؛ إذ التَّقديرُ: وإن يَمسَسكَ بخيرٍ؛ فلا مانعَ له؛ لأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٍ في الضُّرِّ والنَّفعِ، وقد جُعِلَ هذا العمومُ تمهيدًا لقولِهِ بعده: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، فلأنَّه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ يكون سبحانه ﴿ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الأقدارَ كُلَّها بيدِهِ سبحانه.

بلاغةُ التّذييل، بقولِهِ تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

القدرةُ الكاملةُ لله وحده؛ لأنّه المتصرّفُ في الأمرِ كلِّه

وبعد أن عُلِمَ أنَّ إصابةَ الشَّرِّ بيدِهِ - سبحانه - وإصابةَ الخيرِ بيدِه، ذيَّل بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، فكان قادرًا على إدامتِهِ أو إزالتِهِ[1]، وفائدةُ هذا التَّذييل جمعُ الأفعالِ والإراداتِ بيدِهِ - سبحانه - وأنَّهُ هو المُتحكِّم بالخيرِ والشَّرِّ، وأنَّ الإنابةَ إلى اللهِ لكشفِ الضُّرِّ ودوامِ الخيرِ، فهو المُرتجى، وهو الملجأُ. والشَّيءُ أعمُّ العامِّ لوقوعِهِ على كلِّ ما يصحُّ أن يُعلَمَ، ويُخبَرَ عنه[2].

بيانُ التَّشابهِ اللَّفْظِيِّ بين هذهِ الآية (17)، وآيةِ سورة يونس: (107):

في الآيَتَينِ بِشَارَةٌ لـلـمـخـاطَـبِ، بـإرادةِ الـخَـيرِ وَنَيلِهِ إيَّاهُ

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وفي يونس: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، قال هنا: ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾، وفي يونس: ﴿يُرِدۡكَ﴾ وقال هنا: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وفي يونس: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]. فآيةُ الأنعامِ وصفتْ حالةَ نيلِ الخيرِ، فعبَّر عنهُ بالمسِّ المُشعَرِ بوُجودِه، ثُمَّ قالَ: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، أي: على ذلك، وعلى خيراتٍ بَعدَهُ، وفيه بشارةٌ بِنَيلِ أمثالِهِ أيضًا، وآيةُ يونسَ: حالةُ إرادة الخَيرِ قبل نَيلِهِ، فقال:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

﴿يُرِدۡكَ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، أي: إذا أرادهُ قبل نيلِه، ولذلك قال: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، وفي الآيَتَينِ بِشارَةٌ له بإرادة الخَيرِ ونَيلِه إيّاهُ(1).

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يَمْسَسْك) و(يُصِبْكَ):

المسُّ يكونُ في القليلِ المحسوسِ، والإصابةُ تكونُ في كبائرِ الأمورِ

والمسُّ يقالُ في القليلِ مِنَ الأذى ممّا يصيبُ الإنسانَ، نحو قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، وقال: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]. والمَسُّ يُقال فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ(2)، فورودُها هنا لدلالةِ الإحساسِ بذلك الضُّرِّ أو بذلك الخيرِ مهما كان قليلًا، فلا يكونُ إلّا مِنَ اللّهِ وحده. أمّا الإصابَةُ؛ فتكون في الكبيرِ من أمورِ الخيرِ والشَّرِّ، ففي الشَّرِّ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30]، وفي الخيرِ قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التّوبة: 50]، ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: 73](3).

(الضُّرُّ) و(الشَّرّ):

الخيرُ عكسُ الشرِّ، وينوبُ عنه الضّرُّ الّذي هو أخصُّ في الدّلالةِ

والَّذي يقابلُ (الخير) هو (الشَّرُّ)، ونابَ عنه هنا (الضُّرُّ)، وعدلَ عن (الشَّرِّ)؛ لأنَّ (الشَّرَّ) أعمُّ من (الضُّرِّ)، فأتى بلفظِ (الضُّرِّ) الَّذي هو أخصُّ، وبلفظ (الخَير) الَّذي هو أعمُّ تغليبًا لجهةِ الرَّحمةِ(4). فتغليبُ الرَّحمة في القرآن الكريم منهجٌ سارٍ، ومثال ذلك أيضًا قولُه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 118 - 119]، فجاءَ بالجوعِ مع العُري، وبابُه أن يكونَ مع الظَّمَأ(5).

---

(1) ابن جماعة، كشف المعاني: 157 - 158.
(2) الراغب، المفردات، ص: 767.
(3) الراغب، المفردات: 321 - 322.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/455.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبطُ قُدرة الله على النّفعِ والضّرِّ، بقهْرِه فوقَ العبادِ، كما شاءَ وأرادَ

بعدَ أن أثبتَ في الآيةِ السّابقةِ لجلالِه سُبۡحانَهُ، كمالَ القدرةِ، تابعَ الكلامَ بما هو مُكمِّلٌ له ومؤيِّدٌ، فأثبتَ له في هذه الآيةِ كمالَ السُّلطان، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فيضعُ الأمورَ حسبَ الحكمةِ البالغةِ[1].

شَرۡحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَهَرَ) قهره، كمَنَعَهُ[2]، ويقالُ: قَهَرَهُ؛ إذا أخذَه قهرًا من غيرِ رضاه[3]، والقهرُ: الغلبةُ والأخذُ من فوقٍ على طريقِ التَّذليلِ، والقهّارُ: من صفاتِ اللّه تعالى[4]، واللّهُ القاهرُ القهّارُ[5]..

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

كمالُ سُلطانِ اللهِ وغلبتِهِ، وخُضوعُ الخلائقِ لهُ

اللّهُ تعالى هو الغالبُ على عبادِه المُذَلِّلُ لهم بقدرتِه، المُستعلي فوقَ عبادِه من كلِّ وجهٍ الَّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يغلبه أحدٌ، الجميعُ له خاضعون، يدبِّرُ أمرَهُم بما يُريد، فيقعُ في ذلك ما يَشُقُّ عليهم، ويثقلُ، ويغمُّ، ويحزنُ، فلا يستطيع أحدٌ منهم ردَّ تدبيرِه، والخروج من تحتِ قهرِه وتقديرِه، وهو الحكيمُ في خَلۡقِه وتدبيرِه وشَرۡعِه، الخبيرُ فلا يخفى عليه شيءٌ[6].

---

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/294.
(2) ابن سيده، المُحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (قهر).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (قهر).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (قهر).
(5) الخليل، العين: (قهر).
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 129.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ تذييلِ الآية ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ لما قبلَها:

بيانُ عظيمِ قُدرةِ اللهِ وقَيّوميَّتِهِ، علـى الأحـداثِ كلِّها

هذه الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، والمناسبةُ بينهما أنَّ مضمونَ كلتيهما يبطلُ استحقاقَ الأصنامِ العبادةَ، فالآيةُ الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكونَ للأصنامِ تصرُّفٌ في أحوالِ المخلوقات، وهذه الآيةُ أبطلت أن يكونَ غيرُ اللّهِ قاهرًا على أحدٍ، أو خبيرًا أو عالمًا بإعطاء كلِّ مخلوقٍ ما يُناسبه، ولا جرمَ أنَّ الإلهَ تَجِبُ له القدرةُ والعلمُ، وهما جماعُ صفاتِ الكمالِ، كما تجبُ له صفاتُ الأفعالِ من نفْعٍ وضرٍّ وإحياءٍ وإماتةٍ، وهي تعلُّقاتٌ للقدرةِ، والآيةُ بمجملها تذييلٌ لما سبقها من آياتٍ تدلُّ على عظيمِ قدرةِ اللّه، وقيّوميَّتِه، ومُلكِه، وسَعَةِ خَلقِه، وتدبيرِه.

وجهُ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ:

كُلُّ النّاسِ داخلٌ تحت قُـدرتِـهِ، وهـو الـغـالـبُ لكلِّ غالبٍ

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ إذ تُنَزَّلُ هذه الآيةُ من الَّتي قبلها منزلةَ التَّعميمِ بعد التَّخصيصِ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ لأنَّ التي قبلَها ذكرت كمالَ تصرُّفِهِ في المخلوقاتِ، وجاءت بهِ في قالبِ تثبيتِ الرَّسولِ ﷺ كما قدَّمنا، وهذه الآيةُ دلَّت على قدرتِهِ على كلِّ شيءٍ وعلمِهِ بكلِّ شيءٍ، وذلك أصلُ جميعِ الفعلِ والصَّنعِ.

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾:

تفرُّدُ اللهِ بالقهْرِ والغلبةِ وحدَهُ دون سِواهُ

والقاهرُ: الغالبُ المُكرِهُ الَّذي لا ينفلتُ من قُدرتِهِ من عدّي إليه فعلُ القهرِ، وقد أفادَ تعريفُ الجزأين القَصرَ، أي: لا قاهرَ إلّا هو؛ لأنَّ قهرَ اللّهِ - تعالى - هو القَهْرُ الحقيقيُّ الَّذي لا يجدُ المقهورُ منه ملاذًا؛ لأنَّهُ قَهَرَ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ خلقَ ما يُدافعها، وممّا يشاهدُ منها دومًا النَّومُ والموت، سبحان من قهرَ العبادَ بالموتِ[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/164.

والقَصرُ يفيد تمكنَّهُ من عبادِهِ على وجهِ الغلبةِ، وفيه إيجازٌ بنفي هذه الصِّفةِ عن سِواه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾:

الحقُّ ـ سبحانه ـ له عُلوُّ القَهْرِ والقَدْرِ، ليس كمثلِهِ شيءٌ

و﴿فَوْقَ﴾: ظرفٌ متعلِّقٌ لـ ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالةِ القاهرِ بأنَّهُ كالذي يأخذُ المغلوبَ من أعلاه، فلا يجدُ معالجةً ولا حَراكًا، وهو تمثيلٌ بديعٌ، ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]؛ فقد "تضمَّنتِ الجملةُ تصويرًا لقهرهِ وعلوِّهِ بالغلبةِ والقدرة"[1]. وذكر علماءُ التفسيرِ أنَّ الفوقيَّةَ هنا مجازٌ، فهو سبحانه فوقَهم بالإيجادِ والإعدام. على حذفِ مضافٍ معناه فوقَ قهرِ عبادهِ بوقوعِ مُرادِهِ دون مُرادِهم[2]، أو هي صفةُ الاستعلاءِ الَّذي للّه - تَعالَى - الَّذي يعرفهُ أهل السُّنَّةِ، والصَّوابُ أنَّ المرادَ المعنيان جميعًا: فوقيَّةُ المكانِ، وفوقيَّةُ المكانةِ، وعليه فيكونُ المعنى: وهو القاهرُ فوق عبادِهِ من حيثُ المعنى لا يمكنُ أن تغلبه قوَّةٌ، ومن حيثُ المكانُ فاللّهُ - ﷻ - فوقَ كلِّ شيءٍ[3]. و﴿فَوْقَ﴾: منصوبٌ على الظَّرفِ إمّا معمولًا للقاهرِ، أي: المُستعلي فوقَ عبادِهِ تصويرًا للقهرِ والعلوِّ بالغلبةِ والقدرة، كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127][4]. وإمّا أن تكون ﴿فَوْقَ﴾ في موضعِ رفعٍ على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ (هو)، أخبرَ عنه بشيئَين أحدهما: أنَّه القاهرُ، والعربُ تستعملُ (فَوقَ) إشارةً لعلوِّ المنزلة وشفوفِها على غيره من الرُّتَب، ومنه قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ [يوسف: 76]. الثّاني: أنَّه فوق عبادِه بالرُّتبةِ والمنزلة والشَّرف؛ إذ هو الموجد لهم وللجهةِ غير المفتقر لشيءٍ من مخلوقاتِهِ، فالفوقيَّةُ مستعارةٌ للمعنى

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 2/93، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة الأنعام): 83.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.

من فوقيَّةِ المكان، وحكى المهدويُّ أنَّهُ في موضعِ نصبٍ على الحال، كأنَّه قال: وهو القاهرُ غالبًا فوقَ عبادِه، وقاله أبو البقاءِ، وقدَّرَهُ مستعليًا أو غالبًا، وأجاز أن يكون فوقَ عبادِه في موضعِ رفعٍ بدلًا من القاهرِ[1].

علَّةُ ذِكْرِ الخاصِّ وإرادة العامِّ، في قوله تعالى: ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾:

العبادُ مملوكونَ للهِ، وتحت قَهرِهِ ومَشيئتِهِ

و(العبادُ): هُمُ المخلوقون من العقلاءِ، فلا يقالُ للدَّوابِّ عبادُ اللهِ، وهو في الأصل جمعُ (عبد)، لكنَّ الاستعمالَ خصَّهُ بالمخلوقات، وخصَّ العبيدَ بجمع (عبد) بمعنى المملوكِ. فذكَرَ العبادَ بمعنى: العُقلاءِ، وأراد العُقلاءَ وغيرهم، ومعنى القَهرِ فوق العباد: أنَّهُ خالقُ ما لا يدخلُ تحت قدرتِهم بحيثُ يوجد ما لا يريدون وجودَه كالموتِ، ويمنعُ ما يريدون تحصيلَه كالولدِ للعقيم، والجهل بكثيرٍ من الأشياءِ، بحيثُ إنَّ كلَّ أحدٍ يجدُ في نفسِه أمورًا يستطيعُ فعلَها وأمورًا لا يستطيعُ فعلَها، وأمورًا يفعلها تارةً، ولا يستطيعُ فعلها تارةً، فيعلم كلُّ أحدٍ أنَّ اللّه هو خالقُ القَدَرِ والاستطاعات[2].

بلاغةُ اقترانِ الاسمينِ الكريمينِ: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

مقامُ القَهرِ والغَلَبَةِ، يتناسبُ مع صِفتَي الحكيم الخبير

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ إشارةٌ إلى كمال القدرةِ، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى كمال العلم، أمّا كونُه قاهرًا؛ فلأنَّ ما عداه تعالى مخلوقٌ من مخلوقاتِه سبحانَه.

و ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بمعنى المُحكِم و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ دالٌّ على مبالغةِ العلم، وهما وصفانِ مناسبانِ لنمط الآية[3]. و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: المُحكِمُ المُتقنُ للمصنوعاتِ، فعيلٌ بمعنى مُفعِل. و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾: مبالغةٌ في اسم الفاعل من (خبر) المتعدي، بمعنى (عَلِمَ)، يقال: خبِرَ الأمرَ؛ إذا

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457 - 458.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/164.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.

عَلِمَه وجرَّبَهُ[1]. والحكمةُ تدلُّ على أنَّهُ عِلمٌ مُحكَمٌ، فقهرُ اللّٰهِ لعبادهِ بقدرتهِ وحكمتهِ، وهو خبيرٌ سبحانه بما يحتاجُ إليه هذا الخلقُ وما يناسِبُه؛ إذ خلقَ السّماواتِ والأرضَ على أدقِّ ما يمكنُ أن يتخيَّلَهُ العقلُ البشريُّ، ممّا يضمنُ استقرارَ هذا الكونِ وانسجامَهُ، وكلُّ ذلك يفوتُ لو قيل: الحَكيمُ العَليمُ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(عبادٌ) و(عبيدٌ):

(العبادُ) يَرِدُ في التَّفخيمِ والكرامةِ، و(العبيدُ) في الذَّمِّ والتَّحقيرِ

لفظُ (العباد) يردُ في التَّفخيمِ والكرامةِ، و(العبيد) في التَّحقيرِ والاستضعافِ والذَّمِّ، قال ابن عطيَّةَ: و(العبادُ) بمعنى (العَبيدِ)، وهما جمعان (للعبد)، لكنَّ الواقعَ أنَّ ورودَ لفظةِ العبادِ في القرآنِ وغيرهِ في مواضعِ تفخيمٍ أو ترفيعٍ أو كرامةٍ، ووُرودُ لفظةِ العبيدِ في تحقيرٍ أو استضعافٍ أو قصدِ ذمٍّ[2]، والصَّواب أنَّ العبدَ بمعنى الإنسان المخلوقِ المملوكِ للّٰه، ومثناها وجمعُها: (عباد) و(عبيد) ليس لأيٍّ منها تمييزٌ إلّا ما يقضي به السّياقُ من اختصاصٍ للتَّكريم في مثل قوله: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، و﴿نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]، و﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ﴾ [مريم: 2]. وفي بعضِ سياقاتِ الآياتِ ما يقضي بعمومِ اللَّفظِ، مثل قوله: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ [ق: 11]، و﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ [نوح: 27]، و﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر: 48][3]، وأمّا العبيدُ، فتطلقُ على من استعبدهُ البشرُ أو غيرهم، أو من جعلَ نفسَهُ عبدًا لغيرِ اللّٰهِ من البشرِ والحيواناتِ والأمواتِ والأصنامِ والشّياطينِ وغيرهِم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/165.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عبد).

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ كمالِ عظمةِ اللهِ، وكونهِ الشّاهدَ على صدقِ النُّبوّة وسموِّ القدرة

لمّا أثبتتِ الآياتُ السّابقةُ كمالَ القدرةِ للّهِ تعالى، وعَظيمَ تصرُّفهِ، وكمالَ سلطانه، وتمامَ قهرهِ لعباده، جاءت هذه الآيةُ لإثباتِ صدقِ رسالتهِ ﷺ، وشهادةِ اللّه على ذلك، ويضافُ إلى ذلك أنَّه لمّا أقام الأدلَّةَ على الوحدانيَّة والقدرة، ووصلَ إلى صفة القهر المؤذنِ بالانتقام، لم يبقَ إلّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يستحقّونه من سوءِ العذاب، وإنذارًا به؛ لئلّا يقولوا؛ إذا حلَّ بهم: إنَّه لم يأتِنا نذيرٌ، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيْءٍ﴾: أصلهُ: مصدرُ شاءَ، وهو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَرَ عنه، وعند كثيرٍ منَ المتكلِّمينَ هو اسمٌ مُشْتَرَكُ المعنى؛ إذا استُعملَ في اللّه وفي غيره، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم، وإذا وُصِفَ بِهِ اللّهُ تعالى فمعناهُ: شاءٍ(2)، وإذا وصِفَ به غيرُهُ فمعناهُ: المَشيءُ(3)، وعند بعضهم الشَّيءُ: عبارةٌ عن الموجود، وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/40، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) ضُبطت في المطبوع، مكتبة نزار الباز: ص: 357، بفتح الهمزة من (شاء) والصحيح ما أثبتناه من طبعة د. صفوان داوودي، ص: 471.
(3) الرّاغب، المفردات: (شيء).

[المؤمنون: 14]، وعند بعضهم: المشيئةُ في الأصل: إيجادُ الشَّيء وإصابتُه، فالمشيئةُ من اللّه هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابةُ"(1).

2) ﴿شَهَدَةً﴾: الشَّهادةُ: الحضور والمعاينة، يُقالُ: شهدَ الشَّيءَ؛ إذا حضره وعايَنَه، وتُطلَق بمعنى: الإخبار والإعلام، يُقالُ: شَهِد بالأمر: إذا أَخبرَ به، وأعلمَ غيرَه به، فالشَّهادة: إخبارٌ عن علم يحصل عن طريق الحضورِ أو الرُّؤية ونحوِ ذلك. ومن معانيها: العلمُ والرُّؤية والإدراك(2). وشهادةُ اللّه: إقامةُ البراهين المثلِجة للصُّدور، موقعةً للعلم، مزيلةً للشَّكِّ، فمن أعظم شهادته إتيانهُ لمعجزاته كالقرآن.. ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18](3).

3) ﴿وَأُوحِىَ﴾: الوحيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّنه السُّرعةَ، قيل: أَمْرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على سبيلِ الرَّمز والتَّعريضِ، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابةِ. ويقالُ للكلمة الإلهيَّة الَّتي تُلقى إلى أنبيائهِ وأوليائه: وحيٌ(4). والوحي: الكتابُ والرِّسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَه، فهو وحيٌ كيف كان، وأوحى اللّه تعالى، ووحى، قال: ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزّلزلة: 5]، وكلُّ ما في باب الوحي، فراجعٌ إلى هذا الأصل، والوحيُ: السَّريعُ، والوحي: الصَّوت(5).

4) ﴿لِأُنذِرَكُم﴾: الإنذارُ: وأصله: الإعلام والإبلاغُ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويفِ، يُقالُ: أنذرتُه أنذره إنذارًا، إذا أعلمتُهُ، فأنا منذرٌ ونذيرٌ: أي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر(6)، والمُنذِر: المُعْلِمُ الَّذي يُعرِّف القومَ بما يكونُ قد دهمهم، من عدوٍّ أو غيره، وهو المخوِّف أيضًا، "والإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّةٍ تتَّسع التَّحفُّظَ من المخوف منه، فإنْ لم تتَّسع له، فهو إعلامٌ وإشعارٌ لا إنذار، وأكثر ما يستعملُ في القرآن في التَّخويفِ من عذاب اللّه(7)، ومنه قد أعذرَ من أنذرَ، أي: قد بالَغ في العذرِ مَن تقدَّم إليك فأنذرك(8).

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء)، وسميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والمطرّزيّ، المغرب: (شهد).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/233.
(4) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحي)، والمُطرّزيّ، المغرب: (وحى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (نذر).
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.

5) ﴿بَلَغَۚ﴾: الإبلاغُ: الإيصال، يُقال: بَلَّغَه، وأبلغَه السَّلامَ يُبَلِّغُه بلاغًا وتبليغًا وإبلاغًا؛ إذا أوصله، وأصله مِنَ البلوغِ، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا مِنَ الأمور المقدَّرة، وربَّما يعبَّر بِهِ عنِ المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه[1]، ويأتي الإبلاغُ بمعنى الإخبارِ والإنباءِ، تقول: بلَّغتُ الشَّيء، أي: أخبَرتُ به، ونشَرتُه بين النَّاس، ومن معانيه أيضًا: الإعلامُ والنَّقل[2].

6) ﴿ءَالِهَةً﴾: من أَلِهَ يأْلَهُ؛ إذا تحيَّر؛ إذِ العقول تتحَيَّر في معرفته، وقيل: مِن أله الفصيل إذا أولِعَ بأمِّه؛ إذِ العبادُ مولعون بالتَّضرُّع إلى اللّهِ، وأصلهُ: ولِهَ يولَهُ إلاهةً وأُلوهة وأُلوهيَّة، بضمِّهما، بمعنى: عبد عبادةً، وتألَّه تعبَّد، والإله المعبود، وهو اللّه (ﷻ)، ثمَّ استعارهُ المشركون لما عبدوه من دونِ اللّه تعالى مِنَ الأصنام وغيرهم؛ لاعتقادهم أنَّ العبادة تحقُّ لها، قال سيبويه: الإلهُ أصلُ اسم اللّهِ تعالى، فحُذفت الهمزة، وجُعلت الألف واللّام عوضًا لازمًا، فصار بذلك كالاسمِ العلَم، والجمعُ: آلهة. وأَلَه الإلاهةً بالكسر، ومنه قولنا: (اللّه)، وأصلهُ: إلاهٌ على فِعال، بمعنى: مَفعول؛ لأنَّه مألوهٌ، أي: معبود[3].

7) ﴿بَرِيٓءٌ﴾: البراءة: التَّخلُّص مِنَ الشَّيء، والخروج منه، والمفارقةُ له، يُقال: بَرِئَ مِنَ الدَّين، يبرأُ براءةً؛ إذا تخلَّص منه، وأصلها: التَّباعد مِنَ المكروه، وقيل: القَطعُ، والبراءةُ أيضًا: التَّقصّي ممّا يكره مجاورته، ولذلك قيل: بَرِئْتُ مِنَ المرض، وبرأتُ من فلانٍ، وتبرَّأْتُ، قال ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التّوبة: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: 4]. ويُطلق على التَّخَلّي والتَّرك، كقولك: برأْتُ مِنَ الشَّيء، أي: تخلَّيتُ عنه، وتركتُه[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمر اللّه نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيء أعظمُ شهادةً على صدق ما جاءَ به؟ ثمَّ يأمره تعالى أن يجيبَهم: إنَّ أكبر الأشياء شهادةً هو اللّهُ تعالى، هو الَّذي لا يجوز

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(3) سيبويه، الكتاب: 2/196، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (أله).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (برأ).

أن يقعَ في شهادته السَّهو والخطأ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ ﷻ بينه وبينهم، وهو سبحانه قد أوحى إليه هذا القرآنَ؛ لينذرَهم به منَ العذابِ، وينذرَ كلَّ مَن بلغه القرآنُ، ثمَّ أمره أن يسأل هؤلاءِ المكذِّبين: هل هم يشهدون أنَّ مع الله تعالى آلهةً غيرهُ تستحقُّ أن تُعبَدَ؟ فإن شهدوا بذلك، فليقل لهم: إنَّه لا يشهد معهم، إنَّما هو معبودٌ واحد، هو الَّذي يستحقُّ العبادة ﷻ، وأنَّه ﷺ بريءٌ ممّا يشركون(1).

شهادةُ الله، هي أكبرُ شهادةٍ؛ لأنَّه لا كذبَ فيها ولا خطأَ ولا زورَ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ قطعِ قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ عن الجملةِ قبلها:

لم تعطف؛ لأنَّها استئنافيَّة ابتدائيَّة، متَّصلة بما قبلَها من جهة المعنى؛ فالآيةُ السّابقة فيها استدلال على كمال ألوهيَّته وسلطانه سبحانه؛ فهو القاهرُ فوق عبادِه، وهذه الآيةُ إثباتُ صدقِ رسالةِ سيِّدنا محمَّد ﷺ(2).

تثبيتُ الله لنبيِّه ﷺ، بشهادتهِ على صدقهِ

سرُّ البدءِ بقوله: ﴿قُلۡ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

بدأتِ الآيةُ بالفعل ﴿قُلۡ﴾، وتكرَّر ذلكَ في الآيةِ أربعَ مرّاتٍ، والغرضُ منه تلقينُ النَّبيِّ ﷺ الحجَّةَ؛ ليضربَ بها وجهَ خصومه، بحيث تأخذُ أسماعَهم وقلوبهم؛ فلا يستطيعون التَّنكُّر لها أو التَّفلُّت منها، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمام بما بعد القولِ، إذ الغايةُ من إيرادِ القول، ليستِ الأمرَ بالقول في حدِّ ذاته، بل ما يتضمَّنه القولُ المراد تبليغهُ من أحكام وحِكَم، سوف تنفع المبَلَّغينَ، وتصحِّح عقائدَهم، وفهمَهم للحقائقِ.

أسلوبُ التَّلقين بلفظ (قل) منَ الأساليبِ البلاغيَّةِ في القرآن الكريم

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿قُلۡ﴾ أمر منَ الله تعالى لنبيِّه ﷺ بسؤال قومه، وذلك

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 130، والقسم العلمي، بمؤسسة الدّرر السّنيّة، التّفسير المحرّر للقرآن الكريم: 5/3232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.

الكلمةُ المأمورُ بها، طمأنينةٌ في القلب، ولطفٌ من الرَّبِّ

أنَّ السُّؤال يبعث النَّفس على طلب الجواب، وتَبيُّن ما سُئل عنه، وقد أفادَ الفعل ﴿قُلۡ﴾ التَّنبيهَ بأنَّ القول المحكيَّ به ذو أهمّيَّة بالغةٍ، أو هو رسالةٌ خاصَّة يجب تبليغُها فور تلقّيها، ومواجهةُ المقول له بها. وفيها تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ من ربِّه، ووضع للكلمة الَّتي ينبغي أن يقولها على لسانِه، وفي قلبه، يتلقّاها منَ اللّه، فتلتقي مع الكلمة الَّتي يريد أن يقولها، فإذا هي نورٌ في قلبه، وقوَّةٌ في عزمه، وطمأنينة في صدره، ولطفٌ عظيم من ألطاف ربِّه. ومن جهةٍ أخرى، فقد دلَّ تكرار ﴿قُلۡ﴾ في الآية مع كلِّ قولٍ منَ اللّه تعالى لهم، على كمال عنايتِه، وتمام رعايتِه للنَّبيِّ ﷺ، حيث يجد مع كلِّ نَفَس يتنفَّسه وحْيَ السَّماءِ، يقول له: ﴿قُلۡ﴾.. ﴿قُلۡ﴾.. ﴿قُلۡ﴾.. وبهذا يشتدُّ عزمه، وتثبت في لقاء الكافرين قَدَمُه[1].

الغرضُ من استعمالِ الاستفهامِ ﴿أَيُّ﴾:

مِــن مـقـاصـدِ الاسـتـفـهـامِ إعدادُ السَّامعين لتلقِّي ما يَـرِدُ بعدهُ

في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام، يُطلَب به بيانُ أحد المشتركاتِ فيما أُضيفَ إليه هذا الاستفهامُ، والمضاف إليه هنا، هو ﴿شَيۡءٍ﴾ المفسَّر بأنَّه من نوع الشَّهادةِ، وقد حمَل هذا الاستفهام تقريعًا شديدًا، ليتنبَّه الغافل، ويلتفتَ المُعرض، ويخلو المشغولُ، فهو يأتي لإعداد السّامعين، لتلقّي ما يَرِدُ بعده. والاستفهام هنا مجازيٌّ، والأصل فيه أنَّه لا يُذكر له جوابٌ، وإنَّما يوكَل الجوابُ فيه إلى نفوس المُخاطَبين، لتذهبَ في تصوُّره كلَّ مَذهَبٍ، ولكن في النَّظم القرآنيِّ، نجد إجاباتٍ مذكورةً لاستفهامات مجازيَّة على خلاف الأصل الَّذي أشرنا إليه، ولهذا الذِّكر مقتضًى بلاغيٌّ، رُبَّما كان مُطَّرِدًا في كلِّ استفهامٍ مجازيٍّ ذُكرت إجابته[2].

(1) الواحديّ، الوسيط: 8/33، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/146، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/166، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

دلالةُ الاستفهام في الرَّدِّ على شُبهِ المشركين:

السُّؤالُ تبكيتٌ لمن كفرَ، وتأديبٌ لمن فجرَ

في قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: استعمل القرآنُ الكريم أسلوبَ الاستفهام في تقريرِ ما يريده من إبطالِ شُبَه المشركين، على نبوَّته ﷺ، والغرضُ تبكيتُ المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بنبوَّته ﷺ، والمعنى: (ما أعظمُ شاهد يمكنُكم إحضارُه ليشهد بصدق دعوى النُّبوَّة؟).

ولعلّ هذا السؤال هو مفتاح الحوار بين النبي ﷺ وبين المشركين لإقامة الحُجَّة الواضحة؛ أي: (قل لهم يامحمد) في حوار عقليٍّ هادئٍ: (أيُّ شيءٍ شهادتُه في نفوسكم هي أكبرُ شهادةٍ في الوجود كلِّهِ، تريدون أن يشهدَ لي بأنّي صادقٌ فيما أُبلِّغ عنه؟).

بلاغةُ القرآنِ في إثبات نبوَّته ﷺ:

أسبابُ نزول الآيةِ، مبيِّنةٌ حجمَ التَّحدِّي بينهُ وبينَ الكفَّارِ

أجابَ القرآنُ الكريم على ما قالهُ رؤساءُ الشِّرك، في مكَّةَ للنَّبيِّ ﷺ، لمّا قالوا له: يا محمَّد، ما نرى أحدًا مصدِّقك بما تقول، فأَرِنا مَن يشهد أنَّك رسولُ اللّه؛ فكان هذا الجواب القاطع بشهادةِ اللّه لنبيِّه بنبوَّته ﷺ، وكفى بها شهادةً؛ فبدأ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾؛ ليعلنَ بصوت عالٍ أنَّه رسول اللّه، والكونُ كلُّه يشهد بذلك(1).

دلالةُ أمرِ الله لنبيِّه بمباشرة البلاغِ بالقول:

شهادةُ اللهِ يقينٌ بصدق محمَّدٍ ﷺ الأكرمِ، وبيقين معجزتِه القاهرة

في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: آثرَ القرآنُ الكريمُ أن يكونَ صدورُ الإعلان مباشرةً بنبوَّته عن طريق الرَّسولِ الأكرم ﷺ نفسه، وفي ذلك تثبيتٌ واعترافٌ بنبوَّته ﷺ، قال ابن عبّاسٍ: قال

(1) أخرج ابن إسحاق وابن جرير، عن ابن عبّاس، قال: جاء النّحام بن زيد، وقروم بن كعب، وبحريّ بن عمر، فقالواْ: يا محمَّد، ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله في قولهم: قُلْ: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، وقال الكلبيّ: إن رؤساء مكّة قالواْ: يا محمّد، ما نرى أحدًا يصدّقك بما تقول من أمر الرّسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنّصارى، فزعمواْ أن ليس لك عندهم ذِكر ولا صفة، فأرِنا من يشهد لك أنَّك رسول، كما تزعم! فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الحسن البصريّ وغيره: إنَّ المشركين قالواْ للنّبيّ ﷺ: من يشهد لك بأنّك رسول الله؟ فنزلت الآية. ينظر: الزّحيليّ، التّفسير المنير: 7/156.

اللّه لنبيِّه محمَّد ﷺ، قل لهم: أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً؟ فإن أجابوك، وإلّا فقل لهم: اللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم، قال ابنُ جُزيٍّ: "والمقصودُ بالآيةِ الاستشهادُ باللّه - الَّذي هو أكبر شهادة - على صدقِ رسول اللّه ﷺ، وشهادةُ اللّه بهذا، هي علمُه بصحَّة نبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ، وإظهار معجزتهِ الدّالَّة على صدقهِ"(1).

استعمالُ لفظةِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

دلالتها على الشُّمول والإحاطة

أوثر لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ في الآية؛ لأنَّه يفيد الشُّمولَ والإحاطة والاستقصاء، فهو اسمٌ عامٌّ منَ الأجناس العالية، ذاتِ العموم الكثيرِ، قيل: هو الموجودُ، وقيل: هو ما يُعلم ويصحُّ وجوده، والأظهرُ في تعريفه أنَّه الأمر الَّذي يُعلم، ويجري عليه الإخبارُ، سواءٌ كان موجودًا أو صفة موجود، أو معنى يُتعقَّلُ ويُتحاوَر فيه(2).

دلالةُ إيثارِ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ دون لفظِ (شهيد) في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ﴾:

لفظ (شيء) عامٌّ، يصدقُ فيه كونه حقيقةً متى صدقَ عليه كونُه شيئًا

آثر القرآنُ استعمالَ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ﴾ وأراد: أيَّ شهيدٍ، فوضع "شيئًا" مقام "شهيد"؛ ليبالغَ في التَّعميم، وذلك أنَّه لو قيل: أيُّ شهيدٍ أكبر شهادة؟ خصَّ بالشّاهد المتعارف، ومن يُقال له: (شهيدٌ) فيعمُّ؛ ليعرض ما يصلحُ للشَّهادة من أيِّ جنس كان، مُتعارفًا وغيرَ متعارفٍ، فيكون أدخلَ في المبالغة(3)، ويرى الرّازيُّ أنَّ "لفظ الشَّيء أعمُّ الألفاظ، ومتى صدق الخاصُّ؛ صدق العامُّ، فمتى صدق فيه كونهُ ذاتًا وحقيقةً؛ وجب أن يصدقَ عليه كونهُ شيئًا"(4).

---

(1) ابن جُزيّ، التسهيل: 2/5.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/52.

(3) الواحديّ، البسيط: 8/47، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/43.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿أَكۡبَرُ﴾ دون أعظمَ:

شهادةُ اللهِ أكبرُ شهادةً؛ لأنَّها صادرةٌ عن ذاتٍ هي الكمالُ المطلَق

في قوله: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾: آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَكۡبَرُ﴾ دون (أعظم)؛ لأنَّه اعتبرَ فيه المنزلة والرِّفعةَ كما في هذه الآية؛ ولأنَّه أقوى وأعدلُ في جنس الشَّهادات؛ لأنَّ كمالَ الشَّهادة يتأتَّى من رفعة صاحب الشَّهادة ومنزلته، ولأنَّه لا يجري فيها الخطأُ ولا السَّهو ولا الكذب، وهو من إطلاقِ ما مدلولهُ عِظمُ الذّات على عِظم المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التّوبة: 72]، وقوَّة الشَّهادة بقوَّة اطمئنان النَّفسِ إليها، وتصديق مضمونها، وقيل: معناها أفضلُ؛ لأنَّ مراتبَ الشَّهادات في التَّفضيل تتفاوت بمراتبِ الشّاهدين[1].

دلالةُ الشَّهادةِ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

الشَّهادةُ بابٌ من أبواب حَلِّ الخلافِ في كلِّ أمرٍ عظيم

علَّم اللّه ﷻ رسولَه ﷺ، عندما اختلف معه قومه أن يلجأَ إلى إقامة الدَّليل، والشَّهادة من أقوى الأدلَّة؛ لأنَّ الشّاهدَ هو الَّذي يبيِّن دعوى المدَّعي في المنازعات والخصومات، وهنا أمر اللّه نبيَّه ﷺ، بأن يحتجَّ عليهم بشهادة اللّهِ الواحد القهّارِ، مؤكِّدًا " بأنَّ أكبرَ الأشياء شهادةً، هو من لا يجوز أن يقعَ في شهادته كذبٌ، ولا خطأٌ، ولا زور، وهو اللّه تعالى، الشُّهيدُ بيني وبينكم"[2]، وشهادتهُ تعالى هي شهادةُ آياتهِ في القرآن، وآياتهِ في الأنفسِ والأكوان، وآياته في العقلِ والوجدان[3].

دلالةُ إيثارِ لفظ (الشَّهادة) دون غيرِه من الألفاظ:

شهادةُ اللهِ لرسوله بصدقِ رسالتهِ، دامغٌ لكلِّ افتراءٍ أثيمٍ

آثرَ القرآنُ الكريم لفظَ الشَّهادة؛ لأنَّها لفظ عامٌّ يشمل الشَّهادةَ بالآيات والمعجزات، ومن ذلك ما أيَّد اللّهُ به رسوله منَ المعجزات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/596.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 809.

الحسّيَّة، ومنَ الآياتِ العقليَّة، وعلى رأسِها القرآن الكريم، ومنها شهادةُ كُتب اللّه السّابقةِ، وبشارة الرُّسلِ به، ومنها ما كان بشهادةِ ربِّنا لرسوله في القرآن الكريم برسالتهِ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 252]، إلى غيرِ ذلك منَ الآياتِ الَّتي تثبت شهادةَ اللّه لنبيِّه؛ لذلك كان لفظُ الشَّهادة هو الأَولَى في السّياقِ.

لفظُ الشَّهادةِ يحملُ معنى القسمِ في الآية الكريمةِ:

دلالــةُ الكناية عنِ القسم، في (أُشـهـد اللـه)، مقرونًا بمعنى الإشهادِ

منَ الإشارات: أنَّ لفظ الشَّهادةِ يحمل معنى القسم؛ لأنَّه لمّا كانت شهادةُ اللّه على صدق الرَّسول ﷺ، غيرَ معلومةٍ للمُخاطَبين المكذِّبين بأنَّه رسول اللّه، صارت شهادةُ اللّه عليهم في معنى القسم، على نحو قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨﴾ [النّور: 8]، أي: أن تُشهِدَ اللّه على كذبِ الزَّوج، أي: أن تَحْلِفَ على ذلك باسم اللّه، فإنَّ لفظ (أُشهِد اللّه)، مِن صيغ القسَم إلّا أنَّه إن لم يكن معه معنى الإشهادِ، يكون مجازًا مُرسلًا، وإن كان معه معنى الإشهادِ - كما هنا - فهو كنايةٌ عنِ القسم، مراد منه معنى إشهاد اللّه عليهم، وبذلك يظهرُ موقع قوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، أي: أُشهِدُه عليكم[1].

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ على ما قبلها:

الـلــهُ تـعـالى مـوجـودٌ، وهـو بـين الـنَّـبـيِّ وخصومهِ شهيدٌ

لم تعطف هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها جوابٌ، أُمر به المأمور بالسُّؤال على معنى أن يسأل، ثمَّ يبادرُ هو بالجواب، ويكون المرادُ بالسُّؤال التَّقرير، "وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ جوابٌ، أي: (اللّهُ أكبرُ شَهادَةً)، فاللّهُ مبتدأٌ والخبر محذوف، فيكون دليلًا على أنَّه يجوز إطلاق اسم الشَّيء على اللّه تعالى، وهذا لأنَّ الشَّيءَ اسمٌ للموجود، ولا يُطلقُ على المعدوم، واللّه تعالى موجود، فيكون شيئًا، ولذا تقول:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166 - 167.

(اللّه تعالى شيء لا كالأشياء)، ثمَّ ابتدأ ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي: هو شهيدٌ بيني وبينكم"[1].

دلالةُ الجوابِ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾:

حَذْفُ المُرَتَّبِ عليه، لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا في الآيةِ الكريمة

هذه الجملةُ جوابٌ للسُّؤال في قولهِ تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾؛ ولذلك فُصِلَت جملته المصدَّرة بـ ﴿قُلۡ﴾، وكذلك هي أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأن يتولَّى الجواب بنفسه؛ إمّا للإيذانِ بتعيُّنه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيرهِ؛ وإمّا لأنَّهم ربَّما يتلعثمون فيه لا لتردُّدهم في أنَّه أكبرُ من كلِّ شيءٍ، بل في كونه شهيدًا في هذا الشَّأن، ووقع قوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جوابًا على لسانهم؛ لأنَّه مُرتَّب على السُّؤال، وهو المقصودُ منه، فالتَّقدير: قل شهادةُ اللّه أكبرُ شهادةً، فاللّه شهيدٌ بيني وبينكم، فَحَذَفَ المُرَتَّبَ عليه لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا، كما هو مُقتضى جزالةِ أسلوب الإلجاءِ والجَدَلِ[2].

دلالةُ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤال في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

القرآنُ يعلِّم الدَّاعيةَ حُسنَ التَّخلُّصِ في منازعةِ الخصوم

لمّا كان المرادُ بالسُّؤال الإلجاءَ إلى الإقرار؛ كان الجواب منه ﷺ، إذ لا سبيل إلى الجحدِ فيه، أو المغالطة؛ لذلك لم ينتظرْ ﷺ جوابَهم، بل بادرهم بالجواب تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ مساقَ إبلاغ الحجَّة، وهذا أسلوب مُتَّبع في القرآن الكريم؛ فتارةً لا ينتظر جوابًا منهم - كما هنا - وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكر ما سيجيبونَ به كما في سورة (المؤمنون) في قولهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: 84 - 85]، وما بعدها من آيات[3].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/495.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَهِيدُۢ﴾ دون شاهدٍ:

العدولُ من صيغةٍ إلى أخرى له دلالةٌ مؤثِّرة في المعنى

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿شَهِيدُۢ﴾ دون (شاهد)؛ لأنَّه على وزن فاعلٍ، وليس فيه معنى المبالغة؛ لذلك عُدل عنه إلى وزن فعيلٍ ﴿شَهِيدُۢ﴾، لما فيه من معنى التَّكثيرِ فى إثبات الشَّهادةِ، وكأنَّ المعنى: أن قُلۡ مَنۡ أَنۡزَلَ الكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ موسَى، فكلَّما عانَدَ الكفّارُ رسولَ اللّه، واعترضوا على نبوَّته؛ شهد اللّه له بها لفظًا ومعنًى، وقوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ﴾، "أَي: اللّهُ الَّذي اعترفتم بأنَّه خالق السّماوات والأرض، والظُّلمات والنّور، يشهد لي بالنُّبوَّة بإقامة البراهين، وإنزال القرآن عليَّ"(1).

دلالةُ تكرار (بين) في قولِهِ تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ بدلًا من قوله: (بَيْنَنَا):

دلالـةٌ على الاحتكامِ إلى الله

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عن أن يقول: (قُلِ اللّهُ شَهيدٌ بَيْنَنا)، إلى تكريرِ كلمة (بين)؛ لأنَّه لمّا أضيفت إلى ياء المتكلِّم، لم يكن بُدٌّ من إعادة (بين)(2)، وكرِّرت أيضًا؛ لتحقيق المقابلة، وللتَّأكيدِ، ومعنى السّياق في ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، "أَي: يشْهد لي بالحَقِّ، وعَلَيكُم بالباطِلِ"(3).

دلالةُ تقديم ﴿بَيۡنِي﴾ في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾:

من فنونِ القولِ في العربيَّة إضافةُ ما يزيل الإلباسَ في اللَّفظ

وجه تقديم ﴿بَيۡنِي﴾ في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾: أنَّ اللّه شهيدٌ له، كما هو مقتضى السّياق، فمعنى البَين: أنَّ اللّه شهيدٌ للرَّسول ﷺ بالصِّدق؛ لردِّ إنكارهم رسالتَه، كما هو شأن الشّاهد في الخصومات(4)، وقوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾، وكان الأصلُ: (قُلِ اللّهُ شهيدٌ بَيْنَنا)، فكُرِّرَتْ (بَيْنَ) توكيدًا، وهو نظير قوله:

(1) الواحديّ، الوجيز: 1/347.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/91.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

فلئِنْ لَقيتُكَ خاليَيْنِ لَتَعْلَمَنْ ***أيّي وأيُّك فارِسُ الأَحْزابِ[1]

والجامع بينها: أنَّه لّمّا أضافَ إلى الياء وحدَها، احتاجَ إلى تكريرِ ذلك المضاف[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

بعثتُهُ ﷺ بمعجزة القرآن، دليلٌ على صدق دعوتِهِ

دلَّ هذا التَّعبيرُ على صدقِ نبوَّته ﷺ في خطابهِ لأهل مكَّة بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، والوحيُ لا يكون إلّا للنَّبيِّ والرَّسول بمعناه الشَّرعيِّ، ولمّا كان الوحيُ معناه إعلامٌ في خفاء؛ ذكر القرآن وهو أثرُ الوحي الظّاهرِ، وفي ذلك تأكيدٌ على نبوَّته ﷺ وتبكيتٌ لمشركي مكَّة؛ لعدم إيمانهِم بالقرآن؛ لعلمهم بدقَّة ألفاظهِ، وجمالِ معانيه.

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿وَأُوحِىَ﴾ دون غيره:

وحيُ الله بلاغَ الرُّسل عن الحقِّ، مرادهُ من الخلقِ

اختارَ القرآنُ الكريم فعلَ ﴿وَأُوحِىَ﴾ الَّذي يدلُّ على صدقِ رسالته ﷺ؛ لأنَّ الوحيَ من خصائصِ النُّبوَّة، والمقصودُ هنا الوحي الشَّرعيُّ؛ لإخراج إسناد الوحي إلى بعضِ الأجناسِ الأخرى، مثل: الأرض، والنَّحل، وإلى أمِّ موسى؛ فهو بمعنى الإلهام، وليس وحيًا شرعيًّا، وأيضاً؛ لأنَّ الوحيَ الشَّرعيَّ يلزم فيه التَّبليغ بخلاف الإلهام.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىَّ﴾ في قوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

كلُّ ادِّعاءٍ للوحي من غير تكليفٍ، هو محضُ ضلالٍ وتزييفٍ

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أوحي: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، تعلَّق به الجارُّ والمجرور، واسمُ الإشارة المبنيُّ على

(1) البيت غير منسوب إلى قائل، واستشهد به بعض المفسّرين، مثل: أبي حيان، البحر المحيط: 3/141، والسمين، الدّرّ المصون: 3/167، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/211، والمراغي، تفسير المراغيّ: 27/91.

ونسبه أبو سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه: 3/168، وأبو إسحاق الشاطبي في شرح الألفية: 4/109، إلى عنترة، وهو غير موجود في ديوانه.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

السُّكون: نائبُ فاعله، القرآنُ: بدلٌ، والجملة معطوفة[1]، وقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ لإفادة الاختصاص، وكمالِ العناية الإلهيَّة، وفيه إشارةٌ إلى تكذيب كلِّ مَن يدَّعي النُّبوَّة منَ البشريَّة إلى يوم القيامة، والسّياق يؤكِّد أنَّ نزولَ الوحي عليه، لكونه القدوةَ في البلاغ، "فحَقٌّ على من اتَّبع رسول اللّه ﷺ، أن يَدْعوَ كالَّذي دعا رسول اللّه ﷺ، وأن يُنْذِرَ كالَّذي أَنذر، فلم يكن رسول اللّه ﷺ يقاتل أحدًا من النّاس حتَّى يَدْعوَهُ إلى الإسلام، فإذا أبوا ذلك؛ نَبذ إليهم على سواء"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

الإشــارةُ إلى القـرآنِ لتأكيد مـبـاشـرتـهِ بالـوحي، وأنَّـه واقعٌ مَعيشٌ

عبَّر باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، إشارةً إلى ما هو في ذهنِ المتكلِّم والسّامع، ويؤكِّد ذلك أنَّ لفظَ القرآنِ يُعرَب عطفَ بيان، بعد اسم الإشارةِ، ليبَيِّن المقصود بالإشارة[3]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، وهو شهادة أخرى قاطعةٌ ناصعة؛ فأيُّ شهادةٍ أكبر من هذا تطالبونني بها، وتُلزمونني بإبدائِها؟[4].

دلالةُ اختيارِ لفظِ القرآن دون الكتابِ:

الـقـرآنُ معلنٌ لـمن سـمـعَ بـه، ولا عـذرَ لمن لم يؤمن بهِ

جاءَ هذا الاختيار للفظ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ دون الكتابِ؛ للإعلام باختصاصهِ ﷺ بالقرآن، بخلاف لفظ الكتابِ، فهو وإن كان يُطلق على القرآن، إلّا أنَّ هذا الاسمَ يُطلق على غيره منَ الكتب السَّماويَّة؛ مثل: التَّوراة والإنجيل، وعند ذلك يظنُّ أعداءُ الإسلام أنَّه أوحي إليه منَ التَّوراةِ والإنجيل، وليس له كتابٌ مستقلٌّ؛ لذلك كان اختيارُ لفظ القرآن بمنزلَةِ الرَّدِّ على كلِّ من يدَّعي في القديم والحديث أنَّه أخذ منَ التَّوراة أو الإنجيل. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه مقروء ومسموع؛ فلا

(1) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/81، أحمد الدّعاس - وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/294.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1272. والكلام المُقتَبس للرَّبيع بن أنس.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.
(4) محمّد الخطيب، أوضح التّفاسير: 1/152.

عذرَ للمشركين في عدمِ الإيمان به؛ لأنَّه تحَدّاهم أن يأتوا بعشر سوَرٍ أو بسورة من مثله؛ فعجزوا، فضلًا عنِ الإتيانِ بمثله.

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

بُني الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعول؛ للعلم بالفاعلِ الَّذي أوحاه إليه، وهو اللّٰه تعالى، "هذا النَّصُّ فيه المعجزةُ الَّتي تدلُّ على صدق الرَّسول ﷺ، وهو يشتملُ على شهادة اللّٰه القوليَّة بأنَّه واحدٌ أحد، ليس بوالدٍ ولا ولد، وأنَّه القادر على كلِّ شيءٍ، وأنَّه القاهر فوق عباده، وهو أمرٌ حسّيٌّ يتلى عليهم ليلًا نهارًا، ويقرأ عليهم جهارًا"(1).

وحيُ الله تذكيرٌ للنَّاس وتنويرٌ

دلالةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

في الآية إيجازٌ بالحذفِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، فحذف ضميرَ النَّصب الرّابط للصِّلة؛ لأنَّ حذفَهُ كثيرٌ حسنٌ، وعمومُ ﴿وَمَنۢ﴾ وصِلَتِها يشمل كلَّ مَن يَبلُغُه القرآنُ في جميع العصورِ، والتَّقدير: ومَن بلَغَه هذا القرآن(2)، "والنِّذارة إنَّما تكونُ بذِكْرِ ما ينذرُهم به من التَّرغيب والتَّرهيب، وببيانِ الأعمالِ والأقوال الظّاهرة والباطنةِ الَّتي مَن قام بها، فقد قَبِلَ النِّذارة، فهذا القرآن فيه النِّذارةُ لكم أيُّها المخاطَبون وكلُّ من بلغه القرآنُ إلى يوم القيامة، فإنَّ فيه بيانَ كلِّ ما يحتاج إليه من المطالبِ الإلهيَّة"(3).

الإيجازُ أُسلوبٌ يحقِّق المعاني الدَّقيقة ببلاغةٍ أنيقة

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّذارة دون البشارةِ في قولِهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾:

اقتصرَ التَّعْبيرُ في الآيةِ على جعل علَّة نزول القرآن للنِّذارة، دون ذكر البشارةِ؛ لأنَّ المُخاطَبين في حال مُكابرتهم الَّتي هي مقامُ الكلام لا يناسبهم إلّا الإنذار، فغايةُ القرآن بالنِّسبة إلى حالهم هي الإنذارُ؛ ولذلك قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، مُصرِّحًا بضمير المُخاطَبين،

النِّذارةُ منهجٌ دعويٌّ مفيدٌ، يعتمده القرآن المجيدُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2462.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.

ولم يقل: لأُنذِر به، وهم المقصودون ابتداءً من هذا الخطاب. وممّا يذكر في سرِّ التَّعبير بالنِّذارَةِ دونَ البِشارَة، أنَّ القرآن اكتفى بها؛ لأنَّ البشارةَ من روادفِ الإنذار، لاقتران ذِكْرِها بذِكْره، في مواضع كثيرةٍ منَ القرآن؛ فلو ذكر الإنذارَ منفردًا في بعض المواضع، تكون البشارةُ ملحوظةً فيها. وأيضًا لمّا لم يكن الكلام مع الكفّار خاصَّة، بل كان عامًّا بقرينة قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾؛ احتيجَ إلى عدم ذكرِ البشارةِ صراحةً؛ لأنَّ أحد الضِّدَّين أسرع حضورًا بالبالِ عند ذكر الضِّدِّ الآخر[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ على أنَّ (اللّام) في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ للتَّعليل، وهي لا تُؤْذِنُ بانْحِصارِ العلَّةِ في مَدْخولها؛ إذ قد تكون للفعلِ المعدَّى بها عللٌ كثيرة[2].

دلالةُ عطف ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على ضميرِ المُخاطَبين ﴿لِأُنذِرَكُم﴾:

دلَّ هذا العطفُ على العموم، والمعنى: لأنذركم به - يا أهل مكَّة - وأُنذرَ كلَّ مَن بلغه القرآن منَ الثَّقلين، "وذلك أنَّ القرآن لمّا كان متواترًا بلفظه ومعناه، كان مَنْ بَلَغه بعده ﷺ، كمن سمعهُ منه، وإن كثُرت الوسائطُ؛ لأنَّه هو الَّذي بلغه بلا زيادةٍ، ولا نقصانٍ"[3].

دلالةُ اختيارِ (من) دون (الّذي) في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

قيامُ الحجَّة على مَن بلَغَهُ القرآنُ

اختار القرآنُ الكريمُ (مَنْ) دون (الَّذي)؛ لإفادة العموم، في بلاغ الدَّعوةِ، بخلاف (الَّذي)؛ فلا تؤدّي هذا العمومَ، وفيها إشارةٌ إلى عموم بعثتهِ ﷺ للإنس والجنِّ.

(1) القونَويّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 8/41.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/168.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/285.

دلالةُ اختيارِ لفظِ البلاغ دون غيره في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغ لفظٌ عامٌّ يندرج تحته السَّماعُ والكتابةُ والإشارة والسُّلوك

اختارَ (البلاغ) دون غيره؛ لأنَّه وظيفةُ الرَّسول ﷺ بنصِّ آياتِ القرآنِ الكريمِ، قال تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الرّعد: 40]، ومن يأتي بعده منَ العلماء يقومون بدور البلاغِ، قال ﷺ: (بلِّغوا عنِّي ولو آيةً)[1]. وإنَّ البلاغ يحمل معنى حُسن الدَّعوة، والدّاعيةُ عليه - أخذًا من دلالةِ هذه المادَّة - ، أن يراعي حال المدعوِّ؛ فيختار الزَّمان المناسب، والكلام المناسب، لكي تؤثِّر دعوته في المَدعوِّين، وتصل إلى قلوبهم، وهو منتهى البلاغ، وهو لفظ عامٌّ، تندرج تحته كلُّ طرق البلاغ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن لم تبلغه الدَّعوة الإسلاميَّة؛ فلا إثمَ عليه، وإنَّما إثمه على الَّذين قصَّروا في البلاغ.

التَّعبيرُ بالماضي والمرادُ المستقبل في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

بيان أنَّ دعوة البلاغِ عن الله بالغةٌ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ

آثر التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي للإشارة إلى تحقُّق الوقوعِ للبلاغ، وأنَّه على علماء الأمَّة القيام بهذا الواجب، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ، هو أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة يمكِّن الله تعالى لها حتَّى تصلَ في البلاغ إلى ما بلغَ اللَّيل والنَّهار.

دلالةُ حذفِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغُ مهمَّةُ العلماءِ للكون كلِّه، وللبشريَّة بأجمعِها

حُذف الضَّمير؛ ليعطي معنًى أوسعَ في البلاغ، ولا سيَّما أنَّ الدَّعوة عالميَّةٌ للعرب وغير العرب، والبلاغُ يكون على هذا بالقرآنِ أو بترجمة معاني القرآنِ، وعند ذلك تُقام الحجَّة على مَن بلَغَتْه الدَّعوة، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ الأمَّة لوجودِ مَن يقومُ بالبلاغ، وهذا مقصودٌ به علماؤها؛ فهم الَّذين يتحمَّلون قضية البلاغ، و"استُدلَّ به أيضًا على أنَّ أحكام القرآن تعمُّ الموجودين يومَ نزوله، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامةِ"[2].

---

(1) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (3461)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (6486).

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/330.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ دون الخبريِّ:

توبيخُ اللهِ للكافرين دليلٌ على عدمِ رضاه لما استنكرهُ عليهم

استخدم القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالأسلوبِ الإنشائيِّ؛ ليشيرَ إلى أنَّهم وقعوا في جعلهم آلهةً مع الله تعالى وتأكَّد وقوعهُ، ولم ينكروه، ولذلك كان التَّأكيدُ على وقوعِهم في جعلِ آلهة مع الله، ظاهرًا من خلال هذا الأسلوبِ، وإنكار الواقع توبيخٌ[1]، يؤكِّد هذا الغرضَ منَ الاستفهام في الآية أنَّه إنكاريٌّ؛ لتَقريعِهم وتوبيخِهم، وهو يفيد إنكارَيْنِ؛ أحدهما: صريحٌ بأداة الإنكارِ، والآخر: كِنائيٌّ بلازم تأكيد الإخبار؛ لغرابة هذا الزَّعم بحيثُ يشكُّ السّامع في صدورهِ منهم، والمقرَّرُ عليه هنا أمر ينكرونه بدلالةِ المقام[2]. وممّا يؤكِّد ذلك أنَّ الفعلَ جاء مضارعًا؛ ليشير إلى استحضار الصّورة الَّتي عليها المشركون، في اتِّخاذ آلهة مع الله، وتجدُّد وقوعِ ذلك منهم.

علَّةُ التَّوكيدِ بقولِهِ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾:

تأكيدُ الخبر بمؤكِّدَيْن دليلٌ على أهميَّتِهِ

أُكِّدَ الخبرُ في الجملة بمؤكِّدَيْن: (إنَّ) واللّام المزحْلَقةِ؛ ليفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممّا لا يكادُ يُصدِّق السّامعون أنَّهم يشهدونها؛ لاستبعادِ صدورها من عقلاءَ؛ فاحتاج المخبِر عنهم بها إلى تأكيد خبرهِ بمؤكِّدَيْن[3]، وقيل: "هو تقريرٌ لهم من الرَّسول، وهم في هذا الموقفِ، بعد أن أوقفهم بين يدي الله، وأشهدَه عليهم، ومع هذا، فإنَّ العنادَ لا يزال مستوليًا عليهم، وإنَّ اللَّجاج لا يزال يضرب بأمواجِهِ فوقهم؛ ولهذا، فإنَّ الرَّسول الكريم، لا ينتظر جوابهم، إذ كان جوابًا منحرفًا عن الحقِّ، بعيدًا عن الهدى.. فليتركهم وشأنَهم، وبين أيديهم دعوة الحقِّ، وأمامهم طريق الهدى، فإنْ أطاعوا؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/459 - 461، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

فقد اهتَدَوا، وإن تولَّوا فإنَّما هم في ضلالٍ وخسران"[1]. وفي هذا التَّساؤل الاستنكاريِّ استقصاءٌ في الإعذار لهم، والتَّوبيخ لهم، وأنَّه تعالى يسألهم إن كانوا سيشهدون أنَّ مع اللّه آلهةً أخرى، بما يماثلُ شهادته على الحقِّ الَّذي أبانه لهم، وأعطاهُ لهم جليًّا واضحًا لا غبار عليه؟ وتلك شهادةٌ منهم مستحيلةٌ لاتتأتَّى أبدًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ في الآيةِ الكريمة:

إطلاقُ (لتشهدون) مشاكلةٌ

عبَّر بلفظ ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ للإشارةِ إلى قوَّة الضَّلال في نفوسِهم؛ إذ إنَّهم مع ضلالِ الفكرة الوثنيَّة يعتقدونها أشدَّ الاعتقاد؛ لأنَّ الشَّهادة لا تكون إلّا بالعلم اليقينيِّ، فهم يؤمنون بـ ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ بالشِّرك، أي: بأنَّ مع اللّهِ آلهةً أخرى، فإطلاق ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ مشاكلةٌ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قوله: ﴿أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

الشِّركُ باللهِ ضلالٌ، وشتَّان بين الخالقِ والمخلوقِ

تدلُّ ﴿مَعَ﴾ على أنَّ هذه الآلهة لها دورٌ في عقيدة المشركين؛ فهم يلجؤونَ إليها، ويطلبون منها ما لا يصحُّ طلبُهُ، فكأنَّهم يساوون بينها وبين اللّهِ تعالى، تعالى اللّهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ويؤكِّدُ هذا المعنى اختيارُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ دون الرَّبِّ.

دلالةُ وصفِ الآلهةِ بالتَّأنيثِ في قولِه: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

وصفُ الآلهةِ بلفظِ (أخرى) يدلُّ على بطلانِ عبادتِها وهوانِ أمرِها

الآلهةُ جمعُ إلهٍ، وأُجري عليه الوصفُ بالتَّأنيث تنبيهًا على أنَّها لا تعقل، فإنَّ جمع غير العاقل يكون وصفُه كوصفِ الواحدةِ المؤنَّثة، ووصِفت بـ ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾ مع أنَّها جمعٌ، وكان الظّاهر أن توصف بـ (أُخَر)، ليوصف الجمعُ بالجمع، ولكن لأنَّها مشتركةٌ في وصفٍ جامعٍ؛ وهو أنَّها أحجارٌ، فهي في المعنى شيءٌ واحدٌ؛ لذا وصفت بما يوصف به الواحدُ، لا بما يوصف به العددُ، والوصف بـ ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

فيه إشارةٌ إلى بطلان عبادتها[1]، وإشارةٌ إلى النَّعي على هذه الآلهة لضعفِها، حيث وُصِفت بوصف المؤنَّث الَّذي يدلُّ على الضَّعف دائمًا.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

التَّوبيخ والتَّهكُّم

عبَّر عن أوثانِهم بأنَّها ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾، مُجاراةً لهم في زعمِهم الباطلِ، ومبالغةً في توبيخِهم، والتَّهكُّم بهم[2]؛ لأنَّهم خالفوا باحتمال الشَّهادةِ هاتِه - بأنَّ هناك آلهةً أخرى - ما فطرهم اللّه عليه من التَّوحيدِ، وفي ذلك تناقضت أقوالُهُم على إثبات ما يدَّعونَه من أنَّ مع اللّه آلهة أخرى، مع أنَّه لا يقومُ على ما قالوه أدنى شبهة، فضلًا عن الحجج الدّاحضةِ، والدَّعاوى الباطلةِ الَّتي لا يقبلها عقلٌ، ولا يستقيمُ بها منطق[3].

علَّةُ تَكرارِ الأمرِ بـ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

دلالـــةُ اتِّـحـاد المـسـنَـدِ (قـل) والمـسـنـدِ إلـيـهِ الضَّميرُ المستكنُّ في الفعلين

علَّةُ تَكرارِ الأمر ﴿قُلۡ﴾ في مبتدأ الجملتين سببُهُ أنَّ كُلًّا مِنَ الجملتين موضوعٌ برأسِه، وأنَّ ما بعد الفعلِ رسالةٌ خاصَّة ذاتُ أهمّيَّةٍ بالغة، تقتضي المبادرة بتبليغها والمواجهة بها، وممّا يؤيِّد هذا المعنى تركُ العطف بين الجملتين: ﴿قُلۡ﴾، ﴿قُلۡ﴾ مع قيام الدّاعي إلى العطف؛ لأنَّ كُلًّا منهما إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، فبينهما التَّوسُّط بين الكمالين، وكان من محسِّنات الوصلِ - أي: العطف بالواو - فيهما اتِّحادُ المسند ﴿قُلۡ﴾ والمسندِ إليه، وهو الضَّميرُ المستكنُّ وجوبًا في الفعلين[4].

دلالةُ أمرِ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بلفظ القولِ ﴿قُلۡ﴾:

لا يـضـرُّ الـبـحـرَ الـزَّخَّـارَ أن رَمـى فيه غلامٌ بأحجارٍ

في أمرِ اللّه تعالى له بالقولِ مع التَّنديدِ لهم، والتَّوبيخِ لهم، ما يدعو إلى الاقتداءِ والتَّأسّي به ﷺ، وهو العاقلُ الصّادق الأمين

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/117، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وطنطاويّ، الوسيط: 5/53.
(3) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/289.

المعروفُ بذلك بينهم جاهليَّةً وإسلامًا، وإن ذهبت اللَّجاجةُ ببعضهم إلى إنكار المعروفِ بلسانِه لا بقلبه[1]، وإنكارُ الكمال النَّبويِّ، والتَّطاولُ على مقامِه العالي، لا يحطُّ من مقامه، ولا ينقص من شأنه، لأنَّهُ ذو فضل وارفٍ، شهدَ به العدوُّ قبل الصَّديق، وما ضرَّه ما شهدتهُ مراحلُ دعوته، من مناوأة ومشاكسة وعدم تصديقٍ، وقد قيل:

ما ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى في الأُفْقِ ساطِعَةً *** ألّا يَرَى نورَها مَنْ لَيْسَ ذا بَصَرِ.

دلالةُ الفصلِ بين قوله: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

الموازاةُ بينَ نفي شهادةِ الإشراكِ، وتأكيدِ شهادةِ الوحدانيَّة

لَمّا كان قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ جوابًا للاستفهام الَّذي في قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾، وجملة: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، بيانٌ لجملة ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، فُصِلَت؛ لأنَّها بمنزلةِ عطف البيان؛ لأنَّ معنى ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، بأنَّ معه آلهةً؛ هو معنى أنَّه: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وأُعيدَ فعلُ القولِ لتأكيدِ التَّبليغ[2]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، ذُكِرَت هذه الجملةُ بعد نفي الرَّسولِ ﷺ لوجودِ آلهةٍ أخرى، بدليلِ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾؛ فكان ذكرُها لإضافة معنًى جديدٍ، هو إثباتٌ لصفة الوحدانيَّة للّه تعالى، وعلى ذلك يوجدُ فرقٌ بين الجملتين؛ فالأولى نفَت تعدُّد الآلهة، والثّانية أثبتتِ الوحدانيَّة، وقد أَلْزموا الحُجَّةَ بما عندهم من آياتِ الوحدانيَّة، وحجج الرُّبوبيَّة، وقد عرفوا أنَّه خالقهم وخالقُ السّماوات والأرض، به العيشُ، وبه الحياةُ، وبه الموتُ، ومع استبانة ذلك لهم؛ أشركوا مع اللّهِ آلهةً أخرى، ولذا فأنا لا أشهد، وإنَّما أشهد أنَّه إلهٌ واحد[3].

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

التَّعبيرُ بأقوى الأساليبِ لإثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى

تأتي (إنَّما) كما يقولُ العلّامة عبدُ القاهر (رحمه اللّه): "لخبرٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/42.

لا يجهله المُخاطَب، ولا يدفع صحَّتَه، أو لا يُنَزَّلُ هذه المنزلةَ، وتفسير ذلك: أنَّك تقول للرَّجلِ: (إنَّما هو أخوك)، و(إنَّما هو صاحبك القديم)، لا تقولهُ لَمن يجهل ذلك، ويدفعُ صحَّته، ولكن لِمَن يعلمه، ويُقرُّ به، إلّا أنَّك تريدُ أن تُنَبِّهَه للَّذي يجب عليه من حقِّ الأخ، وحرمةِ الصّاحب"[1]، ففي الآية نجد المخاطبَ مُنزَّلٌ منزلة (غير المنكِر)، وإن كانوا منكِرين لهذا الأمر، فخاطبهم على أنَّ هذه حقيقةٌ مسلَّمٌ بها، لا ينبغي لأحدٍ أن ينكرَها أو يجهلها، فكلُّ الدَّلائل والآياتِ الكونيَّة تُثبت هذه الحقيقةَ وتؤكِّدها. يضاف إلى ذلك أنَّ الجملة إثباتٌ لوحدانيَّة اللّه (ﷻ) بأقوى الأساليب؛ وهو القصر؛ لما يتميَّز به هذا الأسلوبُ من قوَّةٍ في التَّأكيد مع الإنجاز. وزِدْ على ذلك ما أفادتهُ (إنَّما) في سياق الآية من تعريضٍ بضلال المشركينَ الَّذين يعدِّدون الآلهةَ الَّتي يعبدونها، وهذا من أدلَّة بطلانِها، إذ لو كان في السّماوات والأرض آلهةٌ غيرُ اللّه لفسدتا، بل هو إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له[2].

مؤكِّداتُ وجوبِ التَّوحيد في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

وجوبُ البراءةِ ممَّا عليه المشركون من الشِّرك

في الآيةِ الكريمةِ تأكيدٌ على إيجاب التَّوحيد، وتصريحٌ ببراءة النَّبيِّ ﷺ ممّا يعبدون، وتنديدٌ شديد بعبادة الأوثان؛ لأنَّ الرَّجُلَ العاقل يتبرَّأ منها، وقد أكَّد براءته بـ (إنَّ)، وبالوصف ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وبـ ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تفيدُ الحصر، ولفظُ ﴿وَاحِدٌ﴾ الصريحُ في التَّوحيد ونفيِ الشُّركاء، وفيه قطعٌ للمجادلة معهم على طريقة المتاركةِ، فثبتَت دلالةُ هذه الآية على إيجاب التَّوحيد، بأعظمِ طرقِ البيان، وأبلغِ وجوه التَّأكيد[3].

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/330.

(2) العُبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، ص: 664.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169 - 170، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.

دلالةُ اختيارِ ﴿بَرِىٓءٌ﴾ دون غيرها في قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مَن بَرِئَ من أرجاسِ الشِّركِ؛ ذاقَ صفاءَ التَّوحيد

اختارَ لفظَ ﴿بَرِىٓءٌ﴾؛ لأنَّ المادَّة اللُّغويَّة لهذه الكلمة تدلُّ على التَّقصّي ممّا يُكره مجاورتُه؛ لذلك كان استعمالها ظاهرًا في البراءةِ منَ المشركين ومن أعمالهِم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 3]، وقال تعالى على لسانِ سيِّدنا إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزخرف: 26]، وعلى هذا كان اختيارُ ﴿بَرِىٓءٌ﴾، هو المناسبُ لهذا السّياق؛ فهو يحمل البراءةَ والتَّبرّي منَ المشركين ظاهرًا وباطنًا، وأيضًا للمبالغة في البراءةِ منَ المشركين وشركهم؛ لأنَّها جاءَت على وزن (فَعِيلٌ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ منسجمةٌ مع عقيدةِ الرَّسولِ ومهمَّتِهِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، عبَّر في آخر الآيةِ بـ (ما)، ومعناها الموصوليَّة، أي: من أصنامكم الَّتي تشركونَ بها، وفيه حذفُ العائدِ المجرور؛ لأنَّ حرفَ الجرِّ المحذوف مع العائد مُتعيِّنٌ، تقديرهُ: بلا لبسٍ، وذلك هو ضابطُ جوازِ حذف العائدِ المجرور. أو تكون (ما) مصدريَّةً، أي: (من إشراككم باللّه)، وقد أمره بالجَوابِ عقيبَ السُّؤال على أنَّه بريءٌ من الشِّرك الممارَسِ في البيئة المكتظَّةِ بهذه الممارساتِ، والَّتي وجدوا لها مختلِفَ المسوِّغات الباطلة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ تتجدَّد، بتجدُّدِ ممارستهِ المستنكَرةِ

عبَّر بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على استمرارهم، فيما هم فيه منَ الشِّرك المقيت[1]، والمضارعُ ذو دلالةٍ في السّياق العامِّ للآيةِ القائمةِ على الاستفهامِ المكرَّس للتَّقرير مع الإنكارِ والاستبعاد، وقد أمره تعالى أنْ يُجيب بأنَّه لا يشهدُ كما يشهدونَ، بقوله: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وهي بصيغة الفعل المضارع أيضًا، ثمَّ أمرهُ أمرًا آخَرَ، بأن يشهدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

بنقيض ما يزعمون ويَتَبَرَّأَ منه بالتَّصريحِ بأنَّ الإلهَ لا يكون إلّا واحدًا، وهو منطق الدّين، ومطلوب الفطرةِ. وفي الختام أمر بأن يعلنَ براءتَهُ ممّا يشركون به من الأصنام وغيرها، وكلُّ ذلك حاصلٌ بالتَّجدُّد الَّذي يتيحهُ الفعلُ المضارع ﴿تُشۡرِكُونَ﴾[1].

مناسبةُ الفاصلةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مـعـبِّرة عن سياقِ التَّوبيخِ، منسجمةٌ مع الدَّلالة

قرَّرتِ الآيةُ الكريمة أنَّ اللّه تعالى أعظمُ شاهدٍ على صدق النُّبوَّة والقرآن، كما قرَّرت نفيَ الشِّرك عنه ﷺ، وجاءَتِ الفاصلةُ لتُقرِّر هذا المعنى، فهي مثبِّتة للتَّوحيد، ومنزِّهة للّه تعالى عنِ الشِّرك، وكأنَّها تقولُ: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له[2]، والفاصلةُ تسهمُ في جمال الإيقاعِ، وانسجام محتوى السّياق، مع الدَّلالةِ المقصودة.

۞ الفُروقُ المُعۡجَمِيَّةُ:

(الشَّهادة) و(الإقرار):

الشَّهادةُ: بيانُ الحقِّ، والإقرارُ: إثباتُ الشَّيء بالقلبِ واللِّسان

الشَّهادة مأخوذةٌ من مادَّةِ (شَهِدَ)، وهي بمعنى الحضورِ مع المشاهدةِ إمّا بالبصرِ، وإمّا بالبصيرة، والشَّهادة: بيانُ الحقِّ، سواءٌ كان عليه أم على غيرِه، وخبرٌ قاطعٌ يختصُّ بِمَعْنًى يتضمَّن ضررَ غيرِ المُخْبِرِ، فيخرجُ الإقرار، وقال الرّاغب: الشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن علم حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر، ويعبَّر بالشَّهادَةِ عنِ الحُكم، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26]، وعنِ الإقرار مع العلم وثباتِ اليقين، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النّور: 6]، ويعبَّر بها عنِ الإخبار، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: 81][3]. أمّا الإقرارُ؛ فمأخوذٌ من قرَّ في المكان؛ إذا ثبت فيه، والإقرارُ إثباتُ

(1) رضا، تفسير المنار: 7/169.
(2) عقيلان، المناسبة بين الفواصل القرآنيّة وآياتها، ص: 55.
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).

الشَّيء، وقد يكون ذلك الإثباتُ إمّا بالقلب وإمّا باللسان، وإمّا بهما معًا، والإقرارُ بالتَّوحيد وما يجري مجراه، لا يُغني باللِّسان ما لم يُضامَّهُ الإقرارُ بالقلب، ويضادُّه الإنكار[1]. وعلى هذا الإقرار ليس مرادفًا للشَّهادة؛ لأنَّ الإقرارَ يقع في الإثباتِ، وأيضًا أنَّه قد ينفكُّ عنِ الشَّهادة، يؤكِّد هذا ما ذكره اللّه تعالى من تكذيبِهِ للمنافقين في قولهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لرسول اللّه؛ لم يكذبوا[2].

(وسط) و(بين):

(الوسط) كلُّ ما وقعَ بين طرفين، و(البين) مِنَ المكان بين متباينين

(وسط) يُضاف إلى الشَّيءِ الواحد، و(بين) يُضاف إلى شيئين فصاعدًا؛ لأنَّه منَ البَينونةِ، تقولُ: قَعدتُ وسَطَ الدّار، ولا يُقال: قعدتُ بين الدّارين، أي: حيثُ تُباين إحداهما صاحبتَها، وقعدتُ بينَ القوم، أي: حيثُ يتباينوا منَ المكان، والوسطُ يقتضي اعتدال الأطرافِ إليه، ولهذا قيلَ: الوسط: العدلُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143]. زد على ذلك أنَّ الوسطَ شبِّه به كلُّ ما وقع بين طرفين إفراطٌ وتفريطٌ، كالجودِ بين السَّرف والبخل، والشَّجاعة بين التَّهوُّرِ والجُبن، ثمَّ جُعِلَ عِبارَةً عنِ المختار من كلِّ شيءٍ حتَّى قيل: فلان مِن أوسطهم نسبًا[3].

(الوحي) و(الإلهام):

الإلهامُ عِلْمٌ من غير استدلالٍ ولا حجَّةٍ، والوحيُ فيوضُ اللهِ لإبانةِ المحجَّة

الإلهامُ: هو إيقاعُ الشَّيء في القلبِ من علم يدعو إلى العملِ به، من غير استدلال تامٍّ، ولا نظر في حُجَّة شرعيَّة، وقد يكونُ بطريق الكَشْفِ، وقد يحصلُ مِنَ الحقِّ من غير واسطة الملك، بالوجه الخاصِّ الَّذي له مع كلِّ موجود. والوحي يحصل بواسطة الملكِ،

(1) الرّاغب، المفردات: (قر).

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/249، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 527.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/328 - 329، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 572.

ولذلك لا تسمَّى الأحاديثُ القدسيَّة بالوحي، وإن كانت كلامَ اللّه. والإلهامُ: منَ الكشف المعنويِّ، والوحي: منَ الشُّهوديِّ المتضمِّن لِلْكَشْفِ المعنويِّ؛ لأنَّه إنَّما يحصلُ بشهود الملك، وسماع كلامه، والوحي من خواصِّ النُّبوَّة، والإلهام أعمُّ، والوحي مشروطٌ بالتَّبليغ دون الإلهام[1].

(الإنذار) و(الإعلام):

الإنـذارُ: إعلامٌ معه تخويفٌ، فكلُّ مُنذِرٍ مُعلِمٌ، وليس بالعكسِ

إنَّ الإنذار تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة، وهو إحسانٌ مِنَ المُنذِر، وكلَّما كانتِ المخافة أشدَّ، كانتِ النِّعمةُ بالإنذارِ أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس منَّةً بإنذارِه لهم عقاب اللّه تعالى. أمّا الإعلامُ؛ فهو التَّعريض لأن يعلم الشَّيء، وقد يكون ذلك بوضعِ العلم في القلب؛ لأنَّ اللّه تعالى قد علَّمنا ما اضطررنا إليه، ويكون الإعلامُ بنصب الدِّلالة[2]، وعلى هذا فالإعلامُ يختلفُ عنِ الإنذار[3].

(الإبلاغ) و(الإيصال):

الإبــلاغُ أشـدُّ اقـتـضـاءً للمُنتهي إليه مـنَ الإيـصالِ؛ لاقتضائهِ بلوغَ فهمِه وعقلِه

الإبلاغُ: إيصالُ ما فيه بيانٌ للأفهام، ومنه البلاغةُ، وهي إيصالُ المعنى إلى النَّفس في أحسن صورة، وأمّا الفرقُ بين الإبلاغ والإيصالُ؛ فالإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنتهي إليه منَ الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمه وعقله، كالبلاغةِ الَّتي تَصِل إلى القلب. وقيل: الإبلاغُ اختصار الشَّيء على جهة الانتهاء، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التّوبة: 6][4].

(الكفر) و(الشِّرك):

الكفرُ: اسمٌ يقع على ضروبٍ مِنَ الذُّنوب، منها الشِّرك باللّه، ومنها الجَحدُ للنُّبوَّة، ومِنها استحلالُ ما حرَّم اللّه، ومنها إنكارُ ما

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 173.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 111.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 12 - 30.

عُلِم مِنَ الدّين بالضَّرورة. أمّا الشِّرك؛ فهو خصلة واحدة؛ هو اتِّخاذ إلهٍ مع اللّه، وقد يُطلق الشِّرك على كلِّ كفر على سبيلِ المبالغة، فعلى هذا يكون كلُّ شركٍ كفرًا، ولا يكون كلُّ كفرٍ شركًا إلّا على سبيل المبالغةِ[1].

الكفرُ: ضروبٌ مِنَ الذُّنوب يُبيِّنها الشَّرع، والشِّرك: اتِّخاذُ إلهٍ معَ الله

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 454 - 455، والموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 5/8.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين شهادةِ الله بنبوّتِه ﷺ، وتكذيبِ أهلِ الكتابِ له رغمَ معرفتِهم به

لّما أنكر كفّارُ مكَّة نبوَّته ﷺ، وادَّعوا أنَّهم سألوا أهل الكتاب عنه، وقالوا: لا نعرفه؛ شهد اللّه تعالى على نبوَّته ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جاءَت هذه الآيةُ لتبيِّن كذِبَ أهل الكتاب في قولهم - لا نعرف محمَّدًا - وأثبتت أنَّهم يعرفونه نبيًّا ورسولًا، كما يعرفون أبناءهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡرِفُونَ﴾: المعرفة: إدراكُ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، فهي أخصُّ منَ العلمِ، ويضادُّها الإنكارُ[1]، قال أهلُ التَّحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرفَ الحقَّ لذاته، لأجل العمل به، ورأسُ المعرفة اليقينيَّة معرفة اللّه تعالى"[2]. والتَّعريفُ قد يطلق، ولا يلزم منه المعرفة الحقيقيَّةُ، كما يقال: عرَّفتهُ، فلم يعرف، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: 30]، فكان المعنى هنا: عَرَّفْناكَهُمْ تعريفًا تعرفهم به، ففيه إشارةٌ إلى قوَّة ذلك التَّعريف الَّذي لا يقع معه اشتباهٌ"[3]. ومعنى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾، أي: "يعرفون رسول اللّه ﷺ بحِليَته ونَعْتِه الثّابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾، بِحُلاهُمْ ونُعوتِهم، وهذا استشهادٌ لأهل مكَّة، بمعرفة أهل الكتابِ به، وبصحَّة نبوَّته"[4].

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: الخُسرُ: النُّقصان، والخسران كذلك، والفعل:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عرف).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/496.

خَسِرَ يَخسَرُ خُسرانًا، والخاسرُ: الَّذي وُضع في تجارته، ومصدرُهُ: الخسارةُ والخُسر، ويُستعمل ذلك في المقتنيات الخارجةِ كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثرُ، وفي المقتنيات النَّفسيَّة كالصِّحَّة، والسَّلامة، والعقلِ، والإيمان، والثَّواب، وهو الَّذي جعله اللّهُ تعالى الخسرانَ المبين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15][1].

3) ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: النَّفس: الرّوح، يُقال: خَرَجَت نَفسُ فلان، أي: روحه، وتأتي بمعنى العين، فيُقال: أصابَت فلانًا نَفسٌ، أي: عينٌ، ونَفسُ الشَّيء: عينُه، وأصلُ الكلمة مِنَ التَّنفيس، وهو: الخروجُ مِنَ الجَوف. ويُطلَق النَّفس على الدَّم؛ لأنَّه أساسُ الحياة، أو لأنَّ الرُّوح تخرج بخروجِه، يُقال: سالَت نَفسه، أي: دَمه. ومن معانيها أيضًا: الجسد، والحسد، والذَّات، والحقيقةُ، والعزَّة، والهمَّة[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

بيانُ كفرانِ أهلِ الكتابِ بمحمَّدٍ ﷺ، رغم أنَّهم يعرفونه كأبنائِهم

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أوتوا التَّوراة والإنجيل منَ اليهود والنَّصارى يعرفون محمَّدًا ﷺ، كما يعرف الواحد منهم ابنَه، والَّذين خسروا أنفسهم كلَّ الخسارة هم الَّذين كفروا بمحمَّد ﷺ، وفاتهم الإيمانُ بِه، وبرسالتِه[3]، فقد بشَّر الرُّسل كُلُّهُمْ ببعثةِ محمَّدٍ ونعته، وصفته ومكان هجرتِه، وصفة أمَّتِه[4].

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (خسر).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).

(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/180. ويؤكّد معرفةَ أهلِ الكتاب للنّبيّ الأكرم ﷺ ما ذكرته بعض الرّوايات؛ فمن ذلك ما رويَ أنَّ النَّبيّ ﷺ لمّا قَدِمَ المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام، قال له عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: إنَّ الله عزّ وجلّ أنزلَ على نبيِّه محمَّد ﷺ بمكّة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: 146]، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر، لقد عرفتُه حين رأيته، كما أعرف ابني، ولأَنا أشدُّ معرفةً بمحمَّد ﷺ، منّي بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنَّه رسول الله حقًّا، ولا أدري ما يصنع النِّساء، فقال عمر: وفَّقك الله يا ابن سلام. ينظر: الواحديّ، الوسيط: 1/231، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 8/245.

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 3/180.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

علماءُ اليهودِ هم أعرفُ النَّاسِ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ

دلَّ اسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة على علماءِ اليهودِ الَّذين كانوا في زمنِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ونلحظ أنَّهم قد عُرِّفوا بالموصوليَّة؛ وهذا لتقويةِ الغرض الَّذي من أجله سيق الكلام؛ وهو بيانُ معرفتِهم برسول اللّه ﷺ وصدقِه، واليهود ليسوا في العلم سواءً، فلا يمكن أن يُستدلَّ بعلم عامَّتهم في أمرٍ عظيم كهذا، فأفاد تعريفُهم بالموصوليَّة أنَّهم الَّذين درسوا الكتاب - توراةً أو إنجيلًا - وعرفوا ما فيه من صفاتِ النَّبيِّ ﷺ؛ وهم الأحبارُ، ولمّا كانوا كذلك، فهذا يعني: أنَّهم قد بلغوا منَ العلم أقصاه، واستحقّوا بهذا أن يُستدلَّ بعلمِهم، وأن تذكر شهادتُهم.

وأكَّد ذلك الرّازيُّ بقوله: "وإن كان عامًّا بحسب اللَّفظ لكنَّه مختصٌّ بالعلماء منهم، والدَّليل عليه أنَّه تعالى وصفهم بأنَّهم يعرفونهُ كما يعرفون أبناءَهم، والجمع العظيمُ الَّذي علموا شيئًا استحالَ عليهم الاتِّفاق على كتمانهِ في العادة"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أعطيناهم):

النُّبوَّةُ مَحْضُ فضلٍ منَ الله، لمَن اصطفاهُ

لأنَّ الإيتاءَ لا يكون إلّا في الشَّيءِ العظيم، مثل: القرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ والمُلك والحكم والنُّبوَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89]، وقال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [آل عمران: 26]، كلُّ هذه المعاني تكونُ مع الإيتاءِ الَّذي ليس للعبد فيه دخلٌ، ولا اجتهادٌ، إنَّما هو مَحضُ فضلِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

لله تعالى على مَن يختارهُ لرسالته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحج: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]. أمّا الإعطاءُ؛ فهو فِعلٌ له مقابلٌ، أعطاني فأعطيتُه، ويُسمَّى بفعل المطاوعةِ، ويكون في الشَّيء القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، وقد يرد العطاءُ مفيدًا للكثرة إذا كان مضافًا للرَّبِّ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاءُ كرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، لذلك كلِّه آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السّياق هنا في المعاني العظيمةِ.

سرُّ مجيءِ الفعل مسنَدًا إلى نونِ العظمةِ في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

إيتاءُ الكتاب تكريمٌ من الله تعالى لأهله

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أوتوا)؛ حيثُ جاء مسندًا إلى نون العظمةِ الَّتي تدلُّ على اللّه تعالى، وفيه إشارةٌ إلى تكريمِ اللّه تعالى لأهل الكتاب؛ لأنَّ هذه النّونَ في إسنادها إلى بعض الأفعال، تفيدُ الإكرامَ والاصطفاء، ولم يدرج السّياق ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النّساء: 44]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] إلى غير ذلك منَ الآيات الَّتي ذكر فيها الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ ليحمل ذمًّا لهم على مخالفتِهم وضلالاتهم، وعلى هذا كان إيثارُ الفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ هو الأوفقُ بهذا السّياق.

دلالةُ تخصيصِ أهلِ الكتابِ بالمعرفةِ دون غيرهِم منَ الأممِ:

معرفةُ أهلِ الكتابِ بالنَّبيِّ ﷺ، معلومٌ بالصِّفات وقرائن المعجزات

خصَّ أهل الكتاب؛ لأنَّهم أصحابُ كتابٍ سماويٍّ، فيه البشارات بالنَّبيِّ ﷺ، بخلاف غيرهم منَ الأمم، فليسوا أهل كتاب؛ فلا علمَ لهم بذلك النَّبيِّ ﷺ، "قال المهايمي: لأنَّه ﷺ ذُكر في الكتاب نعتُه، وهو وإن لم يُفد تعيُّنَه باللَّون والشَّكل والزَّمان والمكان، تعيَّن بقرائنِ

المعجزات. فبقاءُ الاحتمال البعيدِ فيه، كبقائهِ في الولد، بأنَّه يمكن أن يكونَ غير ما ولدتهُ امرأته، أو يكون من الفجورِ، مع دلالةِ القرائن على براءتِها من التَّزويرِ والفجورِ، فهو كما يعرفون أبناءهم في ارتفاعِ الاحتمال البعيدِ بالقرائنِ على براءتِها"[1]. ثمَّ لأنَّهم كانوا يسكنون في الجزيرة العربيَّة، وبالأخصِّ اليهود في المدينة؛ فهم على قربٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ بالبيئة للرِّسالة المحمَّديَّة.

دلالةُ دخولِ (أل) على لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

لفظُ (الكتاب) يرادُ به التَّوراةُ أو الإنجيل أو هما معًا

استُعمل لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مُعرَّفًا للدَّلالة على التَّوراة والإنجيلِ، وعند استقراء الاستعمال القرآنيِّ نجد أنَّ القرآن الكريمَ أرادَ بلفظ (الكتاب) في أغلبِ الأحيان (التَّوراة) وليس الإنجيلَ، إذ إنَّ هذا اللَّفظَ ورد في كثيرٍ منَ المواضع في سياقِ الحديث عنِ اليهود، فضلًا عنِ التَّركيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: 87]، الَّذي يُشير بوضوحٍ إلى أنَّ المرادَ هو التَّوراة فقط، إذِ استُعمل هذا التَّركيب في عشرة مواضعَ مِنَ التَّنزيل، ويلاحظ أنَّ (الكتاب) إذا كان بمعنى: التَّوراة يكون مقترنًا بالفعل (آتى)، أمّا إذا أُريدَ بلفظ (الكتاب) التَّوراةُ والإنجيل، فإنَّ هناك قرائنَ تُعين على ذلك، منها السّياقُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ [الأنعام: 156]، إذ دَلَّت لفظة ﴿طَآئِفَتَيْنِ﴾ على اليهود والنَّصارى، وفي موضعٍ واحدٍ فقط أريد بلفظ (الكتاب) معنى الإنجيلِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ [مريم: 30]، إذ ذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّ المرادَ بالكتاب في هذا الموضع (الإنجيل)؛ لأنَّ اللَّفظ ورد في سياقِ الحديث عن قصَّة النَّبيِّ عيسى عليه السلام[2].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

(2) داود، دلالة لفظ (الكتاب) في الاستعمال القرآنّي، ص: 104.

دلالةُ إيحاءِ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

تخلّي أهل الكتاب عن مضمونه، اقتضى أسلوبَ المدحِ الَّذي يشبه الذَّمّ

هذا الاختيارُ فيه إشارةٌ إلى التَّقريع والتَّأنيب لليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم خرجوا عنِ القيمة الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن تكون عندهم من أثر هذا الكتابِ، وكان عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ وصفه مكتوبٌ عندهم في كتابهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، فهو مدحٌ يشبه الذَّمَّ لهم.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ القرآنيِّ لكلمة ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يَعلَمونَه):

الحجَّةُ قائمةٌ على أهلِ الكتابِ في صحَّة بعثةِ النَّبيِّ ﷺ

اختارَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يعلمونه)؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ بالكلام النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ المعرفة تتعلَّق غالبًا بالذَّوات والأمور الحسّيَّة[1]، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطفّفين: 24]؛ فالمعرفةُ تختلفُ عنِ العلم؛ فتقول: عرفتُ فلانًا، ولا تقولُ: عرفتُ علمَ فلانٍ؛ لأنَّ العلمَ إدراكُ الشَّيء على حقيقته، ونقيضه الجهلُ؛ أمّا المعرفةُ؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضدُّها الإنكارُ. وعلى هذا أُسندت المعرفة في جانب المولى سبحانه؛ فتقول: عرفت اللّه؛ لأنَّك أدركتَ آثارَ خلقه، ولا تقول: علمتُ اللّه. وعلى هذا استُخدمتِ المعرفة في الدَّلالةِ على صفاتِ النَّبيِّ ﷺ، وعلاماتهِ المذكورة في كتبهم، وهي واضحةٌ جليَّة كأنَّها في حكم المحسوسِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ علاماتِ النُّبوَّة ظاهرةٌ في وجههِ ﷺ وفي سيرتهِ، فلا تحتاجُ إلى إقامة الدَّليل الَّذي هو العلم؛ إنَّما لوضوحها عُبِّر عنها بالمعرفة.

تعدُّد أقوالِ المفسّرين في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾:

سرُّ التَّعبيرِ عنه بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الظَّاهرِ

يرى أكثرُ المفسِّرين أنَّ الضَّمير في قوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعودُ على النَّبيِّ ﷺ، ويُؤيِّد ذلك سبب نزول الآيةِ. ويرى بعضُهم أنَّه يعود على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

القرآن لتقدُّمه في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأنعام: 19]، أو على التَّوحيد لدلالةِ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، والأَوْلى عودةُ الضَّمير على جميع ما ذُكِرَ؛ لأنَّ معرفتَهم بما في كتابهم يتناول كلَّ ذلك[1]. والمعنى: أنَّهم يعرفون رسولَ اللّه ﷺ معرفةً جليَّة يميِّزون بينه وبين غيرهِ بالوصف المعيَّن المشخَّصِ؛ وذلك لصفتهِ الَّتي جاءَت في كتابهم[2]، وقد جاء إضمارُ ذكره ﷺ، وإن لم يسبق له ذكرٌ؛ لأنَّ الكلامَ يدلُّ عليه، ولا يلتبسُ على السّامع، كما أنَّ في إضماره عليه الصَّلاة والسَّلام تفخيمًا له، وإشعارًا بشهرته، وكونه معلومًا بغير إعلامٍ[3].

دلالةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾:

القيمةُ البلاغيَّةُ للتَّشبيه في الآية الكريمة

لمّا كان المقامُ هنا مقامَ استدلالٍ ومجابهة منكر، فلا يكفي فيه مجرَّدُ سَوقٍ لما لدى أهل الكتاب من شهادة، بل لا بدَّ من أسلوبٍ يزيد تلك الشَّهادَةَ وذلك المعنى قوَّةً ووضوحًا وبيانًا؛ لتقوم الحجَّة عليهم، فأُتي بكافِ التَّشبيهِ؛ لتزيد المعنى وضوحًا وبيانًا وقوَّة؛ فشبَّهت معرفة علماء اليهود للنَّبيِّ ﷺ، أو للحقِّ الَّذي أتى به ﷺ بمعرفتهم لأبنائهم، وأداة التَّشبيهِ الكاف، ووجه الشَّبهِ "التَّحقُّق والجزم"[4]. وتظهر القيمة البلاغيَّةُ لهذا التَّشبيه، في بيان مقدار معرفة أهل الكتاب به ﷺ، وأنَّها معرفةٌ بلَغت درجةً لا ترتقيها ذرَّة شكٍّ، ومَن ينكر ولده حينئذٍ إلّا جحدًا وعنادًا وغيرهما، وهو في قرارة نفسهِ يعلمُ أنَّه ابنه بلا شكٍّ، ففي التَّشبيهِ منَ الإيضاح والتَّأكيدِ ما فيه، فكيف يمكن للشَّكِّ أن يتسرَّب إلى النُّفوس بعد ذلِكَ؟ وممّا يُظهِر

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/276، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/461 - 162، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/118، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171، وطنطاويّ، الوسيط: 5/54.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/101، والواحديّ، الوسيط: 3/396.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/204.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171.

القيمةَ - أيضًا- أنَّ هذا التَّشبيه لا يخفى على ذي لبٍّ؛ فهم يعرفون أنَّ محمَّدًا ﷺ نبيٌّ مبعوثٌ من ربِّه، وأنَّ الَّذي معه هو الحقُّ من عند اللّه تعالى.

سرُّ اختيارِ لفظِ الأبناء دون غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾:

المعـرفـةُ وجـهُ الشَّبهِ الجامعُ في كلٍّ منهما

سببُ اختيارِ لفظ الأبناء دون غيرهم في الآية؛ لأنَّه لفظ خاصٌّ بالذُّكور، ولأنَّهم أكثرُ مباشرة ومعاشرة للآباء، وألصق وأعلقُ بقلوب الآباء، فهم الأشهرُ والأعرفُ، وظاهر هذا التَّشبيه أنَّ المعرفةَ أريد بها معرفةُ الوجه والصّورة، وتشبيهها بمعرفة الأبناء يقوّي ذلك، ويقوّي أنَّ الضَّميرَ عائدٌ على الرَّسول ﷺ، حتَّى تكون المعرفتان تتعلَّقان بالمحسوسِ المشاهدِ، وهو آكدُ في التَّشبيه من أن يكون التَّشبيهُ وقع بينَ معرفة متعلَّقها المعنى، ومعرفة متعلّقها المحسوس[1]. ثمّ إنَّ لفظ الأبناء أعمُّ؛ فالأولادُ لا يكونون إلّا لَمن كانوا من صلبِه، أمّا الأبناءُ؛ فهو أعمُّ؛ فيشمل ما كان منَ الصُّلب، ومن غيرِه كالرَّضاع، ويحتمل أن يُرادَ بالأبناء الأولاد، فيكون ذلك من بابِ التَّغليبِ؛ لذا اختيروا للتَّشبيه بمعرفة آبائِهم بهم، وهذا قوَّى التَّشبيهَ والخبر.

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلَها:

إيـــضـــاحُ مـدى تـصلُّبِ المـشـركـين، وإصرارِهم على الشِّرك

لم تُعطف جملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلها؛ لأنَّها كلام مُستأنَفٌ، ولاتَعَلُّقَ له بالأوَّل، وأُريدَ به كفّارُ مكَّة الَّذين لم يؤمنواْ بمحمَّدٍ ﷺ، والغرضُ منه زيادةُ إيضاحٍ لمدى تصلُّب المشركين وإصرارهِم على الشِّرك. وأيضًا على رأيٍ مَن يقول: إنَّها صفة (الَّذين) الأولى؛ فلشدَّة اللُّصوق بين الصِّفة والموصوف لم تُعطف، ويكون المقصودُ من ذلك وعيدَ أهل الكتاب الَّذين يعرفون محمَّدًا ﷺ، ويجحدون نبوَّتَه.

(1) أبو حيّان: البحر المحيط: 2/33.

دلالةُ اختيارِ لفظِ (الخُسْران) في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

الإعراضُ عن دينِ الله أعظمُ خُسرانٍ في حياةِ الإنسان

اختار القرآنُ هذا اللَّفظ؛ لأنَّ معناه أنَّهم أضاعوا أنفسَهم، كما يضيع التّاجر رأسَ ماله، فهو مستعارٌ لإضاعة ما شأنه أن يكونَ سببَ نفعٍ، أي: إنَّهم عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به النّاسُ من أنفسهم، وهو العقلُ والتَّفكير، فإنَّه حركةُ النَّفس في المعقولات لمعرفةِ حقائق الأمور[1]، فعبَّر القرآن الكريم بهذا التَّعبيرِ البليغ؛ ليكون أكثرَ إقناعًا للمُتلقّي الَّذي يدرك هذا المعنى المرتبطَ بواقعه، والقريبَ من فهمه وإدراكه، فكأنَّه ﷻ جعلَ نفوسهم لهم بمنزلة العروضِ المملوكة، إذ كانوا يوصفونَ بأنَّهم يملكونَ نفوسَهم، كما يوصفون بأنَّهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانَهم لها؛ لأنَّهم عرَّضوها للخسارة، وأوجبوا لها عذابَ النّار، فصارت في حكمِ العروض المتلَفات، وتجاوزوا حدَّ الخسران في الآثام إلى حدِّ الخسران في الأعيان.

معنى التَّعبيرِ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في الآية الكريمةِ:

أزمةُ أهلِ الكتابِ خسارةُ الأنفسِ، وهي خسارةٌ في رأسِ المالِ

عبَّرَ بخسارةِ النَّفس؛ لأنَّ المرادَ إفْسادُ فطرتها، وعدمُ اهتدائِها بما منحها الله تعالى منَ الهدايات الَّتي توصلُهم إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ، حيث ذُكرت صفاتُه في التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فلا اهتَدَوا إليها بما عندهم منَ النَّقل المقدَّس، ولا بالعقل الَّذي يؤكِّد صدقَ نبوَّتهِ ﷺ، فاجتمعَ له دليلان على نبوَّته: دليلٌ نقليٌّ، ودليلٌ عقليٌّ، ومع ذلك آثروا مكاسبَ الدُّنيا ومتاعَها، كما صوَّر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التّوبة: 9]، مقابل إنكارِ النُّبوَّة؛ فناسَبَ هنا التَّعبيرُ بالخسارة؛ لأنَّ القضيَّة مع أهل الكتاب بيعٌ وشراءٌ، وذلك مجاله الخسارة في رأس المال، والَّذين أنكروا نبوَّته ﷺ، خسروا أنفسَهم، وهو رأسُ مالِهم. وأيضًا لأنَّهم خسروا الجنَّة في مقابلِ ربحٍ قليل في الدُّنيا، وهذا في الميزان التِّجاريِّ الحقيقيِّ عينُ الخسارة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّها وقعت خبرًا لما قبلها، ولأنَّها تفيد ثبوتَ الخسرانِ ودوامَه الحاصل لهم بسبب الكفرِ وعدمِ الإيمان، "وقد علموا أنَّه الصّادِقُ الأَمينُ، وإنْ لجَّ قادتُهم في الخصومةِ حتَّى فَجَروا فيها، وشهدتِ الكتبُ السّابقة والَّذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذِّبون ويشركون؟ فماذا بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال؟ وأيُّ خسارةٍ نفسيَّةٍ أكثر من الفُجر في الخصومة، واللَّجاجةِ في البهتان ؟ حتَّى أصبحوا لا يُتَصوَّر الإيمان منهم"[1].

من لم يُؤمن مع البراهين، لا يستحقُّ أن يُعدَّ مع المؤمنينَ

سرُّ اقترانِ الضَّمير (هم) بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

اقترنَ بالفاءِ لِتضمُّن المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشَّرط، وقيل: "و(الفاء) رابطة لما في الموصول من رائحةِ الشَّرط، و(هم) مبتدأ ثانٍ وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبر (هم)"[2]، وفائدةُ ضمير الفصل: التَّأكيد على عدم إيمانهم، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ به؛ لأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضَين، فكذبوا على اللّٰه بما لا حجَّة عليه، وكذَّبوا بما ثبتَ بالحجَّة والبرهان الصَّحيح[3].

فائدةُ ضميرِ الفصلِ في الآيةِ الكريمة

سرُّ العدولِ عنِ الوصف بالكفرِ إلى نفي الإيمانِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن وصفهم بالكفرِ أو الشِّرك، إلى نفي الإيمان؛ لإظهارِ جمالِ القرآن في عرض الدَّعوةِ، حيثُ يختارُ الألفاظَ الَّتي تفتحُ البابَ للدُّخول في الإسلام والإقبال عليه؛ فمع ما حدثَ من أهل الكتاب في إنكار نبوَّته ﷺ، وحَضِّهِمْ كُفّارَ قريشٍ على عدمِ الإيمان به، لم يَصِفْهُمُ القرآنُ بالكفرِ أو الشِّرك، بل وصفهم بعدمِ الإيمان، وهذا يعني: أنَّ أمرَ الإيمان منهم واردٌ، وفيه حثُّهم على الإيمان بالنَّبيِّ الأكرم ﷺ.

أدبُ القرآنِ في اختيارِ العباراتِ نموذجٌ راقٍ في الخطابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/154.

(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/83.

(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

السِّفر، والكتاب، والصُّحف:

الفروقُ المأنوسةُ للكتابِ وما في حقلِهِ، تحكمُها ضوابطُ الاستعمالِ لكلٍّ منها

قال الرّاغبُ: السِّفْرُ: الكتابُ الكبيرُ الَّذي يُسَفِرُ عنِ الحقائق؛ أي: يكشفُ عنها، وفي القاموس: السِّفْر: الكتابُ الكبير، أو جزءٌ من أجزاء التَّوراة[1]، والكتاب: هو السِّفرُ، وجمعُه أسفارٌ، قال الزَّجاجُ: وإنَّما قيل للكتاب: سِفْرٌ، بكسر السّين، وللكاتب: سافرٌ؛ لأنَّ معناه أنَّه يبيِّنُ الشَّيءَ، ويوضِّحُه[2] قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: 5]، فالمرادُ تشبيهُ حال اليهودِ في جهلها بما معها مِنَ التَّوراة، بحال الحمارِ في جهله بما يحملُ من أسفارِ الحكمةِ[3]. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣﴾ [عبس: 13].

يعني: اللَّوحَ المحفوظ، وقيل: كتب الأنبياء (عليهم السلام)، دليلُه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19][4]، ومن الصُّحفِ: المصحفُ. وقد فرَّق العسكريُّ بين الكتاب والمصحف؛ بأنَّ الكتابَ يكون ورقةً واحدة، ويكون جملةَ أوراق، والمصحفُ لا يكون إلّا جماعةَ أوراق صُحِفَتْ، أي: جُمِعَ بعضُها إلى بعضٍ، وأكثرُ ما يُقال: المصحفُ لمصحف القرآن، والكتابُ أيضًا يكون مصدرًا بمعنى: الكتابة، تقول: كتبتُه كتابًا، وعلَّمتُه الكتاب[5].

(المعرفة) و(العلم):

المعرفةُ تتعلَّقُ بذاتِ الشَّيءِ، والعلمُ يتعلَّق بأحوالِهِ

فعلُ المعرفةِ يقعُ على مفعولٍ واحدٍ، تقول: عرفتُ زيدًا، كقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۖ﴾، وفعلُ العلم يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: 10]، وإن

---

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (سفر).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: (سفر).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/57.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/131.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 447.

وقعَ على مفعولٍ واحدٍ كان بمعنى المعرفةِ، كقولهِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]، والمعرفةُ تتعلَّق بذات الشَّيء، والعلم يتعلَّق بأحواله، فتقولُ: عرفتُ أباك، وعلمْتُه صالحًا عالمًا؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]. فالمعرفة: حضورُ صورةِ الشَّيء، ومثاله العلميُّ في النَّفس، والعلم: حضورُ أحوالهِ وصفاتهِ ونسبتُها إليه، فالمعرفةُ: تشبه التَّصوُّر، والعلم: يشبهُ التَّصديقَ(1).

الفــــرقُ بين النَّفسِ والرُّوحِ، فرقٌ بالصِّفات لا بالذَّات

(النَّفس) و(الرُّوح):

النَّفسُ تُطلَق على أمورٍ، وكذلك الرّوح، فيتَّحد مدلولهُما تارةً، ويختلف تارةً، فالنَّفس تُطلق على الرّوح، ولكن غالبًا ما تُسمَّى نفسًا؛ إذا كانت مُتَّصلة بالبدن، وأمّا إذا أُخذت مجرَّدة؛ فتسمية الرّوح أغلب عليها، والنَّفس: العينُ، يُقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أي: عين، والنَّفس: الذّات، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النّور: 61]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النّساء: 29]، ونحو ذلك، والفرقُ بين النَّفس والرّوح فرقٌ بالصِّفات لا بالذّات، والرّوح لا تُطلَق على البدن لا بانفراده، ولا مع النَّفس، وتُطلَق الرّوح على القرآنِ وعلى جبرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193]، وتُطلَق الرّوح على الهواء المتردِّد في بدنِ الإنسان أيضًا(2).

الإســـــلامُ: هو الانقيادُ لمرادِ الله تعالى، والإيمانُ تصديقٌ بهِ وبما جاءَ منه

(الإسلام) و(الإيمان):

الإسلامُ: هو الانقيادُ لطاعة الله تعالى، وقبولُ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، وبه يُحقَنُ الدَّمُ، فإن كان مع الإظهار اعتقادٌ وتصديقٌ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/314، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/630، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/556.
(2) ابن جبرين، شرح العقيدة الطّحاويّة: 59/7، والتّميميّ، توضيح الأحكام من بلوغ المرام: 3/155.

بالقلب، فذلك الإيمان، وأمّا مَن أظهرَ قبولَ الشَّريعة، واستسلم لدفعِ المكروه، فهو مُسلمٌ في الظّاهر، والإيمانُ لابدَّ أن يكون صاحبُه صدّيقًا؛ لأنَّ قولك: آمنتُ بكذا، معناه: صدَّقتُ به"[1].

والإسلامُ هو تسليم النَّفسِ للّه خالصةً سالمة، لا يجعل لغيره فيها حقًّا، والإيمان هو أن يصدقَ اللّه بالرُّبوبيَّة في نفسه، وفي كلِّ شيءٍ. وهما في الحقيقة واحد، وفي العبارة مختلفان؛ لأنَّه إذا جعل نفسَه وكلَّ شيء سالِمًا للّه تعالى؛ أقرَّ بالرُّبوبيَّة له في نفسه وفي كلِّ شيءٍ، وإذا صدَّقه، وأقرَّ له بالرُّبوبيَّة في نفسِه، وفي كلِّ شيءٍ جعلها للّهِ، وجعل كلَّ شيء له[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 574.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/139.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين خُسرانِ المنكِرينَ، وكونِ الافتراءِ والتَّكذيبِ بالآياتِ سببين له

لمَّا حكمَ اللّهُ تعالى على أولئك المنكِرين بالخسرانِ في الآية الأولى؛ بيَّن في هذه الآية سببَ ذلك الخسرانِ، وهو أمران: أحدُهما: أن يفتريَ على اللّه كذبًا، والآخرُ من أسباب خسرانِهم: تكذيبُهم بآياتِ اللّه[1] الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وقَدْحُهُم في نبوَّته ﷺ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الافْتِراءُ: الكذب، والجمع: فِرًى، يُقالُ: افترى يفتري افتراءً، أي: كَذَب، وقيل: الافتراءُ: الكذبُ العظيم، وقيل: الكذبُ المتعلِّق بالأعراض. ويأتي الافتراءُ بمعنى: البُهتان والظُّلم، وأصله منَ الفَرْيِ، وهو: القطعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أفرَى الذِّئبُ بطنَ الشَّاة، يُفري فَريًا، أي: شقَّه، ومنه الفراءُ وهو الجلد؛ لأنَّه يُقطع، ويأتي الفَرْيِ بمعنى: الصُّنْعِ والاختلاق، وسُمّيَ الكذب: فريةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتري يقتطع الكلامَ اقتطاعًا من تلقاءِ نفسه، ويقطعُ، ويفسدُ في عِرْضِ غيره[2].

2) ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾: الكذبُ: الإخبارُ بخلاف الواقع، وضدُّ الكذب: الصِّدق، ويُطلقُ الكذبُ صفةً للخبر الَّذي بخلاف الواقع، وضدُّه الحقيقة. ومن معاني الكذب أيضًا: الجُحودُ، والافتراء، والزَّيف، والخِداع، والخطأ[3]، وقد شنَّع اللّه بالكذب، وجعل الكاذبَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/501، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172.
(2) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فرا).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).

أسوأَ النّاس عاقبةً، وجعل مصيرَه إلى الخسران، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يونس: 69]. ولفظا (كَذَبَ) و(كَذَّبَ) من هذا الباب، قال أبو حيّان: "قيل: هما بمعنًى واحدٍ نحو كثر وأكثر، وقيل: بينهما فرقٌ، حكى الكسائيُّ أنَّ العرب تقول: (كذَّبتُ الرَّجل)، إذا نسبتَ إليه الكذب، وأكذبتُه إذا نسبتَ الكذبَ إلى ما جاء به، دون أن تنسبه إليه، وتقول العرب أيضًا: "أكذبتُ الرُّجلَ؛ إذا وجدتَه كذّابًا، كما تقول: أحمدتُ الرَّجل؛ إذا وجدتَه محمودًا، فعلى القول بالفرقِ يكون معنى التَّخفيف: لا يجدونك كاذبًا، أو لا ينسبون الكذبَ إليك، وعلى معنى التَّشديد يكون إمّا خبرًا محضًا عن عدم تكذيبهم إيّاه... وإمّا أن يكون نفي التَّكذيب لانتفاءِ ما يترتَّب عليه من المضارِّ"(1).

3) ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾: الفَلْحُ: الشَّقُّ، وقيل: الحديدُ بالحديد يُفلَحُ، أي: يُشَقُّ، والفلّاح: الأكّار لذلك. والفَلاحُ: الظَّفَر وإدراك بُغْيَة، وذلك ضَرْبان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفر بالسَّعادات الَّتي تطيب بها حياة الدُّنيا، وهو البقاءُ والغِنى والعزُّ، وفلاحٌ أخرويٌّ: وذلك أربعةُ أشياء: بقاءٌ بلا فناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعِلمٌ بلا جهلٍ(2).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا أظلمَ ممَّن يفتري على اللهِ الكذب، أو يكذِّب بالدِّين الحقِّ

لا أحدَ أظلمُ من شخصٍ افترى على اللّه كذبًا، واختَلَق بُهتانًا، حيث قال: إنَّ للّه شريكًا، وله ولدٌ، أو كذَّب بحُجَجه وبراهينه الَّتي أنزلها على رسوله، وبآياته الكونيَّةِ والشَّرعيَّة الَّتي تدلُّ على وحدانيَّتِه ﷻ؛ فهو الحقيقُ بالعبادة، ولا يُشْرَكُ معه آلهةٌ أخرى، ومَن أشركَ؛ فهو ظالمٌ، ولا فلاح له في الدُّنيا ولا في الآخرة(3).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/488، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 7/67.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ على ما قبلَها:

أعظمُ الظُّلم افتراءُ الكذبِ على الله

هذه الجملةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ وذلك لشدَّةِ الاتِّصال بينهما، حيثُ ذُكِرَ في الآية السّابقة الحُكْمُ بالخسرانِ على المنكِرينَ، وفي هذه الآيةِ بيانُ أسبابِ ذلك الحكم.

فائدةُ العدولِ منَ النَّفيِ إلى الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

السِّياق القرآنيُّ يـريـدُ إرادةً مـقـتـنـعـةً، لا موافقةً منتزَعةً

تظهرُ فائدةُ العدولِ عنِ النَّفي إلى الاستفهام في إيقاعِ المخاطَب، واستدراجِه نحو الاقتناع والإقرارِ بما جاء في مضمونِ الاستفهام، وأيضًا يحملُ الخصمَ على الإقرارِ بهذا النَّفي، أي: أنَّه يدفعهُ إلى الإقرارِ بما يتضمَّنهُ تركيبُ الاستفهام، بخلاف مجرَّدِ النَّفي؛ فهو يزيد منَ الخصومةِ الواقعةِ أساسًا، ذلك أنَّ في النَّفي دحضًا للرَّأي المُخالف والرَّدِّ عليه، والقرآن الكريم عمومًا، لم يأتِ لدعم الخصومات، وتضخيم الخلافاتِ، بل جاء لاحتواءِ المخالفين، وتغيير مواقفهم، وكسبِ تأييدهم، والسَّعي إلى إقناعهم.

ومعنى الاستفهام هنا: النَّفيُ، أي: لا أحدَ أشدُّ وأعظمُ ظلمًا منَ الَّذي كذَّب بآياتِ اللّٰهِ الَّتي بلَغَتْ أعلى غاياتِ العظمة[1]؛ بهذه الصّيغة البليغة، فقد نفى ﷻ أن يكون أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه، من هذا الَّذي يتقوَّل على اللّٰه الكذبَ؛ ليصدَّ النّاسَ عن دين اللّٰه بجهلهِ وسَفَهِه[2]، ولا شكَّ أنَّ النَّفي بهذه الصّيغة أبلغُ منَ التَّصريح به، خاصَّة أنَّ الآية - كما يظهر منَ السّياق - جاءَت لمخاطبة المكذِّبين على اللّٰه، وهي أعلى درجاتِ الظُّلم، وفي هذا الإقرارِ إلزامٌ لهم بقبول الحجَّة من مجرَّد النَّفي، وردِّ الرَّأي المُخالف[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/258.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/296.

(3) المحاقريّ، بلاغة الحجاج في سورة الأنعام، ص: 152.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أفعل) التَّفضيلِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أشدُّ الظَّالمين ظلمًا من اكتسب من افترائه مذمَّةً وإثمًا

عبَّر بـ(أفعل) التَّفضيل ﴿أَظۡلَمُ﴾، للدَّلالة على مدى جسامةِ ظلم هؤلاءِ المفترين، ووصولهم إلى أعلى درجاتِ الظُّلم، وذلك بالافتراءِ على اللهِ تعالى في نسبةِ الولد والصّاحبة له سبحانه، والتَّكذيب بالآيات، وإنكار نبوَّة رسول الله ﷺ، ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، أي: أكفر، قال الحسن: "فلا أحدَ أظلمُ ممَّنِ افتَرى، اختلق عَلَى اللهِ كَذِبًا، فأشرك به غيره، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ يعني: القرآن"[1]، والمعنى: من أشدُّ ظلمًا ممَّن اختلقَ على الله قول الباطل، أو جَحَد آياته[2]. والتَّعبيرُ في سياق الاستفهام باسم التَّفضيل دلالةٌ على التَّبشيع والتَّهويل، ممّا يضفي على الاستفهام هالةً من الرَّهبة بتصوُّر ما تَسِمُهُ به آياتُ الكتاب المبين بوصفه بأقبح الظُّلم إلى يوم الدّين.

دلالةُ اختيارِ (مَنْ) بدلًا من (الَّذِي) في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

من قال في الدِّين بالافتراءِ والهوى؛ فقد ضلَّ السَّبيلَ وهوى

اختارَ التَّعبير بـ(مَنْ) الموصوليَّة للدَّلالة على العموم، والمعنى: كلُّ مَن افترى أو قال على الله كذبًا، وليس المرادُ فردًا مُعَيَّنًا؛ فالمشركون، مثلًا: منَ الَّذين افتروا على الله كذبًا؛ لأنَّهم حلَّلوا، وحرَّموا بهواهم، وزعموا أنَّ الله تعالى أمرهم بذلك، كما أنَّ هناك غيرَهم ممَّن يدخل تحت هذه الآية[3].

دلالةُ اختيارِ الوصفِ بالظُّلمِ دون غيرِه في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

لفظُ الظُّلم أنسبُ وأشملُ؛ لأنَّ الكفرَ والشِّركَ من أفرادِ الظُّلم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالظُّلم؛ لأنَّ الظُّلم في الأصل وضعُ الشَّيءِ في غير موضعه، ومشركو مكَّة وضعوا الآياتِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّة الَّتي كان ينبغي عليهم أن يستدلّوا بها على الوحدانيَّة لله ربِّ العالمين، بدلًا من نسبةِ الشِّرك إليه سبحانه، في غَيرِ مَوضِعِها.

---

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/141.
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1982.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/375.

وأيضًا لأنَّ الظُّلم يُطلق على مجاوزة الحقِّ، وهم قد جاوزوا الحقَّ في اتِّخاذ الشُّركاء من دون اللّهِ، وجاوز أهلُ الكتاب الحقَّ في إنكار نبوَّته ﷺ، وفيه إشارةٌ إلى العموم؛ فيشمل الظُّلم بينَ الإنسانِ واللّهِ تعالى، وأعظمه الكفر والشِّركُ والنِّفاق، وغَيْرُهُ مِن أفْرادِ الظُّلْم. والَّذين افتروا على اللّه كذبًا، وكذَّبوا بآياتهِ، جمعوا بين هذه الصِّفات، وبذلك يكون اختيارُ لفظ الظُّلم هو الأنسبُ؛ لأنَّ لفظَ الكفرِ أو الشِّرك، لا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنَّهما من أفراد الظُّلم.

دلالةُ (مَنْ) الموصوليّة وصِلَتِها في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

التَّحذيرُ مِن ظلمِ الافتراءِ وفحواه مخافَةَ سوءِ عقباه

نكتةُ هذا التَّعريف - واللّه أعلم - التَّنصيصُ على اتِّصافهم بما في حيِّز الصِّلة من وصف، والإشعارُ بعلَّة الحكم أو وجه بناءِ الخبرِ؛ لأنَّ مَن ثبت له مضمونُ تلك الصِّلة، كان حقيقًا بأن لا أحدَ أظلمُ منه[1]، وقد جاءت أداة الموصول (مَن) وجملةُ الصِّلة ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، في سياق الاستفهام الَّذي وردَ للتَّوقيف والتَّقرير، وكان المعنى: "لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترى، وافْتَرى معناهُ: اختلق، والمكذِّب بالآيات مفتري كَذبٍ، ولكنَّهما مَنْحَيان من الكفرِ، فلذلك نُصّا مُفسَّرَين"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (افتراء) دون غيرِه من المرادفات القريبةِ الدَّلالةِ:

الافتراءُ الإجادةُ في التَّلفيق، وإلباسُ الباطلِ ثوبَ الحقِّ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالافتراءِ؛ لأنَّه كذبٌ مزيَّن مبالَغٌ فيه؛ فظهر في ثوب جميلٍ؛ لأنَّ أصله منَ الافتراء، ومنه لَبِسَ الفراءَ بقصد التَّجمُّل، وعلى ذلك؛ فالافتراءُ في الكذب يدور حول الإجادةِ في التَّلفيقِ، وإلْباسِ الباطلِ ثوبَ الحقِّ، وهذا ما برع فيه اليهودُ في افتراءاتهم على اللّه تعالى، حتَّى قال القرآن في حقِّهم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النّساء: 50]، فَسُمّيَ كذبُهم: افتراءً؛ لأنَّه ليس كذبًا معتادًا، بل تقوَّلوا على اللّه، وبدَّلوا،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.

(2) ابن عطية الأندلسّي، المحرّر الوجيز: 2/277.

وحرَّفوا كتابهم، ومن ذلك تحريفُ البشاراتِ الواردة في شأن نبوَّة نبيِّنا ﷺ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾:

مَنْ تطاوَلَ على اللهِ بما افتراهُ سَحَقَتْهُ قدرةُ الله

قُدِّم الجارُّ والمجرور من باب التَّشنيعِ على افترائِهم، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يفتروا على اللّه؛ لأنَّه لا يغيب عن علمهِ شيءٌ؛ فلو جازَ لهم أن يفتروا على النّاس، ويجمِّلوا كذبَهم، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك مع اللّهِ، وذلك لِعِظَمِ ما يفعلون، وقدرةِ المُتَطاوَلِ عليه بالإفك، أن يَقْصِمَ ظهورهم، ويُصيبَهم بعذابٍ، من حيثُ لا يحتسبون.

تقديمُ الافتراءِ على الكذبِ:

جناس الاشتقاق؛ وإفادتُهُ قباحةَ الكذبِ ودناءتَهُ

في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: قُدِّم الافتراءُ؛ لأنَّه الكذبُ المتعمَّدُ، وقولهُ: ﴿كَذِبًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ له، وهو أعمُّ من الافتراء، والتَّأكيد يحصل بالأعمِّ، وقد ذكرتِ الآيةُ الكريمة نوعين للكفر: افتراءَ الكذب على اللّه تعالى، ثمَّ التَّكذيبَ بآيات اللّه تعالى، وقُدِّم النَّوعُ الأوَّل على الثّاني لشناعةِ الأوَّل؛ ولأنَّه أَقْبَحُ منَ التَّكذيب بآياتِ اللّه، وفيه تعمُّدٌ لارتكاب هذا الإثم، واختلاقِ أمورٍ يَنْسِبُها المفتري إلى اللّه، وهو يعلم يقينًا أنَّه كاذبٌ فيها. وكثيرًا ما يجتمع هذان النَّوعان في كافرٍ واحد، مثل: افتراء أهل الكتاب الكذبَ على اللّه كادِّعائهم الصّاحبةَ والولدَ للّه سبحانه، ثمَّ تكذيبهم بالقرآن رسالة خاتم النَّبيّين ﷺ.

أضف إلى ذلك أنَّ السّياق تضمَّن جناسَ اشتقاقٍ بين ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾؛ ليفيدَ قباحةَ الكذب ودُنوَّهُ.

دلالة ﴿أَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾:

كلُّ لونٍ من الكذبِ والتَّكذيبِ، هو غايةُ الإفراطِ في الظُّلم

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ لإفادةِ الجمع بين الكذب والافتراء، ولذلك وصَفهم ربُّنا بالظّالمين؛ لأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضين: فَكَذَبوا على اللّه

تعالى بما لاحُجَّةَ فيه، وكذَّبوا بما ثبتَ بالحُجَّة البيِّنة والبرهان الصَّحيح[1]. وممّا تدلُّ عليه ﴿أَوۡ﴾: أنَّهم جمعوا بين الافتراءِ والكذبِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلًّا منهما وحده بالغٌ غايةَ الإفراطِ في الظُّلم على النَّفْس[2].

دلالةُ التَّضعيفِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ الفعلَ (كذَّب)، مُضَعَّفًا دونَ: كَذَبَ، مع اشتراكهما في أصل التَّكذيبِ؛ لأنَّ كذَّب كلمةٌ تقتضي أنَّه بذل جهدًا في تكذيب آياتِ اللّه، وذلك بمحاولةِ طمسِ معانيها، وإبطالِ دلالتها، وإلقاءِ الشُّبهِ عليها، وفيه إشارةٌ إلى إعلانِ عداوتِه للّه ولرسوله، حيث انتقلَ منَ الكذبِ إلى التَّكذيب. وهو بالتَّضعيف: "تكذيبٌ لآيات اللّه، بتأويلِها تأويلًا فاسدًا، وحَمْلِها على مفاهيمَ منكرةٍ، تَحْجُب وجْهَ الحقِّ فيما في كتابهم من دلائلَ، تدلُّ على النَّبيِّ، وتحدِّد صفتَهُ، وصفةَ رسالتِهِ"[3].

من جمعَ بينَ الكذبِ والتَّكْذيبِ، فقد أعلنَ عداوتَه للهِ ولرسولِهِ

دلالةُ دخولِ حرف الجرِّ على قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

أفاد دخولُ (الباء) تلبُّسَه بالكذبِ، وكأنَّهُ لبِسَ ثوبَ الكذبِ؛ فلا ينفكُّ عنه؛ فكلَّما وجدَ آيةً من آيات اللّه تصدَّى لتكذيبها، وتكذيبِ مَن يؤمن بها، "ومن افترى على اللّه كَذِبًا، أو كذَّبَ بآياتِه يكون أظلمَ الظّالمين، ولا يفلحُ الظّالمون يومَ الحساب بالنَّجاة من عذابِ اللّه في النّارِ، ولا يفوزون بنعيم اللّهِ في الجنَّة"[4].

من تلبَّسَ بالكذبِ؛ استهانَ بالجُرأةِ على آيات اللهِ، فَهَلَكَ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ دون القرآن، في قوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ لأنَّها أعمُّ؛ فتشمل الآياتِ الكونيَّةَ والآياتِ القرآنيَّةَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تكذيبِه للدَّليل

التَّكذيبُ بالآياتِ الكونيَّة أوِ القرآنيَّة، كلاهما تطاولٌ وضلالٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2467.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/49.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/147.

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 811.

النَّقليِّ والعقليِّ، ويلاحَظ أنَّ المشركين جمعوا بين الكذبِ على اللّه، والتَّكذيبِ بآياتِ اللّه، الدّالَّةِ على التَّوحيدِ، وعلى إثباتِ رسالةِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ[1].

دلالةُ تعريفِ كلمةِ (آيات) بالإضافةِ في قوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

وجوبُ التَّصديقِ بكلِّ آياتِ اللهِ المعجزةِ من مطلوباتِ الدِّين المتين

أُضيفتِ الآياتُ إلى الضَّمير العائد إلى اسم الجلالة (اللّه)، تعظيمًا لها، وتهويلًا للتَّكذيب بها، وتنبيهًا على أنَّ تكذيبَ أيِّ آيةٍ من آيات اللّه تعالى، كافٍ في الأظلميَّة... فما الظَّنُّ بتكذيبِ القرآنِ المنطوي على الكلِّ؟! وفي هذا زيادةُ إنكارٍ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممَّن فعل ذلك[2]. وفيه إشارةٌ إلى وجوبِ التَّصديق بكلِّ آياتِ اللّه؛ فمَن آمن ببعضِها، وكفرَ ببعضها؛ فقد كفرَ بالجميع.

دلالةُ فاصلةِ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

لا فلاحَ للظَّالمين في الدُّنيا، ولا فوزَ لهم في الآخرة

دلَّت هذه الفاصلةُ على بشارةٍ للمظلومين الَّذين ظُلِموا من أعدائِهم بالاستهزاءِ بدينهم وبقرآنهم؛ فكلُّ مَن تُعدّيَ عليه في دينِه أو مالِه أو عرضِه؛ لَنْ يَنالَ ظالِمُه الفَلاحَ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، والحقيقةُ أنَّه "ليس أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه وللحقِّ ممَّن افترى على اللّه الكذب، وادَّعى أنَّ له ولدًا أو شريكًا، أو نسبَ إليه ما لايليق، أو أَنكر أدلَّتَه الدّالَّةَ على وحدانيَّته وصِدْقِ رسلِه، وعلى قدرِ عِظَمِ الجَريرَة، كانت النَّتائجُ الأولى والأخيرة، حيثُ إنَّ الظّالمين لا ينالون فوزًا بخير في الدُّنيا ولا في الآخرة"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

تأكيدُ نفيِ الفلاحِ عنِ الظَّالمِ من خلالِ الآيةِ الكريمة

خُتمتِ الآية بهذه الجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تفيد الثُّبوتَ والدَّوامَ في نفيِ الفلاحِ عنِ الظّالمين، والمعنى: "لا أحدَ أشدُّ ظُلمًا من أولئك

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/164.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

المشركين الَّذين كذَّبوا باللّه وملائكته وكُتبه ورسلِه واليوم الآخر، وإنَّ هؤلاءِ الَّذين سقطوا في أقصى دَرَكاتِ الكذبِ لن يفوزوا، ولن يفلحوا"[1]، وذلك أشبهُ بالقانون الكونيِّ الَّذي يطال الظَّلمَةَ المفترين على اللّه كذبًا، والمكذِّبين بآياته.

دلالةُ التَّأكيدِ بالأداةِ: (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

إنَّ الله تعالى، يمهلُ الظَّالم، حتَّى إذا أخذهُ لم يُفْلِتْهُ

أُتي بـ (إنَّ) الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ؛ لدفع توهُّمٍ في واقع النّاس من فلاحِ بعض الظّالمين؛ فجاء التَّأكيد ليدفع هذا الوهم، وليشير إلى أنَّ ما يراه النّاس من دعوى الفلاحِ لبعض الظّالمين في بعض الأوقات، هو فلاحٌ مقيَّدٌ؛ يفلح في زمن معيَّنٍ أو مكان معيَّنٍ أو قضيَّةٍ معيَّنةٍ، وهذا لا يعني فلاحًا، بل هو إمهالٌ، يُعطى للظّالم حتَّى يغترَّ بما هو فيه، فيتمادى في ظلمِه، ثمَّ يأخذُه اللّه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

دلالةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مـن طـالـهُ عـذابُ الـلـهِ، تجدَّدَ له الألمُ والحِرمانُ، كلَّما عصى الرَّحمنَ

جاء الخبرُ جملةً فعليَّة منفيَّة في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ ليفيد التَّجدُّدَ والاستمرار، كلَّما كذَّبوا أو افتروا، وقد نفى فلاحَهم، فَعَمَّ كلَّ فلاحٍ في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ الفلاحَ المعَتدَّ به في نظر الدّين في الدُّنيا هو الإيمانُ والعمل، وهو سبب فلاحِ الآخرة[2]. والمعنى المستفادُ من السّياق أنَّه: "لا يَسْعَد مَنْ جحدَ ربوبيَّةَ ربِّه، وكذَّب رسلَه، وهم الَّذين ظلموا أنفسَهم بإهلاكها بالعذاب"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بوضعِ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

ردُّ الـعَـجُـزِ عـلى الـصَّـدْرِ، وأهـمـيَّـتُـه في رسـوخِ المعنى وجمالِه

وضَعَ الظّاهرَ موضعَ الضَّميرِ، والقياس أن يُقال: (إنَّهم لا يُفلحون)، ولو ذَكر الظّاهرَ؛ لقيل: (لا يفلحُ المفترون)، "لكن صرَّحَ بالظُّلمِ تنبيهًا على أنَّ عِلَّةَ عدمِ الفلاحِ هي الظُّلمُ"[4]، وفيه ردُّ العَجُزِ

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/55.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172.

(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 348.

(4) الزّركشّي، البرهان: 2/493.

على الصَّدْرِ، حيث وافقتْ كلمةُ (الظّالمون) - وهي آخر كلمة في الكلامِ - كلمةَ (أظلم) في صدْرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفيِ الفلاحِ دونَ غيرِه في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الفلاحُ في الدُّنيا غفرانٌ، وعدمُه في الآخرة حرمانٌ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ نفيَ الفلاحِ دونَ غيرِه، كالفوز؛ لأنَّ الفلاحَ هو عبارةٌ عن حصول الخيرِ والنَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، والظّالم لمّا أعرضَ عن آياتِ اللّهِ من أجل منافعَ شخصيَّةٍ في دنياه، دون نظرٍ إلى أُخراه، عاقبَهُ اللّه بهذا الحرمانِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما أصابه بما قدَّمت يداهُ.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دون (الأظلمون):

الظُّلمُ يترك سيِّئَ الأثرِ، وهو وخيمُ العُقبى قَلَّ أو كَثُرَ

أتى التَّعبيرُ القرآنيُّ في الآية بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يأتِ بـ (الأظلمون)، جريًا على الظّاهر، والدّاعي البلاغيُّ للعدول عن الأظلميَّة إلى الظّالميَّة: أنّه لو قيل: لا يفلح الأظلمون؛ لكان مفهوم هذه العبارةِ أنَّ (الظّالمين) الأقلَّ ظلمًا منَ الأظلميَّة قد يفلحون، وتأكَّد من باب أَوْلى خسرانُ الأظلمين؛ لأنَّ قليلًا منَ الظُّلم، صار سببًا في الخُسران، فما بالُك بكثيرِ الظُّلم؟ إنَّه أتعسُ حالًا من قليل الظُّلم(1).

التَّشابهُ بين آيتي الأنعامِ ويونسَ في: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

أوّلًا: قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17].

التَّشابهُ بين ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، و﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

والجوابُ عنه أن يُقال: إنَّ ما تقدَّم الآيةَ الأولى من قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/295.

شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ جُمَلٌ عُطِفَ صدورُ بعضِها على بعضٍ بالواو، ولم تتعلَّق الثّانية بالأولى تعلُّقَ ما هو من سببها، فأجرى قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ مجراها، وعطف بالواو عليها. وأمّا الآية الثّانيةُ؛ فإنَّ ما قبلها عُطِفَ بَعْضُها على بعضٍ بالفاء، فتعلَّق كلُّ ما بعد الفاء بما قبله تعلُّقَ المسبَّب بسببه؛ فعُطف بعضُ هذا الكلامِ على بعضٍ بالفاء. وفي الأعراف أيضًا: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ بالفاء، فالجوابُ عنه مثل ما مضى.

اختصاصُ خَتْمِ الأولى بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والثّانيةِ بقوله: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

والجواب عنهُ أنّه لمّا قال في الآية الأولى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وكان المعنى: أنَّه لا أحدَ أظلمُ لنفسهِ ممَّن وصفَ اللّه تعالى بخلاف وصفه، فأوردها العذابَ الدّائم، كان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ عائدًا إلى مَن فعلَ هذا الفعلَ، فبناء الآخر على الأوَّل اقتضى أن يكون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وأمّا الآية الثّانيةُ في سورة يونسَ وتعقيبُها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، دون قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وإن كان الوصفان لفريق واحد؛ فَلأنَّها تقدَّمَتْها الآية الَّتي تضمَّنتْ وصْفَ هؤلاء القوم بما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13]، فوصفَهم بأنَّهم مجرمون عند تعليقِ الجزاء بهم[1].

تَوَهُّمُ التَّعارُضِ بَيْنَ ظاهرِ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وغَيْرِهما:

وممّا يُذكر في هذا السّياق فيما قد يُتَوَهَّمُ من ظاهره التَّعارضُ بين هاتين الآيتين وغيرهِما في مثل هذا الأسلوب، يُقال: لا تعارضَ بين هذه الآيات؛ فجميعُ هذه الأشياءِ المذكورة في الآيات اشتركت في المرتبةِ العليا في الظُّلم؛ فكلُّها في مقام الأَظْلَميَّة؛ لأنَّ أفعلَ التَّفضيل لا يمنع التَّساوي، ولكن يمنعُ الزّيادة، وعلى هذا؛ فهؤلاءِ المذكورون في مثل هذا الأسلوب القرآنيِّ لا يوجد أحدٌ أظلمُ منهم؛ فهم متساوون في مرتبة الظُّلم. وممّا يُقال أيضًا: إنَّ هذه المواضع تُخَصَّص بِصِلاتها، ومعناه: أنَّ كلَّ موضعٍ من هذه الآيات يفصلُ بصلةِ موصوله؛ فكلُّ واحدةٍ منهم تختصُّ ببابها، ويكون المعنى: لا أحدَ أظلمُ ممَّنِ افترى على اللّه كذبًا، ولا أحد منَ المانعين أظلمُ ممَّن منعَ مساجدَ اللّه[2].

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/498 - 502، والكرمانيّ، البرهان، ص: 106، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/149 - 151.
(2) الزّركشي، البرهان: 4/74.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الظُّلم) و(الجَوْر):

الظُّلمُ نقصانٌ في الحقوقِ، والجورُ حيفٌ وتسلُّطٌ وعقوقٌ

أصلُ الظُّلمِ نقصانُ الحقِّ، والجَور: العدول عنِ الحقِّ، وخُلْفٌ بين النَّقيضين، فقيل في نقيض الظُّلم: الإنْصاف، وهو إعطاء الحقِّ على التَّمام، وفي نقيض الجَورِ: العدل، وهو العدول بالفعلِ إلى الحقِّ[1]، وقد "جمع لأعدائهِ المعرضين عن منهجهِ عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة، لا ظُلْمًا منه، فهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن الظُّلم والجَوْر، بل عَدْلًا وقِسطًا بما نَسوا آياتِ اللّه، وانصرفوا عنها"[2].

(الافتراء) و(الكذب):

الكذبُ: ما خالفَ الواقعَ والاعتقادَ، والافتراءُ: اختلاقُ ما يؤذي

الكذبُ: مخالفةُ الخبرِ للواقعِ أو الاعتقادِ، وهو أيضًا اسمٌ موضوعٌ للخبرِ الَّذي لا مخبرَ لهُ على ما هو به، سواءٌ كان الكذبُ فاحشَ القبحِ، أم غير فاحش القبح، والافتراء: كذبٌ مبالغ فيه، قد أُعِدَّ إعدادًا متقنًا، فظهر في ثوبٍ جميلٍ، وهو مأخوذٌ من لبس الفراءِ بقصد التَّجمُّل، وفرَّق العَسْكَريُّ بين الكذبِ والافتراءِ، بأنَّ الكذب هو عدمُ مطابقة الخبرِ للواقعِ، أو الاعتقاد المُخبر له على خلافٍ في ذلك، والافتراء أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الآخرِ بما لا يُرضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسِه، وأيضًا قد يحسن الكذبُ على بعضِ الوجوه، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذات البين، بخلاف الافتراءِ[3].

(الظَّفر) و(الفوز) و(الفلاح):

الظَّفَرُ: هو العلوُّ على المُناوِئ المُنازِعِ، وقد يُستعملُ في موضع الفَوزِ، ولا يُستعمل الفوزُ في موضع الظَّفَر، والفلاحُ: نيلُ الخير،

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172 - 341 - 342.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي (الخواطر): 14/8391.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 224.

الظَّفَرُ: يُستَعمل في الفَوز، والفلاحُ: خيرٌ يرقى، ونفعٌ يبقى

والنَّفع الباقي أثرُه، ويُقال أيضًا لكلِّ مَن عَقل، وحزمَ، وتكاملت فيه خِلالُ الخيرِ: قد أفلح[1]. قال صاحبُ المنار: "الظَّفرُ مقرونٌ بالصَّبر، وبالظَّفر حفظُ الحقِّ الَّذي يناضلُ من يجاهد في سبيلِ الله دونَهُ، ويدافعُ عنه، ويحاولُ إظهاره، ويبغي انتشاره، وهذا هو المأمورُ من الله تعالى بالصَّبر حين البأسِ"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 340 - 321.

(2) رضا، تفسير المنار: 2/98.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾ [الأنعام: 22]

العلاقةُ بين مصيرِ الكذبةِ المفترين، وبين حشرهم مع شركائهم المزعومين

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا دلَّتِ الآيةُ السّابقة على أنَّ الَّذين خَسِروا أنفسَهم، وأنَّهم أكذبُ النّاس وأشَدُّهُم افتراءً على الله - دلَّل على كذبهِم وافترائهِم، بسؤالهِم في يوم الحَشْر عن شركائهِم الَّذين كانوا يعبدون. وأيضًا لمّا خُتمتِ الآيةُ السّابقة بنفي الفلاح عنِ الظّالمين؛ جاءت هذه الآيةُ لِتُبيِّنَ أنَّهم يجدون ذلك - فَضْلًا عنِ الدُّنيا - في يوم الحشر، عندما يقفُ هؤلاء الَّذين ظَلموا ومعبوداتُهم في أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافات: 22 - 23].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾: الحشْرُ: الجمعُ، يُقال: حَشَرْتُ مالي، أَحشُرُه، حَشْرًا، أي: جمعتُه، ومنه سمّيتِ الحشراتُ بذلك؛ لاجتماعِها وكثرتها، والمَحشَر: الموضعُ الَّذي يُجتمَع فيه. ويأتي الحَشرُ بمعنى السَّوْق، فيُقال: حشرَ إبلَه، أي: ساقَها، والحَشرُ أيضًا: الطَّرد والإخراج عنِ الأوطان ومن معانيه: الإزعاجُ، والتَّدقيق، والتَّلطيف[1]، والحَشْر: جمعُ الأقوام من كلِّ (صُقْعٍ) في مَوضِع واحِدٍ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم: 85][2].

2) ﴿تَزۡعُمُونَ﴾: الزَّعمُ: حكايةُ قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، يُقال: أمرٌ فيه مزاعم، أي: أمرٌ غير مستقيمٍ فيه منازعةٌ بعد؛ ولهذا جاء

(1) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/314.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (حشر).

في القرآن في كلِّ موضع ذُمَّ القائلون به، نحو: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [التّغابن: 7]، وقيل: للمُتكفِّل والرَّئيس: زعيمٌ؛ للاعتقاد في قوليهما أنَّهما مَظِنَّةٌ للكذب، قال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]، وقوله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠﴾ [القلم: 40]، إمّا منَ الزَّعامة، أي: الكفالة، وإمّا منَ الزَّعم بالقول[1].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

عند الحَشْرِ الأكبرِ، يُنادى على الشُّركاء المزعومين، ولكنَّهم لا ينفعون

واذكُرْ يومَ القيامة حين نجمعُهم جميعًا، لا نغادرُ منهم أحدًا، ثمَّ نقولُ للَّذين عبدوا مع اللّه غيرَه توبيخًا لهم: أينَ شركاؤكمُ الَّذين كنتُم تدَّعون كاذبين أنَّهم شركاءُ للّه؟[2]، هنالك تتهافتُ المعبوداتُ، وتَبْطُل الأباطيلُ، ولا يبقى إلّا ملكُ اللّهِ الجليل، فتوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت، وهم لا يُظلَمون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

تسليةُ اللهِ لنبيّه ﷺ، تثبيتٌ له في مواجهةِ المشركين

قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾، عطفٌ على جملة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أو على جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لما بينهما من شدَّة الاتِّصال، فإنَّ مضمونَ هذه الجملِ المعطوفة له مناسبةٌ بمضمون جملة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، ومضمونِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّ مضمونَ هذه من آثار الظُّلم، وآثارِ عدم الفلاحِ، ولأنَّ مضمون الآيةِ جامعٌ للتَّهديد على الشِّرك والتَّكذيب، ولإثباتِ الحشر، ولإبطالِ الشِّركِ.

دلالةُ النَّصبِ للَّفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

جاءت كلمةُ ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوبةً على المفعوليَّة بفعلٍ مُضمَرٍ مُقدَّمٍ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زعم).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 130.

ذكر الظَّرفَ تنويهًا بهولِه، وإبرازًا لما يحدثُ فيه من عظائمَ

تقديرُهُ: اذكُرْ أوِ انظُرْ؛ تهويلًا للأمر، وللتَّخويفِ، والتَّحذيرِ، وفيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بذِكرِ مآلِ المكذِّبين له. ويجوز أن تكونَ منصوبةً لمحذوف مُتأخِّرٍ، تقديرُهُ: (ويوم نحشرُهم ... كان كَيْتَ وكيتَ)؛ فتُرِكَ ليبقى على الإبهامِ الَّذي هو أَدْخَلُ في التَّخويف، وقد قُدِّر الفعلُ المتروكُ هذا ماضيًا ليدلَّ على التَّحقُّق[1]. و﴿وَيَوْمَ﴾: هو يومُ الحشر، يوم القيامة، وجاء بصيغة النَّكرةِ للتَّهويلِ والتَّعظيم.

"انتصب ﴿وَيَوْمَ﴾ بمحذوفٍ تقديرُهُ: واذكر يومَ نحشرُهم، قال ابن جرير: والمعنى: لا يُفلحونَ اليومَ، ولا يوم نحشرُهم"[2].

إيثارُ لفظِ (الحَشْر) على (الجَمْع) في قولِه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾:

تصويرُ حالةِ المخلوقاتِ في صعيدِ المحشرِ الهولِ

آثر القرآنُ الكريمُ الحشرَ دون الجمعِ؛ لأنَّ الجمعَ له معنًى يختلفُ عنِ الحشرِ؛ فالجمعُ ضمُّ الشَّيء بتقريبِ بعضهِ من بعضٍ؛ يُقال: جمعتهُ فاجتمعَ، بخلاف الحشرِ: فهو إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وعلى ذلك؛ فالجمعُ يكون للمتفرِّق، وضمِّ الأجزاء بعضِها إلى بعضٍ؛ أمّا الحشرُ؛ فهو جمعٌ وزيادة؛ فكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا. وأيضًا الحشر فيه معنى السَّوق؛ لذلك قالوا: إنَّ معنى الحشرِ هو السَّوْقُ إلى أرضِ المحشرِ للحساب والجزاءِ، والجمع: (جمع الخلائق في أرض المحشر). وأيضًا: إنَّ التَّعبير بالحشرِ يشيرُ إلى كثرةِ الأعداد، بالنِّسبة للمكان؛ لذلك كان التَّعبيرُ القرآنيُّ مناسبًا لتصوير حالةِ الزِّحام الموجودة في أرض المحشر، حيثُ لم يقتصر الحشرُ على الإنسان، بل جمعَ معه ما عبَدَه من دون اللّهِ، وفي هذا منَ التَّهويلِ والتَّفظيعِ ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ ليصوِّرَ حالةَ الحشر للمشركين مع

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/463، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/119.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/16.

لا أعظمَ من موقفِ الحشرِ المهولِ في عَرَصاتِ القيامةِ

أصنامِهم، وكأنَّك تراهم في أرض المحشر، يُحشرُ كلُّ صنم مع عابده، قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافات: 22 - 23]، والمعنى: أي: نجمعُهم بما لنا من هَيْمَنةٍ وسطوةٍ وعظَمةٍ، وهم كارهون مذلولون صاغرون، لا حولَ لهم ولا قوَّة، والمقصودُ بهم أهلُ الكتاب والمشركون، والمخلوقون كلُّهم بلا استثناءٍ، ومعهم معبوداتهم الَّتي كانواْ يعبدونها لتقرِّبهم إلى اللّه زُلفى، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظمةِ ذلك اليوم، وطولِه ومشقّاته وأهوالِه، مع التَّعبيرِ بفعل ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، على حشر البشريَّةِ كلِّها في صعيدٍ واحدٍ أمامَ اللّه ربِّ العالمين.

دلالةُ ضميرِ الجمعِ (هم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

تقليلُ شأنِ المشركينَ ومَعْبوداتِهِمْ

دلَّ ضميرُ الجمع على المشركين وأصنامهم، وفيه إشارةٌ إلى التَّهوين من شأنهم؛ لأنَّهم في حكم الغَيْبَةِ، فلا يأبه بهم، ولا يتكلَّم معهم، ومن موقف الحوارِ، ينتقل هؤلاء جميعًا انتقالًا سريعًا إلى موقفٍ آخر، هو موقفُ الحشرِ يوم القيامة... وإذا هم يلقون الجزاءَ الَّذي يستحقّونه، لِكُفرِهم باللّه، وتكذيبِهم لرسولِ اللّه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿جَمِيعٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

يُحشرُ أمامَ اللهِ المشركون والشُّركاءُ في خوفٍ وذلَّةٍ وترقُّبٍ

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿جَمِيعٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الحشر عامٌّ شامل، لا يَشِذُّ عنه أحد، حيث أكَّده، ونبَّه عليه اللّه (جل جلاله)، باسم الإحاطةِ والشُّمول ﴿جَمِيعٗا﴾، فتعيَّن أنَّ ذِكْر ﴿جَمِيعٗا﴾، قُصِدَ منه التَّنبيهُ على ذلك، وفائدتُها: رفعُ احتمالِ التَّخصيصِ، أي أنَّ جميع المشركين ومعبوداتهم سيُحشرونَ أمامَ اللّه للحسابِ، والمقصودُ من حشر أصنامهم معهم أن تَظهر مذلَّةُ الأصنام، وعدمُ جدواها[2].

(1) عبد الكريم الخطيب: التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/148.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/115، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/174، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 128.

وصرَّح بـ ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾؛ لأنَّهم بعضُ ما شملَه الضَّمير، أي: ثمَّ نقولُ للَّذين أشركوا من بين ذلك الجمع.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَمِيعٗا﴾ دون (كلّ) في الآية:

جمعُ الجميعِ في محشرِ القيامة، دليلٌ على كمالِ قدرةِ اللهِ

التَّعبيرُ بلفظ ﴿جَمِيعٗا﴾ في الآية يَحْتَمِلُ معنيين: الأوَّل: أن يكونَ بمعنى (كُلّ)، فيكون المعنى: ويوم نحشرهُم كلّهم. والثّاني: أن يكون بمعنى (مُجتَمِع)، فيكون المعنى: ويوم نحشرهُم مجتمِعين، وقد يُراد المعنيان معًا، أي: يحشرهُم كلَّهم مجتمِعين، فبعدولِهِ إلى المفردة كسبَ المعنيين معًا، وهذا فيه كمالُ القدرة، وعظيمُ القهر، حيث جمعَهم مع أصنامِهم على هيئةٍ واحدة في مكانٍ واحد وزمانٍ واحد.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿جَمِيعٗا﴾ دون (جميعِهم) في الآية:

الإطـلاقُ للَّفظِ المـعـبَّر بـهِ، أحـسـنُ مـن تقييدِهِ بالضَّميرِ المضافِ إليه

عبَّر بلفظِ ﴿جَمِيعٗا﴾؛ لأنَّها أوسعُ استعمالًا ومعنًى منَ المضافة، ألا ترى أنَّك لو قلتَ: (اللهم اكفني شرَّ مخلوقاتِكَ جميعًا)؛ كان المعنى محتمِلًا جميعَ الشَّرِّ، وجميعَ المخلوقات، ولو قلتَ: (اكفني شرَّ مخلوقاتِك جميعَه)؛ لكان نصًّا في الشَّرِّ، ولو قلت: (جَميعِها)؛ لكان نصًّا في المخلوقات[1].

سرُّ التَّعبيرِ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾:

الانـتـقـالُ بالتَّرتيبِ الرُّتبيِّ مـن خـبـرٍ إلى أعـظـمَ مـنـه، فصاحةٌ وبيانٌ

عبَّر القُرآنُ الكَريمُ بحرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ القولَ متأخِّرٌ عن زمن حشرهِم بمهلةٍ؛ لأنَّ حصَّة انتظارِ المجرِم ما سيحلُّ به أشدُّ عليه؛ ولأنَّ في إهمال الاشتغالِ بهم تحقيرًا لهم. إضافة إلى ذلك كان العطفُ بـ (ثمَّ) لتعدُّدِ الوقائعِ قبل هذا الخطاب الموجَّهِ للمشركين؛ إذ قبل ذلك سيكونُ قيامُهم من قبورِهم، ويكون هولُ الموقف، ويكون إحصاءُ الأعمال، وقراءةُ كلِّ امرئ لكتابه ... إلخ، ثمَّ يقول اللّه تعالى للَّذين أشركوا: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ

(1) السّامرائّي، معاني النّحو: 4/145.

﴿تَزۡعُمُونَ﴾؟ فـ (ثمَّ) للتَّرتيب الرُّتبيِّ؛ وهو الانتقالُ من خبرٍ إلى خبرٍ أعظمَ منه[1].

دلالةُ القولِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾:

لا قولَ ولا شريكَ في المحشرِ يعلو على قـولِ اللهِ وعظمةِ سلطانِهِ

دلَّ القولُ على التَّقريع والتَّبكيت للمشركين، ولإقامة الدَّليل على بُطْلانِ عقيدتهم، وعَجْزِ أصنامِهم؛ فلا يستطيعون القولَ في هذا اليوم؛ لا دفاعًا عنكم، ولا دفاعًا عن أنفسهم، وهذا واضحٌ في إبراز عظمة المولى سبحانه، وأنَّه هو وحده المستحِقُّ للعبادة دون سِواهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ بدلًا (مِنَ المشركين):

دورُ المشركين أنفسِهم في صناعةِ الهالةِ لمعبوداتِهم

عبَّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ بدلًا مِنَ المشركين؛ للإشارةِ إلى دورِهم في اتِّخاذ الأصنام والأوثان الَّتي أشركوها مع اللّهِ في العبادة؛ فهمُ الَّذين صنعوها، واعتقدوا فيها، وكلُّ ذلك مأخوذٌ من دلالةِ الفعل ﴿أَشۡرَكُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الفعل يلزم منه وجودُ الحدثِ الَّذي يدلُّ على مَن قام به؛ أمّا لفظُ المشركين؛ فهو نتيجةٌ لهذا الفعل؛ فما وُصِفوا بالمشركين إلّا بعد أن أشركوا، وفيه إشارةٌ للإشعار بِعلَّة التَّوبيخ والتَّقريع لهم.

إيثارُ الاستفهامِ بدلًا مِنَ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

الاستفهامُ عن المعلومِ سلفًا للتَّقريرِ من أساليبِ الإقناعِ المؤثِّرة

آثَرَ القُرآنُ الاستفهامَ في الآية للتَّقرير، وهو: حملكَ المُخاطَب على الإقرارِ والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده، وفيه تثبيتٌ للأمر وتحقيقُه، فحينَ يُنتزَعُ إقرارُ المُخاطَبِ واعترافُه، يَكونُ ذلك أدلَّ على الالتزام، فهو استفهامُ إفضاحٍ لا إيضاح، وهذا يعني: أنَّ القضيَّة - موضوعَ الاستفهام - من معتقداتِ المُخاطَبين أساسًا، وممّا استقرَّ في أذهانِهم، واستيقَنَتْهَا أنفسُهم، وإنَّما جاء الحديث عنها بصيغة الاستفهامِ ليُقِرّوا بها من تلقاء أنفسِهم، وهو من أساليبِ الإقناع المؤثِّرة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175، وطنطاويّ، الوسيط: 5/56، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 128.

دلالةُ جناسِ الاشتقاقِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

جناسُ الاشتقاقِ من المحسِّناتِ البديعيَّةِ الرَّائقةِ

في قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾، جناسُ اشتقاقٍ، فقد نُسِب المخاطَبون إلى الشِّرك، ووُصِفوا به على أنَّه علامةٌ لهم، وكان مضمون السُّؤالِ عن الأندادِ المعبودين من دون اللّه، وقد نُسِبوا هم أيضًا إلى الشِّرك، باعتبارهم مشرَكًا بهم اللّه، وقد تكرَّسوا لهذا الملمح ببيانٍ ودقَّةٍ.

بلاغةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

التَّحذيرُ من الشِّرك وأهلِه، وأنَّه من الجرائم العظمى في الإسلامِ

أين: أداةُ استفهامٍ عنِ المكان، واستُعمل هذا الاستفهامُ في الآيةِ عنِ الشُّركاء، وهم أشخاص، أي: إنَّ الاستفهام هنا عنِ المكان، والمرادُ منهُ ما مِن شأنه أن يكون حالًا في ذلك المكان، فهو مجازٌ مرسَلٌ علاقته الحاليَّة، وقد تولَّد عن هذا المجازِ كنايةٌ لطيفة عن انعدام الشُّركاء؛ لأنَّ السُّؤالَ عنِ المكان يعني عدمَ تعلُّقِ علم السّائل به، فإذا كان السّائلُ هو اللّه، تحوَّلَ عدم تعلُّق العلم بالمكان إلى انعدامِ الشُّركاء الَّذين دعاهم المشركونَ آلهةً؛ لأنَّهم لو كانوا بهذه الصِّفة لَعَلِمهمُ اللّه تعالى، ونفيُ علمِ اللّه تعالى بشيء، معناه الكنائيُّ: انعدامُ الشَّيء نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال: 23]، فنفيُ علم اللّه تعالى هنا معناه انعدامُ الخير فيهم، ولو كان موجودًا لَعَلِمَهُ اللّهُ موجودًا[1].

علَّةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

الأصنامُ لا تنفعُ عابديها؛ لأنَّها لا تملكُ لهم نفعًا ولا ضُرًّا

أضاف الشُّركاءَ إليهم إضافةَ اختصاص؛ لأنَّها لم تكن شركاءَ للّه في الحقيقةِ؛ بل لمّا سمَّوها شركاءَ أُضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون اللّهِ أو معَ اللّه، أو لأنَّهم كانوا من جنسِهم وجوهرِهم، يَفنَون كما يَفنَون هم[2]، "فإضافةُ الشُّركاءِ إليهم لأدنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/174، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/297.

(2) الواحديّ، البسيط: 3/471، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/330، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/119.

ملابسة، أي: لمجَرَّد العلاقة النَّفسيَّة والفكريَّة الَّتي نَحَلَتْها عقولهُم السَّقيمةُ في إدراكها لهم، وهل كانوا غائبين عنهم، حتَّى يبحث عن مكانهم؟ لعلَّ ذلك يكون، ولعلَّ حالهم من أنَّهم لا قوَّة لهم، وليس لهم الشَّفاعة القريبة، ولا النُّصرةُ القادرة، يعتبرون كأنَّهم شيءٌ معدوم، يسألون عنه"[1].

سرُّ العدولِ عن ذكرِ الأصنامِ والأوثانِ إلى التَّعبيرِ بالشُّركاءِ:

كـلُّ مـا يعبدُ مـن دونِ اللـهِ في الأرضِ أو الـسَّـمـاءِ فهـو شريكٌ

عَدَلَ القرآنُ الكريم عن ذِكر الأصنامِ والأوثان؛ للتَّقليل والتَّهوين من شأنهِم؛ فليسوا أهلًا للذِّكر ولا للخطاب، وسمّاهم شركاءَ على زَعْمِهم وتسميتِهم، والشُّرَكاءُ ليستِ التماثيلَ والأصنامَ المعبودةَ عندهم فحسبُ، بل تشمل كلَّ معبودٍ من دون اللّهِ في الكون، فقال: "﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، في الدُّنيا أنَّها تشفعُ لكم، وعبدتُموها من دون الله، الملائكة وغيرهم، منَ الإنسان والكواكبِ والحيوانِ والجماد"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُنتُمْ﴾ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

مَـنْ ضَـلَّ في دينهِ عن درايةٍ وعلمٍ كـان من الخاسرينَ

عبَّر القرآن الكريمُ بالفعل ﴿كُنتُمْ﴾، للدَّلالة على تمكُّنِ هذه العقيدة الباطلةِ فيهم؛ فما كان شِرْكُهُم لهذه الأصنام عفويًّا، بل كان عن قناعةٍ واعتقاد، والحال أنَّ النَّقلة من الدُّنيا إلى الآخرة قد تمَّت، وأنَّهم كانوا يعبدونها، وما أصبحت معبودةً في الآخرة، بل كانت معبودةً قبل ذلك، فقال لهم: أين شركاؤكم الَّذين كنتم تزعمونَ، أي: تزعمونها شركاءَ، لقد غابت عنهم في ذلك الموقفِ العصيب، أو كانت حاضرةً ولكن لا ينتفعون بها بوجهٍ من الوجوه، فكان وجودُها كعدمها[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/119.

(2) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/331.

(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/122.

دلالةُ حذفِ مفعولَي (زعم) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

عِندَ الوقوفِ بين يديهِ يتبرَّأُ الشَّريكُ من عابديهِ

في الآية الكريمة حُذِفَ مفعولا زعمَ، أي: الَّذين كنتم تزعمونَهم شركاءَ، فحُذفا اختصارًا لدلالةِ الكلام عليهما؛ وتحقيرًا للزَّعم والشُّركاء الَّذين يزعمونهم، وكأنَّما الآيةُ الكريمة بهذا الحذفِ تصوِّرُ هؤلاء المشركين، وأنَّ أمرهم إلى ضياع"[1]. وهذا السُّؤالُ المُنبِئُ عن غَيْبة الشُّركاءِ، مع عموم الحشرِ لها، لقوله تعالى: "﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافّات: 22 - 23]، وغيرِ ذلك من النُّصوص - إنَّما يقعُ بعد ما جرى بينها وبينهم من التَّبرُّؤِ من الجانبين، وتقطُّعِ ما بينهم من الأسبابِ والعلائق"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (الزَّعم) في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

بين الزَّعمِ والكذبِ عمومٌ وخصوصٌ، ولم يأتِ في القرآنِ إلَّا في الذَّمِّ

عبَّر بالزَّعم، وهو القولُ الموسوم بمخالفةِ الواقعِ خطأً، فمنه الكذبُ الَّذي لم يتعمَّد قائلهُ أن يُخالف الواقعَ في ظنِّ سامعه، ويُطلَق على الخبرِ المُستغرَبِ المشكوك في وقوعِ ما أخبرَ به، وعن شريحٍ: لكلِّ شيءٍ كنيةٌ، وكنية الكذب: زعموا، (أراد بالكنية الكنايةَ)، فبين الزَّعم والكذب عمومٌ وخصوص وجهيٌّ، ولم يأتِ في القرآن إلّا في محلِّ الذَّمِّ، ونبَّه عليه الرّاغب والمُناويُّ[3]. وقد عبَّر القرآن الكريم عن شِرْكِهم وعبادتهم بالزَّعم؛ لأنَّه كذبٌ، فلا أصلَ له في الوجودِ ولا في الحقيقة؛ فحقيقةُ الإنسان الفطرةُ الإيمانيَّة الخالصةُ، فلا تَعرفُ إلّا اللّٰه إلهًا واحدًا، وكلُّ الأجناس في الوجود تُنكِرُ الشِّركَ باللّٰه ربِّ العالمين، بل تتبرَّأُ ممَّن عبدَها من دون اللّٰه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

عبَّرَ بالفعلِ المضارع ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّد هذا الزَّعم؛

(1) أبو شادي، الحذف البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 59.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/119، والسمين، الدر المصون: 4/572.
(3) الرّاغب، المفردات: (زعم)، والمناويّ، التّوقيف: 1/386.

فكلَّما دعاهم الرَّسول ﷺ إلى ترك الإشراكِ باللّه، وتركِ الأصنام والأوثان، زعموا أنَّها تضرُّ وتنفعُ، واعتقدوا فيها؛ بل اعترضوا على الرَّسول ﷺ، وقالوا: كيف يجعلُ هذهِ الآلهةَ المتعدِّدة إلهًا واحدًا! واعتبروا ذلك شيئًا عجيبًا، وتفسيرُ ذلك الزَّعم مرتبطٌ بتهافتِ هاتهِ الآلهةِ المزعومة، إذْ "سيَسأل اللّه المشركينَ عن الَّذين عبدوهم من دونِ اللّهِ كذبًا: أين هؤلاءِ الآلهة الَّتي أشركَها الكافرون في العبادةِ مع اللّهِ؟ ولماذا لا يتقدَّمون لإنقاذ عبيدِهم من العذابِ الَّذي يصليه اللّهُ لهم؟ ويقرِّع سبحانه المشركين، ويحشرُهم مع ما عبدوهم من دون اللّهِ من الأصنامِ والأوثان، وفي ذلك قمَّة الإهانة لهم، ولتلك الآلهةِ"[1].

تجدُّدُ الزَّعمِ الباطلِ، دليلٌ على تجدُّدِ الضَّلالةِ في كلِّ الأزمانِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحشر) و(الجمع):

الحشرُ: هو الجمعُ مع السَّوْقِ، ومنه يومُ الحشر؛ لأنَّ الخلقَ يُجمعون فيه، ويُساقون إلى الموقف، قال الرّاغب: "ويُقال ذلك في الإنسانِ وفي غيره، ولا يُقال الحشرُ إلّا في الجماعة، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التّكوير: 5]"[2]. وأمّا الجمعُ؛ فهو ضمُّ الشَّيءِ بتقريب بعضهِ من بعض؛ يقال: جمعتهُ فاجتمعَ، وعلى ذلك فالحشرُ يختلف عنِ الجمع؛ فكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا.

الحَشْرُ جمعٌ مع سَوْقٍ، وكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا

(كلّ) و(جميع):

فرَّقَ العلماءُ بين (كلٍّ) و(جميع) أيضًا، فقالوا: "إنَّ (كلَّ) تدلُّ على كلِّ فردٍ بطريق النُّصوصيَّة، بخلاف (جميع)، فإنَّه يدلُّ على كلِّ الأفرادِ، وهو الَّذي يرادُ من قولهم: وإنَّ (جميع) للعموم الإحاطيِّ، وفرَّقتِ الحنفيَّة بينهما؛ بأنَّ (كلَّ) تعمُّ الأشياءَ على الانفراد،

لَفظَةُ (كلِّ) تدلُّ على كلِّ فردٍ خصوصًا، و(جميع) تدلُّ على كلِّ الأفرادِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 6/3560.
(2) الراغب، المفردات: (حشر).

و(جميع) تعمُّها على سبيل الاجتماع"[1]، وفي القرآن: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: 32]، "فإنْ قال قائلٌ: كلٌّ وجميعٌ بمعنًى واحدٍ، فكيف جعل جميعًا خبرًا لكلٍّ، حيثُ دخلت اللّامُ عليه؛ إذ التَّقديرُ: وإنْ كلٌّ لجميع؟ نقول: معنى جميع: مجموعٌ، ومعنى كلٍّ: كلُّ فردٍ بحيث لا يخرج عن الحكمِ أحدٌ، فصار المعنى: كلُّ فرد مجموعٌ مع الآخر مضمومٌ إليه"[2].

(الزَّعم) و(الظَّنّ) و(الحِسْبان):

يكون الزَّعمُ والحِسْبانُ غالبًا فيما هو باطلٌ، والظَّنُّ ترجيحًا لأحدِ طرفي الشَّكِّ

الظَّنُّ: ضربٌ من الاعتقادِ، وقد يكونُ حِسْبانًا ليس باعتقادٍ، قال العسكريُّ رحمه الله تعالى: أصلُ الحِسْبانِ منَ الحساب، ثمَّ كثُر حتَّى سمّي الظَّنُّ حِسْبانًا على جهة التَّوسُّع، وصار كالحقيقة بعد كثرةِ الاستعمال، وفرَّق العسكريُّ بين الحِسْبانِ والزَّعم؛ بأنَّ الحِسْبانَ لا يكون إلّا باطلًا، والزَّعم قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا، قال الشّاعر:

تُعاتِبُني في الرِّزق عِرْسي وإنَّما*** على اللّه أرزاقُ العبادِ كما زَعَم!

فإنَّ هذا الزَّعمَ حقٌّ[3].

وما قاله العسكريُّ فيه نظرٌ؛ فالحِسْبانُ قد يكون فيما ليس باطلًا، كقوله تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النّمل: 44]، وقوله تعالى: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا﴾ [الإنسان: 19]، فالغالبُ أن يكون الزَّعمُ والحِسْبانُ فيما هو باطلٌ، والحِسْبانُ توهُّمُ كونِ الشَّيءِ على صفةٍ ليس عليها، والزَّعم: حكايةُ قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، والظَّنُّ ترجيحُ أحدِ طرفي الشَّكِّ[4].

(1) السِّغناقيّ، الكافي شرح أصول البزدويّ: 2/717، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/146.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/271.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41 - 42.
(4) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/705.

﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾

[الأنعام: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الفتنةِ بالشِّركِ في الدُّنيا، والتَّبرُّؤ منهُ في الآخرة

لمّا بيَّن اللّه تعالى كونَ المشركين مفتونينَ بِشِركهِم مُتهالِكينَ على حبِّه؛ أعلمَ في هذه الآية أنَّه لم يكن افتتانهُم بِشِركِهم وإقامتهم عليه، إلّا أن تبرَّؤوا منه، وتباعدوا عنه، فَحَلفوا أنَّهم ما كانوا مشركينَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾: الفتنةُ: الابتلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنتُه، أفتنُه، فَتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنتُه، وأصلُ الفتنةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحراقُ، يُقالُ: فَتَنتُ الذَّهبَ، أي: أحرَقتُه بالنّار؛ لتمييز الجيِّد مِنَ الرَّديء، ويُسمَّى الصّائغ: الفتّانَ، ومن معاني الفتنةِ: التَّنقيةُ، والإزالةُ، والإِعجابُ، والإثمُ، والقتْلُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تبرُّؤُ المشركين من شِركهِم يومَ العرضِ على اللهِ في موقفِ الحشرِ

بيَّن اللّهُ في هذه الآيةِ موقفَ الَّذين أشركوا يوم القيامةِ، بقولهِ عنهم: ثمَّ لم تكن عاقبةُ الشِّرك ونتيجتُه الَّتي رأوها ماثلةً للعيان يوم القيامة، إلّا قولهم كذِبًا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، بل كنّا مؤمنين بك، موحِّدين لكَ، وذلك موقفٌ لهم في غايةِ التَّخاذلِ والخزي والحَيْرة[3]، بعدما كانوا مغترّين بالشِّرك، وبدينِ آبائهِم وأجدادِهم[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/502، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 4/333.
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والجرجانّي، التّعريفات: (فتن)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/189 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.
(4) حجازي، التّفسير الواضح: 7/68.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾:

كلُّ قولٍ فاسدٍ، أو اعتقادٍ ضالٍّ، فهو فتنةٌ بَلْقاءُ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ، وهو الانتقالُ من خبرٍ إلى خبرٍ أعظمَ منه[1]، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين تحيَّروا في أمرِ الإجابةِ، فدفَعَتْهم حَيْرتُهم إلى الكذبِ المتعمَّد لمّا ضاقَت عليهم السُّبل، وفي ورود ﴿ثُمَّ﴾ هنا "إشارةٌ إلى أنَّ هذا القول الَّذي قالوه، هو فتنةٌ أخرى؛ إذ ما زالوا على ضلالهم القديم، وتصوُّرِهم الفاسدِ، أنَّه تعالى لا يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّروا، وما أَسَرّوا وما أعلنوا.. فسمَّى (ﷻ) هذا القولَ منهم فتنةً.. ولم يقل (سبحانه): ثمَّ لم يكن قولهُم، أو جوابُهم.. إذ كان قولهُم هذا، هو فتنةٌ لهم وضلال مبينٌ"[2].

دلالةُ اختيارِ ﴿لَمۡ﴾ دون غيرِها في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾:

أداةُ النَّفي ربطٌ لحاضرِهم في الحشرِ، بماضيهم الآثمِ في الدُّنيا

اختار القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿لَمۡ﴾؛ لأنَّها تحوِّل المضارعَ إلى ماضٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى تمكُّنِ وصْفِ حالتِهم الَّتي هم عليها في يومِ القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الفتنة شركُهم، وهو موصولٌ بما فعلوا في دنياهم، ومعنى السّياق: "لم يكن جوابُهم حين يُفتنون ويُختبرون بذلك السُّؤال؛ إلّا إنكارَهم لشركِهم، وحَلِفَهُمۡ أنَّهم ما كانوا مشركين"[3].

التَّعبيرُ بلفظِ (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾:

لفظُ (الفتنة) أوفقُ من التَّعبير بجوابِهم؛ لأدائِهِ معنًى واحدًا فقط

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الفتنة؛ لأنَّها في كلام العرب لفظةٌ مُشْتَرَكةٌ لها إطلاقاتٌ عديدةٌ، تتناسب بعضُها مع سياقِ الآيةِ؛ فمن هذه المعاني: أنَّها حُبُّ الشَّيءِ والإعجاب به، كما تقول: فُتِنْتُ بكذا، ومعنى الآية على هذا أنَّهم كانوا معجَبين بِكُفْرِهم، مفتخِرين به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/148..

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 253.

وتُطلق على اضطرابِ الرَّأي، والحَيرة في الأمرِ، ويكون التَّقدير على هذا في المعنى، لمّا سُئِلوا: أين شركاؤكم الَّذين كنتُم تزعمون؟ فاضطربوا واحتاروا في الجوابِ؛ فافتتنوا فيمَ يجيبون، فكان جوابُهم أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وتُطلقُ أيضًا على معنى الاختبارِ، والمرادُ به السُّؤال؛ لأنَّ السُّؤال اختبارٌ عمّا عندَ المسؤولِ منَ العِلم، أو منَ الصِّدق، ويتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكن جوابُ فتنتِهم، أي: سؤالُهم عن حالِ إشراكهِم إلّا أن قالوا: واللّه ربِّنا ما كنّا مشركين[1].

وتُطلق الفتنةُ على الشِّرك والافتتانِ بالأوثانِ، ويُؤيِّد هذا الوجهَ ما روى عطاءٌ عن ابن عبّاس في هذه الآيةِ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قال: (يريد شركَهم في الدُّنيا)، وهذا القولُ في التَّأويل راجعٌ إلى حذْف المضافِ؛ لأنَّ المعنى: لم تكن عاقبةُ فتنتهم إلّا البراءةَ، ومثلُه قولُك: ما كانت محبَّتك لفلانٍ إلّا أنِ انتفيتَ منه، أي: عاقبةُ محَبَّتك[2].

ولأجل هذه المعاني كان اصطفاءُ لفظ الفتنةِ أوفقَ منَ التَّعبير بجوابِهم؛ لأنَّه سيؤدّي معنًى واحدًا فقط.

دلالةُ إضافةِ الفتنةِ إلى الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

يندمُ المشركون يـومَ القيامةِ، ولاتَ حين مَنْدَمٍ

أضافَ الفتنةَ إلى لفظِ ضميرِهم؛ للدَّلالةِ على أنَّهم هم الَّذين أوقعوا أنفسَهم فيها بسبب شركِهم وإعجابِهم بما فعلوا، "إنَّ الحقيقةَ الَّتي تجلَّت عنها الفتنة، أو الَّتي تبلورت فيها الفتنةُ، هي تَخَلّيهم عن ماضيهم كلِّه وإقرارُهم بربوبيَّة اللّه وحده، وتعرّيهم من الشِّرك الَّذي زاولوه في حياتهِم الدُّنيا.. ولكن حيثُ لا ينفعُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/278، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175 - 176.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/57، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.

الإقرارُ بالحقِّ والتَّعرّي من الباطلِ.. فهو إذًا بلاء هذا الَّذي تمثِّله قولتُهم، وليس بالنَّجاة.. لقد فات الأوانُ.. فاليوم للجزاءِ لا للعمل.."[1].

دلالةُ أسلوبِ القَصْرِ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

دلالةُ الاستثناءِ في الآيةِ الكريمةِ

في الآيةِ أسلوبُ قَصْرِ صفةٍ على موصوفٍ، الفتنةُ مقصورٌ، والمقصورُ عليهِ هو الكذبُ الغليظُ، وهي مرتكزةٌ على الاستثناءِ، وعليه فإمّا أن يكون استثناءً مُفَرَّغًا، فيكونُ المستثنى منه منَ الأقوالِ الموصوفةِ بأنَّها فتنةٌ، فالتَّقدير: لم يكن لهم قولٌ هو فتنةٌ لهم إلّا قولَهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، وإمّا أن يكونَ القولُ المستثنى دالًّا على فتنتهم، أي: على أنَّهم في فتنةٍ حين قالوهُ، وأيًّا ما كان؛ فقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، متضمِّنٌ أنَّهم مفتونون حينئذٍ[2]، والتَّقدير: (ثمَّ لم تكن فِتْنَتهُم إلّا قولُهم)، وإنَّما كانت أفصحَ؛ لأنَّه إذا اجتمع اسْمانِ: أحدهما أعرفُ، فالأحْسَنُ جعلُه اسمًا مُحَدَّثًا عنه، والآخر خَبَرًا حديثًا عنه"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (قالوا) في موضعِ المضارعِ:

ما ذكرهُ القرآنُ ممَّا سيقعُ وكأنَّه من الماضي؛ من الإعجازِ الغيبيِّ

عبَّر بصيغةِ الفعلِ الماضي (قالوا) في موضع المستقبل تحقيقًا لوقوعه[4]، والمعنى: "ثمَّ لم تكن عاقبةُ كفرهم - الَّذي لزموه أعمارَهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: دين آبائنا - إلّا جحودَهُ والتَّبرُّؤَ منه"[5]، وهذا الملمحُ المذكورُ، سوف يكون واقعًا بلفظهِ ومعناهُ؛ لأنَّ الإخبارَ من عالمِ السِّرِّ وأخفى، ومَن بيدهِ مقاديرُ الأمورِ، وتصاريفُ الأحوال، فلا يقع المقدور إلّا بما هو في علمهِ مسطورٌ.

(1) سيّد قطب، في ظلال القرآن: 2/1064.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/72.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/467.
(5) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

دلالةُ توكيدِ الخبرِ بالقَسَمِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

توكيدُ الخبرِ بالقَسَم في الآيةِ دليلٌ على إحساسِهم النَّفسيِّ بأنَّ كذِبَهم مفضوحٌ لا يمكنُ تصديقُه، فَحَمَلَهم جهلُهُم بمعرفة اللّه في الدُّنيا على إعلان الكذبِ عليه في الآخرةِ، وهم في الواقعِ لم يكذبوا إلّا على أنفُسِهِم، وفيه كنايةٌ عنِ التَّبرّي عنِ الشِّرك، وانتفاءِ التَّديُّن به.

القَسَمُ بيانٌ لعظمةِ المُقْسَمِ به في سياقِ الآيةِ الكريمة

دلالةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّةِ بعد ذكرِ الأُلوهيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾:

دلَّ قولهم: (ربِّنا)، ووصفُهم للمولى بذلك على المبالغةِ في التَّبرُّؤ منَ الإشراكِ[1] به شيئًا منَ المعبوداتِ، وذِكرُ المشركين الرَّبَّ (ﷻ) بالإضافة إلى ضميرهِم، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغةٌ منهم في التَّنصُّل منَ الشِّرك، أي: لا رَبَّ لنا غيره، وقد كذَّبوا، وحلفوا على الكذب؛ جرْيًا على سَنَنِهم الَّذي كانوا عليه في الحياة[2].

القَسَمُ بالاسْمَيْن الجليلين مبالغةً في التَّنصُّلِ منَ الشِّرك

أثرُ القراءاتِ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قراءتان: الأولى: قراءةُ ﴿وَٱللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنصبِ (ربَّنا) على النِّداء، بمعنى: (واللّهِ يا ربَّنا)، وفيه معنى الخضوعِ والتَّضرُّعِ للّهِ تعالى[3]. والقراءةُ الأخرى: قراءة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ (ربِّنا) على النَّعتِ للّه (ﷻ)، والثَّناء عليهِ بما هو أهلُه[4].

تنوُّع القراءةِ في ألفاظِ الآيةِ، يفسحُ المجالَ لأكثَرَ من معنى

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الفتنة)، و(الابتلاء)، و(الاختبار):

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأَبْلَغُه، ويكون في الخيرِ والشَّرِّ، أَلا تسمعُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/53، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/81، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/11، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/177.

(3) قرأ بها حمزة والكسائيّ وخلَف. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230، ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن خالويه، الحجّة، ص: 137، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/427.

(4) قرأ بها الباقون. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 244.

الفتنةُ خيرٌ وشرٌّ، والابتلاءُ تحمُّلُ مكروهٍ

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وقوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجَعلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّهُ قَصدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المُنْعَم عليهِ بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغةُ في تعرُّف حالهِ أُدْخِل النّار، واللَّه تعالى لا يختبر العبدَ لتغيير حالهِ في الخيرِ والشَّرِّ، وإنَّما المرادُ بذلك شدَّةُ التَّكليف.

الاختبارُ يكون في فعل محبوب وفي تحمُّلِ مكروهٍ

أمّا الفرقُ بين الاختبار والابتلاءِ: فالابتلاءُ عادة لا يكون إلّا بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوبِ، ألا ترى أنَّه يُقال: اختبرهُ بالإنعام عليه، ولا تقولُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنِّعمةِ، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخبر بحالهِ في ذلك، والخبرُ العلم الَّذي يقع بِكُنْهِ الشَّيءِ وحقيقتهِ، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ. والفتنة تأتي أيضًا بمعنى الابتلاءِ، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396، وعدد منَ المتخصّصين، نضرة النّعيم: 1/8.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾

[الأنعام: 24]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما صارَ إليهِ حالُهُمْ بعد أن ضلَّ عنهم ما أشركوا

لمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقة كونَ المشركين مفتونين بشِرْكِهم، مُتهالِكين في حبِّهِ؛ جاءت هذه الآية لِتُبَيِّنَ العاقبةَ الوخيمةَ لكفرِهم وشركِهم الَّذي لزموه أعمارَهم، والحسرةَ الَّتي أصابتهم عندما ضلَّ عنهم ما كانوا يشركونَهُ مع اللّهِ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَلَّ﴾: الضَّلالُ: الانحرافُ والمَيْلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضَلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا؛ إذا انحرف وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وأصلُهُ: ضياعُ الشَّيء وذهابُهُ في غير حقِّه. وقيل هو: الغيبوبةُ، والخفاء، والسَّتر[2]، وأضللتُ الشَّيءَ: ضيَّعته، والتَّضليل: تصييرُ الإنسانِ إلى الضَّلال، والتَّضْلال كالتَّضليل[3].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تَأمُّلُ فَظاعَةِ كذبِ المشركين بإنكارِهم شِرْكَهُمْ في الدُّنيا

أمر اللّه نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يتأمَّل كيف كَذَبَ هؤلاء المشركون على أنفسهم يومَ القيامة، وغاب عنهم شركاؤهم الَّذين زعموهم معَ اللّهِ تعالى، فلم ينفعوهم بشيءٍ، يقول لرسوله ﷺ: (انظر كيف كذَّبوا باليمينِ الفاجرةِ الَّتي أقسموها لِنَفْيِ شركِهم، وكيف ذهبَ عنهم ما كانوا يفترون من الإشراكِ، حتَّى نَفَوا صُدورَهُ عنهم)[4].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 7/285.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (ضلل)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ضلّ).

(3) ابن سيده، المخصّص: (الضّلال والباطل).

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 814.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

تقريبُ المعاني باستعارة الصُّورة، وتوظيفها بإيجابيَّةٍ

في إطلاقِ النَّظرِ على التَّأمُّل استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، بِاسْتِعارَةِ محسوسٍ، وهو النَّظر بالعين الباصرة لمعقولٍ، وهو التَّأمُّل الذِّهنيُّ، وسِرُّه إظهارُ كذبِهم لفظاعتهِ حتَّى لكأنَّه يُرى رؤيةَ عينٍ، "وهنا تساؤلٌ ذكرهُ الزَّمخشريُّ: كيف يصحُّ أن يكذبوا حين يطَّلعون على حقائقِ الأمور، وعلى أنَّ الكذب والجحودَ لا نفع فيه؟ ثمَّ أجاب: المُمْتَحَنُ ينطقُ بما ينفعه، وبما لا ينفعه، من غير تمييزٍ بينهما، حيرة ودهشة، وهناك حالةٌ مماثلة: يقولون وهم يُعذَّبون في النّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، مع أنَّهم قد أيقنوا بالخلودِ، ولم يشكّوا فيه"[1].

دلالةُ المجازِ المُرسلِ في قولِهِ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

أسلوبُ التَّعجيبِ والمجازِ، يُسهمان في جلاءِ المعنى وتَوَخِّيه

والمرادُ منَ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾: التَّعجيبُ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ علاقته الإطلاقُ والتَّقييد، حيث أطلقَ النَّظرَ من معناهُ، وهو الوجوب، ثمَّ قَيَّدَ باستعمالهِ في مُطلَق التَّوجيه للتَّعجيب من كيفيَّة كذبهِم على أنفسِهم[2]، فذَكَر أنَّ عاقبةَ كفرِهم الَّذي لزموهُ أعمارَهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: إنَّه دينُ آبائِنا - لم تكن إلّا الجحودَ والتَّبرُّؤَ منه والحلفَ على عدم التَّديُّن به[3].

القيمةُ الدَّلاليَّة للفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

النَّظرُ في المآلاتِ من الحوادث الواقعاتِ، مسلكٌ للاتِّعاظِ والعبرة

في الفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ قيمةٌ دلاليَّةٌ تجعل المتلقّي في جوِّ المشاهدةِ الحقيقيَّةِ للموقف، والمتابعة لكلِّ ما يحدثُ أمامهُ لهؤلاء المكذِّبين من أحداثِ الحساب، فيجعلهُ أكثر إدراكًا ويقينًا بصدق الوعدِ،

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/165.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/298.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/289.

وقربِ يوم الجزاء. من ذلك أيضًا تصويرُ اللَّحظات الَّتي يعيشها هؤلاءِ المشركون المكذِّبون، وهم واقفون أمام النّار، يعتصرون حسرةً وندامة على ما فرَّطوا في دنياهم، ثمَّ تمنّيهم العودةَ إلى الدُّنيا ليعملوا بعمل أهلِ الصَّلاح، وينتقلوا إلى دار النَّجاةِ والفلاح.

دلالةُ الاستفهامِ بالأداة ﴿كَيۡفَ﴾ من قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

الكذبُ على الله سفاهةٌ وطيشٌ ممَّن يمارسه

آثرَ القرآنُ الكريم استخدامَ أداةِ الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾؛ لأنَّها تصوِّر الهيئةَ والحالة النّاتجة عن شركهم، وكذبهم على أنفسِهم، والنَّظر إلى الحالة بالتَّأكيد، هو نظرٌ لأصحابها، وواقعُ الحال أنَّهم كَذَبوا عَلَى أَنۡفُسِهِمۡ بنفي أنَّهم أشركوا يومًا ما، وكان ذلك الإنكارُ العجيب أمام علّام الغيوبِ، وبحضرةِ من لا ينحصرُ من الشُّهود، ولكنَّهم غابَ عنهم ما كانوا يَفۡتَرونَ من الشُّركاء، فلم تغنِ عنهم من اللّه شيئًا، ففقدوا رجاءهم في شفاعتِها، وأملَهم في نصرتها لهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

المستقبلُ المُحقَّقُ بعلمِ اللهِ، يكونُ كالواقعِ تمامًا

عبَّر القرآنُ الكريم بالفعلِ الماضي ﴿كَذَبُواْ﴾، وإن كان معناهُ مستقبلًا؛ لأنَّه في يوم القيامة لمّا كان المعنى مُتحقِّقًا أبرزه في صورة الماضي، وهو على شاكلةِ الفعل (قالوا) من قبل، فالأمر وإن لم يكن قد أتى بعدُ؛ فإنَّ هذا على حكاية الحال، واللّه ﷻ دائمًا يحكي الأشياء المستقبلة حتَّى يتصوَّرها الإنسان وكأنَّها واقعةٌ، وإنَّما يكون ذلك لأنَّ الشَّيء المستقبَل المُحقَّق يكون كالواقع تمامًا؛ ولهذا قال اللّه ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1] مع أنَّه ما أتى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾؛ فيكون التَّعبير بالماضي على حكايةِ الحالِ حتَّى يتصوَّر الإنسان وكأنَّ الشَّيء بين يديه[2].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/334.

(2) ابن عادل، اللّباب: 8/77، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 127.

دلالةُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

التَّعجيبُ من كذبِهم على أنفسِهم، وبلادةِ الإحساسِ لديهم

ذكرَ القرآن الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾ للدَّلالة على سَفَهِ عقولهم وضحالةِ تفكيرهم؛ لأنَّ مَن له مُسْكَةُ عقلٍ، إن كذب على النّاس فلا يكذب على نفسه؛ لأنَّه يعلم الحقيقة، وهذا دليلٌ على بلادة المشركينَ وبلاهتِهم، "وهذا تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة، ودعواهم المتناقضةِ. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذبٌ في الآخرة، لأنَّها دار لا يجري فيها غير الصِّدق، فالمعنى: نفيُ شركهم عند أنفسِهم وفي اعتقادهم، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42]"(1).

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾:

المعطوفاتُ منسجمةٌ في الدَّلالة لاشتراكِها في الحالة

دلَّتِ الواو على أنَّ الفعل ﴿وَضَلَّ﴾ معطوفٌ على ﴿كَذَبُواْ﴾، وبذلك يكون داخلًا في حيِّز النَّظر، ويكون المعنى على ذلك: انظرْ كيف كذبوا على أنفسِهم عندما عاينوا أهوالَ القيامة، وشاهدوا فيها صنوفَ العذاب، وبحثوا عن شركائِهم فما وجدوهم؛ فكان حالهم حالَ اليائسِ الحائر.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

كلُّ مُفترًى من العقائدِ والأقوالِ، آيلٌ لا محالةَ إلى زوالِ

في ﴿وَضَلَّ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، حيثُ استعارَ الضَّلال للاختفاء بجامع عدم الرُّؤيةِ في كلٍّ منهما، ومفاده: "انظر كيف كذَّبوا باليمينِ الفاجرةِ بإنكار صدورِ ما صدر عنهم؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونهُ من الإشراك، حتَّى نَفَوا صدورَهُ عنهم بتاتًا، وتبرَّؤوا منه غاية البراءة؟"(2)، وقد أبانتِ الاستعارةُ هذا المعنى الممتدَّ، وأوضحت تلاشي الافتراءاتِ والمفتريات بما يؤكِّدُ بُطلانها.

---

(1) الشوكانّي، فتح القدير: 2/123.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/97.

التَّعبيرُ بالضَّلالِ دون الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

السِّياقُ يجمعُ بين المعنى الحسِّيِّ والمعنويِّ لتقريعِ المشركينَ

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّلال في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، وإن كان فيه معنى التَّغييب، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السّجدة: 10]، فهو يشيرُ مع معنى الغيابِ للأصنام وللأوثانِ في الأرض، وصارت ترابًا اختلطَ بترابِ الأرض، فلا يعرفون لها رسمًا ولا وزنًا؛ أو غابت في وقودِ المشركين في جهنَّم؛ فمع هذا المعنى الحسّيِّ إلّا أنَّه يشير إلى التَّقريعِ والتَّوبيخِ لهؤلاء المشركين، بأنَّهم على ضلالٍ، وهذا واضحٌ في استعمالِ القرآنِ الكريم لهذا الفعل (ضلَّ)، في موقفِ المشركين مع شركائهم في البحثِ عنهم يوم القيامة في كثيرٍ منَ الآيات.

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

المفترى من الشُّركاءِ يومَ الحسابِ كالمرئيِّ بالعيونِ منَ السَّراب

في التَّعبير عنِ الشُّركاءِ باللَّفظِ (ما) الَّذي يُطلَق على غير العاقلِ، بعد أن عبَّرَ عنهم بـ (الَّذين) الَّذي يُطلَق على (العاقل)؛ دليلٌ على تحقيرِ أولئك الشُّركاءِ، أو المقصود بـ (ما) الباطل الَّذي كانوا عليه[1]. ويضاف إلى ذلك إفادةُ العموم؛ فكلُّ ما أشركوه منَ الأصنام حَجَرًا أو خَشبًا، أو من أيِّ جنسٍ آخرَ غاب عنهم، حتَّى لَوْ بحثوا فلن يجدوه، وأصبحت عبادتُهم لشركائهم ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النّور: 39].

الجمعُ بين الماضي والمضارع في قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

تنوُّعُ أزمنةِ الأفعالِ في السِّياقِ الواحِدِ، يعينُ على التَّصوُّرِ والفهمِ

جُمِع بين صيغتَي الماضي والمضارعِ في الآيةِ الكريمة للدَّلالة على الاستمرارِ في الأزمنة الثَّلاثة، إن كان التَّعجيبُ من حالهم تعجيبًا للنَّبيِّ ﷺ في الدُّنيا من حالهم يوم القيامة، أمّا إن كان للتَّعجيبِ الَّذي سيقعُ يوم القيامة فهو بالنِّسبةِ إلى زمانِ الحكمِ إخبارٌ عن

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/298.

الاستمرار في الدُّنيا، أي: في الماضي، ولا ريب أنَّ الدَّلالة الاستقباليَّة لهذا التَّركيب، ترجع لوقوع المضارعِ خبرًا للفعلِ النّاسخ (كان).

دلالةُ الفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾:

دلالـةُ فعـلِ الكينونةِ الماضي على الاستمرارِ في المستقبلِ تبرزهُ القرينةُ

الفعلُ النّاسخُ (كان)، إنَّما يدلُّ على الاستمرار في المضيِّ بمعونةِ القرينة، فإذا ما دلَّ على استمرارٍ مُستقبَليٍّ، فليس ذلك إلّا لوجودِ ما يُساعد على ظهورِه من قرينةٍ، كوقوع المضارع خبرًا له ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ أو كأنْ يكونَ خبرها ممّا يقتضي الاستمرار في الأزمنة الثَّلاثة، أو أن يكون خبرها أمرًا أزَليًّا، كما في صفاتِه (ﷻ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾ [النّساء: 56][1].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ بدلًا من (مَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ):

مـا يـفـتـريـه المـضِـلُّـون، لا يقبله عقلٌ، ولا ترتضيه شريعةٌ

آثر القُرْآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾ إشارةً إلى أنَّ ماكانوا يعبدونهم من دون اللهِ قد أخلَوا أيديهم منهم، وتبرَّؤوا منَ الصِّلة الَّتي أقامها المشركونَ معهم؛ فلم يعتدّوا بعبادتهِم؛ بل أنكروها؛ لأنَّ ما فعله المشركون هو محضُ افتراءٍ لا أصلَ له لا في العقلِ، ولا في الشَّرعِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّظر) و(البصر) و(الرُّؤية):

الـنَّـظـرُ: تـدبُّـرُ الـشَّـيءِ، والبصرُ: إبصارهُ بـالـحـاسَّـةِ، والرُّؤيةُ: إدراكُ حقيقتِهِ

النَّظر: تقليبُ البصيرةِ لإدراك الشَّيءِ ورؤيتِه، وقد يرادُ به التَّأمُّلُ والفحص، وقد يُراد به المعرفة الحاصلةُ بعد الفحص، واستعمالُ النَّظرِ في البصر أكثرُ عند العامَّةِ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصَّة[2]، والبَصَر: يُطلق على الجارحةِ تارَةً، وعلى القوَّة الَّتي فيها أخرى، والبصيرةُ: للإدراك الَّذي في القلب، ويُقال لها بصرٌ أيضًا، فالبصرُ يُطلَق بإزاء هذه المعاني الثَّلاثة[3]، وأمّا الرُّؤية: فهي إدراكُ

(1) العمريّ، بلاغة القرآن الكريم، ص: 241.

(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/82.

(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (نظر)، (بصر).

المرئيِّ، وذلك على أوجهٍ بحسب اختلاف قوى الإنسان، فالأوَّل: الرُّؤيا بالحاسَّة، وهو إدراكُ البصر، والثّاني: بالوهم والتَّخيُّل، والثّالث: بالتَّفكير، والرّابع: بالعقل[1]. وقد تبيَّن من تعريف أهل اللُّغةِ للنَّظر والبصر والرُّؤية أنَّ بينها فروقًا واضحةً، ولكن لكثرةِ استعمال كلٍّ منها في باب المجازِ أدَّى إلى تداخل دلالاتها، ويمكن إجمالُ الفروق الأساسيَّة بينها؛ أنَّ بصرَ الشَّيء يعني: إبصارَ صورته وشكلهِ بحاسَّة البصر، ورؤية الشَّيء يعني: إدراكَ حقيقته بالحاسَّة، أو بالوهم والتَّخيُّلِ، أو بالتَّفكُّر، أو بالتَّعقُّل، فالفرقُ بين البصر والرُّؤية؛ أنَّ بصرَ الشَّيء يعني: إبصارَهُ بحاسَّة البصر، ورؤيتَهُ تعني: إدراكَ حقيقته؛ لأنَّ إدراك الشَّيء يكون بعد إبصارهِ. فقولهُ تعالى على سبيل المثال: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، تقديره: أبصروهُم، فرأَوهم مثلَيْهم، والنَّظرُ في الشَّيء، يعني: تدبُّرَهُ وتأمُّلَه؛ ولهذا كثر تعدّيه إلى مفعوله بـ (في)، وإذا تعدَّى بـ (إلى) أفاد توجيهَ النَّظرِ إليه سواءٌ أبصره ورآهُ، أم لم يبصرهُ ولم يرَهُ[2].

(الضَّلال) و(السَّفاهة) و(الغيّ):

الضَّلالُ: صفةٌ للفعل، والسَّفاهةُ: صفةٌ للنَّفسِ، والغَوايةُ: انحرافٌ عن الجادَّةِ

الضَّلالُ من صفات الفعل، تقول: ضلَّ فهو ضالٌّ، والسَّفاهة من صفات النَّفس، وهي ضدُّ الحِلْم، وهي معنًى ثابتٌ يولِدُ الخفَّة والعجلة المذمومتَيْن، والحِلمُ معنًى ثابتٌ يولِد الأناة المحمودة[3]، والضَّلال أعمُّ منَ الغَواية، وهو ألّا يجدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغَواية ألّا يكونَ له إلى المقصد طريقٌ مستقيم؛ ولهذا لا يُقال للمُؤمن: إنَّه ضالٌّ أو غير مُهتدٍ، ويقال له: إنَّه غويٌّ غير رشيد[4].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/195 - 196.
(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/605.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 4/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4209.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ أحوالِ المشركين في الآخرة ببيانِ أسبابِ الجهلِ والكفرِ والتّكذيبِ

بعد أن بيَّن الحقُّ تعالى أحوالَ الكفّارِ في الآخرة أَتْبَعهُ بما يوجِبُ اليأسَ من إيمان بعضهم، فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾[1]، وهو كلامٌ مَسوقٌ لحكاية ما صدرَ في الدَّنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفرِ، ثمَّ بيانِ ما سيصدر عنهم يوم الحشرِ؛ تقريرًا لما قبله، وتحقيقًا لمضمونه[2] - جاءت هذه الآيةُ لتبيِّن سببَ ما وصلوا إليه في هذه الحالة، وذلك بأنَّهم عندما كانوا يسمعون دعوة الرَّسول ﷺ كانت قلوبهم مغلَقةً لا يصل إليها النّور الإلهيُّ؛ لشدَّة إعراضِهم عنِ القرآن، ووصفِهم له بالأساطيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَمِعُ﴾: السَّماعُ: هوَ إيناسُ الشَّيء بالأُذن منَ النّاس وكلِّ ذي أُذنٍ، تقول: سَمِعتُ الشَّيءَ سَمعًا، ويأتي بمعنى: الطَّاعة، فيُقال: سَمِعَ الأمرَ، إذا أطاعه، والسَّمع: قوَّةٌ في الأُذنِ بها تُدرك الأصواتُ، والسَّماع: اسمُ ما استلذَّتِ الأذنُ من صوت حسن، ومن معانيه أيضًا: الإجابةُ، والفهمُ، والغناء، وما سَمِعتَ به، فشاع، وتُكلِّم به[3].

2) ﴿أَكِنَّةً﴾: الكِنانُ: الغطاء الَّذي يُكَنُّ فيه الشَّيءُ، والجمع

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/504.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، والآلوسّي، روح المعاني: 4/118.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سمع).

أَكِنَّةٌ، نحو: غطاءٍ وأَغطية. والكِنُّ: كلُّ شيءٍ وقى شيئًا، فهو كِنَّةٌ وكِنانَةٌ[1]. يعني في أَكِنَّة عَلَيْها الغطاء، فلا تَفْقَه ولا تفهم ما تَقولُ[2]. والأَكِنَّةُ: جمعُ كِنانٍ بكسر الكاف، وهو وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسَتْرُه، ويُجمعُ على أَكْنانٍ أيضًا، وكَنَّه وأَكَنَّه: سَتَره، قال أبو زيد: الثُّلاثيُّ والرُّباعيُّ لغتان في السَّتْرِ والإخفاء جميعًا، واستَكَنَّ: اسْتَتَر، وأَكننْتُهُ في نفسي: سَترتُهُ وأضمرتُه، وسمّيتْ جَعْبَةُ السِّهام: كنانةً؛ لأنَّها تسترُها، فإذا أراد إخراجَها؛ نثرَها[3].

3) ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: الفِقْهُ: الإدراكُ والعلمُ بالشَّيءِ، والفقيهُ: العالِمُ، وكلُّ علم بشيءٍ فهو فقه. وقيل الفقهُ: إدراكُ دقائق الأمورِ، وأصلهُ: الفتحُ والشَّقُّ. ويأتي الفقهُ بمعنى: الفهمِ، يُقال: فَقِهتُ الحديثَ، أي: فهمتُه، وقيل: هو الفهمُ بعد الجهلِ. ويُستَعمَل أيضًا بمعنى: العقلِ، والفِطْنةِ[4]، يقال: فَقِه يفقَه؛ إذا فهمَ، وأَفقَه غيرَه؛ إذا أفهمَه، وفقُه يفقَه؛ إذا صار فقيهًا[5]. وقيل: الفقهُ يدلُّ على إدراكِ الشَّيء والعلم به، تقول: فَقِهْتُ الحديثَ أَفْقَهُهُ، وكلُّ علم بشيءٍ فهو فِقهٌ، يقولون: (لايَفْقَه ولايَنْقَه)، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فقيهٌ، وأَفْقَهْتُك الشَّيءَ؛ إذا بيَّنْتُه لك"[6].

4) ﴿وَقْرًا﴾: الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأُذُن، أو هو ذهابُ السَّمعِ كلِّه، والثِّقل أخفُّ من ذلك، وأصلُ الوَقْر: ثِقلٌ في الشَّيء، يُقالُ: وقَر الشَّيءُ يَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلَ، والوِقْرُ: الحِملُ، ومنه الوَقارُ: الحِلمُ والرَّزانةُ[7]، قال ابن عبّاس: صَممًا، وقال الضَّحّاك: ثِقلًا، وليس المعنى: أنَّهم لم يعلموا ولم يسمعوا، ولكنَّهم حُرِموا الانْتِفاعَ به، فكانوا بمنزلة مَن لم يعلم، ولم يسمع"[8].

5) ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾: الجدَلُ: شدَّةُ الخصومةِ، والمجادلةُ والجدالُ: المناظرةُ والمخاصَمة، يُقال: جادله، أي: ناظرَهُ وخاصمه، ويأتي بمعنى الغَلَبةِ، وأصله منَ الجَدْل، وهو: القوَّة والصَّلابة، ومنه سُمّيتِ المناظرةُ جَدَلًا؛ لأنَّ فيها إظهارًا للقوَّة والشِّدَّة[9].

(1) الخليل، العين: (كنّ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (كنن)، والرّاغب، المفردات: (كنّ).
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/419.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/85.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (فقه).
(5) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 6/4463.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 4/442.
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (وقر).
(8) النّيسابوريّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/261.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).

6) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ، والأساطير: أحاديثُ لا نِظامَ لها، واحدتها إسطارٌ وإسطارةٌ، بالكسرِ، وسطَّرها: ألَّفها، وسطَّر علينا: أتانا بالأساطير، يُقالُ: سطَّر فلانٌ علينا يُسطِّرُ؛ إذا جاء بأحاديثَ تشبه الباطل[1]، وهذه أُسطورةٌ من أساطير الأولين: مما سطَّروا من أعاجيب أحاديثِهم، وسطَّر علينا فلانٌ: قصَّ علينا من أساطيرهم[2]، وقال الزَّجّاج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]، خبرٌ لابتداء محذوفٍ، المعنى: وقالوا الَّذي جاء به أساطير الأوّلين، معناه: سطَّرَه الأوَّلون، وواحدُ الأساطير: أسطورةٌ، كما قالواْ: أحدوثةٌ وأحاديثُ"[3].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بـيـانُ أنَّ من المـشـركـين من في أذنيـهِ وقـرٌ، يـحـجـبـهُ عن التَّأثُّرِ بالقرآن وتصديقِهِ

يُخبِرُنا تعالى أنَّ مِنَ أولئك المشركين، مَن لا ينتفعون بسماعِ القرآن الكريم من النَّبيِّ المبلِّغ، حيث جعلَ الله في آذانهم وقْرًا، وعلى أبصارهِم غشاوةً، وعلى قلوبهِم رانًا، فلا يتأثّرون بالقرآن ولا يهتدون بنوره السّاري، وقد جُبلوا على المكابرةِ، وفُطروا على المنابذةِ، وتمرَّسوا على العناد الشَّديد، والجحود العتيدِ، ولم تُغْنِهم حُجَجٌ واضحةٌ، ولا براهينُ ساطعة، ولا بلاغة محكَمةٌ، ولا أحكامٌ ملهمَة، بل راحوا يجادلون النَّبيَّ الأكرم، ويتّهمون الكتاب الأعظم بأنَّه أساطيرُ مقتبسةٌ عن السّابقين، وهم بذلك ينصرفون عن الحقِّ، وينهون النّاس عن اتِّباعه، ولا يدرون أنَّهم يضرّون أنفسَهم دون شعورٍ بالعواقب.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾:

لا تـعـجـل بـالـحُـكـمِ على المضمون، فعندَ الـخُـبۡرِ تنقطع الظُّنونُ

عُطِفَت جملة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، لما بينهما مِنَ الاتِّصال؛ فهو من باب عطف جملة ابتدائيَّةٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سطر).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سطر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سطر).

على الجمل الابتدائيَّة الَّتي قبلها من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، وفي هذا العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ الحديثَ ما زال موصولًا عنِ المشركين الَّذين بدأ الحديث عنهم في أوّل السّورة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، والمعنى: ومنَ الكفّارِ مَن يستمعُ إليك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (من) التَّبعيضيّة في قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾:

مَـنِ استعملَ عقلَهُ؛ أبصرَ السَّبيلَ، ومن عاندَ؛ تنكَّبَ الحقَّ

التَّعبيرُ بـ (من) الَّتي تفيد التَّبعيضَ، فيه إشارةٌ قرآنيَّةٌ إلى تصنيف كفّارِ مكَّةَ، فليسوا كلُّهم على حالةٍ واحدة؛ فهناك مَن يجعلون أنفسهم منَ العقلاءِ الَّذين يربؤون بأنفسِهم عن أن يقابلوا دعوة الرَّسول ﷺ بمثل ما يقابلهُ به سفهاؤهم، منَ الإعراضِ التّامِّ[2]، بل يسمعون أوّلًا، حتَّى يوهموا ضعفاءَ العقول، بأنَّهم رفضوا عن قناعةٍ لا عن حماقةٍ، فيستميلونهم إلى الإنكار والكفرانِ بطريقة ذكيَّةٍ، واستدراج ماكرٍ لئيم، وهذا منهجٌ واضحٌ في تضليل أئمَّة الكفر لأتْباعهم، ينبغي الحذرُ منه في القديم والحديث، وهذا ما يفعلهُ المستشرقون وأعداء الإسلام في قراءتِهم للقرآن الكريم، يقولون: نحن نقرؤُه، ولكن نجد فيه تناقضًا وأخطاءَ من جوانبَ عديدةٍ في زعمهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغَيبةِ ﴿وَمِنۡهُم﴾، للتَّهوينِ من شأنِ المشركينَ:

كـلُّ مـن عانـدَ الـرَّسـول وأنكـرَ القرآنَ؛ آلَ إلى الهَلكةِ والهوان

التَّعبيرُ بالضَّمير فيه تسليةٌ للرَّسول ﷺ، وتهوينٌ من شأن هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ، كان يَحْزُنُه عدمُ إيمانِهم؛ فعبَّر القرآنُ عنهم بالضَّميرِ؛ لبيان أنَّهم مع ادِّعائهم زعامةَ قريش؛ فهم عند اللّٰه لا وزنَ لهم؛ لأنَّهم في حكم الغَيبةِ. ويؤكِّد هذا المعنى ما رواهُ ابن عبّاسٍ بقوله: إنَّ أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنَّضْرَ بن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/178.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/279، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/179، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/150.

الحارثِ، وعُتبة وشَيبة ابنَيْ ربيعة، وأميَّة بن خلف؛ استمعوا إلى رسول اللّه ﷺ وهو يقرأ القرآنَ، فقالوا للنَّضْر: يا أبا قتيلةَ ما يقول محمَّد؟ فقال: والَّذي جعلها بيتَه (الكعبة) ما أدري ما يقولُ، إلّا أنّي أرى تحرُّكَ شفتيه يتكلَّم بشيءٍ، فما يقول إلّا أساطيرَ، مِثْلَ ما كنتُ أحدِّثكم عنِ القرون الماضية، وكان النَّضْر كثيرَ الحديث عنِ القرون الأولى، وكان يحدِّثُ قريشًا، فيستملحون حديثَه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الإفرادِ في قوله تعالى: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾:

إذا سُدَّت منافذُ الهدايةِ؛ انتهى صاحبها إلى أسوأِ نهايةٍ

في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَمِعُ﴾، جاء الفعلُ بصيغة الإفرادِ مراعاةً للَّفظ (مَن)؛ لأنَّ (مَن) الموصولة يجوز أن يُراعى معناها، وأن يُراعى لفظها، فإذا روعي معناها؛ جُعِل العائد عليها حسب ما يراد بالمعنى، وإذا روعي اللَّفظ؛ صار مفردًا[2]، فالقرآنُ لايصلُ إليهم أفرادًا وجماعة، لِلوَقْرِ الَّذي وُصِدَتْ به مسالكُ السَّمع لديهم، وقد تفاهموا فيما بينَهم على الإعراضِ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]، وعلى ذلك لايكون لاستماعِهم جدوى، ولا لدعوتهم فائدةٌ[3].

دلالةُ اختيارِ الاستماعِ (إليك) دون الجلوسِ أو الإتيان:

مَـنْ سـاءَتْ بالحقِّ نواياهُ؛ لم يتعرَّف على هدايةِ مولاهُ

عبَّر بالسَّماع دون الجلوسِ أو الإتيان؛ لأنَّ السَّماع يلزمُ منه ذلك، بخلاف الإتيانِ والجلوس؛ فلا يلزم منه السَّماع، فقد يأتي ولا يسمعُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سماعَهم ليس لغرضٍ محمود، بل لغرضٍ مذموم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور (إليك) بدلًا منَ (اللَّام):

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عنِ اللّام إلى (إليك)؛ ليفرِّقَ بين نوعين منَ السَّماع؛ فالفعل المتعدّي باللّام يفيد سماعَ قبولٍ ورضا، قال

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/118، وطنطاويّ، الوسيط: 5/58.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5: 2472.

تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]، بخلاف المتعدّي بـ (إلى)؛ فإنَّه يفيد أنَّ سماعَهم لا يتجاوزُ زمان السَّماع ومكانه؛ فلا يصلُ إلى قلوبهم؛ فالغايةُ عندهم مجرَّد السَّماعِ، وليس الإيمان، وفيه إشارةٌ إلى إظهارِ المبالغة في السَّماع؛ كأنَّهم يسمعون إليك في كلِّ ما تقول.

لاينفعُ أن تكونَ الأذنُ سامعةً، والقلبُ في صَممٍ

إيثارُ كافِ الخطابِ في (إليك) من قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ كافَ الخطابِ في قَوْلِه: ﴿إِلَيْكَ﴾ للإشعار بعلوِّ قدرِه ﷺ، وأنَّه في محلِّ الخِطاب، وكان عليهم أن يسمعوا سماعًا حقيقيًّا، يصل بهم إلى الإيمانِ، فالعيبُ فيهم، وليس فيما تقولُ يا رسولَ اللَّه ﷺ، وقد كان أصدقَ النّاس لهجةً، وأفصحَهم لسانًا، وأصدقَهم نُصحًا، وأسرعَهم تطبيقًا لما يقول على نفسِه، فكان الاستماعُ إليه مفيدًا ومؤثِّرًا، لو أنَّهم استمعوا إليه بإنصافٍ وصدقٍ، ولكنَّهم لا يشعرون بذلك، فَعَموا وصَمّوا.

رسولُ اللهِ قدوةٌ وكمالٌ، والإصغاءُ إليه طاعةٌ للهِ ونوالٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْل مكانَ الخَلْقِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

عبَّر بالجَعْل للإشارة إلى أنَّ ما جعله اللَّهُ على قلوبهم منَ الأكنَّة، وفي آذانهم منَ الوَقْر؛ لعلم اللَّه الأزليِّ القديم، بأنَّهم سيكونون على هذه الحالةِ من صمِّ آذانِهم، وإغلاقِ قلوبهم عن قَبول الدَّعوة الإسلاميَّة إلّا النَّزرَ اليسيرَ منهم؛ بخلاف الخَلْق، فقد يُتصوَّرُ أنَّ الأمرَ فُرِض عليهم، ولا دخلَ لهم فيه، ومعاذَ اللَّه أن يظلمَ ربُّك أحدًا.

مَنِ انغلقَ قلبُه عن الهُدى، تخبَّط في الضَّلالةِ وما اهتدى

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

(على) تفيدُ الاستعلاءَ، والمرادُ: استعلاءُ الأكنَّة على القلوب، وبذلك تكون تحت الغطاءِ، وتمكَّنت منه، بحيثُ لا يصل إليه شيءٌ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك، أنَّهم قالوا في سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: 5]؛ ليُعْلِنوا إعراضَهم التّامَّ عن سماع القرآن؛ فلمّا قالوا ذلك؛ عاقبَهم اللَّه تعالى، بأن جعلَ

مَن طُمِسَ قلبُهُ لم تجدِ الهدايةُ إليه سبيلًا

الأكنَّةَ على قلوبِهم؛ بحيثُ تتمكَّن منهم؛ فلا يستطيعون إخراجَ ما فيها منَ الكفرِ.

دلالةُ اختيارِ لفظِ القلوبِ دونَ الأفئدةِ أو الصُّدورِ:

القلبُ موئلُ الإيمانِ، وجارحةُ الوصلِ بالرَّحمنِ

اختار القلوبَ لأنَّها محلُّ التَّكليف، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة: 225]، ولأنَّها محلُّ الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22]؛ ولأنَّها محلُّ القوَّة العاقلةِ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، إلى غير ذلك منَ الخصائص الَّتي تؤكِّد أصالةَ القلب، وأنَّ الفؤادَ والصَّدر تابعان له.

دلالةُ إضافةِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

منَ المشركين أشقياءُ هلكوا، وسعداءُ أسلموا وتألَّقوا

أضاف القلوبَ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ التَّخصيص، وكأنَّها تشير إلى فريقٍ من مشركي مكَّة؛ هم الَّذين جعلَ اللّه على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وقْرًا، أمّا بقيَّة مشركي مكَّةَ؛ فدخلوا في دينِ اللّه أفواجًا، وقد نصر اللّه بهم الدّينَ، وهداهم إلى طريقه المستقيم.

سرُّ تقديم السَّمعُ قبل الفقهِ:

نفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ، وثبوتُ الأخصِّ يستلزمُ ثبوتَ الأعمِّ

من خلال قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ وقوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ جاء تقديم السَّمع على الفِقه؛ لأنَّه أوَّل عضوٍ يؤدّي وظيفته في الدُّنيا، فله سبقُ الوجود، ولأنَّ السَّمع مُتقدِّمٌ في الوجود على الفقه؛ إذ لا يَفْقَه الإنسانُ الشَّيءَ حتَّى يسمعه، فقدَّم في اللَّفظَ ما هو مُتأخِّر في الوجود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّماع يشمل المكتوب وغيره؛ لأنَّ الدَّلائلَ السَّمعيَّةَ منها مسموعٌ، ومنها مكتوبٌ، وكلُّها راجعةٌ للسَّمع؛ لأنَّ المكتوب يُسمع قبل كتبه، وحينئذٍ يُكتب، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الأعمِّ يستلزم نفيَ الأخصِّ، وثبوتَ الأخصِّ يستلزم ثبوتَ الأعمِّ ولا ينعكس، والمسموعُ أعمُّ؛ لأنَّ منه ما يُفهم، ومنه ما لا يُفهم، فلو قُدِّم أوَّلًا لكان نفيُ الفهم عنه تأكيدًا، فلمّا قيل: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ

﴿أَكِنَّةً﴾، انتفى عنهم الفهم، وبقي السَّمع بلا فهم، فبقي ثانيًا، وكان تأسيسًا. وأجابَ بعضهم: بأنَّ المرادَ الفهم بقصد، والسَّمع أصلُه، والمقصدُ أشرفُ منَ الوسيلة فقُدِّم للاهتمام(1).

التَّعبيرُ بالاستماعِ بدلًا منَ السَّماع في قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

الزِّيادةُ في المبنى تُفضي إلى زيادةٍ في المعنى

عبَّر بالاستماعِ لأنَّه في الآية بمعنى الإصغاءِ المشوبِ بالاستعلاءِ والانتقاد، لا استماع تدبُّرٍ وانقياد، وهو لازم يعدَّى بـ (اللّام) و(إلى)، كما صرَّح به أهل اللُّغة، وقيل: إنَّه مُضمَّن معنى الإصغاءِ، ومفعوله مُقدَّرٌ، وهو القرآن(2).

دلالةُ إسنادِ الفعل (جعل) للهِ تعالى:

عطاءُ اللهِ لا ينتهي، وكلُّ ما جعل؛ فلحكمةٍ يعلمُها هو

وجهُ إسنادِ الفعل إلى ذاتِه تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جاء للدَّلالة على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم، لا يزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حكايةٌ لما كانوا ينطقون بهِ من قولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصّلت: 5].

دلالةُ الفعلِ الماضي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

مَن طَبعَ اللهُ على قلبِهِ، فلا أملَ لهُ في دنيا ولا آخرة

دلَّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ اللهَ خلقهم على هذه الخصلةِ الذَّميمة والتَّعقُّل المُنحرِف؛ لعلمه الأزليِّ بما يكونون عليه، فهم لهم عقولٌ وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائر البشر، ولكنَّ أهواءهم تُزيِّن لهم المنعَ من اتِّباعِ الحقِّ، فالجَعْلُ بمعنى الخَلْق، وليس للتَّحويل من حالٍ إلى حال(3).

تقديمُ قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ على مفعوليهما:

تقديمُ دواعي الفضاضةِ من انغلاقِ القلوب، وانسدادِ الآذانِ

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ حيث إنّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله:

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/118.

(3) علويّ السّقّاف، الدّرر السّنيّة: التّفسير المحرّر للقرآن الكريم. (سورة الأنعام)، كتاب إلكترونيّ غير مرقّم.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يتعلَّقان بـ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وقدَّم كلًّا منهما على مفعول ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، للتَّنبيهِ على تعلُّقه به من أوَّلِ الأمر، وهذا تمثيلٌ مُعرِبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النَّبيِّ ﷺ، وفرط نَبْوَةِ قلوبهم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعهم له[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

الفِقهُ محلُّهُ القَلبُ، وبهِ تُفقَهُ الأحكامُ، وتُدركُ الحقائقُ

والأكنَّةُ جمع كِنانٍ، وهي الأغطيةُ، والمعنى: أنَّه لا يصل الحقُّ إلى قلوبهم؛ لوجود ذلك الغطاء الحاجزِ المانع من أن يصلَ نورُه إلى قلوبهم، بل إنَّه لا يصلُ إلى مسامعهم، فقد جعلَ اللّه تعالى في آذانهم وقْرًا، والوَقْر، بفتح الواو ثِقَلُ السَّمع، وهذا النَّص كنايةٌ عن كمال الإعراضِ، فهم لا يصل إليهم القرآن، وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراضِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]، وإذا وصل إلى سمعِهم فهنالك غشاوةٌ على قلوبهم، تمنعهم من أن يُشْرِقَ فيها نورُه، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدةٌ[2]. فمن خلال هذه الاستعارةِ، جُسِّمت الأمور النَّفسيَّة، وأصبحت ظاهرةً للعيان، يتأمَّلُها المتلقّي، ويلاحظها، فيزداد إدراكُه وفهمُه للمعنى المراد إيصالُه، ومن ثمَّ يحدث لديه التَّأثيرُ والإقناع، وهي الغايةُ من هذا التَّصوير.

سرُّ الجمعِ بين الوَقْر والأكنَّةِ في الآية الكريمة:

عدمُ الانتفاعِ بالسَّماعِ، هو لونٌ من ألوانِ الصَّممِ التَّامِّ

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾، ففي جعلِ الأكنَّة على القلوب، والوَقْر في الآذان، تشبيهٌ للحُجُبِ والموانعِ المعنويَّة بالحُجُبِ والموانعِ الحسّيَّة؛ فإنَّ القلب الَّذي لا يَفقهُ الحديثَ، ولا يتدبَّره، كالوعاءِ الَّذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ - وهو الغطاءُ - حتَّى لا يَدْخُلَ فيه شيءٌ، والآذان الَّتي لا تسمع الكلامَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/180.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2471.

سماعَ فهمٍ وتدبُّرٍ، كالآذان المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمعَها وعدمَهُ سواءٌ، وفيه كنايةٌ في جعل الأكنَّة على القلوب، والوَقْر في الآذان، وهذا كنايةٌ عن نُبوِّ قلوبهِم ومسامعهم عن قَبول الحقِّ، والاعتقاد بصحَّتهِ[1].

سرُّ الجمعِ بين الوَقْرِ والأكنَّةِ في قوله: ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾:

من لا قلبَ له؛ فهو كالأنعامِ السَّائمةِ، أو أقلُّ شأنًا

جمع بين الوَقْر والأكنَّةِ؛ لتمثيل فَرْطِ بُعدهِم عن فهم الحقِّ وسماعه، كأنَّ قلوبَهم لا تعقل، وأسماعَهم لا تدرك، قال قتادة: يسمعون بآذانهِم، ولا يعون منه شيئًا، كمثل البهيمةِ الَّتي لا تسمعُ النَّداء، ولا تدري ما يُقال لها[2].

دلالةُ اختيارِ ﴿أَكِنَّةً﴾ دون (أَغطيةٍ) في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

صُوَرُ القرآنِ البيانيَّةُ تقرِّب المعنى، وتجلِّي الدَّلالة

اختار القرآنُ الكريم (الأكنَّة) دون الأغطيةِ، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى، إلّا أنَّ الأكنَّة أبلغ في هذا المقام؛ لأنَّها تعني: الغطاءَ السّاتر؛ فكأنَّ القلبَ داخلٌ في هذه الأكنَّة؛ بخلاف الغطاء فلا يلزم منه ذلك، أيضًا أنَّ الأكنَّة تُستعمل في الغالب في المعاني النَّفسيَّةِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة: 235]، وأيضًا لأنَّ الأكنَّة تفيدُ سترَ الشَّيء ووقايتَهُ بخلاف الغطاء.

دلالةُ اختيارِ جمع (أكنَّة) دون غيرِه، من بلاغةِ القرآنِ:

القرآنُ يختارُ الأفصحَ في الجموعِ الصَّرفيَّةِ في الاستعمال

اختارَ القرآنُ الكريمُ هذا الجمع الَّذي مفرده (كِنان)، يُجمع على أكنَّةٍ في القلَّةِ والكثرة؛ لتضعيفه، وذلك أنَّ فَعالًا وفِعالًا بفتح الفاءِ وكسرها يجمع في القلَّة على أَفعِلة، وفي الكثرة على (فُعُل) إلّا أن تكون مضاعفًا؛ مثل (كنان) أو معتلَّ اللّام: كخِباء؛ فيلزم جمعهُ على أفعِلة، ولا يجوز جمعُه على فُعُل إلّا في القليل النّادر[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/88.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/122.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 4/577.

الفقهُ: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، والفهمُ: سرعةُ الإدراك لحقائقِه

دلالةُ اختيارِ لفظ (الفقه) دون لفظِ (الفهم):

آثرَ التَّعبيرَ بالفقه؛ لأنَّه أبلغُ، فالفقه: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، وعلى هذا فإنَّ الفقه يحمل معنى طولِ النَّظر، والتَّأمُّل، وعمق الاستيعابِ للجوانب الخفيَّةِ والغامضة، ولذلك لا يقال للرَّجل: فقيهٌ، حتَّى يبلغ مبلغًا عظيمًا منَ العلم، يؤهِّله لاستنباط الأدلَّة، ومن هنا استخدمَ القرآنُ لفظ الفقهِ في القضايا الدَّقيقة، مثل: قضايا الأرزاق، وتدبيرِ الأمور؛ فقال عنِ المنافقين عندما ذكرَ القرآن عنهم: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النِّساء: 78]، فما أدركوا أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللَّه، بدليل قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النِّساء: 78]، وكان تعقيبُ القرآن على موقفهم بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النِّساء: 78]، وقال - أيضًا - في حقِّ المشركين: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ [الإسراء: 46]، فلم ينفِ عنهم صفةَ الفهم، بل نفى عنهم الفقه؛ لأنَّ لهم عقولًا يدركون بها أسرارَ القرآن الكريم، ولكنَّ أهواءهم حرمَتْهم من هذا الفقه، وطول النَّظر؛ لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ الفقه في هذه الآية، أمّا الفهمُ؛ فورَد في سورة الأنبياء في قصَّة سليمان وداود عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: 79]؛ فالملاحظ استعمالُ الفعل (فهَّمنا) دون (فقَّهنا)؛ لأنَّ داود وسليمان عليهما السلام كليهما، كانا فقيهين بدليلِ ختام الآية: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: 79]، لكنَّ سُليمان - عليه السلام - كان أسرعَ إلى إدراك القضيَّة، والبتِّ فيها، وعلى هذا؛ فالفهم يدلُّ على سرعةِ الإدراك، وإن كان ذلك من بابِ الإلهام منَ اللَّه لسيِّدنا سليمان عليه السلام.

القرآنُ مصدرُ الفقهِ، ومنبعُ الأحكامِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾:

عبَّر بالضَّمير المنصوب في ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾؛ لأنَّه عائدٌ إلى القرآنِ المفهوم من قوله: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾، ويجوز عَوْدُ الضَّمير على

حديثه ﷺ، "ومعنى أَنْ يَفْقَهوهُ، أي: كراهة أن يفهموا ببواطن قلوبهم بواطنَهُ الّتي بها إعجازهُ وإرشاده، بإقامة الدّلائل ورفعِ الشُّبَه"[1].

دلالةُ اختيارِ (الوقر) دون الصَّممِ في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾:

الوَقرُ إبانةٌ عن مبالغةِ المشركين في الإعراضِ عن القرآنِ

اختار القرآنُ الكريم (الوَقْرَ) لما فيه منَ الجمع بين الصَّمم والثِّقل، من قولهم: أوقرتُ ظهرَهُ، أي: أثقلتُه، وعلى هذا فالوَقْرُ هو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّه يشير إلى المبالغةِ المفرطة منَ المشركين في الإعراض عنِ القرآن، وأيضًا؛ لأنَّ الأذنَ توصفُ بأنَّها صمّاء، ولا توصف بأنَّ فيها وقرًا إلّا على وجه المبالغة، وهذا واضحٌ في حديث القرآن عنِ المشركينَ، عندما تُتلى عليهم الآيات: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ [لقمان: 7].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

مَن عَمِيَ بصرُهُ عن الحقائقِ؛ انطمسَتْ بصيرتُه عن هُدى الخالقِ

عبَّر بـ (إن) الدّالَّة على الشَّكِّ، وعدم الوقوع؛ لأنَّ رؤيَتهم لكلِّ الآية لم تقع، وإنَّما الواقع رؤيتُهم لبعضها[2]، وفيه زيادةٌ في التَّشنيع على المشركين، بأنَّهم لا يؤمنونَ إلّا بالمسموع أو بالمرئيِّ، وفي الآية "إشارةٌ إلى أنَّه لا يختصُّ ما ذكر منهم بالقرآنِ، لرؤيتهم قصورًا فيه، بل مهما يروا من الآياتِ والحُجَجِ، ممّا يدلُّ على صدق الرَّسول لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السِّحر لفَرْطِ عنادهم، واستحكام التَّقليدِ فيهم، فلا فَهْمَ عندهم ولا إنصافَ"[3].

دلالةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

الكفّارُ لا ينتفعون بما سمعوا من رقائقَ، ولا ما شاهدوا من حقائقَ

المقصودُ منَ الجملةِ الشَّرطيَّة في الآيةِ الإخبارُ عنِ المبالغة التّامَّة، والعِنادِ المفرط في عدم إيمانهم، حتَّى إنَّ الشَّيء المرئيَّ الدّالَّ على صدق الرَّسولِ حقيقةً، لا يرتِّبون عليه مقتضاه، بل يرتِّبون عليه ضدَّ مقتضاه[4].

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.

(3) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/149.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/470.

المرادُ مِنَ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾:

دلالــةُ التَّعبير بالرُّؤية في الآية الفارطةِ

المرادُ مِنَ الرُّؤية هنا البصريَّة، ومِنَ الآياتِ المعجزات الحسّيَّة كانشقاقِ القمر، ونبعِ الماء من بين أصابع النَّبيِّ ﷺ الشَّريفة، وقد دلَّ التَّعبير على أنَّ هذه الجملةَ الكريمة المقصود بها ذمُّهم لعدم انتفاعهِم بحاسَّة البصرِ بعد ذمِّهم لعدم انتفاعِهم بعقولهِم وأسماعِهم.

التَّعبيرُ بالآيةِ دونَ المعجزةِ في قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾:

وفي كلِّ شيءٍ له آيــةٌ، تــدلُّ على أنَّه الواحدُ

لأنَّ لفظ الآية أعمُّ؛ فيشمل الآياتِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّة والمعجزاتِ، والمعنى: أنَّهم إذا رأوا أيَّ آيةٍ من هذه الآيات الدّالَّةِ على الوحدانيَّة، وصِدْقِ الرِّسالة لا يؤمنون بها لفرطِ عنادهم، والمعْنى: "وإن يروا كل آيةٍ من الآياتِ الدّالَّة على صحَّة نبوَّتِكَ، وصدقِ دعوتك، وحقيقةِ ما تدعو إليه، لا يؤمنوا بها؛ لأنَّهم لا يفقهونها، ولا يدركون كُنْهَ المراد منها، لعدم التَّوجُّه، أو لوقوف أسماعهم عند ظواهرِ الألفاظ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي الإيمان بدلًا مِنَ الكفر في قوله: ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ﴾:

أدبُ الـقـرآنِ في تأليفِ القلوبِ، وجذبِها للحقِّ، أسلوبٌ متفرِّدٌ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ نفيَ الإيمان دون أن يصفَهم بالكفرِ، مع وجودِهِ؛ لفتح الباب للدُّخول في الإيمان، وكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ بعضَهم مؤهَّلٌ للإيمان بهذه الآيات، وهذا ماحدثَ في فتح مكَّةَ، فقد آمنَ الكثيرُ من عُتاة قريشٍ، وانقادوا للإسلامِ، وهم في قرارةِ أنفسِهم، كانوا يرون الحقَّ ناصعًا، ولكنَّهم يُكابِرون ويجحدونَ، وبقيتِ الفئةُ المذكورة في هذه الآية تعاندُ الحقَّ إلى آخرِ رَمَقٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

حرف (حتَّى) موضوعٌ لإفادةِ الغاية، أي: إنَّ ما بعدها غايةٌ لما قبلَها، وأصل (حتَّى) أن يكونَ حرف جرٍّ مثل (إلى)، فيقع بعده اسمٌ مفرد مدلولُه غايةٌ لما قبل (حتَّى)، وقد يعدل عن ذلك، ويقع

---

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290.

المجادلةُ رمزيَّةٌ للصِّراعِ بين الحقِّ والباطلِ في مكابرةٍ وعنادٍ

بعد (حتَّى) جملة، فتكون (حتَّى) ابتدائيَّةً، أي: تُؤْذِنُ بابتداءِ كلامٍ مضمونُه غايةٌ لكلامٍ قبل (حتَّى)؛ ولذلك قال ابن الحاجبِ في الكافية: إنَّها تفيدُ السَّببيَّة[1]، فليس المعنى: أنَّ استماعَهم يمتدُّ إلى وقت مجيئهم، ولا أنَّ جَعْلَ الأكنَّة على قلوبِهم، والوَقر في آذانهم، يمتدُّ إلى وقت مجيئِهم، بل المعنى: أن يتسبَّب على استماعهم بدون فَهْم، وجعل الوقرِ على آذانهم، والأكنَّة على قلوبهم، أنَّهم إذا جاؤوك؛ جادلوك[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إن):

جدالُ الكفَّارِ مبالغةٌ في الإنكارِ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّق الوقوعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَرَض عليهم الدَّعوةَ، وقدَّم لهم الأدلَّة على صدقِ دعوته ﷺ؛ فقابلوا ذلك بالجدالِ والخصام، وجاؤوا مجادِلينَ للرَّسول بِصَفاقَةٍ وجُرأةٍ، يُكابِرون في الحقِّ، ويَصِمون النَّبيَّ المرسَل والكتابَ المنزَلَ بما لا يعقله عقلٌ، ولا تقبله فطرةٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ دون (أتوك):

كانَ اختيارُ لفظِ المجيءِ أوفقَ لِحالِهم في تطلُّبِ الجدالِ

عبَّر بالفعلِ الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ الَّذي يفيد تحقُّق الوقوعِ دون أَتَوْك؛ لبيانِ أنَّ مجيئَهم لم يكن لطلب الهدى، ولا لاتِّباعه ﷺ، بل مَجيءَ تحدٍّ واستكبارٍ، يؤكِّد هذا أنَّ المجيءَ في أصل اللُّغة يحمل معنى الصُّعوبة المادّيَّة والمعنويَّة، بخلاف أَتَوْك؛ ففيه سهولةٌ ولينٌ، وليس هذا من شأنِ المشركين، وقد عبَّر السّياق بـ ﴿جَآءُوكَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ المشركين كانوا على عداءِ للنَّبيِّ ﷺ من قبلُ، ثمَّ جاؤوه، ولم يكن مجيئُهم إذعانًا للحقِّ، ولا طلبًا لحقيقةٍ، بل كان مجيئهم تحدّيًا للرَّسول، ومبالغةً في الإنكار، واستهانةً بالقرآن الحكيم، وهو الآية

(1) ابن الحاجب، الكافية في علم النّحو، ص: 45.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181.

الكبرى؛ ولذا قال الَّذين كفروا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنفال: 31][1]، ومباشرةُ الفعل الماضي بالمضارع يُشْعِرُ بحدَّة الحوارِ، وسوءِ أدبهِم مع رسول الله ﷺ.

المجادلةُ مطلَقُ المنازعةِ من خلال قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

دلالــةُ اختيـارِ لـفـظِ الـجـدالِ دون الـحـوارِ، أقربُ إلى طبيعةِ الفاعلين

اختار الجدالَ لأنَّه في أكثر أحواله تمويهٌ، وليس طلبَ حقٍّ، والمجادلةُ مُطلَقُ المنازعة، وسُمّيت بذلك لما فيها منَ الشِّدَّة، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ المتجادلين يريد أن يلقيَ صاحبه على الجدالة، أي: الأرضِ[2]. فجاء اللَّفظُ مناسبًا للسّياق دون الحوار؛ لأنَّ مشركي مكَّةَ جاؤوا مجادلين للرَّسول ﷺ؛ ليُظْهِروا لقومِهِم أنَّهم على خبرةٍ بأسلوب الجدالِ، وأرادوا إنهاءَ دعوته ﷺ عن طريقِ الجدال الَّذي لا ينتهي إلى الحقِّ، بل هو سبيلُ الباطل، بخلاف المحاورة؛ فَيُلْمَحُ فيها الهُدوءُ للوصول إلى الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع بدلًا منَ الماضي في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

العنادُ واللَّجاجُ في الـجـدال دَيْدَنُ المجادِلين بالباطلِ

عبَّر بالمضارعِ مع سبقِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءُوكَ﴾؛ ليشير إلى استحضارِ صورةِ المجادَلة؛ فكأنَّك ترى صورةَ المجادَلة أمام عينيك، رسولُ الله يدعوهم، وهم يطلبون منه مجادلين آياتٍ سبق الحديثُ عنها في أوَّل السّورة، من نزول مَلَكٍ منَ السَّماء أو من كتاب يقرؤونَ فيه نبوَّتَه ﷺ.

بلاغةُ العدولِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

مَــن جــادلَ بـالـبـاطـلِ لإدحاض الحقِّ، فهو إلى الكفر أقربُ

في الجملة عدولٌ عنِ الإضمار إلى الإظهار، حيثُ قال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقُل: (يقولون)؛ لزيادة التَّسجيل عليهم بالكفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبين الحقَّ كما يدَّعون، ولكنَّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به، فيقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قد عدلوا عنِ الجدل إلى المباهَتةِ والمكابرة[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2473.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/119.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181 - 182.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

مَن عرف الحقَّ، وناوأه، وناوره؛ كان من الخاسرين الهالكين

والتَّعبيرُ بالفعل المضارع (يقول) أفادَ معنى الاستمرارِ على صفتهِم وطريقتِهم في القول وغيره، وفيه إشارةٌ إلى علوِّ صوت الكافرين وقوَّتِهم، وتَكرارِ هذا القول كلَّما استمعوا للقرآنِ، وهم في تلك الغَطْرسة الزّائفة، لايعرفون للّه وقارًا، ولا للرَّسول اعتبارًا، بل كانوا يرفعونَ عقائرَهم بالكُفْران، ويجاهرونَ الدّين بالنُّكران، يُسوِّغون ذلك بتسويغاتٍ واهيةٍ، تدلُّ على سذاجةٍ وقصور نظرٍ، وسوء خُلقٍ.

بلاغةُ قَصْرِ القلبِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

القَصْرُ بابٌ واسعٌ في البلاغةِ، يُضْفي على السِّياق جمالًا وانسجامًا

في الآية قَصْرُ قلبٍ؛ لأنَّ الكافرين عندما سمعوا القرآنَ الكريمَ قالوا لرسول اللّه ﷺ: إنَّ ما تقوله - يا محمَّد - ليس وحيًا سماويًّا منَ اللّه، وإنَّما هو أساطيرُ الأمم الغابرة؛ وبذلك فقد قَلَبوا الحقيقةَ في قولهم هذا، ومعناه: "إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوَّلينَ، فيجعلون كلامَ اللّه وأصدقَ الحديث خرافاتٍ وأكاذيبَ هي الغاية في التَّكذيب"[1].

موقعُ الفاصلةِ في السِّياق في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

جملةُ مقولِ القولِ اسميَّةٌ، وهي تفيدُ الحصرَ

جاءتِ الفاصلةُ هنا ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، جملةً مبيِّنةً للجدل الَّذي يخوضون فيه عند استماعِهم للقرآن، وجملةُ مقول القول اسميَّةٌ، وهي تفيدُ الحَصْر والقَصْر، فهم قد قصروا ما يستمعون منَ الآيات، على أنَّها لا تخرجُ عن كونِها من أساطير الأوَّلين.

دلالةُ إظهارِ الفاعلِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

مَن جادلَ النَّبيَّ هو المقصودُ بالَّذين كفروا

أُظهِرَ الفاعلُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أنَّ حقَّه الإضمارُ؛ وذلك لبيان أنَّ كفرَهم هو سبب هذا القول، والمقصودُ نخبةٌ من عُتاة

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

قريش، "بَلَغ تكذيبُهم الآياتِ إلى أنَّهم إذا جاؤوك يُحاجّونك، ويناظرونك في الحقِّ بالباطلِ، ثمَّ فسَّر المجادَلة بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: أباطيلُهم وأحاديثُهم الَّتي لا نظام لها"[1].

المناسبةُ بين مطلعِ الآيةِ ونهايتِها، دليلٌ على تماسكِ السِّياق وتكاملِه

مناسبةُ الفاصلةِ لصدرِ الآيةِ الكريمة:

أمّا مناسبةُ الفاصلة؛ فبيَّنتِ الآيةُ حال المشركين حين استماعِ القرآن، وأنَّ هناك ما يمنعُ من أن يفقهوه، وجاءتِ الفاصلة تؤكِّد على أنَّهم بالفعلِ لم يفقهوه، فوصفوه أنَّه من أَباطيلِ الأمم الغابرةِ وخرافاتِها.

سرُّ إيثارِ الكفَّارِ لوصفِ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين

اتِّهامُ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين كفرٌ صُراحٌ:

أراد المشركونَ بهذا الوصفِ نزعَ القداسةِ عنِ القرآن، حتَّى يطعنوا في نبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، ويُعلِنوا لأتْباعِهم أنَّه من كلام البشر، وهذا أسلوبُ المعاندين عندما يعجزونَ عن إقامة الحُجَّة؛ فلا تجدُ منهم إلّا المكابرةَ والمغالطةَ.

دلالةُ الإفرادِ والجمعِ في ما يشابهُ آيةَ الأنعامِ في سورة يونسَ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢﴾ [يونس: 42]، وللسّائلِ أن يسألَ عن قولهِ تعالى: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾ في آية الأنعام، وتوحيدِ الضَّمير العائد إلى (مِن) حملًا على لفظها؟ وعن قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ﴾ في آية يونس، وجمع الضَّمير العائدِ إلى (مِن) حملًا على معناها؟ ولماذا اختصَّ الأوَّل بالتَّوحيدِ، والثّاني بالجمعِ؟ والجوابُ أن يُقال: إنَّ لكلٍّ منَ الموضعين ما يوجبُ اختصاصَه باللَّفظ الَّذي جاء فيه، فأمّا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾ فقد قيل فيه: إنَّه في قوم منَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.

الكفّار كانوا يستمعون إلى النَّبيِّ وإلى قراءتِه باللَّيل، كأبي سفيانَ والنَّضرِ بن الحارث وعتبةَ وشيبةَ وأميَّةَ وأبيٍّ بنِ خلفٍ، فلم يَكْثُروا كثرةَ مَن في سورة يونسَ؛ لأنَّ المراد بهم في سورة يونسَ جميعُ الكفّار، فَحُمِل ههنا مرَّةً على لفظ (مِن) فوحَّد لقلَّتهم، ومرَّةً على المعنى فجمع؛ لأنَّهم وإن قلّوا كانوا جماعة، وجمع ما في سورة يونسَ ليوافق اللَّفظُ المعنى(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاستماع)، و(السَّماع)، و(الإصغاء)، و(الإنصات):

المعنى الدّلاليُّ لكلِّ لفظٍ، تُحدِّدُهُ الحالةُ والآلةُ في وضعيّاتِ الاستماع

السَّمع: هو إدراكُ المسموع، والسَّمع: أيضًا اسمُ الآلة الَّتي يُسمعُ بها، والإصغاء: هو طلبُ إدراك المسموع بإمالةِ السَّمع إليه، يُقال: صغا يصغو؛ إذا مالَ وأصغى إلى غيره، ويُقال: استمع لما كان بقصدٍ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بالإصغاء، وهو الميلُ، وسَمِعَ يكون بقصدٍ، وبدونه(2).

إضافةً إلى ذلك أنَّ الإنصاتَ سكوتٌ مع استماعٍ، ومتى انفكَّ أحدهما عنِ الآخر؛ لا يُقال له: إنصاتٌ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: 204](3).

(الوَقْر) و(الصَّمم):

الوَقر: الثِّقلُ في الأذن، ثمَّ صار كنايةً، والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع

الوَقر: الثِّقل في الأذن، لعلَّ أصله مادّيٌّ مِن تراكم قذى الأذنِ فيها، حتَّى يسدَّها، ثمَّ صار كنايةً، ومنَ المادّيِّ الوَقْر - بالفتح -: الصَّدعُ في السّاق، والعظم، والحَجَر، والحافِر، لعلَّه نُظِر إلى أنَّه لا يحدث إلّا من ضغط أو صدم ثقيل، ومنَ الثُّقل الذّاتيِّ المادّيِّ يأتي الثُّقل المعنويُّ؛ الوَقارُ: الحِلمُ والرَّزانةُ (الثقل)، وكذلك معنى

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/505 - 506، والكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/118.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245 - 248.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/43، وزكريّا الأنصاريّ، الغرر البهيّة: 2/28.

العظمةِ من لازم الثُّقل، ومن هنا دلَّ الوقارُ على العِظَم المعنويِّ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13]، لا تخافون للّهِ عظمةً. والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يوصفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يقبلهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18]، وقال: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣﴾ [الفرقان: 73]، وأصله انسدادُ مسامِّ الشَّيء مع صلابةٍ، فلا ينفذُ فيه أو منه شيءٌ - كما في القناةِ الصَّماءِ المكتنز جوفها[1].

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقر - صمم).

﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين القائلينَ بأُسطوريَّةِ القرآنِ، وكونِهم ينأَوْنَ وينْهَون عنه

لمّا بيَّن الله ﷻ أنَّهم طعنوا في كون القرآن مُعجِزًا بأن قالوا: إنَّه من جنسِ أساطير الأوَّلين وأقاصيص الأقدمين[1]؛ بَيَّن في هذه الآية أنَّهم لم يكتفوا بذلك، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرهم؛ حيث ينهون النّاس عنِ اتِّباع الرَّسولِ الأكرم ﷺ، وعنِ اتِّباع القرآن؛ فما اكتفوا ببعدهِم عنه، بل أرادوا إبعادَ الآخرين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾: النَّهيُ: الكَفُّ والزَّجْر والمنعُ، ومنه النُّهية؛ وهي العقلُ؛ لأنَّه يمنع صاحبه منَ القبيحِ، وضدُّه: الأمر، وأصلُ النَّهي منَ الانتهاء، وهو التَّوقُّف عند حدٍّ معلوم، ويُطلَق النَّهيُ بمعنى: البلوغ والوصول، والنِّهاية: الغاية والحدُّ، ومن معاني النَّهيِ أيضًا: التَّحريمُ والرَّدُّ والصَّرف[3].

2) ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾: النَّأي: البُعْدُ، نأى ينأى: بَعُدَ، بوزن نعى ينعى، ونأوتُ: بَعُدت، لغة في نأيتُ، والنَّأي: المفارقة، وقول الحطيئة:

وهِندٌ أتى مِن دونها النَّأيُ والبُعدُ

إِنَّما أراد المفارقةَ، ولو أراد البُعدَ لما جمع بينهما، وقيل: نأى، أي: أعرض[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/507.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2473.
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (نهي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفّاظ: (نأي).

3) ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: الشُّعور: جنسٌ منَ العلم لطيفٌ دقيقٌ، أخذًا من نفاذ الشَّعر الدَّقيق، وفي اللِّسان: شَعَرَ به: عَلِمَهُ، أَشْعَرْتُهُ فَشَعَرَ: أَدْرَيْتُه فَدَرى، شَعَرَ به: عَقَلَهُ، شَعَرَ بِكذا: فَطِنَ لهُ[1]، فاستعمالُ الدِّراية والعقلِ والفِطْنةِ، وهي كلُّها دقيقةٌ خفيَّة. والشُّعور عِلْمُ الشَّيءِ عِلْمَ حِسٍّ (أخذًا) منَ الشِّعار، ومشاعرُ الإنسان: حواسُّه"[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الوعيدُ بهلاكِ مَن ينهى النَّاس عن الحقِّ، وينأى عنه بنفسِهِ

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ منَ المشركين مَن يَنْهَون النّاس عنِ اتِّباعِ الحقِّ، ويبتعدون عنه بأنفسِهم، وما يُهلكون إلّا أنفسَهم بصدِّهم، وإعراضِهم عنِ الحقِّ، ولا يشعرون بذلك، "قال ابن عبّاس: لا يأتونه، ولا يَدَعون أحدًا يأتيه"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في الآيةِ الكريمةِ من خلال قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾:

بيانُ عداوةِ المشركينَ للقرآنِ الكريمِ من خلالِ النَّهيِ والنَّأيِ

عُطفت هذه الجملةُ على قولهِ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾، وذلك لما بينهما من شدَّة الاتِّصال؛ لأنَّ الأولى بيَّنت عداءَهم الشَّخصيَّ، والجملة الثّانية بيَّنت تعدّي أذاهم إلى الآخر، "فهم يقومون بأعمالٍ ثلاثة، كلُّها انحرافٌ عن الصِّراط المستقيم واتِّباعٌ للغَواية: أوَّلها: الإعراضُ عن آياتِ اللّه تعالى، وتكذيبُ النَّبيِّ ﷺ. وثانيها: أنَّهم ينهون النّاس عن اتِّباع الحقِّ، فهم ضالّون مُضِلّون. والثّالث: أنَّهم لكي يباعِدوا بينهم وبين الحقِّ، ولا يجعلون سبيلًا لقلوبهم؛ يجتهدون في ألّا يلتقوا بالنَّبيِّ ﷺ، فيتجافوا عن مجالسهِ لكيلا يكون منه منفَذٌ للحقِّ إلى قلوبهم، ففيهم غَوايةٌ ولجاجةٌ"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شعر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/59.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1991..
(4) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 5/2474.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالضَّمير (هم) بدلًا منَ الظَّاهر في: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾:

المعاندونَ لا يكتفونَ بالإعراضِ عن الحَقِّ، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرِهم

آثَرَ التَّعبيرَ بالضَّميرِ لتعدُّد المرادِ في مرجعِه؛ فبعض المفسِّرين، يرى أنَّه يعود على المشركين الَّذين سبق الحديثُ عنهم في هذه السّورة، ويرى البعض الآخر أنَّه يرجع إلى عشيرة النَّبيِّ ﷺ، فيكون المعنى: وهم - أي: أعمامُ النَّبيِّ ﷺ وعشيرته - ينهونَ النّاس عن إيذائهِ، والتَّعرُّض له بسوء، ولكنَّهم في الوقتِ نفسهِ ينأون عنه، أي: يبتعدون عن دعوتهِ فلا يؤمنون بها، ولعلَّ أوضحَ مَثَلٍ لذلكَ أبو طالب، فقد كان يدافعُ عنِ النَّبيِّ ﷺ إلّا أنَّه لم يدخل في الإسلامِ مع تصريحه بأنَّه هو الدّين الحقُّ.

والَّذي تطمئنُّ إليه النَّفس: أنَّ الرَّأيَ الأوَّل هو الأرجحُ؛ لأنَّ الكلام مَسوقٌ في بيان موقف المشركين منَ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّهم قد بلغَ بهمُ السَّفَهُ والعِنادُ أنَّهم لا يكتفون بالإعراضِ عن الحَقِّ الَّذي جاء به محمَّد ﷺ، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرهم، وأنَّهم كانوا يُحرِّضون النّاس على إيذائه، وعلى الابتعادِ عنه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

أعداءُ الإسلامِ ينهونَ عنهُ بطرقٍ شتَّى لئيمةٍ وماكرةٍ

الملاحَظ أنَّ التَّعبير القرآنيَّ ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾، تعبيرٌ دقيقٌ جمع كلَّ وسائلِ النَّهي، وقد اختار القُرْآنُ فعل النَّهي دون غيرِه؛ لإبرازِ عداوةِ المشركين للرَّسول ﷺ في الظّاهر والباطنِ؛ لأنَّ لفظ النَّهي يحمل معنى الزَّجْر، بأيِّ صيغةٍ كانت، بالقولِ أو بغيره، بلفظِ الفعل وعدم الفعلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنَّأْيِ دون البُعْدِ في قوله: ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

النَّأْيُ في الغالبِ يكونُ في موضعِ الذَّمِّ بخلافِ البُعْدِ

آثَرَ القرآنُ الكريم النَّأيَ دون البعدِ؛ لأنَّه يجمع بين معنيين: البعد المادّيِّ والمعنويِّ، وهذا ما يسعى إليه المشركون من إبعاد

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/292، وطنطاويّ، الوسيط: 5/60.

النّاس مادّيًّا، فلا يجلسون في مجلسِه، ومعنويًّا؛ فلا يقتربون منَ الإيمان به، وأيضًا لأنَّ النَّأيَ في غالب استعمالاتهِ يكون في موضع الذَّمِّ بخلافِ البُعد، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصّلت: 51].

دلالةُ حذفِ مفعولِ الفعلينِ في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾:

الـنَّـأيُ والـنَّـهـيُ لَــوْنــانِ من الحصار العَقَديِّ لمنعِ البلاغ

حُذِفَ المفعولُ (النّاس) لإفادة العموم، كأنَّهم يريدون نهيَ كلِّ النّاس عن سماع القرآن الكريم، وعنِ الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، ولا يقف أمرُ المنع والنَّأي عند قومِهم أو أهلِ مكَّة، بل يريدون المَنْعَ الكُلّيَّ، وهذا ما كان يفعله المشركون عندما يأتي بعضُ النّاس إلى مكَّة للسَّماع منَ الرَّسول ﷺ؛ لشدَّة عداوتِهم.

عدمُ ذكرِ متعلَّق النَّهيِ والنَّأيِ في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾:

اسـتـعـمـالُ الألفاظِ المتلازمةِ للتَّعبيرِ عن تلوُّنِ أحـوالِ الـصِّراع مع الباطلِ

لم يُذكَر متعلَّق النَّهيِ والنَّأيِ، والمرادُ به سماعُ القرآن، وعدم الإيمان بمَن أُنزِلَ عليه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّهم يَنهون عنِ القرآنِ كلِّيَّةً سماعًا، وقراءةً، وتعبُّدًا، "وهم: أي المشركون بالله، المكذِّبون لرسولِه، يَجمعون بين الضَّلال والإضلال، يَنهون النّاسَ عن اتِّباع الحقِّ، ويُحذِّرونهم منه، ويَبعدون بأنفسِهم عنه"[1].

بلاغةُ الجناسِ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾:

الـجـنـاسُ النَّاقص في هذهِ الآيـةِ لـه دلالـةٌ لفظيَّةٌ ودلالـةٌ معنويَّةٌ

فالدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ بين ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ تظهر في التَّلفُّظ بهما، والنُّطق، حيث ينساب على اللِّسان بسلاسة وعذوبة، انسيابًا تستعذِبُه الأُذنُ، ويَطْرَب له القلبُ، فتُقْبِلُ النَّفس على الكلام بكلّيَّتها، وتُنصِتُ بإمعانٍ...! والدَّلالة المعنويَّة تظهر في أنَّ هذين الفعلين: نهي النّاس عنِ القرآن، ونأيهم بأنفسِهم عنه - قد تشابها في عِظَم الإجرامِ والجِناية بهما؛ فإلحاقُ المرء الضُّرَّ بنفسِه؛ بصدِّها عن

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.

القرآن استماعًا واتّباعًا، يشبهُ في ضَررهِ وسوئهِ وقُبْحِه مَنْعَهُ الناسَ عنِ الاستماع إلى القرآن، ومعرفةِ الحقِّ الَّذي فيه.. وهذا يدلُّ على تشابهِ قلوب الكفّار في موقفِها من هذا القرآن.

سرُّ التَّعبيرِ بتقديم: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ على قوله: ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

الضَّالُّ عن الهدى مجرمٌ سفيهٌ، وأضلُّ منه مَن حثَّ النَّاس عليه

لمّا كان صدُّهم لأنفسهم أمرًا واقعًا، ولم يكن مستحدَثًا منهم، وإنَّما الَّذي استحدثوهُ بعد أن أخذوا ذلك الموقفَ لأنفسهم، هو أنَّهم جاؤوا إلى غيرهم ليأخذوا معهم هذا الموقفَ الَّذي هم فيه، فكان منَ الحكمة في مواجهة المشركين بِجُرْمِهِمْ أن يواجَهوا أوَّلًا بما أحدثوا من جُرْم؛ وهو صدُّ النّاس، ثمَّ يُساق إليهم بعد ذلك ما كان لهم من سابقةٍ في هذا المضمار، وهو صدُّ أنفسِهم[1]. وفيه إشارةٌ للدَّلالة على شدَّة بشاعة هذا الفعلِ؛ فهو محاربةٌ للّه تعالى ولرسوله - عليه الصَّلاة والسَّلام - فإلحاق الشَّخص الضَّرَرَ بنفسه؛ بمنعِها عنِ الاستماع إلى القرآن وآياته البيِّناتِ منَ الأمور المستبشَعة، لكنْ أَشَدُّ منه بشاعةً منعُ النّاس من هذا القرآن. والتَّعقيب بقوله: ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾، بعد قوله: ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾، لإظهارِ غايةِ نفورهِم منَ القرآن، ولتأكيدِ نهيهم عنه؛ إذ إنَّ اجتنابَ النّاهي عنِ المنهيِّ عنه من متمِّمات النَّهي[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالجملة الفعليَّة بقوله تعالى: ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

من كان هدفُه في الحياة الإضلالَ، فقد خابَ في الحاضرِ والمآلِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ هنا بالجملة الفعليَّةِ، للدَّلالة على تجدُّد هذين الفعلينِ منهم؛ فكلُّ يوم لهم مكيدةٌ، وطريقةٌ في النَّهي والنَّأي؛ إمّا بالفعلِ وإمّا بالقول، وإمّا بهما معًا، وفيه بيان لشِدَّة حرصهم على هذا النَّهي والنَّأي؛ فكأنَّه هدفُهم في هذه الحياة، وهمُّهمُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/152.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، والآلوسي، روح المعاني: 4/120، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/337.

الأوحدُ الَّذي سخَّروا حياتهم وما يستطيعون في سبيلِ تحقيقه؛ نُصرةً لأهوائهم، ولباطل يتمسَّكون به، وفي هذا ذمٌّ وتقبيحٌ لهم(1).

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في قوله: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

دلالـةُ التَّعبيرِ بلفظ (الـهلاك) في الآيةِ الكريمة

قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، نلاحظُ أنَّ في الجملة مجازًا عقليًّا، حيثُ نسب الإهلاك إليهم لما تسبَّبوا إليه بنهيهم، فالمُهلِكُ في الآخرة هو الله تعالى في الحقيقةِ، وقد عبَّر بلفظِ الهلاكِ؛ لأنَّ الأصلَ فيه الموتُ، ويُطلَق على المضرَّة الشَّديدة؛ لأنَّ الشّائع بين النّاسِ أنَّ الموتَ أشدُّ الضُّرِّ، فالمرادُ بالهلاك هنا ما يَلقونهُ في الدُّنيا منَ الهلاك والمذلَّة، عند نصرِ الإسلام، وفي الآخرة منَ العذاب(2).

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

أهلُ الضَّلالِ لا يشعرون بأنَّهم يسقطون في الهاويةِ

جيءَ بأسلوبِ القَصْرِ بطريقِ النَّفي والاستثناء ليُعبِّر عنِ المقام بكلِّ دقَّةٍ ووضوحٍ؛ ليكون مُفحِمًا للكافرين والمشركين والمنافقين، فالقَصْرُ في الجملة إضافيٌّ، وأفاد قَلْبَ اعتقادِ المشركين؛ لأنَّهم كانوا يظنّون أنَّهم بنهيهم، ونأْيهم عنِ القرآن، أنَّهم بهذا يضرّون النَّبيَّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - وأنَّهم يطفِئون نورَ الإسلام! فكان الإتيانُ بالقَصْر للتَّأكيد على أنَّ أولئك بإضلالهم النّاسَ وبضلالهم لن يضرّوا الله تعالى، ولا رسولَه - عليه الصَّلاة والسَّلام - ولا المؤمنين، بل هم يضرّون أنفسهم(3)؛ لأنَّهم بضلالهم يحملون أوزارًا، وبإضلالهِم النّاسَ يحملون أوزارًا مع أوزارهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بنَفْيِ الشُّعورِ دون نفي العلمِ في قوله: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾:

إذا تبلَّدَ عند المعاندِ الشُّعورُ؛ تأجَّجتِ العداوةُ، وازداد النُّفورُ

نفيُ الشُّعورِ عنهم بإهلاكهم أنفسَهم أبلغُ في هذا المقام مِنْ نفي العلمِ؛ لأنَّه نفيٌ عامٌّ يقتضي أنَّ صاحبه لا يعلم ولا يحسُّ، وفي هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/182، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2472، والعبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 595.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/183.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.

مذمَّةٌ عظيمةٌ لهم؛ إذ بلغَ بهم الحالُ إلى أن صاروا أحطَّ شأنًا منَ البهائم؛ إذِ البهائم تشعرُ وتحسُّ، أمّا هؤلاء فلا..![1]، كما فيه إظهارٌ لضعف عقولهم مع أنَّهم كانوا يعدّون أنفسهم سادةَ النّاس وقادتهم[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(النَّأْي) و(البُعْد):

النَّأْيُ: النَّأْيُ: الإعراضُ والصَّدُّ، والبُعْدُ: نقيضُ القُرْبِ

النَّأْيُ: يأتي بمعنى الإعراض والصَّدِّ والإشاحة، بصريح السّياق في آيات القرآن؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: 83، وفصّلت: 51]. وأمّا البُعدُ؛ فيأتي بمختلِف صيغهِ في القرآن على الحقيقةِ أو المجاز، في البعد المكانيِّ أو الزَّمانيِّ، المادّيِّ منهما والمعنويِّ بصريحِ آيات القرآن، والبعدُ فيها جميعًا نقيضُ القُرْب، على حين يخلص النَّأي للصَّدِّ والإعراض نقيضِ الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ [المعارج: 5 - 6][3].

(الهلاك) و(الموت):

الهلاكُ أعمُّ منَ الموت الاعتياديِّ، لِتَضَمُّنِه مَن قُتِلَ بأيِّ سببٍ كان

الهلاكُ يأتي على أوجهٍ: افتقادِ الشَّيءِ عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: 29]. وهلاكِ الشَّيءِ باستحالة وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205]. ويُطلَق على الموت، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]. ويُطلَق على بطلانِ الشَّيءِ منَ العالم وعدمه رأسًا، وذلك المسمَّى فَناءً، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]. ويُقال: للعذاب والخوف والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[4]. أمّا الموت الَّذي هو ضدُّ الحياة؛ فهو مفارقةُ الرّوح للجسد، وذلك يكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/473.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/183.
(3) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 220.
(4) الرّاغب، المفردات: (هلك).

بزوال القوَّةِ النّامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنَّبات، ويلزمُ من ذلك زوال القوَّة الحاسَّة، والقوَّة العاقلة[1].

وعلى هذا فالهلاكُ أعمُّ منَ الموت؛ لأنَّه يدخلُ فيه مَن قُتل، ومَن مات غرقًا أو حَرْقًا، أو بأيِّ سببٍ كان. ثمَّ إنَّ الهلاكَ استُعمل في موضعِ الذَّمِّ، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وتعدَّد ذكرُ الهلاكِ مع الأمم السّابقةِ، ممّا يدلُّ على أنَّه يستعمل في العقابِ، وهذا بخلاف الموت.

(الشُّعور) و(العلم):

العلمُ: اعتقادُ الشَّيء على ما هو به، والشُّعور: علمٌ يوصَلُ إليه من وجهٍ دقيقٍ

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، والشُّعورُ علمٌ يوصَل إليه من وجه دقيق، كدقَّة الشَّعر، ولا يُقال: اللّهُ تعالى يَشعر؛ لأنَّ الأشياء لا تدقُّ عنه. وقال بعضهم: الذَّمُّ للإنسان بأنَّه لا يشعر أشدُّ مبالغةً من ذمِّه بأنَّه لا يعلم؛ لأنَّه إذا قال: لا يشعر، فكأنَّه أخرجه إلى معنى الحمارِ، وكأنَّه قال: لا يعلم من وجهٍ واضحٍ ولا خفيٍّ، وهو كقولك: لا يحسُّ، وهذا قولُ مَن يقول: إنَّ الشُّعور هو أن يُدْرَكَ بالمشاعرِ، وهي الحواس، كما أنَّ الإحساسَ هو الإدراكُ بالحاسَّة، ولهذا لا يوصف اللّهُ بذلك[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (موت).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 372 - 374، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/8499.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الــرَّبــطُ بين إعراضِ المشركين في الـدُّنـيـا، ونـدمِـهـم في العذابِ بلا أملٍ في الإيابِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حالَ المشركين في الدُّنيا، ولجاجَتَهم في الكفر بإعراضِهم عنِ الآيات البيِّنات، وجحودَهم للنُّبوَّة، ونهيَهم غيرَهم عنِ اتِّباعه ومجافاتهم له عليه الصَّلاة والسَّلام - جاءت هذه الآيةُ تسليَةً للنَّبيِّ ﷺ؛ لبيان حالهم يومَ القيامة، وهم موقوفون على النّار، ورأَوا لهيبها وسعيرَها، عند ذلك ندموا على موقفهم، وتمنَّوا العودةَ للدُّنيا؛ للإيمان بالرَّسول واتِّباع القرآن[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وُقِفُواْ﴾: الوقوفُ خلاف الجلوسِ، وقف بالمكان وقفًا ووقوفًا، والوقوف انتصابٌ مع ثباتٍ في المكانِ - كحال الواقف - قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصّافات: 24]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، مجازٌ عنِ الحبس، والتَّوبيخ، والسُّؤال[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، "تحتمل ثلاثةَ أوجه: جائزٌ أن يكونوا عاينوها، وجائزٌ أن يكونوا عليها وهي تحتهم، والأجودُ أن يكونَ معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُدخلوها، فعرفوا مقدار عذابها"[3]. وذكر هذه الأقوالَ الثَّلاثة الزَّجّاجُ، واختار الأخيرَ، وقيل: جُعِلوا عليها وقْفًا، كالوقوف المؤبَّدة على سُبُلِها[4].

2) ﴿نُرَدُّ﴾: الرَّدُّ: صرفُ الشَّيء، يُقالُ: ردَّه عن طريقه، أي:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2475.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقف).
(3) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/20.

صرَفَهُ، ويأتي بمعنى: المنعِ والرَّفْض، وشَيءٌ مَرْدودٌ: أي مَرْفوضٌ، ورَدَّ فلانًا: خَطَّأَهُ، أي: لم يَقبلْه. ومن معانيه أيضًا: الإعادةُ والإرجاعُ، تقول: ردَّه إلى منزلِه، أي: أعاده، وردَّ إليه جوابًا، أي: أرجعهُ وأرسَلَه[1].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إعلامُ الرَّسول بندمِ المشركين، وتمنِّيهم الاسْتِدْراكَ

ولو ترى - أيُّها الرَّسول ﷺ - المشركين حين يُعرَضون يوم القيامة على النّار، فيقولون تحسُّرًا: يا ليَتنا نُردُّ إلى الحياة الدُّنيا، ولا نكذِّبُ بآياتِ الله، ونكون منَ المؤمنين بالله، لرأيتَ عجبًا من سوءِ حالهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ دخولِ ﴿وَلَوۡ﴾ على المضارِع:

دخول (لو) على الفعل المضارعِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لاستحضارِ الصّورةِ المستقبَليَّةِ، وهي صورةُ رؤيةِ الكافرين موقوفين على النّار، والمعنى: "أَيْ: حُبِسوا على الصِّراط فوق النّار"[3]. وقيل (وقفواْ) أَي: دخلوا النّار، وقيل: عُرِضوا على النّار[4]. وما في هذه الصورة الأسلوبية من التهكُّم بهم بعد أن كانوا يكفرون بالنبي ﷺ، فَهاهُم يوم القيامة موقوفون على النار.

حذفُ جوابِ ﴿وَلَوۡ﴾ الشَّرطيَّة:

شدَّةُ ندمِ الكافرين إذا وُقِفوا على نارِ جهنَّم، موقفٌ مَهولٌ

وسرُّ حذفِ جواب (لو) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، للعلم به في الجملة، وتقديرُه: لو رأيتَ وقوفَهم في ذلك الذُّلِّ والانكسار، والخِزْي والعارِ لرأيتَ عجبًا؛ ولرأيتَ أمرًا شنيعًا، ففي الحذف تفخيمٌ لذلك الأمر، وتهويلٌ وتعظيمٌ لشأنهِ؛ لتذهبَ النَّفسُ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ردد).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 130.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 349.
(4) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/97.

فيه كلَّ مذهبٍ[1]. والقاعدةُ: أنَّ حذْفَ جوابِ الشَّرط في مقاماتِ الوعيد، يدلُّ على تعظيم الأمرِ، وشدَّته[2].

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾:

الحذفُ للإيجازِ مـن بـلاغـةِ السِّياقِ وأسرارِه

في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ حُذِف مفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ ودلَّ عليه الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وُقِفُواْ﴾، فكان التَّقدير: (لو تراهم)، وهذا أيضًا من قَبيل الإيجاز الَّذي استدعاه المقام؛ وربَّما كان الغرضُ منه التَّقليلَ من شأن أولئك المكذِّبين، فهم أقلُّ وأَحقرُ من أن تحزنَ بسببهم، فالنّارُ موعدُهم، وينتظرُهُم إذ ذاك أمر مَهولٌ عظيم؛ لذا حُذِف ما يدلُّ عليهم منَ الكلمة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

استحضارُ الصُّورةِ من مَلْمَحِ السِّياقِ، مؤثِّرٌ في المخاطَب

جاء التَّعبيرُ عنِ الرُّؤية في الآية بصيغة المضارعِ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لاستحضارِ الصّورة الَّتي سيصير إليها أولئك المشركون، وكلُّ مَن كفر، وكأنَّها حاضرةٌ أمام أعينِ السّامعين، وهذا الاستحضارُ أوقعُ في نفس السّامع؛ فإن كان موحّدًا محزونًا يَسْلو، وإن كان منَ المكذِّبين المشركين يهتزُّ ويخافُ... وقد يَرْتَدِعُ ويُقْلِعُ عن غيِّه، فيكون سببًا في إسلامه[4].

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بالماضي في قوله: ﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

إثباتُ حقيقةِ النَّارِ الَّتي أعدَّها اللهُ للكفَّارِ في تلك الدَّار

الفعل ﴿وُقِفُواْ﴾ هو فعلٌ ماضٍ لفظًا، والمعنى به الاستقبالُ، أي: إذ يوقَفون، وجيءَ فيه بصيغة الماضي؛ للتَّنبيه على تحقيق وقوعه، لصدوره عمَّن لاخِلافَ في خبره[5]، وعلى قدر الثِّقةِ في مصدرِ الخبر، تكون قيمةُ الخبرِ. ولا شكَّ أنَّ هذا الوقوفَ المنوَّه به في الآية، هو من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/87.

(2) السّبت، قواعد التّفسير: 1/372.

(3) العبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، ص: 595.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.

أخبار الغيبِ الَّتي لا يتحكَّم في زمانها ومكانها وورودِها على صفتِها إلّا اللّهُ العليمُ بما كان وما يكونُ، وما لَمۡ يَكُنۡ، لو كان كيف يكون.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إذْ) بدلًا من (إذا) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

عبَّر سبحانه بـ ﴿إِذۡ﴾ الَّتي تدلُّ على الماضي، بدلًا من (إذا) الَّتي تدلُّ على المستقبل، مع أنَّ الحديث عمّا سيحصل لهم في الآخرة، فكانَ يناسبهُ (إذا)، لإفادة تحقُّقِ الوقوعِ وتأكُّدِه، وليُتَصوَّرَ المستقبلُ على أنَّه موجود لا على أنَّه سيوجدُ. وقيل: كلمة (إذْ) تُقام مقام (إذا)، إذا أراد المتكلِّم المبالغةَ في التَّكرير والتَّوكيد، وإزالة الشُّبهة؛ لأنَّ الماضي قد وقع واستقرَّ، فالتَّعبيرُ عنِ المستقبل باللَّفظِ الموضوعِ للماضي يفيد المبالغةَ من هذا الاعتبار[1].

كلُّ شيءٍ قدَّره اللهُ في أزَلِه، فهو واقعٌ - لامحالة - في أوانِه بقدرتِه

دلالةُ بناء الفعلِ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

بُني ﴿وُقِفُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المقصودَ الأعظمَ هو التَّركيزُ على فعل الإيقاف وحدوثه؛ لتهويلِه وتعظيمه[2]، وهو: "شروعٌ في حكايةِ ما سَيصدُر عنهم يومَ القيامةِ، من القولِ المناقضِ لما صدر عنهم في الدُّنيا من القبائحِ المَحْكيَّة مع كونِه كَذِبًا في نفسِه، والخطابُ إمّا لرسولِ اللّه ﷺ، أو لكلِّ أَحَدٍ"[3].

الـوقـوفُ على النَّارِ من أعظمِ المواقف إحراجًا للفجَّارِ

الدَّلالةُ على الاستعارة التَّبعيَّةِ التَّصْريحيَّةِ في قولِه: ﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

عُبِّر بـ ﴿عَلَى﴾ في الآية؛ لدلالتِها على معنى الظَّرْفيَّة، ويكون المعنى: إذ حُبِسوا في النّار، فيكونون في جوف النّار غائِصينَ فيها، وذلك جائزٌ؛ لأنَّ النّار دَرَكاتٌ بعضها فوق بعض، فلا يخلو من معنى الاستعلاء[4]، وعلى هذا التَّوجيهِ يكونُ في الآية استعارةٌ بالحرفِ، فيه شبّهتِ الظَّرفيَّة

الـوُقُـوفُ على الـنَّـارِ ورُؤيـةُ سعيرِها عذابٌ قبْلَ العذاب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/528، ورشيد رضا، تفسير المنار: 7/293.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/86.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/122.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/318، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/508، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/66.

بالاستعلاء؛ بجامع التَّمكُّن، ثمَّ استُعير الاستعلاءُ للظَّرفيَّة على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة التَّصريحيَّة، وقد عُبِّر بـ ﴿عَلَى﴾ للإشارة إلى أنَّ مجرَّد الاطِّلاع عليها، والعلم بها للعيان، يلقي للنَّفس بهولها وشدَّتها، فما بالُكَ بالوقوع فيها! وعلى هذا يكون الاستعلاءُ على حقيقته، أي: هم فوقها على الصِّراط، وهي تحته، قالَ النَّسفيُّ: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أُروها حتَّى يعاينوها، أو حُبسوا على الصِّراط فوق النّارِ[1]، "وقيل: معنى ﴿وُقِفُوا۟﴾ على النّار: أُدخلوها، فتكونُ ﴿عَلَى﴾ بمعنى (في) وقيل: هي بمعنى الباء، أي: وُقِفوا بالنّارِ، أي: بقُربِها معاينين لها، ومفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾ محذوفٌ، وجوابُ (لو) محذوفٌ ليذهب السّامعُ كلَّ مذهب، والتقدير: لو تراهم إذ وُقِفوا على النّار؛ لرأيت منظرًا هائلًا، وحالًا فظيعًا"[2].

فائدةُ العطفِ بالفاءِ في قوله: ﴿فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾:

في العطفِ بالفاءِ دلالة على أنَّ أوَّل شيءٍ يقع حينئذٍ في قلوبهم، ويَسبِقُ التَّعبير عنه إلى ألسنتهم، هو النَّدمُ على ما سلف منهم، وتمنّي الرُّجوعِ إلى الدُّنيا ليؤمنوا[3].

سوف يعاني المنكِرُ الجاني من ضَياعِ الأماني

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾:

حرف النِّداء (يا) هنا لمجرَّد التَّنبيه؛ فهو حرفُ تنبيهٍ لاحرفُ نداءٍ، وقيل: هو حرفُ نداء مُستعمَل في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداء يقتضي بُعدَ المنادى؛ فاستُعمِل في التَّحسُّر، وتحسُّرهم يدُّل على شدَّةِ ما هم فيه من كَرْبٍ[4]، فتمنّيهم كان بالنِّداء لصيغته، وهي (ليتَ)؛ كأنَّه يقول: يا ليتَ أَقْبِلي، فهذا وقْتُكِ الَّذي نستغيثُ بك فيه، إذ لا نملك إلّا التَّمنِّي؛ فهو أداتُنا الوحيدةُ، وهي أداةُ العاجزين[5].

في مواجهةِ النَّارِ المتأجِّجةِ لا يبقى للكافرِ إلَّا الصَّرخاتُ المتشنِّجةُ

(1) ابن عطيّة، المحرّرالوجيز: 349، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/498.

(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/124.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/293.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2475.

دلالة التَّمنِّي في قولِه تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾:

في صعيدِ العدلِ الرَّبّانِي، لا يُدرِكُ الغفرانُ بالأماني

تمنَّى المشركون، وهم في هذه الحالِ منَ الحسرة أمنيةً قد علموا استحالة تحقُّقِها بدليلِ إتيانهم بـ (ليتَ) الَّتي يُتمنَّى بها، ويكون عادةً في الميؤوس منَ الحصول عليهِ، أو فيما هو بعيدُ المنال، لكنَّهم بعدما عاينوا العذابَ الَّذي ينتظرهم، ومن شدَّة ندمِهم وحسرتهم تمنَّوا ما تمنَّوا من أجل الخلاصِ ممّا هم فيه، ولاتَ حينَ مَناصٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّدِّ دون الرُّجوعِ في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾:

الرَّجعُ: الإعادةُ بدون تقييدٍ، والرَّدُّ الإعادة، مع كراهة له

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرَّدِّ دون الرَّجوعِ في الآية، مع وجود تقاربٍ بينهما في الدَّلالة إلّا أنَّ الاستعمال القرآنيَّ يفرِّق بينهما؛ فالرَّجع في اللُّغة ردُّ الشَّيء إلى أوَّل حاله، بخلاف الرَّدِّ فهو صرف الشَّيءِ عن وجْهِه؛ لذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلَقًا بدون تقييد؛ بخلاف الرَّدِّ فتضمَّن الإعادةَ، لكن عن كراهةٍ له لما فيه من معنى الصَّرفِ والتَّغيير، وعلى هذا؛ فالرَّدُّ يختلف عنِ الرَّجعِ بأنَّه إعادةٌ مع الكراهة، ولذلك عندما تقرأُ في آيات القرآن الكريم تجد أنَّ الرَّدَّ يأتي مقترنًا بمكروهٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة: 85]، أو الرَّدَّ إلى الحساب؛ كما في شأن المنافقين في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة: 105][2].

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاحتمالاتُ الإعرابيَّةُ في توجيهِ القراءاتِ، تتيحُ المجالَ لمعانٍ متنوِّعةٍ

الفعلان ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿وَنَكُونَ﴾، قُرِئا بالنَّصب فيهما، وبالرَّفع فيهما، وبنصبِ الأوَّل ورفع الثّاني، وبالعكس[3]؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعراب:

فأمّا نصبُ الفعلين: فهو بإضمار (أن) بعد الواو الَّتي بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186، وتفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 146.

(2) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 168.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/257.

(مع)؛ مثل: (ليتَ لي مالًا وأنفقُ منه)، و(أن) المضمرة مصدريَّة ينسبكُ منها ومنَ الفعل بعدها مصدرٌ، والواو حرف عطفٍ، فيقدَّر المعطوفُ عليه مصدرًا مُتوهَّمًا، يُعطَف هذا المصدر المنسبِكُ من (أن) وما بعدها عليه، والتَّقدير: (يا ليتنا لنا ردٌّ)، وانتفاءُ تكذيب بآيات ربِّنا، وكون منَ المؤمنين، أي: (ليتنا لنا ردٌّ مع هذين الشَّيئين)؛ فهذه الثَّلاثةُ الأشياء مُتمنّاة بقيد الاجتماعِ، لا أنَّ كلَّ واحد مُتمنًّى وحدَه؛ لأنَّ هذه الواو شرطُ إضمار (أن) بعدها أن تصلح (مع) في مكانها. أو يكون النَّصب على جوابِ التَّمنّي؛ فلا يكون التَّكذيبُ، وكونهم منَ المؤمنين، داخلين في التَّمنّي، والواو بمعنى الفاء حينئذٍ، فالواو مُبدَلَةٌ منَ الفاء، والتَّقدير: (يا ليتنا نُردُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ)؛ فتكون الواوُ هنا بمنزلة الفاءِ في قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [الزّمر: 58]، وقيل: غيرُ ذلك.

وأمّا رفعُ الفعلين: فعلى وجهين: الأوَّل: العطفُ على نُردُّ، فيكون عدم التَّكذيب، والكون منَ المؤمنين، داخلَيْن في التَّمنّي كالرَّدِّ، ويكونون قد تمنَّوا ثلاثةَ أشياء: الرَّدَّ إلى دار الدُّنيا، وعدمَ تكذيبهم بآيات ربِّهم، وكونَهم منَ المؤمنين. الثّاني: أن يكونَ الرَّفعُ على القَطْع بتقديرِ مبتدأ، وتكون جملةُ الفعل هي الخبر، والتَّقدير: ونحن لا نُكذِّب، ونحن نكون منَ المؤمنين، وعلى هذا فجملةُ: (نحن لا نُكذِّب)، و(نحن نكون...)؛ إمّا في محلِّ نصبٍ على الحال منَ الضَّمير في نُرَدُّ؛ فيكونان داخلَيْن في التَّمنّي كذلك، وإمّا استئنافًا لا تعلُّق له بما قبله؛ ويكون المعنى: أنَّهم ضَمِنوا ألّا يكذِّبواْ بعد الرَّدِّ، وأن يكونوا منَ المؤمنين، وقيل: غير ذلك.

وأمّا نصبُ الأوَّل، ورفع الثّاني، والعكس، فإعراب كلِّ فعلٍ، بحسب ما مرَّ من توجيه الرَّفع والنَّصب، لكلِّ واحدٍ منهما[1].

دلالةُ اختيارِ المشركينَ التَّعبيرَ بالرَّدِّ في هذا السِّياقِ:

اعـتـرافُ الـكـفّـارِ بالتَّقصير في دارِ الدُّنيا

من خلال تعبيرهم في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾: تمنَّى الكفّارُ الرَّدَّ إلى حالة التَّكليف في أمنيتهم، وآثَروا في التَّعبيرِ عن هذه الأمنيةِ لفظَ (الرَّدِّ)؛ لأنَّه إذا استُعمل في المستقبلِ من حالٍ

(1) مكّيّ بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 1/249 - 250، والعكبريّ، التّبيان: 1/489، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/584 - 590.

إلى حالٍ، فالمعهودُ منه الرَّدُّ إلى الحالةِ الأولى؛ ليسعى في إزالةِ جميعِ وجوهِ التَّقصيرِ، بعد أن عاينوا الشَّدائد والأهوالَ[1].

دلالةُ تنصيصِ المشركينَ على أسبابِ تداركِ التَّقصيرِ في الآيةِ:

يُوقَفُ المشركُون على النَّارِ، بما اقترفوا من جرائرَ وأوزارٍ

عيَّن المشركونَ وسائلَ التَّدارُكِ بأنفسِهم، من باب التَّمنّي؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الرَّدَّ لا يحصل البتَّةَ، ولكنَّها الحسراتُ الَّتي في صدورِهم؛ فذكروا الأسبابَ الَّتي أدَّت بهم إلى هذا الهلاك، فأعلنوا أنَّهم لا يُكذِّبون بآيات ربِّهم، وهم قد كذَّبوا في الدُّنيا بها، وحدَّدوا أن يكونوا منَ المؤمنين، وهم في الدُّنيا منَ المشركين، وبذلك أجابوا عن سؤالٍ يردُ في الخاطر: لماذا أُوقِفوا على النّار؟ فكان الجوابُ: لأنَّهم كذَّبوا بآيات ربِّهم، ولم يؤمنوا باللّه ولا برسوله.

دلالةُ تقديم ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ على قولِهم: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قدَّموا ما يُناطُ بهم من ترك التَّكذيب، وأخَّروا ما له تعلُّقٌ بالآخر

قدَّموا نفيَهم للكذب، وإعْلانَ تَبَرُّئِهم منه، من باب التَّخْلِيَةِ قبل التَّحْلِيَةِ، ولبيانِ السَّببِ الَّذي من أجلهِ أوقِفوا على النّار، وفي هذا اعترافٌ منهم بما فعلوا في دارِ الدُّنيا من تكذيبٍ، وهم "تمنَّوا الرَّدَّ إلى الدُّنيا الَّتي هي دارُ التَّكليف ليؤمِنوا ويصدِّقوا، والتَّمنّي لا يدخلُه صدقٌ ولا كذبٌ؛ لأنَّه ليس بخبرٍ"[2].

دلالةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾:

كُلُّ مَنْ مِنَ اللهِ يُعانُ، تكُونُ حياتُهُ مُسيَّجَةً بالأمان

اختاروا لفظ الرُّبوبيَّة من بابِ طلبِ التَّعطُّفِ والتَّحنُّنِ عليهم، وأنَّى لهم ذلك، وقد فات الأوانُ! وقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، "قالَ سيبَوَيْهِ: هوَ ابْتِداءُ كَلامٍ، يَعْنِي: لا نُكذِّبَ أبدًا، رُدِدْنا أَوْ لم نُرَدَّ. وقالَ غَيره: هوَ على نسقه، أَيْ: يا ليتنا نردُّ ولا نُكذِّبَ بآيات رَبِّنا، أَي: لا نكفر بعد الرَّدِّ إِلَى الدُّنْيا ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾"[3]، إذ قد كان

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/95.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/105.
(3) السّمعانيّ: تفسير القرآن: 2/97.

المجالُ مفتوحًا لهم على مصراعيه، للتَّوبة والإنابةِ، ولكنَّهم ضلّوا وأَضلّوا بخروجهِم عن منهجِ اللهِ الَّذي غمرَهم بِأَنْعُمِه، وواساهُم برحمتِه، وما استطاعوا شيئًا إلّا بلُطْفهِ وحمايتِه.

سرُّ العدولِ عن نفيِ الإشراكِ إلى الإيمانِ:

مَن كان من زمرة المؤمنين؛ نالَ الحُسنى وزيادةً يومَ الدِّين

في قوله: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آثروا التَّعبيرَ في تمنّيهم أن يكونوا منَ المؤمنين؛ ليؤكِّدوا ما ذكروه بنفي التَّكذيبِ، وأيضًا لأنَّ نفيَ الإشراكِ لايلزمُ منه الإيمانُ، فأرادوا تأكيدَ إيمانِهم، يؤكِّد ذلك وجودُ (مِن) الَّتي تشير إلى أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ الانضمامَ إلى المؤمنين لما رأوا منَ النَّعيم المُعدِّ لهم، ويكونون من جنسِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون (الّذين آمنوا):

الإيمانُ لايتحقَّقُ على كمالِ صفاتِه بالأماني الكاذبةِ، والمطامحِ المجَنَّحة

آثَروا التَّعبيرَ بتمنّي أن يكونوا منَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلًا منَ (الذين آمنوا)؛ لإفادةِ صفة الرُّسوخ في الإيمان، والتَّأكيد على تحقُّقِه فيهم ظاهرًا وباطنًا، وهذا مجرَّدُ أمنيةٍ في موقفِ الهَوْلِ الأعظمِ، وهو أوبةٌ شكليَّة للصَّواب، كانت بسببِ ما يتوقَّعونه من مصيرٍ، وما سوف يذوقونهُ من عذابٍ أليم، وأمّا حقيقتُهم؛ فقد كانوا في الدُّنيا على خِلاف ذلك، وهم يتمنَّون العودةَ على خلاف ما كانوا عليه. وقال بعضُهم بتأويل رفْعٍ فنصْبٍ للأفعال؛ لأنَّهم تمنَّوا الرَّدَّ وأن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا أنَّهم لا يُكذِّبون بآياتِ ربِّهم، إنْ رُدّوا إلى الدُّنيا، بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ ما كانوا يسترون في الدُّنيا من كفرِهم ومعاصيهم"[1].

سرُّ التَّكرارِ في: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وفي أخرى بعدها

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/142.

تتكرَّرُ الآياتُ البيِّناتُ بزيادةِ ما يُلمَحُ مِنْ لَفْظِهِ تغيُّر المعنى وتناميه

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 30] أنَّ علَّة إعادةِ الآيةِ مع اختلاف دلالةِ الوقوفِ: هي لأنَّهم أنكروا النّارَ في القيامة، وأنكروا جزاءَ الله ونَكالَهُ، فقال في الأولى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وفي الثّانية: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، أي: على جزاءِ ربِّهم، ونَكالهِ في النّارِ[1].

(1) الكرمانّي، البرهان في متشابه القرآن، ص: 107.

﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ مآلِ الكافرِين في نار الآخرةِ بسُوء النّوايَا، وفسادِ الطّوايَا في الدّنيا

لَمّا حدَّثنا بيانُ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن حال الكافرين، عند إحضارِهم إلى النّار يومَ القيامة، واصطلائِهم بعذابها، وتَمنّيهم أن يعودوا إلى الدّنيا ليكونوا منَ المؤمنين الصّادقين، وقد جاء بيانُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ ليَفضَحَ نواياهُم، ويكشفَ خباياهم، في إخفائِهمُ المَقاصدَ الفاسدةَ الَّتي انطوَت عليها قلوبُهمُ الحاقدةُ، وما اتّصفوا به من كُفرٍ ومُكابرةٍ، مؤكِّدًا بأنَّهم كَذَبوا في هذه الأمنيّة، وإنَّما قصدُهم أن يَدفعوا عن أنفسِهمُ العذابَ، وذلك لا يتأتّى مع كونِهم كاذبين فيما يدّعون.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَا﴾: بَدَوَ: الباء والدّال والواو أصلٌ واحدٌ، وهو ظهورُ الشَّيءِ. يُقالُ: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظَهَرَ، فهو بادٍ، وسُمّيَ خلافُ الحضَر بَدْوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ منَ الأرض، وليس لهم قُرًى تسترُهم أبنيتُها، وكلُّ شيءٍ ظهر لك فقد بدا لك، قال الشّاعر:

قَد كُنَّ يَخبَأْنَ الوُجوهَ تَستُّرًا *** فالآنَ حينَ بَدَوْنَ لِلنُّظّارِ[1]

وأبديتُه: أظهرتُه. وقُرئَ قولُه تعالى: ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]؛ أي: في ظاهر الرّأي[2]، وفي الحديث: «نَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى يَبْدوَ صَلاحُها»[3]، والباديّةُ خلافُ الحاضرة[4].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بدو).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بدا).

(3) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (1415): 2/541.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو)، الحميري، شمس العلوم: (بدا).

وتقولُ: بَدا لي في هذا الأمر بَداءٌ؛ أي: تَغيَّر رَأيي عمّا كان عليه[1]، وجاء الفعلُ ﴿بَدَا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ بالمعنى الأوَّل، وهو ظهورُ الشَّيء؛ أي: ظهرَ لهم ما كانوا يُخفون.

2) ﴿يُخْفُونَ﴾: (خَفيَ) الخاء والفاء والياء، أصلان متبايِنان متضادّان. فالأوّل السَّترُ، والثّاني الإظهارُ. فالأوّل خَفيَ الشّيءُ يَخفَى، وأخفيتُه، وهو في خُفيةٍ وخفاءٍ، إذا سترتَه، ويقولون: برِحَ الخفاءُ، أي وضح السّرُّ وبدا، والثّاني: خفا البرقُ خَفْوًا، إذا لمعَ، ويقال خَفيتُ الشّيءَ، إذا أظهرتُه[2]، وبعضُهم يجعلُ حرفَ الصِّلة فارقًا فيقولُ: خَفي عليه، إذا استترَ، وخَفي له، إذا ظهرَ، فهو خافٍ، وخَفي أيضًا[3]، والخفيُّ: الخافي، قال تعالى: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ﴾ [الشّورى: 45][4] والخِفاء ما يُستَترُ به كالغطاءِ، وأخفيتُه إذا سترتُه وهي مقابلُ الإبداءِ والإعلانِ، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة: 271]، والاستخفاءُ طلبُ الخفاء قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ [هود: 5][5] ومعنى ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ إمّا ما كانوا يفعلون ويخفون، أو ما كانوا يُخفون من عذابِ الآخرة الّذي يُنكرون، وكِلا المعنيين صحيحٌ.

3) ﴿رُدُّواْ﴾: رَدَّ: الرّاء والدّال أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، وهو رَجْعُ الشَّيء وعَودُه، تقولُ: رَدَدتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، وأُعيدُه عَوْدًا. وسُمّيَ المُرتَدُّ بهذا الاسم؛ لأنَّه ردَّ نَفسَه إلى كُفرِه، وأعادَها إليه. والرِّدُّ: عِمادُ الشَّيءِ الّذي يَرُدُّهُ؛ أي: يُرجِعُه عنِ السُّقوط والضَّعف. والمَردودةُ: المرأةُ المُطلَّقةُ. ويُقالُ: شاةٌ مُرِدٌّ، وناقةٌ مُرِدَّةٌ، وذلك إذا أضرَعَتْ، كأنَّها لم تكنْ ذاتَ لَبَنٍ فرُدَّ عليها، أو رَدَّتْ هي لَبَنَها. ويُقالُ: هذا أمرٌ لا رادَّ له، أي: لا مَرجوعَ له ولا فائدةَ فيه[6]، والارتداد: الرّجوع؛ ومنه المُرتَدُّ، واستردّه الشّيء: سأله أن يَرُدَّهُ عليه، والرِّدِّيدَى: الرّدُّ، وفي الأثرِ: «لا رِدّيدَى في الصّدقة»[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (خفي).
(4) الحميري، شمس العلوم: (خفي).
(5) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خفي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد). والأثر قولُ عمرَ بنِ عبد العزيز رحمه الله. يُنظر: أبو عبيد، غريب الحديث: (خلف).

4) ﴿نُهُواْ﴾: منَ النّهي: خلافُ الأمر، تقولُ: نهيتُه عنه، وفي لغة: نهوّتُه عنه[1] ويقال: نهاه ينهاه نهيًا، فانتهَى وتناهَى، أنشد سيبَويه لزيادِ بن زيدٍ العُذريِّ:

إِذا ما انْتَهَى عِلْمي تَناهَيْتُ عِنْدَهُ *** أَطالَ فَأَمْلَى أَوْ تَناهَى فَأَقْصَرا[2]

وتناهَوْا عنِ الشّيءِ: نهى بعضُهم بعضًا، وفي التّنزيل: (كانوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلوهُ) [المائدة: 79]، وقد يجوزُ أن يكونَ معناهُ يَنتهون[3]، وهم أمَرَةٌ بالمعروفِ نُهاةٌ عنِ المنكر. وهو نَهُوٌّ عن الشّرِّ. وما تنهاهُ عنّا ناهيةٌ، أي ما تكفُّه كافّةٌ، وما ينظرُ في أوامرِ اللّه ونواهيه[4]، والنَّهيُ قد يكونُ نهيًا من حيثُ المعنَى أو اللَّفظ.

فالأوّلُ من حيثُ المعنى قد يكونُ بالقولِ أو بغيرِه، وما كانَ بالقولِ، فلا فرقَ بين أن يكونَ بلفظةِ (افعلْ)، نحوَ: اجْتَنِبْ كذا، أو بلفظِ (لا تَفعل)، والثّاني: من حيث اللَّفظُ هو قولُهم: (لا تفعل كذا)، وقيل إنّ ذلك نَهْيٌ من حيثُ اللَّفظُ والمعنَى جميعًا، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35][5].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

التّأكيدُ على بُدوِّ ما أُخفيَ من حالِ الكَفرة، وأنّهم لا ريبَ عائدُون لمَا نُهُوا عنه

يُخبرُنا بيانُ اللّه تعالى في جليل كلامِه، أنَّه قد ظهرَ للكافرينَ يومَ القيامة ما كانوا يُخفونَه في أنفسِهم منَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعانَدةِ، وإنْ أنكروا ذلك وتناسَوْهُ، ويُحتَملُ أنَّهم قد ظهرَ لهم ما كانوا يَعلمونَه من أنفسِهم من صِدْقِ ما جاءَتْهم به الرُّسُلُ في الدُّنيا، وإنْ كانوا يُظهِرونَ لأتباعِهم خلافَه، كما قال تعالى مُخبِرًا

(1) الخليل، العين: (نهي).
(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 11/182، وابن منظور، لسان العرب: (نهي)، والزبيدي، تاج العروس: (نهي).
(3) ابن سيده، المحكم (نهي).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نهي).
(5) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب: (نَهَى).

عن فرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النّمل: 14]، وهم ما طَلبوا العَوْدَ إلى الدُّنيا رَغبةً ومحبَّةً في الإيمان؛ بل خَوفًا منَ العذابِ الَّذي عايَنوه جزاءَ ما كانوا عليه منَ الكُفر، فسألوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ ليتَخلَّصوا ممّا رأته أعينُهم منَ النّار، ولهذا أخبرَنا بيانُ الله تعالى، أنَّه لو حُقِّقَ لهم طَلَبُهم ذاك لَرجعوا لما نُهوا عنه منَ الكُفر والمعاندةِ، وذلك دَيدنُهم الّذي عليه دأبوا، وبه عُرِفوا، وهم كاذبونَ لا مَحالة، في دعواهُم خلافَ ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

أثرُ ﴿بَلۡ﴾ في البيان:

من أسرَّ سريرةً ألبسَه الله رِداءَها

قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ إضرابٌ عمّا يُنبئُ عنه التَّمنّي منَ الوعد بتصديق الآيات، والإيمانِ بها، أي: أنّ ذلك لم يكن عن عزيمةٍ صادقةٍ منَ الكافرينَ، ناشِئةٍ عن رَغبةٍ في العَوْدِ للإيمان الَّذي جَحدوه في الدُّنيا، بل لأنَّه ظهرَ لهم الآن ما أكرهَهُم في هذا الموقفِ العصيبِ؛ ليقولوا ما قالوا أمامَ النّارِ الّتي سَيَصلَونَها شاؤوا أم أَبَوا. وقد سيقَ الكلامُ لتهويلِ أمرِ النّار، والتَّعجُّبِ من فظاعة حالِ الموقوفينَ عليها، وبإخفائهم تكذيبَهم بها، فإنَّ التَّكذيبَ بالشَّيءِ كفرٌ به وإخفاءٌ له لا مَحالةَ، وإيثارُه على صريح التَّكذيبِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ لما قبْلَه في الآيةِ السّابقةِ من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27]؛ ذلكَ لمراعاة ما في مُقابَلَتِه منَ البُدوّ، وهو الَّذي تَستَدعيهِ جزالةُ النَّظم الكريم.

بلاغةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ودلالةُ انْتقاءِ الفعلِ ﴿بَدَا﴾:

بدا الشَّيء: ظَهَرَ، ويُقالُ: بَدا له الشَّيءُ إذا ظهرَ له عيانًا، وليس

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/120.

زوالُ الشَّكِّ في الشَّيءِ وظهورُ الحقيقةِ في وقتٍ لا ينفعُ فيه الاعترافُ

الأمرُ هنا كذلك، بل هو هنا مجازٌ في زوالِ الشَّكِّ في الشَّيءِ، ولمّا قوبلَ ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآية بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ عَلِمْنا أنَّ البَداءَ هو ظهورُ أمرٍ في أنْفُسِهم كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خطَرَ لهم حينئذٍ ذلك الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كان يبدو لهم، أي: يَخْطُرُ ببالِهم وقوعُه فلا يُعلِنون به، فبدا لهمُ الآن فأعلَنوا به وصرَّحوا به، وهذا المعنَى الدَّقيقُ لا يتحقَّقُ إلّا بالفعل ﴿بَدَا﴾، كما تبيَّن[1].

بلاغةُ الاحتباك، في قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾:

ذكْرُ الدّليل على ما يُحذَفُ من بلاغةِ التّركيبِ

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ في الكلام احتباكٌ، وتقديرُه: (بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدّنيا، فأظهروه الآن، وكانوا يُخفونَه)، وذلك أنّهم كانوا يَعرِضُ لهم الإيمانُ لِما يَروْن من دلائلِه الغالبةِ وبراهينِه القاطعةِ، وما يؤكّدُه واقعُ الأحداثِ من نصْرِ المؤمنين، فيصدُّهم عنه العِنادُ والحِرصُ على استبقاءِ السّيادةِ، والأنفةِ منَ الاعترافِ بفضل الرّسولِ، وبسبْقِ المؤمنين إلى الخيراتِ قبْلَهم، وفيهم ضُعفاءُ القومِ وعبيدُهم، كما ذُكِرَ عند قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52] وقد أشار إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر: 2][2].

دلالةُ مرجعِ ضَميرِ الجمْعِ الغائبِ (لهم) من قولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾:

الضَّميرُ يجمعُ الكُفَّارَ والمُشركين وأهلَ الكتابِ والمُنافقِين

مرجعُ ضميرِ الجمعِ الغائبِ (لهم) في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم﴾، قد يعودُ الضّميرُ إلى كفّارِ مكَّةَ أو للكفّار الّذين أَخْفَوْا الخوفَ عن أتباعِهم، أو لليهود والنَّصارى وسائر الكفّار، على أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُم﴾ و﴿يُخۡفُونَ﴾، عائدٌ على جِنْسٍ واحدٍ، ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ مختلفًا كأن نقول: (بَدا للأَتباعِ ما كانَ الرّؤساءُ يُخفونَه عنهم منَ الفسادِ أو أنّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/185.

بَدا لمشركي العربِ، ما كان أهلُ الكتابِ يُخفونَه عنهم، أو أنَّه بدا لهم، أي: لبعضِهم ما كان يُخفيه عنه بعضُهم، فأطلق كُلًّا على بعضٍ مجازًا. ويَصِحُّ أن يكونَ مقصودُ الآية الإخبارَ عن هَوْلِ يوم القيامة، فعبَّرَ عن ذلكَ بأنَّهم ظَهرتْ لهم مَسْتوراتُهم في الدُّنيا، من معاصٍ وغيرِها، أو أنَّ المرادَ أنَّه بدا لهم، أي: لمن تقدَّمَ ذكرُهم ما كانوا يُخفونَ من النّاسِ من قبائِحهم وفضائِحِهم في صُحُفِهم وشهادةِ جوارحِهم عليهم[1]، وهذا من مُعجزِ اللّغة حيث ينفسحُ الضّميرُ لجملةِ تأويلاتٍ كلُّها مقنعٌ وفصيحٌ، ويُمكنُ أن يتساوق معه المعنى وتُشحنَ به الدّلالةُ.

سرُّ استعمالِ اسْمِ الموصول (ما)، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾:

المبالغةُ في وصفِ قبائِحِ المُنكرين الَّتي كانوا يُخفونَها

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ المرادُ بما يخفون، النّارُ التّي وُقفوا عليها، إذ هي التّي سيقَ الكلامُ لتهويل أمرِها، والتّعجيبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها، ومن إخفائِها تكذيبُهم بها فإنَّ التّكذيبَ بالشّيءِ كفرٌ به، وإخفاءٌ له وإيثارُه على صريحِ التّكذيبِ الواردِ في قولِه ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣﴾ [الرّحمن: 43]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ بما قبْلَه، من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، "لمراعاةِ ما في مقابلته منَ البُدوّ، هذا هو الّذي تستدعيهِ جزالةُ النّظمِ الكريم، وأمّا ما قيلَ من أنّ المرادَ بما يُخفون: كفرُهم ومعاصيهم، أو قبائحُهم وفضائحُهم الّتي كانوا يكتُمونَها من النّاس، فتظهرُ في صحُفِهم، وبشهادةِ جوارحِهم عليهم، أو شِرْكُهُمُ الّذي يَجحَدون به في بعض مواقفِ القيامة، بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، ثمّ يظهرُ بما ذُكر من شهادةِ الجوارحِ عليهم وغيرِ ذلك ممّا كانواْ يُخفون من حقائقِ الدّين، في التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ واليوم الآخرِ[2].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/477 - 478.

(2) الواحدي، الوسيط: 3/263، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/410، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/377 - 478.

بديعُ المقابلةِ بين ﴿بَدَا لَهُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾:

ما يُخفِيه النّاسُ في الدُّنيا سوف يظهرُ في الآخرة

لَمّا قوبِلَ قولُه: ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآيةِ، بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾، عُلِمَ بذلكَ أنَّ البداءَ، هو ظهورُ أمرٍ في أنفُسِهم، كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خَطَرَ لهم حينئذٍ ذلكَ الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كانَ يَبْدو لهم، أي: يخطُرُ ببالِهم وقوعُه، فلا يُعلنونَ به، فبدا لهم الآنَ، فأعلَنوا به وصرَّحوا مُعترِفينَ به، والعبارتان تُفيدان حالتَيْن يتقابلُ فيهما المعنى تِباعًا فهو يقول: (فبدا لهم آنئذٍ ماكانوا يخفون من قبل)، وهي في غاية البيان المُفصحِ الجميلِ.

دلالةُ استعمالِ قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾، عِوضًا عن (أَخْفَوا):

تحقُّقُ إخفائِهم لِما كانوا يعلَمونَ صِدْقَه، واسْتمرارُهم في ذلك

في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ اسْتعملَ بيانُ اللّهِ الفعلَ الماضي النّاقصَ ﴿كَانُواْ﴾ مُسنَدًا إلى الفعلِ المضارعِ ﴿يُخْفُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أمرين: الأوَّلُ: التَّحقُّقُ والتَّأكيدُ على أنَّ هناك أمورًا كانوا يُخفونَها وذلكَ باسْتخدامِ الفعلِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والثّاني: أنَّ الفعلَ المضارع ﴿يُخْفُونَ﴾ يفيدُ تجدُّدَ ما كانوا يُخفونَه واستمرارَه، حتَّى وافاهُم أجلُهم وهُم على هذه الحالة. وهذان المعنيانِ الجليلانِ، لا يتحقَّقان باستخدامِ الفعْلِ (أَخْفَوْا).

دلالةُ (الواوِ) بين العطفِ والاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾:

الارتدادُ إلى الغَيِّ بعدَ المصيرِ دالٌّ على سُوءِ التّقديرِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾ عاطفةٌ، ويُمكنُ أنْ تكونَ اسْتئنافيَّةً، وهي في مَعرِضِ الإخبارِ عن أمرٍ غيبيٍّ لايعلمُه إلّا اللّه ﷻ[1]. والجُملةُ تعني أنّهم لو ردَّهم اللّه إلى الدّنيا بعد وقوفِهم على النّارِ لعادوا إلى سوءِ ما كانوا فيه يَرفلون وفي حَمأتِه يخوضون ممّا نُهوا عَنْهُ في الدّنيا منَ الكُفرِ البَواحِ والإنكارِ الصُّراحِ.

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.

دلالةُ قطْعِ الظّرف ﴿قَبۡلُۖ﴾:

يتناسبُ قطْعُ الظَّرفِ، مع قطْعِ ادِّعائِهمُ الكاذبِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾: على أنَّ إخفاءَهم كانَ في بعضِ الزّمان، أي: ما يدَّعونَ أنَّه خَفيٌّ في ذاكَ الزَّمانِ المُتقدِّمِ في حياتهم الدُّنيا؛ بل لا حقيقةَ له[1].

دلالةُ أسلوبِ الشّرطِ في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

مَن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، ومَن اعتادَ مَنهيًّا عادَ إليه

هذا القولُ الكريمُ مصدَّرٌ بأداةِ الشّرط ﴿وَلَوۡ﴾، وفي الأسلوبِ الشّرطيِّ ارتقاءٌ في إبطال قولِهم، ونسْفِ دَعواهُم، حتَّى يكونَ بمَنزلةِ التَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظرة؛ أي: لو أُجيبتْ أُمْنيتُهم، ورُدّوا إلى الدُّنيا، لعادوا لتكذيبِهم وإنكارِ البعثِ؛ وذلكَ لأنَّ كفرَهم ناشئٌ عن كِبْرٍ وجحودٍ للآيات البيِّناتِ، فالنُّفوسُ والعقلُ والتَّفكيرُ، كلُّ ذلكَ هوَ هو، في الدُّنيا وفي الآخرةِ، مَحكومٌ بالأهواءِ والشَّهواتِ، وسيعودُ حكمُها عليهم فيما لو تحقَّقتْ أُمنيتُهم ورجعوا إلى الدُّنيا[2]، وهذا تأكيدٌ لما أفادَه نظمُ الشَّرطِ في أداتِه ﴿وَلَوۡ﴾ وفعلِه وجوابِه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالرَّدِّ في الشّرطِ والعَوْدِ في الجوابِ:

مَن ألِفَ التّكذيبَ والمُكابرةَ لم يَتوانَ عن تَكرارِ المُغامَرة

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ الرّدُّ والعوْدُ، كلاهما يَنُمُّ عن إيجازٍ في العبارةِ، وسَعَةٍ في الدَّلالةِ، ويُعدُّ ذلكَ في غايةِ البلاغةِ وجمالِ البيانِ في القرآن، فما بين الرَّدِّ والعَوْدِ، والفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿رُدُّواْ﴾ والفعلِ المبنيِّ للمعلوم ﴿لَعَادُواْ﴾ مع اللّامِ الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ تفصيلٌ لِمعانٍ أثارَها صدرُ الآيةِ الكريمةِ، بقولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾، وقد قالواْ: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلو أُجيبتْ أُمنيتُهم، وردّوا إلى الدُّنيا، لَعادوا للأمرِ الَّذي نهاهُمُ اللّهُ عنه، وهو التَّكذيبُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/186.

وإنكارُ البعث، وما يَتبعُه من عذابٍ، وإنَّما تمنَّوْا ما تَمنَّوْا من شدَّةِ الهَوْلِ، فتوهَّموا التَّخلُّصَ منه بهذا التَّمنّي، فلو تحقَّقَ تمنّيهم ورُدّوا واسْتراحوا من ذلكَ الهَوْلِ، لَغَلَبَتْ أهواؤهم رُشدَهم، فَنَسوا ما حَلَّ بهم ورَجَعوا إلى ما أَلِفوا منَ التَّكذيبِ والمُكابرةِ(1).

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ فعْلِ الرّدِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾:

اسْتِئْثارُ اللهِ بعلْمِ ما أرادَ من ألطافِه بالعبادِ

لم يذكرْ بيانُ اللّهِ تعالى متعلَّقَ فعْلِ الرَّدِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾، فيكونُ السّؤالُ: رُدّوا إلى ماذا؟ وردّوا إلى أين؟ وجوابُه راجعٌ إلى أمرَيْن اثْنين: الأوَّلُ: ما أفادَه قولُه من بعدُ: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، فَعَوْدُهم ردٌّ لما كانوا عليه في حياتِهمُ الدُّنيا الَّتي هي مكانُ الرَّدِّ منَ الكفرِ والمعاصي، وسائرِ القبائحِ الَّتي عملوها، والثّاني: الإخبارُ منَ اللّهِ تعالى عن أمرٍ لا يكونُ، كيف كانَ سيوجَدُ ويكون، وهذا ممّا اسْتأثرَ اللّهُ بعلمه، فإنْ أَعْلَمَ بشيءٍ منه عُلِم، وإلّا طَواه، ولم يتكلَّمْ فيه(2).

دلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾:

الاسْتِغراقُ في المَنهيّاتِ والإصْرارُ على الكُفرِ، دَيدَنُ الكفَرةِ الفَجرةِ

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، اسْتغراقَهم في عَوْدِهم لِما عُهِدَ عنهم، أي: للَّذي نُهوا عنه منَ الكفرِ، وذُيولِه منَ المعاصي، وذلكَ لأنَّهم قد كفروا بعدَ وجوبِ الحُجَّةِ عليهم، وفي ذلك دَلالةٌ على غُلوِّهم في الإصْرارِ على الكُفرِ وعدمِ الرَّغبةِ في الإيمان(3)، وهذا العودُ لما نُهوا عنه "من فنونِ القبائحِ الَّتي من جُملتِها التّكذيبُ المذكورُ، ونسوا ما عايَنوه بالكُلّيّةِ؛ لاقتصارِ أنظارِهم على الشّاهدِ دونَ الغائبِ"(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87 - 88، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/186.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.

(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/240، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/478.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/124.

دلالةُ نَوعِ النّهْيِ ودرجتِه، وماهيَّةِ المَنهيِّ عنه في السّياقِ:

رأسُ المَنهيّاتِ الكُفرُ، وإنكارُ الدّلائلِ الواضحةِ

في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، أي: ما نُهوا عنه منَ الشِّرك والكُفرِ وإنكارِ البعث، وسائرِ الفضائحِ الّتي كانوا عليها، وسَتْرِ ما اتَّضحَ لعقولِهم منَ الدَّلائلِ على وجودِ اللّه ووَحْدانيّتِه وصِدْقِ نبوّةِ محمَّدٍ ﷺ[1]، "ولو ردَّهم اللّه تعالى من موقفِهم ذلك إلى الدّنيا كما سألوا، وغابَ عنهم ما شاهدوه منَ الأهوال، لم يحصلْ منهم فعْلَ الإيمان وتركَ التّكذيب، بل كانوا يَستمرّون على الكُفر والتّكذيبِ"[2].

دلالةُ أسلُوبِ التّذْييلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مَن كذبَ في الأُمنياتِ، فُضحَ أمرُهُ في الحياةِ وبعدَ المماتِ

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ تَذييلٌ لما قَبلَه[3]، و"هو فضحٌ لكلماتِهم الكاذبةِ، الّتي أجراها على ألسنتِهم سوءُ الموقفِ، ولفحُ السّعيرِ[4]، ومعنى قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾: "أي: متّصفون بهذه الصّفةِ لا يَنفكّون عنها بحالٍ منَ الأحوال، ولو شاهدوا ما شاهدوا، وقيل: كاذبون فيما أخبروا به عن أنفسِهم منَ الصّدق والإيمانِ"[5]، وكان الأصلُ في الجُملةِ التّذييليّةِ المُؤكّدةِ أن تأتيَ من غيرِ عطفٍ، ولكنّها جاءت معطوفةً بالواو؛ للإشعارِ بحكمٍ جديدٍ عليهم بكذبٍ آخرَ غيرِ الكذبِ الواردِ في الآيةِ السّابقة.

بيانُ مُتعلَّقِ قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

أُمنيةُ تركِ الكفرِ، لو أُعيدُوا للدُّنيا، سَفهٌ وقِلّةُ عقلٍ

في قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به عن أنفُسِهم من مضمونِ تَمنّيهم أنَّهم يفعلونَه لو رُدّوا، وفي ذلك تأكيدُ طَبعِهم على الكفرِ ومُرودِهم عليه[6]، "لأنّه هو المعهودُ منَ البشر. ولعلهم يتمنّون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/478، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/87 - 88.
(2) محمد بن عمر نووي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/311.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/155.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/125.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88.

ذلك جاهلين أنّه محالٌ، على أنّ النّاس يتمنّون المُحالَ، ولو على سبيل التّحسُّرِ"[1].

أثرُ تعدُّدِ المُؤكّداتِ في جلاءِ المعنَى في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مَنْ أكّدَ الله كذِبَه في كتابِه، فهو بالغٌ في الكذبِ أقصَى غاياتِه

جيءَ بالجُملة الاسميَّةِ الدّالّة على الدَّوام والثَّباتِ، فالكَذِبُ سَجيَّتُهم، وقد قَوّى التّأكيدَ بإنَّ ولام الابتداء الّتي دَخَلَت على الخبر، والجملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لما قبْلَها، وتَعَدُّدُ وسائلِ التّأكيدِ على شيءٍ غيبيٍّ لا يكونُ إلّا منَ العليم الخبيرِ، بما كان وما سيكونُ.

تناسُبُ الجُملةِ المُؤكَّدةِ بعْدَ جُملةِ التّأكيدِ، مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ:

تداخلُ الكذبِ وتواليه، دليلٌ على عِظمِ الجُرمِ وتَناميه

ذكرُ الجُملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لِما سبقَ من وصْفِهم بالكَذبِ في السّياقِ، يتناسبُ مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ؛ أي: الحُكمُ العامُّ عليهم بالكذبِ دائمًا، وفي كلِّ الأحوالِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، بعد الكذبِ الخاصِّ في قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، وقد تضمَّن تَمنّيهم وعدًا، وهو العَوْدُ للإيمان باللّه ﷻ؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكم كَذِبهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التّذييلَ يُؤذِنُ بشُمولِ ما ذُيِّلَ به وزيادةٍ، فليس وصفُهم بالكَذب بعائدٍ إلى التَّمنّي؛ بل إلى ما تضمَّنَه مِنَ الوَعْد بالإيمان باللّه، وعدمِ التّكذيب بآياته ﷻ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُدُوّ والظُّهور:

البُدُوُّ يكونُ بغيرِ قصْدٍ، والظُّهورُ يكونُ بقصْدٍ وبدُونِه

"الظُّهورُ يكون بقَصد وبغيرِ قَصدٍ، تقولُ: استَتَرَ فلانٌ ثمَّ ظَهَر، ويَدُلُّ هذا على قَصدِه للظُّهور، ويُقالُ: ظهرَ أمرُ فُلانٍ، وإنْ لم يقصِدْ لذلك، وأمّا قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الرّوم: 41] فمعنى ذلكَ الحُدوثُ، وكذلك قولُك: ظَهَرتْ في وجهِه حُمرةٌ؛ أي: حدثتْ،

(1) رضا، المنار 7/294.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

ولا يَعني أنَّها كانتْ فيه فظَهَرت، "ومن أسماء اللّه تعالى (الظّاهر)؛ هو الّذي ظهر فوقَ كلِّ شيءٍ وعلا عليه. وقيل: هو الّذي عُرف بطرُقِ الاستدلال العقليّ بما ظهرَ لهم من آثار أفعاله وأوصافه"[1]، وأمّا البُدوُّ فهو ما يكونُ بغير قَصْدٍ، تقولُ: بَدا البَرقُ، وبَدا الصُّبحُ، وبَدتِ الشَّمسُ، وبَدا لي في الشَّيءِ؛ لأنَّكَ لم تقصِدْ للبُدوّ"[2]، قال عمرُ ﵁: "إنّي أحلفُ على قومٍ أن لا أعطيَهم، ثمّ يبدو لي فأُعطيهم"[3]؛ أي: يتغيّرُ رأيي عمّا كان عليه، وقد بدا يبدو بداءً، من حدِّ دخَلَ، والمصدرُ على وزن الفِعال، والبُدوّ الظّهورُ[4]، وممّا تقدَّم بيانُه يتَّضحُ أنَّ استخدامَ الفعل ﴿بَدَا﴾ أَليَقُ بالسّياقِ، فأولئك الكافرونَ، عندما يوقَفون يومَ القيامة على النّار الّتي كانوا يُنكرون، يَبدو لهم كلُّ شيءٍ كانوا يكفرونَ به ويَجحدونَه في الدُّنيا، دونَ أن يكونَ لذلكَ قصْدٌ منهم؛ بل هو أمرٌ حتْميُّ الظُّهور؛ لأنَّ القضيَّةَ قضيَّةُ إيمانٍ باللّه والبَعثِ ليوم الحساب والمآلِ، وهذا من معاني قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22].

الرَّدّ والعَوْد:

الرَّدُّ والعَودُ من مُفرداتِ القرآن، ولا تُغني إحداهُما عنِ الأخرى

الرَّدُّ رجعُ الشَّيءِ وعَوْدُه، والعودُ: "تثنيةُ الأمر عودًا بعد بَدءٍ، بدأ ثمّ عاد، والعودةُ مرّةٌ واحدةٌ"[5]، وأمّا الفعلُ ﴿لَعَادُواْ﴾ الَّذي ورد في السّياق فهو هنا بمعنى عَوْدِ الكافرِ لِكُفره، فليسَ مُجرَّدَ الرَّدِّ والرُّجوعِ، وإنَّما هو ردٌّ ورجوعٌ مع شيءٍ يَحملُه في قَلبه، وهو الكفرُ باللّه ﷻ وبيوم البعثِ، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى بعدَه: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، وهو ما نَهاهُمُ اللّهُ عنه مِنَ الكُفرِ والضَّلال،

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(3) عبد الرّزاق الصّنعاني، المصنّف، الحديث رقم: (16075).
(4) نجم الدّين النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (بدو).
(5) الخليل، العين: (عود).

ولذلك كان استخدامُ كُلٍّ منَ الفعلَين ﴿رُدُّواْ﴾ و﴿لَعَادُواْ﴾ في سياقه المناسبِ من حيثُ المعنى المُرادُ، ودَورُه المُناطُ به في مَوضعِه، ولا يُجزِئُ أحدُهما عنِ الآخَرِ في تبادُلِ المواقع، ولا يخفى أنّ الفعلَ ﴿رُدُّواْ﴾ مُشاكِلٌ للرّدِّ في طلبِهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾، وسرُّ مجيء طلبِهم بهذا الفعل ﴿نُرَدُّ﴾؛ لأنَّ في الرّدِّ منعًا لهم منَ السّقوطِ، كما تدلُّ إحدى الاستعمالاتِ اللّغويّةِ للرّدِّ.

الإخفاء والكتم والسِّرّ:

الإخفاءُ أعمُّ من لفظَيِ الكَتْم والسِّرِّ في الدّلالةِ والاستعمالِ

الكِتمانُ: لفظٌ يدلّ على إخفاءٍ وسترٍ، من ذلك: كتمتُ الحديثَ كتمًا وكتمانًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42] ويقالُ: ناقةٌ كتومٌ: لا ترغو إذا رُكِبت، قوّةً وصبرًا[1]، وأمّا الإخفاءُ فهو: ما يُستَرُ به كالغطاء، تقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرهمَ في الثَّوْب، ولا تقولُ: كتمتُ ذلك، وتقولُ: كتمتُ المعنَى وأخفيتُه، فالكَتْمُ يختصُّ بالمعاني كالأسْرار والأخبار، فهو لا يُستعمَلُ إلّا فيهما، والإِخْفاءُ أعمُّ منَ الكتمان، وأمّا السِّرُّ: فهو الحديثُ المكتَّمُ في النَّفس، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]. والمستورُ: يختصُّ بالخُبَثِ والأعيان؛ لأنَّ الأصلَ في السِّرِّ تغطيةُ الشَّيءِ بغطاء، وهو في هذا المعنَى يشتركُ مع الإخفاء، لكنَّ السِّرَّ اسْتُعمِلَ في غيرِها تجوُّزًا لا حقيقةً[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 447 - 448، والرّاغب، المفردات: (ستر)، والحسينيّ، الكليّات: 3/38، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 123.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العـلاقـةُ بين كـذِبِ الكفّار في أمانِيهم، وبين التّكذيبِ بالبعثِ والآخرةِ

لَمّا فضَحَتِ الآيةُ السّابقةُ الكافرينَ بإظهارِ ما انْطوتْ عليه قلوبُهم منَ الأغراضِ الفاسدةِ، وأنَّ أمنيّتَهم في العَوْد للإيمان - إنْ أُعيدوا إلى الدُّنيا - كاذبةٌ، جاءَ مَنطوقُ هذه الآيةِ الكريمةِ ليضعَ النِّقاطَ على الحُروف في تَلخيص عَقيدتِهم الباطلةِ، بمَنطوقِ قولِهم الواضحِ بأنَّ حقيقةَ الحالِ عندَهم، والمقصودَ من إيجادِهم، ما هو إلّا الحياةُ الدُّنيا وحدَها، وليس وراءَها حياةٌ أخرَى يُبعَثونَ إليها، فيكونُ في هذه الآية برهانٌ على الحُكم عليهم بالكذبِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنّ إنكارَ البعثِ بعد الموت منْ أعظمِ الكذبِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: نقيضُ الآخرة، وسمّيت دنيا لدُنوّها منّا، وهو منَ الواو، والنّسبةُ إليها دُنياويّ ودُنيويٌّ[(1)]، و"الدّنيا أيضًا اسمٌ لهذه الحياة؛ لبعدِ الآخرة عنها، والسّماءُ الدّنيا لقُربِها من ساكني الأرض، ويقال: سماءُ الدّنيا على الإضافة[(2)]، والدّنيا "الحياةُ الحاضرةُ، عكسُها الآخرةُ، وفي الحديث: «لَو كانَتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عِندَ اللّهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى كافِرًا مِنها شَرْبَةَ ماءٍ»[(3)]، والدّهرُ زمنُ الحياة الدُّنيا كلِّها؛ أي: مُدَّةُ بقائِها إلى انقضائها، قال الشّاعر:

الدَّهرُ كالدَّهرِ والأيّامُ واحِدَةٌ *** والنّاسُ كالنّاسِ والدُّنيا لِمَن غَلَبا[(4)]

(1) الحميريّ، شمس العلوم: (الدُّنيا).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (دنا).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دنو)، والحديث المذكور رواه التّرمذيّ في سننه (رقم: 2320).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دهر).

2) ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾: البعثُ: الإرسالُ، كبعثِ اللّه مَن في القبورِ. وبعثْتُ البعيرَ: أرسلتُه وحلَلتُ عِقالَه، أو كان باركًا فَهِجتُهُ. قال:

أُنيخُها ما بَدا لي ثُمَّ أَبعَثُها *** كأنَّها كاسِرٌ في الجَوِّ فَتْخاءُ[1]

وبَعَثَهُ، كمَنَعَهُ: أرسلَهُ، كابتَعَثَهُ فانبَعَثَ، وبَعَثَ النّاقةَ: أثارَها، وبعثَ فلانًا من منامِه: أَهَبَّهُ، والبَعثُ، ويُحرَّكُ أيضًا بفتح العَين؛ أي: البَعَثُ: الجيشُ، وجَمْعُه: بُعوثٌ، والبَعثُ كذلك: النَّشرُ[2]، وهذه المعاني كلُّها: أرسلَه، أَهَبَّه، أثارَه، النَّشرُ، تَصدُق على قولِه تعالى في الآية: ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إيضاحُ عقيدةِ الكفَرةِ في إنكارِ البعثِ، وجُحودِ الآخرةِ

أظهرَ لنا بيانُ اللّه ﷻ حقيقةَ ما انْطوتْ عليه قلوبُ الكافرينَ من عقيدةٍ باطلةٍ؛ حيث قالوا: ما هي إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا، ثمَّ لا مَعادَ بعدَها، ولا بعثَ بعدَ الموتِ، "هكذا كان دينُهم في الحياة الدّنيا، دينٌ يقطعُ أصحابَه عنِ النّظرِ فيما وراءِ هذه الحياة الدّنيا الّتي استغواهم فيها الغيُّ، وركِبهمُ الضّلالُ، فأضافوا وجودَهم كلَّه إلى هذه الأيّامِ الّتي يعيشونَها من مولدِهم إلى موتِهم"[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

إفادةُ السِّياقِ تأكيدَ إنكارِ الكافرينَ للبَعثِ والنّشورِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه السّابق: ﴿لَعَادُواْ﴾؛ أي: ولو رُدّوا لَكفَروا ولَقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، كما كانوا يقولونَ قبْلَ يوم القيامة، ويجوزُ أنْ يُعطَفَ على قولِه في ذَيل الآية السّابقة: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ على معنى: وإنَّهم لقومٌ كاذبونَ في كلِّ شيءٍ، وهُمُ الّذين قالوا: إنْ هي إلّا حياتُنا الدُّنيا، وكفَى به دليلًا على كَذِبهم[4].

(1) الخليل العين: (بعث).

(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (بعث).

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/154.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.

بيانُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، مِن: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

عَـوْدُ الضَّـمير علـى الكـافـريـن عُمومًا، ولأقربِ مذكُورٍ خُصوصًا

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أنّ الضَّميرَ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عادَ للكافرين الَّذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25] وهُمُ الَّذينَ قالَ اللّهُ فيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: 27].

ولِمَن قالَ فيهم: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28] فالسّياقُ كلُّه في حديثِه عن أقوالِ الكافرين في الدُّنيا، وما سَيقولونَه كذلكَ في الآخرةِ في تمنّيهِمْ أنْ يعودوا للدُّنيا ليؤمنوا، ولكنَّهم كاذبونَ فلو رُدّوا لَعادوا لما كانوا عليه من قبلُ منَ الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

فهو على وجهِ الخُصوصِ معطوفٌ على ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ داخلٌ في حيِّزِ جوابِ ﴿وَلَوۡ﴾.

دلالةُ استعمالِ (إنْ) على نفْيِ الجنسِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾:

حـصـرُ الحـيـاةِ في الدُّنـيـا فقطْ سَـفـاهـةُ رأيٍ وسُوءُ تقديرٍ

﴿إِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ نافيةٌ للجِنْس، ولم يكْتفوا بالإخبارِ عن المحصورِ، فيقولوا: هي حياتُنا الدُّنيا، حتَّى أَتَوْا بالنَّفْيِ والحَصْر؛ أي: لا حياةَ إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا فقط، وهي ضميرُ الحياةِ، وفسَّره الخبرُ بعدَه، والتَّقديرُ: وما الحياةُ إلّا حياتُنا الدُّنيا، أوْ إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها فَبَطَلَتْ حياةٌ بعد الموت، وهذا المعنَى المفصَّلُ جاءَ موجَزًا بكلماتٍ قليلةٍ في الآية، وهو القَصْدُ من إبهامِه، وهذا الإيجازُ من بلاغةِ الإعجازِ البيانيِّ للنَّصِّ القرآنيِّ[2].

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/187.

دلالةُ الحصرِ بالنّفْيِ والاستثناءِ المُفرّغِ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾:

الاقتصارُ على الدّنيا قُصورٌ في التّقديرِ، وانحصارٌ في التّفكيرِ

"قولُه: ﴿إِنْ هِيَ﴾: ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ للجنس، والضَّميرُ بعدَها مُبهَمٌ يُفسِّرُه ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ، قُصِدَ من إبهامِه الإيجازُ اعتمادًا على مُفسِّرِه، والضَّميرُ لَمّا كان مُفسَّرًا بنكرَةٍ فهو في حُكم النَّكِرة، وليس ضميرَ قصَّةٍ وشَأنٍ؛ لأنَّه لا يستقيمُ معه معنى الاستثناءِ، والمعنى: إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا؛ أي: انحصَرَ جِنسُ حياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها، فبطَلَتْ حياةُ ما بعد الموت، فالاسمُ الواقعُ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ في حُكمِ البَدَلِ منَ الضَّمير"[1]، وهذا من قصْرِ الموصوف على الصِّفةِ؛ وذلك على التّأويل في الحياة الدّنيا، على أنّ المقصودَ ما ارتبطَ بها منَ الصّفاتِ في أذهان الكافرين من بهجةٍ، ونُعومةٍ، وتَرفٍ، ومَلذّات، وهو ما يَعنيه وصفُ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مؤنث (أدنَى)، وهو الحاضرُ القريبُ العاجلُ.

دلالةُ وصْفِ الحياةِ بـ (الدّنيا)، في الآيةِ الكريمةِ:

توكيدُ ما اسْتقرَّ في نفوسِ الكافرين، جلاءٌ للحقِّ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الدُّنيا صفةٌ لقولِه: ﴿حَيَاتُنَا﴾، ولم يُؤْتَ بها على أنَّها صفةٌ تزيلُ اشْتراكًا عارضًا في معرفةٍ؛ لأنَّهم لا يُقرّونَ بأنَّ ثَمَّ حياةً غيرَ دُنيا؛ بل ذلكَ وصفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ، إذْ لا حياةَ عندَهم إلّا هذه الحياةُ[2]، وفي الصّفة والموصوف ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ثلاثُ فوائدَ: أوّلها: نفيُ وجودِ أيِّ حياةٍ غيرِ الحياةِ التّي يعيشونها، والثّانية: أنّهم يَنسبون الحياةَ إليهم؛ لأنّها موطنُ المتعةِ وسببُها، والثّالثة: إنكارُهم صراحةً لبَعثِهم، وتأكيدُ ذلك بالنّفيِ بالباء، وباسميّةِ الجُملة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2478.

دلالةُ النّفْيِ مع تأكيدِه في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾:

فلسفةُ الإنكارِ للآخرة وَهْمٌ يُسيطرُ على العقولِ القاصرة

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ نَفيٌ منَ الكافرينَ للبَعث، يُؤَكِّدُ النّفيَ المتضمَّنَ قبلُ في ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وهو يَستلزِمُ تأكيدَ نفْيِ أيِّ حياةٍ بعد الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ البعثَ يَقتضي وجودَ حياةٍ بعدَ، وجاءتِ الباءُ في ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾ لتأكيدِ إنكارِ البَعْثِ مرّةً بعد مرّةٍ؛ ليعكسَ ثقةً متوهَّمةً لطَمأنةِ النّفسِ المكذِّبَةِ بما تعيشُه من وهم، وهو دأبُ أصحابِ الباطلِ في إقناعِ النّاس بباطلِهم؛ إذ يسوقونَه بأساليبَ مؤكَّدةٍ لإيهام النّاسِ وطَمأنةِ الأنفُسِ، واليقينُ الّذي تأنسُ إليه العقولُ السّليمةُ؛ أنّ ذلك الوَهمَ بنفيِ الآخرة هو عُقمٌ في التّفكيرِ، وقصورٌ في النّظرِ؛ لأنّ إلغاءَ الآخرة هو محضُ خُسرانٍ، تذهبُ به الحقوقُ، ويُهضمُ به سعيُ المُحسنين، ويَستفيدُ به العصاةُ منِ انفلاتِهم، بحُكمِ استيفاءِ ملذّاتِهم في حياتهم الدّنيا.

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾:

الاحتكامُ إلى الحوارِ المنطقيِّ مُبطلٌ لإنكارِ البعثِ بعدَ الموتِ

جاء العطفُ في هذه الجُملة، ولم تُفصَلْ فتكونُ مُؤكِّدةً للجُملة الّتي قبلَها؛ لأنَّ قصدَ الكافرين إبطالُ قولِ الرَّسول ﷺ في وجود حياةٍ لهم ثانيةٍ، وقولِه ﷺ إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، وقد ورد ذلك بمنطقِ القرآن الكريم في الإقناع والبيان، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: 78 - 79]. وقولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7][1]، وقد ورد نقاشُ هذه العقيدةِ الفاسدةِ عند الكفرةِ المُنكرين، وعند الملاحدةِ الجاحِدين، في مواقعَ شتَّى منَ القرآن الكريم، وفي جميعِها يَعرِضُ القرآن دعاواهم الباطلةَ، وأقاويلَهم الزّائفةَ، ومكرَهم الكُبّارَ، ومآلَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

الأكيدَ إلى الخَسارِ والبوارِ، ويَردُّ عليها بمنطقٍ سليم، وحُججٍ دامغةٍ، وأمثلةٍ واضحةٍ داحضةٍ، ممّا لا يستطيعون إنكارَه.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(البَعْث) و(النُّشور):

البعثُ إخراجٌ مِنَ القبورِ، وظهورُ المبعوثِين وأعمالِهم هو النّشورُ

البعثُ: اسمٌ لِبَعثِ الخَلقِ من قُبورِهم؛ أي: إخراجُهم من قُبورِهم إلى الموقفِ للحساب والجَزاء ومَعرفةِ المآل، إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نارٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]. وقد أوضح القرآنُ لزومَ البعثِ، ومُطلقَ قُدرةِ اللّه على فعله، إذِ البادئُ بالخلق قادرٌ على إعادة بعثِ ما خلقَ، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصّافّات: 16 - 17]؛ فهذا الّذي تشابهَ عليهم، ولذلك أعلَمهم اللّه الوجهَ الّذي يَنبغي أن يستدلّوا به على أنّ هذا المُتشابهَ عليهم كالظّاهرِ لو تدبّروه، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79][1].

وأمّا النُّشورُ فهو اسمٌ لِظُهور المَبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائقِ، ومنه قولُك: نَشَرْتُ اسمكَ، ونَشَرْتُ فضيلةَ فُلان، إلّا أنَّه قيل: أَنشَرَ اللّهُ الموتَى بالألف، ونَشَرْتُ الفضيلةَ والثَّوبَ؛ للفرق بين المعنَيَين[2]، ويتَّضحُ منَ الفرق بين الاسْمَين أنَّ ذِكرَ البعث أَولى بالسّياق منَ النُّشور الَّذي يُخبرُنا به بيانُ اللّه تعالى عن إنكار الكافرينَ لإخراج النّاس من قُبورهم للحساب من أَصلِه، وما وراءَه من ظُهور المبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائق تَبَعًا، وليس أَصلًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شبه).

(2) العسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 103.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين إنكار البعث، وحِوارِ القيامة المُخرِسِ لكلّ لسانٍ

لمّا ذكرَ بيانُ اللّه إنكارَهُمُ البَعثَ أعقَبَه هنا بوصف حالِهم حين يُحشَرونَ إلى اللّه، وهو حالُ البعثِ الّذي أَنكروه، وبِكُفرهم سَيذوقونَ العذابَ لا محالةَ، "إذ يقول اللّه لهم: أليس هذا (الّذي) تشاهدونَه الآن هو الحقُّ الّذي أنكرتموه في دُنياكم؟ فيقولون مُتذلّلين: بلى وربِّنا إنّه الحقُّ، فيقول اللّه لهم بعد ذلك: ادخلوا النّار، بسببِ ما كنتم حريصين عليه منَ الكفرِ"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وُقِفُواْ﴾: "وَقَفَ: الواو والقاف والفاء: أَصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شيءٍ، ثمَّ يُقاسُ عليه، ومنه: وقَفْتُ أَقِفُ وُقوفًا"[2]، الوقوفُ: خلافُ الجُلوسِ، ووقفَ بالمَكانِ وقْفًا، ووُقوفًا، فهو واقفٌ، والجمع: وقفٌ، ووُقوفٌ، ووقفَ الدّابَّةَ: جعلها تقفُ[3]، والمعنى "لو تراهم حين يقفون للحساب أمامَ ربّهم، ويَعرفون صدقَ ما أنزله على رُسله، لرأيتَ سوءَ حالهم"[4].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: ذَوَقَ: الذّال والواو والقاف: أَصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهةِ تَطعُّم، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقتُ المأكولَ أَذوقُه ذَوْقًا، قال الزّبيديّ: "ومنَ المجاز: قولُه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]؛ أي: أوّلَ ما ينالُكم منها، قال الأخفشُ: جعل

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.

المسَّ مذاقًا، كما يقال: كيف وجدتَ طعمَ الضّرب؟ وكقولك: وجد فلان مسَّ الحُمّى؛ أي: أوّلَ ما ناله منها"[1]، وبهذا الاشتقاق يكونُ معنى ﴿فَذُوقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وذُقْتُ ما عندَ فُلانٍ: اختَبَرتُه، وكلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ من مَكروهٍ فقد ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوسَ، إذا نظرَ ما مقدارُ إعطائِها، وكيف قوَّتُها[2].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بيانُ موقفِ الجاحِدين، حالَ رُؤيةِ البعثِ الّذي كانوا يُنكِرُون

ولو ترى الكافرينَ حين حُبِسوا عندَ ربِّهم يومَ القيامة، وقال لهم موَبِّخًا ومُقرِّعًا على كُفرهم السّابقِ بالبعث في الحياة الدُّنيا: أليس هذا الَّذي تَرَوْنَه الآنَ منَ العذاب بالحقِّ والصِّدقِ؟! فأَقرّوا على أنفسِهم واعترفوا، حيثُ لا يَنفعُهم ذلك؛ بل يُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ الَّذي كنتُم تكذِّبونَ وُقوعَه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التّناسبُ السِّياقيّ بين الآيتَيْن المفتتحتَيْن، بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾:

لا مفرَّ للمُنكرين في المَحشرِ، منَ المُساءلةِ والعذابِ الأكبرِ

هنالك مناسبةُ الجوارِ، وهي مناسبةٌ سيّاقيّةٌ بين الآيتَين المفتتحتَيْن بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، عطفًا على نظيرِها في السّياق قبْلَها، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهذا العطفُ لا يفيدُ ترتيباً زمنيًّا؛ لأنّ التّرتيبَ في الذّكر ومراعاةِ التّرقّي هو المعتبرُ ههنا، وفي كلا الحالَيْن؛ هنالك موقفٌ مَهولٌ، سوف يتعرّض له أولئك الكفرةُ المعانِدون لله، والمُنكرون للبعث، فيتمنّونَ وهُم يقفون على النّار عودةً للدّنيا، ما يلبثُ السّياقُ أن يكشف فيها سرائرَهم، وأنّهم سوف يَبقَون على ضلالِهم ونُكرانِهم، حتّى لو أُعطوا فُرصةً

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (مَسَسَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

للعودة، وعند وقوفِهم على ربِّهم، سوف يَرون العذابَ رأيَ العين، ويَصطلون بحرِّ النّار الّتي كانوا بها يكذّبون.

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾:

دورُ السِّياقِ في توبيخِ المُنكرين على كُفرِهم بما أخبرَ به ربُّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ شروعٌ في حكاية ما سَيَصدُرُ عنهم يومَ القيامة، منَ القول المُناقِض لما صدرَ عنهم في الدُّنيا من كُفرِهم بالبعثِ، وهذا الخطابُ إمّا لرسولِ اللّه ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ من أهل المُشاهَدَة والعَيان، قَصدًا إلى بيان سوءِ مُعتَقدِهم باللّه والبَعث بعد الموت، وما كانَ لذلك من أَثَرٍ كبيرٍ في كمال سوء حالِهم وبُلوغِها منَ الشَّنّاعة والفَظاعةِ، ممّا أدَّى بهم إلى سوء العذابِ الَّذي سيُعانونَه[1].

دلالةُ استعمالِ أداةِ الشّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾، مع حذْفِ جوابِها:

تجليةُ مقْصَدِ الآيـةِ، وتأكيدُ صِدْقِ الرّسولِ النّذيرِ فيما يُنذِرُ به

هذا مشهدٌ من مشاهدِ القيامةِ، يُساق إليه المُشركون، بعد دُنياهم التّي اغترّواْ بها وأنكروا ما وراءها.. من بعثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ.. وقد عبّرَ القرآنُ في هذا السّياقِ عن مشهدِ المُحاكمةِ ومشهَدِ الحُكم[2]، بهذه الجملةِ الشّرطيّةِ التّي خاطبتِ الوجدانَ النّبويَّ المُبلّغَ بالنّذارةِ وتخاطبُ كلَّ تالٍ للقرآن على مدى الأزمان؛ لأنّ العواقبَ واحدةٌ ينتهي إليها كلُّ كافرٍ لدودٍ ويقطفُ غِراسَها كلُّ مُنكِرٍ كَنودٍ في كلّ عصرٍ ومصرٍ، وقد ورد جوابُ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّةِ محذوفًا، تقديرُه: (ولو ترَى ... لَرَأيتَ أمرًا شَنيعًا)[3]، وعِلَّةُ الحذفِ الثِّقةُ بظُهورِه والإيذانُ بقصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، وتجليةُ مقصدِ الآية، وهو الإخبارُ عن هَوْلِ ما لَقوه والتَّعظيمُ لما شُقوا به، وبيانُ أمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصدقِه وتحذيرِه وإخبارِه بعقابِ مَنْ كفرَ[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/155.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

المخاطَبُ رسولُ الله ﷺ وكلُّ مَنْ يَسمعُ هذا الخبرَ، مع تجدُّدِ الرُّؤيةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بالمضارِعِ لتجدُّدِ واسْتمرارِ رُؤيةِ المخاطَبينَ، بحيث لا يختصُّ اسْتغرابُها براءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعْتادَوا مشاهدةَ الأمورِ العجيبةِ؛ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤيةُ يستمرُّ في تعجُّبِه مع اسْتمرارِ حصولِ ما يُتعجَّبُ منه من وُقوفِهم، كوقوفِ العبدِ الجاني بين يديِّ سيِّدِه، للعقابِ الَّذي يَسْتحقُّه[1].

دلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾:

ينـدمُ الـمُـنـكِرُ للـبـعـث بعد بـعْـثِـه، ولاتَ حينَ مندمِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾: حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لدلالةِ ما في حيِّز الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ عليه؛ أي: لو تَراهُم حينَ يوقَفونَ على ربِّهم، وهم يُسألونَ هذا السُّؤالَ التَّقريريَّ، - وفيه ما فيه كذلك منَ التَّوبيخ والتَّقريعِ لكُفرهم بالبعْثِ، وهم الآن في خِضَمِّ مَشاهدِه ومُعاينةِ أحوالِه وأهوالِه - لَرَأيتَ ما لا يَسَعُه التَّعبيرُ، وهو مشهدٌ لو استحضره المُنكِرُ، وتمثّلَ جلالتَه وهولَه، لبادرَ إلى الاستدراكِ في هذه الحياة قبل أن تضيع الفرصةُ بالفوات.

دلالةُ صِيغةِ الماضي المبنيِّ للمفعول ﴿وُقِفُواْ﴾:

تـنـويـعُ صِـيـغِ الفعلِ تستوعبُ مشهدَ الكَفرةِ المهُولَ بين يديِ الله

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[2]، وبناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ لعدم تعلّقِ الغرضِ بذكرِ الفاعلِ، والتّركيزُ هنا على الحدَثِ، وقد بُنِي للمفعولِ وسُترَ الفاعلُ؛ لأنّ المعلومَ أنّ الّذي يوقِفُ العبادَ أمامَ اللهِ همُ الملائكةُ، ويُبنى الفعلُ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للعلْم به، وهو شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: 73]، والسّوقُ كالإيقافِ، هو حشرٌ للمَعْنيّين في

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/184.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/190.

صعيدٍ واحدٍ أمامَ اللّه، ومعنى آيةِ الزُّمر: ﴿وَسِيقَ﴾ بصيغةِ الماضي المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعلُه: "وحُشر الّذين اتّقَوا ربّهم بأداء فرائضه، واجتنابِ معاصيه في الدّنيا، وأخلصوا له فيها الأُلوهةَ، وأفردوا له العبادةَ، فلم يُشركوا في عبادتهم إيّاه شيئًا، ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾[1]، والمعنى كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: "ولو ترى حالَ المُشركين، حين تَقِفُهمُ الملائكةُ بين يدَيْ ربِّهم، لوجدتَ هولَ أمرِهم، ورأيت أمرًا خطيرًا مُدهشًا لا يحدُّه وصفٌ"[2].

دلالةُ المَجازِ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾:

المُنكرون موقوفون بواسطةِ الملائكةِ، امتثالًا لأمرِ الله ووعْدِه فيهم

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾، الوقوفُ ههنا مجازٌ عنِ الحَبْسِ للتَّوبيخ والسُّؤال، كما يوقَفُ العبدُ الجاني بين يَدَيْ سَيِّدِه ليُقَرِّرَهُ، أو أنَّهم عَرَفوا ربَّهم حقَّ المعرفةِ[3]، ويمكنُ أن يُرادَ كذلك: وُقِفوا على جزاءِ ربِّهم وحُكمِه وقضائِه فيهم[4]، وهو توجيهُ مَن يُؤَوِّلُ على الإيجاز بالحذفِ سعيًا إلى التّنزيه، مثلِ: القولِ بالحذفِ في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22] على تقدير: وجاء أمرُ ربّك، أو حُكمُ ربّك، ونَحوِه.

بيانُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾:

الجاني موقوفٌ بين يدَيْ سيّدِهِ لتَطالَه عدالةُ الله

وثمّةَ تأويلٌ آخرُ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾، أنّه تمثيلٌ لحضورِهم المَحشرَ عند البعثِ، شُبِّهتْ حالُهم في الحُضور للحسابِ بحال عَبدٍ جنى جِنايةً فقُبِضَ عليه فوقفَ بين يدي سَيِّدِه، وهكذا يكون الأمرُ في هذا المشهد يومَ القيامة، وُقوفُ العبد بين يَدَيْ ربِّه ﷻ للحساب، وبهذا تَظهرُ مَزيَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رَبِّهِمْۚ﴾ دونَ اسم الجلالةِ (اللّه)[5]، واعتبارُ التّمثيلِ أَولى؛ لأنّه يُحفِّزُ خيالَ المستمعِ حتّى يَحسُنَ تلقّيه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/338.

(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

لهذا المعنى المهيبِ، واعتبارُه لا يؤثّرُ في عقيدة التّنزيه للّه سبحانه عن مماثلة المخلوقين، قال الزّحيليّ: "وظاهرُ الآية غيرُ مُرادٍ قطعًا؛ لأنّه استعلاءٌ على ذات اللّه تعالى، وهو باطلٌ بالاتّفاق، وإنّما هذا من قبيل المجازِ ... وهم موقوفون ومحبوسون بوساطةِ الملائكة، امتثالًا لأمرِ اللّه فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصّافّات: 24]، وعبّرَ بهذا التّعبير: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ أمرَهم مقصورٌ على اللّه، لا يتصرّفُ فيهم غيرُه"(1).

نُكتةُ مجيءِ ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضيًا وبيانُ حذفِ مُتعلّقِه:

الوقوفُ بين يدي اللهِ الحسيبِ وقوفٌ مُزلزِلٌ مَهيبٌ

قولُه: ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضٍ لفظًا، ومعناه في السّياقِ الاسْتقبالُ، أي: إذْ يوقَفونَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُهُ ثقةً بظهورِه، وإيذانًا بقُصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، أي: لو تراهم حين يوقَفون على ربِّهم للسُّؤالِ والعقابِ لَرأيتَ ما لا يَسعُه التَّعبيرُ. وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، فهو آتٍ مُستقبلًا، ولكنَّه في حيِّزِ الوقوعِ الحاليِّ لتأكيدِ تحقُّقِه(2)، والمعنى: "وُقِفوا على ما وعدَهم ربُّهم من عذابِ الكافرين وثوابِ المؤمنين، وعلى ما أخبرَهم به من أمرِ الآخرة أو يكونُ المرادُ وقوفَ المعرفةِ"(3).

سِرُّ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾:

المَقامُ مَقامُ إجلالٍ وإظهارِ أفضالِ ذِي الجلالِ

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ هذا المقامَ من مقاماتِ الجَلالِ، بما اقْتضاهُ إضافةُ الرَّبِّ إليهم، أي: الَّذي طالَ إحسانُه إليهم، وحِلْمُه عنهم، فأَظْهرَ لهم ما أَظْهرَ في ذلكَ المقامِ، من تبكيتِهم وتوبيخِهم وتقريعِهم(4) والمعنى: "ولو ترى يا محمّدُ، هؤلاء

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/480.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88 - 89.

القائلين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، إذ حُبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾: أي: على حُكم ربّهم وقضائِه وعدلِه فيهم"[1]، فقيل لهم ما قيل في ثنايا الحوارِ المُدرَج في السّياق.

دلالةُ الاستئنافِ البيانيّ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

أفـادَ السِّـياقُ اعترافَ الكافرينَ بالإنكارِ، وسيقَ الـحـوارُ خلالَه للاعتبارِ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾ قد أذِن بمشهدٍ عظيمٍ مَهولٍ، فكان من حقِّ السّامعِ أن يسألَ: ماذا لَقوا من ربِّهم؟، فيُجابَ: أنَّه قال ﷻ لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾[2].

الاستفهامُ التّقريريُّ وأثرُه في المعنى، في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

دورُ (بـلـى) في الإضـــراب، وإبطـالِ النّفْي الـمُـسـوّقِ في الآيةِ

إنَّ الاستفهامَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وهو قد دخلَ على نَفيِ الأمرِ المُقرَّرِ به؛ لاختبارِ مِقدارِ إقرارِ السّائلِ؛ فلذلكَ يُسأَلُ عن نَفيِ ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطمَعٌ في الإنكارِ تَذرَّعَ إليه بالنَّفيِ الواقعِ في سؤالِ المُقرِّرِ، والمقصودُ: (أَهذا حقٌّ؟)، فإنَّهم كانوا يَزعُمونَه باطلًا، ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قبلَه، وهو ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ الإضرابِ، فهو يُضرِب عمّا قبلَه ويَعتمِدُ ما بعدَه، وهو هنا أبطلَ النَّفيَ السّابقَ له، فهو إقرارٌ بوقوعِ مضمونِ السُّؤالِ؛ ولذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾؛ أي: بلى هو حقٌّ"[3].

بيانُ المُشارِ إليه بـ (هذا) في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الـمُـشـارُ إليه هو البعثُ وما يتبعُه من كلِّ ما يُرسّي العقيدةَ

المُشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ هو ما شاهدوه وعايَنوه من البعثِ وما يتبعُه من الأُمورِ العِظامِ، حيثُ كانوا في الدُّنيا يُكذِّبونَ وقوعَ ذلكَ كُلِّه[4].

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

دلالةُ الباءِ الزّائدةِ في سياقِ الاستفهامِ المَنفيِّ، في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الاعـتـرافُ أمـامَ عـدالـةِ الـلـه لا يُعفِي من عذابِ النّارِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، نلاحظُ في سياقه تجلّي اللّه على طائفة الكفرةِ الجاحِدين من عباده، بسؤالِ المُستنكِرِ لحالِهم في الدّنيا ولِحُجَّتِهِمْ في قولِهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، بسؤالٍ منطقيٍّ وجيهٍ، هو قولُه لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: أليس هذا البعثُ الّذي تُعاينونَه، وتَشهدون أهوالَه، شهادةَ معاينةٍ وإبصارٍ، هو بعثٌ ثابتٌ بالحقّ واليقين، فقولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ متعلّقٌ بمحذوف، أو نقولُ: إنّ (الباء) زائدةٌ، ويكونُ المعنى: أليس هذا البعثُ هو الحقُّ الّذي لا ريبَ فيه؟ وتكونُ (الباء) لتأكيدِ معنى الإنكارِ الّذي هو بمعنى النّفْيِ، وقد دخل على نفْيٍ، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ولقد كانت إجابتُهم مصدّقين؛ لأنّ الواقعَ يحملُهم على التّصديق والإذعان، لما يدعو إليه ربُّ العالمين، بقولِهم كما حكى ربُّهم[1]، ولا مندوحةَ عنِ الإذعان والإقرارِ، بما ذكره الحكيمُ الجبّارُ، إذ عادةُ المُنكرِ إذا ما ووجِهَ بالدّليل القاطع، أن لا يستطيعَ الإنكارَ، بلِ الغالبُ أن يُعلنَ الاعترافَ، ويَسوقَ الاعتذارَ.

إيرادُ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ، في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾:

الاعـتـرافُ مع الـقـسَـمِ، ردعٌ عـنِ الإنـكـارِ، وإيـحـاءٌ بالنّدمِ على الإصرارِ

لقد أكَّدَ المُنكرون اعترافَهم ذلك بالقسَم، تَحقيقًا لاعترافِهم؛ لأنَّه معلومٌ للّه ﷻ؛ أيْ: نُقِرُّ ولا نَشُكُّ فيه، فلذلك نُقسِمُ عليه، وهذا مِن استعمالِ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ[2]، مع ما في القسَمِ بالرّبِّ سُبحانَه، في قولِهم: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ منَ الدّلالةِ على تضمين القسَمِ اعترافًا بربوبيّة الخالقِ وتدبيرِه، وقدرتِه وتصريفِه؛ حيثُ لا ينفعُ الاعترافُ، وهذا الحِوارُ استدعاه السّياقُ منَ الغيبِ المستقبليِّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.

وجَعَله حاضِرًا أمامَنا، كأنّنا نراه، ونسمعُه، مع ما فيه من تشويقٍ وتأثيرٍ، فإنّه رادعٌ قويٌّ لمن حرَّفوا فطرةَ اللهِ الّتي فطرَ النّاسَ عليها، حتّى يثوبوا إلى رُشدِهم قبْلَ أن يقفوا هذا الموقفَ المهولَ.

سِرُّ اسْتعمالِ مادّةِ الرُّبوبيّةِ في القَسَم، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾:

القسمُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة تغليظٌ للقسَمِ وتعظيمٌ له

اسْتعملَ بيانُ اللهِ القَسَمُ بالرُّبوبيَّة، فقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾، ولم يأتِ القَسَمُ بالأُلوهيَّة؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا يُؤمنونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، ولم يكونوا يؤمنونَ بتوحيدِ الألوهيَّة، فجاءَ قَسَمُهم اسْتصحابًا لحالِ ما كانوا يؤمنون به في الدُّنيا، وهذا مصداقُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾ [الزّخرف: 87]، فهم كانوا يؤمنون بأنَّ اللهَ هو الخالقُ لهم وللمكوَّنات، والخَلْقُ من معاني الرُّبوبيَّة.

بيانُ عوْدِ الضَّميرِ المُستَترِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

عَوْدُ الضَّميرِ المُستَترِ إلى الكافرين

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ﴾ على المُشركين المُكذِّبين بالبعثِ والنُّشورِ والجنَّةِ والنّار، ولذلك قال بعدَه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي: بسببِ كُفرِكم في الدُّنيا بذلك أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به[1].

دلالةُ فاءِ التَّفريعِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

ترتيبُ عذابِ الكافرينَ على اعترافِهم بكُفرِهم مُفيدٌ في الدّلالةِ

قولُه تعالى: ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: ذوقوا العذابَ الَّذي عايَنتُموه، و(الفاءُ) هنا للتَّفريعِ عن كلامِهم، أو هي الفاءُ الفصيحةُ؛ أي: إذا كان هذا الحقَّ فَذوقوا العذابَ على كُفركم؛ أي: بالبعث، وجاءتِ الفاءُ لترتيبِ التَّعذيبِ على اعترافِهم بحَقيَّةِ ما كفروا به في الدُّنيا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّعذيبِ هو اعترافُهم بذلك؛ بل هو كُفرُهُمُ السّابقُ بما اعترفوا بحقّيَّته الآن، كما نطقَ به قولُه ﷻ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾[2]، ولا شكَّ أنّ ذلك الاعترافَ المذكورَ في السّياقِ على ألسنة أولئك الكفرةِ الفجَرةِ، هو إيذانٌ بسَريان العدالةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

السّماويّةِ في الأرض والسّماءِ، وفي الدّنيا والآخرةِ، وأنّ الاعترافَ الذّاتيَّ لكلّ جاحدٍ كنودٍ هو الّذي يؤكّدُ مصداقيّةَ الأخبارِ الّتي حدّثنا عنها القرآنُ الكريم، وخصوصًا ما تعلّق منها بمشهدِ القيامةِ، حيث يكونُ الاعترافُ عنِ النّفسِ سببًا في ذوقِ العذاب.

مفهومُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾:

أبلغُ في الدّلالةِ على بشاعةِ الذّنْبِ وهوْلِه

"وذَوْقُ العذابِ استعارةٌ لإحساسِه؛ لأنَّ الذَّوقَ أقوى الحواسِّ المباشِرةِ للجسم، فشُبِّه به إحساسُ الجِلْدِ"[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ "أي: فانْغمِسوا في العذابِ ذائقين لآلامِه، مُحسّين بها، فالذّوقُ هنا كنايةٌ عنِ الإحساسِ الشّديدِ بعد الانغماسِ فيه، والأمرُ هنا أمرٌ تكوينيٌّ، يَحكي الواقعَ الحقَّ، وقد يكونُ مع ذلك أمرًا قَوليًّا، لا اختيارَ لهم فيه، بل إنّه مجابٌ بالاضطرارِ"[2].

الباءُ السّببيّةُ وأثرُها في المعنى، في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾:

عاقبةُ الكفّارِ إلى بَوارٍ وخَسارٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ (الباءُ) سببيَّةٌ، و(ما) مَصدريَّةٌ؛ أي: بسببِ كُفرِكم؛ أي: بهذا الَّذي كفرتُم به في الدُّنيا، أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، فيدخلُ كفرُهم به دخولًا أوّليًّا، ولعلَّ هذا التَّوبيخَ والتَّقريعَ، إنَّما يقعُ بعدَما وُقِفوا على النّارِ، فقالوا ما قالوا، إذِ الظّاهرُ أنَّه لا يَبقَى بعدَ هذا الأمرِ إلّا العذابُ، فهو يقول لهم: "﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: بسببِ دوامِكم على سَترِ ما دلّتْكم عليه عقولُكم من صدْقِ رسولِكم، ولا شكَّ أنّ الكلامَ - وإن كان على هذه الصّورةِ - فيه نوعُ إحسانٍ؛ لأنّه أهونُ منَ التّعذيبِ مع الإعراضِ في مقامِ ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، ولذلك كان ذلك آخرَ المَقاماتِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/90.

الكفرُ أوسعُ دَلالةً مِنَ الجُحودِ والشِّركِ

سِرُّ اسْتعمالِ مادّةِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دونَ (تجحدون) أو (تشركون):

الكفرُ: اسْمٌ يقعُ على ضُروبٍ من الذُّنوبِ كالشِّركِ باللّهِ، والجَحْدِ للنُّبوَّةِ واستحلالِ ما حرَّمَ اللّهُ، وغيرِها من الخِصالِ المضادّة لخصال الإيمان؛ لأنَّ العبدَ إذا فعلَ خَصْلَةً منَ الكُفرِ، فقد ضيَّعَ خَصلةً منَ الإيمان، فهو تغطيةٌ لكلِّ أساسٍ ورُكنٍ من أركانِ العقيدةِ الإيمانيَّة.

والشِّركُ من أبشعِ الصّفاتِ الّتي ندّد بها القرآن كثيرًا[1]، والجُحودُ دونَه، وأكثرُ ما يُطلَقُ على جَحْدِ النِّعمة، ونقيضُه الشُّكرُ، وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لمادّة ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ أوْفى بالسّياقِ القرآنيِّ، حيث إنَّ صفةَ الكُفرِ فيها المبالغةُ في صفةِ أولئكَ الَّذين أنكروا ألوهيَّةَ اللّهِ، فلم يَعبُدوه، ولذلك قيل لمضيِّعِ الإيمانِ: كافرٌ، لِتَضييعِه حقوقَ اللّهِ تعالى وما يجبُ عليه من شُكرِ نِعَمِه، فهو بمنزلةِ الكافرِ لها، وقيل لكلّ كفرٍ: شركٌ للمبالغة في صفته، وذلك لِعظَمِ وخُطورةِ ما معه منَ المعصيةِ[2] فيكونُ قولُه: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ عامًّا، قدِ اسْتوعَبَ بمفهومِه ودَلاليّتِه كلًّا منْ (تُشْرِكونَ) و(تَجْحَدونَ).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوقوفُ مؤقَّتٌ لا حَبْسَ فيه، بينما الحَبسُ تأبيدٌ أو مَنعٌ من الانبعاثِ

(وُقِفوا) و(حُبِسُوا):

يُقالُ: حَبَسَ الرَّجُلَ عن حاجَتِه، إذا مَنَعَه عنِ التَّصرُّفِ فيها، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الحَبسَ يكونُ لمن تمكَّنَتَ منه، فالحَبْس يكونُ بعدَ التَّمكُّنِ[3]. والحَبسُ: المَنعُ منَ الانبعاث، قالَ ﷻ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 106]. والتَّحبيسُ: جَعلُ الشَّيءِ مَوقوفًا على

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 454 - 455.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 455.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190.

التَّأبيدِ، يُقالُ: هذا حَبيسٌ في سبيل اللّه. ويُقالُ في الوُقوف: وقَفتُ أقِفُ وُقوفًا، وهو يَدُلُّ على تمكُّثٍ في شيء، ثمَّ يُقاسُ عليه[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ: جائزٌ أَن يَكونوا عايَنوها، وجائزٌ أَن يَكونوا عليها، وهي تحتَهم، والأجودُ أن يكون معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُدخِلوها فعرفوا مِقدار عذابِها، كما تقول: وقفتُ على ما عِند فلان: تُريدُ قد فهمتَه وتبيّنْتَه[2].

ممّا سبقَ يتَّضحُ أنَّ استخدامَ البيان القرآنيّ للفعلِ ﴿وُقِفُواْ﴾ أنسَبُ منَ الفعلِ (حُبِسوا) لسياق النَّصِّ القرآنيّ في عَرضه لَمشهد الكافرينَ المُنكرينَ للبعث؛ لأنّه وقوفٌ مؤقّتٌ لا حَبسَ فيه. وقد شُبِّهت حالُهم بمنِ ارتكبَ جُرْمًا، ومَكَثَ بينَ يدي سيِّده ليعاتِبَه أو يُعاقبَه، وهو ما دلَّ عليه الفعلُ ﴿وُقِفُواْ﴾ بالتَّحديد، دونَ حاجةٍ لاستعمالِ معنى التَّأبيدِ أو المنعِ منَ الانبعاث اللَّذين يدُلُّ عليهما فعلُ الحَبس.

(الذَّوق) و(الإحساس):

الـــذّوقُ الإحـــســاسُ بالعذابِ مجازًا، بينما الإحساسُ الـشُّـعـورُ به حقيقةً

"الإحساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقد أَحسَستَه، ومعناه: أَدرَكتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]؛ أي: تعرَّفوا عليه بإحساسِكُم"[3]. والذَّوقُ: إدراكُ الطُّعوم، حتَّى إنَّه استُعمِلَ مجازًا في الإحساسِ بالعذاب، كما في الآية الكريمة من قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُرُ منَ الطَّعام، فخُصَّ بالذِّكر هنا ليَعُمَّ الأمرَين معًا، ولذلكَ كَثُرَ استعمالُه في العذاب في آياتٍ كثيرةٍ[4]، ثمَّ إنَّ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).

(2) ابن سيده، المحكم: (وقف).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 23.

(4) الرّاغب، المفردات: (ذوق).

الإحساسَ أثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوقُ، واستعمالُ الأَصلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرعِه أو أثَرِه، وأولئك الَّذين أنكَروا البعثَ هم الآنَ وجهًا لوجهٍ أمامَ البعثِ؛ بل هم في داخل أحداثِه وأحوالِه وأهوالِه، فَليَذوقوا العذابَ في اليوم الَّذي كانوا يُنكرونَه ويَستهزئون به، ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ الكريمِ للفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾ أقربَ وأنسبَ من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمجرَّدِ الإحساسِ.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين حضورِ الكافرين المَحشَرَ، ومشهدِ حسرتِهم عند قيامِ السّاعة

لَمّا حدَّثنا بيانُ اللّه تعالى عن حُضور الكافرينَ المَحشَرَ عندَ البَعث الَّذي كانوا يُنكرون، مُعترفينَ بإنكارِهم الَّذي ذاقوا بسببه العذابَ، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتُعلِنَ خَسارتَهمُ الفادحَةَ، وهي تُصوِّرُ مَشهدَ تحسُّرِهم على ما ضيَّعوا في جَنبِ اللّه، وها هم يَحملونَ ذُنوبَهم وسيِّئاتِهم الَّتي قَوَّسَتْ ظُهورَهم حسّيًّا ومعنويًّا، فأضعَفَتْها عنِ السَّيرِ إلّا إلى الجحيم، حيث يَندمون ويقولون: ياحسرتَنا على التّفريطِ في اتِّباع الحقِّ في الدّنيا، وهم يومئذٍ يَرزحون تحت أعباءِ ذنوبِهم، فيا قُبحَ ما يحملون منَ الذّنوبِ الثّقيلة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرَ﴾: يَخسرُ خُسرانا. والخاسرُ: الّذي لم يربح في تجارتِه، ومصدرُه: الخسارةُ والخُسْرُ. كِلتُه ووزنتُه فأخسرتُه، أي: نقصتُه وصفقةٌ خاسرةٌ، أي: غيرُ مُربحةٍ(2)، والخُسْرُ والخُسران: انْتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلكَ إلى الإنسان، فيُقالُ: خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل، فيُقال: خَسِرتْ تجارتُه، قالَ تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢﴾ [النّازعات: 12]، ويُستعملُ ذلكَ في المقتَنَياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاهِ في الدُّنيا وهو الأكثرُ(3)، وفي المُقْتَنَياتِ النَّفسيَّةِ، كالصِّحَّةِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) الخليل، العين: (خسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).

والسَّلامَةِ والعَقْلِ والإيمانِ والثَّوابِ، وكلُّ خُسرانٍ ذكرَه اللّهُ تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دونَ الخُسران بالمُقْتَنياتِ الدُّنيويَّةِ والتِّجاراتِ البشريَّةِ[1]، ولذلك كان معنَى التَّخسير: الإهلاكَ، حتَّى إنَّ الكلماتِ الثَّلاثَ: الخَسارَ، والتَّخسيرَ، والخَيْسَرَى، بفتحِ الخاءِ في الثَّلاثة، هي بمعنَى الضَّلالِ والهَلاكِ، وكلاهُما الخُسرانُ الحقيقيُّ[2].

2) ﴿بِلِقَآءِ﴾: (لقى) لقيتُه لقاءً بالمدّ، ولُقى بالضّمّ والقصر، والتقَوا وتلاقَوْا بمعنى واحدٍ[3] اللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحدٍ، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحسِّ، وبالبَصَرِ، وبالبَصيرة، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ [آل عمران: 143]، واللِّقاءُ: الملاقاةُ، قالَ تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: 21]، وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلكَ لالْتقاءِ مَنْ تقدَّمَ ومَنْ تأخَّر، والتقاءِ أهلِ السَّماءِ والأرض، ومُلاقاةِ كُلِّ أحدٍ بعملِه الَّذي قدَّمه[4]، وقال اللّيث: يقال: لقيَ فلانٌ فلانًا، لقاءً ولُقيا ولُقية واحدة، وهي أقبحُها على جوازها، وكلُّ شيءٍ استقبل شيئًا أو صادفَه، فقد لَقيه، منَ الأشياءِ كلِّها[5].

3) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: السّاعة: في الأصلِ الوقتُ الحاضرُ، والجمعُ السّاعُ والسّاعاتُ. قال القِطاميُّ:

وكُنّا كالْحَريقِ لَدَى كِفاحٍ *** فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[6].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ [الرّوم: 55]، يعني: السّاعة الّتي تقوم فيها القيامةُ، وقال الزّجاجُ: السّاعة اسمٌ للوقت الّذي يُصعقُ فيه العبادُ، وللوقت الّذي يُبعثون فيه وتقوم فيه القيامَةُ[7]، قالَ تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يومُ القيامةِ[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(2) الرّازي اللغوي، مختار الصِّحاح: (خَسِرَ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لَقَى).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لَقَى).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (سوع).
(7) ابن سيده، المحكم: (سوع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.

4) ﴿بَغْتَةً﴾: من ألفاظِ القرآنِ الكريم "بَغَتَ: الباء والغَين والتّاء أصلٌ واحدٌ، لا يُقاسُ عليه، منه البَغتُ، وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ"[1]، البغتُ: المفاجأةُ. قال الشّاعر:

وَلَكِنَّهُم بانوا ولَم أَدرِ بَغتَةً *** وأَنْكأُ شَيءٍ حينَ يَفجَؤُكَ البَغتُ

وباغتَه الأمرُ، مباغتةً وبُغاتًا وبغتةً، إذا فاجأه[2]، ويُقالُ: جاءَ بَغْتَةً، أَي: فَجْأَةً[3]، وقولُهم: جاءنا فلانٌ بَغتَةً، قال أبو عبيدة: البغتةُ: الفجأةُ، وقال العربُ: تقول: بغتني الأمرُ يَبغتُني بَغْتًا وبَغتَةً. قال اللّه ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩٥﴾ [الأعراف: 95][4]، وفي قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ فهذه السّاعةُ تَفجأُ المُكذّبينَ بلقاءِ اللّه، فإذا بهم وجهًا لوَجهٍ أمامَ تَفريطِهم وأوزارِهم الَّتي قدَّموها في دُنياهم.

5) ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾: "الحَسرةُ: التَّلهُّفُ على الشَّيءِ الفائت، ويُقالُ: حَسِرتُ عليه حَسَرًا وحَسرَةً، وذلك انكشافُ أمرِه في جَزَعِهِ وقِلَّةِ صَبره"[5]، والحَسرَة: النَّدامةُ، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: 30][6]، قال أبو ذُؤَيب:

أَودَى بَنيَّ وأعقَبوني حَسرَةً *** بعد الرُّقادِ وعَبرَةً ما تُقلِعُ[7]

والحسرةُ هو حالُ المُكذِّبين بالبعث، يَتلهَّفونَ على ما فاتَهم منَ الإيمان، والطّاعاتِ، والقُرُباتِ.

6) ﴿فَرَّطْنَا﴾: أصلُ فرَّطْنا منَ الفعل (فَرَطَ)، وهو في فائه ورائه وطائه أصلٌ صحيح، يَدُلُّ على إزالة شيءٍ من مكانِه، وتَنحيَتِه عنه، يُقالُ: فرَّطْتُ عنه ما كَرِهَه؛ أي: نحَّيتُه، ثمَّ يُقالُ: أَفرَطَ؛ إذا تجاوزَ الحدَّ في الأمر، يقولونَ: إيّاكَ والفَرَطَ؛ أي: لا تُجاوِزِ القَدْرَ، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه إذا جاوزَ القَدْرَ فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهتِه، وكذلكَ التَّفريطُ: وهو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه فقد قَعَدَ به عن رُتبَتِه الَّتي هي له[8]. وأولئكَ المُكذِّبونَ بالبعثِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بغت).
(3) الفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 1/135.
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(6) الحميريّ، شمس العلوم: (الحَسرَة).
(7) ابن سيده، المحكم: (عقب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).

ليومِ الحساب تَجاوزوا حُدودَ اللّه، وقصَّروا أيَّما تَقصيرٍ، فقعَدوا عن رُتبة العُبوديَّة الحقَّةِ للّه إلى دَرَكةِ العُبوديَّةِ لغيره ﷻ.

7) ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: الأوزارُ: جمعُ وِزرٍ، وهو منَ الفعلِ (وَزَرَ)، وفيه الواو والزاء والرّاء أصلان صحيحان: أَحَدُهما المَلجَأُ، والآخرُ الثِّقَلُ في الشَّيء، والَّذي نحتاجُه في سياق النَّصِّ القرآنيِّ الأصلُ الثّاني من معنى (وَزَرَ)، وهو: الثِّقَلُ في الشَّيء. ومعنى (الوِزر): حِملُ الرَّجُلِ إذا بَسَطَ ثَوبَه، فجَعلَ فيه المتاعَ، وحَمَلَهُ، ولذلك سُمّيَ الذَّنْبُ وِزرًا، وكذا سُمّيَ السِّلاحُ وِزرًا. والوزيرُ سُمّيَ به؛ لأنَّه يَحمِلُ الثِّقَلَ عن صاحبه[1]، ومجازُ الأوزار: الآثامُ[2]، وفي التّنزيل: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: أثقالَهم، ووضعتِ الحربُ أوزارَها: إذا وضع القومُ السّلاحَ عنهم، فجعل الفعْلَ للحربِ، وإنّما هو لأهلِها[3]، وأيُّ حِملٍ أَثقلُ على صاحبِه منَ الكُفر باللّه والتَّكذيبِ بلقائه ﷻ؟!

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

خُســـرانُ الـمُـنـكـريـن وحسْرتُهم على مـا فـرّطُـوا في جنْبِ الله

هذا إخبارٌ منَ اللّه تعالى عن خسارةِ مَن كذَّبوا بلقائِه، وعن خَيبَتِهم إذا جاءتهمُ السّاعةُ فجأةً، وعن ندامتِهم على ما فرَّطوا منَ العمل الصّالحِ، وما أَسلَفوا من قبيحِ الفعل، "ويقولون: ياحسرتَنا على ما فرّطنا في حياتنا الدّنيا فكذّبْنا، واستكبرْنا، واستسلمْنا للشّهواتِ، ونحن نظنُّ أنّه لا حياةَ أخرى، ولا بعثَ، ولا حسابَ، ويأتون اللّه في ذلك اليوم العصيب، وهم يحملون ذنوبَهم وخطاياهم على ظهورِهم... وما أَسوأَ ما يحملون"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/65.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ الاستئنافِ في ثراءِ المعنى:

أسوأُ الخُسرانِ خُسرانُ يومِ القيامةِ، حيث لا تنفعُ النّدامةُ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾، جاءَ الاستئنافُ للتَّعجيبِ من حالِهم حين يَقعونَ يومَ القيامة في العذاب على ما استداموهُ مِنَ الكُفر، والَّذي جَرَّأَهُم على استدامتِه اعتقادُهم نَفيَ البعثِ، فذاقوا العذابَ لذلك، فتلك حالةٌ يستحقّونَ بها أنْ يُقالَ فيهم: قد خَسِروا وخابوا، والخسارةُ هنا حِرمانُ خَيرات الآخرةِ لا الدُّنيا؛ لأنَّها هي الخسارةُ الحقيقيَّةُ الَّتي تَرتبطُ بالمآل والمصير[1].

دلالةُ حرفِ التّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

تهاوِي بُنيانِ الكافرين، مُتحقّقٌ في الخُسرانِ

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ بحرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾ الَّذي أعقبَه الفعلُ الماضي ﴿خَسِرَ﴾[2]، والخُسرانُ هنا محقَّقٌ لا مريةَ فيه، وهو خسارةٌ نفسيّةٌ وروحيّةٌ كبرى، وخسارةُ مصيرٍ، في دار يبقَى فيها الحالُ على المدَى دون تغييرٍ، ولذلك فهي تورثُ أصحابَها حسرةً لا تنقضي، وندامةً لا تنتهي.

فائدةُ التّعبيرِ بمادّةِ الخُسران، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

مَن خَسرَ الآخرةَ بالنُّكران ذاقَ في آخرتِه مرارةَ الخُسرانِ

"وخُسرانُهم أوّلًا: لأنّهم يفقدون العزاءَ الرّوحيَّ الّذي يُصيب كلَّ إنسان، ممّا يُعاني في الحياة، فلو كانت الحياةُ الدّنيا لا حياةَ بعدها يكونُ الشّقاءُ النّفسيُّ المقيمُ، لكلِّ من يُصيبُه ألمٌ فيها، أو يقعُ في نفسه أنّه في شقاءٍ؛ لأنّ فيها السّعادةَ في زعمِه، ولأنّه بفقْدِ معاني الإنسانيّةِ يكونُ كالحيوان الّذي يأكلُ ليعيشَ، ويعيشُ ليأكلَ، فيفقدَ كلَّ المَعنويّاتِ العاليةِ، ولأنّه ثالثًا: يرتعُ في الشّهوات الموبقةِ، ولأنّه رابعًا: يكونُ في تناحرٍ مستمرٍّ، إذ لا يخشَى اللّه، ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/188.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/188.

يرهبُ عقابَه، وأخيرًا يخسرُ بتلقّي العذابِ الّذي يقعُ عليه، يومَ تقومُ القيامةُ"[1].

دلالةُ العُدولِ منَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ..﴾:

مَن كـذّبَ بلقاءِ الله خسرَ الدّنيا والآخرةَ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ امتدادٌ لقول الذّينَ قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وكان حقَّه الإضمارُ على سَنَن قولِه تعالى السّابق: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27] وما تبعَه، فيُقالُ حينئذٍ: (قد خَسِروا)، لكنَّ هذا العُدولَ منَ الإضمارِ إلى الإظهار لسببين؛ الأوّلُ: ليكونَ الكلامُ بشخصيَّةٍ مُستقلَّةٍ، والثّاني: ليُبنَى عليه ما في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ من تفصيلِ قولِه تعالى القادم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾. "ووَضْعُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَوضعَ الضّمير؛ للإيذان بسببِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ منَ التَّكذيبِ بلقائِه تعالى بقيامِ السّاعة، وما يترتَّبُ عليه منَ البعث، وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك"[2].

أثرُ صِلةِ الموصولِ في ربطِ السّياقِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾:

في الآخـرة تُبلَى السّرائرُ، وتُحدّدُ المَصائرُ

جاءت صلةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾، تحملُ الكثيرَ منَ التّعْييرِ والتّشنيعِ، والبيانِ لأسبابِ الخُسرانِ. واللّهُ ﷻ قد أمهلَ هؤلاء المُعاندين في الحياة الدُّنيا، فأنزلَ عليهمُ الكُتُبَ، وأرسلَ إليهمُ الرُّسُلَ، ورغَّبَ ورَهَّبَ، ووعَدَ وتوَعَّدَ، ولم يُعجِّلْ جزاءَهم في الدُّنيا، ولم يقبِضْهم إليه دون بشيرٍ منه ونذيرٍ، كما قال تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2480.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193 - 194.

﴿أَجَلُهُمۡۚ﴾ [يونس: 11]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النِّساء: 165]، ولكنْ لَمّا يَحينُ موعدُ قيامِ السّاعةِ تظهَرُ أفعالُهم، وتَحضُرُ أعمالُهُم ماثلةً أمامَهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49]، وهناك يُدركون مغبّةَ التّكذيبِ، وعاقبةَ النُّكران، ومساوئَ الكُفران، فيندمون على ذلك، ولاتَ حين مَندمٍ.

دلالةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾:

"فاللِّقاءُ في قولِه تعالى: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، شَبَّهتْ حالةَ الخَلْقِ عندَ المصيرِ إلى تنفيذِ وعْدِ اللّه ووعيدِه، بحالةِ العبيدِ عند حضورِ سيِّدهم بعد غيبةٍ، ليَجزيَهم على ما فعلوا في مدَّة المَغيبِ"[2]. ولقاءُ اللّه هو نهايةُ المطافِ، والشّاطئُ الّذي تنتهي إليه الرّحلةُ في بحرِ الحياة اللُّجّيِّ، وهناك سيندمُ المكذِّبُ بلقاء اللّه، ولكن لا ينفعُه النّدمُ آنئذٍ.

العُبوديّةُ للهِ شرفٌ، والعبوديّةُ للمخلوقِين مَذلّةٌ

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الغايةِ:

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، لفظُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لقولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ لا لقولِه: ﴿خَسِرَ﴾؛ لأنَّ خُسرانَهم لا غايةَ له؛ أي: ما زالَ التَّكذيبُ إلى حَسْرتهم وقتَ مجيءِ السّاعة، فإنْ سألَ سائلٌ: أَما يتحسَّرونَ عند موتِهم؟ فالجوابُ: أنَّه لَمّا كان الموتُ داخلًا في أحوالِ الآخرةِ، ومن مُقدِّماتِها، جُعِلَ من جنسِ السّاعة، وسُمّيَ باسمِها، أو جُعِلَ مَجيءُ السّاعة بعد الموتِ لسُرعته كالواقعِ بغيرِ فَترةٍ[3]، ويُمكنُ أن تكونَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةً، تفيدُ السَّببيَّةَ؛ أي: فإذا جاءتْهمُ السّاعةُ

الخلافُ في تأويلِ موقعِ الحرفِ يستوعبُ احتمالاتِ المعنَى في السّياقِ

(1) الاستعارةُ التّمثيليّةُ هي تشبيهُ صورةٍ بصورةٍ لما بينهما من صِلةٍ من حيث المعنى، ثمَّ تُحذفُ الصّورةُ الأولى (المُشبَّه) ويبقى (المُشبَّه به). يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/189.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 13/ 2.

بَغتةً[1]، وقولُه: ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّةٍ[2]: الأوَّلُ: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: باغِتةً. والثّاني: مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ في موضع المفعول المطلَق المؤكَّد. والثّالثُ: مصدرٌ بـ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾ من غير لفْظِه، وكونُه حالًا هو الأظهرُ؛ لأنّ الحالَ فيه معنى الوصْفِ، والمقصودُ: وصفُ كيفيّةِ مجيءِ السّاعة، وأنّها تُفاجئُهم، وهم على تكذيبِهم وإنكارِهم، وفي ذلك ما فيه منَ التّحذيرِ.

دلالةُ جُملتَيِ الشَّرْطِ والجوابِ:

تأكيدُ وقوعِ مضْمونِ السّياقِ الشّرطيِّ يومَ القيامةِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ جاءتْ جملةُ الشَّرطِ بأداتِه ﴿إِذَا﴾ وفعلِه ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾ بالفعل الماضي، لبيانِ تحقُّقِ وقوعِ السّاعةِ وقوعًا مفاجئًا لهم، ثمَّ جاءَ جوابُ الشَّرطِ مُصدَّرًا بالفعلِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾، ليكونَ على شاكلةِ فعْلِ المجيءِ ليتَّحدَ السّياقُ حينذاك، وكأنَّه قد وقعَ وحصلَ ما حصلَ من مفرداتِ هذا المشهدِ، مع بيانِ شدَّةِ تحسُّرِهم على أَنْفُسِهم لا على غيرِهم، فهُمُ المُتحسِّرونَ والمُتَحسَّرُ عليهم، ولذلك جاءت (على) داخلةً على الأمرِ الَّذي كان سببًا في التَّحسُّرِ، وهو قولُهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الدُّنيا[3].

نُكتةُ تَسْمِيَةِ يومِ القيامةِ بالسَّاعةِ:

سُرعةُ انْقضاءِ الحسابِ يومَ القيامةِ كأنَّه ساعةٌ

سُمّيت القيامةُ بالسّاعة؛ لسُرعةِ انقضاءِ الحسابِ فيها للجزاءِ، لقولِه تعالى: ﴿أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام: 62][4]، والألفُ واللّامُ في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ علَمٌ للغلَبَة، كهيَ في البيتِ للكعبةِ، والنَّجمِ للثُّريّا؛ لأنَّها غلبتَ على يومِ القيامة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/189.

(2) العكبريّ، الإملاء: 1/239.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/190.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/481، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/595.

نُكتةُ إدْخالِ (أل) من تعريف العهدِ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ دون تقدُّمِ ذكرِها:

السَّاعةُ معهودةٌ بشُهرتِها، وهي واقـعـةٌ لا ريـبَ فيها

أُدخِلَ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ لام التعريف للعهدِ دون تقدُّمِ ذِكْرِها، وذلك لشُهرتِها واسْتقرارِها في النُّفوسِ وذَيَعانِ ذِكرِها، وأيضًا فقد تضمَّنها قولُه تعالى ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾[1] وكونُ السّاعة جاءتْهم فهي غايةٌ لتكذيبِهم، لا لخُسرانِهم، فإنّه أبديٌّ لا حدَّ له[2] وقد باغتَتْهُم على حينِ غرّةٍ.

دلالةُ الوجوهِ الإعرابيّةِ للفظِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾، وأثرُها في توسيع المعنى:

اختصاصُ الله وحـدَه بقيامِ السّاعةِ يُعطِي الـكـونَ حمايةً ومَناعةً

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، نصبَ السّياقُ لفظَ ﴿بَغۡتَةٗ﴾ على المصدرِ في موضع الحالِ، كما تقول: قتلتُه صبرًا، ولا يُجيزُ سيبَويه القياسَ عليه، ولا تقولُ: جاء فلانٌ سرعةً ونحوَه[3]، ومعلومٌ أنّ علْمَ السّاعة مخصوصٌ باللّه وحده، وأنّها لا يعلمُها ملَكٌ مقرّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، وذكرُ حالةِ مجيئِها بغتةً، من باب التّأكيد على استئثارِ اللّه بعلْم أوانِها، ومعرفة زمانِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: 187].

المَجازُ وأثرُه في إبرازِ المعنى في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا﴾:

التّعبيرُ بلفْظِ الحسراتِ يُنبئُ عن شِدّةِ النّدمِ على ما فاتَ

قولُه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ هذا مجازٌ؛ "لأنَّ الحَسرةَ لا يتأتّى منها الإقبالُ، وإنّما المعنَى على المبالغةِ في شدّةِ التّحسُّر، وكأنّهم نادَوُا التّحسُّرَ، وقالوا: إن كان لكَ وقتٌ فهذا أوانُ حُضورِكَ. ومثلُه: (يا

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.

(3) "قال سيبَوَيه: في باب ما يَنتصب منَ المصادر: لَأنَّه حالٌ وقع فيه الأمرُ، تقول: قَتَلْتُه صَبراً ولَقيتُه فُجاءةً ومُفاجأةً وكِفاحاً ومُكافَحةً، ولَقيتُه عِياناً، وكَلَّمْتُه مُشافَهةً، وأَتَيْتُه رَكضاً وعَدْواً ومَشياً، وأَخَذتُ ذلك عنه سَماعاً وسَمعاً، وليس كلُّ مصدر، وإن كان في القياس مثلَ ما مضى من هذا الباب، يوضعُ هذا الموضعَ؛ لأنّ المصدرَ هنا في مَوضِع فاعلٍ إذا كان حالًا، ألا ترى أنّه لا يَحسُنُ أن تقول أتانا سرعةً، ولا أتانا رُجْلةً، كما أنه ليس كلُّ موضعٍ يُستعمَل في باب سَقيًا وحَمدًا، فقد تبيَّن من كلام سيبَوَيه أنّ هذا الباب عنده غيرُ مُطَّرِد". ابن سيده، المخصّص: 4/338.

ويلتا)، والمقصودُ: التّنبيهُ على خطأ المُنادي، حيث تركَ ما أحْوجَه تركُه إلى نداءِ هذه الأشياءِ"[1].

أفادَ النّداءُ الاستغراقَ في التّحسُّرِ والتّندُّبِ

فائدةُ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾:

"إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحَسرةِ، والحسرةُ ممّا لا تجيب؟ قال أبو إسحاق: والفائدةُ في مناداتِها كالفائدةِ في مناداةِ ما يَعقِلُ؛ لأنّ النّداءَ بابُ تنبيهٍ، إذا قلت: يا زيدُ، فإن لم تكن دعوْتَه لتخاطبَه بغير النّداء فلا معنى للكلامِ، إنّما تقولُ: يا زيدُ لتُنبّهَه بالنّداءِ، ثمّ تقولُ له: فعلتَ كذا"[2]، فنداءُ الحسْرةِ على سبيل المَجازِ إنّما هو إنشاءٌ للمبالغةِ في التّحسُّرِ.

الإقرارُ على أنفسِهم بوقوعِ الحَسْرةِ الأبديّةِ

إضافةُ الحَسرةِ إلى ضميرِ جمْعِ المُتكلّم:

قولُه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ فيه إضافةُ الحَسرةِ إلى أنفسِهم؛ وذلك ليكونَ تَحسُّرُهم لأجلِ أنفُسِهم، فهمُ المُتحسِّرونَ والمُتَحَسَّرُ عليهم، بخلافِ مَن قال: يا حَسرةً، فإنَّه في الغالبِ تحسَّرَ لأجلِ غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه، ولذلك تجيءُ معه (على) الّتي تَدخُلُ على الشَّيءِ المُتَحَسَّرِ من أجلِه، داخلةً على ما يدُلُّ على غيرِ التَّحَسُّرِ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30]، فأمّا مع (يا حَسرتي، أو يا حَسرَتا) فإنَّما تَجيءُ معهما (على) داخلةً على الأمرِ الَّذي كان سببًا في التَّحَسُّرِ، كما في قولِه تعالى من هذه الآية: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾[3].

الحسرةُ على التّفريطِ بعدَ المماتِ ندمٌ بعدَ الفواتِ

نُكتةُ اسْتعمالِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾:

(ما) في قولِه: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾ "موصولةٌ، ماصَدَقُها[4]: الأعمالُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/595.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.

(4) الماصدق: مركّب مَزْجيٌّ بضم القاف، وهو عند المناطقة ما يصدُق عليه المفهوم الكلّي. يُنظر: حاشيتا قليوبي وعميرة: 1/21، والقرافي، الفروق: 1/281.

الصّالحةُ"(1)، وهي محلُّ عَوْدِ مفعولِ ﴿فَرَّطۡنَا﴾ المحذوفِ، تقديرُه: ما فرَّطْناه، أي: نَدِمْنا على إضاعةِ كلِّ ما مِنْ شأنِه أن ينفَعَنا ففرَّطناه، فهي تعبيرٌ عنِ المبالغةِ في ندمِهم يومَ لا ينفعُ النَّدمُ(2)، والمعنى: "أيَ على تفريطِنا في شأنِ السّاعةِ، وتقصيرِنا في مراعاةِ حقِّها، والاستعدادِ لها بالإيمانِ بها واكتسابِ الأعمالِ الصّالحةِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]"(3).

دلالةُ الضّميرِ في ﴿فِيهَآ﴾ من قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾؛ المرادُ بالضّميرِ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ أنّهم يَتندَّمونَ على تفريطِهم، وتقصيرِهم في مراعاةِ حقِّ السّاعةِ عليهم بالاستعدادِ لها، بالإيمانِ بها، وعمَلِ الصّالحاتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 56]، ويُمكنُ أن يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ الحياةَ الدُّنيا، جيءَ بضميرِها وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ لكونِها مَعلومةً(4)، وقد يكونُ ضميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى السّاعة، وتكون (في) تَعليليَّةً؛ أي: ما فوَّتْناه منَ الأعمالِ الصّالحةِ النّافعةِ لأجلِ نفعِ هذه السّاعةِ، وفي كلِّ ذلك نجدُ التّعبيرَ دقيقًا، ووجودُ الضّمير يوسّعُ دائرةَ الفهمِ، لِما ذكره هؤلاء المُفرّطون، ممّن عصفت بهمُ الأهواءُ، وطالَهم العذابُ والهوانُ في الآخرة.

الهالكُ مَنْ فرَّطَ في اغتنامِ دُنياه؛ للفوْزِ في أُخراه

أحوال تَعْدِيَةِ الفعْلِ (فرّط)، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾:

الفعلُ (فرّطَ) يتعدَّى إلى المفعول بنفسِه، نحوَ: "فرَّط العقدَ ونحوه: فرَّق حبَّه"، والأكثرُ أن يتعدَّى بحرف الجرِّ (في) فيُقالُ: فَرَّطَ في ماله، إذا أضاعَه. ومنه قولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ

مَن فرّطَ أنكرَ وتركَ، ومَن نوقِشَ في آخرته هلكَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط 4/482، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]، ومفعولُ ﴿فَرَّطۡنَا﴾ محذوفٌ يعود إلى (ما)، تقديرُه: ما فَرَّطْناه، وعلى أنّ (ما) مصدريةٌ يكون الفعلُ لازمًا لا مفعولَ له، ويجوزُ أن يكونَ الحرفُ (في) للتَّعدية، بتقديرِ مُضافٍ إلى الضَّمير؛ أي: في خيراتِها، والمعنى (على ما فرَّطْنا في السّاعة) يَعنونَ: ما شاهدوه من نجاةٍ ونعيمِ أهل الفلاح، وهم أهلُ الجنَّةِ[1].

دلالةُ الجُملةِ الحاليّةِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾:

بيانُ حالِ المكذِّبينَ في حمْلِ الأوزارِ، والحَسرةِ على مغبّةِ الإنكارِ

جُملة ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ﴾: جملةٌ تُعرَبُ حالًا من فاعل ﴿قَالُواْ﴾، وهو الضَّميرُ (الواو)؛ أي: قالوا ذلك في حالِ أنَّهم يحمِلونَ أوزارَهم، وفائدتُه: الإيذانُ بأنَّ عذابَهم هو بين تَلهُّفٍ على التَّفريطِ في الأعمالِ الصّالحةِ والإيمانِ، وبين مُقاساةِ العذابِ على الأوزارِ الَّتي اقترفوها فصارتْ أثقالًا على ظُهورِهم[2].

بلاغةُ المَجازِ في قوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾:

حملُ الأوزارِ على الظّهورِ شَبيهٌ بالكسْبِ بالأيدِي في المشهورِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ على سبيلِ المجازِ؛ يعني: يحملون وبالَ ذلك وعُقوبَتَهُ على ظُهورِهم، ويُقالُ: وقرتْ ظهورُهم منَ الآثام، ثقُلتْ وحملتْ، وأصلُ الوزر في اللّغة: هو الثِّقَلُ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ يعني: يحمِلون، وقد وردَ في بعض الرّوايات عنِ السّدّيِّ، قال: ليس من رجلٍ ظالمٍ يدخلُ قبرَه إلّا أتاه مَلَكٌ قبيحُ الوجه، أسودُ اللّون، مُنتنُ الرّيحِ، عليه ثيابٌ دنسةٌ، فإذا رآه قال: ما أقبحَ وجهَك! فيقول: كذلك كان عملُك قبيحًا، فيقولُ: ما أنتنَ ريحَك! فيقولُ: كذلك كان عملُك مُنتنًا، فيقولُ: مَن أنت؟ فيقولُ: أنا عملُك، فيكونُ معه في قبرِه، فإذا بُعِث يومَ القيامة، قال له: إنّي كنتُ أحملُك في الدّنيا باللّذّاتِ والشّهواتِ، فأنت اليومَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194.

تحملُني، فيركبُ على ظهْره، حتّى يدخلَه النّارَ[1]، وذِكرُ الظُّهورِ كذكْرِ الأيدي في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: 30]؛ فإنَّ المُعتادَ حَملُ الأثقالِ على الظُّهور، كما أنَّ المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي، والمعنى: أنَّهم يتحسَّرونَ على ما لم يَعملوا منَ الحسناتِ، والحالُ أنَّهم يَحملِونَ أوزارَ ما عَملوا منَ السَّيّئات[2].

دلالةُ الكنايةِ بإضافةِ الأوزارِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾:

مَن لازمتْه الأوزارُ كبّتْه على وجهِه في النّارِ

يُفسِّرُ الزّجّاجُ قولَه تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾؛ بأنّ أوزارَهم لا تزايلُهم، ولا تفارقُهم أبدًا، فهو كما تقول لصاحبك: شخصُك نَصبُ عيني، وذكرُك نَجيُّ قلبي[3]، وعلى هذا التّفسير تكونُ في الجملة كنايةٌ عن ملازمةِ أوزارِهم لهم لا تفارقُهم، منَ الكنايةِ عن نسبةٍ، وفيها دلالةٌ على المعاناةِ الشّديدةِ من ثِقَلِ الأوزارِ، والتّشهيرِ بهم في موقف الحسابِ، والأوزارُ ملازمةٌ لهم.

الاستعارةُ تُجسّدُ الآثامَ في صورة الأوزارِ، في قولِه تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾:

مَن أثقلَه في دُنياه الوِزرُ، ناء منه بحمِلِه في آخرتِه الظّهرُ

وبالنّظر إلى الأصل اللّغويّ للأوزار جمعِ (وزر): من حمْلِ الرّجل، إذا بسطَ ثوبَه، فجعل فيه المتاعَ وحَمَلَهُ، فيكونُ في تَسْميَةِ الآثام أوزارًا استعارةٌ تُجَسِّد تلك الآثامَ، وتجعلُ لها صورةً ثقيلةً مُنَفّرَةً، ومع أنّها صارت منسيّةً؛ لكنْ يبقَى إيحاءُ الأوزار بالثِّقل، وتعبيرُ القرآن ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ يُرشّحان تلك الاستعارةَ، ويُمدّانِها بالحياةِ.

اقترانُ التّنْكيتِ والمبالغةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾:

بلاغةُ التّرشيحِ والتّصديرِ، منَ البديعِ الأثيرِ

اقترنَ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ ضربانِ من فنونِ البديعِ في الكلام؛ وهما: التّنكيتُ والمبالغةُ، والسّؤالُ: ما النّكتةُ الّتي رجّحتْ اختصاصَ الظّهورِ بالحمل دونَ الرّؤوس؟ والجوابُ: أنّ النّكتةَ في

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/443.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/242.

ذلك الإشارةُ إلى ثِقَل الأوزار؛ لأنّ الظّهورَ أحملُ للثِّقل منَ الرّؤوسِ، وما يلزمُ من ذكْرِ الظّهورِ مِنْ عجْزِ الرّؤوسِ عن حمْلِ هذه الأوزارِ منَ المبالغةِ في ثِقلِها مُقترنٍ بالتّنكيت، وما اكتنفَ هذا الاقترانَ من تجنيسِ المزاوجةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ قبل قولِه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿يَزِرُونَ﴾ بعدَها، وترشيحُ هذا التّجنيسِ لتمكينِ الفاصلةِ بالتّصدير، واقترانِ التّرشيحِ بالتّصدير[1]، والتّرشيحُ أن يقوّيَ التّشابهَ بين المشبَّه والمشبَّه به، وكأنّ الكلامَ كلَّه موجّهٌ للمشبَّه به، والمقصودُ هو المشبَّهُ؛ لأنّهما في نفس المنزلةِ، وقد شبَّهَ الذّنوبَ بالأوزارِ، وهي الأحمالُ، وتغاضَى عنِ المشبَّه، وركّزَ على المشبَّهِ به، وكأنّه الأصلُ في ملمحِ التّرشيحِ المُنوَّهِ به في هذا المبحثِ، وأمّا التّصديرُ فيظهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وهو ردُّ العجُز على الصّدْرِ في قولِه: ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ و﴿يَزِرُونَ﴾، وهو شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: 37].

أهمّيّةُ أسلُوبِ الاستئنافِ بالتّذْييلِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

إذا شُنّعَ الفعْلُ، عظُمَ الوِزرُ

قولُه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هو تذييلٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه، وتكملةٌ له؛ أي: بِئسَ شيئًا يَزرون وِزرَهم، كقولِه تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ [الأعراف: 177][2]، ومعنى ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بِئسَ الشّيءُ شيئًا يزرونه؛ أي: يحملونَه[3]، قال البِقاعيُّ: ولمّا كان ذلك الحمل أَمْرًا لا يبلغُ الوصفَ الّذي تحتملُه عقولُنا؛ لحقيقةِ ما هو عليه منَ البشاعةِ والثِّقَلِ، أشار إلى ذلك بقولِه جامعًا للمذامّ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[4].

(1) درويش: إعراب القرآن: 3/96.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/22.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/92.

دَوْرُ الأداةِ (أَلَا) الاسْتِفْتاحِيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

العنايةُ بالخبرِ المَسوقِ من أغراضِ الاستفتاحِ المَشوقِ

﴿أَلَا﴾ حرفُ استفتاحٍ يُفيدُ التَّنبيهَ للعنايةِ بالخَبرِ، وهو ما أصابَهم من ثِقَلِ ذلكَ الحِمْلِ، وهي أوزارُ ما عَملوا منَ السَّيِّئاتِ[1]، كذلكَ فإنَّ في ﴿أَلَا﴾ إخبارًا عن سوءِ ما يَأْثَمون، مُضَمَّنًا لاستعظامه والتَّشهير به[2]، والمعنى: "فما أشأمَ ذلك الحمْلَ، وما أسوأَه، إذ كان هو الجريمةَ الّتي تُدين حاملَه، والشّهادةَ الّتي تشهدُ عليه، وتجرُّه إلى النّارِ"[3].

دلالةُ الفعْلِ ﴿سَآءَ﴾ في السِّياقِ، وأثرُ ذلك في المعنى:

(ساءَ) مُتَعَدِّيَةٌ أوْ للتَّعجُّبِ أو للمبالغةِ في الذَّمِّ

الفعْلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ قد تكونُ متعدّيةً متصرِّفةً، بمعنى: (ألا ساءَهُم ما يَزِرون) وقد تكونُ محوّلةً إلى فَعُلَ بضمِّ العَيْن، مُشربةً معنَى التَّعجُّب، والمعنَى: (ما أَسْوَأَ وِزْرَهم) أو تكونُ محوّلةً إلى فعُلَ بضمِّ العَيْن، وأُريدَ بها المبالغةُ في الذَّمِّ، فتكونُ مساويةً لِبِئْسَ في المعنَى والأحكام[4]، وأيّا كان التّأويلُ فإنّ لفظَ ﴿سَآءَ﴾ تعبيرٌ عن سوءِ ما يحملون من أوزارٍ، ودلالةُ التّعجّب فيها بارزةٌ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بيانٌ لسوءِ ما يحملون، ولفظُ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى ما أسوأَ ما يزرون وما يحملون لسوءِ عاقبتِه، وما وراءه من عذابٍ[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(البغتة) و(الفَجأة):

يُقالُ"فَجَأَهُ: كسَمِعهُ ومَنَعَهُ، فَجْئًا وفُجاءَةً: هَجَم عليه، كفاجَأَهُ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/284.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/157.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/483 - 484، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 4/597 - 598.

(5) أبو زهرة زهرة التّفاسير: 5/2482.

استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الدُّنيا والآخرة، و(الفجأةُ) في أحداثِ الدُّنيا فقط

وافْتَجأَهُ، والفُجاءةُ: ما فاجَأَكَ"[1]، وكذلك البَغتُ: الفَجأةُ؛ وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ، والبَغتةُ فيها معنى الإتيان من غير إظهارٍ وإعلام، ومن غير عيانٍ، فإنَّ مجيئَها ليس بلا مُقدِّمةٍ، بينما الفجأةُ هي الإتيانُ بدون مقدِّمةٍ، والهجومُ دفعةً واحدةً، ومجيءُ السّاعةِ والعذابِ والأخذُ من نوعِ البَغتةِ، حيثُ يكونُ التَّعبيرُ فيه ألطفَ منَ الفَجأةِ[2]. ويُلاحَظُ كذلك استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الآخرة والدُّنيا، وفي الآخرة أغلبُ، واستعمالُ (الفجأة) في أحداث الدُّنيا فقط، كما في نظر الفَجأةِ، وموتِ الفَجأةِ الَّذي ورد في بعض أحاديث الرَّسول ﷺ، ولذلك كلِّه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿بَغۡتَةً﴾ أنسبُ في السّياق الَّذي وردتْ فيه في حقِّ أولئك المُكذِّبين بلقاءِ اللّه ﷻ.

(الحَسرة) و(الأَسَف):

الحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيءِ الفائتِ، وهي أعمُّ وأوسعُ دَلالةً منَ الأسَفِ

الحَسرةُ: غَمٌّ يَتجدَّدُ لِفَوْتِ فائدةٍ، فليس كلُّ غمٍّ حسرةً، والأسفُ: حسرةٌ معها غضبٌ أو غيظٌ، و"الحسرةُ: التّلهُّفُ على الشّيءِ الفائتِ، ويقال: حسرتُ عليه حَسرًا وحسرةً، وذلك انكشافُ أمرِهِ في جزعِه، وقلّةِ صبره، ومنه ناقةٌ حَسرَى إذا ظلَعَتْ، وحَسَر البصرُ إذا كَلَّ، وهو حسيرٌ؛ وذلك انكشافُ حالِه في قلّة بصرِه وضعفه، والمُحَسَّر، المُحَقَّر، كأنّه حُسِرَ؛ أي: جُعِلَ ذا حَسرَةٍ"[3]، والأَسِفُ: الغضبانُ المُتلَهِّفُ على الشَّيءِ، ثمَّ كَثُرَ ذلك حتَّى جاء في معنى الغضبِ وحدَه في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزّخرف: 55]؛ أي: أغضَبونا"[4]، والحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيءِ الفائتِ[5]، وهذا المعنى هو الَّذي يَجعلُ استعمالَ فعلِ الحَسرة مُصدَّرًا بالنِّداء: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ أليقَ بالسّياق

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فَجَأَ).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 186.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بَغت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).

القرآنيِّ؛ لأنَّه حالُ المكذِّبين بالبعثِ حين تبغتُهم السّاعةُ، فهم ليسوا في حالة غضبٍ؛ إذِ الغَضبُ لا مكانَ له هنا في هذا الوقت العصيبِ، وإنَّما هو ذُلٌّ وانكسارٌ وندمٌ شديدٌ على الشَّيءِ العظيمِ الَّذي فاتَهُم في الدُّنيا؛ وهو الإيمانُ باللّه ولقائِه وعَمَلُ الصّالحات، ولذلك كانتِ الحَسرةُ أعمَّ وأوسعَ دَلالةً منَ الأسف.

(التَّفريط) و(التَّضييع):

التَّفريطُ تقصيرٌ وإهــمــالٌ، والتّضييعُ فَقْدٌ لما يُحازُ أو يُنالُ

التَّفريطُ: التّقصيرُ في الشّيء حتّى يضيعَ ويَفوتَ، قاله الجوهريُّ[1]، وقيل: بدَّده، قصَّر فيه وضيّعه، وفي الأثر: (لا إفراط ولا تفريط)؛ أي: بوسطيَّةٍ واعتدالٍ[2]، وفي القرآن قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾، وقال: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61][3]، وهو أيضًا تَنحيةُ الشَّيء وإزالتُه عن مكانه، وهذا المعنى ألصقُ بالسّياق من معنى إضاعةِ الشَّيء الَّذي قد يكونُ بقصدٍ وغيرِ قصدٍ، أمّا أولئكَ المكذِّبونَ فقد تَجاوزوا حدودَ اللّه، ونَحَّوا دينَه وشريعتَه من حياتِهم، وأزالوا قاصدينَ كلَّ معالمِ الإيمان وأركانه من قلوبِهم وعقولِهم، وهذا هو التَّفريطُ الحقيقيُّ، وأمّا التّضييعُ فيقال: ضاع الشّيء: يضيع ضياعًا وضيْعةً، وتركتُه بمَضيعةٍ: إذا تركتَه في موضعِ ضَياعٍ[4]، قال تعالى: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]، "وضَيعةُ الرَّجُل: عقارُهُ الَّذي يَضيعُ ما لم يُفتقَد، وتَضَيُّعُ الرّيحِ: إذا هبَّتْ هُبوبًا يُضيِّع ما هبَّتْ عليه"[5]، ولذلك كان استخدامُ البيان الإلهيِّ للفعل الَّذي نطقوا به ﴿فَرَّطۡنَا﴾ مُتحسِّرين مُتندِّمين أَولى بسياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأجدَرَ به من غيره.

---

(1) شمس الدّين البعلّي، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 179.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضاع).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضيع).

لفظُ الوزرِ آثرُ في هذه الآيةِ، وأبلغُ في الدّلالةِ منَ الإثمِ والذّنْبِ

(الوِزر) و(الإثم) و(الذَّنْب):

"الوِزرُ يفيدُ أنَّه يُثقِلُ صاحبَه، وأصلُه الثِّقَلُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: 2 - 3]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمّد: 4]؛ أي: أثقالَها، يعني السِّلاحَ"[1]. والوِزرُ في كلامِ العربِ: الجبلُ الّذي يُلتجأ إليه، هذا أصلُه، وكلُّ ما التجأتَ إليه، وتحصّنتَ به، فهو وِزر، وقال اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾ [طه: 29]، فالوزير في اللّغة اشتقاقُه منَ الوِزر... وكذلك وزير الخليفة معناه الّذي يعتمدُ على رأيه في أموره، ويلتجىءُ إليه، وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: 11]؛ معناه: لا شيءَ يُعتصم به من أمرِ اللّه[2]، وأمّا الإثمُ في أصل اللُّغة فهو التَّقصيرُ، أَثِمَ يَأْثَمُ: إذا قصَّرَ، وبهذا المعنى سُمّيتِ الخمرُ إثمًا، ونُعِتَ شاربُها بالآثمِ؛ فهيَ تقصِّرُ بشاربها لذهابها بعقله[3]، والذَّنْبُ: ما يَتبعُه الذَّمُّ، وأصلُه الإتْباعُ، فهو ما يُتبَعُ عليه العبدُ من قبيح فعلِه، فأمّا قولُهم للصّبيِّ قد أذنبَ فإنَّه مجازٌ[4]، ومن تَتَبُّعِ المعاني السّابقةِ لتلكُمُ المفرداتِ، يتجلَّى أنَّ معنى (الوِزر) أجدَرُ بسياق الآيةِ الكريمةِ؛ للتَّرابط الكبير بين الظَّهر والثِّقَلِ، فالظَّهرُ هو الَّذي يَحمِلُ الأثقالَ، ولكن أيُّ أثقالٍ أشدُّ عِبئًا عليه، وآلَمُ به، من ثِقل الأوزارِ وتَبِعاتِها؟!

(1) الراغب، المفردات (وزر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزر).
(3) الرّاغب، المفردات: (إثم).
(4) الراغب، المفردات: (ذنب).

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خسارةُ المكذّبين يـومَ البـعـثِ، وعلاقتُه بإيثارِ الآخـــرةِ على الدّنيا

لَمّا أعلنَتِ الآيةُ السّابقةُ عن خسارة المكذِّبين بالبعث في اليوم الَّذي أنكروه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمة لتُعطيَ للعباد التَّصوُّرَ الصَّحيحَ الرَّشيدَ عنِ الحياة الدُّنيا والحياةِ الآخرة، فالأولى: لَعِبٌ ولهوٌ لا طائلَ منه، وهي الفانيةُ، والثّانيةُ: خيرٌ للمتَّقين، فهي الباقيةُ، والعاقلُ مَن يعملُ للباقي، ويَتجافَى عنِ الفاني، ثمّ إنّه لَمّا قال سبحانه قبْلَ ذلك على لسان المُنكرين للبعثِ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29] جاء الردُّ هنا بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ كاشِفاً عن خطلِ تفكيرِهم، وخطأِ نظرِهم، ومبيِّناً حقيقةَ الحياةِ الدّنيا، وأنّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى لمنِ اتّقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعِبٞ﴾: اللَّعِبُ: منَ الفعلِ (لَعِبَ) كسَمِعَ، لَعِبًا ولَعِبًا ولِعْبًا وتَلعابًا، وهو ضدُّ الجِدِّ[1]، "وقد لَعِبَ يلعَب. وتلعَّب: لعب مرّة بعد أخرى، ورَجلٌ تِلعابَة: كثيرُ اللّعِب، والتَّلعاب بالفتح: المصدرُ، وجارية لَعوب، والأُلعوبة: اللَّعِبُ، والمَلعَب: موضعُ اللّعِب، واللُّعبَة بالضّمّ: لعبةُ الشِّطرنج والنَّرد، وكلّ ملعوب به فهو لُعبَة؛ لأنّه اسمٌ، ومنه قولُهم: اقعُدْ حتّى أفرغَ من هذه اللُّعبة"[2]، واللَّعِبُ ضدّ الجِدّ، لَعِبَ لَعِبًا ولِعبًا، ولَعَّبَ وتَلاعَبَ وتَلَعَّبَ، قال امرؤُ القيس:

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (لَعِبَ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (لَعِبَ).

تَلَعَّبَ باعثٌ بِذِمَّةِ خالِدٍ *** وأَوْدَى عِصامٌ في الخُطوبِ الأوائلِ[1].

2) ﴿وَلَهۡوٞۖ﴾: اللَّهوُ: ما لَهَوتَ به وشغلَك، مِن هوًى وطربٍ ونحوِهما، وقولُه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: 11]، قيل: اللَّهوُ: الطّبلُ، وقيل: اللَّهوُ: كلّ ما يُلهَى به، لها لَهْوًا والتَهى وألهاه ذلك[2]، و(لهوٌ) منَ الفعل (لَهَوَ) واللّامُ والهاءُ والحرفُ المعتلُّ، أصلان صحيحان: أحدُهما يَدُلُّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ، والآخَرُ على نَبْذِ شيءٍ منَ اليد، فالأوَّلُ: اللَّهوُ وهو أنّ كلَّ شيءٍ شَغَلَكَ عن شيءٍ فقد ألهاك، ولَهَوتُ مِنَ اللَّهو، ولَهيتُ عَنِ الشَّيء: إذا تركتُهُ لغيره، والقياسُ واحدٌ، وإنْ تغيَّرَ اللَّفظُ أدنى تغيُّرٍ، ويقولون: إذا استأثرَ اللّه تعالى بشيءٍ فالهَ عنه؛ أي: اترُكْهُ ولا تَشتغلْ به[3]، وتقول: لَهيتُ عنِ الشّيء، ولَهيتُ منه، وآلَهَ عن هذا الأمرِ، ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: 17][4].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليّ:

الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ للغافلين، والآخرةُ خيرٌ للمتّقين

هذا إخبارٌ منَ اللّه تعالى عن حقيقة الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّها لَعِبٌ ولَهوٌ، تَنشغلُ الأبدانُ بها، والقلوبُ لها والِهَةٌ وبها مُعلَّقةٌ، والاشتغالُ بها كلَعِب الصِّبيان، وأمّا الآخرةُ في ذاتها، وصفاتِها، وبقائِها، ودوامِها، ففيها ما تَشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعين منَ النَّعيم المُقيم للأبدان والأرواح، وكثرةِ السُّرور والأفراحِ، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزُّخرف: 71]، ولكنَّها ليستْ إلّا للمتَّقين الّذين يَلتزمونَ أوامرَ اللّه، ويَجتنبونَ نواهيَه[5].

---

(1) ابن سيده، المحكم: (لَعِبَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (لهو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) الخليل، العين: (لهو).
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

الإيضاحُ البلاغيُّ واللُّغويُّ:

معنى الواوِ وعلاقتُه بالقَصْرِ:

مِن قوانينِ الكونِ المرسّاةِ: (الدّنيا دارُ مَمرٍّ، والآخرةُ دارُ مَقرٍّ)

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾، أفادَ أسلوبُ القَصرِ بالنّفي مع الاستثناء المبالغةَ في جعلِ الحياةِ الدُّنيا نَفسَ اللَّعب واللَّهوِ، ويمكنُ اعتبارُه جوابًا لقولِ المشركينَ السّابقَ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29]، فتكونُ الواو هنا للحال؛ أي: تقولون: إنْ هي إلّا حياتُنا الدُّنيا، والحالُ أنّكم لو تأمَّلتُم حقَّ التَّأمُّل لَعَلمتُم يقينًا أنَّ الحياةَ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ بالعَرَض الزّائلِ، وأنَّ وراءَها حياةً أخرى باقيةً، وهي إمّا العذابُ الشَّديدُ للكافرينَ المُكذِّبين، وإمّا المغفرةُ والرِّضوانُ للمؤمنينَ المُتَّقين، وفي الآيةِ إعادةٌ لدعوتِهم إلى الإيمان والتَّقوى.

قصْرُ الموصوفِ على الصّفةِ:

اللّهوُ واللّعبُ هما غالبُ ما ينشغلُ بهما العمومُ، وتأتي منهما الهمومُ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ صيغةُ قصرٍ لتلك الحياة على اللَّعب واللَّهو، وأداتُها ﴿إِلَّا﴾، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة[1]، فهذه الحياةُ الدُّنيا عبارةٌ عن زمنٍ هو وعاءٌ للأحداث، وهي موصوفةٌ بأوصافٍ هي أوصافُ الزَّمنِ الكائنةِ به من طول أو قِصَر، وأوصافٌ جاءتْ في سياق النَّصِّ القرآنيّ، فهي لعبٌ ولهوٌ، وهذان وصفان يَغلِبان سائرَ الأوصاف، وهما مصدرانِ أُريدَ بهما الوصفُ للمبالغة[2]، وقَصرُ الحياة الدّنيا على هاتين الصّفتين لا يخلو من مبالغةٍ؛ لأنّ للحياة الدّنيا أحوالًا أخرى؛ ففيها جِدٌّ، وسعيٌ، وبناءٌ، وعبادةٌ، لكنّ الأسلوبَ اقتصرَ على الصّفتَين اللّتين انشغل بهما الكافرون، وكانتا سببًا لتعلّقهم بالدّنيا، وإنكارِهم البعثَ.

---

(1) القَصرُ: هو أحدُ الأساليبِ البلاغيَّةِ الَّتي يقتضيها المقامُ، ويدعو إليها حالُ المخاطَبِ: وهو تخصيصُ أمرٍ بأمرٍ بطريقٍ مخصوصٍ، ويُقسَم من حيثُ طرفاهُ إلى قسمَين: قَصرُ موصوف على صفة، وقَصرُ صفةٍ على موصوف، والَّذي في الآية كما هو ظاهرٌ ومبيَّنٌ في المتن من قبيل الأوّل، ويُقاسُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ﴾ [آل عمران: 144]؛ حيث قَصَرَ بيانُ الله محمّداً ﷺ على الرِّسالة. فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 168 - 170.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 192 - 194/7.

ملمحُ الاعتراضِ بين الجُملتين، بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾:

عَطفَ جملةَ البِشارةِ على حكايةِ النِّذارة؛ لما بينَهما من تناسبٍ بالتّضادّ

يمكنُ اعتبارُ السّياق اعتراضًا في ثنايا حكايةِ حالِهم في الآخرة، فإنَّه لمّا حكى قولَهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31] علمَ السّامعُ أنَّ سببَ حَسرتِهم هو تفريطُهم في الأمور النّافعةِ لهم في الآخرة، منَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، والَّذي جرَّهم إلى هذا التَّفريطِ انهماكُهم في زخارف الدُّنيا، وانغماسُهم في مُتَعِها ولَعبِها ولهوِها، فجاء بعد ذلك بخطاب المؤمنينَ تعريفًا بقيمةِ تلك الزَّخارفِ والمُلهياتِ، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخرةَ هي دارُ الخيرِ للمؤمنين، وحينئذٍ تكونُ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ عاطفةً، عطَفتْ جملةَ البِشارةِ على حكايةِ النِّذارةِ، والمناسبةُ بينهما التَّضادُّ، وفيه كذلك ما فيه من إظهار سخافةِ عقولِ المكذِّبينَ بالبعث إذْ غرَّتهمُ الدُّنيا الفانيةُ، وسوَّلتْ لهمُ الإعراضَ عن دعوة اللّٰه لهم إلى الحقِّ على لسانِ رُسلِه، ومنطوقِ كُتبه، لينتهي السّياق بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

دلالةُ (أل) على تعريف الجنْسِ، في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾:

الدّنيا سحابٌ خُلّبٌ، ومتاعٌ لمَن يلهو ويلعبُ

واللّام في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ للتَّعريف، وهو تعريفُ الجنس؛ أي: الحياةُ المعروفةُ الَّتي يحياها كلُّ واحد منَ المخلوقات، والمعروفةُ بالدُّنيا؛ أي: الأولى، والقريبةُ منَ النّاس بوقتِها المضروب، وأحوالِها المُقَدَّرة بقدَر اللّٰه وقُدرته، "والمعنى: أنّ هذه الحياةَ الدّنيا الّتي قال الكفّار: إنّه لا حياةَ غيرُها - وهي ما يتمتّعون به منَ اللّذّاتِ المقصودةِ عندَهم لذاتها، أو الملهيةِ لهم عن همومها وأكدارها - ليست إلّا لعبًا ولهوًا، أو كاللّعِب واللّهو في عدم استتْباعِها لشيءٍ منَ الفوائد والمنافع، يكونُ في حياةٍ بعدَها، أو هي دائرةٌ بين عملٍ لا يفيدُ في العاقبة - فهو كلعب الأطفال - وبين عملٍ له فائدةٌ عاجلةٌ سلبيّةٌ، كفائدة اللّهو، هو دفعُ الهمومِ والآلامِ"[1].

(1) رضا، المنار: 7/303.

سِرُّ الجمْعِ بين اللّعِبِ واللّهو في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

بين اللّعب واللّهوِ عمومٌ وخُصوصٌ وَجْهيّ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وردَ الجمعُ بينَ اللَّعِبِ واللَّهْوِ للعُموم والخُصوصِ الوَجْهيِّ بينهما، فهما يجتمعانِ في العملِ الَّذي فيه مُلاءمةٌ، ويُقارِنُه شيءٌ منَ الخِفَّةِ والطَّيْش، كالطَّرَبِ واللَّهْوِ بالنِّساء، وينفرِدُ اللَّعِبُ في لَعِبِ الصِّبيان، وينفرِدُ اللَّهْوُ في نَحْوِ المَيْسِرِ والصَّيدِ[1] وللمفارقة بين المعنيين فإنّ وجودَ كلٍّ منهما ضروريٌّ لا يستغني عنه السّياقُ وكونُ الحياةِ الدّنيا لعبًا ولهوًا لأنّ الإنسان، حالَ اشتغالِه باللّعب واللّهو، يلتذُّ به، ثمّ عند انقراضِه وانقضائِه، لا يبقى منه إلّا النّدامةُ، فكذلك هذه الحياةُ، لا يبقي عند انقراضها إلّا الحسراتُ والآهاتُ[2].

نُكتةُ تقديمِ اللَّعبِ على اللَّهوِ، في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

الخسارةُ غالبًا مِنَ اللّعبِ والشّياطينُ تُزيّنُه باللّهو

تقديمُ اللَّعِبِ على اللَّهْوِ؛ مردُّهُ إلى أنَّ السّياقَ القرآنيَّ في هذه الآيةِ مكرَّسٌ لبيان الخَسارةِ، وهي أكثرَ ما تكونُ منَ اللَّعِب - وهو فعلُ ما يَزيدُ سُرورَ النَّفْسِ على وجهٍ غيرِ مشروع، وسرعان ما ينقضي - فقدَّمَه لذلك؛ لأنّه سببٌ للغَفْلَةِ عمّا ينفعُ، أمّا اللَّهْوُ فتأخيرُه إشارةٌ إلى أنَّ الجَهَلَةَ، كُلَّما فتَروا في اللَّعِبِ، وهو اشْتغالٌ بالأمورِ السّافلَةِ، والشَّواغِلِ الباطلةِ، بعلوِّ النُّفوسِ، أثاروا الشَّهواتِ بالملاهي[3] لما بينَهما منَ العلائقِ إذْ إنَّ هذا يُعينُ على ذلك ويُحفّزُ عليه، ولا شكّ أنّ الاختيارَ القرآنيَّ بتقديم اللّعب على اللّهو كان سديدًا كما هو دَيدنُه في تقديم المفرداتِ وتأخيرِها، وفقًا لمطلوب السّياقِ وتأكيدًا على سَعةِ العربيّة وثَرائِها.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/193.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/344.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/93، مع ملاحظة أنّ كلّ الآياتِ في القرآنِ جاءَ فيها اللَّعبُ مقدَّمًا على اللَّهْو إلّا في مَوْضعَيْن: الأوّلُ: في قولِه تعالى: ﴿وَما هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت: 64]. والثّاني في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 50 - 51].

تنوّعُ القراءةِ القرآنيّةِ، يُوسّعُ الدّلالةَ، ويُفتّقُ المعاني

أثرُ القِراءاتِ القرآنيّةِ في تَجْلِيَةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾:

أوّلًا: قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ فيها قراءتانِ مُتواتِرتان[1]: الأولى: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ - بلامَين - لامِ الابتداءِ ولامِ التَّعريف، و﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ بالرَّفع، والثّانية: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ بلامِ الابتداء فقط، وبإضافة ﴿وَلَدَارُ﴾ مُنَكَّرَةً إلى ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾، فهو من إضافة الموصوف إلى الصِّفة، كقولهم: مَسجدُ الجامع، أو هو على تقدير مُضافٍ؛ تكونُ الآخرةُ وصفًا له، والتَّقديرُ: دارُ الحياةِ الآخرةِ، والقراءةُ الأولى الّتي عُرِّفت فيها الدّارُ الآخِرَةُ أنسبُ لخطاب المؤمنين؛ لأنّهم آمنوا باليوم الآخر، فالدّارُ الآخرةُ معهودةٌ معروفةٌ لهم، والقراءةُ الثّانيةُ الّتي نُكِّرت فيها ﴿وَلَدَارُ﴾ أنسبُ لخطاب المُنكرين بالآخرة والبعث، وثانيًا: في قوله: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أيضًا قراءتانِ مُتواترتان[2]: الأولى: بتاء الخطاب ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ على طريقة الالتفاتِ. والثَّانيةُ: بياءٍ تحتيَّةٍ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وهو على هذه القراءة عائدٌ لما عادَت إليه ضمائرُ الغَيبة قبْلَه، والاستفهامُ حينئذٍ للتَّعجيبِ من حالِهم بعدَ توبيخِهم، وتقريعِهم على كفرِهم، وإنكارِهم للبعثِ[3].

الآخرةُ خيرٌ للمتّقين ومَلاذٌ للمؤمنين الصّادقِين

بيانُ التَّكْنيةِ عنِ القيامة في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيۡرٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾، الدّارُ محلُّ إقامةِ النّاس، وهي الأرضُ الّتي فيها بُيوتُ النّاسِ من بناءٍ أوْ خيامٍ أوْ قِباب، والآخرةُ مُؤنَّثُ وصْفِ الآخِرِ - بكسرِ الخاء -، أي: مقرُّ النّاسِ الأخيرِ الّذي لا تَحوُّلَ بعدَه، فهي محلُّ الحياةِ الأُخْرَى والإقامةِ الدّائمة[4]، والتّعبيرُ عنِ الآخرة بالدّار إيحاءٌ بالعمارِ والاستقرارِ بتحصيل قرْبِ

(1) الأولى: قراءةُ العَشَرة إلّا ابن عامر، والثّانية: قراءةُ ابن عامر الشّاميّ، ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 256، ابن الجزريّ، النَّشر: 2/290.

(2) الأولى: قراءةُ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبي جعفر، ويعقوب، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. ابن الجزريّ، النَّشر: 2/290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/196.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/195.

اللّه الأعلى وتحصيلِ جزائِه الأوفى حيثُ النّعيمُ المقيمُ الّذي لا يحولُ ولا يزولُ.

معنَى لفظِ ﴿خَيۡرٞ﴾ وسِرِّ حذفِ المفضَّلِ عليه:

تفضيلُ الآخرةِ بنعيمِها الدَّائمِ المتَّصلِ على الدُّنيا بنعيمِها المُنفصلِ

قولُه: ﴿خَيۡرٞ﴾ تفضيلٌ للدّارِ الآخرةِ على الدُّنيا، وحُذِفَ المفضَّلُ عليه للعلْم به، أي: ولَلدّارُ الآخرةُ خيرٌ مِنَ الدُّنيا، وذلك باعْتبارِ أنَّ ما في الدُّنيا نعيمٌ عاجلٌ زائلٌ يلحَقُ مُعظَمَه مُؤاخذةٌ وعذابٌ[1]، ولفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ " يجوز أن يكون للتّفضيلِ، وحُذِفَ المفضَّلُ عليه للعلم به، أي: خيرٌ مِنَ الحياةِ الدّنيا، ويجوزُ أن يكونَ لمجرَّدِ الوَصْف بالخَيْرية، كقولِه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: 24][2].

دلالةُ وجوهِ الأفضليّةِ في خَيراتِ الآخرةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

نعيمُ الآخرةِ آسِرٌ بالإبهارِ مُنزَّهٌ عنِ المُنغِّصاتِ والأضرارِ

لَمّا وصَفَ بيانُ اللهِ الآخرةَ بأنَّها ﴿خَيۡرٞ﴾، دلَّ مع التَّفضيلِ على الدُّنيا على عُمومِ الخيريَّةِ في كلِّ شيءٍ يُستلَذُّ ويُستَطابُ، مع الدَّوامِ وعَدَمِ الانْقطاعِ، ومع الخُلوصِ عنِ المَضارِّ، واللَّذّاتُ فيها خالصةٌ لأصحابِها لا يُصيبُها تَنْغيصٌ بألمٍ أو نُقصانٍ أو انقطاعٍ وفُقدانٍ، فخَيراتُ الآخرةِ شريفةٌ وخَيْراتُ الدُّنيا خَسيسةٌ[3].

العُدولُ عنِ الاسْمِ الصّريحِ إلى الموصولِ وصلتِه:

أهلُ التّقوَى والخيريّةِ ينالون التّكرمةَ والأفضليّةَ

العُدولُ عن الاسم الصّريح إلى الموصول وصِلتِه، في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ للمبالغةِ في وصفِ المتَّقينَ، حيث إنَّ الدّارَ الآخرةَ كانت خيرًا لهم، لا لغيرِهم مِنَ الكفرةِ فهي وبالٌ عليهم وعذابٌ أليمٌ واللّامُ الدّاخلةُ على الاسم الموصولِ للبيانِ أي: أعني (للّذين)، وكذا كلُّ ما جاء مِنْ نحوِه، نحوَ: ﴿خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضّحى: 4][4].

---

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195.

(4) السَّمين، الدّرّ المصون: 4/601.

وجملةُ الصّلةِ مُبيّنةٌ لخُلقِ التّقوى ومُظهِرةٌ لمكانةِ أصحابِه ومُظهرةٌ لَلمحيّةِ الأفضليّةِ في الخيريّةِ الّتي قام عليها الموصولُ وصِلتُه في هذا السّياقِ.

دلالةُ المُبالغةِ على التّعريضِ بالمُشركين، والتّنويهِ بالمتّقين:

ما سِوَى التّقوَى لعبٌ زائلٌ، ولَهوٌ باطلٌ

وفي قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ تعريضٌ بالمُشركينَ المُكذِّبين بالبعثِ، بأنَّهم صائرونَ إلى الآخرةِ، لكنَّها ليستْ لهم بخيرٍ ممّا كانوا عليه في الدُّنيا، وفي هذا التَّعريضِ تأييسٌ للمُشركين، والآخرةُ خيرٌ للمتَّقين خيرٌ محضٌ، بدخولِ الجنَّة والخلودِ فيها[1]، والمعنى: "﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ الشّركَ، واللّعبَ، واللّهوَ، أو المعاصيَ، وفيه دليلٌ على أنّ ما سوى أعمالِ المتّقين لعبٌ ولهوٌ"[2]، وأنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ للَّذين يتَّقونَ؛ لدوامِها، وخُلوصِ منافعِها ولذّاتِها عن المضارّ والآلامِ[3].

دلالةُ أسلُوبِ الاحتباكِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾:

حالُ أهلِ الدّنيا وأهلِ الآخرة مُتضادٌّ، وبضدِّها تتميّزُ الأشياءُ

لّما كان التّقديرُ بما أرشدَ إليه المعنى في هذه الآية الكريمة يفيدُ قولَه: (وما الدّار الآخرة إلّا جدٌّ وحضور، وبقاءٌ للأتقياء الأنقياء)، أتبعه قولَه مُؤَكِّدًا: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾، "ولّما كان الكلُّ مآلَهم إلى الآخرةِ خَصّصَ، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾؛ أي: يوجِدون التّقوى، وهي الخوفُ منَ اللّه الّذي يحملُ على فعْلِ الطّاعاتِ وترْكِ المعاصي، ليكونَ ذلك وقايةً لهم من غضبِ اللّه، فذكرَ حالَ الدّنيا، وحذفَ نتيجتَها لأهلِها؛ لدلالة ثمرةِ الآخرةِ عليه، وحذفَ ذكرَ حالِ الآخرةِ؛ لدلالة ذكْرِ حالِ الدّنيا عليه، فهو احتباكٌ بليغٌ[4]، ويتحقّقُ الاحتباكُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 195 - 196/7.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/129.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/344.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/93.

بدلالةِ ما في أوائلِ السّياقِ على المحذوف من أواخرِه، ودلالةِ ما في أواخره على المحذوفِ من أوائله.

نوعُ الاستفهامِ ودلالتُه في سياقِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

أسلوبُ التّوبيخِ أو التّحذيرِ في الآيةِ، في غاية الدّقّةِ والبلاغةِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ توبيخيٌّ إنْ كان خطابًا للمُشركين، وتحذيريٌّ إنْ كان خطابًا للمؤمنين، لكنَّ نفيَ التّعقّلِ يرجِّحُ أن يكونَ الخطابُ للمشركين على سبيل الالتفاتِ، وقولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا تعقلون ذلك؛ حتَّى تتَّقوا ما أنتم عليه منَ الكُفرِ والعِصيانِ؟"، ويُمكنُ أن تكونَ (الفاءُ) معطوفةً على مُقدَّرٍ محذوفٍ؛ أي: (أَتَغفُلون فلا تعقِلون)، أو ألَا (تَتفكَّرونَ فتَعقِلون)"[1].

أثرُ أسلوبِ التّذْييلِ في الدّلالةِ، بقولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

إيثارُ الكافرين الفانيةَ على الباقيةِ دليلٌ على أنّهم لا يعقلُونَ

جاء التَّذييلُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾، فكان ذلك خطابًا مُستأنَفًا للمؤمنين، تحذيرًا لهم ممّا وقعَ فيه المُكذِّبونَ من غَفلتِهم عنِ الحقِّ، بمُغرياتِ الدُّنيا وصوارفِها عنِ الإيمان بالآخرة، والعملِ لها، وكونُ هذه الجملة حاليةً، هو الأَولى لتكونَ موصولةً بزعمِ المُنكرين، بقولِهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، وهي الآيةُ الواردةُ قبلَ ذلك، فأكّدَ في مخاطبته للعقولِ بأنّ الحياةَ الدّنيا وما يتعلّقُ بها، وبما فيها، من سعيٍ، وأعمالٍ، ومبادراتٍ، وآمالٍ، ما هي "إلّا لعبٌ يشغَلُ النّاسَ، ويُلهيهم بما فيه من منفعةٍ سريعةِ الزّوالِ، ولذّةٍ وشيكةِ الاضمحلال، عمّا يُعْقِبُهُمْ منفعةً جليلةً باقيةً، ولذّةً حقيقيةً غيرَ متناهيةٍ منَ الإيمان والعملِ الصّالحِ"، ولكنّهم في غيّهم سادِرون؛ لأنّهم - كما وصفَهمُ السّياقُ - لا يعقلون[2].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/195.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/126.

دلالةُ تضافُرِ أسلوبَيِ الالْتفاتِ والاستفهامِ:

المدلولاتُ الكنائيَّةُ تتعدَّدُ، دونَ لُزومِ الاشْتراكِ؛ لأنّ دَلالتَها إلزاميَّةٌ

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ورد بتاءِ الخطابِ[1] على طريقةِ الالْتفات منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ، وقد تصدَّرَ هذا الالْتفاتَ الاسْتفهامُ المصحوبُ بفاءِ العطفِ، على جملةِ: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾؛ لأنَّه يتفرَّعُ عليه مضمونُ الجملةِ المعطوفة، ولذلك جاءَ الاستفهامُ تعبيرًا عن عَدَمِ عقْلِهم، مع توجيهِ الخطابِ بالتّاءِ في ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ لفريقَيْنِ اثْنَيْن: الأوَّلُ للمشركين فيكونُ الاسْتفهامُ توبيخًا لهم، والثّاني للمؤمنينَ فيكونُ تحذيرًا لهم، على أنَّه لما كانَ اسْتعمالُ هذا الخطابِ في أَحَدِ هَذَين على وجه الكنايةِ، صحَّ أنْ يُرادَ منه الأمرانِ باعْتبارِ كلا الفريقَيْن؛ لأنَّ المدلولاتِ الكنائيَّةِ تتعدَّدُ، ولا يلزَمُ من تعدُّدِها الاشْتراكُ؛ لأنَّ دَلالتَها إلزاميَّةٌ، على أنَّه يمكنُ اسْتعمالُ المُشتَرَكِ في مَعْنَيَيْه، وقد حُذِفَ مفعولُ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للعلْمِ به، أي: أفلا تعقلونَ أنَّ الأمرَ كما ذُكِرَ، فتزهدوا في الدُّنيا، أو تعقلوا أنَّ الآخرةَ خيرٌ منَ الدُّنيا[2].

دلالةُ الاستفهامِ على التّبكيتِ والتّوبيخِ، في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

العقلُ عنوانُ التّكريمِ، وميزانُ التّقييمِ

ورد خطابُ هؤلاء المُنكرين في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، باعتبارِ أنّهم الأَوْلى بهذا التّوبيخِ والتّبكيتِ المفهوم منَ الاستفهام، وهمُ الأَولى بنفيِ التّعقُّلِ عنهم، قال البِقاعيُّ: "ولَمّا كان من شأنِ العقلاء الإقبالُ على الخير، وتركُ غيرِه، تسبّبَ عن إقبالِهم على الفاني، وتركِهم الباقي، قولُه مُنكِرًا: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾"[3]، والإنكارُ عليهم مُبرَّرٌ ومعقولٌ، ذلك أنّ العقولَ الّتي وهبها اللّه لهم، مؤهَّلةٌ لكي تُرشدَهم إلى الحقِّ، وتَهديَهم إلى سواءِ السّبيلِ، وبها تكونُ

(1) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وقرأ الباقون من العشرة ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ بياء تحتيَّة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/257، وهو على هذه القراءة عائدٌ لما عادت إليه ضمائرُ الغَيْبة قبله، والاسْتفهامُ حينئذٍ للتعجيب من حالهم.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/195 - 196.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/93 - 94.

الموازنةُ بين الدّنيا وغُرورِها، والآخرةِ ونَعيمِها؛ لاختيار ما فيه النّفعُ، ممّا هو باقٍ لا يفنَى، ودائمٌ لا يحولُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اللَّعب) و(اللَّهو):

وصْفُ الدّنيا باللّعبِ واللّهوِ، وكلاهُما ضَياعٌ ومَفسدةٌ

توجَدُ فروقٌ دقيقةٌ بين هاتين الكلمتَين، قد يكونُ لعبٌ ليس بلهوٍ؛ لأنَّ اللَّعبَ يكونُ للتَّأديب والتَّدريب، كالرَّمي وركوبِ الخيل وغيرِهما، ولا يُقالُ لذلك: لهوٌ. ولا يكونُ اللَّهوُ إلّا لعبًا، وإنَّما اللَّهوُ لعبٌ لا يَعقُبُ نفعًا، وسُمّيَ لهوًا؛ لأنَّه يُشغِلُ عمّا يُعني، من قولِهم: أَلهاني الشَّيءُ؛ أي: شَغَلَني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ [التّكاثر: 1]، فهو يُشغِلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه، وما هو أهمُّ له وأنفعُ. واللَّعِبُ كذلك: طلبُ المَزحِ بما لا يَحسُنُ أن يُطلَبَ به، ومنه اشتُقَّ اللُّعابُ؛ وهو المُرورُ على غير استواءٍ[1]، وحاصلُ ما تقدَّمَ من بيانِ الفروقِ بين الكلمتَين؛ أنَّ البيانَ الإلهيَّ استخدمَ الكلمتَين متجاورَتَيْن؛ لِما لكلٍّ واحدةٍ منهما من خَصيصةٍ تمتازُ بها عن صاحبتِها، فاللّعبُ فعلُ الصّبيان الّذين يُتعبون أنفسَهم جدًّا من غير فائدة، واللَّهوُ فعلُ الشُّبّانِ، والغالبُ أنْ لا يبقَى بعد انقضائِهما إلّا الحسرةُ؛ لذهابِ المالِ والعمرِ وانقضاءِ اللّذّاتِ[2]، والنَّصُّ القرآنيُّ ساقَ لنا تَينِكَ المُفردتَيْن، وحصرَ مفهومَ الحياة الدُّنيا بهما، ليجمَعَ فيه بين السَّوأتَين، فيَنزِلَ باعتبارِها إلى تلكُما الدَّركتَين؛ فإنّ مدّةَ اللَّهو واللَّعبِ قليلةٌ سريعةُ الانقضاءِ والزّوالِ، ومدّةُ الحياة كذلك[3].

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 202 - 204، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 469 - 470.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 29/233.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/200.

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علاقةُ غُرورِ الدّنيا ونعيمِ الآخرةِ بتخفيفِ مُعاناةِ النّبيّ مع المُكذّبين

لَمّا أبانَ اللّه أنّ الدّنيا فانيةٌ، والآخرةَ باقيةٌ، وأنّ الدّارَ الآخرةَ دارُ السّرورِ وأنّ الدّنيا دارُ الغُرور، وأنّ الآخرةَ خيرٌ لهم من هذه الدّارِ المليئةِ بالأكدارِ والمحفوفةِ بالأخطارِ راحَ يُسلّي النّبيَّ ويُسرّي عنه ليرفعَ معنوياتِه ويُثبّتَ قلبَه ويمسحَ عنه أحزانَه في غَمرةِ الصّراعِ بينه وبين المكذّبين من قومِه الّذين لا يؤمنون، ويفترون الكذبَ عليه، ويُسَلقونَه بألسنةٍ حدادٍ في تلك الأعوامِ الشّدادِ فيؤكّدُ له أنّهم يعلمون صدقَه وأمانتَه ويوقنون في قرارةِ أنفُسِهم أنّه صادقٌ مصدوقٌ ولكنّهم يُمارون في الحقِّ ويجادلون في آياتِ اللّه فهم بذلك أسوأُ حالًا وأشدُّ وبالًا؛ لأنّ الكُفرَ المستقرَّ في نفوسِهم دفعَهم إلى الظُّلمِ العظيمِ فاستحقّوا به العقابَ وسوءَ العذابِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾: الحُزْنُ والحَزَنُ: ضدُّ السُّرور، وقد حَزِنَ - من باب طَرِبَ - حُزْنًا، فهو حَزِنٌ وحَزينٌ، يُقالُ: أَحزَنتَ الرَّجُلَ - بهمزةِ تعديةٍ - لفعْلِ حَزَن، ويُقالُ: حَزِنْتُه أيضًا، وحَزَنْتُه، جَعَلتُ فيه حُزنًا، وهي أكثرُ استعمالًا[1]، قال اللّيثُ: للعربِ في الحزن لغتان؛ إذا ثقّلوا فتحوا، وإذا ضمّوا خفّفوا، يقال: أصابَه حُزْنٌ شديدٌ، وحَزَنٌ شديدٌ، وروى يونسُ عن أبي عمْرٍو قال: إذا جاء الحزنُ منصوبًا فتحوا، وإذا جاء مرفوعًا أو مكسورًا ضمّوا الحاءَ، ففي موضعِ الخفْضِ قال

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حَزِنَ).

تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: 84]، وفي موضعِ النّصبِ قال: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التّوبة: 92]، وفي ضمِّ الحاءِ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][1].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: الجَحْدُ، نقيضُ الإقرار.. وقولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ عدّاهُ بالباء؛ لأنّه في معنى كفروا، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]؛ أي: بكُفرِهم بآياتنا[2]، ولفظُ "جَحَدَ: الجيمُ والحاءُ والدّالُ، أصلٌ يدُلُّ على قِلَّةِ الخيرِ، يُقالُ: عامٌ جَحِدٌ قليلُ المطَر، ورَجُلٌ جَحْدٌ - بسكون الحاء وكسرِها - فقيرٌ، وقد جَحِدَ وأَجْحَدَ، والجَحْدُ من كلِّ شيءٍ: القِلَّةُ، ومن هذا البابِ الجُحودُ، وهو ضدُّ الإقرارِ، ولا يكونُ إلّا مع علْمِ الجاحدِ به أنَّه صحيحٌ، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وما جاء جاحدٌ بخيرٍ قطّ"[3].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تَسلِيةُ النّبيِّ بكونِ تكذِيبِهم له، هو تكذيبٌ لآياتِ اللهِ وهديِه

يُخبرُ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ مُسلّيًا له في تكذيب قومِه له، ومُخالَفتِهم إيّاه: قد أَحَطْنا علمًا بتكذيبِهم لك، وحُزنُكَ وتأسُّفُكَ عليهم، فهم لا يتّهمونَكَ بالكذب في الأمرِ نفسِه، ولكنَّهم يُعانِدونَ الحقَّ وآياتِه الدّالّةَ عليه[4]، وقد وردَ في ذلك، "عن عليّ قال: قال أبو جهل للنّبيّ ﷺ: إنّا لا نكذّبُك يا محمّدُ، ولكنْ نكذّبُ ما جئتَ به، فأنزل اللّه قولَه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[5].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حَزِنَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (جحد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/121.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 5/65.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾:

التّكذيبُ العامُّ والخاصُّ دليلٌ على تأصُّلِ العنادِ في نُفوسِ الكُفّارِ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾، هذه الآيةُ من الاستئنافِ الّذي يتضمّنُ تكذيبًا عامًّا لكلّ آياتِ اللّه؛ إذْ كانوا يقولون: أساطيرُ الأوّلين بعد تكذيبٍ خاصٍّ للآياتِ الّتي تتضمّنُ البعثَ بعدَ الموتِ، و"هذا القولُ استئنافٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ اللّه ﷺ عن الحُزْنِ الَّذي يَعتَريه؛ بسببِ إصرارِ الكَفرةِ على التَّكذيبِ، والمبالغةِ فيه، ببيانِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمكانةٍ عظيمةٍ عندَ اللّه ﷻ، وأنَّ ما يَفعلونَ في حقِّه، إنَّما هو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقةِ، وأنَّه ينتقمُ منهم لا محالةَ أشدَّ انتقام"[1]، وحزنُ الرّسولِ ﷺ يتناسبُ مع أخلاقِه العاليةِ، واتّساعِ فؤادِه لاستيعابِ المُؤالفِ والمخالِفِ، وحزنِه على تأخّرِ إسلامِ زُعماءِ الكُفرِ الّذين كانوا يناصبونَه العداءَ، ولكنّه كان لا يفتأُ داعيًا اللّه لهم بالهدايةِ، ومُلتمِسًا لهم العذرَ، بقوله: «اللهمّ اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون»[2].

أثرُ لفْظِ التّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾:

(قد) تكونُ للتّكثيرِ أوِ التّقليلِ، بحسبِ مَنطقيّةِ الأسبابِ أو عدمِ ذلك

في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ جاءت كلمةُ ﴿قَدۡ﴾ لتحقيقِ الخبرِ الفعليِّ ليُفيد تأكيدَ العلْمِ بما ذُكِرَ، وهو تأكيدُ الوعيدِ؛ أي: قد عَلِمْنا، فالمستقبلُ بمعنى الماضي[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ [النّور: 63]، وقولِه تعالى: ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: 18] ونحوهما، بإخراجها إلى معنى التَّكثير، جَرْيًا على سَنَن العرب عند قَصْدِ الإفراط في التَّكثير، وعليه قولُه ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحِجْر].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/195 - 196.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرسلا: 3/45، ثمّ رواه من رواية سهل بن سعد، مرفوعًا، بلفظ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(3) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

2]، وهذه طريقةٌ إنَّما تُسلَكُ عندَ كَونِ الأمرِ منَ الوضوحِ بحيثُ لا تحومُ حولَه شائبةُ رَيبٍ حقيقةً، كما تقدَّمَ في الآياتِ الكريمةِ[1].

و"(قد) تكونُ للتّكثيرِ إن كانت منطقيّةَ الأسباب، وهي للتّقليلِ إن كانت غيرَ منطقيّةِ الأسباب، ولكنْ كلُّنا يعلمُ أنّ علْمَ اللّه هو علمٌ أزليٌّ، ولا قوّةَ ولا أمرَ، يَخرجان عن معلومِ اللّه، إذن (فقد) هنا للتّحقيقِ، وهي داخلةٌ على الفعلِ المضارع، فالحقُّ أراد أن يُبلّغنا أنّه عَلمَ أزلاً بما حدث، وجاء (بقد)؛ لنستحضرَ صورةَ الفعْلِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾"[2]، وقال أبو حيّانَ: "قال بعضُ أصحابِنا: فذكَرَ بما في التّقليلِ والصّرفِ إلى معنى المُضيّ، يعني: إذا دخلتْ على المضارع، قال: هذا ظاهرُ قولِ سيبويه، فإنْ خلتْ من معنى التّقليل خلتْ غالبًا منَ الصّرفِ إلى معنى المُضيِّ، وتكونُ حينئذٍ للتّحقيقِ والتّوكيدِ نحوَ قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾، وقولِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصّف: 5]، وقولِ الشّاعر:

وقَد تُدرِكُ الإنسانَ رَحمَةُ رَبِّهِ *** ولَو كانَ تَحتَ الأَرضِ سَبعينَ واديا"[3]

معنى الفعْلِ المضارعِ ﴿نَعۡلَمُ﴾ بعد ﴿قَدۡ﴾:

تحقيقُ علْمِ اللهِ واسْـتـمـرارُه أمرٌ حقيقٌ بالاعتقادِ والتّسليمِ

في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾، أفادتْ ﴿قَدۡ﴾ تحقيقَ الخبرِ الفعليِّ، فهو في تحقيقِ الجملةِ الفعليَّة، بمنزلةِ (إنَّ) في تحقيقِ الجُملةِ الاسْميَّة، فمعنَى ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾: أي: قد عَلِمْنا بأنَّ الَّذي يقولونه يُحزنُك مُحقَّقًا فَتَصبَّرْ[4]، و﴿نَعۡلَمُ﴾ تتضمَّنُ إذا كانتْ من اللّهِ تعالى اسْتمرارَ العلمِ وقِدَمَه، فهي تعمُّ المُضيَّ والحالَ والاسْتقبالَ، ولذلك كانَ المجيءُ بالمضارعِ ﴿نَعۡلَمُ﴾ يُفيدُ وجودَ العلمِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/196.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3594.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/488.

(4) العكبريّ، الإملاء: 1/240، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/197.

من غيرِ نظرٍ إلى زمان، وعدَلَ عنِ الماضي لئلّا يُظَنَّ الاختصاصُ به، فالمرادُ تحقّقُ التَّجدُّدِ لتعلُّقِ العلم بتجدُّدِ الأقوال[1]، وهذا السّياقُ تأكيدُ اللّه اسْتِجابَتَهُ "لشكاة النّبيِّ ﷺ قبل أن يشكوَ، وفي هذا تطمينٌ لقلبِه، وتثبيتٌ لقدمِه، وأنّ اللّه يرعاه، ويعلَمُ ما يجدُ في نفسِه من حُزنٍ وألم، لِما يرميه به قومُه من باطلِ القولِ، وزورِ الكَلِم.. وهم يعلمون أنّه الإنسانُ الّذي لا يكذبُ أبدًا"[2].

توجيهُ المعنَى في اختلافِ القراءةِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾:

كان إصرارُ الكفّارِ على الإنكارِ، يُحزنُ قلبَ النّبيِّ المُختارِ

وفي قوله: ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ قراءتان[3]: الأولى: بضمِّ الياء وكسرِ الزّاي ﴿لَيُحزِنُكَ﴾، وهي منَ الفعل الرّباعي (أَحزَنَ)، والثّانية: بفتح الياء وضمِّ الزّاي ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾، وهي منَ الثّلاثي (حَزَنَ). والقراءةُ الأولى تدُلُّ على حُزنٍ أكثرَ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فالقراءتان معًا تدلّان على تعدّدِ مرّاتِ التّكذيب، وتعدّدِ مرّاتِ الحُزن، مع تفاوُتِ مقدارِه. وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾ هو قولُهم: ساحرٌ، ومجنونٌ، وشاعرٌ، فعدَلَ عن تفصيل قولِهم إلى إجمالِه؛ إيجازًا أو تحاشيًا عنِ التَّصريح به في جانب المُنَزَّهِ عنه. والحُزنُ: هو خروجُ النّفس من سياق انبساطِها، أو هو انفعالٌ لمجيء وحصولِ أمرٍ غيرِ مطلوبٍ للنّفس، وحزنُ النّبيِّ ﷺ نتجَ عن رقّةٍ في قلبِه، ونُبْلٍ في نفسِه، حيث كان مطلبُه أن يؤمنَ كلُّ الّذين استمعوا إلى البلاغِ عنه، ولكنّهم استنْكفوا عن قَبول الدّين، والدّخولِ في حِماه، فكذّبوا بالهُدى، وأعرضوا عنه[4]، وفي هذا يقولُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: 6]، ويقولُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: 8].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/285، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/94.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/159.
(3) الأولى: قراءة نافع، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. يُنظر: ابن الجزري، النّشر: 2/257.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3595.

نُكتةُ المُرادِ منَ التّعبيرِ باسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ دونَ (ما) الموصولةِ:

مـا كُـذِّبَ به رسولُ الله ﷺ، لا أثرَ له عليه ولا استمرارَ لأذيّته

آثرَ بيانُ اللّه تعالى التَّعبيرَ بالاسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما) في قولِه تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، وكلاهما اسْمٌ موصولٌ، لكنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ اسْمٌ موصولٌ يُطلقُ عليه (المُختصّ)؛ لأنَّه يختصُّ بالمُفردِ المُذكَّرِ تحديدًا، و(ما) تُستعمَلُ للمذكَّرِ والمؤنَّثِ وللمُفردِ والمثَّنى والجمع، وبهذا يكونُ ﴿ٱلَّذِى﴾ أعرفَ من (ما)، مع أنَّ كِلَيْهما معرفةٌ، لكنَّ المختصَّ أَعْرفُ[1]، وهذا الَّذي يقولونَ فَحَزَّنَ رسولَ اللّهِ ﷺ معروفٌ، دلَّ عليه اللّحاقُ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ، بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، مع أنَّهم قالوا لرسولِ اللّهِ ﷺ: ساحرٌ كذّابٌ، ولكنَّ قولَهم ذاك نابعٌ عن جُحودٍ ومُكابرةٍ، لا عن يقينٍ منهم بما قالوا، فعائدُ ﴿يَقُولُونَ﴾ محذوفٌ، أي: للَّذي يقولونَه، وهو قولُهم: ساحرٌ كذّاب، أو أساطيرُ الأوَّلين ونحوُ ذلك، وهذا كلُّه يُعَدُّ تكذيبًا لرسولِ اللّهِ ﷺ، وقد دلَّ عليه قولُه بعدَه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34][2].

نُكتةُ العُدولِ إلى الاسْمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾:

التَّلطُّفُ مع رسولِ الله ﷺ، من مقاصدِ البيانِ في القرآنِ

عَدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن ذكرِ اسْمِ التَّكذيب، وأقامَ مقامَه اسْمَ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلتَه؛ تنزيهًا للرَّسولِ ﷺ عن ذِكرِ هذا اللَّفظِ الشَّنيعِ في جانبِه تلطُّفًا معه ورعايةً لحقِّ ما اتَّصفَ به من خُلُقٍ عظيم[3]، وهذا الكلامُ مبتدأٌ مَسوقٌ لِتَسْلِيَةِ رسولِ اللّه ﷺ عمّا نالَه منَ الغمّ والحُزن، بتكذيبِ الكفارِ له[4]، وما يقولون فيه مُؤذٍ لمقامِه وجاهِه ومعنى ذلك: "قد نعلمُ أنّ الّذي يقول المكذّبون فيك يُحزنُكَ ويَسوؤُك، ولم نأمُرْك بما أمرناك به منَ الصّبرِ إلّا لتَحصُلَ

(1) ابن عقيل، شرح ألفيَّة ابن مالك: 1/141، 147.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/14، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.

(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/127.

لك المنازلُ العاليةُ والأحوالُ الغاليةُ، فلا تظنَّ أنّ قولَهم صادرٌ عن اشتباهٍ في أمرك، وشكٍّ فيك، ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ لأنّهم يعرفون صدْقَك، ومدخلَك ومَخرجَك، وجميعَ أحوالِك"[1].

دَلالةُ الفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾:

اسْتمرارُ المُشركينَ في تكذيبِ رسولِ اللهِ ﷺ واقعٌ معلومٌ

دلَّ المضارعُ ﴿يَقُولُونَۖ﴾ في الآية، على اسْتمرارِهم في أقوالِهم الدّالّةِ على عدمِ تصديقِهم الرَّسولَ ﷺ، ومعلومٌ أنّ اللّه يعلمُ أنّ ما قاله أهلُ الشّرك عن رسولِ اللّه هو قولٌ مردودٌ، فهُم أمّةُ البلاغةِ والفصاحةِ والبيانِ، ولاتخفَى عليهم صَنعةُ الشّعرِ ولا بِنيةُ السّجعِ ولا التّمييزُ بين قولِ العاقلِ والمجنونِ، ولكنّ الّذي يقولون على إطلاقِه إنّما كان أباطيلَ هم أدرَى النّاس بزَيفِها واستمرارُهم في ذلك ينطبقُ على ما قالوا وما سيقولون؛ لأنّ التّكذيبَ مستمرٌّ على المدَى، ولذلك ناسبَ أن يكونَ الفعلُ مضارعًا.

فائدة عدمِ ذكرِ ما يقولون:

الإيجازُ والتّنزيهُ ردٌّ مُفحمٌ على كلِّ مُتقوّلٍ سفيهٍ

في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾: عَدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن تفصيلِ قولِهم إلى إجمالِه إيجازًا أو تحاشيًا عنِ التَّصريحِ به، في جانبِ المنزَّهِ عنه[2]، والمعنى: الكلامُ الّذي يقولون لك، هو تكذيبُك واتّهامُك بالسّحرِ، والتّقوُّلِ على اللّه، وما إلى ذلك ممّا هو إساءةٌ لك...[3]، وعدمُ التّفصيلِ إيجازٌ بليغٌ وتنزيهٌ نبيلٌ وردٌّ مُفحمٌ أصيلٌ على كلِّ مُتقوّلٍ على مقامِ النّبوّةِ عليلٍ، ووصْمِه بما ليس فيه من غيرِ بُرهانٍ ولا دليلٍ.

نُكتةُ الفرقِ بين ﴿لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ و﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾، واللّامُ لامُ القَسَم، وفعلُ ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾ فعلُ القَسَم، وكلاهُما يُفيدُ تأكيدَ حُزْنِ رسولِ اللّه

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.

(3) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/53.

ﷺ على تكذيبهم له، واتّهاماتِهمُ الباطلةِ في حقِّه ﷺ، وكأنَّ بيانَ اللّه يقول: فلا تَحزَنْ يا محمَّدُ ﷺ، فإنَّهم لا يُكذِّبونك، مع ما أفادَه الاسْمُ الموصولُ منَ المبالغةِ في وصْفِ قُبحِ وشناعةِ الَّذي يقولون؛ مع أنَّ ما يقولون يوقِعُ على سبيلِ التَّجديدِ والاسْتمرارِ لكَ الحُزْنَ على ما فاتكَ من حالاتِ الصَّفاء الَّتي كدَّرها الَّذي يقولون من تكذيبك، وهذا المعنَى بتأكيدِه وتحقيقِه والمبالغةِ فيه، لا يوفِّرهُ القولُ بـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[1].

دورُ السّياقِ في دفْعِ الحُزنِ وتلطيفِ الأجواءِ بين النّبيِّ وقومِه

نُكتةُ حذفِ جملةِ (فَلَا تَحْزَنْ)، لدَلالةِ المقامِ الخطابيِّ عليها:

أصلُ الكلامِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾، قد نعلمُ إنَّه لَيحزُنُكَ الَّذي يقولونَ فلا تحزنْ، فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، وقد حُذفتْ جملةُ (فلا تحزن)؛ لأنَّها في مقامِ المعلَّلِ المحذوفِ، حيث إنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتَّعليلِ في أحدِ وجوهِها، وقد دلَّ على هذا المعلَّلِ المحذوفِ قولُه تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي: فلا تحزنْ يا محمَّدُ ﷺ، فإنَّهم لا يُكذِّبونك، أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونَك، فكانَ المقامُ الخطابيُّ دليلًا على حذفِ جملةِ (فلا تحزنْ)[2]. ولا شكَّ أنَّ الحزنَ عندَ وقوعِ ما يسوءُ من طَبْعِ البشَرِ الَّذي لا يقدِرُ على الانفكاكِ عنه، فالنَّهيُ عنه، وإن لم يُذكرِ النّهيُ صراحةً في السّياقِ إنَّما هو نهيٌّ عمّا ينشأُ منَ الاسْترسالِ المُؤدّي إلى الجَزَعِ، المؤدّي إلى عدمِ الصَّبرِ، ونسيانِ ما يُعزّي، فهو منَ النَّهيِ عنِ السَّببِ، للمُبالغةِ في النَّهيِ عنِ المسبَّبِ[3].

الحذفُ منَ الجُملةِ له أثرٌ في تقليصِ المعنى أو توسيعِه

مَعاني (الفاء) ودورُها في ثَراءِ المعنى، في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، الفاءُ في ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فيها ثلاثةُ وجوه: الأوَّلُ: أن تكونَ للتَّعليل، والمُعَلَّلُ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/94، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 7/198.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/95.

الإنكارُ على تكذيبِ الكافرينَ المُهينِ لَهُمْ لا لآياتِ القرآنِ المُبينِ

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾؛ أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونَك، والثّاني: كونُها لِلفصيحةِ، والتَّقديرُ: فإنْ كان يُحزِنُكَ ذلك لأجل التَّكذيبِ فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، والثّالثُ: أن تكونَ للتَّفريعِ على ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾؛ أي: فَعِلْمُنا بذلك يتفرَّعُ عليه أنّا نُثبِّتُ فؤادَك، ونَشرحُ صَدرَكَ بإعلامِكَ أنَّهم لا يُكذِّبونَك، ونُذكِّرُكَ بسُنَّةِ الرُّسُل من قبلك، ونُذكِّرُكَ بأنَّ العاقبةَ هي نَصرُكَ كما سبقَ في عِلْمِ اللّه[1]، وأيًّا كان تأويلُ معنى الفاء، للتّعليلِ، أو للفصيحةِ، أو للتّفريعِ، فإنّ لها دورًا في الإبانة عنِ المعنى المُستفادِ من نفي تكذيبِ الرّسول ﷺ بذاتِه، والتّوجيهِ إلى أنّ تكذيبَه هو تكذيبٌ للرّسالة، وردٌّ للهُدى على مَن أرسله، دون اكتراثٍ لمغبّاتِ ذلك، ولا اهْتِمامٍ لعواقبِه الوخيمةِ.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ومعجزتُهُ في خلْقِه:

ما أخبرَ به القرآنُ عن الأمرِ المحجوبِ، هو تجلّياتٌ من عالَمِ الغيوبِ

أوردَ ابنُ الأنباريِّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنّ سائلًا سألَ: كيف خبّرَ عنهم أنّهم لا يكذِّبون النّبيَّ ﷺ، وقد كانوا يُظهرون تكذيبَه ويُخفونَه؟ وخلاصةُ الجوابِ بأنّ المُرادَ يأتي على أوجُهٍ واضحةٍ لا لَبْس فيها، فإنّهم لا يكذّبونَ النّبيَّ ﷺ بقلوبِهم، بل يكذّبونَه ﷺ بألسنتِهم، فمَهما بحثوا فلن يَجدوه كذّابًا ولوْ تدَبّروا وفتّشوا، بل ستقِف كُتبُهم وأخبارُهم حجّةً بالغةً ضدَّهم تثبتُ صِدْقَه ﷺ، ولا يستطيعون سبيلاً لتكذيبه، لأنّ ذلك من أعظم الحُجج عليهم[2]. ومع تنوّعِ الفهم لهذه الآيةِ، فإنّ ملمحَ الإعجازِ فيها أنّها تُنبئُ عمّا تختلجُ به قلوبُ الكافرين، وتجيشُ به صدورُهم، ممّا لا يعلمُه إلّا عالمُ السِّرّ وأخفَى، وهو محضُ غيبٍ لايطّلعُ عليه إلّا العليمُ بخائنةِ الأَعيُن، وما تُخفي الصّدورُ، وما يُؤكّدُ إعجازَه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/198.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كذب).

أنّهم سمِعوه في أوانِه، وما تجرّؤوا على نُكرانِه، ممّا يدلُّ على أنّ كلامَ اللّه حقٌّ لا يشوبُه ريبٌ، وصدقٌ لا يخالطُه كذبٌ، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

توجيهُ المعنَى باختلافِ القراءةِ، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾:

التّكذيبُ تُهمةُ الآخَرِ بالكذبِ، والإكذابُ أن تجدَه مُتلبّسًا به

قولُه: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، فيه قراءتان[1]: الأولى: بسكون الكاف، وتخفيف الذّال ﴿لَا يُكۡذِبُونَكَ﴾، والثّانيةُ: بفتح الكاف، وتشديد الذّال ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، "تقول العربُ: أَكۡذَبۡتُ الرَّجُلَ: إذا أخبرتُ أنَّه جاءَ بالكذبِ فرَواه، وكَذَّبتُه: إذا أخبرتُه أنَّه كاذبٌ"[2]، فالقراءتان تدلّان على تعدُّدِ مرّاتِ التّكذيبِ وأحوالِه، والفرقُ بين التَّكذيبِ والإكذابِ: أنّ التَّكذيبَ: هو أن يقول له: كذبْتَ، والإكذابَ: هو أن يجدَه كاذبًا[3]، "والمعنى أنّ تكذيبَك أمرٌ راجعٌ إلى اللّه؛ لأنّك رسولُه المُصدَّقُ بالمُعجزاتِ، فهم لا يكذّبونَك في الحقيقةِ، وإنّما يكذّبون اللّه؛ لأنّ تكذيبَ الرُّسلِ تكذيبُ المُرسِلِ"[4].

الاستدراكُ لدفْعِ التّوهُّمِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

الكافرُون المعانِدُون كذبُهُم بواحٌ، وظُلمُهُم صُراحٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ استدراكٌ لِدَفعِ أن يُتَوَهَّمَ من قولِه: ﴿لَا يُكۡذِبُونَكَ﴾ على القراءة الأولى أنّهم صدَّقوا وآمَنوا، وعلى القراءة الثّانية ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنَّهم لم يصدُرْ منهم أصلُ التَّكذيب، مع أنَّ الواقعَ خلافُ ذلك، فاستدركَ عليه بأنَّهم يَجحدونَ بآيات اللّه، فيظهرُ حالُهم كحالِ من يَنسُبُ الآتيَ بالآيات إلى الكذبِ، وما هم بمُكذِّبين في نفوسِهم.

---

(1) الأولى: قراءة نافع، والكِسائيّ، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. يُنظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 257، وابن الجزري، النشر: 2/257.

(2) ابن قتيبة، أدب الكاتب: 1/434، والنَّحّاس، معاني القرآن: 2/419.

(3) أبو المظفر السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/99.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/500.

دلالةُ إقامةِ الظّاهرِ مقامَ المُضمَرِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظّلمُ علّةٌ لكلِّ جحودٍ، وشرٌّ يطالُ كلَّ موجودٍ

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من إقامةِ الظّاهرِ مَقامَ المُضمَر؛ بأن يقولَ: (ولكنَّهُمْ بآياتِ اللّهِ يَجْحَدونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ظلموا في جُحودِهم، وفيه ما فيه منَ الذَّمِّ لهم، والإعلام بأنَّ شأنَ الظّالم الجَحْدُ بالحجَّة، وتسجيلِ صِفةِ الظُّلْم مُلازِمةً لهم[1]، قال أبو حيّانَ: "وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: (فلا تحزن فإنّهم لا يكذّبونك)، وأقيمَ الظّاهرُ مقامَ المُضمَر، تنبيهًا على أنّ علّةَ الجحودِ هي الظّلمُ، وهي مجاوزةُ الحدِّ في الاعتداء؛ أي: (ولكنّهم بآيات اللّه يجحدون)"[2].

حرفُ الجرِّ (الباء) بين التّعلُّقِ والتّضمينِ، في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

تضمينُ الظُّلمِ معنَى التّكذيبِ إيجازٌ بديعٌ، قرينتُهُ حرفُ التّعديةِ

"وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ الباءُ تتعلَّقُ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ وذلك على أنَّ الجارّ والمجرور مُقَدَّمٌ على الفعل المتعلِّق به، ويُمكنُ أن تتعلَّقَ بالظّالمين، كما في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: 59]"[3]، وعلى أنّ الباءَ مُتعلّقةٌ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ يكونُ تعديةُ هذا الفعل بالباء؛ لتأكيدِ تعلُّقِ الجَحدِ بالمجحود، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6][4]، وعلى الوجه الثّاني: يكونُ الظّلمُ قد ضُمِّن معنى التّكذيبِ؛ لأنَّ فعلَ الظّلمِ لا يتعدَّى بالباء، ولكنَّ فعلَ التّكذيبِ هو الّذي يتعدَّى بها، وفي التّضمين إيجازٌ بديعٌ، قرينتُهُ حرفُ التّعديةِ، ويُمكنُ أن يكونَ التَّعدّي بالباء لتَضمينِ الجحودِ معنَى التَّكذيب.

بلاغةُ القصرِ بتقديم الجارِّ والمجرورِ، في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ على الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لإفادة

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/15.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/489.

(3) العُكبريّ، الإملاء: 1/240.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/199.

القَصْرِ في جحودِهم بآيات اللّه تعالى[1]، "يُقال جحد حقَّه وبحقِّه: إذا أنكرَه وهو يعلَمُه، وقيلَ: هو لتضمين الجحودِ معنى التّكذيبِ، وأيًّا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور للقصْرِ، وقيل: المعنى فإنّهم لا يكذّبونك بقلوبِهم، ولكنّهم يجحَدون بألسنتِهم، ويَعضُده ما رويَ من أنّ الأخنَسَ ابنَ شُرَيقٍ قال لأبي جهلٍ: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمّدٍ أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟ فإنّه ليس عندنا أحدٌ غيرُنا، فقال له: واللّه إنّ محمّدًا لصادقٌ، وما كذَب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصيّ باللّواءِ، والسِّقايةِ، والحِجابةِ، والنُّبوّةِ، فماذا يكونُ لسائر قريش؟ فنزلَتْ"[2].

تقديمُ أحدِ طرفَي الإسنادِ ذو دلالةٍ بلاغيّةٍ متميّزةٍ

دلالةُ الجُحودِ بآيات الله، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

والمرادُ بالجحودِ في الآية إنكارٌ ومُكابرةٌ؛ لأنَّ الجُحودَ إنكارٌ للأمر المعروفِ؛ أي: الإنكارُ مع العلْم بوقوعِ ما يُنكرُ، فهو نَفيُ ما يَعلمُ النّافي ثُبوتَه، والمُكابَرةُ مع وضوحِ الحقِّ سببٌ لصرفِ المُتكبِّر عنِ الحقِّ وعَنْ سبيل الرُّشد، وعنِ الآياتِ البيِّناتِ، كما قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146][3].

المُكابَرةُ مع وضُوحِ الحقِّ واستبانَتِه سببٌ في إصرارِ المُكابرِ على ضلالتِه

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الحُزْن) و(البَثّ) و(الهمّ):

الحُزْنُ: خلافُ السّرور، وقال اليزيديّ: (حَزَنَه) لغةُ قريش، و(أَحزَنَه) لغةُ تميم، وقد قُرئَ بهما، واحتزن وتحزّن بمعنًى..

الحُزنُ ألمٌ داخليٌّ مكتومٌ، يطُولُ فيكونُ همًّا، ويُنشرُ فيَصيرُ بثًّا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/197.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/127.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/199.

والحزنُ: ما غلظ منَ الأرض. وفيها حَزونةٌ[1]، والحُزنُ يُفيدُ غِلَظَ الهمِّ، أمّا البَثُّ فيُفيدُ أنَّه يَنبَثُّ، لا يَنكَتِم، من قولك: أَبثَثْتُه ما عندي، وبَثَثْتُه إذا أعلمتَه إيّاه، وأصلُ الكلمة: كثرةُ التَّفريقِ، منه قولُه تعالى: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤﴾ [القارعة: 4].

والحُزن: أشدُّ الهَمّ، والبَثُّ: ما أبداهُ الإنسان، والحُزنُ ما أخفاه؛ لأنَّ الحُزنَ مُستكِنٌّ في القلب، والبَثُّ: ما بُثَّ وأُظهِرَ[2].

والهمُّ: هو الحُزنُ الَّذي تَطولُ مدَّتُه حتَّى يُذيبَ البَدَنَ، واشتقاقُه من قولك: همَّ الشَّحمُ: إذا ذاب، وهَمَّهُ: إذا أذابه، والهَمُّ يكونُ قبل نزولِ الأمرِ[3].

وممّا تقدَّمَ بيانُه يَظهَرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمة (الحُزنِ) بفعْلِها أَولَى بالسّياق من كلمتَي (البَثّ) و(الهمّ)، فرسولُ اللّه ﷺ كانَ يُخفي حُزنَه في قلبه مُدَّةً طويلةً، ولكنَّ اللّه ﷻ هو وحدَه الَّذي كان يَعلمُ ذلك كلَّه، ولذلك سلّاه وصبَّره.

(الجَحْد) و(الإنكار):

الجَحدُ: كتمُ الشَّيءِ الظَّاهرِ للعَيانِ، والإنكارُ يكون بالقلبِ أو باللّسانِ

الجَحدُ: أخصُّ منَ الإنكار، وذلك أنَّ الجَحدَ إنكارُ الشَّيءِ الظّاهرِ، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾؛ فجعلَ الجَحدَ لِما تدُلُّ عليه الآياتُ، ولا يكونُ ذلك إلّا ظاهرًا. وأمّا الإنكارُ فيكونُ للنِّعمة، وقد تكونُ خَفيَّةً، كما قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل: 83]. ويجوزُ أن يُقالَ: الجَحْدُ هو إنكارُ الشَّيءِ مع العلْم به، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النَّمل: 14]، فجعلَ الجَحدَ مع اليقين، وأمّا الإنكارُ فيكونُ مع العلْم وغيرِ العلم[4]، وقال ابنُ القطّاعِ: ونكرتُ الشّيءَ وأنكرتُه، ضدُّ عرفتُه، إلّا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حزن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 184 - 185.
(3) الجُرجانّي، التَّعريفات، ص: 378، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 560.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 157.

أنّ نكرتُ لا يتصرّفُ تصرّفَ الأفعال، وقال ابنُ سيده: واستنكره وتناكرَه كلاهما كنَكرَه، وفي الأساس: وقيل: نَكِرَ أبلغُ من أنْكرَ، وقيل: نكرَ بالقلب. وأنكرَ بالعين. وفي البصائر: وقد يُستعمل ذلك مُنكرًا باللّسان الإنكارُ بالقلب، لكن ربّما يَنكرُ اللّسانُ الشّيءَ وصورتُه في القلب حاضرةٌ[1]، وعليه فالجَحدُ أنسبُ للسّياقِ منَ الإنكار لثلاثةِ أسبابٍ: الأوّلُ: أنَّه أخصُّ منه، والثّاني: تعلُّقُه بالشَّيءِ الظّاهرِ، والثّالثُ: أنَّه يأتي معَ اليقين.

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نكر).

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكذيب الأقوام في عهدِ النّبيّ ﷺ، وفي كلِّ العُهودِ

لمّا سلَّى بيانُ اللّه تعالى رسولَ اللّه ﷺ، وصبَّرَه على تكذيب قومِه له، وبيَّنَ جُحودَهم بآيات اللّه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتقدّمَ مَشهدًا عمليًّا لتلك التَّسليّةِ؛ حيث كان مَنْ سبقه من الرّسُل - عليهم السلام - الَّذين صبَروا على تكذيب قومِهم وإيذائِهم لهم، حتَّى أيَّدهُمُ اللّهُ بنصرِه، وهي سُنَّةُ اللّه الثّابتةُ، كما بيَّنَها اللّهُ لرسوله ﷺ في قَصَص المُرسَلين، على أنّه قال في الآية السّابقة: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، يعني: في الحال؛ لأنّهم يعلمون أنّك صادقٌ، وهذه الآيةُ تعني: إن كذبوك فاصبِرْ، كما صَبَر مَن قبلَك مِنَ الرُّسلِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَبَرُواْ﴾: "الصَّبرُ: هو الحَبسُ، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي على ذلك الأمرِ؛ أي: حَبَستُها. والمَصبورةُ: المحبوسةُ على الموتِ. ومنَ الباب: الصَّبيرُ، هو الكَفيلُ، وإنَّما سُمّيَ بذلك؛ لأنّه يَصبرُ على الغُرم، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي به أَصبُرُ صَبرًا، إذا كَفَلتُ به، فأنا بِهِ صَبيرٌ"[2]، وصبرتُ نفسي على الأمر: إذا حبستُها عليه، قال الشّاعر:

فَصَبَرتُ عارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً *** تَرسو إذا نَفسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ[3]

وأنبياءُ اللّه تعالى - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ - حَبَسوا أنفسَهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/201.

وصبروا على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم بالقولِ والفعلِ، فآتاهم تَقواهُم، وبلّغَهم مُناهُم، فنالوا بالصّبر أعلى الدّرجاتِ، وحققّوا مرادَ اللّه في البلاغِ الأمينِ، ومصابرةِ الحوادثِ والأزماتِ، وإعطاءِ القُدوةِ في أحلك الأوقاتِ.

2) ﴿وَأُوذُواْ﴾: "أذَيَ: الهمزة والذّال والياء أصلٌ واحدٌ، وهو الشّيءُ تَتكَرَّهُهُ ولا تَقَرُّ - بفتح القاف وكسرها - تقولُ: آذَيتُ فلانًا أوذيهِ، ويُقالُ: بعيرٌ أَذٍ، وناقةٌ أَذيَّةٌ: إذا كان لا يَقِرُّ في مكان من غير وجَعٍ، وكأنَّه يَأذَى بمكانِه"[1]، والأذى قد يكون مادّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فمنه ما يطالُ البدنَ، ومنه ما يصيبُ العِرْضَ، ويؤلِمُ القلبَ، أو يمسُّ الدّينَ والقيمَ العليا للأمّة، وذلك أشدُّ وآلَمُ على الإنسان منَ الأذى المادّيّ.

3) ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾: "بَدَلَ: الباء والدّال واللّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيء الذّاهبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ، إذا غيَّرتَه، وإنْ لم تأتِ له ببَدَلٍ، وأَبدَلْتُه إذا أتيتُ له ببَدَلٍ"[2]، وكلُّ ما يطرأُ عليه التّبديلُ فهو متاعٌ زائلٌ، وعرَضٌ فانٍ، غيرَ أنّ كلماتِ اللّه، وقوانينَ الكون الضّابطةَ للميزان، والمسيّرةَ للأفلاكِ، هي قدرُ اللّه الّذي لا تبديلَ له، إلّا ما شاء من أمرٍ في الوجودِ، فإنّه لا رادَّ لحُكمِه، ولا مبدّلَ لكلماتِه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النّحل: 40].

4) ﴿نَّبَإِيْ﴾: "النَّبَأُ: خَبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصل نبأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يقالُ فيه نبأٌ أنْ يتعرَّى عنِ الكذب، كالتَّواتُر، وخبرِ اللّهِ تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾ [ص: 67 - 68]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النّبأ: 1 - 2]"[3]، والنّبأ: الخبرُ، تقول: نبأ ونبّأ، أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبئُ؛ لأنّه أنبأ عنِ اللّه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعلٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

دعوةٌ للاقتداء بالأنبياءِ السّابقين في الصّبر، والتّحمُّل، والبلاغِ الأمين

هذه الآيةُ الكريمةُ تَسليةٌ لرسول اللّه ﷺ وتَعزيةٌ له، فيمَنْ كذَّبَه من قومِه، وأمرٌ له بالصَّبر بطريق الإيحاء، كما صبرَ إخوتُه أولو العزم منَ الرُّسُل، ووعدٌ له بالنَّصرِ كما نُصِروا، وبالظَّفَرِ والتَّمكينِ كَما مُكِّنوا حتَّى كانتْ لهم العاقِبةُ، بعدَ ما أصابَهم منَ التَّكذيب والأذى من قومِهِمُ الشَّيءُ الكثيرُ، ثمَّ جاءَهُم نَصرُ اللّه في الدُّنيا، كما لهمُ الفوزُ في الآخرة، وهذه سُنَّةُ اللّه في نصْرِ عبادِه المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، وهذا ما أنبأ اللّه به رسولَه محمّدًا ﷺ من خَبرِهم، كيف نَصرَهم، وأيَّدَهم، وجعلَ لهمُ الغَلَبَةَ على من كذَّبَهم وآذاهم؟!، ولرسولِ اللّه ﷺ وجماعةِ المؤمنينَ إلى يومِ الدّين في أنبياءِ اللّه ورُسُلِه - عليهم السلام - الأُسوةُ والقُدوةُ الحَسَنةُ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

أثرُ العطْفِ في دلالةِ السّياقِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تاريخُ الرُّسلِ مع أقوامِهم يَعكسُ عُمقَ الصّراعِ بين الحقّ والباطلِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الواوُ عاطفةٌ عَطَفتْ هذه الجملةَ على قولِه السّابق: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [آية: 33]، أو على جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣﴾ [آية: 33]. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ واوَ الحالِ منَ الكلام المحذوفِ قبلَ الفاء؛ أي: فلا تَحزَنْ، أو إنْ أحزَنكَ ذلك فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، والحالُ أنّه قد كُذِّبتْ رُسُلٌ من قَبْلِك(2)، وتكذيبُ الرّسل دَيدنُ الأقوامِ في جميع العصورِ، وقد كان للنّبيِّ الخاتمِ ﷺ فيهم قدوةٌ وعِبرةٌ، وما كان القَصصُ القرآنيُّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/200.

إلّا تجليةً للصّراعِ العنيفِ الّذي كان بين الدّعاةِ المُرسَلين وأقوامِهم؛ ليخفّفَ اللّه بذلك عن نبيِّه الأكرمِ وطأةَ البلاءِ، وآلامَ المواجهةِ مع كفَرةِ زمانِه، الّذين سلقوه بألسنةٍ حدادٍ، وأذاقوه ألوانًا منَ السِّبابِ، وأصنافًا منَ الشّتائمِ، وسلّطوا على المُستضعفين من أصحابه سوءَ العذابِ، وقد قال اللّه له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣﴾ [فصّلت: 43].

دلالةُ تصديرِ الكلامِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ الجامعةِ بين القسَمِ والتّحقيقِ:

عمومُ البَليّةِ يُخفِّفُ الرّزيّةَ، والمصيبةُ إذا عمّتْ هانتْ

وتصديرُ الكلام بالقسَم في ﴿وَلَقَدۡ﴾ لتأكيدِ التّسليةِ لرسولِ اللّه ﷺ، تلك التّسليةُ الّتي تفنَّنَ بيانُ اللّه في إيرادها، فقد جاءتْ في الآيةِ السّابقة بأسلوبِ التّحقيق المُصدَّر بـ (قدْ)، ثمَّ أعادَ الكَرَّةَ هنا بـ (قدْ)، لكنْ بتصديرِها بلام القسَم؛ وذلك لتهوين أمرِ المُصاب؛ فإنَّ عمومَ البَليَّةِ ربَّما يُخفِّفُ شدَّةَ وطأتِها، فكأنَّ اللّه تعالى يقولُ لنبيِّه: لقد أصابَ الرُّسلَ من قبلك مثلُ ما أصابَك، فصبَروا ثمَّ نُصِروا، فلتكنْ مُقتديًا بهم، مُعتَدًّا بعُدَّتِهم منَ الصَّبرِ وعدمِ الجَزَعِ، فستُنصرُ كما نُصِروا، وستَسودُ كما سادوا، ونظيرُ قولِه تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾ [فاطر: 4]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢﴾ [الحجّ: 42]، وكأنّ هذا الصّراعَ لونٌ منَ الابتلاءِ، لا تنأى عنه أيّةُ رسالةٍ، ولا يسلمُ منه أيُّ رسول، وتلك سنّةُ اللّه في خلقِه، لا مناصَ منها، ولا فِكاكَ عنها.

دلالةُ اتّصالِ ﴿كُذِّبَتۡ﴾ بتاءِ التّأنيث، والأفعالِ بعدَها بواوِ الجمْعِ:

الفُروقُ بين حروف المعاني في الاستعمالِ والدّلالةِ

لَمّا كانَ المحكيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾، هو التَّكذيبُ لا كونُه من مُعيَّن، بُنيَ للمفعول، وقُرِنَ بتاءِ التَّأنيث، الّتي تنوبُ عنِ الجماعة، وذلك عندما يكونُ فاعلُ الفعلِ جمعَ تكسير، وهو ﴿رُسُلٞ﴾

هنا، وفيه: "إرشادٌ له عليه الصّلاةُ والسّلامُ إلى الاقتداءِ بمن قبلَه منَ الرُّسلِ الكرام عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ في الصّبرِ على ما أصابهُم من أُمَمهم، من فنون الأَذيَّة، وعِدَةٌ ضِمنيّةٌ له عليه الصّلاةُ والسّلامُ بمثل ما مُنِحوه منَ النّصرِ"[1]، ولَمّا أنْ جحدَ القومُ رُسُلَهم مع ما يَعرفونَ من صِدقِهم وأمانتِهم، كما فُعِل بكَ يا محمَّد ﷺ كانَ هذا الحالُ سببًا في صَبْرِ الرُّسل، فقال: ﴿فَصَبَرُواْ﴾ أي: صَبَر الرُّسُلُ على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم، وذلك بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾، أي: فصبروا أيضًا على ما أوذوا، فجاءت هذه الأفعالُ عند ذلك مُقترنةً بواوِ الجماعةِ، تعبيرًا عن ضميرَيْهما المتَّصلَيْن المذكَّرَيْن: بمعنى صبرِ جميعِ الرُّسلِ، على تكذيبِ وإيذاءِ جميعِ قومِهم[2].

أثرُ البناءِ للمفعولِ في توجيه المعنَى:

تمـيّزَ الـعربُ بوضُوحِ المواقفِ، وصِدْقِ المشاعرِ، تجاهَ الـمُؤالِفِ والمُخالِفِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ بُنيَ الفعلُ ﴿كُذِّبَتۡ﴾ للمفعول، فحُذِف الفاعلُ اختصارًا؛ لكثرة الأقوامِ المُكذِّبين، وعدمِ تَعلّق الغرضِ بذِكرهم؛ "أي: إنّ الرّسل الّذين أُرسلوا قبلك قد كذّبتْهم أقوامُهم، فصبروا على تكذيبِهم، وإيذائِهم لهم إلى أنْ نصرَ اللّه الرّسلَ بالانتقام من أعدائهم المكذِّبين لهم"[3] وفي سياق هذه الآية وموقعِها بعدَ الّتي قبلَها - وكلتاهما في تَسليَةِ رسولِ اللّه وتَصْبيرِه - إيحاءٌ برجاحةِ العقولِ عند بعض العرب، مقارَنَةً بعقولِ مَن سبقَهم منَ الأمم، بدليلِ أنَّ الأُمَمَ كذَّبتْ رُسُلَها باعتقادِ قلوبِها، ونُطقِ ألسنتِها، والعَرَبُ كذَّبوا باللِّسان، وأَيقَنوا بصدْقِ الرَّسول ﷺ بعقولِهم الَّتي لا يَروجُ عندها الزَّيفُ، وإنْ كان القاسِمُ المشتركُ بين الفريقين الكِبرَ والعِنادَ في قَبول الحقِّ[4]، والمسألة نسبيَّةٌ، كثرةً وقلّةً،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/127.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/201.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/111.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/201.

وعمومًا وخصوصًا، ويبقى الكفرُ ملّةً واحدةً، وهو كفرٌ مهما أوغلَ في الزّمن، وتلوّنَ في الكيْفيّات، وتنوّعَ في الطّرائقِ والوسائلِ.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿رُسُلٌ﴾ دونَ ما يُقاربُه في المعنَى والصِّيغةِ:

الرُّسُلُ أصحابُ شريعةٍ جديدةٍ وكُلُّهم تعرَّض للتَّكذيبِ والأذَى

لَمَّا كانَ المقامُ هنا لِتَسْليَةِ الرَّسولِ ﷺ ناسبَ أن يذكرَ ابتلاءَ الرُّسُلِ بتكذيبِ أُمَمِهم على اختلافِ أحوالِ الرُّسُلِ، ذلك أنَّ الرَّسولَ من أتى قومَه بشريعةٍ جديدةٍ، لِيُبلِّغَها للنّاس، وكانَ محمَّدٌ ﷺ خاتمَ الرُّسُلِ، ومَنْ أتى بشريعةٍ جديدةٍ كان قومُه أشدَّ ضراوةً في تكذيبه ومناصبته العَداء، لا كالَّذي دعا قومَه إلى شريعةٍ سابقةٍ - وهو النَّبيُّ - اعْتادَ النّاسُ على دعوتِهم لها ما بين مُؤمنٍ ومُكذِّب، فإذا كانَ الرُّسُلُ قبلَك يا محمَّد ﷺ قد أصابَهم ما أصابَهم منَ التَّكذيبِ الشَّديدِ، معَ العداوةِ والأذى، فصبروا على ما ألمَّ بهم من قومِهم حتَّى إنَّ منَ الرُّسُلِ من قتلَهم قومُهم، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: 183]، فلْتصبرْ كما صَبروا، فإنَّ مهمَّتكَ في تبليغِ شريعتكَ كَمُهمَّتِهم، بل هي أشدُّ وطئًا وأصعَبُ طريقًا، فهي الشَّريعةُ الجديدةُ الخاتمةُ، فما عليكَ إلّا التَّأسّي بهم بالصَّبرِ الَّذي يعقُبُه النَّصرُ، فإنَّ ذلك سُنَّةُ الرُّسلِ قبلَك"[1]، والنّصرُ الموعودُ للصّابرين، يحتملُ أن يكون بطريق إظهارِ الحُجج والبراهين، ويحتملُ أن يكون بطريق القهْرِ والغلبةِ، أو بإهْلاكِ الأعداء"[2].

دلالةُ تعلّقِ حرفِ ﴿مِّن﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تـاريـخُ الـصّـراعِ بـيـن الـرُّسـلِ وأقوامِهم، عِبرةٌ وتَسريةٌ وتَسليةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه لفظ ﴿مِّن﴾، إمّا مُتعلِّقةٌ بـ ﴿كُذِّبَتْ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ ﴿رُسُلٌ﴾[3]؛ أي: وباللّه لقد كُذِّبتْ من قبل تكذيبِك رُسُلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ، وذوو عددٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/490، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/185 - 186.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/25.

(3) العُكبَريّ لا يُجيز أن يكونَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ صفةً لرُسل؛ لأنَّه زمان، والجُثَّةُ لا توصَفُ بالزّمان، وإنَّما مُتعلِّقةٌ بـ﴿كُذِّبَتْ﴾ فقط. يُنظر: العُكبريّ، الإملاء: 1/240.

كثيرٍ، أو كُذِّبتْ رسلٌ كانوا مِن زمانٍ قبلَ زمانك[1]، وكونُها مِن قبْلك، فهي صفحةٌ منَ التّاريخ مفتوحةٌ، ترى فيها عِظمَ البلاءِ، وشدّةَ المُصابرةِ، لتُدركَ أنّك لستَ الأوّلَ فيما تلقاه، ولكنّه مسلكُ الحقِّ في كلّ العصورِ، وفي ذلك عِبرةٌ لك، وتسليةٌ لقلبِك، وتقويةٌ لعزيمتِك في التّحمّلِ، كما فعل إخوانُك الأنبياءُ من قبْلك، وما منهم إلّا له مقامٌ معلومٌ.

دلالةُ عطْفِ العامِّ على الخاصّ، في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

أفـادَ العَـطـفُ حَتميّةَ الصّراعِ، وأنَّ النّصرَ آتٍ لا محالةَ

قولُه تعالى: ﴿وَأُوذُواْ﴾ عطفٌ على ﴿كُذِّبُواْ﴾ داخلٌ في حُكمِه[2]؛ لأنَّ التَّكذيبَ أذًى، وهو فردٌ من أفرادِه، فيكونُ الأذى أعمَّ مِنَ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأذى هو ما يَسوءُ ولو إساءةً ما، ويُطلقُ كذلك على الشَّديدِ منه، فيكونُ من باب عطفِ العامّ على الخاصّ، والمعنى: أنّ الرّسل قبْلك، على اختلاف أزمانِهم وشرائعِهم، قد لاقَوْا ألوانًا مِنَ التّكذيب المُقيتِ، والإيذاء المُميتِ، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى أيّدْناهم بالنّصرِ السّاحقِ، فما عليك إلّا أن تحذوَ حذْوَهم، وتسيرَ على شاكلتِهم، لينالَك ما نالهم، وليس ذلك ببعيدٍ.

نُكتة تعْديةِ فعْلِ الصّبرِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾:

تَـعـالِي الرُّسُـلِ عــلـى تـكـذيـبِ قومِهم، من عُلوِّ الهِمّةِ

الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ يُفيدُ الاسْتعلاءَ، أي: صبرَ الرُّسُلُ مُستعلينَ بصبرِهم، على تكذيبِ مَنْ كذَّبَهم، ولم يُبالوا بتكذيبِهم؛ بلِ اسْتمرّوا في دعوتِهم ورسالتِهم، صابرينَ مُحْتسِبين، وقد كانت الأحداثُ تتكرّرُ وتتجدّدُ "فاحْتيجَ إلى تكرارِ تَسْليَتِهِ وأمْرِه بالصّبر المرّةَ بعد المرّةِ؛ لأنّ الحُزن والأسفَ اللّذَين كانا يَعرِضان له ﷺ من شأنِهما

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

أن يتكرّرا بتَكرُّر سببِهما وبتذكرِّه حتّى عند تلاوة الآياتِ الواردةِ، في بيانِ حالِ الكفّارِ، ومحاجّتِهم وإنذارِهم"[1].

سِرّ الحرف ﴿مَا﴾ ودلالتُه، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

الصّبرُ على تكذيبِ الكَفرةِ وأذاهُم دَيْدنُ الرّسلِ الرّاسِخين

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا كُذِّبُواْ﴾ مصدريَّةٌ، أي: فصَبروا على تكذيبِهم، والمعنَى: فتَأسَّ بهم في الصَّبرِ على التَّكذيبِ والأذَى حتَّى يأتيَكَ النَّصرُ والظَّفَرُ كما أتاهم[2]، وعليه " فهناك رُسلٌ كثيرون من رُسُلِ اللّه، قد كُذّبوا من أقوامِهم، وأوذوا في أنفسِهم من سُفهاءِ قومِهم، ولكنّهمُ اعتصموا بالصّبر، واحتملوا الأذَى في سبيلِ الرّسالةِ الكريمةِ الّتي شرّفهم اللّه بها"[3].

دَلالةُ بناءِ ﴿كُذِّبُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، في الآيةِ الكريمةِ:

المُعوَّلُ عليه في السّياقِ هو التّكذيبُ، الّذي هو محورُ الصّراعِ

لَمّا كانَ المَحكيُّ هو التَّكذيبَ، لا كونَه من مُعَيَّنٍ، بُنيَ للمفعول، فالحاصلُ هو تكذيبُ الرُّسُلِ لما أَوْحَى اللّهُ به إليهم من دين الإسلام[4]، ونذكرُ أنّ الكفرةَ والمشركينَ يَستقبلون رسولَهم، بإيذاءٍ يناسبُ الرّسالةَ الّتي جاء بها، فإن كان الإرسالُ على مستوى القبيلةِ أو القوم، كانتِ المواجهةُ باعتبار ذلك، وإن كانت على مستوى أعلى، كانتِ المواجهةُ أكبرَ، وفي حالةِ الرّسالةِ الخاتمةِ فإنّ الإرسالَ يكونُ على مستوى العالَم برُمّتِه تأكيدًا لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107] وقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28] وعليه فستكونُ المُهمّةُ أكبرَ والمواجهةُ أخطرَ "وما دام محمّدٌ ﷺ رسولاً إلى النّاس كافّةً، فعليه أن يجدَ المتاعبَ الكثيرةَ ويتحمّلَها، وقد أعدَّه اللّه وهيّأه لذلك، وقد أخذ الرّسلُ السّابقون منَ الإيذاء على قدْرِ دعوتِهم، أمّا رسولُ اللّه ﷺ فهو للنّاس كافّةً، ولا

(1) رضا، المنار: 7/315.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198.

(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/160.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98.

رسالةَ من بعدِه، لذلك يتجمّعُ ضدَّ هذا الرّسولِ وهذه الرّسالةِ أقوامٌ كثيرون"[1]، وتبقَى المواجهةُ شاملةً ومفتوحةً عبر العصورِ ويبقَى التّكذيبُ واردًا إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

سرُّ عطْفِ الإيذاءِ على التّكذيبِ:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ من بلاغةِ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ جاء عَطفُ الإيذاءِ على التَّكذيبِ من بابِ عَطْفِ الأعمِّ على الأخصّ، والأذَى أعمُّ منَ التَّكذيب؛ لأنَّ الأذَى هو ما يَسوءُ، ولو إساءةً ما، قالَ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: 111]. ويُطلَقُ على الشَّديدِ منه، فالأذَى اسْمٌ اشْتُقَّ مِنْ أذيَ: إذا جعلَ له أذًى وألْحقَه به[2]، والحاصلُ أنّ التّكذيبَ قد طال الرُّسلَ كلَّهُمْ، كما وقع مع النّبيِّ الخاتمِ فقابلواْ ذلك الحالَ بالصّبر على التّكذيبِ والإيذاءِ حتّى أتاهم النّصرُ، بتمكينِهم في الأرض وهلاكِ قومِهم، لذلك وجّهَ اللهُ الخطابَ للرّسولِ ﷺ فقال له: "فاصبرْ يا أشرفَ الخلقِ، كما صبرواْ، تظفرْ كما ظفرواْ، بل أنت أولى بالتزامِ الصّبرِ؛ لأنّك مبعوثٌ إلى جميع العالمين، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ بالنُّصرة، فإنّ وعدَ اللهِ إيّاك بالنّصرِ، حقٌّ وصدقٌ، ولا يُمكنُ تطرّقُ الخُلفِ والتّبديلِ إليه"[3].

ورودُ الحرفِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مفيدًا الغايةَ:

مَن صَبرَ على بلاءِ الله لا يَلبثُ أن يَحوزَ نَصرَ الله

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ أفادَتْ غايةَ ما قبلَها، وهو التَّكذيبُ، والأذى، والصَّبرُ عليهما، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاك المكذِّبينَ المُؤْذين، فكانَ غايةً للتَّكذيب والأذى، وكان غايةً للصَّبرِ الخاصِّ، وهو الصَّبرُ على التَّكذيب والأذَى، وبقيَ صبرُ الرُّسُل على أشياءَ ممّا أُمِرَ ﷺ بالصَّبر عليه، "وقد دلَّ على أنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3600.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/201.
(3) محمّد بن عمر نوويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/314.

موضعَ الصّبرِ هو تكذيبُهم وإيذاؤُهم، وكانوا صابرين حتّى أتاهم نصرُ اللّه تعالى، وأنّه مع الصّبرِ الأجرُ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: 214]"[1].

سِرُّ اسْتعمالِ مادّةِ الإتيانِ مع النَّصرِ:

تحقُّقُ وُقوعِ النَّصرِ بعد انتظارِه، أمرٌ محسومٌ لا ريبَ فيه

الإتْيانُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾، مجازٌ في وقوعِ النَّصرِ بعدَ انْتظارِه، فشبَّهَ وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يجيءُ المنادَى المنتَظَرُ، وهذا يدلُّ على تحقُّقِ أمرَيْن: الأَوَّلُ: إهلاكُ المكذِّبينَ المُؤْذين، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاكِهم. والثّاني: وقوعُ النَّصرِ لا مَحالةَ، فهو أمرٌ متقرِّرٌ لا مَردَّ له، وأنَّه متوجِّهٌ إليهم لا بدَّ من إتيانِه، فإنَّ القائلَ: ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾، هو اللّهُ ﷻ[2] ومجيءُ النّصرِ: "غايةٌ للصّبرِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ نَصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مقرَّرٌ لا مردّ له، وأنّه متوجِّهٌ إليهم، لا بدّ من إتيانِه البتّةَ"[3].

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾:

مَن نالَ نصْرَ اللهِ، أحاطَه بلُطفِه وحَمَاهُ

الإتيانُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ مجازٌ في وقوعِ النَّصرِ بعدَ انتظارِه، فشبَّه وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يَجيءُ المُنادَى المُنتظَرُ[4]، وفي هذه الغايةِ مع ما يَليها إيذانٌ بأنَّ نصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مُقَرَّرٌ لا مرَدَّ له، وأنَّه مُتَّجِهٌ إليهم لا بُدَّ من إتيانِه.

والمعنى: "لقد قوبِلَ رُسلٌ قبْلَكَ يا محمّد بالتّكذيبِ والإيذاءِ من أقوامِهم، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى نصرْناهم، فاصبرْ أنت مثلَهم"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2485.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/202.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/128.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 7/202.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

معنى الإضافة في ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾ وسِرُّ الالتفاتِ:

مَن نصرَه الله، فلا غالبَ له سِواه

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ جاء الالتفاتُ إلى نونِ العَظَمة، وذلك في كلمة: ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾؛ لإبراز الاعتناءِ بشأنِ النَّصر[1]، ومع أنَّ الخطابَ لرسولِ اللّه ﷺ؛ فإنّ العبرةَ والمغزَى المُفادَ عامٌّ، وهو حثُّ أصحابِ الدّعوةِ إلى اللّه على التَّحلّي بالصّبر، وعدمِ استعجالِ قَطْفِ الثّمارِ، والثّقةِ في نصر اللّه الّذي لا يتخلّفُ عن الصّادقين الصّابرين، وفائدةُ هذا الالتفات - بالإضافةِ إلى تَطْرِيَةِ الكلامِ وتنويعِه - "إسنادُ النّصرِ إلى ضميرِ المُتكلّم المُشعرِ بالعظَمة، والحافزِ على وجوبِ مداومةِ الجهاد، والنّضالِ، والصّمودِ، في سبيل تحقيقِ المطمَحِ الكبيرِ، وتأديةِ الرّسالةِ السّاميةِ المثلَى"[2].

دلالةُ العَطفِ، وأثرُه في المعنَى:

كلماتُ الله وَحيُه المُبينُ، ووعدُهُ رسُلَه بالنَّصرِ والتّمكينِ

جُملةُ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ عطفٌ على جُملةِ: ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾، ويمكنُ أن تكونَ اعتراضًا مُقرِّرًا لما قبْلَه من إتيان نصرِه إيّاهم، وكلماتُ اللّه وحيُه للرُّسُلِ على وعدِه إيّاهم بالنَّصر، وهو ما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافات: 171 - 173]، وقولُه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][3]، وهو ما دَلَّت عليه إضافةُ النَّصرِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِه: ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾، وغَلَبةُ المرسَلين تعني هَلَكةَ المُكذِّبين، وهذه سُنَّةُ اللّه في الأُمم المتكبِّرةِ الكافرة، وهذه السُّنَّةُ المكتوبةُ في أزَلِ اللّه وقَدَرِه يمكنُ أن تكونَ هي كلماتُ اللّه، وأيًّا كان المرادُ بكلمات اللّه، فالسّياقُ يَحملُ في ظاهره وباطنه بِشارةَ النَّصر لرسول اللّه ﷺ، كما نصرَ اللّه الرُّسُلَ الّذين توارَدوا قبْلَه.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

(2) درويش، إعراب القرآن: 3/101.

(3) درويش، إعراب القرآن: 198 - 2/199.

دلالةُ الكِنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ نجدُ أنّ "نَفيَ المُبَدِّلِ في قولِه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ كنايةٌ عن نَفيِ التَّبديلِ؛ أي: لا تبديلَ؛ لأنَّ التَّبديلَ لا يكونُ إلّا من مُبَدِّلٍ؛ ومعناه: أنَّ غيرَ اللّٰه عاجزٌ عن أن يُبدِّلَ مُرادَ اللّٰه، وأنَّ اللّٰه أرادَ أن لا يُبدِّلَ كلماتِه في هذا الشَّأنِ"[1]، وهو القائلُ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، والقائلُ أيضًا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21]، وذهب بعضُ العلماء إلى أنّ كلمات اللّٰه تضمُّ ما هو أعمُّ منَ الوعْدِ بالنّصرِ، قال أبو زهرة: "وفسّر بعضُ العلماء كلماتِ اللّٰه تعالى بما هو أعمُّ منَ النّصر، وهو شرائعُه، وآياتُه، وتوحيدُه، وصفاتُه، ونصرُه، أي: إنَّهُ إذا كان النّبيُّ ﷺ يُشفقُ على رسالته أن يَعروها تغييرٌ؛ بسبب تكذيبِهم، وإيذائِهم، فلا مُبدّلَ لكلماتِ اللّٰه تعالى، ونحن لهذا نميلُ"[2].

كلماتُ اللّٰه لا يَعرُوها تغييرٌ، ولا يطالُها تبديلٌ

دلالةُ الالتفاتِ إلى اسمِ الجلالةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

"الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في القلوبِ مع الإشعارِ بعلَّةِ الحُكم، فإنَّ مِن موجباتِ الألوهيَّةِ أنْ لا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ منَ الأفعال، ولا يقعُ منه تعالى خُلفٌ في قولٍ منَ الأقوال"[3]، وإضافةُ الكلماتِ إلى اللّٰه من شأنِه أن يُعطيَها كثيرًا منَ التّعظيمِ والجلالِ؛ لتبقَى خالدةً على المدى، ضامنةً لانتظامِ الكونِ وتوازُنِه، واللّٰه هو الّذي أيّدَ رُسلَه بعونِه، وأحاطهم بتأييدِه، وكتب لهم السّلامةَ والنّجاةَ، ولأعدائِهمُ الدّمارَ والهلاكَ، تحقيقًا لما ذكرَه من عدمِ تبدُّلِ كلماتِ اللّٰه، وهو تعالى لا يخلفُ الميعادَ.

خلودُ كلماتِ اللّٰه ورُسوُّها ضمانٌ لانتصارِ الحقِّ وأهلِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/202.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2486.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

نُكتةُ تكريرِ لفظِ ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تحقيقُ النَّصر وتأكيدُه لرسول اللهِ ﷺ من عطائِه الجَزلِ له

تكرّرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ﴾ حيث إنّ (قَدْ) حرفُ تحقيقٍ، فلمّا تكرَّرت، وجاءتْ في الأولى في جُملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ لتسليته ﷺ ببيانِ ما ابْتُليَ به الرُّسلُ، فإنَّ عمومَ البَليّةِ ربَّما يُهوِّن من أمرِها بعضَ تهوينٍ، جاءتْ هنا كذلك في جملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، لتحقيقِ ما مُنِحوا منَ النَّصر، وتأكيدِ ما في ضِمْنِه منَ الوعدِ لرسولِ اللّهِ ﷺ بالنَّصر، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِرَ من تكذيبِ الأُمم، وما ترتَّبَ عليه من أمورٍ في إهلاكِ المُكذِّبينَ، ونَصْرِ رُسُلِ اللّهِ المبلِّغين(1).

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةِ المحسوسِ، أسلوبٌ بلاغيٌّ مأنوسٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ صدّرت الآيةُ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ﴾، وهو مجازٌ في بلوغِ ذلك وإعلامِ النَّبيِّ ﷺ بالأنباءِ؛ حيث شبَّه بلوغَ النَّبأِ النَّبيَّ ﷺ بالمجيءِ من قلبِ الأحداثِ الَّتي وقعتْ للأنبياء مع أقوامِهم، وكأنَّها ماثلةٌ أمامَهُ بعد انتظارِ ورودِها، وهي صورةٌ تعبيريّةٌ بديعةٌ، تُصوّر المعنويَّ في صورة المحسوسِ، وتُؤكّدُ مُطلقَ قدرةِ اللّه في تصرّفِه في المكانِ والزّمانِ والأحداثِ، وأنّه لا يُحجب عنه غيبٌ، ولا يَندُّ عن علمِه وتصريفِه أمرٌ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الإتيانِ إلى المَجيء:

مع تحمُّلِ مشاقِّ المسارِ جاءَ الرُّسلَ عظيمُ الانتصارِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ ثمّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عدولٌ منَ الإتيانِ إلى المَجيء فلَمّا كانَ الإتْيانُ مجازًا في وقوعِ النَّصرِ بعد انْتظارِه، كانَ المجيءُ مجازًا في بلوغِه، وإعْلامِ النَّبيِّ ﷺ به، ففي الإتيانِ مَسْلاةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، ودعوةٌ للصَّبرِ حتَّى يأتيَ النَّصرُ، وفي المجيءِ لنبأِ المرسلينَ بيانٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

لعظيم ما تحمَّلَه الرُّسُلُ من قبلِه، عليهم السلام ولعظيمِ ما قوبِلوا وجوزوا به مِنَ النَّصرِ(1).

تضافُرُ القَسَمِ وحرفِ التّحقيقِ في البيانِ والتأكيد:

تأكيد ما مُنِحَه رسولُ الله ﷺ مِنَ الوعْدِ بالنّصرِ

قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، جاءتْ هذه الجملةُ مُصَدَّرةً بالقسَم مع التَّحقيق بلفظ ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لتأكيدِ ما منحهمُ اللّهُ مِنَ النَّصر، وما أُنجِزَ مِنَ وعد اللّه تعالى لرسول اللّه ﷺ في ضمن الوعدِ بالنَّصر مِن نشرِ رسالة الإسلام، وغَلَبتِه على الدّين كُلِّه، والتَّمكينِ لأصحابها تحت لواء رسولِ اللّه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصَّفّ: 9].

استتار فاعل ﴿جَآءَكَ﴾:

أهمّيّةُ الإضمارِ في الاختصارِ، وتجنُّبِ التَّكرارِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ﴾: فاعلُ ﴿جَآءَكَ﴾ مُضمَرٌ، وفيه وجهان: الأوَّلُ: المجيءُ، والثّاني: النَّبأُ، ودلَّ على الثّاني ذِكرُ الرُّسُلِ؛ لأنَّ من ضرورة الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نَبَأٌ، وعلى كلا الوجهَين السّابقَين يكونُ قولُه: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ حالًا من ضمير الفاعل، والتَّقديرُ: من جنس نبأِ المُرسلين، وإنّما أُضمر الفاعلُ للاختصار، وتجنّبِ التّكرار فيما لو ظهرَ.

دلالةُ ﴿مِن﴾، على أنّ الإنسانَ لا يُؤتَى منَ العلْمِ إلّا بعضَه:

الأنـباءُ تُمثّلُ صورةً متكاملةً، لمعاناةِ الرّسلِ في البلاغِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تحوي الحرفَ (مِن)، وفيه وجهان: الأوَّلُ: إمّا اسمٌ بمعنى (بعض)، فتكون فاعلًا مُضافًا إلى النَّبأ، وهو مُستلٌّ من قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: 78]. والثّاني: أن تُجعلَ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه: لقد جاءكَ نَبَأٌ من نبأ المرسَلين. ونبأُ المرسَلين بمعنى أنبائِهم، والنَّبأُ: هو الخبرُ عن أمرٍ عظيمٍ، كما قال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/202 - 203.

تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1 - 2]، وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120][1]، ولئن جاءه بعضُ الأنباء، فإنّ في الأنباء كلّها ما تشيبُ من هولِه الوِلْدان، ولكنّ اللّه رحمةً بعبادِه لم يُخبرْهم إلّا ببعضها، وهي كافيةٌ لتعطيَ صورةً متكاملةً عمّا كان عليه الرّسلُ مع أقوامِهم، وقد عبّرت القَصصُ القرآنيّةُ عن ذلك، وأغفلتْ ما ليس ضروريًّا في البناءِ القَصصيِّ، والتّراكيبُ السّياقيّةُ المُعبّرةُ عن ذلك الصّراع المريرِ بين الحقِّ والباطلِ، والإيمانِ والكفرِ، ممّا جاء في غاية الرّوعةِ والمُتعةِ والفائدةِ.

الغرضُ مِن اسْتعمالِ مادّةِ (النّبأ):

النَّـبَـأُ الـخـبرُ الأعظمُ المُساقُ وهو الأنسبُ هنا للسِّياقِ

جاءَ اسْتعمالُ مادَّةِ النَّبأِ في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ النَّبأَ الخَبرُ عن أمرٍ عظيم، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1، 2]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: خبرِ المرسَلِينَ العظيم، وهو تأكيدُ نصرِ اللّهِ لهم نصرًا عظيمًا بعد تحمُّلِهم وصَبْرِهم على مشاقِّ الدَّعوةِ وتبليغِ رسالةِ الإسلامِ لأقوامِهم[2].

العُدولُ في الصِّيغةِ من ﴿رُسُلٞ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

مناسبةُ كلٍّ من الصِّيغتَيْن لما تقدَّمَهُما من التَّكذيب والنَّبأِ

عدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن: ﴿رُسُلٞ﴾ في صدْرِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾، إلى: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في ذيْلِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ من ضرورةِ الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نبأٌ، وقد دَلَّ عليه ذكرُ الرُّسُلِ أوَّلًا، ثمَّ خُتمتِ الآيةُ بما فيه بيانُ حالِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، وهو أنَّهم مُرسَلونَ بمهمَّةِ ذاكَ النَّبأِ، وهو تبليغُ الرِّسالة، أي: ولقد جاءك هذا الخبرُ العظيمُ، من تكذيبِ أتباعِ الرُّسُلِ للمرسَلين إليهم، والصَّبرِ والإيذاءِ إلى أَنْ نُصروا.

---

(1) العكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 1/240.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/199.

فالرَّسولُ يقتضي إطلاقَ لسانِه بالرِّسالةِ المكلَّفِ بتبليغِها للنّاس، ولذلك أُسنِدَ إليه التَّكذيبُ، في قوله: ﴿كُذِّبَتۡ رُسُلٞ﴾، أي: تكذيبُ ما نطقتْ به ألسنتُهم، من دعوةِ النّاسِ لرسالةِ ربِّهم. والمرسَلُ: يقتضي إطلاقَ غيرِه له، وهو المرسِلُ وهو اللهُ ﷻ، ولذلك أُسنِدَ إليه النَّبأ، فقال: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإيذاء) و(الضَّرر):

الإيـذاءُ: إحداثُ ضَرَرٍ في النَّفْسِ أو الجسمِ دُنيويًّا أو أُخرويًّا، فهو أعمُّ من الضَّررِ

الأذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّررِ، إمّا في نَفْسِه أو جسمِه، أو تبعاتِه، دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، قالَ تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التّوبة: 61]، وقال ﷺ: ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [الأنعام: 34]، يقالُ: آذَيْتُه أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذيَّةً وأذًى[2]، وقال الخطابي: الأذى الشَّرُّ الخفيفُ، فإن زاد فهو ضررٌ، والأذيُّ، كَغَنيّ: الشّديدُ التأذّي[3]، وأمّا الضُّرُّ: فضدُّ النَّفع، والضَّررُ، أي: لا يضرُّ الرَّجلُ أخاهُ فَيُنْقِصُه شيئًا من حقِّه، والضُّرُّ: يكونُ من حيث لا يُعلمُ المقصودُ به، ويُقال: ضَررتُ فلانًا من حيث لا يعلمُ، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نَفْسه، وإمّا في بَدَنِه، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاه، وقولُه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 84]، فهو مُحتملٌ لثلاثتِها[4].

(التَّبديل) و(التَّغيير):

التَّبديلُ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ آخرَ، والتَّغييرُ تحويلُه إلى صورةٍ مغايرةٍ

تبيَّن في شرح المفردات أنَّ التَّبديلَ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهبِ، يأتي بمعنى التَّغييرِ، وإنْ لم يُؤتَ له ببَدَل، تَبديلُ الشَّيءِ

(1) العكبري، الإملاء: 1/240، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 4/606، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي)، والرّاغب، المفردات: (أذي).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 328، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النِّهاية: (ضَرَرَ)، والكفوي، الكلّيّات: 3/147.

والإتيانُ بغيره، ثمّ إنّ تبديلَ الشّيءِ لا يكون إلّا برفْعِه ووضْعِ آخرَ مكانَه، هو غيرُ الإتيان بغيره، ولو كان تبديلُه والإتيانُ بغيره سواءً لم يكن لقولِه تعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15] معنًى في هذا السّياقِ[1]، وأمّا التَّغييرُ فيُقالُ على وجهَين: الأوَّلُ: لتغييرِ صورةِ الشَّيءِ دون ذاتِه، يُقالُ: غيَّرتُ داري، إذا بَنيتُها بناءً غيرَ الَّذي كان، والثّاني: لتبديلِه بغيره، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: 11]، وسياقُ النَّصِّ القرآنيِّ يناسبُه معنى التَّبديل لا التَّغييرِ، فلا يمكنُ أن تُبدَّلَ كلماتُ اللّٰه بشيءٍ يقومُ مقامَها، ولا أن تُغيَّرَ إلى بَدَل، فالأمرُ والشَّأنُ في ذلك للّٰه وحدَه، لا لأحدٍ سواه ﷻ.

(النَّبأ) و(الخبر):

أنبأ بمعنى أخبرَ بعظيمٍ طَريفٍ، وأخبرَ أعلَمَ بما هو مألوفٌ

نبَّأَ وأنبأَ؛ أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبيُّ؛ لأنّه أنبأَ عنِ اللّٰه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعل. قال سيبَويه: ليس أحدٌ منَ العرب إلّا ويقول: تنبّأ مسيلمةُ بالهمز، غير أنّهم تركوا الهمزَ في النّبيّ[2]، وأمّا الخبرُ فهو الإخبارُ بما يعلمُه المخبَرُ، وبما لا يَعلَمه، ولهذا يُقال: تخبرُني عن نَفسي، وعمّا عندي، ولا يقالُ: تُنبِّئُني عن نفسي، وعمّا عندي[3]، والخبرُ لا يتضمَّنُ الأخبارَ العظيمةَ، فإذا تضمَّنَها سُمّيَ نبأً، وكما تقدَّمَ في شرح المفردات النَّبأُ لا يُطلَقُ إلّا على الأخبار العظيمةِ ذاتِ الشَّأن الجَلَلِ، ولذلك فإنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُناسِبُه إيرادُ كلمةِ (النَّبأ)؛ لأنَّه متعلِّقٌ بأخبار المرسَلينَ السّابقةِ، وهي عظيمةُ الشَّأنِ عاليةُ القَدْرِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 528 - 529.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ [الأنعام: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين التّسليةِ والتّسريةِ، وبين التّأكيدِ على مجافاةِ الأسَى والقُنوطِ

لمَّا حَمَلَ سياقُ الآيةِ السّابقةِ تسليةً لرسولِ ﷺ، بإيراد سُنَّةِ اللّه الثَّابتةِ، بتأييد أنبيائِه، ونصرِهم على أقوامِهم المكذِّبين، جاءَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ هنا مُخاطِبًا رسولَ اللّه ﷺ، أنَّه إنْ آلَمَهُ إعراضُ قومِه عن دعوتِه، فليفعلْ على سبيل الفَرَضِ ما يجعلُهم يُؤمنونَ بدعوتِه، وليكن بأن يأتيَهم بآيةٍ منَ الأرض، أو بآيةٍ منَ السَّماء تكونُ أفضلَ ممّا آتاهُم به من آيةِ القرآن أو غيرِها منَ الآيات، لكنَّ أمرَ هدايتِهم أو عدمِها موصولٌ بمشيئة اللّه لا غيرَ، فما يزال الخطابُ لرسولِ اللّه ﷺ، ولكنْ في الآيةِ السّابقةِ تسليةٌ ووعدٌ بالنّصر، وفي الآيةِ اللّاحقةِ (ههنا) تنبيهٌ على عدم الإفراطِ في الأسَى عليهم؛ لأنّه لا يكونُ من أمرِ هدايتِهم إلّا ما قدّرَهُ اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَ﴾: الكبيرُ والصَّغيرُ منَ الأسماء المُتضايِفَة الَّتي تُقالُ عندَ اعتبارِ بعضِها ببعض، فالشَّيءُ قد يكونُ صغيرًا في جَنْبِ شيءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غيره.. وأصلُ ذلك أن يُستعمَلَ في الأعيان، ثمَّ استُعيرَ للمعاني، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، والكبيرةُ متعارَفَةٌ في كلِّ ذَنبٍ تعظُمُ عُقوبتُه، وتُستعمَلُ الكبيرةُ فيما يَشُقُّ ويَصعُبُ، نَحْو: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، ومن هذا المعنى ما نحن بصددِه في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ [الأنعام: 35]، فهي كذلك

فيها معنى: عَظُمَ ذلك، وشَقَّ عليك يا محمَّد ﷺ، وفيه بيانُ عِظَم الإعراض عنِ الحقِّ وعِظَم عُقوبتِه[1].

2) ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: أَعرَضَ: أَظهرَ جانبَه؛ أي: ناحيتَه، فإذا قيلَ: أَعرَضَ لي كذا؛ أي: بدا عَرضُهُ فأَمكنَ تَناوله، وإذا قيلَ: أَعرَضَ عنّي؛ أي: ولَّى مُدبرًا عَرضَه، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النِّساء: 63]، وهو المعنى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾؛ أي: تولّيهم عنِ الحقِّ، وإدبارُهم عن دَعوتك[2].

3) ﴿تَبْتَغِيَ﴾: الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما: طَلَبُ الشَّيء، والثّاني: جنسٌ منَ الفساد، فمنَ الأوَّل - وهو ما يُعنينا هنا - : بَغَيتُ الشَّيءَ أَبغيه: إذا طَلَبتُه، وأبغيتُكَ الشَّيءَ: إذا أَعَنتُكَ على طلبه، والبُغيَةُ والبِغيَةُ: الحاجَة، وتقولُ: ما يَنبغي لك أن تفعلَ كذا، وهذا من أفعال المطاوَعة، تقولُ: بَغَيتُه فابتغى، كما تقولُ: كَسَرتُه فانكَسَر[3]، ويُقال: ابتغى الأجرَ وغيرَه: أراده وطلبَه، وتصدَّق ابتغاءَ مرضاةِ الله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: 2]، ويُقال ابتغى الرَّجلَ: صحبَه، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: 55][4].

4) ﴿نَفَقًا﴾: النَّفَقُ: المُرادُ به سَرَبٌ في الأرض له مَخلَصٌ إلى مكانٍ، ومنه اشتقاقُ النِّفاقِ؛ لأنَّ صاحبَه يَكتُمُ خلافَ ما يُظهِرُ، فكأنَّ الإيمانَ يخرجُ منه، أو يخرُجُ هو منَ الإيمان في خفاءٍ، ويمكنُ أنَّ الأصلَ في الباب واحدٌ، وهو الخروجُ، والنَّفَقُ: المَسلَكُ النّافذُ الَّذي يُمكنُ الخروجُ منه[5]، وفي الصّحاح والتّهذيب: له مَخلَصٌ إلى مكانٍ آخرَ. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[6] وفي المثل: (ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ)؛ أي: جُحره، والنّافقاء: إحدى جِحَرَةِ اليربوع، يكتُمها، ويُظهرُ غيرَها، وهو موضعٌ يرقّقه، فإذا أُتيَ من قِبَلِ القاصِعاء ضربَ النّافِقاءَ برأسه فانْتَفَقَ، أي: خرج، والجمعُ النّوافقُ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بغي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نفق).

5) ﴿سُلَّمًا﴾: السُّلَّمُ: مشتقٌّ من السَّلامَةِ، وهو الشّيءُ الّذي يُسلّمُك إِلى مصعدك[1]، السّلّمُ الدّرجةُ والمرقاةُ، يذكّر ويؤنّث، قال ابن مُقبل:

لا تُحْرِزِ المَرْءَ أَحْجاءُ البِلادِ، ولا *** يُبْنَى لَهُ في السَّماواتِ السَّلاليمُ

والسُّلَّمُ: السّببُ إلى الشّيء، سُمّي بهذا الاسْم، لأنّه يؤدّي إلى غيره، كما يؤدّي السّلّمُ الّذي يُرتقى عليه، قال الجوهريّ: وربّما سُمّي الغرْزُ بذلك[2]، والسُّلَّمُ أيضا ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّببِ، قالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ [الطّور: 38][3]. والسُّلَّمُ من السَّلامةِ، وهو الَّذي يُسلِّمكَ إلى مَصْعدِك[4]، وقولُه تعالى في الآية هنا: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: دَرَجًا ومَصْعدًا في السَّماء فَتَصْعَدَ فيه[5].

6) ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجهلُ نقيضُ العلم، تقول: جهلتُ الشّيءَ جهلًا وجهالةً واستجهلتُ الرّجلَ: جعلتَه جاهلًا[6]، والجهلُ على قسمين: بسيطٌ ومركّبٌ، فالبسيط: عدمُ العلم عمّا من شأنِه أن يُعلَمَ، والمركّبُ: اعتقادٌ جازمٌ غيرُ مطابقٍ للواقع[7]، وقال الرّاغبُ: الجهلُ على ثلاثةِ أَضْرُب: الأوَّلُ: خُلوُّ النَّفْسِ منَ العلْم، هذا هو الأصل. والثّاني: اعْتقادُ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه. والثّالثُ: فعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أنْ يُفعل، سواء اعْتقدَ فيه اعْتقادًا صحيحًا أو فاسدًا. والجاهلُ تارةً يُذكَرُ على سبيلِ الذَّم، وهو الأكْثَر، وتارةً لا على سبيلِ الذَّمّ، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273] أي: من لا يعرفُ حالَهم، وليس يعني المتخصِّصَ بالجهلِ المذموم[8]. وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: مِنَ الَّذين يجهلونَ ذلك - أي: قولَه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ - ، ويَرومون ما هو خلافُهُ[9].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/244.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(6) ابن سيده، المخصّص: (جهل).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).
(8) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا: إنْ شقَّ عليكَ إعراضُ المكذِّبين؛ لشدَّة حرصِك على إيمانهم، فابذُلْ وُسعَكَ في ذلك، فليس بمَقدورِكَ أن تهديَ مَن لم يُرِدِ اللّهُ هدايتَه، حتَّى لو دخلتَ نَفَقًا في الأرض أو صَعِدْتَ سُلَّمًا في السَّماء ليكونَ ذلكَ سبيلًا لهدايتِهم، فإنَّ ذلك لن يُفيدَ مَن عاندَ الحقَّ شيئًا، ولكنَّها حكمةُ اللّه تعالى اقتضَتْ بقاءَهم في الضَّلال، فلا تكنْ يا محمَّدُ ﷺ مِنَ الَّذين لا يَعرِفونَ حقائقَ الأمور، ولا يُنزلونَها على منازلِها[1].

اللّه هو الهادِي بالحقّ وإلى الحقّ، والرّسولُ مبلّغٌ ودالٌّ على الحقّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ معنَى (الواو) في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

هذا كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المُستفادِ منَ التَّسليةِ، ببيانِ أنَّه أمرٌ لا مَحيدَ عنه أصلًا؛ لأنّ ما كبُر على النّبيّ من إعراضهم سوف يَشقُّ على نفس النّبيّ ﷺ، ويكونُ سببًا في إيلامه، وتعكّرِ حالِه، ولكنّه لا يُغيّرُ من حقائقِ القدَر شيئًا، والسّياقُ مرتبطٌ في معناه بما بعدَه، إذ يؤكّدُ للرّسولِ المتأثّرِ بحالِهم، والحزينِ على مآلهم؛ بأنّه مهما ابتغى نفقًا في الأرض أو سلّمًا في السّماء فسيبقون على ما قدّر اللّه لهم، ولا رادَّ لحُكم اللّه.

لا مَناصَ مِنَ الصّبر، إذ لا رادَّ لقدَرِ اللّه، ولا فرارَ مِن حُكمِه

دلالةُ المَجازِ المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

ومعنَى ﴿كَبُرَ﴾ هنا: شَقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثّةِ، فهو يُستعمَلُ في الأعيان، ثمَّ استعيرَ للمعاني - كما هو هنا - حيثُ استُعمِلَ مجازًا في الأمور العظيمةِ الثَّقيلةِ؛ لأنَّ عِظَمَ الجُثَّةِ يَستلزِمُ الثِّقَلَ، ثمَّ استُعمِلَ مجازًا في معنى (شَقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَستلزِمُ مَشقَّةَ حَمْلِه، فهو مجازٌ

تصويرُ مشقّةِ الحيرةِ، وثِقلِ الحُزنِ، على قلبِ الرّسولِ ونفسِه

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 209 - 210.

مُرسَلٌ[1] بلُزومَين[2]، والمعنى: "إنْ كان قد شقّ عليك انصرافُهم عن دعوتك، فإنِ استطعتَ أن تتّخذَ طريقًا في باطن الأرض، أو سلّمًا تصعدُ به إلى السّماء، فتأتيهم بدليلٍ على صدقك، فافعل، ليس في قدرتك ذلك يا محمّد، فأرِحْ نفسَك، واصبرْ لحُكم اللّه"[3]، وقد كان الاستعمالُ المجازيُّ مؤدّيًا غرضَه، من إيضاحٍ لتصوير مشقّةِ الحَيْرةِ، وثِقل الحُزن المُطبِق، على صدر النّبيّ الرّحيم ونفسِه، وهو أمرٌ لا حيلةَ له فيه؛ لأنّه بيد اللّه وحده دون سواه، جلّ في علاه.

نكتةُ تعديةِ الفعلِ (كبُرَ)، بأداةِ الاسْتعلاءِ (على)، في الآيةِ الكريمةِ:

مُعاناةُ رسولِ اللّه ﷺ من إعراضِ المُشركين ومضايقاتِهم

عدَّى بيانُ اللّهِ الفعلَ ﴿كَبُرَ﴾ بأداة الاسْتعلاء (على)، فقال: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾؛ لبيانِ عِظَم ومَشقَّةِ هذا الأمرِ على رسولِ اللّهِ ﷺ وهو إعراضُهم عن دعوتِه وتكذيبُهم لها، فجاءَ هذا البيانُ على طريقةِ الاسْتعمالِ المجازيِّ، حيث إنَّ كَبُرَ هنا بمعنَى شقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثَّة، ثمَّ اسْتُعمِلَ مجازًا في الأمورِ العظيمةِ الثَّقيلة؛ لأنَّ عِظَمَ الجثَّة يستلزمُ الثِّقَلَ، ثمَّ اسْتُعمِلَ مجازًا في معنَى (شقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَشُقُّ حَملُه، والحِملُ يكونُ غالبًا على الظَّهرِ فينوءُ به حاملُه ويَسْتَصْعِبُه، فهو مجازٌ مرسلٌ بلزومَيْن[4].

سِرُّ استعمالِ مادّةِ الإعراضِ دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾:

الإعـراضُ هو التَّولِّي والإدْبارُ التَّامُّ عن دعوة الرَّسولِ ﷺ

آثرَ بيانُ اللّهِ استعمالَ كلمةِ الإعراضِ دونَ ما يُقاربُها في المعنَى؛ لأنَّ إعراضَ المشركين هو حالةٌ أُخرى غيرُ حالةِ التَّكذيبِ، وجميعُها

(1) المجاز المُرسَل: هو اللّفظ المُستعمَلُ في غير ما وُضع له لعلاقةٍ ما مع قرينةٍ تمنعُ إيرادَ المعنى الحقيقيّ، وسُمّي مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاقُ، فهو مُطلَقٌ في علاقاته؛ أي: ليس له علاقةٌ مُعيَّنةٌ، كما استُعمل معنى ﴿كَبُرَ﴾ مجازًا فيما ذُكِر في المتن، وليس على الحقيقة. يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 272 - 295.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/203.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/203.

من أسبابِ استمرارِ كُفرِهم، فإنَّ الإعراضَ هو التَّكذيبُ والتَّولّي والإدبارُ التّامُّ عنِ الحقِّ ورفضُ دعوةِ الرَّسولِ بالكُلّيَّة، ومناصبتُه العَداءَ بشتَّى ألوانِ الأذَى، وهذا المعنَى أوْفَى بالسّياقِ، وأقومُ قيلًا من غيرِه ممّا يصدُقُ على واقعِ مُقابلةِ المشركينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، إزاءَ تبليغِ رسالةِ ربِّه إليهم[1]، فقولُه تعالى: ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ مرفوعٌ بـ﴿كَبُرَ﴾، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عليهِ للاهتمامِ بالمقدَّمِ والتّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والجملةُ في محلّ النّصب على أنّها خبرٌ لكان، مفسّرةٌ لاسمها الّذي هو ضميرُ الشّأنِ.."[2].

أثرُ أسلوبِ الشّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾:

لـفـظُ (كــان) الزّائدةِ، وأثرُه في قُوَّةِ الدَّلالةِ على المُضِيّ

وقولُه: ﴿وَإِن﴾ حرفُ الشَّرط، ويَكثُرُ ورودُه في الشَّرط الَّذي لا يُظَنُّ حصولُه؛ للإشارة إلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ ليس بمَظِنَّة ذلك، ولكنَّه على سبيل الفَرَض، لا القَطْع، وزيدتْ ﴿كَانَ﴾ بعدَ ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةِ، بينها وبين ما هو فعلُ الشَّرط في المعنى؛ ليبقى فعلُ الشَّرط على معنى المُضيِّ فلا تُخلِّصُه ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةُ إلى الاستقبال، كما هو شأنُ أفعالِ الشّرط بعد (إنْ)، و﴿كَانَ﴾ مَنَحَه قوَّةَ الدَّلالة على المُضيِّ، فلا تَقلِبُه أداةُ الشَّرط إلى الاستقبال، كما هو الأصلُ فيها[3].

دلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾:

تـقـديـمُ الـخـبرِ (عـليك) يُـوحِـي بـالإشـفـاقِ على النّـبـيِّ الـمُـثْـقَـلِ بما لا يُطاقُ

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وفي تقديم ﴿عَلَيۡكَ﴾ أيضاً إشعارٌ بالإشفاق منَ المشقّة عليه. وجملةُ ﴿كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، مفسِّرةٌ لاسمها الَّذي هو ضميرُ الشَّأن. ويمكنُ أن يكونَ ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ هو اسمَ ﴿كَانَ﴾،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/204.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.

وجملةُ ﴿كَبُرَ﴾ الفعليَّةُ في محلِّ النَّصب على أنَّها خبرٌ لها مُقدَّمٌ على اسمها؛ لأنّه فعلٌ رافعٌ لضميرٍ مُستَتِرٍ، كما هو المشهور[1]، وهو المرجَّحُ، ويترتّبُ عليه مزيّةٌ تقديم خبرِ كان على اسمِها؛ وذلك بالنَّظرِ إلى أنّ الأصلَ: (وإنْ كان إعراضُهم كبُر عليك)، فيكونُ تقديمُ جملةِ الخبرِ ﴿كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾ للتّنبيه ابتداءً على عِظم المشقّة، وأنّ رسولَ اللّه ﷺ قد بلغَ منه الحزنُ ما بلغَ، حتّى وصلَ المرحلةَ الّتي عبّر عنها في سورة الشّعراء بقولِه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشّعراء: 3]، فضُرب له هذا المثلُ ليَكبحَ جِماحَ الحُزن ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا﴾ الآية.

دلالةُ أسلُوبِ الشّرط، في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مخاطبةُ السّياقِ القرآنيّ الرّسولَ ﷺ لصيقةٌ بالواقعِ المَعيشِ من حولِه

"قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ جوابُ شرطِ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾؛ فالشَّرطُ الثّاني جوابُ الأوّل، وجوابُ الشَّرط الثّاني محذوفٌ تقديرُه: فافعل، وحُذِفَ لظهور معناهُ وطولِ الكلام"[2]، والاستطاعةُ: القُدرةُ، والسّينُ والتّاءُ فيها للمبالغةِ في (طاعَ)؛ أي: انقادَ. والابتغاءُ هنا بمعنى: أنْ تطلُبَ نفقًا أو سُلَّمًا لِتبلُغَ خبايا الأرض وأسرابَها العميقةَ إلى خبايا وعجائبِ السَّماء، والطَّلَبُ هنا يَقتضي البحثَ، وهو بمعناه[3]، وقولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صفةٌ لـ ﴿نَفَقٗا﴾، وحرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أفادَ المبالغةَ في العُمق، وإلّا فإنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض، ويجوزُ أن تتعلَّق بـ ﴿تَبۡتَغِيَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا من ضمير الفاعل؛ أي: وأنتَ في الأرض، وكذلك القولُ في قولِه: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

بلاغةُ المُقابلةِ بين قولِه تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقولِه ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾:

في استغراقِ جميعِ الجهاتِ إظهارُ حرصِ الرّسولِ ﷺ على انتشارِ الإيمانِ

ومِن لطائف الجارِّ والمجرور ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنّه يقابلُ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لاستقصاء الجهات عُلوًّا وسفلًا؛ وذلك أمعَنُ في الدّلالة على استحالة الفعلِ المفترضِ، وقولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فوصفَ به سُلَّمًا؛ أي: كائنًا في السَّماء؛ أي: واصِلًا إلى السَّماء، والمعنى: تبلُغ به إلى السَّماء، وكذلك أفادَ بيانُ اللّه هنا في استخدام حرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ المبالغةَ في الصُّعود داخلَ السَّماء، وإلّا فإنَّ الصُّعودَ لا يكونُ إلّا إلى السَّماء وداخِلَها مع العُلوِّ، فجمعَ بين الارتقاءِ والدُّخولِ.

"والسُّلَّمُ منَ السَّلامة، وهو الَّذي يُسلِّمُك إلى مصعدك"[1]، وإيرادُ بيانِ اللّه في الآية: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ على طلب الآية من جميع الجهات، وفيه استغراقُ ما يمكنُ أن يُحقِّق حصولَ الإيمانِ للنّاس من حوله ﷺ، وفي هذا الأمر إظهارُ شدَّةِ حِرصِ رسولِ اللّه ﷺ على دُخول النّاسِ جميعًا في الإيمان.

دورُ جُملةِ الشّرط في حصْرِ مُهمّةِ النّبوّةِ في البلاغِ لا في الإكراهِ:

مهمّةُ الرّسولِ الدّلالةُ، واللّه هو الهادِي بالأصالةِ

جاء توظيفُ جملةِ الشّرط كمَثَلٍ، لحصرِ مهمّةِ الرّسول في التّبليغ، وليس في إمكانه الهدايةُ، فمثلُه حين يحاولُ ما ليس في مُكنتِه، كمثل مَن يبتغي نفقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السّماء، بحثًا عن وسيلةٍ لإلجاء غيره على ما يريد، وهي صورةٌ تُبيِّنُ استحالةَ قَسرِهم على الهداية، وذلك لكيلا يشقَّ الرّسولُ ﷺ على نفسه، ويمكنُ أن يكونَ مَرَدُّ ذلك لما ساقَه بيانُ اللّه في آياتٍ عديدةٍ من سؤال المشركينَ رسولَ اللّه ﷺ آياتٍ من جنس ما في الأرض، وجنسِ ما في السَّماء، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ومِنَ الثّاني: قولُه تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.

دلالةُ إيثارِ (الابتغاءِ) على (الاتِّخاذِ)، في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مُفادُ ذكرِ النّفَقِ والسُّلَّم، هو بيانُ حرصِ النّبيِّ ﷺ لا إزجاءُ عِتابٍ له

"إيثارُ بيانِ اللهِ لـ (الابتغاء) على (الاتِّخاذ) ونحوِه؛ للإيذان بأنَّ ما ذُكِرَ منَ النَّفَق والسُّلَّم ممَّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيفَ باتّخاذِه؟!"(1)، وكأنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُخبِرُنا أنَّه لو تمَّ هذا الأمرُ بالحصولِ على آيةٍ منَ الأرض، أو منَ السَّماء، فإنَّهم لن يؤمنوا بها، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف: 57]، ولا يُفهَمُ من سياقِ الآيةِ الكريمةِ توجيهُ لَومٍ أو عتابٍ منَ اللهِ تعالى إلى نبيِّه ﷺ؛ بل هو زيادةُ حِرصٍ من رسولِ اللّه ﷺ على إيمانِ قومِه، وإنقاذِهم منَ النّار.

نُكتة المُراد بابْتغاءِ النَّفقِ في الأرضِ والسُّلّمِ في السَّماء:

المبالغةُ في العُمقِ والارْتفاعِ مُجاراةً لطلبِهم آيةً يؤمنون بها

ابْتغاءُ النَّفَقِ في الأرض، أي: أنْ يكونَ نفقًا مُتغلغِلًا، فذكرَ هذا المجرور ﴿فِي﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ مع اسْتحضارِ الحالة، وتصويرِ حالِ الاسْتطاعةِ، إذْ منَ المعلوم أنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض. وابْتغاءُ السُّلَّم في السَّماء، أي: مَصْعدًا واصلًا إلى السَّماء والمعنَى: تعرُجُ وتبلُغُ به إلى السَّماء. ولعلَّ اختيارَ الابْتغاءِ في الأرضِ والسَّماءِ، أنَّ المشركينَ سألوا رسولَ اللّه ﷺ آياتٍ من جِنْسِ ما في الأرض، كقولِهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ومن جِنْسِ ما في السَّماء، كقولِهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93]، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بابتغاءِ النَّفقِ في الأرض، أوِ السُّلَّم في السَّماء، هو الإتيانَ بالآيةِ، كأنَّه قيل: لو اسْتطعتَ النُّفوذَ إلى ما تحتَ الأرض، أو الرُّقيَّ إلى السَّماءِ لفعلتَ، لعلَّ ذلك يكونُ لكَ آيةً يؤمنون

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

عندها(1)، وخلاصةُ المرادِ من ابتغاء نفقٍ في الأرض، أو ارتقاءِ سُلّم في السّماء "بيانُ حرصِه ﷺ على إسلام قومِه وتهالُكِه عليهم وأنّه لو استطاع أن يأتيهم بآيةٍ من تحت الأرض، أو من فوق السّماء لأتى بها رجاءَ إيمانِهم"(2).

إفادةُ السّياقِ تعلُّقَ الهدايةِ الإيمانيّةِ بالمَشيئةِ الإلهيَّةِ

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرط وحذْفِ مفعولِ المشيئةِ في الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾. صُدِّرتْ جملةُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بـ ﴿وَلَوْ﴾، وهي حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ جوابها لامتناع الواقعِ هنا بعدَها، فأفادتِ امتناعَ اجتماعِهم على الهدى لامتناع المشيئةِ الإلهيَّة؛ أي: لو شاء اللّهُ أن يجمعَهم على الهُدى لجمعَهم عليه، فمفعولُ المشيئة محذوفٌ؛ لقصدِ البيانِ بعد الإبهامِ على الطَّريقة المَسلوكةِ في فعلِ المشيئةِ، إذا كان تعلُّقُه بمفعولِه غيرَ غريب، وكان شرطًا لإحدى أدواتِ الشَّرطِ كما هنا، وكقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النِّساء: 133]، وفي الجملة إشارةٌ إلى أنّه تعالى لَوْ شاءَ "لجعلَهم بحيث يختارون الهُدى، ولكن لمّا علمَ أنّهم يختارون الكفرَ، لم يشأْ أن يجمعَهم على ذلك"(3).

الإتيانُ بآيةٍ ممَّا اقترحُوه قدرُ المُقدّرِ لا مرغوبُ البشرِ

دلالةُ الجارّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بآية ممّا اقْترحوه يُسلّمونَ بها، فهنالكَ وصفٌ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: عنِ الآياتِ الَّتي جئتَهم بها(4)، والمعنى " لو شاء اللّه لأظهرَ لهم آيةً تُلجئُهم إلى الإيمان، لكن لم يفعلْ لخروجِه عنِ الحكمةِ"(5).

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.

(2) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.

(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.

(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَتَأۡتِيَهُم﴾، وتنوينِ لفْظِ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

الـتَّـفـسـيرُ والتَّفخيمُ يُوحِي بعجزِ البشرِ عمّا لم يأذنْ به اللهُ

الفاءُ في ﴿فَتَأۡتِيَهُم﴾ تفسيريَّةٌ، أي: للآيةِ الّتي من جنْس ما اقْترحوهُ منَ الآيات، وتنوينُ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للتَّفخيم، أي: أن تجعلَ ذلك آيةً لهم فافعلْ[1]، وفيه منَ الدّلالة على حِرْصِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ، على إسلامِهم ومُبالغتِه في ذلك إلى حيثُ لو قدَرَ على أن يأتيَ بآيةٍ من تحتِ الأرضِ أو من فوقِ السّماءِ لفعَلَ؛ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكر منَ النّفق والسُّلّم ممّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيف باتّخاذِه[2] وقال في نوادر الأصول: "أنَّ الخطاب به تربيَةٌ له، وترقيةٌ من حالٍ إلى حالٍ.. قلتُ: تشديدُ الخطابِ على قدْرِ عُلوِّ المقام، كما هو معلومٌ"[3].

مخالفةٌ تركيبيّةٌ في التّعبيرِ عنِ الهُدى بقوله تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾:

الاخـتـلافُ سُنّةٌ كـونـيّـةٌ، ولـكنّه لا يـفـسـدُ لـلـودِّ قضيّةً

وقولُه تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾؛ أي: لَهَداهم أجمعين، وهذا تَفَنُّنٌ لطيفٌ جميلٌ في أُسلوبِ التَّعبيرِ، حيث صار تركيبًا خاصّيًّا عَدَلَ به بيانُ اللّه تعالى عنِ التَّركيب المشهورِ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، وفي هذا التَّركيبِ الجليلِ إيماءٌ إلى تَمييزِ الَّذينَ آمنوا من أهلِ مكَّةَ على مَن بَقيَ فيها منَ المشركين؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَجَمعَهم معَ المؤمنينَ على ما هدى إليه المؤمنينَ من قومِهم، وفي هذه المخالفةِ التّركيبيّةِ الّتي تجعلُ الهُدى مُستَعلًى عليه (بدلالة على) إشارةٌ إلى أنّ هذا، وإنْ كان غيرَ بعيدٍ على مشيئةِ اللّه فإنّه مخالفٌ لسُنّته - سبحانه - في خلْقه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: 118 - 119].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دلالةُ التَّذْييلِ آخرَ الآية، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النّهيُ عنِ الجهل في آخرِ الآية، أنسبُ لظاهرِ ما وردَ به صَدرُها

والمرادُ بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ منَ الجَهل الَّذي هو ضدُّ العلم، كما في قولِه تعالى لنوح - عليه السلام - : ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]، ويجوزُ أن يكونَ منَ الجَهلِ الّذي هو ضدُّ الحِلْم؛ أي: لا تَضِقْ صَدرًا بإعراضِهم، وهو أنسبُ لظاهرِ ما ورد به صَدرُ الآية، بقولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وكلا المعنَيَين سائغٌ؛ لأنَّه ينتظمُ مع مُفادِ الجملتَين القُرآنيَّتين؛ الأولى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، والثّانية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ومع كَونِ هذه الجملة تَذييلًا للكلام السّابق، فالمعنى: فلا يَكبُرْ عليك إعراضُهم، ولا تَضِقْ به صَدرًا، وأيضًا فكُنْ عالِمًا بأنَّ اللّه لو شاء لَجَمعَهم على الهُدى.

دلالةُ العُدولِ عنِ الأمر بالعِلم، إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النّهيُ عنِ الجهل ينطوي ضِمنًا على استحضارِ العلْمِ

الجوابُ: هو أنَّ النَّهيَ عنِ الجَهل يَتضمَّنُه؛ فيتقرَّرُ في الذِّهنِ مرَّتَين، ولأنَّ في النَّهي عنِ الجهل بذلك تَحريضًا على استحضار العلْم به، فيكونُ تحصيلًا للحُسْنيَين[1]، والحاصلُ أنّ هذه التّتمّةَ التّذييليّةَ بمعنى: "فلا تكوننَّ منَ الجاهلين بحكمةِ اللّه في خلْقِه، وبسُننِه الّتي اقتضاها علْمُه"[2]، أو بمعنى: "فلا تكوننَّ - أيّها الرّسولُ ﷺ - منَ الجاهلين الّذين اشتدَّ حُزنُهم، وتحسَّروا حتّى أوصَلَهم ذلك إلى الجزعِ الشّديدِ"[3]، أو أنّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بمحذوفٍ، خبرِ الفعْلِ النّاقص ﴿تَكُونَنَّ﴾، والجملةُ لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مقدّرٍ: (إذا علمت ذلك فلا تكوننّ منَ الجاهلين)[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/206 - 207.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/68.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 131.
(4) أحمد عبيد الدّعاس وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/300.

توجيهُ الفرقِ بين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَكُن﴾ و﴿أَن تَكُونَ﴾:

الجزعُ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين المُتهالِكين

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للمبالغةِ في الإنكارِ، ووردتْ في حقّه ﷺ في مواضعَ منَ القرآن دون هذه المبالغة، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يكنْ رسولُ اللّهِ ﷺ منَ المُمترين الشّاكّين في أنَّ الحقَّ من ربِّه، ولم يكنْ كذلكَ منَ الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ في جميعِ أحوالِه؛ بلِ الغرضُ من ذلكَ الحضُّ على التزامِ الحقِّ منَ اللّهِ تعالى بيقينٍ، وعدمِ الغَفْلَةِ عن ذكرِه في جميعِ الأحوالِ، باعتبارِ أنَّ الخطابَ لرسولِ اللّه ﷺ خطابٌ لأمَّتِه وهو القُدوةُ الحسنةُ لها[1]، ويظهرُ تبايُنُ ذلكَ كذلك في خطابَيْن، ما بين قولِه تعالى لمحمَّدٍ ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وبين قولِه لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]، والوجهُ هنا أنَّ ذلك لم يجئْ بحسَبِ النَّبيّيْن، وإنَّما جاءَ بحسَبِ الأمرَيْن اللَّذيْن وقعَ النَّهيُ عنهما والعتابُ فيهما، وبيَّنَ أنَّ الأمرَ الَّذي نُهيَ عنه محمَّدٌ ﷺ، أكْبرُ قدرًا وأخْطرُ مواقعةً منَ الأمرِ الَّذي واقعَه نوحٌ عليه السلام[2]، والنّهيُ عنِ الجهالةِ مُفادهُ التّذكيرُ بأنّ مشيئةَ العباد تابعةٌ لمشيئةِ اللّه وهو لم يشأْ جمْعَهم على الهُدى لحكمةٍ لا يعلمُها إلّا هو فلا تُتعبْ نفسك واصبرْ على قدَرِ اللّه وحُكمِه "فإنّ إتعابَ النّفس فيما لا يفيدُ، والجزعَ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين، أو المعنى: لا تكوننَّ منَ الجاهلين، بأنّ هدايتَهم بمشيئةِ اللّه تعالى لا بمشيئَتِك"[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/260.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288.

(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/233.

الزَّجرُ عن حالةِ الجهالةِ تنزيهٌ للنّبيِّ عن مقارفتِها

بيانُ الغرَضِ من توكيدِ النَّهيِ، في قولِه تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾:

المقصودُ من توكيدِ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ التَّغليظُ والتَّبعيدُ والزَّجرُ له ﷺ، عن مثلِ هذه الحالة[1]، والمعنى "ولا تحزنْ لعدمِ حصولِ ما يطلبونَه منَ الآياتِ الّتي لو بدا لهم بعضُها، لكان إيمانُهم بها اضطراراً لخروجِه عنِ الحكمةِ التّشريعيّةِ المؤسَّسةِ على الاختيارِ، وإنّما نهاه عن هذه، وغلّظ له الخطابَ تبعيداً له عن هذه الحالةِ"[2].

النّهيُ عنِ التّحسُّرِ على الغيبِ دفعًا للجهالةِ والرّيبِ

بيانُ المُرادِ بلفظِ (الجاهلينَ) في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

يمكنُ أن يُرادَ بوصفِ الجاهلين بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أي: في أن لا تعلمَ أنَّ اللّه لو شاءَ لجمعَهم على الهدَى، ويُحتملُ أنَّ المرادَ هنا نهيُهُ عمّا كان عليه ﷺ منَ الحرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والميلِ إلى إتيانِ ما يقترحونَه منَ الآياتِ طمعًا في إيمانِهم، وهو مُرتَّبٌ على بيانِ عدمِ تعلُّقِ مشيئتِه تعالى بهدايتِهم[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ بالجاهلين: المُقترحونَ، ويُرادَ بالنَّهيِ منعُه ﷺ منَ المساعدةِ على اقْتراحِهم. وأمّا الوجهُ الأوَّل فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا، بأنَّه تعالى لو شاءَ لجمعَهم على الهُدَى؛ لأنَّ هذا من قبيلِ الدّينِ والعقائدِ، فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا بها[4]. وما أَحْسَنَ ما ذهب إليه الرّازيُّ في هذه المسألة بقولِه: "قولُه تعالى في آخرِ الآية ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، نهيٌ له عن هذه الحالة، وهذا النَّهيُ لا يقتضي إقْدامَه على مثلِ هذه الحالة، كما أنَّ قولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 48]، لا يدلُّ على أنَّه ﷺ أطاعَهم وقَبِلَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/133.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/495، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.

دينَهم، والمقصودُ هنا أنَّه لا ينبغي أنْ يشتدَّ تحسُّرُكَ على تكذيبِهم، ولا يجوزُ أن تجزَعَ من إعراضِهم عنك، فإنَّكَ لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُكَ من حالِ الجاهل"[1].

سرُّ العُدولِ عن قولِه تعالى: (فلا تكنْ جاهلًا) إلى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

عصمتُه ﷺ من الجهل، عصمة إلهيّة له من كلّ نقيصة

عدَل بيانُ اللّهِ تعالى عن خطابِه لرسولِه ﷺ بقولِه: (فلا تكن جاهلًا) إلى قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ يقتضي وصفَ رسولِ اللّهِ بالجهل، وهذا لا يجوزُ في حقِّه ﷺ؛ لأنَّه ﷺ معصومٌ منَ الجهل بلا خلافٍ، ولكنَّ العصمةَ لا تمنعُ الامْتحانَ بالأمرِ والنَّهي، أو لأنَّ ضيقَ صَدْرِه، وكَثْرَةَ حُزنِه، منَ الجبلّاتِ البشريَّة، وهي لا ترفعُها العصمةُ.

ويمكنُ أنْ لا يكونَ الرَّسولُ ﷺ هو المرادَ بهذا الخطاب، وذلك أنَّه تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾، فهذا إخبارٌ وعقدٌ كُلّيٌّ، أنَّه لا يقعُ في الوجودِ إلّا ما شاءَ وُقوعَه، ولا يختصُّ هذا الإخبارُ بهذا الخطابِ بالرَّسولِ ﷺ؛ بلِ الرَّسولُ عالمٌ بمَضْمونِ هذا الإخبار، فإنَّما ذلك للسّامع، فالخِطابُ والنَّهيُ في: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للسّامع دونَ الرَّسولِ، فكأنَّه قيل: ولو شاءَ اللّهُ - أيُّها السّامعُ الَّذي لا يعلمُ أنَّ ما وقعَ في الوجودِ بمشيئةِ اللّهِ - جمْعَهُمْ على الهُدَى لَجَمعهُم عليه، فلا تكونَنَّ أيُّها السّامعُ منَ الجاهلينَ، بأنَّ ما شاءَ اللّهُ إيقاعَهُ وقع، وأنَّ الكائناتِ معذوقةٌ بإرادتِه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(كَبُرَ) و(شَقَّ):

الفعلُ (كَبُرَ) آثرُ في بيانِ حالةِ الرّسولِ ﷺ، وهو حزينٌ على حالِ المُعانِدين

كبُرَ بالضّمّ يكبُرُ؛ أي: عظُم، فهو كبير وكُبارٌ، فإذا أفرط قيل: كُبّار بالتّشديد[3]، وكلُّ ما جَسُم فقد كَبُر، وفي التّنزيل: ﴿۞قُل كُونُواْ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/495 - 496.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كبر).

﴿حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: 50 - 51]، قال ثَعلبٌ: "قَولُه: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ مَعناهُ: كونوا أشدَّ ما يكون في أنفسكم فإنّي أميتُكم وأُبليكم[1]، وأمّا لفظُ شقّ فإنّ "شقَّ: الشّين والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيء، ويُقالُ: أصابَ فُلانًا شِقٌّ ومَشَقَّةٌ، وذلك الأمرُ الشَّديدُ، كأنَّه من شدَّتِه يَشُقُّ الإنسانَ شَقًّا، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النّحل: 7]"[2]، وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ يتناولُ حالةَ رسولِ الله ﷺ فيما كان يُصيبُه من همٍّ كبيرٍ في تكذيبِ قومِه، وإعراضِهم عنِ الحقِّ، وهذا ما كان يتسلَّلُ إلى صدرِه فيُضَيِّقُه عليه، فتظهرُ علاماتُه على وجهِه، فيكبُرُ عليه ذلك، ولا أكبَرَ في الذُّنوب وأشدَّ قُبحًا منَ الكُفرِ باللّه والشِّركِ به؛ ولذلك كان يُخاطبُه ربُّه قائلًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: 6]؛ أي: مُهلِكُها بسببِ عدمِ إيمانِهم، وهذه الحالُ منَ الضّيق في النَّفْسِ يُناسِبُ سياقَ الحديث عنها استخدامُ الفعلِ ﴿كَبُرَ﴾ أكثرَ من غيرِه.

(الإعراض) و(الإدبار):

لفظُ (الإعـراضِ) أَوفَـى بالسِّياقِ والمعنى من لفظِ (الإدبارِ)

معنى (الإعراض) هو الإدبارُ التّامُّ، بحيث يكون مولّيًا عُرْضَه، وحقيقةُ الإعراض: عدمُ الالتفات إلى الشّيءِ بقصْدِ التّباعُدِ عنه، ثمّ استُعملَ استعمالاً شائعًا في التّرك والإمساكِ عنِ المخالطةِ والمحادثة، يقالُ: أعرض عنه كما يقال: صدَّ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] ولذلك كثُرَ هذا اللّفظُ في أشعارِ المُتيَّمين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).

رَديفًا للصُّدودِ، وهذا أقربُ المعاني إلى المعنى الحقيقيّ[1]، وأمّا الإدبار فيُقالُ: دَبَرَ السَّهمُ الهدفَ: سَقطَ خَلفَه، ودَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خلفَهم، قالَ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: 45]، والدّابرُ يُقالُ للمُتَأخِّرِ، وللتّابع، إمّا باعتبار المكانِ، أو باعتبار الزَّمانِ، أو باعتبار المرتبةِ، وأدبَرَ: أَعرَضَ وولَّى دُبُرَه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ [المدَّثِّر: 23]، وتَدابَرَ القومُ ولَّى بعضُهم بعضًا[2]، وبمقارنةِ هذا المعنى بذاك يتَّضحُ أنَّ الإعراضَ الَّذي كان يَشُقُّ ويَكبُرُ على رسول اللّه ﷺ، ليس بالتَّأخُّر بالزَّمانِ أو المكانِ أو الرُّتبةِ، أو بأيِّ تأخُّرٍ عنه ﷺ، وعن دعوتِه للإسلام، وإنَّما هو إعراضٌ بالكُلّيَّة بالتَّكذيبِ والكُفرِ التّامَّين، ولذلك جاء استخدامُ البيانِ الإلهيّ لكلمة الإعراض، أوفَى بالسّياقِ، والمعنى المُرادِ من كلمة الإدبارِ.

(الابْتغاء) و(الطَّلَب):

استخدامُ السِّياقِ الفعْل (تبتغي) أَوفَى منَ الفعْلِ (تَطلُب)

الطَّلبُ: الفَحصُ عن وجود الشَّيء عَينًا كان أو معنى، قال تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 41]، وأطلبتُ فُلانًا: إذا أسعفتُه لِما طلَبَ، وإذا أَحوَجتُه إلى الطَّلَب. وأَطلَبَ الكلَأُ: إذا تباعدَ حتَّى احتاجَ أن يُطلَبَ. وأمّا (الابتغاءُ) الَّذي تقدَّمَ بيانُه في شرح المفردات فهو بمعنى الطَّلب الَّذي يحتاجُ إعانةً عليه، واتّخاذَ السُّبُل للحصول عليه، كما هو في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ في ابتغاء النَّفقِ في الأرض أو السُّلَّم في السَّماء للحصول على آيةٍ تكونُ سببًا لإيمان المُكذِّبين. ولذلك كان استخدامُ السّياقِ للفعلِ ﴿تَبۡتَغِيَ﴾ أَوفَى بالغرضِ المنشودِ، وتحقيقِه منَ الفعلِ (تَطلُبَ) أو غيرِه منَ الأفعال المرادِفة.

---

(1) محمّد عطيّة متولّي، التّوليّ والإعراض عن الحقّ في القرآن الكريم، حوليّة كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، العدد: 33، القاهرة، 2016م، ص: 1821.

(2) الرّاغب، المفردات: (دبر).

(النّفَق) و(المغارة):

النَّـفَـقُ: طريـقٌ نـافذٌ في الأرضِ لـه مَـخـرَجٌ، والمغارةُ خلافُه

النَّفقُ: الطَّريقُ النّافذ، والسَّرَبُ في الأرضِ النّافذُ فيه له مَخْلَصٌ إلى مكانٍ[1]، قال الزّجّاجُ: "النّفقُ: الطّريقُ النّافذُ في الأرض. والنّافقاء، ممدود: أحد جِحَرةِ اليربوعِ يَخرِقه من باطن الأرض إلى جلدةِ الأرض، فإذا بلغ الجلدةَ أرقَّها، حتّى إنْ رابَه ريبٌ، دفعَ برأسه ذلك المكانَ وخرجَ، ومنه سُمّي المنافقُ؛ لأنّه أبطنَ غيرَ ما أظهر"[2]، وأمّا الغَوْرُ: فهو المُنهَبطُ منَ الأرض، يُقال: غارَ الرَّجلُ، وأغار، وغارتْ عينُه غَوْرًا وغُئورًا، قالَ تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ [الكهف: 41]، أي: غائرًا، وغَوْرُ كلِّ شيءٍ قَعْرُه. والغارُ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التّوبة: 40]، والغارُ، والمَغارُ، والمَغارةُ كالكهفِ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ [التّوبة: 57][3].

(السُّلّم) و(المِعراج):

السُّـلَّـمُ: سَبَبُ الـصُّـعـودِ والارْتـقـاءِ ولكلِّ ما يُرجَى الوصولُ إليه

السُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّبب، قالَ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ [الطّور: 38][4]

ويقال للسُّلّم المرقاة وهو ما يُصعد عليه إلى الأماكن العالية، ومنه قولُ الشّاعرِ:

وَلا لَكُما مَنْجىً عَلَى الأَرْضِ فابْغيا *** بِهِ نَفَقًا أَوْ في السَّماواتِ سُلَّما[5]

وأمّا المِعراج فمن العُروج وهو: ارْتقاءٌ وذهابٌ في صُعودٍ، قالَ تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: 4]. والمعارِجُ: المصاعدُ،

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (نَفَقَ).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/25.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي اللغوي، مختار الصِّحاح: (غَوَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) البيت لكعب بن زهير. ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/114، والسمين، الدّرّ المصون: 4/610، والماوردي، النّكت والعيون: 2/109.

قالَ تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: 3]، وعَرَجَ عُروجًا وعَرَجانًا: مَشَى مَشْيَ العارِج أوِ العُرجان، أي: الذّاهبِ في صُعود، وعَرَجَ في السُّلَّمِ: ارْتَقَى[1]، قال الأخفشُ: "إن شئتَ جعلت الواحدَ (مَعْرَج)، و(مِعْرَج) بكسر الميم وفتحِها، كما تقول: (مِرْقاة) و(مَرْقاة)، و(المعارج) أيضا المصاعدُ[2] ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾ [الزّخرف: 33].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرج).
(2) الرّازيّ اللغويّ، مختار الصّحاح: (عرج).

﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٣٦﴾ [الأنعام: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إعراض الكافرين، ومساواتهم الموتى في عدمِ الانتفاعِ والاتّعاظِ

لَمّا أفادَتِ الآيةُ السّابقةُ تَأْييسَ وُلوجِ الإيمانِ إلى قلوبِ الكافرين، خاطبَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا له: لا تُطْمِعْ نفسَكَ فيما لا مَطمَعَ فيه؛ فإنَّ ما شاءَه اللّهُ تعالى لا يكونُ غيرَه، ولَمّا أَفْهَمَ هذا القضاءُ الحَتْمُ أنَّه قد صارَ حالُهم حالَ من خُتِمَ بالموت، فلا يمكنُ إسْماعه إلّا اللّه تعالى، ولا يُمكِنُ أنْ يستجيبَ عادةً، قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ في مجاري عاداتكم الَّذين فيهم قابليَّةٌ للسَّمْع؛ لأنَّهم أحياء، فَيتدبَّرون حينئذٍ ما يُلْقى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء قدْ ساوَوُا الموتَى في عدم قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، والموتى كلُّهم حِسًّا ومعنًى يَبْعثُهم اللّهُ تعالى بإعادةِ الرّوحِ إليهم، فَيسْمعونَ حينئذٍ سماعًا لا يَنفعُهم، وقد حُرِموا فائدةَ السَّمعِ يومَ أنْ كان السَّمْعُ وفهمُ المسموعِ ينفعُهم[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: جوابُ الكلام: هو ما يقطعُ الجَوْبَ، فيصِلُ من فمِ القائلِ إلى سمعِ المتلقّي، لكن خُصَّ بما يعودُ منَ الكلامِ دونَ المبتدأ منَ الخطاب، قالَ تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النَّمل: 56].

والاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤُ له، لكنْ عُبِّرَ به عنِ الإجابةِ لقلَّةِ انْفكاكِها منها، قالَ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][2]، والمقصودُ في الآية: ﴿إِنَّمَا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.

(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (جَوَبَ).

﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: العملُ بما يطلبه الآمر، فالَّذي لا يسمعُ لا يُجيبُ، وليس عنده القُدرة على التَّحرّي والتَّهيُّؤِ للجواب فضلًا عنِ العمل.

2) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: السَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذُنِ، به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ له: السَّمعُ أيضًا، وقد سَمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فعلِه بالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عنِ الفَهْم، وتارةً عنِ الطّاعة، تقولُ: اسْمَعْ ما أقولُ لك، ولم تسمعْ ما قلتُ، وتعني: لم تفهم، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فَهِمْنا قولَك، ولم نأتمرْ لك.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]، يجوزُ أنْ يكونَ معناه: فهِمْنا وهم لا يَفهمون، وأنْ يكونَ معناه: فَهِمْنا وهم لا يعملونَ بموجبِه، وإذا لم يُعمَلْ بموجبِه؛ فهو في حُكم مَنْ لم يُسْمَع[1].

ومنه الآيةُ الَّتي معنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: الَّذين يَفهمون، أو الَّذين يعملون بموجب ما يفهمون، فَعدَمُ عملِهم بما فهموا لا فائدةَ منه، ولذلك قالَ بعدَه: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فالَّذي لا يعملُ فيهم كالميِّتِ سواءً بسواء.

3) ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: أصلُ البعث: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بعثْتُه فانْبعَث، ويختلفُ البعثُ بحسَبِ اخْتلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثْتُ البعيرَ: أَثَرْتُه وسيَّرتُه[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُخرجُهم، ويُسيِّرهم إلى القيامة[3].

4) ﴿يُرْجَعُونَ﴾: الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقديرُ البَدء مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاتِه كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: 48][4]، وكما هنا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، أي: يعودون إلى اللهِ بذواتِهم كاملةً؛ ليُحاسَبوا على ما قدَّموه في دنياهم من أقوالٍ وأعمال.

(1) الرّاغب، المفردات: (سمع)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (سَمِعَ).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بَعثَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رَجَعَ).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المعرضون عن هداية الله كالموتى، يُترَكُ أمرهم إلى الله

يقولُ اللّهُ تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: إنَّما يَستجيبُ لدعائكَ - يا محمَّدُ - مَنْ يسمعُ الكلامَ، ويَعيه، ويَفْهمُه، والكفّارُ موتَى القلوب؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بدعوتِكَ ورسالتِك، هم كذلكَ كمن ماتتْ أجسادُهم، سيبعثُكم، ويبعثُهم إليه، وفي هذا ما فيه من التَّهكُّمِ والازْدراء بهم[1].

۞ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ عنِ الآيةِ السَّابقة:

تقريرُ المعاني السَّابقة، وتعليلُ الواقع، من بيان السّياق الرّائع

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تقريرٌ لما مرَّ من أنَّ على قلوبهم أكنَّةً مانعةً منَ الفِقْه، وفي آذانِهم وقْرًا حاجزًا منَ السَّماع، وفيه كذلك تحقيقٌ مع التَّعليلِ من أنَّه كما لا يُتصوَّرُ الإيمانُ من الموتَى البتَّة، والاسْتجابةُ الأكيدةُ المقارِنةُ للقَبول، فكذلكَ هؤلاءِ الَّذينَ لم يَقبلوا دعوتَك - يا محمَّدُ ﷺ - إلى الإيمان، لو سمعوا ما يُلقى إليهم سماعَ تفهُّمٍ وتدَبُّرٍ؛ لاسْتجابوا[2].

سرُّ أسلوب القصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون بقيَّةِ الأساليبِ:

واجب الدَّاعي بذلُ الوُسع في الدَّعوةِ، دون إفراطٍ ولا تفريط

جاءَ القَصْرُ في صَدْرِ الآيةِ الكريمةِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي الَّتي يليها المقصورُ دائمًا دون غيرها من أساليب القَصْر وطُرقه[3]، وهذا المفهومُ للقَصْرِ مُؤذِنٌ بإعمالِ منطوقِه الَّذي يومِئ إلى إرجاءٍ بعدَ تأييسٍ: بأنَّ اللّه جعلَ لقوم آخرينَ قلوبًا يفقهونَ بها، وآذانًا يسمعونَ بها، فأولئكَ هم الَّذين يَسْتجيبون[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

(3) وهذه خصيصةٌ للقَصْر بـ (إنَّما) أمّا غيرُها من أساليب القصر وأدواته؛ فإنها تختلف عن (إنَّما) فالقصر بـ (ما) و(إلّا) يكون المقصور عليه هو الَّذي يذكر بعد (إلّا) وإذا كان القصر بالعطف بـ (لا) كان المقصور عليه قبلها، وإذا كان العطف بـ (بل) أو (لكن) فالمقصور عليه بعدهما دائمًا، وإذا كان بتقديم ما حقُّه التَّأخير، فالمقدَّمُ هو المقصور عليه دائمًا، والمؤخَّر هو المقصور، ولكلٍّ من هذه الأدوات موضعٌ لا يصلح له غيرُها وهذا يدلُّ على دقَّةِ اللُّغة العربيَّة وسُموِّ بلاغتها ورقَّة طبع العرب في أفانين كلامهم، ينظر: الدكتور فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 175 - 177.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

وأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ ما بعدَها هو ممّا لا يجهله المخاطَبُ، ولا يدفع صحتَّه[1]، وفائدةُ ذلك: تهوينُ الخَطبِ على رسولِ اللّه ﷺ، فهو يعلمُ أنَّه لا يستجيبُ إلّا المؤمنون الذين يسمعون، فليس عليه أن يكبُرَ عليه إعراضُ الكافرين موتى القلوبِ، فهذا حالُ المستجيبين وغيرِ المستجيبين، وفيه تقريرٌ لقاعدةٍ عظيمةٍ من قواعد الدَّعوةِ إلى اللّه تعالى، وهي أنَّ الأمرَ بيد اللّه تعالى، وأنَّه ليس على الدّاعي أن يبذلَ فوق طاقتِه في دعوتِه لدين اللّه، فالاستجابةُ مقترنةٌ بالسَّماعِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ على مرادفاتِه:

الاسْـتـجـابـةُ أوسـعُ دلالـةً، مـن الـطَّـاعـةِ والإقبالِ

في قولِه تعالى: ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ معنَى موافقةِ الدّاعي إلى الفعل لمجرَّدِ أنَّه دَعا به، مع كاملِ التَّهيُّؤ له والامتثال، دون تردُّدٍ مع قَصْدِ التَّبَع؛ لأنَّ الدّاعيَ والآمرَ هو اللّهُ ﷻ، وهو أعلى مقامًا من المجيب ومن غيرِه.

لذا لم يَذكرِ الفعلَ (يُطيعُ) أو (يُقْبِلُ)؛ لأنَّهما قد يكونان بغيرِ قصْدٍ للتَّبع، وقد يكونُ الآمرُ آمرًا بخير، أو آمرًا بشرٍّ، وهذا لا ينسجمُ مع سياقِ الآيةِ الكريمة[2]، ولاشتمالِ الاستجابةِ على الطّاعة والإقبالِ ضمنًا، فهي أوسعُ دلالةً وأرحبُ معنًى.

معنَى السِّين والتَّاء في ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

تأكيد استجابة مَـنْ يَـسـمـع، مفيدة في البلاغ وتأثيره

قولُه تعالى: ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ بمعنَى يُجيب، فالسّينُ والتّاءُ زائدتان لإفادةِ التَّأكيد[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، فاسْتجابَ أخصُّ من أجاب؛ لأنَّ (اسْتجابَ) يقال لمن قَبِلَ ما دُعيَ إليه، وأجابَ أعمُّ، فيُقال لمن أجابَ بالقَبولِ وبالرَّدِّ، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ بيانُ قَبولِ الدَّعوةِ ممَّن يَسمع[4].

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 330.

(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/202.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

تجدُّد الاسْتجابةِ وعدمِ انْقطاعِها

جاءَتْ صيغةُ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ بالمضارع؛ لأنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، دون الانْقطاع؛ فالَّذين يَسمعونَ بتفهُّم وتدبُّرٍ هُمُ الَّذين لا يَفْتأونَ يستجيبونَ لأوامرِ الدّاعي إلى الحقِّ والخير.

علَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

الاستجابة الحقيقيّة لا تكون إلّا لله ورسوله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾؛ فلم يقل: يستجيب إلى رسول اللّه، أو إلى اللّه تعالى؛ لظهورِه من السّياق؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيد، وتصديقِ الرَّسول في دعوته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظّاهر:

مَدْحُ السَّامعين، يشمل كلّ من يتحقَّقُ منه السَّمعُ والتَّدبُّر

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظّاهر، فلم يقل: (السّامعون)؛ لأنَّه أفادَ التَّعريفَ فيهم بقابليتهمُ السَّمعَ؛ فهم أحياءٌ يتدبَّرون حينَ دعوتِهم ما يُلْقى إليهم، فينتفعون به[1]، ولبيان مَدْحهم بما في حيِّز الصِّلة، فهم يسمعون على الدَّوام، ولإفادةِ العموم؛ لأنّ اسم الموصول (الذين) يشملُ كلَّ من يسمع، ولو قال: السّامعون؛ لظُنَّ أنَّهم سامعون مخصوصون.

دَلالةُ لفظِ ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾، وأثرها في السّياق:

السَّمع بمعنى الفقهُ والاعتبار، لا مجرَّد السَّماع

وردَ التَّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾؛ بمعنى سماعِ الاعْتبارِ، لا سماعِ الأصوات، لأنَّ المرادَ بالسَّمعِ هنا الفِقْهُ، أي: يَفْقهونَ ما يُلْقَى إليهم منَ الإرشاد، فالمقصودُ سمعٌ خاصٌّ، وهو سمعُ الاعْتبار[2]، وليس كلُّ مُؤمنٍ يفقهُ ما يوجَّهُ إليه منَ الأوامرِ والنَّواهي وغيرِها من أمور الدّين والشَّريعة والأخلاق، وإنْ كانَ الإيمانُ بريدَ ذلكَ وسببَه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 7/101.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

نكتةُ التَّعبير بالسَّماع ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ دون الإيمان، في الآية:

ورد قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا الوجهُ مقابلٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ فكما أنَّ الموتَى لا يسمعونَ سماعَ اسْتجابةٍ فكذلكَ الَّذينَ يَسمعونَ، ولا يتدبَّرونَ، هم في واقعِ الحالِ لا يَستجيبون؛ ولذلك لم يقل: (الَّذين يؤمنون)، فلا وجهَ له هنا في سياق الآية الكريمة(1).

مقابلةُ لفظ الموتى لمن يسمعُ، ولا يَستجيب

دلالةُ الوقفِ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾:

جاءَ الوقفُ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ مقابلَ قولِه بعده: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ليؤكِّد أنَّ الاسْتجابة لا تكون إلّا لمن يسمعُ بفقهٍ وتدبُّر(2)، والوقفُ تامٌّ(3)، ولو عطفَ؛ لترتَّبَ معنًى باطلٌ، وهو أنَّ الموتى يستجيبون.

الاستجابةُ المعتبرةُ هي المقرونةُ بسماعِ فقهٍ وتدبُّرٍ

بلاغةُ عطف جملة ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على سابقتها:

ولذلكَ بعدَ انْتهاءِ الجملةِ الأولى بـ ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ حَسُنَ عطْفُ جُملة: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على الجملةِ الأولى ﴿يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها استئنافيَّة، فأصبحَ معنَى الكلام: وأمّا المعرِضونَ عنك - يا محمَّدُ ﷺ - فَهُمْ مثلُ الموتَى، فلا يَسْتجيبون، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النَّمل: 80].

أمواتُ القلوبِ في حاجة إلى بعثٍ، لأنَّهم لا يَستجيبونَ للحقِّ

فحُذِفَ من الكلامِ ما دلَّ عليه السّياق، فإنَّ الَّذي لا يسمعُ قد يكونُ فقدانُ سمعِهِ من عِلَّةٍ كالصَّمَم، وقد يكونُ من عَدَمِ الحياة.

فتضمَّنَ عطفُ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعريضًا بأنَّ هؤلاء كالأموات، لا تُرجَى منهمُ اسْتجابة، وتخلَّصَ إلى وعيدِهم بأنَّه يبعثُهم بعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رجوعٌ إلى الحقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقونَ جزاءَ كُفرِهم(4).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(3) مكي، الهداية: 3/2012.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

السَّماعُ للهدى بفهمٍ وتدبُّرٍ حياةٌ

براعةُ الاحْتباكِ بين جملتي: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ﴾ و﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

بيَّن اللّهُ ﷻ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ أنَّ الَّذين فيهم قابليَّةُ السَّمْعِ همُ الَّذين يستجيبون؛ لأنَّهم أحياءٌ، فيتدبَّرون ما يُلقَى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء الكافرون قد ساوَوْا الموتى في عدم قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: كُلُّهم حِسًّا ومعنًى ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: المَلِكُ المحيطُ علمًا وقدرة، فهو قادرٌ على بعثِهم بإفاضةِ الإيمانِ على الكافر، وإعادةِ الرّوحِ إلى الهالكِ، فيسمعونَ حينئذٍ، ولذلك جاءتْ براعةُ الاحْتباكِ بين كلتا الجُملتَيْن في سياقِ الآيةِ الكريمة، حيث حذَفَ من الأوَّلِ: الحياةَ؛ لدَلالةِ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ عليها، ومن الثّاني: السَّماعَ؛ لدَلالة ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ عليه[1]، والتَّقدير: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ الذين يسمعون، والموتى الذين لا يسمعون يبعثهم اللّه، وعلى هذا التَّقدير يتَّضح معنى الاستعارةِ في لفظ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

بلاغةُ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، في قوله: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

أفادتِ الاسْتعارةُ التَّهكُّمَ بالْمُعرِضينَ عن الاسْتجابةِ للحقّ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الكافرين بالموتى، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، فهي للكُفَّارِ الَّذين لا ينتفعونَ بعقولِهم ومَواهبِهم الَّتي وهَبَها اللّهُ لهم[2]، ويبعثُهم على هذا حقيقةً، فذكرُ البعث في قولِه تعالى: ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ترشيحٌ للاسْتعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ البعثَ من مُلائماتِ المشبَّه به في العُرف، وإنْ كانَ الحيُّ يُخبَرُ عنه بأنَّه يُبْعَث، أي: بعدَ موته، ولكنَّ العُرفَ لا يذكُرُ البعثَ إلّا باعْتبارِ وصفِ المبعوثِ بأنَّه ميِّت[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.
(2) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/189.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

وجهُ استعارةِ البعثِ للهدايةِ في ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾:

هدايةُ الكافرينَ غيرُ مُمتنعةٍ في المأثور، وهي بأمر الله وقَدَرِه المقدور

في قولِه تعالى: ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ اسْتعارةٌ للهدايةِ بعد الضَّلالِ، تَبَعًا لاسْتعارةِ الموتِ لعدمِ قبولِ الهُدى على الوجهَيْن المعروفين في الاسْتعارةِ التّرشيحيَّة[1]، فالوجهُ الأوَّلُ: يكون بقاءُ البعثِ على حقيقتِه لا يُقصَدُ منه إلّا تقويةُ الاسْتعارة، وعلى الوجهِ الثّاني: يُستعارُ من ملائمِ المُشَبَّهِ به إلى شِبهِه من مُلائمِ المشَبَّه، فيكونُ على هذا الوجهِ في الكلامِ وعدٌ للرَّسولِ ﷺ بأنَّ بعضَ هؤلاء الضّالينَ المكذِّبينَ سَيهديهمُ اللّهُ تعالى إلى الإسلام، وهم مَنْ لم يَسْبق في علمِه حِرمانُهم منَ الإيمان[2]، وهذا تفسيرُ الحسن البصري رحمه اللّه تعالى حيث قال: "الكفّارُ مثل الموتى، واللّه يوفِّق منهم من يشاء إلى الإيمان، فيكون ذلك بعثَهم من موتهم"[3]، وهو تفسير إشاريٌّ مليحٌ.

وجهُ القصرِ والحصْرِ المستفاد في جملة ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

كلُّ الخلقِ راجعون إلى الله، ولا أحد يتأبّى عن مصيره ومنتهاه

قدَّم المعمولَ في جملة: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾، وهو الجارُّ والمجرورُ إيذانًا بالحصرِ؛ أي: أنّهم يرجعون إلى اللّه تعالى وحده؛ لأنّه ليس هناكَ عدةُ ملوكٍ يَرْجِعُ بعضُ الناسِ إلى واحدٍ ليحاسبَه، وبعضٌ إلى واحدٍ ليُحاسِبَهُ، بل هو المَلِكُ الواحدُ القهارُ، الذي إليه مَرْجِعُ الجميعِ؛ ولذا قَدَّمَ المعمولَ فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[4].

(1) الاستعارة التَّرشيحيَّة أقوى أنواعِ الاستعارة وأكثرُها مبالغة؛ لأنَّ الاستعارةَ فيها تقوم على تناسي التَّشبيه، وذكر ما يلائم المشبَّه به، وهو (اللَّفظُ المستعار) الَّذي يُساعد على تناسي التَّشبيه، وأصلُ التَّرشيح في الاصطلاح: هو أن يُذكر في الكلام ما يُناسب المشبَّه به، وهو المستعار في أسلوب الاستعارة، والتَّرشيحُ وصفٌ عارضٌ للاستعارة، ولا يدخل في عناصرِها الأوَّليَّة المكوِّنة لها، وهو ليس بلازم فيها، وإنَّما رُشِّح ليقوّي الصّورة البلاغيَّة، ينظر: الحموي، خزانة الأدب، ص: 49، والزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/208.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

(3) مكي، الهداية: 3/2012.

(4) الشنقيطي، العذب النمير: 1/198.

نكتة اختيار صيغة ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ دون (سيبعثهم):

هداية الكافرين متحقِّقةٌ في كلِّ وقتٍ وحين

آثر النَّظمُ ذكرَ صيغةِ المضارعِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ دون ذكر ما يفيدُ الاسْتقبالَ كأن يُقال: (سيبعثهم)، مع أنَّه ظاهرُ الحالِ، وحقيقة المآل، فالبعثُ وإن كان مستقبَلًا لكنَّه في حكمِ الواقعِ المتحقِّق الَّذي لا رَيْب فيه، وهذا على المعنى الحقيقيِّ، أما على تفسير البعث بالهداية فتكون صيغة المضارع دالَّةً على تجدُّدِ الهدايةِ في قلوبِ الكافرين زمانًا بعد زمان، وحينًا بعدَ حين، بفعل الاستجابة لنداءِ الفطرةِ في قلوبِهم، ونداء القرآن في عقولِهم.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالة:

قـدرةُ اللـهِ على البعثِ حقيقيَّةٌ، والجزاءُ بعدَه لا مِرْية فيه

في إسنادِ الفعلِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون بنائه للمفعول - فلم يقل: (يُبعثون) - بلاغةٌ تتجلّى من وجوهٍ:

الأوَّلُ: تربيةُ المَهابةِ في النُّفوس، والثّاني: إثباتُ عقيدةِ البعثِ الَّتي كان يُنكرُها كُفّارُ قريشٍ وغيرُهم، والثّالثُ: زيادةٌ في التَّهديدِ والوعيد، والرّابعُ: بيانُ أنَّ أمر البعث الحقيقيِّ بعد الموتِ أو الهدائيِّ بأمر اللّهِ وحده، والخامسُ: الحثُّ على الإيمان، والتَّرغيبُ فيه، وبيانُ قدرةِ اللّهِ على البعث[1].

معنَى حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ ودلالته في السّياق:

الحشرُ قائمٌ لا محالةَ، بعدَ البعثِ من القبور

في هذا التَّراخي بـ ﴿ثُمَّ﴾ بين قولِه تعالى: ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾: اسْتطرادٌ تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسْماعِهم بإثباتِ الحشرِ الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ[2].

براعةُ التَّرهيبِ باسْتعمالِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ العائدِ على لفظِ الجلالة:

خوَّفَ اللّهُ تعالى من سَطَواتِه بقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إليه وحَده

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

يُرجعون، فلم يقل: (ثمَّ يُرجَعونَ)، وذلك لبيانِ أنَّ رجوعَهم إلى الذي كفروا به، ولم يستجيبوا لأمره، وإظهارَ هذا المعنى أرهبُ من تضمينه، فإنَّه تعالى قادرٌ على كلِّ ما يشاءُ منهم، لا يَخرُجُ شيءٌ من أحوالِهم عن مُرادِه أصلًا وحِسًّا بعدَ الموت، فيُساقونَ قَهْرًا إلى موقفٍ يُفصَلُ فيه بين كلِّ مظلوم وظالمه[1].

الرُّجوعُ إلى اللهِ لـلـفـصـلِ بين الـعـبـادِ، مصير لامفرّ منه

بلاغة اسْتعمالِ لفظِ الرُّجوع ﴿يُرْجَعُونَ﴾:

الرُّجوعُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ هو العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْء، سواء أكانَ بذاتِه أم بجزءٍ من أجزائه، أم بفعلٍ من أفعالِه. فالنّاسُ جميعًا يعودون إلى اللهِ بذواتِهم كاملةً، ليُجْزَوا، ويُحاسَبوا على ما قدَّموه في حياتِهمُ الدُّنيا من أقوالٍ وأعمال كما قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 48][2]، وبلاغة استعمالِ الرُّجوعِ لبيانِ أنَّ العبدَ سيرجعُ إلى موطنِه الذي أتى منه، ومكانِه الذي خُلقَ فيه، وفيه بيانُ أنَّ الجميعَ لآدم، وآدمَ من ترابٍ، فالاستجابة الطَّوعيَّةُ أنجى منَ القهريَّة.

التَّنبيه على أنَّ الرُّجوعَ للموطنِ الّـذي أتى منه الإنـسـان، قـدرٌ محتوم

نكتةُ استعمالِ المضارعِ دون المصدرِ، في ﴿يُرْجَعُونَ﴾:

أفادَ استخدامُ فعلِ المضارعِ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ - فلم يقل: (ثمَّ إليه المرجع) - الدِّلالةَ على حدوثِ الرُّجوع، كما دَلَّ على زمنِ وقوعِ الرُّجوع، فجمعَ بين أمرَيْن في قضيَّةٍ مهمَّةٍ أنكرَها الكُفّار، وهي عقيدةُ البعثِ في وقوعِه حَدَثًا وزمنًا، ولذا لم يستخدم النَّظمُ المصدرَ (الرُّجوع)؛ لأنَّه يدلُّ على عمليَّةِ الرُّجوعِ دون زمنِها الَّذي ستقعُ فيه يومَ القيامةِ بأمرِ اللهِ وقدَرِه[3].

الـرُّجـوعُ إلى اللهِ واقعٌ حَدَثًا وزَمَـنًـا، وهـو المصير في الدّنيا الغَرُور

بلاغةُ الاسْتطرادِ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ اسْتطرادًا تخلَّصَ به إلى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(3) ابن هشام، شرح شُذور الذّهب، ص: 18، 491 - 492.

أفادَ الاسْتطرادُ إثباتَ الحشرِ بعدَ البعث في المعاد

قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحشرِ الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ، فيكونُ البعثُ في قولِه: ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِه ومجازِه، وقريبٌ منه في التَّخلُّصِ قولُه تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: 73][1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الاسْتجابة والطَّاعة:

الاسْتجابةُ: هي الإجابةُ، والطَّاعةُ اتّباعُ الأمرِ، والأولى أحسنُ في السّياق وآثر

الاسْتجابةُ: هي الإجابة، وهي موافقةُ الدّاعي إلى الفعلِ من أجلِ أنَّه دعا به؛ ولذا يُقالُ: أجابَ اللهُ فُلانًا، ولا يُقالُ: أطاعَه، وهي تقعُ عن حكمةٍ ومصلحة[2].

والطّاعةُ تكونُ من الأَدْنَى إلى الأعلى؛ لأنَّها في موافقةِ الإرادةِ الواقعةِ موقعَ المسألة، والطّاعةُ إنَّما تقعُ رغبةً أَوْ رهبة[3]، وهي تكونُ للخالقِ والمخلوق.

والطّاعةُ في مجازِ اللُّغة تكونُ اتّباع المدعوِّ الدّاعي إلى ما دعاه إليه، وإنْ لم يقصدِ التَّبَع، كالإنسانِ يكونُ مطيعًا للشَّيطان، وإن لم يقصدْ أن يُطيعَه، ولكنَّه اتَّبعَ دعاءَه وإرادتَه[4].

ومن بيانِ الفرقِ بين الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ اسْتخدامَ السّياقِ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ للفعل ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ أوفرُ حظًّا وأقومُ قيلًا من الفعل (يُطيع)؛ لسببَيْن:

الأوَّلُ: تلبيةُ دعوةِ مَنْ دَعا، وهو أعلى رُتبة، وهو الخالقُ ﷻ عن قَصْدٍ في اتِّباعِ أمرِه.

والثّاني: لأنَّه صاحبُ الخَلْقِ والأمرِ والحكمةِ فيما يَدْعو إليه،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 335.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.

ولذلك أخبرَ أنَّ الَّذين يَسْتجيبون همُ الَّذين يسمعونَ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر، لا سماعَ هُروبٍ وتَذَمُّر.

الرّجوع والردّ:

الرّجوع ما يعاد وهو محبوب، والرّدّ ما يرجع وهو مكروه

تُستعمل إحدَى الكلمَتَيْن مكانَ الأُخرى، لكنّ الأصلَ في الرّجْع أن يكونَ فيما يجوزُ أن تُرجِعَه من غيرِ كراهةٍ له، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾، ولا يجوزُ أن تردَّه إلا إذا كرهتَ حالَه[1].

البعث والنّشر والإحياء والإخراج:

تدور هذه الألفاظ حول معنى الرّجوع إلى الحياة، باستقبال الآخرة وأهوالها

بعثُ الخلق اسْمٌ لإخراجهم من قُبورهم إِلَى الموقفِ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾. وأمّا النّشور فهو اسْم لظُهور المبعوثين وظُهورِ أعمارهم لِلْخَلائِق، ومِنْه قَوْلُك: نشرتُ اسْمك ونشرتُ فَضيلَة فلان، إلّا أنّه قيلَ: أنشرَ اللّه المَوْتَى بالألف، ونشرتُ الفَضيلَةَ والثَّوْبَ؛ لِلْفرقِ بَين المَعْنيين[2]. والإخراج مرادف للبعث يعني إخراجَ الموتى من قبورِهم، وإعادةَ الحياةِ إليهم، وبعثِهم مما كانوا فيه من العدمِ والتّلاشي إلى الوجودِ والإعادةِ والإحياء.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلبهم آية قد تعجّل بهلاكهم

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ فيما أخبرَه به من أقوالِهم بما شرحَ صدرَه، وسرَّ خاطرَه، وأعْلَمَه تخفيفًا عليه أنَّ أمرَهم إنَّما هو بيدِه ﷻ؛ ذكرَ بعضَ كلامِهم الآيلِ إلى التَّكذيبِ عَقِبَ إخبارِه بالبعثِ والحشرِ الَّذي يُجازي فيه كلًّا بما يفعلُ حاكيًا تعجُّبَهم الَّذي سبقَه تعجُّباتٌ فيما قالوه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: 29]، ومن قبلُ في قولِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]. وتعجُّبُهم في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ قائمٌ على المغالطةِ والعِنادِ والمكابرة، والَّذي لا يُناسبه إلّا الجوابُ الفَصْلُ المُفحِمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مُشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو: التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[2]، يُقالُ: قد تأيَّيْتُ، أي: تلبَّثتُ، وتَحبَّسْتُ[3].

والآيات: إشارةٌ إلى الأدلَّة، والمرادُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ العلامةُ الخارقةُ الَّتي تضطرُّهم إلى الإيمانِ كنزولِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبل أو غيرِها منَ الآيات[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102 - 103.
(2) الرّاغب، المفردات: (أيي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/159.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن المشركين قيلهم: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربِّه، أي: خارقٌ على مُقتضى ما كانوا يُريدون، وممَّا يتعنَّتون، كقولِهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ إلى قولهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 90 - 93] الآيات، فقلْ لهم: إنَّ اللّه تعالى قادرٌ على ذلك، ولكنَّ حكمتَه تعالى تَقْتَضي تأخيرَ ذلك؛ لأنَّه لو أنزل وفقَ ما طَلَبوا، ثمَّ لم يؤمنوا، لَعاجلَهم بالعقوبة، كما فعلَ بالأُمم السّالفة، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون أنَّ اللّه قادرٌ على ذلك، وأنَّه ترَكه لحكمةٍ بالغةٍ لا تَبْلُغُها عقولُهم(1).

لا تعارُضَ بين قُدرةِ الله وحِكْمتِه، في تأخيرِ آياته بعُقوبَةِ المُعانِدين الحمقى

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

صدرُ الآية عَطفٌ على جُملة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ [الأنعام: 35]، وهو عَوْدٌ إلى ما جاءَ في أوَّلِ السّورة من ذكرِ إعراضِهم عن آياتِ اللّهِ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤﴾ [الأنعام: 4](2).

إعراضُ المشركين عن آياتِ الله فعلٌ مُتكرِّرٌ

ذِكْرُ المفردِ ﴿ءَايَةٞ﴾ وإرادةُ الجمعِ (آيات):

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ مع أنَّهمُ اقترحوا آياتٍ مختلفةً في مجالاتٍ عديدة، ولكنَّ النَّظمَ أَجْملَها بقولِه: ﴿ءَايَةٞ﴾ اعْتمادًا على علمِها عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين، فقالَ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(3).

وكذلك فإنَّهم قالوا ذلك مع تكاثُرِ ما أُنْزِلَ من الآياتِ على رسولِ اللّهِ ﷺ لتركِهمُ الاعْتدادَ بما أُنزِلَ عليه، كأنَّه لم يَنزلْ عليه شيءٌ من الآياتِ عِنادًا منهم(4).

إفرادُ الآيةِ دليلٌ على استمرارِهم في تكذيبِ كلِّ آيةٍ نازلةٍ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشّوكاني، فتح القدير: 2/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.

ويمكنُ أن يُرادَ بالآيةِ هنا: آيةٌ واحدةٌ تكونُ ثابتةً بالتَّدريجِ لا تنقطعُ، وهذا إشارةٌ منهم إلى أنَّهم لا يَعدّونَ القرآنَ آيةً ولا شيئًا ممّا رَأَوْه منه ﷺ من غيرِ ذلك كما في انْشقاقِ القمرِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿وَقَالُواْ﴾، لا بالاسْمِ الصَّريحِ:

التَّهكُّمُ بالمشركينَ ومُقترحاتِهم، لونٌ من تبشيعِ مقالِهم

في ذكرِ القائلينَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾ دونَ الاسْمِ الصَّريحِ (المشركين) وجهانِ اثْنانِ:

الأوَّلُ: الاستهانةُ والتَّهكُّمُ بهم، وعدمُ الاعْتدادِ بأقوالِهم ومُقترحاتِهم.

الثّاني: الاكْتفاءُ بذكرِهم بالاسْمِ الصَّريحِ في آياتٍ تقدَّمتْ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الأنعام: 22].

ثمَّ جاءتِ الآياتُ تترى في بيانِ أوصافِهم منَ الكذب، وإنكارِ البعث، والظُّلم، والجُحودِ، ثمَّ جاءَ طلبُهم الآياتِ لا طمعًا في الإيمان أوْ بحثًا عن الحقِّ، وإنَّما جاء تَعْجيزًا واسْتهزاءً.

دلالة التَّحْضيضِ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

﴿لَوۡلَآ﴾ حرفُ تحضيضٍ بمعنَى: (هلّا)، والتَّحضيضُ هنا لقطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[2]، وتعجيز الرّسول ﷺ بتحدّيه تطاولٌ لا يحبّه اللّه ولا يرتضيه.

نكتةُ إيثارِ صيغةِ (نُزِّلَ) على (أُنزِل):

(نُـزِّل) أبلغُ في السّياق، من حيثُ تكرارُ النُّزولِ والتَّحدِّي

في تشديدِ الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ و﴿يُنَزِّلَ﴾ إشارةٌ إلى آيةِ القرآنِ المتكرِّرةِ عليهم كلَّ حين، تدعوهُم إلى المبارزةِ، وتتحدّاهم بالمبالغةِ والمعاجَزة، وفيه كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهم بَلَغوا في الوقاحةِ الغاية، وأنَّهم لو قالوا: لولا أُنزِلَ، أي: مرَّةً واحدة؛ لكان أخفَّ في الوقاحة، أو إلى أنَّه أَنزلَ عليهم أيَّ آيةٍ، كانتْ تُلجئُهم وتَضْطرُّهم إليه في آنٍ واحد، كما قالَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.

تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ [الشُّعراء: 4]، ولكنَّه لا يسألُ ذلكَ إلّا بالتَّدريج، كما تُشيرُ إليه صيغةُ التفعيل، بأنَّ آيةَ القرآن لا تَنقضي؛ بل كلَّما سَمِعَها أحدٌ منهم أو من غيرِهم طولَ الدَّهرِ كانت مُنزَّلةً عليه؛ لكونِها واصلةً إليه، فهو أبلغُ من مطلوبِهم آيةً تُنزَّلُ عليه وحدَه[1]، وفي إيثار هذه الصّيغةِ دليلٌ على أنَّ المقصودَ بالآية الجمعُ لا الإفرادُ.

سببُ تذكير الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ دون تأنيثه:

ذُكِّرَ الفعلُ ﴿نُزِّلَ﴾ مع أنَّ الفاعلَ ﴿ءَايَةٌ﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّ تأنيثَ ﴿ءَايَةٌ﴾ غيرُ حقيقيٍّ، وحَسُنَ للفَصل، فاجتمعَ مُسَوِّغانِ لتجريدِ الفعلِ من علامةِ التَّأنيث، فإنَّ الفصلَ وحدَه مُسوِّغٌ لتجريدِ الفعل منَ العلامة[2].

دَلالةُ استعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِ﴾:

أفادَ النَّظمُ أنَّ الآيـةَ المطلوبَ إنزالُها عُلويَّةٌ سمائيَّة

اقْترانُ الآيةِ بالتَّنزيلِ مع العُلْويَّةِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ دليلٌ قويٌّ على أنَّ المرادَ بالآية هنا ما هو منَ الخوارق الموجِبَةِ لهلاكهم، كإنزالِ ملائكةِ العذاب، أو نارٍ مُحْرِقةٍ منَ السَّماء، أَوْ حجارةٍ من سِجّيلٍ تجعلُهم كَعصْفٍ مأكول، أَوْ سَنا برقٍ يذهبُ بالأبْصار، أو نحوِ ذلك ممّا ينزِلُ من عُلوٍ إلى سُفْلٍ[3].

نكتةُ إيثارِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

تهكُّمُ المشركين مـآلُـه الاعـترافُ بالحقِّ

استُعمل ﴿عَلَيۡهِ﴾ دون (إليه)، مع أنَّ الظّاهر استعمالُ حرف انتهاء الغايةِ، ذلك أنَّه استُعمل حرفُ ابتداء الغايةِ: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهي تفيدُ ابْتداءَ غايةِ الإنْزال، أي: الإنزالُ من اللّٰه تعالى، والابتداءُ له انتهاءٌ، لكنه عدلَ عن ذلك باستعمال حرف الاستعلاء، ونكتةُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103 - 104.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

ذلك التَّعرُّضُ لعنوانِ رُبوبيَّتِه تعالى المُشعِرِ بالعِلِّيَّةِ[1]، وأنَّ القومَ اعترفوا ضِمنًا بأنَّ الإنزالَ فيه تشريفٌ لمن نزل عليه الحقُّ، أو أنَّهم يذكرون ذلك من قَبيل التَّعريض بالنَّبيِّ ﷺ - أي: فيما يزعمُ - فيكونُ تهكُّمًا من جهتِهم، وغايةَ الوقاحةِ في ازْدرائهم.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على نائبِ الفاعل:

قصر الإنزال عليه ﷺ دون غيره

في قولِه تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ﴾ تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَةٌ﴾ والأصلُ تأخُّرُه، وذلك بقصدِ قَصْرِ الإنزالِ عليه خاصَّةً لا على غيرِه[2].

سرُّ تأخيرِ قَيْدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

الإشعارُ بالنُّكوصِ عن الإيمانِ بها سَلفًا، لكونه طبعا فيهم

في تأخيرِ قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إشعارٌ بالمحسنِ إليه ﷺ على حسب ما يدَّعيه، أي: لِنستدِلَّ بها على ما يقولُ من التَّوحيدِ والبعث، وفي ذلكَ أيضا تَهكُّمٌ من المشركين، وإعلانٌ مقدَّمٌ عن عدمِ إيمانِهم، ولو جاءَ بتلك الآية[3].

إيثارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الأُلوهيَّة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

إنزالُ الآياتِ من مقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالَّةِ على القدرة والحكمةِ

آثر النَّظمُ ذكر الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لسببَيْن اثْنَيْن:

الأوَّلُ: إيمانُ المشركينَ بتوحيد الرُّبوبيَّةِ دون توحيدِ الأُلوهيَّة، فهم يُعْنَوْن بما يؤمنون، ولو قالوا: (مِنَ اللّهِ)؛ لأشعر ذلك بإيمانِهم باللّه تعالى.

الثَّاني: إنزالُ الآياتِ لتحقيقِ مصالحِ العباد، وهي جَلْبُ المنافعِ ودَفْعُ المضارِّ، وخاصَّةً في قضيَّة الإيمان وهذه من معاني الرُّبوبيَّة، وهم فيما يزعمون أنَّهم إن أُنزلتْ هذه الآيةُ الَّتي يطلبون؛ فسيؤمنون، وإن كانوا في واقع الحال مُتهكِّمين كاذبين.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.

دلالةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضميرِ النَّبيِّ ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

إنكار المشركين دائمًا لرسالة النّبيّ ﷺ

في إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ النَّبي ﷺ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تعريضٌ بتهكُّمِهم به ﷺ[1]، أي: إنْ كنتَ يا محمَّدُ ﷺ مُرسَلًا من ربِّك؛ فأثبتْ ذلك بنزولِ آيةٍ عليكَ ممَّن تدَّعي أنَّك رسولُه إلينا.

بلاغةُ فصلِ جملةِ المقاوَلة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

حذف العاطفِ أسلوبٌ قرآنيٌّ في حكايةِ المحاورات

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ الفصلَ هو استعمالٌ عربيٌّ، وهي عادةُ القرآنِ، ويصرِّح بأنَّه غيرُ مسبوقٍ إلى هذا الكشفِ في هذا الأسلوبِ القرآنيِّ الفريدِ، حيث وجَّه الفصلَ بقولِه: "فَصَلَ الجَوابَ، ولَمْ يَعْطِفْ بالفاءِ أَوِ الواوِ جَرْيًا بِهِ عَلَى طَريقَةٍ مُتَّبَعَةٍ في القُرْآنِ في حِكايَةِ المُحاوَراتِ، وهيَ طَريقَةٌ عَرَبِيَّةٌ قالَ زُهَيْرٌ:

قيلَ لَهُمْ أَلا ارْكَبوا أَلا تا*** قالوا جَميعًا كُلُّهُمْ ألافا

أَيْ: فارْكَبوا، ولَمْ يَقُلْ: فَقالوا، وقالَ رُؤْبَةُ بْنُ العَجّاجِ:

قالَتْ بَناتُ العَمِّ يا سَلْمَى وإنْ*** كانَ فَقيرًا مُعْدِمًا قالَتْ وإنْ

وَإنَّما حَذَفوا العاطِفَ في أَمْثالِهِ كَراهِيَةَ تَكْريرِ العاطِفِ بِتَكْريرِ أَفْعالِ القَوْلِ؛ فَإنَّ المُحاوَرَةَ تَقْتَضي الإعادَةَ في الغالِبِ، فَطَرَدوا البابَ، فَحَذَفوا العاطِفَ في الجَميعِ، وهوَ كَثيرٌ في التَّنْزيلِ، ورُبَّما عَطَفوا ذَلِكَ بالفاءِ لِنُكْتَةٍ تَقْتَضي مُخالَفَةَ الاسْتِعْمالِ، وإنْ كانَ العَطْفُ بالفاءِ هوَ الظّاهِرَ والأَصْلَ، وهَذا مِمّا لَمْ أُسْبَقْ إلَى كَشْفِهِ مِنْ أَساليبِ الاسْتِعْمالِ العَرَبِيِّ"[2].

غرضُ توكيدِ جملةِ مَقولِ القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾:

التَّوكيدُ بأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى في الإنفاذِ، مَنوطةٌ بالحِكمة

في الاقْتصارِ في الجوابِ على بيانِ قُدرتِه تعالى على تنزيلِ الآيةِ مع أنَّها ليست في حيِّزِ الإنكارِ - فهم لا يُنكِرون أنَّ اللهَ قادرٌ؛ ولذلك سألوا الآيةَ - للإيذانِ بأنَّ عدمَ تنزيلِه إيّاها مع قدرتِه عليها لحكمةٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

بالغةٍ يجبُ معرفتُها، وهم عنها غافلون، كما يُنبئُ عنه الاسْتدراكُ القادمُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

بلاغةُ العدولِ عن (ربِّي) إلى لفظِ الجَلالَة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّعريفُ بصاحبِ الرُّبوبيَّة الحقَّة سُبحَانَهُ وَتَعَالَى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ عدولٌ عن الرُّبوبيَّة في (ربّي) إلى الألوهيَّة، وفي ذلك بلاغةٌ جليلةٌ فائقةٌ وهي أنَّ إظْهارَ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتربيةِ المهابةِ في النُّفوسِ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ القُدرةِ الباهرةِ من اللهِ المعبودِ بحقٍّ، لا معبودَ بحقٍّ سواه[2]، وتعليمِ المخاطبين بأنَّ ربي - الذي تُنكرون وحدانيتَه على الوجه الحقِّ هو الله تعالى - قادرٌ على ما طلبتُم.

سرُّ اسْتعمالِ حرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

الإشارةُ إلى إنزالِ العقوبةِ بالمشركين إنْ لم يؤمنوا

ذُكِرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ حرفُ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ متوسِّطًا بين القُدرةِ وإنْزالِ آية؛ إشارةً إلى المشركينَ أنَّ الله قادرٌ على إنزالِ العقوبةِ بهم كذلك؛ إنْ لم يؤمنوا، وخاصَّةً؛ إذا كانتِ الآيةُ تضطرُّهم إلى الإيمان، كنَتْقِ الجبلِ على بني إسرائيلَ الَّذين نَكثوا عَهْدَ إيمانهم، وجَحَدوا بآيات ربِّهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ عن الإنْزالِ بأنْ والفعلِ المضارعِ دونَ المصدر:

التّلويحُ بالعقوبةِ النّافذةِ بالمشركين، صدق في وعيد المكذّبين

وردَ الفعلُ المضارعُ ﴿يُنَزِّلَ﴾ بعدَ ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، دون التَّعبيرِ بالمصدَرِ (إنزال) بدلَ المضارع، والسِّرُّ في هذا التَّعبيرِ: هو أنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على أمرَيْن: الأوَّل: حدوثُ الإنزال، والثّاني: زمنُ وقوعِ الإنزال، وهو ما لا يدُلُّ عليه المصدرُ (إنزال)؛ إذ يتحقَّقُ فيه الحدوثُ دونَ زمنِه[4]، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الآيةِ قد يقعُ في أيِّ وقتٍ، فهو تلويحٌ بالعقوبةِ النافذة.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.

(4) ابن هشام، شرح شذور الذَّهب، ص: 18، 491 - 492.

فائدةُ تكرارِ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ وتنكيرِها:

الآيةُ الثّانيةُ عَيْنُ الأولى، وفيه إبطالُ القولِ بالتَّغايُرِ

إعادةُ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ بالتَّنكير في قولِه: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من بابِ إعادةِ النَّكِرَةِ نكِرَةً، وهي عَيْنُ الأولى، وهذا يُبطِلُ القاعدةَ المُتداولَةَ بين المُعربين: من أنَّ اللَّفظَ المُنكَّرَ إذا أُعيدَ في الكلام مُنكَّرًا؛ كان الثّاني غيرَ الأوَّل، ومثالُ إعادةِ النَّكرةِ نكرَةً - وهي عَيْنُ الأولى لا غيرُها - قولُه تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرّوم: 54][1]. و﴿ضَعْفٍ﴾ الثّانية هي عَيْنُ الأولى.

فالآيةُ الأولى الَّتي طلبَها المشركون هي عَيْنُ الثّانيةِ الَّتي أكَّدَ النَّظمُ قدرةَ اللّهِ على إنزالِها، وإلّا لَما كانَ لوجهِ إعادةِ ﴿ءَايَةٌ﴾ مُحاطةً بالقُدرةِ على الإنْزالِ أيُّ فائدة[2].

غرضُ عطفِ جملةِ الاسْتدراكِ على مقولِ القَوْل:

الجمعُ بين قدرةِ الله تعالى ورحمتِه بعبادِه

الغرضُ من عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على جملةِ مقولِ القولِ، الجمعُ بين قدرةِ اللّه تعالى ورحمته، فالمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً من ذلك، أو آيةً أيَّ آية، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون، فلا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِها مع ظهورِ قدرتِه تعالى عليها لِما أنَّ في تنزيلِها قَلْعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاخْتيار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكُلّيَّةِ، فيقترحونَها جَهْلًا، ويَتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3]، ففيه تنبيهٌ لهم على أنَّ عدمَ إجابتِهم فيه فائدةٌ لهم ورحمةٌ بهم، وهو اسْتبقاؤهم، فيحسَبونَ أنَّ عدمَ إجابتِهم إلى مُقترحِهم يدلُّ على عدَمِ صدقِ الرَّسولِ ﷺ وذلكَ من ظُلمةِ عقولِهم، فلقدْ جاءهم من الآياتِ ما فيه مُزْدَجَر[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/212 - 213.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب: 2/656.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.

بعض المشركين يعلمون الحقَّ، وهم ما بين مكابرٍ ومستعدٍّ للهداية

دَلالةُ التَّعبير بلفظ (أكثر) في السّياق:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءَ تخصيصُ عدمِ العلمِ بأكثرِهم لما أنَّ بعضَهم واقفونَ على حقيقةِ الحال، وإنَّما يُظهرون خلافَه مكابرةً وعنادًا[1]، ومنهم من عنده استعدادٌ للهداية فهي من قبيل تثبيت دعائم الهدايةِ في قلوب بعض المشركين، ممَّن أراد اللّه هدايتَه.

الرَّبطُ بين فاصلةِ الآيةِ وصدرِها، بالإشارةِ إلى فريقٍ واحد منَ المشركين

دلالةُ إضافةِ (أكثر) إلى الضَّميرِ دونَ الاسْمِ الظَّاهر:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أتى لفظُ (أكثر) مضافًا إلى الضَّمير (هم)، فلم يَقُلْ: (أكثرَ المشركين)؛ لأنَّ الَّذين طلبوا الآيةَ فريقٌ خاصٌّ منَ المشركين، وهمُ الَّذينَ أشارَ إليهم النَّظمُ في صَدْرِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾، وهم أصحابُ المُقْتَرَحات، وطلبِ الخوارقِ والمعجزاتِ، ولكنَّ اللّه مع قدرته على ما يَطلُبون، فإنَّ الحكمةَ تقتضي عدمَ إنزالِها[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين كانوا على درجاتٍ في العداوةِ والتَّصدّي لدينِ اللّه تعالى.

ولم يقلْ كذلك: (ولكن أكثر النّاس لا يعلمون)، ولو قال ذلك؛ لكان انتقالًا منَ الحديثِ الخاصِّ عن المشركين، إلى عمومِ النّاس، وهذا ما لم تُرِدْه الآيةُ الكريمةُ.

أكثرُ المشركين لا يَعلَمون، ومن جهل شيئًا عاداه

نكتةُ نفيِ العلمِ دونَ الإيمان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ قولِه: لا يؤمنون؛ لأنَّ الجميعَ في واقعِ الحالِ مشركون لا يؤمنون، فهم بعيدونَ عنِ الإيمانِ بالكُلّيَّة، ولكنَّ الَّذين لا يعلمونَ فريقٌ منهم، أي: لا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِ الآيةِ مع ظهورِ قدرته تعالى إنَّما هو دليلٌ عليهم لا لهم، وحُجَّةٌ عليهم بأنَّهم يتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

نكتةُ إيثارِ النَّفيِ على الإثباتِ، في قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

نفيُ العلمِ عن المشركين، إشارةٌ إلى اللُّطفِ بهم من ربّ العالمين

آثَرَ النَّظمُ نفيَ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على إثباتِ الجهلِ في حقِّهم، فلم يقلْ: (يَجهلونَ)، وعدمُ العلمِ هو جهلٌ، وذلك لما في نفيِ العلمِ دون إثباتِ الجهلِ منَ التَّلطُّفِ بالمخاطَبِ؛ استدراجًا للإيمانِ، وحثًّا له على الإقبالِ، ولما فيه من إثباتِ العلمِ للمؤمنين بصريحِ اللَّفظِ المنفيِّ عنِ المشركين.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

جهلهم يُطبق على جميع نواحي المعرفة

حُذفَ المفعولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهو إمّا مطروحٌ بالكُلّيَّة، لا وجودَ له أساسًا، أو هو مُقدَّر، أي: لا يعلمونَ شيئًا، فهو محذوف مدلولٌ عليه بقرينةِ المَقام، والمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنَزِّلَ آيةً من ذلك، أَوْ آيةً أيَّ آيةٍ، وعلى عدمِ تنزيلِها، لما أنّ في تنزيلها قلعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاخْتبار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكلّيَّة، فيقترحونَها جهلًا[1].

ويمكنُ أن يكونَ غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الإشارةَ إلى زعْمِهم أنَّ عدمَ إجابتِهم لما اقْترحوه علامةٌ على أنَّ اللّه لم يُصدِّقِ الرَّسولَ ﷺ في دَعْوى الرِّسالة، فهم في هذه الحالِ لا يعلمونَ وجهَ الارْتباط بين دَلالة الآيةِ ومَدْلولِها، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ فيهم من يعلمُ ذلكَ، ولكنَّه يكابرُ، ويُظهرُ أنَّه لا يتمُّ عنده الاسْتدلالُ إلّا على نحوِ ما اقْترحوه[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةِ والسُّلطانِ والبُرهانِ:

الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مشتقَّةٌ منَ التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[3]، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يُتسلَّطُ به على نقيضِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/211 - 212.

(3) الرّاغب، المفردات: (أي)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).

المعنَى بالإبطال، والبُرهان: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه[1]. وبهذا يتبيَّن أنَّ السُّلطانَ والبُرهانَ متقاربان.

الآيةُ علامة ظاهرة، والسُّلطانُ هيمنة بنقيض المعنى، والبُرهان إبطال نقيضه

وأمّا الآية؛ ففيها زيادةُ معنًى: وهو ظُهورُ العلامةِ الفارقة، والتَّثبُّتُ منَ الشَّيءِ والإقامةُ عليه، وهذا ما طلبَه المشركون من إنزالِ علامةٍ ظاهرةٍ يَرَوْنَها كإنزالِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبلِ أو غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ الَّتي اقْترحوها، كما وردَ في آياتٍ عديدة.

العلم والفقه:

الكافر بعيد عن مُدْرَكاتِ العُلومِ فضلًا عن فقْهِهَا

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو به على سبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بعدَ لَبْسٍ أوْ لا.

وهو يُحقِّقُ المعلومَ، ويتناولُ الموجودَ والمعدوم، فالعلمُ يقعُ بالمعدومِ، ولا يُدرِكُ إلّا الموجود.

والعلمُ لا يُضافُ إلى ما عندَ أحدٍ إذا كان المعلومُ في نفسِه على علم، وسُمّيَ علمُنا: يقينًا؛ لأنَّ في وجودِه ارتفاعَ الشَّكِّ.

والعالِمُ بالشَّيءِ على ما هو به كالعاقدِ المُحكِم لما عَقَدَه، ومثلُ ذلك تسميتُهم العلمَ بالشَّيءِ حفظًا له. وحقيقةُ العالِمِ هو مَنْ يَصحُّ منه فعلُ ما علمَه مُتيقِّنًا؛ إذا كان قادرًا عليه[2].

وأمّا الفقهُ: فهو العلمُ بمقتضى الكلامِ على تأمُّلِه، ولهذا لا يُقالُ: إنَّ اللّه يَفْقه؛ لأنَّه لا يوصفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمن تخاطبُه: تفقَّهْ ما أقولُه، أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعمَلُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٣﴾ [الكهف: 93].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 108، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 35، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 34.

(2) الفروق اللّغوية، ص: 57، 343، 373، 374، وأبو القاسم الحسينّي، الكلّيّات: 3/204، 4/296، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 160.

وسُمّيَ علمُ الشَّرْع: فقهًا، والعالمُ به فقيهًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على معرفة كلامِ اللّهِ تعالى وكلام رسولِه ﷺ[1].

ولذلك كلِّه نفتِ الآيةُ عن المشركينَ العلمَ؛ لأنَّه لا يوجد عندَهم اعْتقادٌ صحيحٌ عنِ اللّه ورسوله، ومن ثَمّ فَهُمْ أبعدُ عنِ الفقهِ والتَّأمُّل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 412، 313، وابن منظور، لسان العرب: (فَقِهَ).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الله تعالى ربّ كلّ دابّة، وهي راجعة إليه بأمره، فأيَّ آية يطلبون؟

لمّا طلبَ المشركون آيةً على صدقِ رسولِ اللّه ﷺ فيما جاءَ عن ربِّه، ذكر اللّه تعالى لهم في هذه الآيةِ آياتٍ عظيمةً ممّا يرون منَ الأممِ؛ فكلُّ أمَّة هي آيةٌ قائمةٌ بذاتِها، ولمّا قَدَّمَ اللّهُ جل شأنه أنَّ الكُفّارَ يَرجعونَ إليه، ويُحْشرون؛ بيَّنَ بعدَه أنَّ الدَّوابَّ والطَّيرَ أممٌ أمثالُهم في أنَّهم يُحشرون، والمقصودُ بيانُ أنَّ الحشرَ والبعثَ كما هو حاصلٌ في النّاسِ حاصلٌ في البهائم، فيناسبُ أنْ تكون جملةُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطفًا على جملة: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ المشركينَ يُنكرونَ البعثَ، ويجعلونَ إخبارَ الرَّسولِ ﷺ به من أسبابِ تُهمتِه فيما جاءَ به، فلمّا توعَّدهمُ اللّهُ بالآيةِ السّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجعونَ؛ زادَ فسجَّل عليهم جَهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أَعجبُ ممّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحَشْرَ ليس يختصُّ بالبَشَر، بل يَعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدَّوابِّ والطَّيْر، وذلك يقتضي لا مَحالةَ أن يُقتصَّ لها، فقد تكونُ حكمةُ حَشْرِها تابعةً لإلقاءِ الأرض وما فيها، وإعادةِ أجزاءِ الحيوان(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٖ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خَفيف، ويُستعملُ ذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/215.

في الحيوان، وفي الحشراتِ أكثر، ويُستعمَلُ في كلِّ حيوان، وإنِ اخْتصَّتْ في التَّعارفِ بالفَرَس، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النّور: 45][1].

وعنَى بدابَّةٍ - في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45] - الإنسانَ خاصَّةً[2].

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عنَى بقوله: ﴿دَآبَّةٍ﴾: عمومَ من يَدِبُّ على الأرضِ منَ الإنسانِ والحشراتِ والحيوان[3].

2) ﴿أُمَمٌ﴾: أمَمٌ: جمعُ أُمَّة، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أوْ زمانٌ واحد، أوْ مكانٌ واحد، سواءٌ أكانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اخْتيارًا[4].

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، أي: كلُّ نوعٍ من الأحياء على طريقٍ قد سخَّرها اللّهُ عليها بالطَّبْع[5]، فالنّاسُ أُمَّة، والطَّيْرُ أُمَّة، والسِّباع أُمَّة، والدَّوابُّ أُمَّة[6].

3) ﴿فَرَّطْنَا﴾: فَرطَ: الفاءُ والرّاءُ والطّاءُ أصلٌ صحيح يدلُّ على إزالة شيءٍ من مكانِه وتَنْحيَتِه عنه، يُقالُ: فَرَّطْتُ عنه ما كرِهَه، أي: نَحَّيْتُه، فهذا هو الأَصلُ، ثمَّ يقالُ: أَفْرَطَ، إذا تجاوز الحدَّ في الأمر. يقولون: إيّاكَ والفَرَطَ، أي: لا تُجاوِزِ القَدْر، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه إذا جاوزَ القدرَ فقد أزالَ الشّيءَ عن جهتِه.

وكذلك التَّفريطُ، وهو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه؛ فقد قَعدَ به عن رُتْبَتِه الَّتي هي له. وفَرَّط في الأمرِ قصَّر فيه وضيَّعَه حتَّى فاتَ[7]، وقولُه في الآية: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أي: ما أَغْفَلْنا عنه، ولا ضَيَّعْنا[8].

4) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: كَتَبَ: الكافُ والتّاءُ والباءُ: أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على جَمْعِ شيءٍ إلى شيء، من ذلكَ الكتابُ والكتابةُ، يُقالُ: كتبتُ الكتاب أكتُبُه كَتْبًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (دب).
(2) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: 2/156: "ومجازُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ هنا: الإنسان".
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 210.
(4) الرّاغب، المفردات: (أمّ)، والفيروزآبادي، القاموس: (أَمَمَ).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(6) تفسير عبد الرَّزاق: 2/208، والطَّبري، جامع البيان: 7/188.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/490، والرّازي، مختار الصّحاح: (فَرَطَ).
(8) الشّوكاني، فتح القدير: 2/160.

ومنَ الباب: الكتابُ: وهو الفَرْضُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ويُقالُ للحُكْم: الكتابُ، قالَ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البيّنة: 3]، أي: أحكامٌ مستقيمةٌ، ويُقالُ للقدَرِ: الكتابُ[1]، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الآية: اللَّوح المحفوظ[2]، وقيل: إنَّ المراد به القرآنُ[3].

5) ﴿يُحۡشَرُونَ﴾: الحَشْرُ: إخْراجُ الجماعةِ من مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونَحْوِها.

ويُقالُ ذلكَ في الإنسانِ وفي غيرِه، يُقالُ: حَشَرَتِ السَّنةُ مالَ بني فلان، أي: أزالتْه عنهم، ولا يُقالُ الحشرُ إلّا في الجماعة، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التَّكوير: 5]، وقالَ في وصفِ القيام: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 47]، وسُمّيَ يومُ القيامة: يومَ الحشر، كما سُمّيَ: يومَ البعثِ والنَّشرِ[4]، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ هو من هذا القَبيل في حشرِ الأمم وجمعِها بعدَ بعثِهم من قبورِهم[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كـلّ الـدّوابّ والمخلوقات بأمر الله تسعى، وإليه يوم القيامة الرّجعى

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمة أنَّ جميعَ الحيواناتِ من البهائم والوحوشِ والطُّيور، كلُّها أُمَمٌ أمثالُ بني آدم، خلقَها اللّه جلّ شأنه كما خلقَ غيرَها، ورزقَها كما رزقَ غيرَها، ومشيئةُ اللّه وقدرتُه نافذةٌ فيهم، كما هي في البشر، ما أَهملَ ولا أَغفلَ ﷻ في اللَّوحِ المحفوظِ شيئًا من الأشياء، فكلُّ شيءٍ مُثبَتٌ فيه، وجميعُ الأُمَم تُجمَعُ، وتُحشَرُ إلى اللّهِ تعالى في موقفِ القيامة العسير، فيجازيهم بعدلِه وإحسانِه[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/158 - 159، والرّازي، مختار الصّحاح: (كَتَبَ).
(2) وهو اختيار الطَّبري في جامع البيان: 7/188، والبغوي في معالم التنزيل: 3/142.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/160، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 210.
(4) الرّاغب، المفردات: (حشر)، والفيروزآبادي، القاموس: (حَشَرَ).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/123، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/161.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122 - 123، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 210.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الواو) في مطلع الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أفادتِ الواوُ الاستئنافَ المَسوقَ لبيانِ كمالِ قُدرتِه ﷻ، وشمولِ علمِه وسَعةِ تدبيره؛ ليكونَ كالدَّليل على أنَّه تعالى قادرٌ على تنزيلِ الآية، ولكنَّهُ سبحانه لا يُنزلُها محافظةً على الحِكمةِ البالغة، ولَمَّا توعَّدهم بالآيةِ السّابقة بأنَّهم إليه يُرجَعون؛ أعلَمَهم بهذه الآيةِ شدَّةَ جهلِهم، حيث إنَّ الحشرَ لا يختصُّ بالبشر، بل يعمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ منَ الدَّوابِّ والطَّير.

أفادَ الاسْتئنافُ بيانَ سَعَةِ علمِ اللهِ، وكمالِ قُدرتِه

دَلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾:

جاءتْ ﴿مِن﴾ هنا في موقعِها لتأكيدِ الاسْتغراق، أي: استغراقِ الدّابةِ والطّائر؛ ولذلك قالَ بعدَها: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾[1].

شمولُ الحشْرِ جميعَ الخلْقِ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دَآبَّةٍ﴾:

كلمةُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ تفيدُ العموم، فهي أوسعُ في دَلالتِها وشمولِها من غيرِها منَ الألفاظ، فكلُّ ما يدِبُّ في الأرض، وينتقلُ برِجْلٍ وغيرِ رِجْلٍ[2]، حيوانًا كان أو طيرًا لا يطير بجناحيه كالبطريق أو دوابّ البحر؛ فإنَّه يدخلُ تحت لفظ دابَّة، فاختيارُ هذا اللَّفظِ سيق ليعمَّ كلَّ ما يتحرَّكُ على هذه الأرض، إلّا ما استُثني بدلالة السّياق، وهو الإنسانُ ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾.

أدقُّ تعبيرًا عن المعنى، لعمومِه وشمولِه

فائدةُ تعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمحذوف:

في تعلّقِ الجارِّ والمجرور بمحذوفٍ صفةٍ لدابَّة إفادةُ زيادةِ التَّعميم والإحاطة، كأنَّه قيل: وما فردٌ من أفرادِ الدَّوابِّ يَستقرُّ في قُطْرٍ من أقطارِ الأرض[3]، إلا هو ضمْنَ أمَّةٍ منَ الأمم كما أنَّ

استقرارُ الأممِ في الأرض، مبنيٌّ على السّنن الإلهيّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/105، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/105.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

البشر أمّةٌ، فذكرُ الأرض لبيان الاستقرار فيها، والحياةِ ضمْنَ نواميسها وسننها التي جعلها اللّه تعالى حاكمةً لشؤون الخلق، ولولا تلك السّنَنُ الكونيّةُ؛ لما استقرَّتْ في الأرض أمّةٌ منَ الأمم؛ ففي هذا القيدِ امتنانٌ ضمنيٌّ.

دَلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ على الاسْتغراقِ:

العـمـوم هنا، يدخلُ فيه البَرُّ والـبـحـرُ، وما ظهر وما بطَن من الأرض

جيء بحرف الظَّرفيَّة (في) دون حرف الاستعلاء (على)، وهو ما يقتضيه الظّاهرُ؛ فإنَّ الدَّبيبَ يكونُ على الأرض لا فيها؛ لإفادة العموم والشُّمول، فإنَّ حرفَ الظَّرفيّة يشتملُ على البرّ والبحر، وما يدِبُّ على التُّراب وما تحت التُّراب، ولو قال: على الأرض؛ لفُهِم أنَّ المرادَ السّطحُ الترابيُّ فقط، والمقصودُ أعمُّ من ذلك، ممّا يراه الإنسانُ وما لا يراه، وفي ذلكَ غرضٌ جليلٌ، وهو الدَّلالةُ على عِظَم قُدرتِه تعالى ولُطفِ علمِه وسَعَةِ سُلطانِه، وتدبيرِه تلك الخلائقَ المتفاوتةَ الأجناسِ المتكاثرةَ الأصنافِ، وهو حافظٌ لما لها وما عليها، مُهيمنٌ على أحوالِها لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ[1].

بلاغةُ عطفِ الخاصّ على العامّ:

عنصر الانتقال في الـدَّوابّ والطّيور، لبيان أنَّهم أممٌ كالبشر

عدَّ بعضُ أهل العلم العطفَ في قوله تعالى ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من قَبيلِ ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لأنَّ الدابَّةَ تشملُ كلَّ ما دبَّ من طائرٍ وغيرِه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾... ﴿وَجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: 98] ويرى السّمينُ الحلبيُّ أنَّ المقابلة تنفي دخولَ الطّائر تحت اسمِ الدّابة[2]، وهو صحيحٌ في كونه طائرًا يطيرُ بجناحيه، وبلاغةُ العطفِ تظهرُ في ذكرِ كلِّ ما يراه الإنسانُ في البرّ والبحر والسّماء في حالة الانتقال؛ فإنَّ العبرةَ في الدّوابّ انتقالُها، وكذلك الطّيرُ الذي ينتقل بالطَّيران، وهو الأنسبُ بكونِهم أممًا، أي: ينتقلون ضمْنَ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/17.
(2) الدُّرّ المصون: 4/611.

قوانينَ كونيَّةٍ ثابتةٍ، كما أنَّ البشرَ ينتقلون في حياتهم ضمْنَ القوانينِ التي وضعَها اللّه لهم، فالدّوابُّ والطيور أممٌ كالبشر.

سرُّ الاختلافِ بين النّفي بـ (ما)، والنّفي بـ (لا):

إفـادة العموم وتأكيد النّفي

اختلف التّعبيرُ بالنَّفي عنِ الجُملتين: ففي الأولى: جيء بـ ﴿وَمَا﴾ التي تدلُّ على النَّفيِ والعُموم، وهو ما يتناسبُ مع دخول ﴿مِن﴾، وعموم مفردةِ ﴿دَآبَّةٍ﴾، بينما في الجملة الثّانية جيءَ بحرف ﴿وَلَا﴾؛ ليُفيد تأكيدَ النَّفي، إذ هو المقصودُ، وليس المقصودُ الاستغراقَ، فالجملة خاصّةٌ بالطّائر الّذي فيه خاصيّةُ الطَّير بجناحيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسْمِ الفاعل ﴿طَٰٓئِرٖ﴾ دونَ (طَيْر):

الـطّـيرُ اسـمٌ لجنس الطّيور، بـيـنـمـا لـفـظ (طـائـر) وصـفٌ لـلـطّـير حين طيرانِه

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿طَٰٓئِرٖ﴾ دونَ طَيْر؛ لأنَّ طائرًا - وهو اسمُ فاعلٍ - يوصف به الطَّيرُ حين قيامه بالطَّيران، ولو قال: (ولا طَير)؛ لدخل كلُّ ما يدخلُ تحت اسم الطيوريّات ما طار منها، وما لم يطِرْ، فأتى باسم الفاعل ليقتصرَ على الطّيور التي تطيرُ بجناحَيها، دون التي لا تطيرُ، فيكون قيدُ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من باب التَّوكيد، وهو المناسبُ في هذا السّياق، فيدخلُ في مفهوم دابّةٍ الطّيرُ الذي لا يطير، وهو بخلاف قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النّور: 41] إذِ الطَّيرُ ذُكر في سياقٍ لم يقترن بالمقابل، وهو الدّابةُ، فيكون قولُه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النّور: 41] مفيدًا للتَّخصيص.

بلاغةُ الاحْتباكِ بين جُملتي ﴿دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾:

دلُّ نـظـمُ الجملتَيْن على الإيـجـاز، بما يُنبئُ عنِ الأظْهَرِ منَ المعاني

تقديرُ الاحْتباك[1] في الآية كالآتي: (وما من دابّةٍ تَدِبُّ في الأرض، ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيْه في السَّماء)، فحذف من الأولى: (تدبُّ) ومن الثّانية: (في السماء)، وبلاغةُ الاحتباك تظهر في اختصار الألفاظ والإيماء إلى المعاني الكثيرة.

---

(1) الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيُحذَف من كلِّ واحد منهما مقابلُه لدَلالة الآخر عليه، ينظر: الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/129، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 25.

وهذا احْتجاجٌ بالأَظْهرِ فتخصيصُ ما في الأرضِ بالذِّكرِ دالٌّ على أنَّ الدَّبيبَ يكونُ بالأقدام وما يقوم مقامها، وفعلُ (يطيرُ) لا يكون إلّا في السَّماء[1].

نكتةُ تأكيدِ الطّيران، بقوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾:

إفادة السّياق بالتّوكيد معنى الشُّمولِ والإحاطةِ

في وصفِ طائرٍ بقولِه تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قصدُ الشُّمولِ والإحاطة؛ لأنَّه وصفٌ آيلٌ إلى معنَى التَّوكيد؛ لأنَّ مُفادَ (يطيرُ بجناحَيْه) أنَّه طائرٌ، كأنَّه قيل: ولا طائرٌ ولا طائرٌ، والتَّوكيدُ هنا: يؤكِّدُ معنَى الشُّمولِ الّذي دلَّتْ عليه ﴿مِن﴾ الزّائدةُ في سياقِ النَّفْي، فحصَلَ من هذَيْن الوصفَيْن تقريرُ معنَى الشُّمولِ الحاصلِ من نفي اسمَي الجِنْسَيْن، ونكتةُ التَّوكيد: أنَّ الخبرَ لغرابتِه عندَهم وكونِه مَظِنَّةَ إنكارِهم أنَّه حقيقٌ بأنْ يُؤكَّد[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَطِيرُ﴾، دون (يُحلِّقُ):

لفظُ (يطيرُ) أعمُّ الألفاظ الدَّالة على استيعاب بقيَّةِ المعاني

دلَّتْ صيغةُ الفعلِ ﴿يَطِيرُ﴾ على لطيفةٍ بلاغيَّةٍ، وهي لفتُ الانْتباهِ إلى أنَّ المقصودَ هو بيانُ وظيفةِ الطَّيرانِ باعتبارِها العامِّ لا بالاعْتبارِ الخاصّ، فيدخُلُ التَّحليقُ والانْتقالُ والصَّيدُ ونحوُ ذلك، فالغرضُ هو اشْتمالُ عمومِ الأغراضِ الَّتي من أجلِها يطيرُ الطّائر، فهي لإفادةِ الجنسِ الشّاملِ لا لبعضِ الأفرادِ دونَ بعض[3].

معنَى (الباء)، في قوله تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾:

الاستعانة أوِ الحال المؤكَّدة، وكلاهما له دور في الدّلالة

في (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ قولان:

أحدُهما: أنَّ الباءَ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿يَطِيرُ﴾ وتكونُ الباءُ للاسْتعانة.

والثّاني: أنْ تتعلَّق بمحذوفٍ على أنَّها حال، وهي حالٌ مؤكَّدة، وفيها رفعُ مجازٍ يُتوهَّم؛ لأنَّ الطَّيرانَ يُستعارُ في السُّرعة[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/524.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/216.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/216.

(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/241، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/611.

نكتةُ تثنيةِ الجناحَيْن دونَ الجمعِ (لم يقلْ: بأجنحتِه):

دلَّت تثنيةُ الجناحَيْن على مراعاةِ اللَّفظِ المفرد، وهو من فصيح الاستعمال

وردتْ تثنيةُ الجناحَيْن دونَ الجمع؛ لأنَّ المُسنَدَ إلى الجناحَيْن مُفْرَدٌ، وهو ﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ﴾، ولو قالَ: طَيْرٌ بالجمعِ؛ لَناسبَ أنْ يذكرَ الجمعَ معَهما بقولِه: (طيرٌ يطيرُ بأجنحتِه)، فراعَى في هذا التَّركيبِ اللَّفظَ المفرد، دونَ عُموم كلمةِ ﴿طَٰٓئِرٖ﴾، ولذلك كانَ قولُه: ﴿يَطِيرُ﴾ في محلِّ جرٍّ باعتبارِ لفظِه[1].

سرُّ اسْتعمالِ أسلوبِ القَصْرِ، بالنَّفي والاسْتثناء:

إفادة هذا الأسلوب الشُّمولَ، وتحقيقَ المقصدِ منَ السِّياق

جاءَ في الآيةِ الكريمةِ أسلوبُ القصرِ بالنَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ﴾ والاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾، وهو أسلوبُ القصرِ الحقيقيِّ الَّذي يعني: الشُّمولَ والعُموم، ويأتي المقصورُ عليه بعد ﴿إِلَّآ﴾، وما تقدَّمَها هو المقصورُ، وفي هذا توجيهُ العنايةِ الخاصَّةِ والمقصدِ الأساسِ فيما وراء ﴿إِلَّآ﴾؛ لأنَّه هو المُعوَّلُ عليه من قصدِ السّياق، ولذلك تكونُ ﴿إِلَّآ﴾ هنا أداةَ حَصْر، تَقصُرُ المعنَى المنشودَ بما يليها، وهو من أقوَى أساليبِ القَصْر، لا يَصلُحُ ذكرُ بديلٍ عنه في تحقيقِ المراد[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿أُمَمٌ﴾، دونَ الإفراد:

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ﴾ دالًّا على معنَى الاسْتغراقِ ومُغنيًا عن أنْ يُقالَ: وما من دوابَّ ولا طَيْرٍ؛ حُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ على المعنَى[3].

بلاغةُ التَّعريضِ، في قولِه تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾:

العقلُ ميزانُ الفرق بين الإنسان والدّوابّ والطّير

كلُّ نوعٍ من الحيواناتِ والطيرِ تجتمعُ أفرادُه في صفاتٍ مُتَّحدةٍ بينَها، فكلُّ نوعٍ وجِنْسٍ منها له من الطَّبائعِ الَّتي تخصَّصَ بها بما

---

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/611.
(2) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 176 - 178.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17.

به قوامُه، وألهمَه اللّٰهُ اتِّباعَ نظامِه، وأنَّ له حياةً مؤجَّلةً لا محالة، كما لأُمَمِ البشرِ خصائصُها[1]، وفي ذلك تعريضٌ بالبشر من حيث التّماثلُ مع أُمم الحيوانات والطّيورِ، وأنَّهم مثْلُهم لا يختلفون إلّا بالعقل، الذي هو مناطُ التَّكليف، فإن تركوه؛ فقد وقع التَّماثلُ من كلِّ وجهٍ.

دلالة التَّشبيه، في قولِه تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾:

الرِّفقُ بالحيوان، مــن مــآثــر الإحــســان في القرآن

المماثلةُ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡثَالُكُمۚ﴾ التَّشابهُ في فصولِ الحقائقِ والخاصّيّاتِ الَّتي تميِّزُ كلَّ نوعٍ عن غيرِه، وهي النُّظُمُ الفطريَّةُ الَّتي فطرَ اللّٰهُ عليها أنواعَ المخلوقات، فالدَّوابُّ والطَّيرُ تُماثِلُ الأناسيَّ في أنَّها خُلِقتْ على طبيعةٍ تشتركُ فيها أفرادُ أنواعِها، وأنَّها مخلوقةٌ للّٰهِ مُعْطاةٌ حياةً مُقدَّرةً مع تقديرِ أرزاقِها وولادتِها وشبابِها وهَرَمِها، ولها نُظُمٌ لا تستطيعُ تبديلَها.

وفي ذلك كُلِّه تنبيهٌ للمسلمينَ على الرِّفق بالحيوان، فإنَّ الإخبارَ بأنَّها أممٌ أمثالُنا تنبيهٌ على المشاركةِ في المخلوقيَّةِ وصفاتِ الحيوانيَّة كلِّها[2].

غرضُ الاعْتراضِ بجملةِ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

تقرير المضمون

جاءتْ هذه الجملةُ مُعترِضَةً؛ لبيانِ سَعَةِ علم اللّٰهِ تعالى وعظيمِ قدرتِه[3]، وهذا الاعتراض مقرِّرٌ لمضمون ما قبلَها[4].

سرُّ النَّفي بـ (ما)، ودخول ﴿مِن﴾ على ﴿شَيۡءٖۚ﴾:

رعــايــةُ الــلــهِ، شاملةٌ مصالحَ مخلوقاتِه، بلا استثناء

﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مفعولٌ لـ ﴿فَرَّطۡنَا﴾، و﴿مِن﴾ مَزيدةٌ للاسْتغراق، وجاءت قبلهما ﴿مَّا﴾ النّافيةُ لتأكيدِ هذا الاستغراق، والتَّقديرُ: ما تركْنا في القرآنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/213.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/217 - 218.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.

- على القول بأنَّ المقصودَ بالكتاب القرآنُ - شيئًا منَ الأشياءِ المهمَّةِ الَّتي من جُملتِها بيانُ أنَّه تعالى مُراعٍ مصالحَ جميعِ مخلوقاتِه على ما يَنْبغي[1].

نكتةُ إسنادِ فعلِ التَّفريطِ إلى الضمير (نا):

المبالغة في إثباتِ ما يحتاجُه المكلَّفُ في كتابِ ربِّه

في قولِه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أُسندَ فعلُ التَّفريطِ إلى (نا) الدّالَّةِ على العظمةِ الإلهيَّة، ولم يقل: (ما فُرِّط)؛ لبيانِ أنَّ الكتابَ كتابُه ﷻ، كأنَّه قال: ما فرَّطنا في كتابنا من شيء، وفي هذا الإسنادِ تربيةٌ للمهابةِ في نفوسِ السّامعين، وبيانٌ في نهايةِ المبالغةِ في أنَّه تعالى ما ترك شيئًا ممّا يحتاجُ المكلَّفُ إلى معرفتِه في هذا الكتاب[2].

دَلالةُ اسْتعمالِ لفظِ (فرَّطَ)، دون ما يُقاربُها في الدلالة:

الفعلُ الأوسعُ في دَلالتِهِ وشمُوليَّتِهِ من غيرِه، يقدّم في الاستعمال

التَّفريطُ يجمعُ في معناه دلالةَ: قصَّرَ وفوَّت وأَغْفَلَ؛ لأنَّ الأصلَ في معناه تنحيةُ الشَّيءِ وإزالتُه من مكانِه، والأصلُ فيه كذلك: تجاوزُ القَدْر، وهو القياس؛ لأنَّه إذا جاوزَ القَدْر؛ فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهتِه[3].

فقولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ التَّقديرُ: ما فرَّطْنا شيئًا، وتَضمَّنَ ﴿فَرَّطْنَا﴾ معنَى: تَركْنا وأَغْفَلْنا، والمعنَى: ما أَغْفَلنا ولا تَرَكْنا شيئًا[4]، فدَلالةُ لفظِ (فرَّطَ) أشملُ وأبلغُ في معنَى السّياق من مرادفاتها لاشتمالها عليها وزيادة.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالكتابِ عن اللَّوْحِ المحفوظِ أوِ القرآن:

لفظُ الكتابِ يُوحي بتوثيقِ المكتوبِ

الكتابُ هنا بمعنى: المكتوب، وفي التَّعريف فيه قولان:

القول الأوَّلُ: وهو المُكنَى عنه بالقلم المرادُ به ما سَبقَ في علم اللّهِ وإرادتِه الجاريةِ على وفْقه، وهو الكتابُ المُسمَّى: باللَّوحِ المحفوظِ في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/217.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/528.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/158 - 159.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/612.

العَرْش، وعالَمِ السّماواتِ المُشْتمِلِ على جميعِ أحوالِ المخلوقاتِ على التَّفصيلِ التّام.

القولُ الثّاني: أنَّ المرادَ منه القرآنُ؛ لأنَّ الألفَ واللّامَ إذا دَخَلا على الاسْمِ المفردِ؛ انْصرفَ إلى المعهودِ السّابق، والمعهودُ السّابقُ منَ الكتابِ عندَ المسلمينَ هو القرآن، فوجبَ أنْ يكونَ المرادُ منَ الكتابِ في الآية: القرآنَ، وهو لا يعني: أنَّه يشملُ جميعَ العلومِ بتفاصيلها، بل يكونُ مخصوصًا ببيانِ الأشياءِ الَّتي يجبُ معرفتُها والإحاطةُ بها، وهذا معنى قولِه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾[1]. وعلى القولين: فإنَّ التعبيرَ بالكتابِ دالٌّ على توثيقِ المكتوب.

دَلالةُ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾، على التّهديد بالوعيد:

مهما تأخّرَ الحشرُ في نظرِ النّاس، فإنّه آتٍ لاريب فيه

دلَّ حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ على تراخي الحشر، أي: يُحشرونَ في الآخرةِ بعدَ طولِ الحياةِ الدُّنيا وأحوالِها[2]، وفيه مزيدُ تهديد، فمهما طالَ الزَّمنُ؛ فإنَّ الحشرَ آتٍ غيرُ متخلّفٍ عنِ الوقوع.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، على الفعلِ ﴿ يُحْشَرُونَ﴾:

كلُّ الخلق راجعٌ إلى ربّه، ولا مندوحة له عن حشره

تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فإنَّ الأصل أن يكون النَّظم: (ثمَّ يُحشرون إلى ربهم)، قُصِدَ منه التَّخصيصُ، أي: لربِّهم وحدَه يُحشرون، لا لأحدٍ غيرِه، ففيه إثباتُ أمرين: إثباتُ الحشرِ، وأنَّه للّهِ وحدَه دون سواه[3].

---

(1) القول الثّاني: ترجيحُ الفخر الرّازي في مفاتيح الغيب: 12/526. ومن المفسّرين من رجَّحَ القولَ الأوَّل، وهو أنَّ المراد بـ (الكتاب): اللَّوح المحفوظ، كالطَّبري في جامع البيان: 7/188، والبغوي في معالم التَّنزيل: 3/142، والزَّمخشري في الكشّاف: 2/17، حيث لم يذكر غيره، والسَّمين الحلبي في الدُّر المصون: 4/612، والشَّوكاني في فتح القدير: 2/160، وذَكَرا القولَ الثّاني بصيغة التَّضعيف: (قيل). وابن عاشور في التّحرير والتَّنوير: 7/217، وقال: "وقيل: الكتابُ القرآن، وهذا بعيدٌ؛ إذْ لا مناسبةَ بالغَرَضِ على هذا التَّفسير، فقد أورد كيف يشتملُ القرآن على كلِّ شيءٍ". وهذا هو الرّاجحُ والأظْهرُ، ومن المفسِّرين من جمع بينهما دون ترجيح، كالبقاعي في نظم الدُّرر: 7/106، قال: "﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللَّوح المحفوظ والقرآن".

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/107، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.

(3) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 107.

دلالةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ على الألوهيَّة في: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

مناسبةُ الرُّبوبيَّةِ لمناقشةِ المشركين، في إثبات الرِّسالة

الإماتةُ والبعثُ والحشرُ هذه كلُّها من معاني الرُّبوبيَّة، فناسبَ ذكرُ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. وكذلكَ فإنَّ الآيةَ نزلتْ؛ لتقرِّرَ وتؤكِّدَ عقيدةَ الحشرِ الَّتي كان يُنكرُها المشركون، فجاءَ بيانُ اللّهِ هنا ليُجابهَهم بها، إضافةً إلى أنَّهم كانوا يؤمنونَ بتوحيدِ الرُّبوبيِّة، فجاءَ السّياقُ بذكرِ ما كانوا يؤمنون به، وأنَّ من معانيه موتَهُم ثمَّ بعثَهم؛ لإقامةِ الدَّليل عليهم، وهي تختلفُ عن سياق قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: 158]، فالسّياقُ هنا سياقُ مناقشة المشركين، فذكْرُ الرُّبوبيَّة أقوى أثرًا في نفوسهم، بينما آية آل عمران فهي في الحديث عنِ الموت في سبيل اللّه تعالى، فكان الأنسبَ ذكرُ الألوهيَّة.

دَلالةُ اسْتعمالِ ضميرِ جمعِ العقلاءِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

الحشرُ والقِصاصُ لا يختصُّ بالنّاس، بل يعمُّ جميعَ الأجناس

في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ دَلالةٌ على جمعِ العقلاء؛ لأنَّ غالبَ إطلاقِ الحشرِ في القرآنِ على الحَشْرِ للحساب، فيُناسبُ أن تكونَ الجملةُ السّابقة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ المشركينَ ينكرون البعث، ويجعلونَ إخبارَ الرَّسولِ ﷺ به من أسبابِ تُهمتِه فيما جاءَ به، فلمّا توعَّدهم اللّهُ بالآيةِ السّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجعونَ؛ زادَ بأن سجَّلَ عليهم جَهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أعجبُ ممّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحشرَ ليس يختصُّ بالبشر، بل يَعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدَّوابِّ والطَّير، فهي تُبعَثُ كالبشَرِ، وتحضُرُ أفرادُها كلُّها يومَ الحشر، وذلكَ يقتضي لا مَحالةَ أنْ يُقتصَّ لها[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/215.

ذِكـرُ الحشر يستلزِمُ الجزاءَ والقِصاصَ

سرُّ استعمالِ لفظِ (الحشرِ)، دون (الرُّجوع):

قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾، هذا الحشرُ للخلائق جميعِها إنْسِها وجِنِّها ودوابِّها وطيرِها هو حشرٌ للجزاءِ والحسابِ والقِصاصِ، ويؤيِّدُه حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «يَحشرُ اللّهُ الخلقَ كلَّهم يومَ القيامة: البهائمَ والدَّوابَّ والطَّيْرَ وكلَّ شيء، فيبلُغُ من عدلِ اللّهِ - يومئذٍ - أنْ يأخذَ للجمّاءِ من القَرْناء، ثمَّ يقول: كوني تُرابًا، فعندَ ذلكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النَّبأ: 40]»[1].

وفي صحيحِ مسلم أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ حتَّى يُقادَ للشّاةِ الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناء»[2]، وليس الأمرُ في ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ مجرَّدَ رجوعٍ أو مَوْت[3]. فدلَّ على أنَّ الحشرَ للجزاءِ والقصاصِ في قولِه تعالى فيما سبق: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾، أي: أمثالُكم في الخَلْقِ والموتِ والبعثِ والجزاء[4].

إفادة الآيةِ تأكيدَ حَشْرِ الكافرينَ إلى الله

فنُّ الإدْماجِ، في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾:

الظّاهرُ أنَّ ضميرَيْ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ و﴿يُحۡشَرُونَ﴾ عائدان إلى ﴿دَآبَّةٖ﴾، و﴿طَٰٓئِرٖ﴾ باعْتبارِ دَلالتِهما على جماعات الدَّوابِّ والطَّيرِ لوقوعِهما في حيِّزِ حرفِ ﴿مِن﴾ المفيدةِ للعموم في سياقِ النَّفْي، والضميرانِ فيهما موضوعانِ للعقلاء فكيف توجيهُهُ؟

أوَّلَ المفسّرون ذلك بوجهَيْن: أحدُهما أنَّه بناء على التَّغليب، إذ جاءَ بعدَه ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾. والوجهُ الثّاني: أنَّهما عائدان إلى ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾، أي: إنَّ الأُمَمَ كلَّها محشورةٌ إلى اللّهِ تعالى.

---

(1) الحاكم، المستدرك عل الصَّحيحين: 2/345، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذّهبي، ورواه من طريقه الطَّبريّ في جامع البيان: 7/188 - 189، وصحَّحه أيضا الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على الطَّبري.
(2) مسلم، الصَّحيح: الحديث رقم: (2582).
(3) وهو أَثَرٌ أخرجه الطَّبريُّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، جامع البيان: 7/188، بسند ضعيف.
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/235، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/420.

وذهب ابنُ عاشور إلى أنْ يكونَ الضَّميران عائدَيْن إلى ما عادتْ إليه ضمائرُ الغَيْبةِ في هذه الآياتِ الَّتي آخرُها ضميرُ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وعليه فيكونُ موقعُ جملةِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ موقعَ الإدْماجِ والاسْتطرادِ مجابهةً للمشركينَ بأنَّهم محشورونَ إلى اللّهِ لا مَحالةَ وإنْ أنْكَروا ذلك[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَشْر والجَمْع:

الحشر إخراج الموتَى من قبورِهم، وسَوْقهم إلى موقفِ الحسابِ والجزاء، والجمع لمٌّ وضمٌّ

الحَشْرُ هو الجَمْعُ مع السَّوْق، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعراء: 36]، أي: ابْعَثْ مَنْ يجمعُ السَّحَرَةَ، ويَسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشر؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمعونَ فيه، ويُساقونَ إلى الموقف. والأصلُ في الحشرِ لغةً: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم، وسَوْقُهم إلى الحربِ ونحوِها، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ الشَّرْعِ عندَ الإطلاقِ بإخراجِ الموتَى من قبورِهم، وسَوْقِهم إلى الموقفِ للحسابِ والجزاء[2]. والجَمْعُ: ضمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضِه من بعض، يُقالُ: جَمعتُه فاجْتمع، قالَ تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾ [القيامة: 9]. ويُقالُ: أجْمعَ المسلمونَ على كذا، أي: أجْمعتْ آراؤهم عليه. وقولُهم: يومُ الجُمُعة، لاجْتماعِ النّاسِ للصَّلاة، قالَ تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9][3].

ولا يُقال: الجمعُ فيما يَصِحُّ في السَّوْقِ كالحَشْر[4].

ويتبيَّنُ ممّا تقدَّمَ أنَّ الأَوْفَى والأَقْوى في مناسبةِ سياقِ الآيةِ الكريمةِ اسْتخدامُ الفعلِ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ بدَل (يجمعون). فالحشرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/214.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 69.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جَمَعَ).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

هو الَّذي يُفيدُ إخراجَ الموتى من قبورِهم وسَوْقَهم إلى موقفِ الحسابِ والجزاء.

الأمم والشّعوب والقبائل:

لفظ (أمم) هي أقوام تجمعها عوامل مشتركة، وهي المؤثِّرَةُ في السّياق عن غيرها

الأُمَم: جمع أُمّة، وهي كلُّ جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، ولكلِّ أُمَّةٍ نبيٌّ أرسله اللّه إليها بشيرًا ونذيرًا.

والشعوب: جمع شعْبٍ: وهو القبيلةُ المتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: 13]، والقبائلُ جمعُ قبيلةٍ: وهي الجماعةُ المجتمعةُ التي يُقبلُ بعضُها على بعض[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (أمّ، شعب، قبل).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأنعام: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هَيْمَنَةُ الله على الوجود

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهانِ: أحدهما: أنَّ اللّه سبحانهُ لمّا بيّن حالَ الكفّار، وأنَّهم قد بَلَغوا مِنَ الكفر مبلغًا بحيثُ صاروا كأنَّ قلوبَهم ميِّتةٌ فلا تَقْبَلُ شيئًا مِنَ الإيمان، فقالَ تعالَى: ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ذكرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ تقريرًا لذلك المَعْنَى[1].

الآخرُ: لمّا ذكر من خلائقِه وآثارِ قدرته ما يشهدُ لربوبيَّته، ويُنادي على عظمته؛ قال: (والمكذِّبون صُمٌّ لا يسمعون كلامَ المنبِّه، بُكْمٌ لا ينطقون بالحقِّ، خابِطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمُّلِ ذلك، والتَّفكُّرِ فيه)[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[3]: تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيءِ في مكانه شاخِصًا، عَلامَةً لِشَيْءٍ وأمارَةً عليه، ومِنْهُ قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم، أي: بجماعاتِهِمْ، فَلَمْ يَدَعوا شيئًا مِمّا يكونَ شاخصًا إلّا حَمَلوهُ، وفيهِ معنَى الكَثْرَةِ والجسامَةِ أيضًا[4].

والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعْرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/530.
(2) الزمخشريّ، الكشاف: 2/22.
(3) في اشتقاق (الآية) خلافٌ، يُنظر: الآلوسي، روح المعاني: 1/242.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(5) الرّاغب، المفردات: (أي).

والصَّوابُ في المرادِ بآياتِ اللّهِ تعالى المذكورةِ في قوله سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أنَّها جميعُ الأدلَّةِ والحُججِ، فيدخل فيهِ الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ[1].

2) ﴿صُمٌّ﴾: الصّادُ والميمُ تدور تصريفاتُها على معنَى انْسِدادِ سُموم الشَّيء بالنَّفاذ فيها[2].

ومِنْهُ: الصَّمَمُ في الأُذن؛ وهو ذهاب سَمْعِها، أَوِ انسدادُها وثِقَلُ السَّمع، ويقال لِلْمُتَّصِف به: أصمُّ، والأُنْثَى: صمّاءُ، والجمعُ: صُمٌّ[3].

وقد يُطلقُ الأصمُّ على مَن لا يَهْتَدي إلى الحقِّ مجازًا، فيكون من صَمَم العَقْلِ لا الأُذُنِ[4].

3) ﴿وَبُكۡمٌ﴾: الباءُ والكافُ والميم تدورُ اشتقاقاتُها على معنَى: الخَرَسِ[5]، يقال لِلرَّجل: بكِمَ عَنِ الكلام؛ إذا امتنَعَ عَنْهُ جَهْلًا أو تَعَمُّدًا[6].

ويقال لِلرَّجل الأخرس: أَبْكَمُ، ولِلْمَرْأة: بَكْماء[7]، والجمعُ: بُكْمٌ، وخصَّ ابنُ الأثير الأبكَمَ بمَنْ وُلِدَ أخرسَ لا يتكلَّم[8].

والمشهورُ: أنَّ الأبكمَ هوَ الذي لا يَنْطِقُ، ولا يَفْهَم، فإذا فَهِمَ مع عدَمِ نُطقِهِ؛ فهو الأَخْرَسُ[9].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المكذّب أصمُّ أبكمُ، لا ينتفع بالهدى

تُبيِّن الآيةُ حالَ الذين كَذَّبوا بحُجَجِ اللّه وأدلَّته، بأنَّهُم صمٌّ عن سماع الحقِّ، فلا يَسْمَعون ما يَنْفَعُهم، بُكْمٌ عَن قيلِه، لا يتكلَّمون به، في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/531.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صمم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صم)، والزّبيديّ، تاج العروس: (صمم).
(4) جمال الدّين الفتَّني، مجمع بحار الأنوار: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بكم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بكم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بكم).
(8) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (بكم).
(9) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/214، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/55.

ظُلمات الكُفْرِ والجَهل والعِناد، فهُمْ حائرونَ فيها، مَن يَشَأِ اللّهُ تعالى إضلالَه: يُضلِلْهُ، ومن يشأْ هِدايتَهُ: يَجْعَلْه على صِراطٍ مستقيمٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ (الوَاوِ) بَيْنَ العَطْفِ وَالاسْتِئْنَافِ:

المُكَذِّبُ بآيَاتِ اللهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَةِ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تحتملُ وجْهَيْنِ[2]:

أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُ اللّه سُبحانه قبلُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، والمَعنى على هذا الوجه: (والذين كذَّبوا بآياتنا - ولم يستجيبوا لها - هُم بمنزلةِ الصُّمِّ البُكْمِ).

ويكون بينَ الجُمْلَتَيْنِ - على هذا الوَجْهِ - توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِهما في الخبريَّة، ووجودِ مناسبةٍ بينَهُما؛ إذِ الصِّنْفُ المذكور في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مضادٌّ للصِّنْفِ المذكور في هذه الآيةِ، فبينَ الجُمْلَتَيْنِ جامعٌ وهميٌّ؛ وهو التَّضادُّ.

والآخَرُ: أن تَكون الواوُ استئنافيَّةً، فلا يكون لِلْجُمْلَةِ ارتباطٌ بجملةٍ بعَيْنِها ممّا تقدَّم، ولكنَّها ناشئةٌ عن جميع الكلامِ السّابقِ؛ وذلك أنَّ اللّه سُبحانه لمّا ذكر أدلَّةَ وحدانيَّتِهِ وصِدْقِ رسولِهِ ﷺ أعقبَهُ ببيانِ حالِ المكذِّبينَ، وأنَّهم في ضلالٍ عظيمٍ عَنِ التَّأمُّل، وانحرافٍ شديد عنِ الاهْتِداء.

تعيينُ المرادِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يُعَبِّرُ عن المُشْرِكِينَ، إجمالًا وتفصيلًا

المرادُ بالموصولِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قومٌ مَعْهودونَ، وهم المذكورونَ في قوله تعالى قبلُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ [الأنعام: 25][3]، قَدْ جَعَلَ اللّهُ في قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وقْرًا، أَوْ أَنْ يَكونَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/350، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 132.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/218.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/131.

المُرادُ بِهِم المُشْرِكينَ الَّذينَ مَضَى الكَلامُ عَلَى أَحْوالِهِمْ عُمومًا وخُصوصًا[1] في هذه السّورةِ، وهذا مِن بيانِ القُرآنِ للقُرآنِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بِالاسْمِ الموصول:

أدنى مُكذِّبٍ بالآياتِ، موصوفٌ بالصَّمَمِ والبَكَمِ للتّحقير

قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالاِسْمِ الموصولِ فيه، دونَ الاسمِ الظّاهرِ فلَمْ يقُل: (والمُكذِّبونَ بآياتنا)؛ للإيماءِ إلى وجْهِ استحقاقِهِمُ الصَّمَمَ والبكَمَ، وهو التَّكذيبُ بالآياتِ، فتكذيبُهم بآياتِ اللّهِ دليلٌ أكيدٌ على أنَّهُم لم يَسْمَعوا الحَقَّ، ولم يَنطِقوا بالخَيْرِ؛ فكذَّبوا بآياتِ اللّه، ولو كانَ مِنهُم سماعٌ حقيقيٌّ؛ لآمنوا بالآياتِ، وللإشارةِ إلى أنَّ أدنى مُكذِّبٍ بالآياتِ ينطبِقُ عليه حُكمُ الآيةِ، وليسَ بالضَّرورةِ أنْ يكونَ راسِخًا في التَّكذيب.

نُكْتَةُ جمعِ صلةِ الموصولِ، في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

المُكذِّبونَ لفيفٌ اتَّفقَ على محاربَةِ الحقِّ، ومُنابذَةِ الإسلامِ

وفي إيرادِ الاسمِ المَوْصولِ جَمْعًا - ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ - إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمَعَ على التَّكذيبِ، واتَّفقَ عَلَيه، وزيَّنَ بعضُهم لبعضِهم الآخر ذلك، وقد أبانتِ الآياتُ السّابقةُ عنِ اجتماعِهم على الباطلِ ومجادلتِهم في الحقِّ، وأنَّهم بليدونَ عن فهمِ الحقِّ، متلبِّدون في الباطلِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 25 - 26]

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿كَذَّبُواْ﴾:

تكذيبُ المشركينَ، قائمٌ على إصرارٍ بليغٍ، وعنادٍ صفيقٍ

ومَجيءُ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا - ﴿كَذَّبُواْ﴾ - دالٌّ على تحقُّقِ وصْفِ التَّكذيبِ فيهِمْ، فهم مُكذِّبون عن إصرارٍ بليغٍ، وعنادٍ ظاهرٍ، فتكذيبُهم قائمٌ على معانَدَةِ الحقِّ، ومناصرةِ الباطلِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/218.

دلالة (الباءِ)، في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

الباءُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ تحمِلُ معنى الإلصاقِ، أي: أنَّهم كذَّبوا، وهم ملتصقونَ بالآيات معرفةً ووقوفًا على حقائِقها، ففيه تصويرُ حالِ المكذِّبين بالآياتِ، كأنَّهُم يمسِكونَ الآياتِ بأيديهم، ويُكذِّبونها في الوقتِ نفسِه، وفي هذا التَّصويرِ لحالِهم شتمٌ وإهانةٌ، فإنَّ من يُمسِكُ شيئًا، ويُنكِرُه مستحقٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ.

تـصـويـر المُكَذِّبينَ بِمَنْ يُمسكُ بشيءٍ ثُمَّ يُنكِرُه

ويُحتملُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، والمعنى: والذين كذَّبوا بسببِ آياتِنا التي تدعوهم إلى الإيمانِ بالله، وتركِ عبادةِ الأوثانِ، حالُهم كيتَ وكَيْت.

سِرُّ جَمْعِ الآيَاتِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ تحتمِلُ وجهين:

أحدُهما: أن يُرادَ بها القرآنُ ومحمَّدٌ ﷺ.

والآخر: أن يُراد بها جميعُ الأدلَّة والحُجج، فيدخلُ فيه الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ، وهذا أصحُّ[1]؛ لأنَّ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ جمعٌ مضافٌ، فيدلُّ على العمومِ، وقَصْرُهُ على نوعٍ مِنْها يفتقِرُ إلى الدَّليلِ الواضحِ البيِّنِ.

عِظَمُ عِنادِ المُكَذِّبينَ وَغِلَظُ تَكْذِيبِهِم وَكُفْرِهِم

وإيرادُ الآياتِ مجموعةً إشعارٌ بكثْرتها، وفي ذلك تغليظٌ لتكذيبِهم وكفرِهم، حيث لم يقتصِرْ تكذيبُهم على تَكْذيبِ الآيةِ والآيتينِ - وإن كان هذا عظيمًا شنيعًا - بل أَمْعَنوا في التَّكذيبِ، حتَّى إنَّهم ما تَرَكوا آيةً إلّا كذَّبوا بها وجحدوها، وهذا غايةٌ في العِنادِ.

نُكْتَةُ إِضَافَةِ (الآيَاتِ)، إِلَى ضَمِيرِ العَظَمَةِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ (نا) الرّاجعِ إلى الله سُبحانَهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ لتعظيمِ المُضافِ وهو الآياتُ، ويُقوّيه مجيءُ الضَّميرِ (نا) وهو دالٌّ على العَظَمَةِ؛ وذلك لإدخالِ المهابَةِ

التَّكْذِيبُ بآياتِ العَظِيمِ، جُرْمٌ عند الله عَظِيمٌ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/531.

والرَّوعةِ في نفوسِ المتلقّين، وفي هذا التَّعظيمِ بيانٌ لشناعَةِ التَّكذيبِ بهذه الآياتِ؛ إذِ التَّكذيبُ بالعظيمِ عظيمٌ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ، بَيْنَ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾ وقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ﴾:

ناسَبَ مجيء العطف قصْدَ التّوزيع، وعدم العطف قصد الشّمول

قال الله سُبحانه هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، فسيقتِ الأوصافُ دونَ عطفٍ في سورة البقرة؛ لأنَّ المرادَ اتِّصافُهم بها، أَيْ: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمُ اجْتَمَعَتْ لَهُ الصِّفاتُ الثَّلاثُ، وذَلِكَ شَأْنُ الأَخْبارِ الوارِدَةِ بِصيغَةِ الجَمْعِ بَعْدَ مُبْتَدَأٍ هوَ اسْمٌ دالٌّ عَلَى جَمْعٍ، فالمَعْنَى: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ كالأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى، ولَيْسَ المَعْنَى عَلَى التَّوْزِيعِ، فَلا يُفْهَمُ أَنَّ بَعْضَهُمْ كالأَصَمِّ، وبَعْضَهُمْ كالأَبْكَمِ، وبَعْضَهُمْ كالأَعْمَى[1].

أمّا آيةُ الأنعامِ؛ فالمرادُ فيها التّوزيعُ، أي: بعضُهم كالأصمِّ، وبعضُهم كالأبْكَمِ؛ ولذا عُطِفَ بينهما بالواوِ، فقال تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾.

سِرُّ تَقْدِيمِ صِفَةِ (الصَّمَمِ) عَلَى (البَكَمِ):

السَّماعُ الحسنُ طريقُ الهداية والعلم

قُدِّمَ الصَّمَمُ على البَكَمِ في قولِهِ تعالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾؛ من جهةِ أنَّ السُّكوتَ عَنِ التَّلفُّظِ بالحقِّ فرعُ عَدمِ سماعِه، كما أنَّ التَّلفُّظَ به فرعُ سماعِه.

وقُدِّمَ؛ لأنَّ اللهَ مدح المستجيبين في الآياتِ السّابقة بأنَّهم يسمعون: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ فحسُن تقديمُ الصِّفةِ المقابلة لدى المشركين، ولأنَّ الآيةَ صُدِّرت بِقَوْلِهِ سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والمكذِّبُ أكثرُ اعتمادِهِ على السَّمْعِ؛ ليسمعَ ما يُريدُ تكذيبَهُ، وأمّا الكلامُ؛ فتابِعٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313 - 314.

تقديمُ (العمى) و(البَكَمِ) على (السَّماعِ) في آيةِ الإسراءِ:

طلَبُ المكذّبين، للآية البصريّة، تـنـكّـب عـن العقيدة السّويّة

قُدِّمَ البَكَم على الصَّمَم في آية سورة الإسراء بخلافِ الموضعِ هنا؛ فإنَّ اللّه تعالى قال فيها هناك: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: 97]، وقال هنا: ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ فأخّر الظّلمةَ هنا، وقدّم العمى هناك، فالسّياقُ في سورة الإسراء هو حديثٌ عن حشرِهم يومَ القيامةِ، والأنسبُ فيه تقديمُ العمى، فالبَكم، فالصَّمَم؛ لأنَّ العمى هو أصعبُ العذابِ على المحشورينَ على وُجوهِهم، والبكم أنكى في انقطاع استغاثتِهم واستيضاح ما حلّ بهم منَ العذاب بعد أن عاينوه بلا بصرٍ، ولسببٍ آخرَ، وهو أنَّ الآية سبقَها ذكرُ ما طلبَهُ الكفّارُ منَ النّبيِّ ﷺ كما قال تَعالَى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: 90 - 93]، ولمّا كان ما طلبوهُ متوقِّفًا إدراكُهُ على البصَرِ؛ ناسبَ ذلك تَقْديمَه، فقال تعالَى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾، ثمّ لمّا كان ما طلبوه غايةً في الإعراض والتّكذيب في الدّنيا، فإنّهم مستحقّون لانقطاع منطقِهم، واضمحلال صوتِهم في الآخرة.

نُكْتَةُ العدولِ عن وصفِ العمى إلى: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾:

الـغَـارِقُ في الـكُـفْـرِ، فاقدٌ لأسبابِ الحياةِ

قال اللّهُ سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، فنصَّ على صِفَتَي الصَّمم والبَكَم، دونَ العَمَى؛ وذلك لأنَّه قال بعدَهما: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، فكَنَّى عن عماهُمْ بكونهم في الظُّلماتِ؛ إذِ الكائنُ فيها لا يُبْصِرُ شيئًا[1]. وفي العدولِ عن التَّصريح بِعَماهُمْ إلى التَّعبير بكونهم في الظُّلُماتِ نُكْتَتَانِ:

(1) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/223.

إحداهما: زيادةُ فائدةٍ؛ إذْ في قولِه: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ اقترانُ الدَّليلِ على عماهم بالبُرْهانِ عليهِ؛ فجُعِلَتِ الظُّلُماتُ ظَرْفًا لَهُمْ، وجُمِعَتْ لِاخْتِلافِ جِهاتِ الكُفْرِ، كَما قيلَ في قَوْلِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وفي قَوْلِه: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: 257].

والأخرَى: أن يكون لبعضِ أجْزاءِ الهَيْئَةِ المُشَبَّهِ بها ما يَصْلُحُ لِشبه بعض أجزاء الهيئةِ المُشَبَّهة؛ إذِ الكفرُ الغارقونَ فيه يُشبه الظُّلماتِ في كون كلٍّ منهما حائلًا بين الدّاخل فيه وبين الاهتداءِ إلى سبيلِ النَّجاة[1].

دلالة حرفِ الظَّرفيَّة في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾:

ظلمات المعتقد، ضياعٌ وتيهٌ وهلاك

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ إشعارٌ بانغماسِ المُشْرِكينَ في الظُّلُمات، كما يدلُّ عَلَيْه حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ المفيدُ للظَّرفيَّة، وفيه بيانُ تمكُّنِ الظُّلمةِ من أبصارِهم وبَصائِرهم.

نُكتةُ جمعِ الظُّلُمَاتِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾:

المُكَذِّبونَ غارِقُونَ في ظُلُمَاتٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ

في إيرادِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ جريٌ على الفصيح من كلامِ العربِ من العدولِ عن استعمال لفظِ الظُّلْمَة مفردًا[2]، ولهذا الاستعمالِ نكتتان:

إحداهُما: المبالغةُ في وصفهم بالعمَى بصيغةِ الجمعِ؛ ليكونَ ذلك مناسبًا لجمعِ الآياتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهو من مناسبةِ الجمعِ للجمعِ.

الأُخرى: الإشارةُ إلى أنواعِ الظُّلماتِ التي هم غارقونَ فيها من ظُلْمَةِ: الكُفْرِ والجهْلِ والعناد، وغيرِها من الظُّلُماتِ النَّفسيّةِ والرّوحيّة والفكريّة، فهي ظلماتٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/219.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/219.

بَلَاغَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾:

تشبيهُ المكذِّبينَ في انْسِدَادِ بَابِ الفَهْمِ، بمَن فَقَدَ طُرُقَ النَّجاة

في قول اللّه تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، تمثيلٌ لحالِ المكذِّبين في فسادِ عقائدهم وبُعدهم عَنِ الهداية بحالِ قوم صُمٍّ وبُكْمٍ في ظُلماتٍ، فالصَّمم مانعٌ لهم مِن تلَقّي هُدَى الهادي، والبكَمُ حاجبٌ لهم عَنِ الاسترشادِ بالمارِّ بهم، والظُّلماتُ مانعةٌ لهم مِنَ التَّبصُّر في الطَّريقِ أو فيما يُخْرِجُهم من مَأْزِقِهم[1]، فانسدَّت عنهم طرقُ النَّجاةِ؛ إذِ الأصمُّ الأبكَمُ إذا كان بصيرًا رُبَّما فَهِمَ شيئًا ما بإشارةِ غيره، بخلاف ما إذا كان أَعْمَى أو في الظُّلمات؛ فإنَّ بابَ الفهم والتَّفهيم ينسدُّ عليهِ بالكُلّيَّةِ، وكذلك هؤلاءِ المذكورون في الآيةِ انعدمت عندَهُمُ الآثارُ النّافعةُ للحواسِّ التي تؤهِّلهم للهدايَةِ والنَّجاة مِنَ الضَّلالِ، فكانوا كَمَنْ سُلِبَها، فالمرادُ بهذا التَّشبيهِ بيانُ كمالِ عراقتِهم في الجهالةِ وسوءِ الحال[2].

والجاري على القَواعدِ البلاغيَّةِ أن تكون الآيةُ من قَبيلِ التَّشْبيهِ البليغِ لا الاستعارة؛ للتَّصريح بطرفَي التَّشبيه[3].

وَجْهُ حملِ الوَصْفَيْنِ ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾ على الاستِعَارَة:

تـشـبـيـهُ مَـن لـم ينتفعُوا بـأذهـانِـهـم، بالصُّمِّ والبُكم

وقد ذهب أبو حيّانَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾ اسْتِعارَةٌ عَنْ عَدَمِ الانْتِفاعِ الذِّهْنيِّ بِهَذِهِ الحَواسِّ، لا أَنَّهُمْ صُمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلُماتِ حَقيقَةً[4]، فيكونُ المعنى عِندَه تشبيهَ عَدَمِ انتفاعهم الذِّهنيِّ بهذِه الحواسِّ، بمَنْ فَقَدَها على الحقيقةِ فلم يَنْتفِعْ بها، وصَرَّحَ بوَصْفِ مَنْ فَقَدَها على الحقيقةِ لبيانِ تمكُّنِ الوَصْفِ منهم، فهي استعارةٌ تَصريحيَّةٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/218 - 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/132.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 4/56، وإبراهيم بغدادي، من أسرار البيان في سورة الأنعام، ص: 10 - 11.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/505.

والقولُ بأنَّها من قَبيل التّشبيه البليغ أوضحُ مسلكًا، قال الآلوسيُّ: وهو منَ التَّشبيه البليغ على القولِ الأصحِّ في أمثالِه، أي: إنَّهم كالصُّمِّ وكالبُكم، فلا يسمعون الآياتِ سماعًا تتأثَّرُ منه نفوسُهم، ولا يقدرون على أنْ يَنطِقوا بالحقِّ، ولذلك لا يستجيبون، ويقولون في الآياتِ ما يقولون[1].

ضَلَالُ المُكذِّبين، إنّما يكون بإرَادَةِ اللهِ تَعَالَى الكَوْنِيَّةِ

عِلَّةُ الفَصْلِ في جملة: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملَةِ وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ في قولِهِ سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ذِكْرًا لحالهم العجيبَةِ الباعثَةِ في نفسِ السّامعين سؤالًا؛ وهو: ما شأنُهم لا يسلكون طريقَ الهدايةِ مع وضوحِ الأدلَّةِ والبراهين؟ فجاء الجوابُ في قول اللّه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، مبيِّنًا أنَّ اللّه تعالى قد أضلَّهم، وأنَّه سُبحانَهُ يُضلُّ مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ[2].

تنبيهُ العبادِ وتحذيرُهم من مسلكِ الضّلَالِ الاختياريّ

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في الآية الكريمة:

جاءَتِ الأفعالُ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بصيغةِ المضارعة؛ للتَّنبيهِ والتَّحذير، فإنَّ الإضلالَ والهدايةَ لم تتحتَّم على أحدٍ من العبادِ جبرًا محضًا، وإنَّ اللّه خيَّرَ العبادَ بينَ طريقِ الهدى وطريقِ الضَّلالِ، فعليهم أنْ يَحْذَروا من مسلكِ الضَّلالِ؛ كي لا يقعوا في مضمونِ قولِه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، وعليهم أن يجتَهِدوا في البحثِ عن الحقِّ ليجعلَهم اللّهُ على صراطٍ مستقيم، ففي هذا التَّعبيرِ تنبيهٌ على أمرٍ مستقبليٍّ بالنّسبةِ إلى العبادِ المخاطَبين، لا على أمرٍ حتميٍّ وقعَ ولا مجالَ للرَّجعةِ عنه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4 - 140.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/219.

نُكتة حذفِ مفعولِ المشيئةِ، في: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾:

الإبْهَامُ الحَاصِلُ فِي الحَذْفِ، يَبْعَثُ النَّفْسَ عَلَى التَّفَكُّرِ

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، حُذِفَ من سياقه مفعولُ المشيئةِ، في والتَّقديرُ: من يشأ اللّهُ إضلالَهُ؛ يُضلِلْه، وحَذْفُ المفعولِ معَ فِعْلِ المشيئة شائعٌ في كلام العربِ؛ إذا وقعَ فِعْلُها شرطًا[1]، وفي هذا الحذفِ نُكْتَتانِ:

إحداهُما: الإيجازُ، والدّالُّ على تعيينِ المحذوفِ هو جوابُ الشَّرْطِ.

والأخرى: الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ، وفي ذلك مِنَ التَّشويق ما لا يخفَى؛ إذْ إنَّ الإبهامَ الحاصلَ في الحذفِ يبعثُ النَّفسَ على التَّفكُّرِ والاستِنباطِ اعتمادًا على القرائنِ، فإذا جاءَ الإيضاحُ؛ وقعَ على نفسٍ مُسْتَشرِفَةٍ له، فيتمكَّنُ منها غايةَ التَّمكُّن.

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿يَجۡعَلۡهُ﴾، دُونَ (يَهْدِهِ):

امتنانُ اللهِ على عبادِه، أنْ أنقذَهُم منَ الضَّلالةِ

ذكرَ تعالى فعلَ الجَعْلِ دون الهدايةِ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فلم يقُلْ: (يَهدِهِ إلى صراطٍ مسْتقيم)، وذلك لأنَّ الجَعْلَ فيه معنى التَّصيير، فإنَّ المجعولَ محوَّلٌ عنِ الضَّلالةِ إلى الهدايةِ، فهو نصٌّ في التَّصييرِ، ولمحٌ إلى الأصلِ، ففيه امتنانٌ على المهديّينَ، بما آلوا إليه،

براعةُ اختلافِ التَّعبيرِ في التَّقابلِ اللَّفظيِّ:

ذكرُ المؤمنينَ في مقابلِ المكذِّبينَ، يقترنُ بمزيدِ مَدْحٍ وحمدٍ، من ربِّ العالمين

قال تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، ولم يقل: (ومَنْ يَشأ يَهْدِهِ) كما في المقابلِ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، وفي هذا عدولٌ عن التزامِ ما يقتضيه التَّقابلُ اللَّفظيُّ، إلى ما يقتضيه المعنى السّياقيُّ، وهو مقتضَى البلاغة، فإنَّ اللّهَ جعلَ ما يُقابلُ الإضلالَ الجعلَ على صراطٍ مستقيم؛ لأنَّه أرسخُ في بيانِ الهدايةِ، فلفظُ الهدايةِ يوحي بالخبرِ، أمّا الجعلُ على صراطٍ مستقيمٍ؛ ففيه الخبرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 7/219.

والدَّليلُ على التَّمكينِ، فقولُنا: فلانٌ مهديٌّ، ليس كقولنا: فلانٌ على صِراطٍ مستقيم، فالثّانيةُ أمدحُ وأحمدُ، فاكتفى في الجملة الأولى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ بالإخبار، وفي الثّانية: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالإخبار مع الدَّليلِ على التَّمكين.

بلاغةُ استعمالِ حَرْفِ الاستعلاءِ:

الـمَـهْـدِيُّـونَ سَـــائِـــرُونَ عـلى الـصّـراط الـمـسـتـقـيـم، لَا يُـخْـطِـئُـونَ قَصْدَهُمْ

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دالٌّ على الِاسْتِعْلاءِ، والمرادُ استعلاءُ سالكِ الطَّريقِ المستقيم، والكلامُ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ لحالِ مَنْ خلقَهُ اللّه تعالى ومنَّ عليه بالعَقْلِ وأبلَغَ إليهِ الشَّرْعَ، فهو ينتهي عن ضلالِه، ويُصغي إلى النُّصحِ، فيتَّبعُ الدّينَ الحقَّ، ويعدِلُ عن طريق الباطِلِ، بحالِ السّائر في طريقٍ واضحةٍ بيِّنَة، فهو لا يتحيَّرُ، ولا يُخطِئُ قصدَهُ، وهي طريقٌ مستقيمةٌ، فلا يَطولُ به السَّيْرُ[1].

وفي حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ إيماءٌ إلى التَّمكُّنِ مِن طريق الهدايةِ والعَراقَةِ فيها، وفي التَّعبير به أيضًا استعارةٌ؛ إذْ قد شُبِّهَتْ حالُ المتمكِّنِ من طريق الهدايَةِ والمستقرِّ عَلَيْهِ بحال مَنِ اعْتَلَى شيئًا، بجامِعِ مطلقِ التَّصرُّف.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلفظ (الصِّرَاطِ) دُونَ (الطَّرِيقِ):

صِراطُ اللهِ تَعالَى مُوافِقٌ لِلْفِطْرَةِ الإِنْسانِيَّةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بلفظ الصِّراط دون الطَّريق، وذلك أنَّ لفظ الطَّريقِ يعمُّ كلَّ ما يَطْرُقُهُ طارقٌ، معتادًا كان أو غيرَ معتادٍ، بخلافِ الصِّراط؛ فإنَّه يختصُّ بما ليس فيه التِواءٌ مِنَ الطُّرُقِ ممّا هو معتادُ السُّلوكِ[2]، ففي التَّعبير به إيماءٌ إلى أنَّ الطَّريقَ الذي يَهْدي اللّهُ تعالى إليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/220.

(2) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 512 - 513، وإسماعيل حَقّي، روح البيان: 5/13.

مَن يشاءُ طريقٌ قَدِ اعْتِيدَ سلوكُهُ مِمَّن مَنَّ اللّه سبحانه عَلَيْهِمْ بالاستقامَةِ، وفيه تَأْنيسٌ لَهُمْ؛ إِذْ لم يَنْفَرِدوا بهذا المَسْلَك.

كما أَنَّ في لفظِ الصِّراط إيماءً إِلَى سُهولةِ هذا الطَّريقِ لموافقتِهِ الفطرَةَ، بخلاف ما لو عُبِّر بلفظِ الطَّريقِ؛ إذِ الطَّريقُ لا يَستلزِمُ السُّهولةَ[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ لفظ ﴿صِرَٰطٖ﴾:

سُلُوكُ صِرَاطِ اللهِ تَعَالَى، يَؤُولُ إِلَى السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ

نُكِّر لفظُ ﴿صِرَٰطٖ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لإرادَةِ تفخيمِهِ وتعظيمِه.

ويَجوزُ أن يكون التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: يجعلُهُ على نوعٍ من الصِّراطِ مخالفٍ لِلْمَعْهودِ مِنْهُ، وذلك أنَّ سلوكَ هذا الصِّراطِ يَؤولُ بسالِكِهِ إلى السَّعادَةِ الأبديَّة.

ولا تنافيَ بين الدِّلالتين؛ فإنَّ هذا الصِّراطَ طريقٌ معنويٌّ مخالفٌ للمعهودِ مِنَ الطُّرقِ الحسّيَّةِ، وهو طريقٌ فخمٌ عظيمٌ في نفسِهِ.

دِلَالَةُ وَصْفِ ﴿صِرَٰطٖ﴾ بلفظ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ، تُصَيِّرُ الوُصُولَ إِلَى المَقْصُودِ أَقْرَبَ

في وصفِ الصِّراط بالاستقامة في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دِلالةٌ على خُلُوِّهِ مِنَ الاعْوجاجِ والانحرافِ، وذلك موجِبٌ يُسْرَهُ على السّائرِ؛ إذِ استقامَةُ الطَّريقِ تُصيِّرُ الوصولَ إلى المقصودِ أقربَ[2].

وفي قولِهِ: ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مبالغةٌ في وصفِ الطَّريق بالاستقامة، بحيثُ إنَّ السّائرَ فيه لا يَضِلُّ، ولا تزلُّ به القدَمُ[3].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 289.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/220.
(3) إبراهيم بغدادي، من أسرار البيان في سورة الأنعام، ص: 10 - 11.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الكَذِب والتَّكْذِيب:

الكَذِبُ ما كانَ خلافَ الحقيقةِ، والتَّكذيبُ نسبةُ الآخرِ إلى الكذبِ، إنكارًا واتِّهامًا

الفَرْقُ بينَهُما مِن وجْهَيْن:

أحدهما: لفظيٌّ؛ وهو أنَّ فعل الكذِبِ: (كَذَبَ) وهو ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، وفعلَ التَّكذيبِ: (كذَّب) وهو ثلاثيٌّ مزيدٌ بحرفٍ، وهو التَّضعيفُ.

والآخرُ: معنويٌّ؛ وهو أنَّ الكذِبَ الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عَلَيْهِ مطلقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمْدٍ أم خطَأٍ، إلّا أنَّ الإثْمَ في الشَّرْعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنْهُ عَمْدًا[1].

وأمّا التَّكذيبُ - بزنةِ (التَّفعيلُ) - فالمرادُ به: نسبةُ القولِ إلى الكذبِ؛ إذْ صيغةُ (التَّفعيل) ترِدُ لإرادةِ النِّسبة، فالتَّكذيبُ: النِّسبةُ إلى الكذب[2].

فالتَّكذيبُ هو نسبةُ الغيرِ إلى الكذبِ تُهمةً أو افتراءً أو إنكارًا أو صدقًا، فمن كذَّبَ بآياتِ اللّه فقد أنْكَرَها، ومن كذَّب محمَّدًا ﷺ فقد رماه بالكذبِ فيما يقولُ، فهي تختلف باختلافِ السّياقِ الواردةِ فيه.

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنعام: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاحتجاجُ على المشركين

لَـمّا بَيَّن ﷻ غاية جَهلِ أولئك الكفّار؛ بَيَّن مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نزَلتْ بهم بَليَّةٌ أو مِحْنةٌ؛ فإنَّهم يَفزَعون إلى الله تعالى، ويَلجَؤون إليه، ولا يَتمرَّدون عن طاعته، فهذا ابتداءُ احتجاجٍ على الكفّارِ الذين يجعلون لله شركاء(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: جَرَى (أَرَأَيْت) - هنا - مجرى أَخْبِرْني، أي: أخبِروني إخبارَ مَنْ لَهُ عِلمٌ ودِرايةٌ، أَخبِروني بشيءٍ مِنَ التَّأكيد، والرُّؤْيَةُ: النَّظَرُ بالعَيْنِ وبالقَلْبِ، يُقال: رأيتُه، رُؤْيَةً ورَأْيًا: إذا أبصرْتُهُ، ويُقال: رأَيْتُه بعَيْني رُؤيَةً، ورأَيْتُه رَأْيَ العَيْنِ، أي: حَيْثُ يَقَعُ البَصَرُ عليه، والرُّؤْيَةُ - أيضًا- إدْراكُ المَرْئيِّ، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ، تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ(2).

2) ﴿عَذَابُ﴾: الشِّدَّةُ والعُقوبَةُ. وأَصْلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنَّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ إلى الجَريمَةِ، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها، ويأْتي التَّعْذيبُ بِمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ، وإِلْحاقِ المَشَقَّةِ بِغَيْرِه(3).

3) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: السّاعَةُ في الأَصْلِ تُطْلَق بمعْنيين: أحدُهما: أَنْ تكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا، هيَ مجموعُ اليَومِ واللَّيلةِ، والثّاني: أَن تكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أَوِ اللَّيْلِ، ثُمَّ استُعير لاسْمِ يَوْمِ القيامَةِ، قال الزَّجّاج: مَعْنَى السّاعَةِ في كُلِّ القُرآن:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/532، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/507.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (رأى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذب).

الوَقْتُ الَّذي تَقوم فيهِ القيامَةُ، يُريد أَنَّها ساعَةٌ خَفيفَةٌ يَحْدُثُ فيها أمرٌ عظيمٌ؛ فلِقلَّة الوَقْتِ الَّذي تقوم فيهِ سَمّاها: ساعَةً[1].

4) ﴿تَدۡعُونَ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا دُعاءً ودَعْوَةً، أيْ: نادَيْتُهُ، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ من الدُّعاءِ، ويأْتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّه، أَدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُه، وأَصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ - ﷻ - دُعاءً، ويطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيب فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِه، أيْ: حَثَّهُمْ، ورَغَّبَهُمْ، ومِن مَعانيه أيضًا: التَّضَرُّعُ والتَّسْمِيَةُ والقَوْلُ والشَّرَفُ، وجمْعُ الدُّعاءِ: أَدْعيَةٌ ودَعَواتٌ[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

عند حلول عذاب الله، لا ينفعُ المشركين ما يدْعُون من دون الله

قُل يا أَيُّها الرَّسول ﷺ لهؤلاء المشركين، تبكيتًا لهم على عِبادَتهم غَيْرَ اللّه تعالى، وإلزامًا لَهُم بما لا يستطيعون إنكارَه: أَخْبِروني إنْ أتاكم عذابُ اللّهِ المنتقم الجبّار، أو أتاكم يَومُ القيامةِ؛ هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ أحدًا غيرَ اللّه؛ لِيُنْجيَكم ممّا حَلَّ بكم إنْ كنتم صادِقينَ في اتِّخاذِكُم آلهةً من دونه؟[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستئناف في ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾:

التَّعريض بالحثِّ على خلْع الشِّرْك ونبذه

قوله جلّ شأنه ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ قولٌ مُستأنَفٌ أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يوجِّهه إلى المشركين، يتضمَّن تهديدًا بالوعيد طردًا للأغراض السّابقة، وهو تقريرُ الإنسانِ بما لا يُمَكِنُه دفعُه؛ وذلك بأن يُقَرَّرَ بشيءٍ يُقِرُّ به، ولا يُمكِنُه دَفْعُه؛ لأنَّهم في هذه الحال لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (سوع).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دعو).

(3) النسفي، التيسير في التفسير: 6/73، ومجموعة من العلماء، التفسير الوسيط: 3/1238، والزحيلي، التفسير المنير: 7/199.

يدّعونَ إلّا اللّهَ تعالى، فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يُخْلِصون في الشِّدَّةِ، ويُشْرِكون في الرَّخاءِ؟ وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْع الشِّرْك ونبذه؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللّهِ تقدّست أسماؤه، إضافةً إلى ذلك فيه اكتفاءٌ عن عبادة غير اللّه تعالى للعلم بحالهم[1]..

بلاغة تركيب: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾:

التَّصوُّر الذِّهنيّ بالرُّؤية، في قوَّة الظُّهور والمثول

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ تركيبٌ شهيرُ الاستعمالِ، يُفتَتَحُ بمِثلِه الكلامُ الذي يُرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهي كلمةُ استفهامٍ وتَعجُّب، وليس لها نظيرٌ؛ فهمزةُ الاستفهامِ فيه للتَّقرير والتَّعجيبً[2]، وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْع الشِّرْك؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللّهِ[3].

إنَّ هذا الأسلوب الاستفهاميَّ الّذي تدخل فيه همزةُ الاستفهام على فِعل الرُّؤية المُثبَت، كثيرُ الورود في كتاب اللّه العزيز، ويختصُّ بالاستعمال في الحالات العجيبة؛ ولذلك نراه يقترن كثيرًا بأسلوبِ شرطٍ، وجملةٍ استفهاميَّةٍ أخرى، كما في آيتنا هذه. وهذا الاقتران أضفى على الجملة ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ فخامةً في التَّركيب وسموّا في المعنى، والبلاغيّون على أنَّه بمعنى أَخْبِرْني أو أخبِروني، وهذا المعنى ليس بلازم، وقد كانت نشأتُه في أروقة النُّحاة أوَّلًا، ثمَّ تلقّاها البلاغيّون عنهم.

ليس المرادُ من (أرأيتكم، وأرأيت، وأرأيتم): أخبِرْني أو أخبِروني، وإنَّما المرادُ: هو استحضارُ الأمر المستفهَمِ عنه، وتصوُّره

(1) شهاب الدين، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 1/55، والخطيب، تفسير المنار: 7/340، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 215.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/161، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/507، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/132، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 166 - 167.

في الذِّهن ليُحكَمَ عليه، وهو حاضرٌ ماثلٌ في النُّفوس، وعُبِّر عن هذا التَّصوُّر الذِّهنيّ بالرُّؤية (البصَريَّة) في قوَّة الظُّهور والمثول، أعني: أنَّ الاستحضار الذِّهنيَّ المطلوب ينبغي أن يكون كاملًا حتَّى لكأنَّ صاحبَه يراه ماثلًا أمامه، كما يكون شخصٌ ماثلًا أمامه ينظرُ إليه بكلِّ وضوح.

وتطبيقُ هذه الفكرة على آيتنا هذه ميسورٌ، فإنَّ اللّه تعالى يدعو المخاطَبين إلى أن يتصوَّروا أنفسَهم واقعًا عليهم عذابٌ عظيم من فوقهم ومن تحت أرجلِهم ومن ورائِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ ليتصوَّروا أنفسَهم في لُجَّة هذا العذاب، فتقعُ منهم الإجابةُ صادقةً[1].

نكتة استعمال ﴿إِنْ﴾ دون (إذا) في السِّياق:

حرص القرآن على زرع بذور الأمل، في هداية الضّالين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطية هنا دون (إذا)؛ لأنَّها تختصُّ بالدُّخول على غير مُتحقِّقِ الوقوع، وهو أنَّهم لن يدعوا غيرَ اللّه في هذا الموقف، وعليه قد عدلَ عنِ استعمال (إذا) في هذا المقام؛ لأنَّ (إذا) تختصُّ بدخولها على مُتيقَّنِ الوجود، ففي هذا الاستعمال إرخاءٌ لعَنان التَّفكر والاهتداء، ولو قال: (إذا أتاكم..)؛ لوقع اليأسُ منَ الإيمان.

سرُّ إيثار لفظِ (الإتيان) على (المجيء)، في قوله: ﴿أَتَىٰكُمْ﴾:

تلويحٌ للمخاطَبين بهوانِهم على اللّه تعالى، إن أصرُّوا على شركِهم

ذكر السّيوطيُّ أنّ " (جاء) تُقالُ في الجواهرِ والأعيانِ، و(أتى) في المعاني والأزمانِ"[2]، و(أتى) أخفُّ من (جاء)[3]؛ لأنّه مجيءٌ بسهولة؛ وقد آثر السّياقُ اختيارَ لفظِ الإتيانِ، وذلك لبيان يُسرِ إتيانِ العذابِ، وأنَّ حالَ المخاطَبين ليس في رفعةٍ مانعةٍ من حلولِ العذابِ

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/341، والمطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/302 - 308.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/30.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى، جاء).

بهم، ففي استعمالِ هذا اللَّفظِ إيماءٌ وتلويحٌ بهوانِ المخاطَبين عند اللّه تعالى، إنْ هم أصرّوا على ما هم عليه.

سرُّ التَّعبير بلفظ (العذاب)، دون ما يقاربه في الدّلالة:

أهوالٌ تبرزها المعاني، في ظلالِ ألفاظِها

جاء التَّعبيرُ بلفظ العذاب في الآية دون مرادفاته؛ لأنَّه يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشِّدة، حتَّى وإن لم يوصفْ بالشَّديد أو الأليم ونحوِ ذلك، أمّا العقابُ - مثلًا - فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباط العقوبةِ بالذَّنب، فإذا عظُم الذَّنبُ؛ عظُمتِ العقوبةُ، زِدْ على ذلك أنَّ العذابَ يكونُ عامًّا فيمن يستحقُّه ومن لا يستحقُّه بالشِّدّة نفسِها، وبما أنَّ الشِّركَ باللّه من أعظم الذُّنوب؛ آثر استعمالَ العذاب على غيره من مرادفاته.

فائدةُ تعريف ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، بالإضافة دون (الْ):

الإضافة للتّهويل

إضافةُ العذابِ إلى اسم الجلالةِ في قوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ دون أن يأتي معرَّفًا (العذاب) لزيادةِ تَهويلِه؛ وذلك لصُدورِه عن أقدَرِ القادرينَ[1].

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿أَتَىٰكُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى حصول شيءٍ لم يكنْ حاصلًا

إتيان العذاب: حلوله وحصوله، فهو مجازٌ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المجيء، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقر فيه مفعول الإتيان، فيطلق مجازًا على حصول شيء لم يكن حاصلًا، وكذلك القول في إتيان السّاعة سواء[2].

وجاهةُ تقديم ذِكر (العذاب) على ذكر (السَّاعة):

تقديم العذاب على السّاعة، ترهيبٌ للمنكرين، ورحمةٌ للمذنبين

المقصودُ بعذاب اللّه في الآية الكريمةِ ما يقعُ على المشركين من عذابٍ متوقَّعٍ في الدُّنيا نتيجةَ شركهم وعبادتهم غيرَ اللّه تعالى، أمّا السّاعة؛ فهي اسمٌ للوقت الذي يُصعقُ فيه العبادُ، واسمٌ للوقت الذي يُبعث فيه العبادُ، وفيه منَ الهول العظيمِ ما لا يوصفُ، وهو مآلٌ واقعٌ لا مفرَّ منه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/223.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/223.

وقد تأخَّر ذِكرُ إتْيانِ السّاعةِ على العذاب، في قولِه: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لمجموعةٍ من النِّكات: الأولى: الاعتناء بما هو متقدِّمٌ زمانًا على المتأخر زمانًا، والثّانية: مزيدُ تحذير من وقوع عذاب اللّه في الدُّنيا، فإنَّ ذكرَه يُلوِّح بحلوله إن أصرّوا على كفرِهم، والثالثة: تقديم المتوقَّع على المتحقق بغرض التَّرهيب والوعيد، فينال كُلُّ ظالمٍ جزاءَه ويتبيَّن لكلِّ مُشرك أنَّ اللّه واحدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، وبهذا التّرتيب تتَحَقَّقُ القيمةُ الهِدائيّةُ.

معنى حرف ﴿أَوۡ﴾ في الآية الكريمة:

عذاب الله يَتَلوّنُ بِتَلَوّنِ الكفر والعصيان

أفاد حرف العطف (أو) في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ معنى التَّفصيل، حيث ربط بين السّابق واللّاحق، مع إفادة تعدّد الأحوال التّي يوقِعُها اللّه تعالى على عبيده، لأنّه هو المتصرّف الّذي بيده أمرُ كلِّ شيء.

نكتةُ تكرير ﴿أَتَتۡكُمُ﴾، دون الاكتفاء بإتيان العذاب:

إعادةُ اللّفظ لتقريره في النّفوس، وترسيخه في الأذهان

أعادَ الفِعْلَ (أتى) مَع كَونِ حَرفِ العَطفِ ﴿أَوۡ﴾ مُغنيًا عَن إعادةِ العامِلِ؛ بأن يُقالَ: (إنْ أتاكُم عَذابُ اللّهِ أوِ السّاعَةُ)، وهو ما يوَجَّهُ به الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ مِن إرادةِ الاهتمام بالمُظْهَرِ، بِحيث يُعادُ لفظُه الصَّريحُ؛ لأَنَّه أَقوَى استِقرارًا في ذِهنِ السّامِعِ[1].

قال ابنُ عرفةَ: "إن قلتَ: لمَ أعاد الفعلَ، والأصلُ في المعطوفات المتَّفقةِ الألفاظِ الاكتفاءُ بالأول، فيُقال: أرأيتم إنْ أتاكُم عذابُ اللّه أو السّاعةُ، فأجاب بأنَّه إذا كان صدورُ الفعل الأوّلِ من فاعله أقوى بالمعنى من صدور الثّاني عن فاعله أو العكسُ، فيُعادُ لفظُ الفعل الأوّل، وإن لم يكن بينهما تفاوتٌ، ولا اختلافٌ في إحداث الفعل؛ فيُكتفى بالأوّل، ولا شكَّ أنّ إتيان عذابِ اللّه مغايرٌ لإتيان السّاعة"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/223.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/154.

نكتةُ ذكرِ السّاعة دون مرادفاتها المفيدةِ:

السّاعةُ اسمٌ لوقتٍ تقومُ فيه القيامةُ، سُمّي بها؛ لأنَّها ساعةٌ خفيفةٌ يحدثُ فيها أمرٌ عظيمٌ وهي القيامةُ(1)، فذِكْرُها أغنى عن ذكر القيامةِ ومرادفاتِها؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذّكر.

غرضُ الاستفهام في قولِه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾:

إلجاءٌ إلى الإقرار بالجواب

قولُه تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ مناطُ الاستخبار ومحطُّ التَّبكيت، وهو استفهامٌ تقريريٌّ، جيء به للتَّوبيخ والتَّقريع والتَّعجّب من حالهم، يُراد به أخذُ اعترافِ هؤلاء المشركين باللّه(2).

وقد أضاف تصدّرُ همزةِ الاستفهام لجملة القصر معنًى آخرَ؛ جاء من خروج الاستفهام عن معناه الحقيقيِّ: وهو تبكيتُهم وإلجاؤُهم إلى الإقرار بالجواب(3)، فتمَّ بهذا الاحتجاجُ على الكفّار الجاعلين للّه شركاءَ.

دلالةُ لفظ ﴿أَغَيۡرَ﴾ على العُموم:

كلّ من يدعو غيرَ الله، فهو مَهين ومُهان

التَّعبيرُ بـ ﴿أَغَيۡرَ﴾ أفاد العمومَ، وقد جاءت لتُصَوِّرَ عِظَمَ جُرْمِ مَنْ يدعو غيرَ اللّه تعالى، أو يتوكّلُ على غيره من مخلوقاته، ويُلحظُ أنَّ هذا التَّعبيرَ فيه تقزيمٌ وتجهيلٌ واستهانةٌ بالدّاعي وتحقيرٌ بالمدعوّ، وفي الوقت نفسِه أفادتْ حصرَ العبادة باللّه ﷻ دون غيره.

سرُّ تقديم ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ على فعل ﴿تَدۡعُونَ﴾:

الأفعالُ لا تُذمُّ إلّا باعتبار متعلّقاتها، ودورها أساسيّ في التّركيب

في قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ مِنَ التَّبكيتِ ما هو ظاهرٌ، وسرُّ تقديم ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ على عامله ﴿تَدۡعُونَ﴾؛ لتكونَ الجملةُ المُستفهَمُ عنها جملةَ قَصْرٍ، وذلك إمّا للاختصاص، بمعنى: أَتَخُصّون آلهتَكم بالدَّعوة فيما هو عادَتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ، أم تَدْعونَ اللّهَ دونَها؟

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/154، والبروسويّ، روح البيان: 3/29.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/132، والبروسويّ، روح البيان: 3/29، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/177، وطنطاويّ، الوسيط: 5/72.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/22، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/165.

وإمّا للإنكارِ عليهم في دُعائِهم للأصنام؛ لأنَّ المُنْكَر إنَّما هو دعاءُ الأصنام، لا نفسُ الدُّعاءِ، ألا ترى أنَّك إذا قُلْتَ: أزيدًا تَضْرِبُ؟ إنما تُنْكِرُ كونَ زيدٍ مَحَلًّا للضَّرْب، ولا تُنْكِرُ نفسَ الضَّرْب[1].

دلالة ذكرِ لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في السّياق:

انتهاجُ أسلوبِ اللّين، لاستمالة القلوبِ، وإقامةِ الحُجّة عليها

لا يخفَى ما في اسم الجلالة مِنَ الهيبة والعظمةِ والأثرِ العظيم في النُّفوس؛ رهبةً، وخوفًا، ولينًا، وانقيادًا، وهذا ما نجدُه متحقِّقًا في الآية الكريمة، وأبعدُ من ذلك فالآية مصنَّفةٌ عند علماء البيان من باب استدراجِ المخاطَب، وهو أن يليّنَ الخطابَ، ويمزجَه بنوع مِنَ التّلطّف والتّعطّف حتَّى يوقعَ المخاطَبَ في أمر يعترفُ به، فتقومَ الحجَّةُ عليه، واللّه تعالى خاطب هؤلاء الكفّارَ بلينٍ مِنَ القول، وذَكَر لهم أمرًا لا ينازِعون فيه، وهو أنَّهم كانوا إذا مسّهم الضُّرُّ دعَوُا اللّه لا غيرَه[2].

نكتةُ استعمال الفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾ دون (تُنادُون):

لفظُ (الدُّعاء) يجمعُ بين النِّداءِ والعبادة

استُعمل لفظُ الدُّعاء في هذه الآية، في معنى الاستغاثة، ويكونُ الدُّعاءُ بصوتٍ جَهريٍّ أو خفيٍّ، ويكونُ الدُّعاءُ عبادةً، كما في هذه الآية الكريمة، أمّا النِّداء فلا يُستعملُ في معنى العبادة، وكذلك لم يُستعملْ في معنى الدُّعاء السّري، ولا في معنى الكلام القلبيِّ، بل في معنى الصَّوت الجَهري أو الكلام الجَهري؛ لذلك آثر استخدامَ ﴿تَدۡعُونَ﴾ دون (تنادون)؛ فهو أشملُ وأوسعُ دلالةً، لدخول معنى النِّداء والعبادة.

موقعُ جملة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ممَّا قبلها:

في التّذييل تبكيتٌ وتوبيخٌ

تذييلٌ لما سَبق أفاد تأكيد التَّبكيت، الَّذي في جملة القصر؛ ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾.

(1) الزمّخشريّ، الكشّاف: 2/22، والبيضاوي، أسرار التّأويل: 2/161، والسّمين، الدّر المصون: 4/627، وابن عاشور التّحرير والتّنوير: 7/224.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/511.

عند الاضطرار لا أمل للمشركين في دعاء غيرِ الله

حذفُ جوابِ جملة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

جملةُ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مستأنفةٌ، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ الذي هو بمعنى التَّقرير، وتقديرُ الجواب: إن كنتم صادقين فأنتم مُقرّون بأنّكم لا تدعون غيرَ اللّه(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أتى) و(جاء):

الإتيان للأمور الّتي يُتوصَّل إليها بسهولة، والمجيء لِمَا فيه صُعوبةٌ ومشقَّةٌ

تشترك المادّتانِ المُعجميّتان في دلالة القُدوم والإقبال، غير أنَّ بينهما فُروقًا تتكشَّفُ عند تأمُّلِ السّياق، إذ نجدُ (أَتَى) مُستعمَلَةً في الأمور التّي يُتوصَّل إليها بسهولة، أو تكونُ في سياقٍ تَنْسابُ فيه المعاني بسهولةٍ؛ لذلك جاء التَّعبيرُ بها في هذه الآية؛ لأنَّ أمرَ عذابهم سهلٌ في الدُّنيا ويومَ القيامة، وأمّا المجيءُ فيأتي لِما فيه صُعوبةٌ ومشقَّةٌ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى لفظ كلٍّ منَ الفعلَيْن، فـ (أتى) أخفُّ من (جاء)، وممّا يدلّنا على ذلك أنَّ (أَتَى)، يؤخذُ منهما الأزمنةُ الثَّلاثةُ: الماضي، والمضارعُ، والأمرُ، فنقولُ: أتى، ويأتي، وائْتِ، وكلُّها وردت في القرآن، في حينِ وردَ الفعلُ (جاء) ملازِمًا حالةً واحدةً، وهي صيغةُ الماضي فحسبُ، لِثقَلها فلا تجدُ في القرآن الكريم يجيء أو جِئْ، ولا يخفى ما فيها منَ الثِّقل والصُّعوبة(2).

العذاب والعقاب والجزاء:

العذابُ الألمُ الثَّقيلُ، والعِقابُ ما يكون عن استحقاق، والجزاء للمقابل أيًّا كان

العِقابُ يُنبئُ عنِ استحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّه عَقيبَ فِعله، ويجوزُ أن يكون العذابُ مُستحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، وأصلُ العقاب التَّلوّ، وهو تأديةُ الأوَّل إلى الثّاني يُقال: عقبَ الثّاني الأوَّلَ إذا تَلاه. وذَكر الكفويُّ أنَّ العِقاب هو جزاءُ الشَّرِّ، والنَّكالُ أخصُّ منه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224، وطنطاوي، الوسيط: 5/72.

(2) الراغب، المفردات: (أتي)، والدوري، دقائق الفروق البيانية، ص: 229.

وأنَّ الجزاءَ إذا أُطلقَ في معرِض العقوبات يُراد به ما يجبُ حقًّا لله تعالى بمقابلةِ فِعلِ العبد؛ لأنَّه المجازي على الإطلاق... والعذابُ: الألمُ الثَّقيلُ(1).

الدُّعاء طلبُ الفعل أو النّفع، وأصله طلبٌ من الله، والنّداء رفعُ الصَّوت بما له معنى

الدُّعاء والنِّداء:

قال العسكريُّ: النِّداءُ: هو رفعُ الصَّوت بما له معنى، والدُّعاءُ: يكونُ برفع الصَّوت وخفْضِه، يُقال: دعوتُه من بعيد، ودعوتُ اللّٰه في نفسي، ولا يقال: ناديتُه في نفسي، وأصلُ الدُّعاء طلبُ الفعل؛ دعا يدعو. وقال الرّاغبُ: الدُّعاء مثلُ النِّداء، إلّا أنَّ النِّداء قد يُقال: بـ (يا) أو أَيا ونحوِ ذلك من أدوات النِّداء من غير أن يُضمَّ إليه الاسمُ، أمّا الدُّعاء، فلا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسمُ، نحوَ: يا فلان، وقد يُستعمل كلٌّ منهما في موضع الآخر، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171](2).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 364، والكفوي، الكليات، ص: 653، و654.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 534، والرّاغب، المفردات: (دعا).

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ [الأنعام: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عندما يَحيقُ بالمشركين عذابُ الله يلجأُون إليه ليكشفَ عنهم ما أصابهم

لَمّا كان استفهامُ الإنكارِ في قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ من الآيةِ السّابقة، بمعنى: النَّفْي، كأنَّه قيل: لا تَدْعوا غيرَهُ؛ عَطَفَ عليه قولَه: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾[1]، ليكون جوابًا كاشفًا عن حقيقةِ فعلِهم عند الاضطرار ووقوعِ الأخطار.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَيَكۡشِفُ﴾: الكَشْفُ: رَفْعُ الغِطاءِ والحِجابِ، وأَصْلُه: إِزالَةُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ وتَعْرِيَتُهُ مِنْهُ، ويأْتي بِمعنى الإِظْهارِ والبَيانِ، يُقالُ: كَشَفَتِ المَرْأَةُ عن وجهِها، أي: أَظْهَرَتْه وبَيَّنَتْه، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإِبْرازُ، والتَّفْسيرُ[2].

2) ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾: النِّسيانُ: جَهْلُ الإِنْسانِ بما كانَ يَعْلَمُهُ ضَرورَةً مَعَ عِلْمِه بِأُمورٍ كَثيرَةٍ لا بِآفَةٍ، أو هوَ عَدَمُ ذِكْرِ ما قَدْ كانَ مَذْكورًا، وهو ضِدُّ الذِّكرِ والحِفْظِ، ومِن مَعانيه: الغَفْلَةُ والسَّهْوُ والتَّرْكُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُكذّب مُضطرٌّ للّجوء إلى الله وحده عند المِحَن

استرسالاً في تقرير الحُجّة على المشركين يأتي الجواب على لسان المقرّر يقول: إنّكم أيُّها المشركون المكذّبون لا يُمكِنكم أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/112، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/132.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كشف).

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (نسي).

تلجأوا لغير اللّه تعالى إن أتاكم عذابُه، حتّى إنّكم تتوجّهون إلى اللّه بالدعاء في ساعات البلاء، وتخُصّونَه بالتّضرُّعِ؛ ليكشفَ عنكم ما نَزَلَ بكم من عذاب الدّنيا، فيرفع عنكم البلاء إن شاء أن يرفَعَه، تفضّلًا منه، بلْ إنّكم تَتْرُكون أصنامكم حين نزول البلاء لعلمكم أنّها لا تضرُّ ولا تَنْفَع(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الإضراب بالحرف ﴿ بَلْ ﴾، عنِ السُّؤال بالجواب عنه:

لا يسَعُ المسؤولَ أنْ يُجيبَ بغير هذا الجوابِ

﴿ بَلْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ حرف إضراب وانتقال إلى معنى آخر دون أن يبطل ما تقدَّم؛ لأنَّ هذا لا يكون في كلام اللّه تعالى، فهو حرف جيء به للحكم على دعوة غير اللّه بالبطلان، أي: فأنا أُجيب عنكم بأنَّكم لا تدعون إلّا اللّه، ووجه تَولّي الجواب عنهم مِن السّائل نفسِه أنَّ هذا الجواب لمّا كان لا يسعُ المسؤولَ إلّا إقرارُه؛ صحَّ أن يتولَّى السّائلُ الجوابَ عنه(2).

فائدةُ تقديمِ المفعولِ ﴿ إِيَّاهُ ﴾، على الفعل ﴿ تَدْعُونَ ﴾:

تتوجّهُ القلوبُ إلى الله تعالى، عند نـزولِ الضُّرّ والبلاء

قدَّم سبحانه المفعولَ على الفعل في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، لإفادة الاختصاص والقَصْر، وهو قصرُ صفةٍ على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أي: لا تدْعون إلّا إيّاه؛ لأنَّ دعاءَهم اللّهَ عند الشَّدائد دون سواه حقيقةٌ يشهدُ الواقعُ بها، وكذلك يدلُّ على أنَّ المشركين مهما بلغ ضلالُهم؛ فإنَّهم عند الشَّدائد يتَّجهون بتفكيرهم إلى القوَّة الحقيقيَّة المُنجية الخالقةِ لهذا الكون(3).

سببُ ذكر ضميرِ الجلالة ﴿ إِيَّاهُ ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: ذكرتِ الآية المفعولَ به ضميرًا

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/285.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2494.
(3) البيضاوي، أسرار التَّأويل: 2/161، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224 - 225، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.

الإضمارُ أبلغُ منَ الإظهار، في مخاطَبة النُّفوسِ المتكبّرةِ

بدلَ الاسم الظّاهرِ وهو لفظُ الجلالةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: 66]، لنُكتةٍ إيحائيّةٍ وهي تلويحُ الخطاب بما استقرَّ في نفوس المخاطَبين، أي: الذي تعرفونه مُنجيًا مُنقذًا على الحقيقة، والإضمارُ هنا أبلغُ منَ التَّصريح، لاسيَّما أنَّه صُرِّح باسمه سبحانه في الآية السّابقة.

غرضُ حذفِ مفعولِ الفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾:

تفرُّدُ الله تعالى بالإجابة، هو ما تقرُّ به نفوسُ المخاطَبين

حُذِف مَفْعولُ: ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾، وهوَ ضَميرُ اسْمِ الجَلالَةِ، أَيْ: ما تَدْعونَهُ[1] إلى كشْفِه، وغرضُ الحذفِ تمحيضُ النَّظرِ للدُّعاءِ، وهو ما يُصوِّرُ شدَّةَ احتياجهم بسبب كبيرِ الاضطرار، وللعلمِ بمن يُدعى حينئذٍ؛ إذ هو الواحدُ الأحدُ في القدرةِ على الاستجابةِ دون سواه.

دلالة العطف بحرف الفاء في ﴿فَيَكۡشِفُ﴾:

تطميعُهم بدوام الالْتجاء

دلَّت الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ على ترتيب فعل الكشفِ على الدُّعاء وسرعة الإجابة، وهذا إطماعٌ في رحمَةِ اللّهِ؛ لعلَّهم يَتَذكَّرونَ[2].

بلاغةُ استعمالِ فعلِ (يكشف)، دون ما يُقاربه في المعنى:

تصويرُ إحاطةِ الضُّرِّ، وبيان اليأس من دفعِه

في قوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ جاء التَّعبيرُ بالفعل (يكشف) لما يتضمَّنه من قوة معنى لا تتوافر في مرادفاته، فمعنى (يكشف): يُزيل الضُّرَّ، فكأنَّ الشِّدَّة غطاءٌ غامرٌ محيطٌ، وإزالتُه: كشفُه، ففي هذا التَّعبير استعارةٌ فيها تشبيهُ حال إزالةِ الشَّرِّ، بحال كشفِ غطاءٍ غامرٍ مُؤلم، بجامع إزالةِ الضُّرّ في كلٍّ، وإظهارِ السَّلامة[3]، وفي هذه الاستعارةِ تصويرُ إحاطة الضُّرِّ بهم، ويأسِهم من دفعِه بأنفسِهم.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/224 - 225، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2494.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2495، وطنطاويّ، الوسيط: 5/73.

سِرُّ تقديم ﴿فَيَكۡشِفُ﴾ على ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾:

نسيانُ الآلهةِ المزعومةِ في مواضعِ الاضطرارِ، دليلُ عقيدةِ الاجترار

عطف قوله: ﴿فَيَكۡشِفُ﴾ على ﴿تَدۡعُونَ﴾، وقد قدَّم الكشفَ - مع تأخره - على النِّسيان، وعلى الدُّعاء أيضًا؛ ولو نُظِم الكلامُ في غير القرآن؛ لقيل: بل تنسون ما تشركون، وإيّاه تدعون، فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاء؛ والسِّرُّ في هذا التَّقديم؛ إظهارُ كمالِ العنايةِ بشأنِ الكَشْفِ والإيذان بترتُّبه على الدّعاء خاصّةً، وفيه إطماعٌ في رحمة اللّه لعلّهم يتذكَّرون[1]، فهو توجيهُ الأنظارِ إلى المعتبرِ في الدُّعاءِ على الحقيقة، وبيانِ حال الآلهةِ، وأنَّها في موضعِ نسيانٍ وتناسٍ في النَّفسِ والذِّكر اللَّفظيِّ.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾، بدلًا منَ الاسم الموصول الظَّاهر:

اشتمال السّياق على كلِّ مدعوٍّ في دفع الضُّرِّ من دون الله تعالى

عبَّر عن آلهتهم بـ ﴿مَا﴾ الَّتي هي لغير العاقل؛ تحقيرًا للمشركين، وقيل: هي على حذف مضافٍ، والتَّقديرُ: وتنسون دعاءَ ما تشركون، أو ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، والتَّقديرُ: وتنسون الإشراكَ[2]، والصَّحيحُ: أنَّها موصوليَّةٌ جيءَ بها لتعمَّ كلَّ ما أشركوه مع اللّه تعالى في دفعِ الضُّرِّ، ولتنزيلِها منزلةَ غيرِ العاقل، بغرضِ تحقيرِ ذلك العقلِ الذي يدعو من لا يعقلُ الأمرَ، ولا يفهم السِّرَّ.

بلاغةُ استعمالِ حرف (إلى)، في قوله: ﴿تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾:

تحقيقُ مقامِ الإخلاص عند الدّعاء، ضرورة للقبول

عُدّيَ الفعلُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بحرف الانتهاءِ (إلى) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾: لتضمُّنه معنى التّضرّعِ، والمعنى: فيكشفُ سبحانه ما تدعون مُتضرّعين إليه، وفائدةُ التّضمينِ الإيجازُ وتوسيعُ الدّلالةِ، حيث تضمّنتِ العبارةُ القرآنيّةُ معنَيَيْن باستعمالِ فعْلٍ واحدٍ.

غرضُ قيْدِ ﴿إِن شَآءَ﴾:

غرضُ القيدِ: ﴿إِن شَآءَ﴾ الاستثناءُ؛ لأنَّ المحنةَ إذا أظلَّت عليهم؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/133، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/146.

فدعَوْه إلى كشفها وصرفِها، فهو لا إله إلّا هو كاشفٌ إن شاء، ومصيبٌ إن شاء لا يجبُ عليه شيء، وإنّما قيَّد كشف الضُّرّ عنهم بالمشيئة؛ لأنَّه إطماعٌ لا وعدٌ[1].

كشفُ الضُّرِّ إطماعٌ لا وعدٌ

دلالة حذفِ جواب الشّرط ﴿إِن شَآءَ﴾:

حُذفَ جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾؛ لفهم المعنى ودلالة ما قبله عليه، أي: إن شاءَ أن يكشف الضُّرَّ كشَفَه؛ لأنَّه سبحانه لا يُسألُ عمّا يَفعل، وذلك في عذاب الدّنيا، وأمّا إتيان السّاعة؛ فلا يكشفُ إلّا أن يُراد بإتيانها ما يحصل معها منَ القوارع والمصائب من خسفٍ وشِبْهِه، فيجوز كشفُه عن بعض النّاس، وممّا كشفه الله عنهم من عذاب الدُّنيا عذابُ الجوع الَّذي في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: 10 - 11][2].

اللّه كاشفُ كُربِ الدّنيا والآخرة إن شاءَ، لا سلطانَ لأحدٍ معه

دقّةُ التّعبير بفعل النّسيان: ﴿ تَنسَوۡنَ﴾:

ذهب الشِّهاب في حاشيته إلى أنَّ قوله: ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ يحتمل معنيين، الأول: مجازٌ عنِ التَّرك، والثّاني: أنَّه لشدَّة الهول ينسونَهم، فيكونُ حقيقةً، ولا يلزمُ أن يُنسى الله؛ لأنَّ المعتاد فيها أن يُلهَجَ بذكره ويُنسى ما سواه[3]، وإطلاقُ النِّسيان على التَّرك شائعٌ في كلام العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: 34][4]، فالنِّسيانُ هنا بمعنى: التَّرك، لا بمعنى: الغفلةِ، وهو أقوى في التَّبكيت[5].

النِّسيانُ يرادُ به هنا التَّرك، وهو في اللّغة عدم التّذكّر

إضافةً إلى أنَّ التَّعبير بـ ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ النِّسيان

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/291، وابن عاشور، التحرير التنوير: 7/225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.
(3) الشهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 4/59، والآلوسي، روح المعاني: 4/142.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/293.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 14/88، والبروسوي، روح البيان: 3/29.

مُؤقَّتٌ، بخلاف التَّرك؛ فهو كُلّيٌّ، أو الكفرُ، ففيه كشفٌ للنَّفس البشريةِ وما يعتريها من أحوالٍ مؤقَّتة تستجيبُ فيها لفطرتها، فهو دليلٌ على أنَّ القومَ لم يعبدوا الآلهةَ إلّا عن مصلحة مؤقَّتةٍ، ومتابعةٍ للآباءِ جهلًا وحماقةً.

نكتةُ المضارع، في قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

ترك الآلهةِ عند وقـوع المصائبِ، دلـيـلُ الغفلة قبل حصولها

جاءت الفاصلةُ هنا ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ جملةً فعليَّةً، معطوفةً على ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، والجملةُ الفعليَّةُ تفيدُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ، أي: نسيانُكم هذا مُتجدِّدٌ ومُتكرِّرٌ كلّما وقعتُمْ في الشِّدة، أو عرضَ لكم العذابُ، وفي قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ إمّا أن يكون المرادُ النِّسيانَ الحقيقيَّ، أي: الغفلةُ عنِ الأصنام حين يرون العذابَ، وينشغلون بالَّذي أَرسل العذابَ، فينسَوْن الأصنامَ الَّتي اعتادوا أن يَستشفعوا بها، وإمّا أن يكون النِّسيانُ مجازيًّا في التَّرك والإعراض، أي: وتُعرضون عنِ الأصنام، لعلَّهم في تلك اللَّحظة يستدلّون فيها على أنَّ غيرَ اللهِ لا يكشفُ عنهم شيئًا من هذا العذاب.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ [الأنعام: 42]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكافرون يَمتنعون عن قَبول الحقِّ في السّرّاء والضّرّاءِ

بَيَّن اللّه تعالى في الآية السّابقة أنَّ الكفّارَ عند نُزول الشَّدائد يَرجعون إلى اللّه تعالى، ثُمَّ بَيَّن في هذه الآية أنَّهم لا يَرجعون إلى اللّه عند كُلِّ ما كان من جِنس الشَّدائد، بل قد يَبْقَونَ مُصِرّين على الكُفر مُنجَمِدين عليه غيرَ راجعين إلى اللّه تعالى[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾: الأَخذُ هنا يدلُّ على الانتقام بشِدَّة وقوَّةٍ، وهو أيضًا تَناوُلُ الشَّيْءِ والحُصولُ عليه، وضِدُّه: العَطاءُ والتَّسْليمُ، وأَصْلُه: حيازَةُ الشَّيْءِ وجَمْعُهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: الشُّروعُ والبَدْءُ والقَبْضُ والالْتِزامُ والإمْساكُ والتَّلَقّي والمُجازاةُ[2].

2) ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: البَأْساءُ: اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسوءُ الحالِ، وقيل: البَأْساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها، وقيل: البأساءُ ضرّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِنَ البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليك، أي: لا خوفَ عليكَ[3].

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: أي: المرضُ والزَّمانةُ، وسوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ، وهي مقابِلُ السَّرّاءِ، والضُّرُّ: خلافُ النَّفْعِ[4].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).

(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 70، و81، وابن جرير، جامع البيان: 3/89، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 89، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بأس، بؤس).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ضر)، وابن الهائم، التبيان، ص: 156.

4) ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: التَّضَرُّعُ: إظهارُ التَّذلُّل، والخُضوع لله تعالى، والمبالَغةُ في السُّؤال، والرَّغبةُ مع الإخلاص، وأَصْلُ التَّضَرُّع: مِنَ الضَّرَعِ، وهو: اللّينُ والضَّعْفُ، ورَجُلٌ ضَرَعٌ، أي: ضَعيفٌ، ومِنْهُ ضَرْعُ الشّاة، سُمّيَ بذلك؛ لِما فيه مِنْ لينٍ، ومِنْ مَعاني التَّضَرُّعِ أيضًا: التَّخَشُّعُ والسُّكونُ والاسْتِغاثةُ[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تقليبُ العباد بين البأساء والضرّاء، لعلّهم يتضرّعون

البأساءُ والضّراءُ علاجٌ لأدواءِ الكفرِ والشِّرك، يُنعِمُ اللّه به على عبادِه ليرجعوا عمّا هم فيه، ويعودوا إلى رُشْدِهم، وقد أخبرتِ الآيةُ أنَّ اللّه ﷻ قد أرسل رُسلَه - عليهم السلام - إلى الأمم السّابقةِ، لكنّهم كفروا وعاندوا فعاقبَهمُ اللّه بألوانٍ منَ العذابِ الشّديدِ والبلاءِ المُؤلِم؛ لعلّهم يخضَعون ويَرجعون عن كُفرِهم وشِركِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾:

جُمْلَةُ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ معطوفةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، فالواوُ لِعَطْفِ الجُمَلِ، وقد تكونُ اسْتِئْنافيَّةً إِذْ كانَتِ المَعْطوفُ عَلَيْها اسْتِئْنافًا[2].

غرضُ الابتداء بلام القسم و(قدْ) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

تنزيلُ المخاطَبِ منزلةَ المُنكر، من فصيح البيان

الجملةُ خبريَّةٌ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ صُدِّرتْ باللّام الموطّئة للقسَم، و(قد)[3]؛ لتوكيد مضمونِ الجملة؛ وهو المفرّعُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[4]، فهو من باب تنزيل المخاطَبين منزلةَ من يُنكر أن تكون الأممُ السّابقة عوقِبَتْ على

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (ضرع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/226.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

الكفر والتّكذيب، وذلك بسبب موقفِ المشركين منَ الإيمانِ، وعدمِ تصديقِهم بما جاء فيه.

دلالةُ إسناد فعْلِ الإرسال إلى ضمير العظَمة في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

الكفر بالأنبياء يعاقب الله عليه، بأشدّ العُقوبة

إذا كان الأخذُ الإمساكَ بقوّة، فإنَّ قوّة هذا الأخذ ستكون أكثر تمكُّنًا؛ لأنَّه أخذ مِن قوي عزيز، وهذا ممّا دلّ عليه اتّصالُ الفعل بـ (نا) الدّالّةِ على العظَمة، فإنَّ من شأنِ العظيم أن يُستجابَ له، ويُطاعَ فيما يأمرُ به، ويَنهى عنه، فإذا خالفَ المرسَلُ إليه أمرَ المرسِلِ؛ فقد تعرَّض للعقوبة.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

البلاغةُ تكمنُ في الإفصاحِ عنِ المقصودِ، وطيِّ ما سِواه

منَ البلاغة في الآية الكريمة حذفُ مفعولِ: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾؛ والتّقديرُ: رُسُلًا، وحَسُن ذلك؛ لدلالة الكلامِ عليه[1]، وفي الآية حذفٌ آخر، دلَّ عليه الكلامُ أيضاً؛ تقديرُه: ولقد أرسلنا إلى أُمم مِن قبلك رُسلًا، فكذَّبوهم فأخذْناهم؛ وقُدِّر المحذوفُ على نحو ما ذُكر؛ لأنَّ سببَ أخْذِه ﷻ إيّاهم تكذيبُهم الرُّسلَ، ومخالفةُ أمره، وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف، والّذي سوَّغه عِلْمُ السّامع به، ودلالةُ الكلام عليه[2]، ونُكتتُه العنايةُ بالإرسال والأخذِ الصّادرَيْن عنِ اللّه تعالى، بقطعِ النَّظر عن ذكرِ المرسَلِ، وبيانِ موقف المكذِّبين، فإنَّ السّياق هو سياقُ تهديدٍ ووعيدٍ، فالأنسب طيُّ الكلامِ بما يناسبُ المطلوبَ.

وجهُ تعدِيةِ فعلِ الإرسال، بحرف انتهاءِ الغايةِ:

تعديةُ الإرسال بـ (إلى) للتَّبليغ، وبـ (في) للمكث

تعدَّى فعلُ الإرسال بحرف انتهاء الغاية (إلى) دون حرف الظَّرفيَّة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾؛ ذلك أنَّ الإرسالَ في هذه الآية يقتضي التَّبليغَ، ولا يقتضي المكثَ. نقول: أرسلتُه إليه إرسالًا، أمّا تعديةُ الفعل بحرف الظرفيَّة، كقوله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والبقاعي، نظم الدرر: 7/113.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والرّازي، مفاتيح الغيب: 12/533.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]؛ فيقتضي التَّبليغَ والمكثَ.

دلالةُ الجمع والتَّنكير في لفظ: ﴿أُمَمٖ﴾:

المكذِّبون ينتهي بهمُ الحال، إلى النَّكارةِ النَّكراء

دلَّ الجمع والتَّنكير في قوله تعالى: ﴿أُمَمٖ﴾ على أمرين: التَّنكيرِ والتَّكثير، أي: أُممٌ كثيرون من قَبْل، وهذه الدَّلالة مُستفادةٌ بمعونة السّياق، فالمقامُ مقامُ تسليةٍ للنَّبي ﷺ وتكرمةٍ له بإيذانه بأنَّ اللّه ناصرُه على مُكذّبيه، وأنَّ اللّه تعالى قادرٌ على أَخْذِهم باقتدار، فذكرُ الأممِ دون وصفٍ أو تعريفٍ يدلُّ على أنَّ حالَ المكذِّبين مِنَ المشركين سينتهي بهم إلى ما انتهت إليه الأممُ السّابقة من النَّكارةِ.

سرُّ استعمال لفظ ﴿أُمَمٖ﴾ دون أقوام:

الأقـوام أدعـى لأن يُـؤخـذوا، ما دامت الأمـم الـكـبرى قد أُخِذَت

مِن دِقّة التَّعبير في النَّظم القرآني: التَّعبيرُ عمَّن أرسل اللّه تعالى إليهم رُسلَه، وأخْذِهم بالعذاب بكلمةِ ﴿أُمَمٖ﴾ دون غيرها ممّا يحمل معنى الجماعة، ولعلَّ ذلك لما تؤدّيه هذه الكلمةُ من معنى، فـ (أمم) جمع أمَّة، أي: أناس يؤمُّ بعضُهم بعضًا، وهم أهلٌ لأن يقصدَهم القاصدون؛ لكثرتهم وعظَمَتِهم[1].

ولعلَّ في ذلك دلالةً على أنَّ عظمتَهم وكَثرتَهم ما كانت لتغني عنهم مِنَ اللّه شيئًا حين استكبروا وعصَوا اللّه تعالى ورُسلَه عليهم السلام، فكأنَّ فيه تحذيرًا للسّامعين من مغبَّة إعراضِهم، وتماديهم في غيِّهم، فإذا كانت الأممُ الكبيرةُ قد أُخِذت؛ فكيف بالأقوام؟ فهو تنبيهٌ للأدنى بالأعلى.

وجه تقديم ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾، على ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

يعني أنّ اللّه تعالى أرسلَ رُسلًا كثيرين إلى أُممٍ كثيرةٍ كانت قبْلَ زمانِ النّبيّ ﷺ، فقيدُ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ صفة ساغ تأخيرها عن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

ساغ تقديم الموصوف على الصّفة لأهميّته في ترسيّة المعنى

موصوفها الذي هو ﴿أُمَمٍ﴾ بحسب الرّتبة النحوية، وقد جاءت على مقتضى الظاهر، إشارةً إلى أن ما يقتضيه الإرسالُ إلى الأمم انْتهى، وأنّ النّبيَّ ﷺ هو خاتم الأنبياء، وفيها إشعارٌ بأنّ أمّته ﷺ هي الأمَّة الخاتمة، والتّقديرُ: لقد أرسلنا إلى أمم ماضيةٍ أو سابقةٍ لعصرك، وعليهِ فإنّ تقديم ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ يفيدُ مزيدَ الاهتمام، والتقديم في الكلام لما بيانُه أعنَى ووجْهُه أنْسَبُ للسّياقِ الذي جاءت به سورةُ الأنعام.

دلالةُ حرفِ ﴿مِّن﴾، في قوله: ﴿قَبۡلِكَ﴾:

الإشارةُ إلى أنّ ما حصلَ للسّابقين، سوف يحصلُ للمُعاصِرين

من جمال التَّعبير القرآني الإتيانُ بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، فيقال - في غير القرآن - : (ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك)، لكنَّ هذا - وإن استقام بناءً - فلن يستقيم معنًى؛ لأنَّ في ذِكر حرف الجرِّ هنا لطيفةً تفيدُ الإشارةَ إلى بعض الأُمم المرسَلِ إليها، لا كلِّها، وهي الَّتي أراد اللّه تعالى قصَّ أخبارِها، وهي التي عاقبها - ﷻ - على تكذيبِها[1]، ويظهرُ كذلك أنَّ النَّصَّ على القبْلِيَّةِ لبيانِ قُربِ عهدِهم، فهم ليسوا بعيدين في الزَّمانِ، فما حصلَ لهم يحصلُ لمن جاء بعدَهم.

بلاغةُ الإشارة إلى المرسلين في قوله: ﴿قَبۡلِكَ﴾:

رسالةُ النّبيّ ﷺ، استمرارٌ لرسالات السّابقين

لما حذف ذِكر مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وهم المرسلون؛ كان مِن اللَّطيف أن تكون الإشارة إليهم - ضِمنًا - من خلال إضافة الظَّرف إلى الضَّمير المقصودِ به النَّبي ﷺ، الّذي هو خاتم النّبيّين.

نوع الفاء في قولِه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ عطفٌ على ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ باعتبار ما يُؤذِنُ به وصفُ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ من معاملة أُممِهم إيّاهم بمثل ما عاملك

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

معرفةُ حكمةِ اللهِ تعالى، تُعينُ على تقديرِ المحذوفاتِ في نظْمِ القرآن

به قومُك، فيدلُّ العطفُ على محذوفٍ تقديرُه: (فكذّبوهم)، وهذه الفاء هي الفصيحة التي تُنبئُ عن كلام محذوف، وهذا التَّقديرُ مبنيٌّ على معرفة حكمةِ اللّه تعالى المتمثِّلةِ بزجْرِ الأمم عنِ التَّكذيب، وإكرامِ الرُّسلِ بالتَّأييد بمرْأًى منَ المكذِّبين، وفيه تكرمةٌ للنَّبي ﷺ بإيذانِه بأنَّ اللّه ناصرُه على مُكذِّبيه(1).

دلالةُ (الفاء) على سرعةِ الأخْذ في زمان الرُّسل:

أخذُ المُكذّبين، دليلُ نصرِ الرّسل المكرّمين

عُطفتْ جملةُ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ بالفاء دون (ثمَّ)، ولعلَّ ذلك للإشارة إلى أنَّ أخذَهم بالبأساء والضَّراء كان مقارِنًا لزمن وجود رُسلهم بين ظَهْرانَيْهم، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ ذلك الأخذَ كان بمرأًى من رُسلِهم، وقبل رحيلهم عنِ الدُّنيا؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى أيَّد رُسلَه ونصرَهم في حياتِهم، وهذا إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى ناصرٌ نبيَّه محمَّدًا ﷺ على مُكذِّبيه، ففيه تكريمٌ له ﷺ ووعيدٌ لمن كذَّب به(2)، وهذا ما يشهدُ له عمومُ الآياتِ القرآنيَّة.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾، دون (فعاقبناهم):

عقابُ اللهِ المشركين شديدٌ، وعذابُه دائمٌ وأليمٌ

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ مجازٌ؛ فالأخذُ هو الإمساكُ بقوَّةٍ، وبطشٍ وقهرٍ، فهو مجازٌ عن مُتابعة العُقوبة والملازمة(3)، أمّا العقوبة فهي مجازاة بالذَّنب، ولا يُشترطُ أن تكونَ شديدةً أو أليمةً أو مُهينةً، فقد تكونُ يسيرةً؛ لارتباطها بالذَّنب. ويوضّحُ ذلك بجلاءٍ قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126](4)؛ لذلك جاء التَّعبيرُ القرآني بـ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ مناسبًا لسياق التَّهديدِ والتَّرهيب، وما يوحي به منَ الشِّدَّةِ والقَهْر.

---

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/514.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عقب).

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ إلى ضمير الجلالةِ:

أخذُ الله عظيمٌ شديدٌ، إن وقع فلا منجى منه

من عادة الأُمم مع رُسلهم التَّكذيبُ والمبالغةُ في قسوة القلوب حتَّى هم إذا أُخِذوا بالبلايا، لا يتذلَّلون لله، ولا يسألونه كشفَها، وهؤلاء الأُمم الَّذين بعث الله تعالى إليهم الرُّسلَ أبلغُ انحرافًا، وأشدُّ شكيمةً، وأجلدُ منَ الَّذين بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ[1]؛ لذلك جاء التَّعبير مناسبًا لحالهم: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾، دون أن يقول: (فأُخذوا)، أي: إنَّ الأخذ كان شديدًا منَ الله تعالى، ويعزِّزُ هذا المعنى، ويُقوّيه إسنادُ الفِعل إلى الضَّمير العائدِ على لفظ الجلالة.

نكتةُ التّعبير بضمير العُقلاء العائدِ على الأمم:

الأخذُ وَقَعَ على الأممِ باعتبارِها مكلَّفةً، لا باعتبارِها الاجتماعيّ

عبَّر بضمير العقلاء في قولِه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾، ولم يقل: (فأخذناها) لصحَّة ذلك الضّمير لهم، باعتبار أنَّ لهم عقلًا مكلَّفون به، ولأنَّ إرسالَ الرُّسل لا يكونُ إلّا للعقلاء، فالآية توجِّهُ النَّظرَ إلى موضع التَّكليفِ، وهو عقلُ تلك الأمم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الأممَ مكلَّفةٌ بمجموعها بالإيمان والامتثال، فإنَّ الأخذَ وقع عليها باعتبارِها التَّكليفيِّ لا باعتبارِها الاجتماعيِّ.

نكتةُ ذكرِ متعلَّق الأخذ، وهو البأساءُ والضّراءُ:

الأخذُ الخاصُّ تنبيهٌ على الأخذ العامّ

ذكرتِ الآيةُ متعلَّقَ الأخذِ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ وذلك لأنَّه أخذٌ خاصٌّ، بخلاف الآتي بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44][2]، فهو أخذُ عقابٍ، فكان الأخذُ الخاصُّ مقدِّمةً للأخذِ العامِّ، وهذا من تمام نعمةِ الله على عبادِه، أن يأخذَهم أخذَ تنبيهٍ قبل أخذِ العقاب الماحق.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/513.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

بيان شدّةِ العذابِ الواقعِ على الكفّارِ، بالتّفصيل والإظهار

معنى حرف (الباء) الدّاخلِ على (البأساءِ) و(الضّراءِ):

الباءُ الدّاخلةُ على (البأساءِ) و(الضّراءِ) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أفادتِ الاستعانةَ، وقد أدّت إلى إظهار شدَّة العذاب بهما، وإن كان بعضُ العلماء لا يُجيزُ إطلاقَ لفظ الاستعانةِ على الباء الواقعة في القرآن، فلا يجوزُ التَّعبيرُ بالاستعانة في الأفعال المُسنَدةِ إلى اللّه تعالى، فسمَّوها: سببيّةً.

البأساء والضَّرَّاء، تدفعان العبادَ إلى التَّضرُّعِ إلى الله تعالى

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر في ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾:

فُسِّرتِ البأساءُ بالجوعِ، والضَّراءُ بالمرض[1]، وهو تخصيصٌ لا وجه له؛ لأنَّ ما أصاب الأُممَ مِنَ العَذاب كان أصنافًا كثيرةً، ولعلّ من فسَّره بذلك اعتبرَ ما أصاب قريشًا بدعوة النَّبي ﷺ، فالبأساء والضَّراء اسمان على وزن فعلاء، وليسا وصفَيْن؛ إذ لم يُسمع لهما أفعلُ مذكّرًا، والبأساء مُشتقة منَ البُؤس، وهو سوءُ الحالة من فقرٍ ونحوِه منَ المكروه، قال الرّاغب: وقد غلب في الفقر، ومنه البئيس: الفقيرُ، فالبأساء: الشّدّةُ في المال، والضَّرّاءُ شدَّةُ الحال على الإنسان مُشتقَّةٌ منَ الضُّرِّ، ويقابلُها السَّرّاءُ: وهي ما يَسرُّ الإنسانَ من أحواله، والبأسُ: النِّكايةُ والشِّدّةُ في الحرب ونحوِها[2]، فذكرُ البأساء والضَّراء من بابِ استيعابِ كلِّ معاني الشِّدَّة التي تُصيبُ الأممَ، التي من شأنِها أن تدفعَها إلى الالتجاءِ إلى اللّه تعالى؛ للتَّضرُّعِ والإنابة.

إيثار ما يرجوه المخاطَب عند سماعِ الحدثِ

دلالةُ حرفِ التّرجي (لعلّ) في سياق الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قُيِّدت الجملةُ بـ (لعلّ) الَّتي تفيدُ التَّرجّي، وهي تحملُ معنى الرَّجاء والشَّك؛ لأنَّ معنى التَّرجّي يقتضي عدمَ الجزم بوقوع المرجوِّ عند المتكِّلم، فللشَّكِّ جانبٌ في

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/354 - 355.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/132، و7/227.

معناها، فعلى هذا فهي لا تفيدُ هذا المعنى هنا؛ لأنَّها أتت في هذا المقام من كلام اللّه ﷻ، فمعناها لا يناسبُ عِلمَ اللّه تعالى العالم بأحوال الأشياء قبل وقوعِها؛ ولأنَّها قد وردت في أخبارٍ مع عدم حصول المرجوّ، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، فآلُ فرعون لم يتذكَّروا كما بيَّنته الآياتُ من بعدُ[1].

وقد اجتهد المفسِّرون في تأويل (لعلّ) بما يتناسبُ وكلامَ اللّه تعالى، فأوِّلت في هذا المقام على معنيين: الأوَّل: أنَّها بمعنى: التَّعليل، والمعنى: فعلنا بهم ذلك ليتضرّعوا، ويُخلصوا العبادةَ لي، ويُفردوا رغبتَهم للّه دون غيره[2].

الثّاني: أنَّ التّرجّي في هذه الآية إنَّما هو على مُعتقد البشر، أي: لو أنَّ أحدًا رأى ما حلَّ بهم من عذابٍ؛ لرجا تضرُّعَهم، وابتهالَهم إلى اللّه تعالى؛ ليكشفَ ما بهم من سوءٍ[3].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ (التّضرّع)، دونَ (التّذلُّل):

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾: التَّضرُّع: تفعُّلٌ من (الضَّراعة)؛ وهي الذِّلّةُ، والاستكانةُ، والتَّخشُّعُ، بمعنى الانقياد وترك التَّمرُّد[4]، وهو هنا كنايةٌ عنِ الاعتراف بالذَّنب والتَّوبة منه، وهي الإيمانُ بالرُّسل.

التَّضرُّعُ هو انكسارٌ مع لِينٍ، واعترافٌ بتلطّف ورجاء دائمٌ

ويُلحظ شيءٌ من الثِّقل في جرس هذه الكلمة؛ لأمور منها: عدمُ إدغام تاء التَّفعُّل في فاء الكلمة، وقوّةُ بعض حروفها: (الضّاد، والرّاء)، والتَّشديدُ في حرف (الرّاء)، ثمَّ يخفّ لضعف (العين)، و(الواو)، و(الياء)، ولعلَّ ذلك ممّا يوحي بشدَّة التَّذلّل، والخُضوع،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/329.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، ومكي، الهداية: 4/2456، والنسفي، التيسير في التفسير: 6/437.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/291.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/497، وطنطاوي، الوسيط: 5/287.

والتَّخشُّعِ، ولا يكملُ ذلك إلّا بصدق الانطراح بين يدي اللّه ﷻ، وصِدْقِ اللّجأ إليه، بإخلاص الدُّعاءِ له وحده، مع انكسارِ القلب، وتمريغ الجبينِ تذلُّلًا له، والإلحاحِ بالدُّعاء مرَّة بعد أخرى؛ عَلَّه سبحانه أن يغفرَ، ويرحمَ، ويتوبَ عليهم[1]، أمّا التَّذلُّلُ؛ فهو إظْهارُ العَجْزِ عَن مقاومة من يُتذلَّل لَهُ، ولفظُ التَّضرُّع أولى بالمقام لما يحويه من معانٍ تُناسبُ المطلوبَ من تلك الأمم.

نُكتةُ استعمال صِيغة الفعلِ المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾:

التّضرّع إلى الله عزّة وفخار

أفاد الفعلُ المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فكان المرجوُّ منهم تجدُّدَ التَّضرُّع منهم آنًا بعد آخرَ، أي: يدعون اللّه بضراعة، ويتذلَّلون، ويَحطّون أرديةَ الكِبْرِ والعِزَّةِ عن أكتافهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

البـعـثُ هـو الـتَّـوجـيـه مـع الـتَّـنـبـيـه، والإرســالُ؛ هو تـوجيه الـشَّيء برِفقٍ وتُؤَدةٍ

البعثُ: الإثارةُ والتَّوجيهُ والتَّنبيه، ويختلف البَعثُ باختلاف ما عُلِّق به، فتارةً يكون عامًّا في معنى التَّوجيه والإثارة، كما يُقال: بعثتُ البعيرَ، أي: سيَّرته، وبعثتُ رسولًا، أي: وجَّهته، والبعثُ إيقاظٌ منَ النَّوم، وتنبيهٌ منَ الغفلة والضَّلالة، وإحياءُ اللّه الموتى بعثٌ لهم، وتجتمع هذه المعاني في التَّوجيه والتَّنبيه.

أمّا الإرسالُ؛ فهو توجيه الشَّيء برِفقٍ وتُؤَدةٍ ورحمةٍ، ومنه التَّرسُّل في الكلام والمشي، أي: الهدوء والتَّأنّي وعدمُ العجلة، ومنه قولُهم: على رِسْلِكَ، أي: ترفَّقْ، وتأنَّ في القول والفعل، والاسترسالُ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ[2]. وبهذا يتَّضحُ أنَّ البعثَ والإرسالَ يشتركان في معنى لُغويٍّ عامٍّ هو التَّوجيهُ، ويختلفان في: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلمَحِ التَّنبيه والإيقاظِ[3].

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بعث)، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.

(3) داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.

الأخذ والعقوبة:

الأَخْذُ: حوْزُ الشَّيء وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناوُل خلافَ العطاء، نحوَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهر والغِلظة، أي: تحصيلُ الشَّيء في الحوزة بقوَّة: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر: 73]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، كلُّ ذلك أحاطت بهم في جوفها وبلعتْهُم، وأتت عليهم، مِن غِلظ الحوز في الأصل، ونلاحِظ الغلظةَ في كلِّ ذلك حتى في الأخذ خلافَ العطاء. أمّا العُقوبة؛ فتُنبئ عنِ استحقاق، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّ الفاعل يستحقُّها عَقيبَ فعلِه، فهي مجازاةٌ بالذَّنْب، ولا يُشترط أن تكون شديدةً أو أليمةً أو مُهينةً، فقد تكون يسيرةً؛ لارتباطها بالذَّنْب، فإذا عظُم الذَّنبُ؛ عظُمتِ العقوبةُ، وإذا صغُر؛ كانتِ العقوبةُ على قدرِه، ويوضّحُ ذلك بجلاء قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126][1].

الأخـذ يكـون بـالـتَّـنـاوُل أو بـالـقـهـر، أمَّـا العُقوبة، فتُنبئ عـنِ استحقاق لذنب ما

ونخلصُ ممّا سبق: إلى أنَّ لفظي (الأخذ والعقوبة) بينهما تقاربٌ دلاليٌّ، حيث يشتركان في النَّكال والمُجازاة، ولكنْ تتميَّزُ العقوبةُ بأنَّها قد تكونُ شديدةً، وقد تكونُ يسيرةً، وأنَّها تُنبئُ عنِ استحقاق؛ لأنَّها لا تكونُ إلّا عَقِبَ الذُّنوب، بينما يتميَّز الأخذُ بالغِلظة والشِّدَّة والمباغتةِ في العذاب، وكونِه عامًّا فيمن يستحقُّه، ومن لا يستحقُّه.

البأساءُ والبأسُ:

البأساءُ: الفَقرُ، والبَأْسُ: القتال

ذهب الرّاغبُ الأصفهانيُّ، إلى أنَّهما بمعنًى واحدٍ، قال: "البُؤس والبَأْس والبأساء: الشِّدَّة والمكروه، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفَقر والحرب أكثرُ، والبَأْسَ والبأساءَ في النِّكاية"[2]، ولكنَّ ورودَ اللَّفظين (البأساء، والبَأْس) معطوفَيْن في القرآن الكريم، يقتضي تغايُرَهما، وذلك في قوله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ، وعقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (بؤس).

تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]. فالبأساءُ: الفقرُ، والضَّراء: المرَض، والبَأْسُ: القتال، وهذا من باب التَّرقّي في الصَّبر منَ الشَّديد إلى الأشدِّ، ونلحظُ أنَّ لفظَي (البَأْس والبأساء)، مُتقاربان في الدِّلالة؛ حيث يشتركان في معنى الشِّدَّة والمكروه، ويتميَّز لفظُ (البأساء)، بنوعٍ منَ الشِّدَّة هي شِدَّةُ الفقر، بينما يتميَّزُ (البَأْس)، بنوعٍ منَ الشِّدَّةِ هي شدَّةُ القِتال، والعذاب والنَّكالِ[1].

الضَّرَّاءُ والضُّرُّ:

الضَّرَّاءُ كلّ بلاء يُصيبُ البَدَن، والضُّرُّ كُلّ ما يصيبُ الإنسانَ عمومًا

الضَّرّاءُ تعني: البلاءَ الَّذي يُصيبُ البَدَن من أمراضٍ وجوعٍ وعُرْيٍ ونحوِها، وهو ما عليه معنى الضُّرِّ في الآية، وكذلك في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134][2]. أمّا الضُّرّ (بالضَّم)؛ فالبَلاءُ منَ المرض أو الفقرِ أو غيرِ ذلك، فليس الضُّرُّ مقصورًا على نوعٍ بعيْنه منَ البَلاء، بل هو عامٌّ في كُلِّ بلاءٍ يصيبُ الإنسانَ، وهو اسمٌ للحال الَّتي تُؤلِمُ الإنسانَ[3].

التّضرّع والجُؤار:

التَّضَرُّعُ إظهارُ الضَّرَاعَة، والاجتئار الإفْراطُ في الدّعاءِ والتّضرّعِ

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: من التَّضَرُّع، وهو إظهارُ الضَّراعَة[4]، قال تعالى: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ [الأنعام: 63]، فإذا أفْرطَ في الدّعاءِ والتّضرّعِ قيل: جأر؛ تشبيهًا له بجُؤارِ الوحشيّاتِ، كالظّباءِ ونحوِها[5]، ومن معاني الجُؤار أيضًا التّضرّع الذي يُصاحبُه الجزعُ ورفعُ الصّوت.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/445، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 427.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/132، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/153، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/140.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/673، و3/197، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/455.
(4) الراغب، المفردات: (ضرع).
(5) الراغب، المفردات: (جأر).

﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلَها

قسوةُ قلوبِ الكافرين منعتْهُم منَ الانتفاع

لمّا أخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه قد أَرسَلَ قبلَه رُسُلًا إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أُخذوا بالشِّدّة في أنفسِهم وأموالِهم، ولكنَّ كثيرًا منَ النّاس يصلون إلى حالٍ منَ الشّرك والفُجور لا يُغيِّرُها بأسٌ ولا يحوِّلها بؤسٌ، فلا تُجدي معهم العبرُ والمواعظ، ولا تُؤثِّرُ فيهم صروفُ الدَّهر وغِيَرُهُ؛ بيَّن تعالى بعد ذلك أنَّ تلك الأممَ لم تَعتبر بما أصابَها من شدائدَ، فقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَأۡسُنَا﴾: (البأس والبؤس) أصلٌ واحد يدلُّ على الشِّدَّة، البَأْسُ: العذابُ، والشدَّةُ في الحرب، ويُستعملُ البأسُ والبأساءُ في النّكاية، نحوَ: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾[2]، وقولِه تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ معناه نزولُ العذاب[3].

2) ﴿قَسَتۡ﴾: القاف والسين والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على شدَّة وصلابةٍ، من ذلك الحجرِ القاسي، والقسوةُ: غِلظُ القلب وشدَّته، يقال: أَقْساهُ الذّنْبُ، وهي من قسوة الحجر[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: صلُبتْ وغلُظتْ[5].

3) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينِه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533، والمراغي، تفسير المراغي: 7/124، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس)، والراغب، المفردات: (بؤس).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(4) الجوهري، الصّحاح: (قسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي)، والراغب، المفردات: (قسو).
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

فالزَّينُ نقيضُ الشَّين، يقال: زيَّنتُ الشَّيءَ تزيينًا[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ "أي: أغواهُم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قسوةُ القلوبِ وتزيينُ الشّيطانِ مانعٌ للمشركين مِنَ التّضرّع والإيمان

يذكر اللّه تعالى من تمام إخبار النَّبيِّ ﷺ عن شأن أولئك الأقوام بأنَّهم تركوا التَّضَرُّعَ، فوبَّخهم، إذ لم يتضرَّعوا للّه خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدِّمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره، لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة، أو أشدَّ قسوة، فلم تؤثِّر فيهم النُّذر، وزيَّن لهم الشَّيطان ما هم عليه من الشِّرك والفجور[3]، "وهذا عتاب لهم على ترك الدُّعاء في كلِّ الأحوال حتَّى عند نزول العذاب بهم لشدَّة تمرُّدهم وغلوِّهم في الكفر"[4].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ، في قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ﴾:

بيان أنَّ إعراضَهم عنِ التَّضرُّع، كان سببًا في الإنكارِ عليهم

لمّا أصابهم اللّه تعالى بالبأساء والضَّرّاء رجاءَ إظهار عُبوديَّتهم للّه تعالى بدعائِه واللُّجوءِ إليه، فإذ لم يُظهروا تلك الاستكانةَ والعبوديَّةَ للّه تعالى أنكر عليهم ذلك مبيِّنًا أنَّه بسبب قسوةِ قلوبهم، وفي ذلك قال البِقاعيّ: "ولما لم يقعْ منهم ما أوجبتِ الحالُ رجاءَه؛ تسبَّب عنه الإنكارُ عليهم"[5].

دلالة حرفِ (لولا) بين النّفي والتّحضيض:

حثُّ المعاصرين على الاعتبار، تعريضًا بهم، وتوبيخًا للسَّابقين

ذهب فريق منَ المفسِّرين إلى أنَّ (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ للنَّفي، أي: إنَّهم ما خَشعوا، ولا تضرَّعوا وقتَ البأس،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/124.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/114.

فقد "نفى التَّضرُّعَ، كأنَّه قيل: فلم يتضرَّعوا إذ جاءهم بأسُنا، ولكنَّه جاء بـ (لولا) ليفيدَ أنَّه لم يكن لهم عذرٌ في ترك التَّضرُّع إلّا عنادُهم وقسوةُ قلوبهم، وإعجابُهم بأعمالهم التي زيَّنها الشَّيطانُ لهم"[(1)].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها للحثِّ والتَّحضيض بمعنى: (هلّا)، لأنَّه دخل على الماضي لإفادة التّنديمِ والتَّوبيخ[(2)]، فهو على جهة المعاتَبةِ[(3)]، "والتَّوبيخُ إنّما يليقُ بالحاضرين دون المُنقرضين لفوات المقصودِ"[(4)].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها مع ذلك تدلُّ على التَّمنّي، "كأنَّه قيل: لمَ لمْ يتضرَّعوا؟ ولَيْتهم تضرَّعوا، وكانوا متمكِّنين منه، غيرَ ممنوعين"[(5)]، وفي بيان كيفيَّة التَّمنّي في هذا السّياق يقول أبو زهرة: "(لولا) هنا للنَّفي مع تمنّي الوجود، فهي لنفي تضرُّعهم مع تمنّي أن يكونوا قد تضرَّعوا، والتَّمنّي هنا معناه: يَنبغي، كأنَّ المعنى هكذا: لم يتضرَّعوا، وكان يَنبغي أن يكونَ البأسُ الشَّديدُ مُؤدّيًا إلى ضراعتهم؛ لأنَّه يُشعرهم بضَعفهم أمام قدرةِ اللّه تعالى"[(6)].

فتكونُ (لولا) قد أفادت تلك المعانيَ منَ النَّفي والتَّمنّي والحثِّ والتَّوبيخ شاملةً المنقرضين والمعاصرين، مُسفرةً عن متانة الإعجاز وبلاغة التَّعبير في لغة القرآن.

دلالةُ تقديم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ على ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

قدَّم الظَّرفَ وأصلُ الكلام في غير النَّظم القرآني: (فلولا تضرَّعوا إذ جاءهم بأسنا)، وهذا التَّقديمُ "للاهتمام بمضمون

تصويرُ العنادِ المقترنِ بالغباوةِ، وعاقبتِه الوخيمةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/23، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79، والبقاعي، نظم الدرر: 7/114.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85، والسّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/147.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

جملِته، وأنَّه زمنٌ يحقُّ أن يكون باعثًا على الإسراع بالتَّضرّع ممّا حصل فيه منَ البأس"[1]؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ سببٌ عظيمٌ في التَّضرُّع، فقُدِّم ذكرُ مجيءِ البأسِ لزيادةِ تحسُّرِ المخاطَبين، وبيانِ فظاعة وشناعةِ ما وقعت به الأممُ السّابقةُ منَ الغباوة والعِناد.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾:

إسنادُ المجيء إلى البأس مجاز، والمرادُ حدوثُه وحصولُه

أَخبر عن مجيء البأس، والبأسُ لا يجيءُ، فالمجيءُ "مُستعارٌ للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيهًا لحدوث الشَّيء بوصول القادم من مكان آخرَ بتنقُّل الخَطوات"[2]، إذ هو من صفات الأحياء، وإنَّما أخبر بذلك مجازًا، فـ "إسنادُ المجيء إلى البأس مجازٌ عن وصوله إليهم، والمرادُ أوائلُ البأس وعلاماتُه"[3].

نكتةُ استعمال (البأس) دون (العقوبةِ) أو (العذابِ):

أخصُّ منَ العذابِ

العذابُ والعقابُ يدلّان على الجزاء على وجه العُموم، ولكنَّ البأسَ هو الجزاءُ الشَّديدُ، فهو أخصُّ في الدِّلالة، "والمرادُ به هنا: الشّدّةُ على العدوّ وغلبتُه"[4]، وكذلك فهو نزولُ العذاب[5].

دلالةُ إضافةِ (البأس) إلى ضمير العظَمةِ في ﴿بَأۡسُنَا﴾:

بأسُ الله شديدٌ يتناسبُ مع عظمتِه ﷻ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أضاف البأسَ إلى نون المتكلِّمين الدّالِّ على التَّعظيم إشارة إلى شدَّة البأس وقوَّته، فهو بأسُ اللّه لا بأس سواه، وقد أراده لتلك الأمم كما أراد لهم التَّضرُّع.

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

تكرَّر لفظُ التَّضرُّع مرَّتين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ للتَّأكيد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

الامتناع عن التَّضرُّع، سببٌ في استحقاق العذابِ وشدّته

بأنَّ التَّكبُّرَ عنِ التَّضرُّع هو سببُ النِّقمة منهم، فاستكبارُهم عنِ التَّضرُّع لله تعالى دليلُ كِبْرهم وكفرِهم، وفيه بيانُ استحقاقهم ما نالوا منَ البأس الشَّديدِ.

بلاغةُ استعمال حرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ معطوفًا:

ذو القلب القاسِي لا يتضرَّع، والمتضرِّع لا يُوصفَ بالقاسي

عقَّب بحرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطفًا على عزوفهم عنِ التَّضرُّع، ببيان نقيضِه المسبِّب له، فهو "استدراكٌ عمّا قبلَه، أي: فلم يتضرَّعوا إليه تعالى برقَّةِ القلب والخضوعِ مع تحقُّق ما يدْعوهم إليه، ولكنْ ظهر منهم نقيضُه حيث قستْ قلوبُهم"[1]، وعبَّرتِ الآيةُ عن معنيَيْن متناقضَيْن، وعليه فإنَّ "وقوعَ ﴿وَلَٰكِن﴾ هنا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى انتفاءُ التَّذلُّل عند مجيء البأس، ووجودُ القسوة الدّالةِ على العتوِّ والتَّعزُّز، فوقعتْ ﴿وَلَٰكِن﴾ بين ضِدَّين، وهما: اللّينُ والقسوةُ"[2]؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ "مُشْعِرٌ باللّين والسُّهولة"[3]، وعند البِقاعيّ أفاد الاستدراكُ نفيَ لازمه، "ولمّا كان معنى الإنكار أنَّهم ما تضرّعوا؛ قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فلم يذكروا ربَّهم أصلًا"[4]؛ لأنَّ من قسا قلبُه انتفى عنه الخشوعُ المتحصِّل بذكر الله تعالى؛ "لأنَّ التَّضرُّع ينشأُ عن لين القلب، فكان نفيُه المُفادُ بحرف التَّوبيخ ناشئًا عن ضدِّ اللّين وهو القساوةُ، فعطفَ بـ (لكن)"[5].

والخلاصة: أنَّ فائدةَ الاستدراك الإشارةُ إلى أنَّ الضَّراعةَ وقسوةَ القلوب لا يجتمعان؛ لأنَّ القسوةَ غِلظٌ في النَّفوس والطِّباع،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/114.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

وإنَّ بعضَ النُّفوس لتَقسو حتَّى تكونَ كالحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ والضَّراعةُ رِقَّةٌ في القلب ورأفةٌ في النَّفس، فأنَّى يجتمعان؟[1].

سرُّ استعمالِ لفظِ القَسوة دونَ غيره:

أخطرُ أمراضِ المجتمع القسوةُ، وتجنّبها أمانٌ ونجاة

الكفرُ والختمُ والقسوةُ تشتركُ في معاني الانتفاء والسَّلب والعدم؛ فالكفرُ: هو انتفاءُ الاستجابة لآيات اللّه ودعوتِه، والختمُ: إنَّما هو بسبب عدمِ الانتفاعِ بآيات اللّه تعالى، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ معناه: "وطبعَ على قلوبهم، فلم يَعقِلوا الهُدى"[2]، وعدمُ اللُّجوء إلى اللّه تعالى في وقت الشِّدَّة إنَّما هو بسبب القسوةِ، فعبَّر بالقسوة لدلالتِه على نقيض الخشوعِ واللّينِ، فالتَّعبيرُ بالقسوة أنسبُ في عدم الاستجابة لما يأتيهم منَ البأساء والضَّرّاء، ويصدِّقُه أنَّ أهلَ الكتاب يؤمنون بأصول الدّين العامَّةِ كالتَّوحيد والبعثِ والجنَّةِ والنّارِ، ويتَّبعون الشَّريعةَ في غالب أمورهم فلم يناسبْ أن يصفَهم بالختم والطَّبع، لما لديهم من بقيَّة إيمانٍ باللّه تعالى، ولكنْ كان في قلوبهم قسوةٌ لما فيهم من حبِّ الدُّنيا وغيرِه منَ الاستكبار عنِ الحقِّ، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾؛ لأنَّ قلوبَهم لم تتأثَّرْ بآيات اللّه، وهم أهلُ إيمانٍ به.

بلاغة الاستعارة، في لفظ ﴿قَسَتۡ﴾:

القسوةُ تعني انتفاءَ تأثُّرِ قلوبِهم بأسباب الاتِّعاظِ

القسوةُ تدلُّ على الشِّدَّة والصَّلابة من قسوة الحجر، فاستُعيرت تلك القسوةُ للقلب لانتفاء تأثُّره بطروِّ البأس، فلمّا لم يتضرَّعوا إلى اللّه تعالى في زمان البأساء والضَّرّاء؛ كانت قلوبُهم كالحجر في صلابته، "والمعنى: ولكنِ اعتراهم ما في خِلْقتهم منَ المكابرة وعدمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498 - 2499.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.

الرجوع عنِ الباطل، كأنّ قلوبَهم لا تتأثَّرُ، فشُبِّهت بالشّيء القاسي، والقسوةُ: الصلابةُ"[1]، وفائدةُ وصْفِ القلوب بالقسوة: أنَّها تمثيلٌ "في بُعدِه عنِ الاعتبار وقَبول الحقِّ"[2]، فلمّا جَمدتْ قلوبُهم عنِ التأثُّر بآثار البأساء والضَّرّاء، ولم يَنسبوا ذلك للإله الحقِّ؛ كانت كصلابة الحجَر في انتفاءِ التأثُّر بما يطرأُ عليه.

دلالةُ المضي في ﴿قَسَتْ﴾:

تنبيهُ المؤمنين إلى عظيمِ خَطرِ القَسوةِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على القطْع بوجودِ القسوة، وإشارةً إلى بقائها مع طروِّ البأس، فهي قسوةٌ مستمرَّةٌ، فقولُه تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، "أي: استمرَّتْ على ما هي عليه منَ القساوة أوِ ازدادَتْ قساوةً"[3]؛ لأنَّهم ثبتوا على الكفر، فقلوبُهم " صلُبتْ، وغلُظتْ، وهي عبارةٌ عنِ الكفر، والإصرارِ على المعاصي"[4]، والقسوةُ أمرٌ تدريجيٌّ، لكنَّه عبَّر عنها بالماضي؛ لبيانِ أنَّها إنْ وقعت في القلبِ؛ استقرَّتْ، وهذا هو خطرُها وعظيمُ شرِّها.

بلاغةُ عطف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، على الجملة السّابقة:

الشَّيطان مستمرٌّ في التَّزيين، حفاظًا منه على قسوة القلوب

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5]، وفائدةُ عطف التَّزيين على القسوة الدَّلالةُ على استمرار الشَّيطان بالتَّزيين، والمرادُ أنَّه "أغواهم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.

(2) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/96.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133، والجمل، الفتوحات الإلهية: 2/351، والآلوسي، روح المعاني: 4/143.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/425.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/327.

(6) القنّوجي، فتح البيان: 4/141.

فالتَّزيين له مقامان: مقامٌ ابتدائيّ، ومقامٌ استمراريّ، والمقصودُ هنا: الاستمرارُ، إذ التَّزيين جاء عَقِب قسوة القلب، فكان تزيينُ الشَّيطان مستمرًّا للحفاظ على القسوة، التي أبعدتْهم عنِ الاتِّعاظ، وفي ذلك تحذيرٌ بليغٌ أن يقع الإنسانُ في شَرَك المزّين فاسقًا كان أو كافرًا، أمّا كيفيةُ تزيين الشَّيطان لهم، فهي "بأن يوحى إليهم بأنَّ ما هم عليه من كفرٍ وشِركٍ وعصيانٍ هو عينُ الصَّواب، وأنَّ ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيرًا؛ لأنَّه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم"(1).

نكتةُ استعمال ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون مرادفاتها:

الـزّيـنـةُ مظهر خـارجـيّ زائـف، وهــي لا تـؤثِّـر إلّا في ضِـعـافِ العقول

قولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ آثر التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون حسَّن أو غيرِه، فلم يقل: "(حسَّن لهم الشَّيطان)، كما يجري على الألسنة، فلانٌ يُحَسِّن القبيحَ؛ لأنَّ القبيح لا ينقلبُ حسنًا، والسَّيِّئَ لا ينقلبُ، ولكنَّ السَّيِّئَ أو القبيحَ بتمويهاتٍ وتزييناتٍ يُظنُّ معها أنَّه حسنٌ، وما هو إلّا تمويهٌ باطلٌ"(2)، فالزينةُ أمرٌ ظاهرٌ زاهرٌ، يراه ضعيفُ العقلِ زاهيًا، فيستمرُّ فيه ظنًّا منه أنَّه يُحسِن صنعًا.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور على المسنَدِ إليه:

المؤمنون أقوى مــن الــوقــوع في حبـال زينـةِ الشَّيطان

في قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المسنَد إليه، فلم يقل: (وزيّن الشّيطان لهم)؛ تخصيصًا لهم بذلك التَّزيين؛ لأنَّه لا يقدرُ على أن يزيِّن للمؤمنين، لذلك كان التَّزيينُ خاصًّا بهم، فقدَّم الجارَّ والمجرورَ لذلك، وفي ذلك تزكيةٌ للمؤمنين ببيان ضَعفِ الشَّيطان أن يُزيِّن لهم أعمالَ الباطلِ، وهو ما يُبرهنُ على أنَّهم هم أصحابُ العقلِ السَّويِّ.

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/74.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2499.

معنى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عرَّف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ باللّام الدّالَّةِ على الاستغراق، فالشَّيطانُ وصفٌ يدخل فيه شياطينُ الإنس والجنّ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]، فكلُّ من يُزيِّن للنّاسِ أعمالَهم الضّالَّةَ فهو شيطانٌ، وإنَّما عبَّر بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إشارةً إلى الصّفة وهي الإبعادُ والطَّردُ عنِ الحقِّ، وهي مناسبةٌ للسّياق إذِ الشَّيطانُ يزيِّن المعاصيَ ليُبعدَ النّاسَ عن ربِّهم ﷻ، فيتكاثرُ المطرودون.

كلُّ داعٍ إلى الباطلِ، فهو شيطانٌ يجبُ الحذرُ منه

دلالة ﴿مَا﴾، في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

يحتملُ في ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓاْ﴾ "أن تكونَ موصولةً اسميَّة أي: الذي كانوا يعملونَه، وأن تكونَ مصدريَّةً، أي: زَيَّن لهم عملَهم، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾"(1)، ويكونُ المعنى - لو اعتُبِر أنَّها مصدريَّةٌ - : أعمالَهم، فالمصدر المؤوَّل ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ العمل ذاتَه مُزيَّن من غير تعلُّقه بالأعمال المفردةِ، أمّا لو اعتُبِر أنَّها اسمٌ موصولٌ، فإنَّه يدلُّ على تزيين عملٍ مفردٍ بعيْنِه، والمرادُ به هنا الاستكبارُ عنِ التَّضرُّعِ للّه تعالى عند نزول العذاب.

تراوح المعنى بين المصدريّة والموصوليّة

دلالةُ استعمالِ فعْلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلون) أو (يصنعون):

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيّ لفظَ العملِ، دون الصُّنع والفِعلِ؛ لأنَّ الصُّنعَ ترتيبُ العمل وإحكامُه، وتَقَدُّمُ العلم به بما يوصلُ إلى المراد منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانعٌ، ولا يقال للتّاجر: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجارَ قد سبق علمُه بما يريد عملَه من سريرٍ أو بابٍ، ويعلمُ الأسبابَ التي توصل إلى ذلك، والتّاجرُ لا يعلمُ إذا اتَّجر أنَّه يصلُ الى ما يريده

التعبير بالعمل أنسب لعامَّة النَّاسِ

(1) السّمين، الدر المصون: 4/634، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/14.

منَ الرِّبح، فالعملُ لا يقتضي العلمَ بما يعملُ له، والصُّنعُ يدلُّ على الجودة[1]، فهو أخصُّ منَ العمل، فحيثما ذُكر كافَّتُهم قال: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وحيثما ذُكر خاصّتُهم وحفظةُ العلم ذُكر: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[2]. وأمّا الفعلُ؛ فهو عبارةٌ عمّا وُجد في حال كان قبْلَها مقدورًا سواءٌ أكان عن سبب أم لا[3]. وفي الآية استُعمل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّه حديثٌ عن عامَّة النّاس، فالتَّعبيرُ به أنسبُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135 - 136.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/392، البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 2/134.

(3) العسكريّ، الفروق اللغّويّة، ص: 133 - 134.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلها:

الفرح بالنّعماء بعد الابتلاءِ بالبأساءِ والضّراءِ، استدراجٌ

قال الرّازي في بيان مناسبة الآية: "هذا الكلام من تمام القصَّة الأولى، فبيَّن اللّه تعالى: أنَّه أخذهم أوّلًا بالبأساء والضَّرّاء لكي يتضرَّعوا، ثمَّ بيَّن في هذه الآية أنَّهم لمّا نسوا ما ذكِّروا به منَ البأساء والضَّرّاء؛ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء، ونقلناهم منَ البأساء والضَّرّاء إلى الرّاحة والرَّخاء وأنواعِ الآلاء والنَّعماء"[1]، فلمّا لم تُهذِّبْهم الشَّدائدُ وتركوا الاتِّعاظَ بها؛ اختبرهم بالنِّعم، ففتح عليهم أبوابَ الرِّزق، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُواْ﴾: النون والسين والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على إغفال الشَّيء، وعلى تركه، نسيتَ الشَّيءَ، إذا لم تذكرْه، والنِّسيانُ: تركُ الإنسان ضبطَ ما استودع، إمّا لضعف قلبِه، وإمّا عن غفلة، وإمّا عن قصد حتَّى ينحذفَ عنِ القلب ذكرُه[3]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: "تركوا ما ذُكِّروا به منَ المواعِظِ والإنذارِ"[4].

2) ﴿فَتَحۡنَا﴾: (فتح) أصلٌ يدل على خلاف الإغلاق، والفتحُ: إزالةُ الإغلاق والإشكال، ويقال: فتح، وقولُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79.
(2) ابن جزي، التسهيل: 1/261، والمراغي، تفسير المراغي: 7/124، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2499.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نسي/نسى).
(4) العليميّ، فتح الرحمن: 2/396.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: 1] يحتملُ النُّصرةَ والظَّفرَ والحكمَ[1]، و"الفتحُ: جعلُ الشَّيء الحاجز غيرَ حاجزٍ وقابلًا للحجز، كالباب حين يُفتحُ"[2].

3) ﴿بَغۡتَةً﴾: (بغت) أصلُ البغت: أنْ يَفْجَأ الشَّيءَ، والمباغتةُ: المفاجأةُ[3]، ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ فجأةً، ومفاجأةً[4]، وهو الأخذُ على غِرَّة من غير تقدمةِ أمارةٍ، فلم يتقدَّم عندهم منها علمٌ[5]، والبغتةُ "فَعْلَة منَ البَغت وهو الفجأة، أي: حصولُ الشَّيء على غيرِ ترقُّب عند مَن حصلَ له، وهي تستلزمُ الخفاءَ؛ فلذلك قوبلت بالجهرةِ في الآية الآتية"[6].

4) ﴿مُّبۡلِسُونَ﴾: (بلس) أصلٌ يدلُّ على اليأس، أبلس الرَّجل سكتَ، والإِبْلاسُ: الانكسارُ والحُزن، يقال: أَبْلَسَ فلانٌ؛ إذا سكت غمًّا، وهو: الحُزنُ المعترضُ من شدَّة البأس، ولمّا كان المبلس كثيرًا ما يلزم السُّكوتَ، وينسى ما يُعنيه؛ قيل: أَبْلَسَ فلان: سكت، وانقطعت حجَّتُه[7]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (المبلس) الحزينُ الباهتُ اليائسُ منَ النَّجاة عند ورود الهَلكة، لا يُحيرُ جوابًا لشدَّة ما نزل به من سوء الحال[8]، وهو "الوُجومُ والسُّكوتُ عند طلب العفو يأسًا منَ الاستجابة"[9]، والحزنُ المعترضُ من شدةِ اليأسِ والنَّدم[10].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لما أعرض أولئك الأقوام عما أنذرهم به رسلهم، وتركوا الاهتداءَ به؛ بُلوا بالحسنات، وفُتحت عليهم أبوابُ الرزق ورخاء العيش، فلم تربِّهم تلك النّعمُ، بل بَطِروا، واستكبروا حتى إذا ظنّوا أنَّ الذي أوتوا إنما هو باستحقاقهم؛ أخذناهم بعذاب الاستئصال حالَ كونِهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غِرة من غير سبْقِ أماراتٍ ولا إمهالٍ للاستعداد أو للهرب، فإذا هم يائسون منَ النّجاة[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتح).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134، والواحدي، البسيط: 8/150، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والشّوكاني، فتح القدير: 2/133.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بلس).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/535.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(10) العليميّ، فتح الرحمن: 2/397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(11) المراغي، تفسير المراغي: 7/124 - 125، وينظر: رضا: المنار: 7/346.

نسيان التّذكير، والفرح بالخير الغزير انتهى بهم إلى الهلاك والإبلاس

والمعنى: "فلمّا أعرضوا عن النُّذُر والعظات التي وجّهها إليهم الرّسلُ؛ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء منَ الرِّزق وأسبابِ القوَّة والجاه، حتَّى إذا اغتروا، وبَطِروا، بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتةً، فإذا هم متحسِّرون يائسون منَ النَّجاة"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ الفاء الفصيحةِ في تقدير المحذوفِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾:

إفصاح الحرف عن المحذوف، يزيد السّياق روعة وجماليّة

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر بالفاء الفصيحة التّي "تُفصحُ أنَّ الكلام مبنيٌّ على اعتبار الحذف"(2)، فإنَّ النّسيان لا يتحقَّق إلّا بالانشغال، فهو "عطفٌ على مقدَّرٍ ينساقُ إليه النَّظمُ الكريمُ، أي: فانهمَكوا فيه، ونسوا ما ذُكِّروا به منَ البأساء والضَّراء، فلمّا نسوه ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من فنون النَّعْماء على منهاج الاستدراج"(3).

بلاغةُ معنى الظّرف والشَّرطِ في ﴿فَلَمَّا﴾ وما يتبعها:

أهميّة الاقتران بين النِّسيان وفتحِ أبوابِ الخير

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عبَّر بـ ﴿فَلَمَّا﴾ الدّالّة على الزّمان والشّرط للدّلالة على اقتران النّسيانِ بوقتِ فتْحِ أبواب الخيرِ، فهو "حرفُ شرطٍ يدلُّ على اقتران وجود جوابِه بوجود شرطِه، وليس فيه معنى السّببية مثلُ بقيَّة أدوات الشرط"(4)، ونفى بعضُ العلماء أن يكون فيه معنى الشَّرط، فذهبوا إلى أنَّه "ظرفٌ بمعنى: حين، وليس فيه معنى الشّرط؛ إذ لا يظهر وجهُ سببية النّسيان لفتح أبواب الخير"(5)، وأورد الآلوسيُّ توجيهًا لهذا الاعتراض: "واستُشكل ذلك بأنَّه لا

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/74.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 4/43.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 4/60.

يظهر وجهُ سببيَّة النِّسيان لفتح أبواب الخير، وأجيب بأنَّ النِّسيان سببٌ للاستدراج المتوقِّف على فتح أبواب الخير، وسببيَّةُ شيء لآخر تستلزم سببيَّته لما يُتوقَّف عليه"(1).

بلاغةُ المجاز المرسَلِ في استعمال مادّة النّسيان:

التّهاونُ يُورِّث النِّسيانَ، ومن نسيَ القليلَ؛ نسيَ الكثيرَ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر بالنّسيان عن تركهم الاتّعاظَ، "أي: تركوا الاتّعاظَ بما ذُكروا به منَ البأساء والضّراء، ولم ينزجروا"(2)، فالتّعبيرُ بالنّسيان إنّما هو "مجازٌ عنِ التَّرك، وعدمِ العمل والاتّعاظ"(3)؛ لأنَّ نسيانَ الشّيء يدلُّ على تركه بدلالة اللّزوم(4)، وإنّما فُسِّر النّسيانُ بالترك هنا؛ "لأنَّ النّسيان لو كان على حقيقته لم يُؤاخَذوا به، إذ ليس هو من فعلِهم"(5)، والغايةُ منَ التّعبير بالنّسيان دون التّصريح بالتّرك المبالغةُ في عدم اتِّعاظهم(6)؛ لأنَّ النِّسيان يدلُّ على أنَّ التَّذكير قد زال من أذهانهم(7)، وهذا أبلغُ في بيان تركهم الاتّعاظَ، والمعنى: أنَّهم قد "كانوا بتلك القسوة وتزيينِ السّوء ناسين لِما ذُكِّروا به؛ فقد ذُكِّروا بالبأساء والضَّرّاء وبسبب قسوةِ قلوبهم تركوا ما ذُكِّروا به، والنِّسيان هنا ليس هو مجرَّدَ التِّرك، إنَّما هو نسيانُ آثار الضَّرّاء والبأساء"(8).

نكتةُ استعمالِ ﴿مَا﴾ بدلًا منَ الاسم الموصولِ الظّاهِر:

النِّسيانُ كان عامًّا لكلِّ ما ذُكِّر به الأقوامُ

عبَّر بالاسم الموصولِ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ للدّلالة على نِسيانهم عمومَ ما ذكِّروا به، فنسيانُهم ليس مقتصِرًا على ما ذكِّروا به من شأن البأساء والضّراء، بل نسوا جميعَ ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/118.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 4/61.
(4) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/97.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132، والقنّوجي، فتح البيان: 4/141.
(6) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/97.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(8) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2500، وينظر: طنطاوي، الوسيط: 5/74.

ذُكِّروا به، واللّه تعالى إنَّما استدرجَهم بفتح أبواب الخير لما أنَّهم أوغلوا في النِّسيان، فلمّا نسوا عمومَ ما بُلِّغوا به أملى لهم استدراجًا.

بلاغةُ العُدول عن لفظ (الدّعوةِ)، إلى لفظ (التّذكير):

التَّذكيرُ يُقابل النِّسيانَ، وهو مرحلةٌ ناجمة عنِ الدَّعوة

عبَّر تعالى عنِ الرِّسالة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فآثر لفظَ (التَّذكير) دونَ (الدَّعوة)؛ فلم يقل: (ما دُعوا إليه)؛ لما فيه منَ الدَّلالة على أنَّ الرِّسالةَ كانت تامَّةً والشَّريعةَ بيِّنةً، ولكنَّهم أعرضوا عنها، فناسب لفظُ التَّذكير؛ لأنَّه يقابلُ النِّسيانَ، ولم يناسبِ لفظَ الدّعوة؛ لأنَّهم قد دعَوا من قبلُ، وتبيَّن لهمُ الحقُّ، فعزَفوا عنه، ونسوه إهمالًا له، وفيه تناسبٌ لفظيٌّ؛ إذ سبقه لفظ النِّسيانِ، فكان يناسبُه التَّذكيرُ.

دلالةُ بناء فعْلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ للمفعول، وتعديته بحرف (الباء):

الاهتمامُ بالمذكَّر بـه لـذاتِـه، لا بكونِه صادرًا عن مُعيَّن

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر عمّا ذكِّروا به بالفعل المبني للمفعول؛ اهتمامًا بالمذكَّر به لا بالنَّظر إلى تعيين من ذكَّرهم، فالمقصودُ أنَّهم غفَلوا عن مضمون الدَّعوة، وفي هذا تأكيدُ استقلال الرِّسالة بالمكانة الرَّفيعة، وجدارتِها بأن تُتَّبع لذاتها لا بالنِّسبة إلى المُبلِّغ والرَّسول.

براعةُ استعمالِ ﴿فَتَحۡنَا﴾، دونَ (بسطنا عليهم) أو (رزقناهم):

التَّعبيرُ بفتحِ الأبواب عن بسط الرِّزق لإزالة ما يمنعُ الخيرَ

عبَّر عن بسط الخير لهم بفتح الأبواب على طريقة الاستعارة؛ حيث "شبَّه الأسبابَ التي هيأها اللّه لهم، المقتضيةَ لبسط الرّزق عليهم بالأبواب، بجامع الوصولِ إلى المقصودِ في كلٍّ على طريقة الاستعارة التّصريحية"[1]، وفي هذا التّعبير منَ الدّلالة على السَّعَة ما ليس في (رزقناهم)؛ إذِ الفتحُ يدلّ على فتح المغلَق وإزالة الحاجز، "فالفتحُ هنا استعارةٌ لإزالة ما يُؤلم ويغمُّ، كقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/337.

﴿أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ومنه تسميةُ النّصر فتحًا لأنّه إزالةُ غمّ القهر"[1].

بلاغةُ تعديّةِ ﴿فَتَحۡنَا﴾، بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دون اللّام:

تمكُّن الخير منَ الأممِ للشُّكرِ، لكنَّهم أرادُوه استدراجًا

التّعبيرُ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ "يرسم صورةً بليغةً لإقبال الدّنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نِعَمها، وبكل قوّتها وإغرائِها، فهو اختبارٌ لهم بالنّعمة بعد أنِ ابتلاهم بالبأساء والضّراء"[2]، وفيه إشعارٌ باستعلاء الفاتحِ أبوابَ الخير عليهم، وفيه منَ الامتنان الدّاعي إلى الامّتنان، لكنَّهم أرادوا الامتنانَ استدراجًا.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة، في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا﴾:

دلَّ التَّضعيفُ علـى التَّكثير، والتّخفيفُ على اليُسر

في قوله تعالى ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ قراءتان؛ فقرأ الجمهورُ بالتَّخفيف ﴿فَتَحۡنَا﴾، وقرأ ابنُ عامر: (فتّحْنا) بالتّثقيل، "والتّثقيلُ مُؤذِنٌ بالتَّكثير؛ لأنّ بَعْدَهُ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ فناسب التّكثير"[3]، فالتّثقيلُ أفاد المبالغةَ "في الفتح بكثرته كما أفاده قولُه: ﴿أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾"[4]، وأمّا التَّخفيف ففيه سهولةُ الفتحِ ويُسرُه على الفاتحِ سبحانه، فهو خيرٌ كثيرٌ جاء بيُسر وسهولةٍ، وهذا من ألطفِ أنواع الرِّزق الذي يُصيبُ العبادَ.

نكتةُ تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، على المفعول ﴿أَبۡوَٰبَ﴾:

إفادة التّقديم التَّخصيصَ للمقدَّم، والتَّشويقَ للمؤخَّر

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، وأصلُ الكلام في غير النَّظم الكريم: (فتحنا أبواب كلِّ شيء عليهم)؛ وإنَّما قدَّمه للدَّلالة على تخصيصِهم بذلك الفتحِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229، 230.

(2) طنطاوي، الوسيط: 5/75.

(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/150، وزاده، حاشية على البيضاوي: 4/44، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/230.

مبالغةً في استدراجهم، وفي تأخير المفعول به دلالةٌ على التَّشويق، فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ يضعه تحت ترقُّب السّامع، فيتطلَّعُ له بتشوُّق.

بلاغةُ استعمال لفظِ ﴿أَبْوَٰبَ﴾:

الفتح يشير إلى أنَّ أبوابَ الرّزق كانت شبهَ مغلقةٍ

قولُه تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ لمّا ذكر أنَّه يفتحُ الأبوابَ دلَّ على أنّها كانت شبْهَ مغلقةٍ، والمعنى: فتحنا أبوابَ كلِّ شيء منَ النِّعم والخيرات بعد أن كانت قليلةً صعبةَ المنال، أي: كثَّرنا لهم ذلك، والتَّقديرُ: فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ كان مغلقًا عنهم منَ الخير[1]، و"نقلناهم منَ الشِّدّة إلى الرَّخاء، وذلك استدراجًا لهم"[2].

دلالةُ جمعِ أبوابٍ المضافة لمضاف:

عموم المضافات تــرقٍّ في العمومات، وهذا من بديع الوصف للاستدراج

في قوله ﴿أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾: ذكر تعالى الأبوابَ بصيغة الجمع، وأضافه لـ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على الشُّمول، وأضافه إلى لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ الواردِ بصيغة التّنكير، كلُّ ذلك دلَّ على السّعةِ والعموم، "والإبهامُ في هذا العموم لتهويل ما فُتِحَ عليهم وتعظيمِه"[3]، وذلك للإيغال في الاستدراج، أي: "استدرجْناهم بفتح أبوابِ كلِّ نوعٍ من أنواع الخيرِ عليهم"[4].

بلاغةُ التَّخصيصِ السِّياقيّ في: ﴿أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾:

المرادُ بالعموم: التَّكثيرُ لا الإحاطةُ

العمومُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ ليس على إطلاقه، فهو يدلُّ على "ما كان سُدَّ عليهم بالبأساء والضَّرّاء منَ النِّعم الدنياويَّة، فهو عمومٌ معناه: خصوصٌ"[5]، وهذا التَّعميمُ إنَّما يختصُّ بما يُتصوَّر في حياة النّاس، فقولُه: ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ "المرادُ به التَّكثيرُ لا التَّعميمُ والإحاطةُ"[6].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/535، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/426، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/151، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/114 - 115.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/337.

(4) القنّوجي، فتح البيان: 4/141.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.

(6) الخفاجي، عناية القاضي: 4/61.

دلالةُ اجتماع (حتّى) مع (إذا)، في: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾:

اقتران نزولِ النِّعم وطول مُكثِها بقسوةِ القلبِ، استدراجٌ يوجبُ الفرارَ

اجتمع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ حتَّى الابتدائيّةُ مع إذا الشّرطيّةِ، والمرادُ منه مدُّ الزّمان حتى يطمئنّوا، "ومددْنا زمانَه وطوَّلنا أيّامَه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾، أي: تناهى بهم الفرحُ ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾"[1]، فإنَّ إمهالهم بسبب الاستدراج أوهمَهم "أنَّ الذي نزل بهم منَ البأساء والضّراء ما كان على سبيل الانتقام منَ اللّه ولمّا فتحَ اللّه عليهم أبوابَ الخيرات ظنّوا أنَّ ذلك باستحقاقهم، فعند ذلك ظهرَ أنّ قلوبَهم قستْ، وماتتْ، وأنه لا يُرجى لها انتباهٌ بطريقٍ منَ الطُّرق"[2]، وهذا الإمهال ومدُّ الزَّمان بالخيرات من تمام الاستدراج، وإظهارٌ لمدّة نسيانِهم.

دلالةُ لفظ ﴿فَرِحُواْ﴾ على تحقّق مقصودِ فتحِ الأبواب:

فتحُ أبوابِ الرِّزقِ طريقٌ فتحِ أبوابِ الفرحِ

لمّا كان المرادُ من فتح الأبواب بخيرات الأرض استدراجَهم وإيهامَهم بالرِّضا؛ عبَّر عن تحقّق المراد بأنَّهم فرحوا؛ إذِ الفرحُ يدلُّ "على البَطَر والاشتغالِ بالنّعمة عنِ المُنعِم، معرضين عنه، وعنِ القيام بحقِّه"[3]، فأخبر بذلك تمهيدًا لأخذهم، "وغيّا الفتحَ بفرحهم بما أوتوا، وترتَّب على فرحِهم أخذُهم بغتةً، أي: إهلاكُهم فجأةً، وهو أشدُّ الإهلاك"[4]، كما أنَّ فيه دلالةً على ظنِّهم بكونِه لا ينقطعُ، بمعنى: أنَّهم "بطِروا، وأشِروا، وأُعجبوا، وظنّوا أنَّ ذلك العطاءَ لا يبيدُ، وأنّه دالٌّ على رضاء اللّه ﷻ عنهم"[5].

سرُّ التّعبير بصِيغة الماضي ﴿فَرِحُواْ﴾:

تصويرُ مشهدِ النِّهاياتِ الّذي يتحقَّقُ فيه الاعتبار

آثر النَّظمُ أنْ يعبِّرَ عن فرحهم بالفعل الماضي، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ ولم يعبِّر بالمضارع الدّالِّ على الاستمرار: (إذا هم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/535، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133 - 134.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/426.

يفرحون)؛ لأنه أراد استحضارَ نهاية فرحِهم في ذهنِ المخاطَب، ولم يُرد استحضارَ استمراره، فالفعل الماضي دلّ على أنه فرحٌ لم يدُمْ طويلًا، ويدلُّ على ذلك حرفُ الابتداء ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ إذ عند أوَّلِ فرحهم حلَّت نهايتُهم، ففيه تصويرُ مشهدِ النِّهايات، إذِ العبرةُ فيه لا في امتدادِه واستمرارِه.

بلاغةُ التّعبير عن فتحِ الأبواب ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾:

الإشـــارةُ إلى ظنّـهـم أنّـهـم أُوتوه بأنفسِهم، وهذا مبلغُ الدَّاء ورأسُ البلاء

قولُه ﷻ: ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ تعبيرٌ عن ظنّهم أنّهم أوتوه بعلمِهم، دلالةٌ على كمال إعراضِهم عنِ الله تعالى، أي: "معرضين عمّن آتاهم هذا الرّخاءَ بعد أن كان ابتلاهم بذلك"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم نسوا فاعلَ ذلك الإيتاء؛ فلذا عبَّر عنِ الإيتاء "بالبناء للمفعول؛ لأنَّهم يَحسبون أنَّ ذلك بعلمِهم وقدرتِهم وحدَهم، كما جاء على لسان واحد من أمثالهم، وهو قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾"[2].

دلالةُ فعل الأخْذِ المسنَدِ إلى ضمير العظَمةِ:

مـن أخـذه الله بـذنـوبـه، فلا مـلـجـأ لـه ولا منجى

عبَّر عنِ الأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾ بإسناده إلى نون العظَمة للدَّلالة على أنَّ الله تعالى يأخذُهم بما له من صفات العظَمة[3]، كما أنَّ الأَخْذَ يُشعر بالشِّدَّة لا سيما بنون العظَمة[4]، ففي ذلك مبالغةٌ وتأكيدُ شدّة أخْذِه ﷻ.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ فعل (أخذنا):

الـعـبرةُ بوقـوع الأخذِ بغتةً، لا تعيينُ ماهيَّتِه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ أطلقَ الأخذَ ولم يقيِّدْه بالعذاب، فلم يقل: (أخذناهم بالعذاب)؛ ليشملَ جميعَ ما يُتوقَّع، وما يكونُ سببًا في استئصالهم؛ لأنَّ " ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2501، وطنطاوي، الوسيط: 5/75.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.

(4) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.

في هذا الموضع معناه استأصلْناهم، وسطَوْنا بهم"[1]، فالإطلاقُ فيه إرخاءُ سبيلِ العنان للخيال بتصوُّر ما نالهم بأخذِه لهم ﷻ، ولأنَّ المقصودَ بالأخذ أنَّه جاء بغتةً لا ما هو الآتي.

نكتةُ استعمالِ ﴿بَغۡتَةً﴾ دونَ فجأة:

البغتةُ تدلُّ على الخفاء، والفجأةُ على الهجومِ بلا مقدِّماتٍ

البغتُ فيه خفاءٌ وعدمُ ظهورٍ، أمّا الفجأة ففيها الهجومُ من غير مقدِّماتٍ؛ فلذا عبَّر القرآن عنِ العذاب والقيامة بأنَّها تأتي بغتةً، وقابل البغتةَ بالجهرة، والجهرةُ تعني الإعلانَ، فالبغتةُ هي خلافُ الإعلان، ودأبَ القرآنُ الكريم على التّعبير بالبغتة في موضوعين: نزولِ العذاب، ومجيءِ السّاعة، وكلاهما يأتيان بخفاء، لكنَّ البغتةَ أشدُّ خفاءً.

دلالةُ دخولِ (الفاء)، على (إذا) الفجائيّةِ:

تفريعُ الإبلاس على الأخذ، ذهول من سُرعةِ الأخْذِ

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ فجائيةٌ[2]، والفاءُ "للسببية، فإنّ مفاجأتَهم إبلاسَهم مسبّبةٌ عنِ الأخذ، أو للعطف بحسب المعنى، أي: أُخذوا بغتةً فاجَؤوا إبلاسَهم"[3]، وفائدةُ دخول الفاء على (إذا) الفجائيّةِ: الدّلالةُ على السّرعة والسّببيّةِ، فبعد الأخذِ بغتةً سقطَ في أيديهم، فلم يُحيروا جوابًا، ولم يعقِّبوا على ما حدثَ، "فاجأ عَقيبَه الإبلاس، أي: التَّحسُّر واليأس"[4].

سرُّ استعمال ﴿مُّبۡلِسُونَ﴾، دون ما يُقاربُها في المعنى:

الإبلاسُ دالٌّ على الدَّهشة من سُرعة الأخذ، وهو مُصوِّرٌ لحالتِهم

لمّا أراد النَّظمُ بيانَ حالتهم في تلقّي ذلك الأخذِ المفاجئِ عبَّر عن ذلك بالإبلاس الدّالِّ على الوجوم والسّكوت، دون أن يذكرَ الإياسَ أو التَّحيُّرَ، وهذا تصويرٌ دقيقٌ للحدث "أي: تسبّبَ عن ذلك البغت:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(2) طنطاوي، الوسيط: 5/75.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.
(4) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.

أن فاجؤوا السّكوتَ على ما في أنفسهم، واليأسَ تحسُّرًا وتحيُّرًا، واستمرّوا بعد أن سكتوا إلى أن همَدوا وخفَتوا"[1].

دلالةُ التّعبير بالجملةِ الاسميّةِ ﴿هُم مُّبۡلِسُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ عبّر عن حالهم بالجملة الاسميَّة في بيان حسرتهم، وأنَّهم واجمون "دلالةً على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعةِ"[2] التي انتهوا عليها.

حالةُ الإبلاس والوجوم مستمرّةٌ لا تزول

۞ الفروقُ اللُّغويَّة:

(النّسيان) و(الغفلة):

الغفلةُ: عبارةٌ عن عدمِ التَّفطُّن للشَّيء، وعدمِ عقليته بالفعل، سواء بقيت صورتها أو معناه في الخيال، أو الذِّكر، أو انمحت عن أحدهما، وهي أعمُّ منَ النّسيان؛ لأنَّه عبارةٌ عنِ الغفلة عنِ الشَّيء مع انمحاء صورته أو معناه عنِ الخيال، أو الذَّكر، بالكليَّة، ولذلك يحتاجُ النّاسي إلى تجشُّم كسْبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيله ثانيًا[3].

النِّسيانُ انمحاء الشَّيء منَ الذِّهن بالكلِّيَّة، والغفلةُ عدمُ التَّفطُّن للشّيء

والّذي يناسبُ الآيةَ (النِّسيان)؛ لأنَّهم غفلوا عمّا ذكِّروا به، فإنَّ "النِّسيان إنَّما يكون عمّا كان"[4]، فهم نسوا التَّذكيرَ من أصله، وليس أنَّهم غفلوا عنِ التَّفطُّن له، والنِّسيانُ يعبِّرُ عن خُلوِّ ذهنهم من ذكره لانتفاء مُبالاتهم به.

(الفرح) و(البطر):

"البطرُ سوءُ استعمال النِّعمة"[5]، أمّا الفرح؛ فهو قريبٌ من السُّرور، ويختلف عنه بأنَّه سرورٌ" بما ليس بنفعٍ ولا لذَّةٍ، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْو والسِّباحة وغيرِ ذلك ممّا يُتعبه، ويُؤذيه، ولا

البطرُ سوءُ استعمال النِّعمة، والفرحُ سرورٌ بما ليس بنفعٍ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 97.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 231.

يُسمَّى ذلك سرورًا؛ ألا ترى أنَّك تقول: الصِّبيان يفرحون بالسِّباحة والرَّقص، ولا تقول يُسرّون بذلك"[1]، وفي الآية لم يرد أنَّهم أساؤوا استعمالَ النّعمة بكُفرها وعدمِ شُكرها، بل أراد أن يبيِّن أنّهم كانوا مسرورين بما ليس فيه انتفاعٌ.

(الفرح) و(السّرور):

السُّرور يكون بما هو نفعٌ، أو لـذَّةٌ، والـفرحُ يكون بما ليس بنفعٍ

"السُّرور لا يكون إلّا بما هو نفعٌ، أو لذَّةٌ على الحقيقة، وقد يكون الفرحُ بما ليس بنفعٍ ولا لذَّة، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْو والسِّباحة وغيرِ ذلك ممّا يُتعبه ويُؤذيه، ولا يسمَّى ذلك سرورًا؛ ألا ترى أنَّك تقول: الصِّبيان يفرحون بالسِّباحة والرَّقص، ولا تقول: يُسرّون بذلك، ونقيضُ السُّرورِ الحُزنُ، ونقيضُ الفرحِ الغمُّ"[2].

وفي الآية آثر التَّعبيرَ بالفرح دون السرور؛ لأنَّه فرحٌ بعرض الدُّنيا الزّائلِ مما لا نفعَ فيه على وجه الحقيقة، ولأنَّه أدَّى إلى إعراضِهم عنِ التَّضرُّع إلى الله تعالى، فهو فرحٌ بضرَرٍ.

(بغتة) و(فجأة):

الفجأةُ: الإتيانُ دون مقدِّمة، والبغتةُ الإتيانُ من غير عيانٍ وإظهارٍ

دأب اللُّغويّون على تفسير البغتة بالفجأة، والفجأة بالبغتة، "البَغْت: مفاجأة الشَّيء من حيث لا يُحتسب"[3]، وأصلُ البغت: أنْ يَفْجَأ الشَّيء، والمباغتةُ: المفاجأة[4]، والبغتةُ "فَعْلة منَ البَغت، وهو الفجأةُ، أي: حصولُ الشَّيء على غير ترقُّب عند مَن حصلَ له، وهي تستلزمُ الخفاءَ"[5].

أمّا الفجأةُ؛ فمن قولهم: "فجأ الأمرُ: هجم عليه من غير أن يشعرَ به، وقيل: إذا جاءه بغتةً من غير تقدُّم سببٍ، وكلُّ ما هجم عليك من أمر لم تحتسبْه، فقد فجأك"[6].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 265 - 266.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 265 - 266.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (بغت).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(6) الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 155 - 156.

والفجأةُ: هي مواجهةُ شيءٍ دفعةً وبدون مقدِّمة ظاهرةٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾؛ فإنَّ مقابلة البغتةِ بالجهْرةِ تدلُّ على أنّ حقيقةَ البغتة عبارةٌ عن إتيان شيءٍ دونَ إعلام وإظهارٍ؛ فإنّ الجهرة: هي العيانُ والظهورُ، وبهذا يظهرُ الفرقُ بين البغتة والفجأة: فإنّ الفجأةَ: هي الإتيانُ بلا مقدِّمة، وهي الهجومُ دفعةً، وأمّا البغتةُ؛ فهي الإتيانُ من غير عيانٍ وإظهارٍ، فمجيءُ السّاعةِ والعذابِ، والأخذِ من هذا النَّوع، وهذا التَّعبيرُ ألطفُ منَ الفجأة؛ فإنَّ مجيئَها ليس بلا مقدِّمة، بل بلا مقدِّمةٍ ظاهرةٍ، ونجدُ أنَّ لفظَ البغتة استُعمل مع نزول العذاب ومع قيام السّاعةِ، وكلاهما الفجأةُ فيهما شديدةٌ.

(الشَّيْطَان) و(إِبْلِيس):

إبليسُ هو زعيمُ الشّياطين

يَرِدُ لفظُ (إبْليس) في القُرْآنِ الكَريمِ مُرادًا به اسمُ عَلَمٍ على الذي امْتَنَعَ عن السُّجودِ لآدَمَ عليه السلام، كما في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]، وهوَ مشتَقٌّ مِنَ الإبْلاسِ، وهو شدَّةُ اليأْسِ؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ آيسَهُ مِنْ كُلِّ خيرٍ.

أمّا الشَّيطانُ؛ فيقَعُ وصفًا لكلِّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ، فلفظُ الشَّيطانِ أَعَمُّ مطلقًا مِنْ إبليسَ[1].

(التَّزْيين) و(التّسْويل):

التَّزيينُ خطابُ النَّفس، والتَّسويلُ خطابُ العقل

التَّسْويل: تَحْسينُ الشَّيْءِ وتزيينُه وتَحْبيبُه إلى الإنسان ليَفْعَلَهُ أو يَقولَهُ، كما في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف، 18، 83][2].

وكذا التَّزيينُ هو إظهارُ حسنِ الشّيء، إمّا بالفعل، أو بالقول،

(1) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فجأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سول).

ومنه قولُ الله تعالى عن فعلِ الشّيطانِ مع الكفّارِ: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: 48][1].

والفرقُ بينهما أنَّ التَّزيينَ يغلبُ في خطابِ النَّفسِ وهواها، أمّا التَّسويل فيغلبُ في خطابِ العقلِ، فيبدأ الأمر مزيَّنًا فيرفضه العقل، فيأتي دورُ التَّسويلِ ليُكمِل المسير، فالتَّزيينُ ابتداءً، والتَّسويل انتهاءً.

(1) الراغب، المفردات: (زين).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾

[الأنعام: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسليةُ المؤمنين باستئصالِ شأفةِ الظّالمين

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنَّ اللّه ﷻ أرسلَ الرُّسُلَ إلى أقوامِهم ليدْعوهم إلى توحيدِ اللّه تعالى، وترْكِ الأصنام والأوثان، ولكنَّهم لم يؤمنوا، بل كذَّبوا، وعاندوا، فابتلاهمُ اللّه تعالى بالسَّراء والضَّراء، وظلّوا على عنادهم؛ بيَّن هنا في هذه الآية مصيرَهم بأخذهم على جهةِ الاستئصالِ، فقطعَ دابرهم؛ ليستريحَ منهمُ الرُّسلُ والمؤمنون، وهذه نِعمةٌ تَستوجبُ الشُّكرَ؛ لأنَّ اللّه أنجزَ وعْدَه، وصدَّق رُسلَه بهلاك المُعاندين.

وذهب البقاعي إلى أنَّه "لمّا كان من عادة الغالب من أهل الدُّنيا أن يفوتَه آخرُ الجيوش وشُذّابهم للل أصحابه منَ الطَّلب وضجرهم منَ النَّصب والتَّعب، وقصورِهم عنِ الإحاطة بجميع الأرب؛ أخبرَ تعالى أنَّ أخْذَهُ على غير ذلك، وأنَّ نيلَهُ للآخر كنيلِه للأوَّل على حدٍّ سواءٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَقُطِعَ﴾: القطعُ: أصلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيءٍ[2]، مُدْرَكًا بالبصر، كالأجسام، أو مُدرَكًا بالبصيرة، كالأشياءِ المعقولةِ، فمِن ذلك قطعُ الأعضاء، نحو: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الأعراف: 124]، ومنِ استعماله في المعاني المعقولة: قطعُ الوصْلِ، وقطعُ الرَّحِم، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/116.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

[محمد: 22]، ويُستعملُ بمعنى: الهلاك، قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: 127]، ومنه: قطعُ دابرِ الإنسان، أي: إفناءُ نوعِه، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾[1].

2) ﴿دَابِرُ﴾: (دبَرَ) أَصْلُه: آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ، خِلافُ قُبُلِه[2]، ودبَرَه: تبعَه من ورائِه، ودابرُ الشَّيءِ: آخرُه[3]، ودابِرُ القَومِ: آخِرُهم، التّابعُ لهم من خلْفِهم[4].

وقولُهم: قَطَعَ اللّه دابِرَه، أَي: أذهب اللّه أَصلَه، دعاءٌ عليه بانقطاع العقِبِ حتَّى لا يبقى أحدٌ يخلفُه، تذهبُ أصولُهم، ولا يبْقى لَهُم أَثرٌ[5]، وقطعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾[6]، أي آخرُ من بقيَ منهم[7]، فاستُؤصلَ آخرُهم، ولم يُترك منهم أحدٌ[8].

۞ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تعليلُ مُقتضَى حُكمِ الاستئصال بالمشتقِّ للدّلالة على علّيَّةِ ما منه الاشتقاقُ (الظلم)

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه قد "استُؤصلَ دابرُ القوم الذين ظلموا أنفسَهم بإهلاكِهم بالكُلّيَّة عن آخرهم، فلم يبقَ منهم أحدٌ، أي: فهلكَ أولئك القومُ الذين ظلموا أنفسَهم بتكذيبِ الرُّسلِ والإصرارِ على الشِّرك، وأعمالِهم الخبيثةِ بالكُليّةِ أصلًا وفرعًا بسببِ ظُلمِهم، فلم تبقَ لهم باقيةٌ؛ لأنَّهم استُؤصلوا بالعذابِ"[9]، وهذه نعمةٌ تستوجبُ الحمدَ؛ لأنَّ إبادةَ الظّالمين نعمةٌ منَ اللّه ربِّ العالمين.

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (دبر).
(6) الراغب، المفردات: (قطع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(8) الزمخشري، الكشاف: 2/23.
(9) الواحدي، البسيط: 8/145.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الاستئْصالِ بقطْعِ الدَّابر:

استئصالُ الآخِرِ يستلزمُ انمحاءَ آثارِ مَن قبلَه

في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ ذكرَ دابرَ القوم، وأراد أنَّ القومَ جميعًا قُطعوا واستُؤصِلوا، فهو "كنايةٌ عنِ استئصالِ شأْفَتِهم ومَحْوِ آثارِهم، كأنَّهم وردوا العذابَ حتَّى وردَ آخرُهم الذي دبَرَهم"[1]؛ لأنَّ ذهاب آخرِ الشيء يستلزمُ ذهابَ ما قبْلَه[2].

دَلالةُ عطفِ جملةِ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾:

حملُ عمومِ الأخْذِ على خصوصِ الاستئصالِ

عُطِفتْ هذه الجملةُ على قولِه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ وذلك لما بينهما مِن اتِّصال في المعنى، فتكونُ هذه الجملةُ تفسيرًا للأخْذ، والمرادُ: أخذْناهم بالاستئْصالِ.

إيثارُ العطفِ بالفاءِ دون الواو:

التَّعجيلُ بالعذابِ عَقِبَ تَمَحُّضِ ما يُعابُ

آثرَ التَّعبيرَ بالفاء في قولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ لبيان أنَّ القطعَ مُسبَّبٌ عنِ الأخذِ الموصوفِ[3]، وفي الفاء دَلالةٌ على السُّرعةِ في إيقاعِ العذابِ حيث لم يتأخَّرْ قطعُ دابرهم عن أوَّلِهم؛ وذلك لما فيها منَ التَّعقيب بلا مُهلة.

دَلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿دَابِرُ﴾ دون (آخِر):

دلالةُ قطْعِ الدَّابرِ الموصولِ على استئصالِ الفروعِ الأصولِ

آثرَ القرآنُ لفظَ ﴿دَابِرُ﴾ دون آخِر؛ لأنَّه يشيرُ إلى الاستئصال الكلِّيِّ، وذلك ليفرِّقَ بين فعل المُنتصِر في الدُّنيا، وبين فعلِ اللّٰه تعالى مع هؤلاء الظّالمين؛ لأنَّ من عادةِ الغالبِ من أهل الدُّنيا أن يفوتَه آخرُ الجيوش لِمَلَلِ أصحابِه منَ طلبِهم، بخلاف فعلِ اللّٰه تعالى؛ فنَيلُه للآخِر كنَيلِه للأوَّل على حدٍّ سواء[4].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/361.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.

ويُزادُ عليه أنَّ لفظَ الدّابرِ يكونُ بمعنى الأصل، وفي هذا إشارةٌ إلى قطع أصولِهم؛ فلا تمتدُّ بعد ذلك، وهذا ما فعلَه الله مع الأمم السّابقةِ؛ فلم يبقَ لهم أصلٌ ولا فرعٌ بخلاف لفظٍ آخر؛ فإنَّه لا يؤدّي هذه المعاني.

إيثارُ صيغةِ الفعلِ المبنيّ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

إخفاءُ الاسمِ الأجلِّ هيبةٌ، وصرفُ النَّظرِ إلى فَداحةِ الفعلِ

بنَى الفعلَ لما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ لأنَّه معلومٌ هنا، وهو الله تعالى، وإنَّما آثَرَ إخفاءَه لما في الإخفاء منَ الهيبةِ والتَّفخيم، وفي حذف الفاعلِ (المعروفِ الذي لا يُجهل) إرادةٌ للتَّنبيه على فداحةِ الفعلِ نفسِه وصرْفِ النَّظر إليه دون الفاعل، فآثر إخفاءَه "مُشيرًا بالبناء للمفعول إلى تمام القُدرة"[1].

وفيه إشارةٌ إلى بيان أسلوبِ القرآنِ في الأشياءِ التي يكونُ في ظاهرِها الشَّرُّ، يُبنى الفعلُ للمفعول كراهةَ أن يُسندَ الشّرُّ إلى الله تعالى تأدُّبًا.

دَلالةُ إيثارِ التَّعبير بالموصولِ:

تعليقُ الحكمِ بالمشتقِّ يدلُّ على عليَّةِ ما منهُ الاشتقاقُ

آثرَ التَّعبيرَ بالموصول في قولِه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ﴾ مقامَ المُضمر، فلَمْ يقلْ: (دابرَهم)[2] "للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم؛ لأنَّ الحكمَ إذا عُلِّقَ على وصفٍ صار ذلك الوصفُ علّةً له، يزدادُ الحكمُ قوّةً بقوّتِه، وينقصُ بنقْصِه، ووَفْق هذه القاعدة: فإنَّ هلاكَهم بسبب ظُلمهم الذي هو وضعُ الكفر موضعَ الشُّكرِ، وإقامةُ المعاصي مُقامَ الطاعات"[3]، فآثرَ استعمالَ الموصول اهتمامًا بما في حيِّزِ الصِّلة، تنصيصًا على عِلَّةِ استئْصالهم، فنبَّه على "سببِ الاستئصال بذكرِ الوصفِ الذي هو الظُّلمُ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 2/875.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134، والآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.

إيثارُ القطعِ دونَ الجثِّ:

الـقـطـع استئصالٌ مآلُهُ إلى الفناءِ

آثرَ الفعلَ (قُطع)؛ لأنَّه أشدُّ في النِّكاية والعذابِ مِنَ الجثِّ؛ لأنَّ الجثَّ يشيرُ إلى القطعِ من فوقِ الأرض كما في جثِّ الشَّجرةِ، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: 26] بخلاف القطعِ؛ فهو يدلُّ على القطع في الظّاهرِ والباطنِ المُدرَكِ بالبصر أو البصيرةِ، كما يدلُّ على الهلاك والفناءِ أيضًا؛ لذلك استعمله القرآنُ في مواطنَ عديدةٍ مؤكّدًا هذا المعنى، فاستعملَه في قطع أعضاءِ الإنسان، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾ [الأعراف: 124]، واستُعملَ في قطع الطَّريقِ وفي قطعِ الأرحام، وفي إفناءِ الظّالمين والكافرين، قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: 127]، وفي قولِه: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 72]، إلى غير ذلك ممّا يؤكِّدُ أنَّ القطعَ أعمُّ بخلاف الجثِّ؛ فلم يَرِدْ إلّا في موضعٍ واحدٍ في قطع الشَّجرةِ الخبيثةِ، وذلك من فوق الأرضِ، وليس من باطنِها.

وعلى هذا كان اختيارُ القرآن لهذا الفعل؛ لما له من دلالاتٍ في موقفِ الكافرين المُعاندين للرُّسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - منها: أولاً: قطعُ أصلِ الكافرين المعانِدين ونسْلِهم من بعدِهم، وهذا ماحدثَ مع الأقوام السّابقةِ، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، فلا أصلَ لهم يُذكرُ، وثانيًا: التَّهوينُ من شأنِ هؤلاء الكفّارِ، وذلك باختيارِ هذا اللَّفظِ الذي يُستعملُ في مواطنِ الذَّمِّ؛ فقال في حقِّ الكافرين المُعانِدين من قوم عاد: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 72]، وثالثًا: تحذيرُ كفّارِ مكَّةَ من فعل السّابقين حتى لا يُقطعَ دابرُهم.

في حرفَيِ القافِ والطّاءِ مِنَ الصِّفاتِ ما يناسبُ القوَّةَ والشِّدَّةَ

وممّا يدلُّ على أنَّ الفعل (قطع) أقوى مِنَ الفعل (جثَّ): أنَّ حرفَ القاف فيه قوَّةٌ لا توجدُ في حرف الجيم في (جثَّ)، فحرفُ الجيم يوجدُ مع الجسمِ الذي فيه هشاشةٌ، وإن كان حجمُه كبيرًا؛

بخلاف حرف القاف، فيوجدُ مع الجسم القَويِّ الصَّلبِ، وكذا حرفُ الطّاءِ فيه شدَّةٌ واستعلاءٌ، كلُّ ذلك يؤكِّدُ على أنَّ البِنيةَ اللُّغويةَ لمادّةِ (قطعَ) أقوى منَ البِنيةِ اللُّغويةِ لمادّةِ (جثَّ).

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ القومِ:

بالغوا في معاداتِهم وظلمِهم باجتماعِهم وشدّتِهم

قد يُتَصوَّرُ إمكانُ الاستغناءِ عنِ الإتيان بلفظِ القوم في قولِه: ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ويكونُ المعنى واضحًا من خلال جملة: (فقُطع دابرُ الذين ظلموا)، لكنْ أُتيَ بلفظ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ لأنَّ النّاظرَ في تصاريفِها، وهي مأخوذةٌ من مادَّة (قوَمَ)، يجدُ أنَّها في بعض معانيها تشيرُ إلى القوَّةِ والشِّدَّةِ والاجتماع، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ هؤلاء الذين قُطع دابرُهم كانوا يتَطاولون على الرُّسُلِ - عليهم الصّلاةُ والسّلامُ - بقوَّتِهم وكِبْرِهِم وغطْرستِهم، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّ لفظ (القوم) في أصل إطلاقه يكون للرجال دونَ النساء عند أغلب المعجميّين.

وفيه إشارةٌ إلى هلاك كلِّ الأقوامِ السّابقةِ؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومِه؛ فالمرادُ بالقوم: أهلُ دعوتِه، ويشيرُ - أيضًا - إلى عدمِ هلاكِ أمَّةِ سيِّدنا محمدٍ ﷺ لأنَّ دعوتَه عالَمِيَّةٌ لكلِّ البشرِ، فليست خاصّةً بقومِه، فمع وجودِ الظّالمين والكافرين لم يَقطعِ اللهُ دابرَهم، بلْ أبقاهم لبقاءِ الأمَّةِ الإسلاميةِ.

دَلالةُ اختيارِ الوصفِ بالظُّلمِ دون الكُفر:

الاستئناسُ بسببيَّةِ الظُّلم لإدراج الأنواعِ في الأجناسِ

نبَّه على سبب الاستئصال بذكر الوصْفِ الذي هو الظلمُ، وهو هنا الكفرُ[1]، وقدِ اختار القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالظُّلم دونَ الكُفر؛ لأنَّه أعمُّ، فيشملُ الكفرَ والشِّركَ والمعاصي، وكلُّ ذلك يندرجُ تحت الظُّلم، وهذه الأقوامُ لم تقفْ عند حدِّ الكفر، بل كفرتْ، وأشركتْ، وظلمتْ، وأيضًا؛ لأنَّ الظّلمَ: وضعُ الشَّيءِ في غير موضعِه، وهؤلاء

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/134.

الكفّارُ وضعوا الآياتِ التي أنزلها اللّه عليهم منَ البأساء والضَّراء في غير موضعِها، فجحدوا بها، وأصرّوا مُستغرقين في غيِّهم، فظلموا الآياتِ، وظلموا أنفسَهم.

دلالةُ (الواو) في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

يعلِّمُ اللهُ عبادَهُ أنْ يحمَدُوهُ على عميمِ فضْلِهِ

يجوزُ أن تكونَ (الواو) عاطفةً لهذه الجملةِ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [الأنعام: 42]؛ وذلك لِما بينهما مِن اتِّصالٍ، ويكونَ العطفُ من باب عطفِ غرضٍ على غرضٍ، ويجوزُ أن تكونَ اعتراضيةً، وعلى كلٍّ فغرضُها الأصليُّ أن تكونَ هذه الجملةُ تعليمًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين أن يحمَدوا اللّه على نصره رُسلَه بإهلاكه الظّالمين[1].

فائدةُ التَّعقيبِ بالحمْدِ على إهلاكِ الظَّالمين:

إنـجـازُ الـوَعـدِ بـقـطـعِ دَابـرِ الكافرين يقتضي حمْدَ الشَّاكرين

عقَّبَ بالحمد على الإهلاكِ لبيان أنَّه نعمةٌ تقتضي الشُّكرَ، وذلك في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حمِدَ اللّه تعالى نفسَه في هذا الموضعِ على قطْع دابِرِ الظّالمين، واستئْصالِهم[2]، ومعنى هذا: "أنَّ قطْعَ دابرِهم نعمةٌ على الرُّسُل الذين أرسلَ إليهم، فكذَّبوهم، فذكْرُ الحمدِ هاهنا تعليمٌ لهم، ولمن آمن بهم، ليحمَدوا اللّه تعالى على كفايتِه إيّاهم شرَّ الذين ظلموا"[3]، حيث إنَّ تخليصَ أهلِ الأرض من شُؤمِ عقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ يحقُّ أن يُحمدَ عليها[4]، و"لِما فيه من إنجازِ وعدِ اللّه للرُّسل بالنَّصر"[5]، وفيه "إيذانٌ بوجوبِ الحمدِ عند هلاكِ الظَّلمة"[6]، "لا سيما مع ما فيه من إعلاءِ كلمةِ الحقِّ التي نطقتْ بها رُسلُهم عليهم السلام"[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/232.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(3) الواحدي، البسيط: 8/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، وشيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/45.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 2/879.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/24.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 4/361.

دَلالةُ اختيارِ (الحمد) دونَ غيرِه:

في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: اختار القرآنُ (الحمد) دون غيرِه؛ لأنَّه أعمُّ ألفاظِ الثّناءِ على الله ربِّ العالمين، حيث يكونُ من باب الحمدِ لذاتِه ولصفاتِه التي فيها إنعامٌ على خلْقِه، ويكونُ على النِّعمةِ الواصلةِ إليك أو إلى غيرك، وهذا هو المناسبُ لسياقِ الآية؛ لأنَّ هلاكَ الظالمين نعمةٌ على الكلِّ سواءٌ كانت بطريق مباشرٍ أم غيرِ مباشر؛ فهلاكُ الظّالمين صلاحٌ للمجتمع وحِفاظٌ على بِنيتِه وإبقاءٌ لشريعتِه؛ لأنَّ الظلمَ يعملُ على تغييرِ الحقوقِ وإبطالِ الشَّرائعِ ومحاربةِ الفضيلةِ؛ لذلك كان إهلاكُهم من أعظمِ النِّعمِ للفردِ وللمجتمعِ.

هلاكُ الظَّالمين الأعمُّ يورِّثُ نعمةً تحرِّض على مقامِ الثَّناءِ الأتمِّ

سِرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ (الحمد) دونَ الفعل:

عبَّر بصيغةِ المصدر دون الفعل (أحمدُ أو نَحمدُ)؛ لإفادة العُموم، بخلاف قولِك: (أحمَدُ اللّه)، فقد أخبرتَ عن حمْدِك دونَ غيرِك، ولو قلتَ: (نحمَدُ اللّه)؛ كان الفاعلُ للمُتكلِّمين، ولم تُدخلْ غيرَهم في حمْدِه؛ أمّا المصدر؛ فأفاد معنى عدمِ تحديدِ الفاعل، وهو بذلك يشيرُ إلى حمْدِ الكلِّ لربِّه طوعًا أو كرهًا، فضلًا عن أنَّ التَّعبيرَ بجُملةِ (الحمد لله) - وهي جملةٌ اسميةٌ - تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ، بخلاف (نحمدُ) أو (أحمَدُ)؛ فهي جملةٌ فعليةٌ، ومعلومٌ أنَّها تدلُّ على التَّجدُّد والحُدوث، فهي مرتبطةٌ بزمنٍ، في حينِ أنَّ الاسميةَ لا ترتبطُ بزمن، فهي أدلُّ على ثبوتِ الحمْد مِنَ الفعليةِ، وفيه إشارةٌ إلى ثُبوتِ نعمةِ الحمْدِ على هلاك الظّالمين في كلِّ زمان ومكان.

سوقُ المصادرِ في مَعرِض نثرِ المحامدِ تشوُّفًا إلى صلاحيَّةِ الاستعمالِ دون حدٍّ

دَلالةُ إسنادِ الحمْدِ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أسندَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿وَٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى لَفظِ الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾ مباشرةً، ولم يُسنِدْه إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ ولغيره من أسمائِه الحُسنَى كالقاهرِ أو القادرِ مع مناسبتِهما سياقَ هلاكِ الظالمين؛ تنبيهًا على استحقاقِه الحمدَ

تعليقُ الحمْدِ بالصِّفاتِ أشوفُ، ورفعُهُ إلى الذَّاتِ أشرفُ

لذاتِه، أمّا إسنادُه إلى ربِّ العالمين أو إلى غَيره من الصفات؛ فيكونُ إشارةً إلى استحقاقِه الحمْدَ لصفاتِه المذكورة دون ذاته.

سِرُّ الوصفِ بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد ذكرِ العذابِ:

الابتلاءُ بالسَّراءِ والضَّراءِ من تقديراتِ الرُّبوبيَّةِ

وصفَ نفسَه تعالى بأنَّه ربُّ العالمين بعد الحمْدِ في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ إشعارًا بأنَّ "القضاءَ على الذين ظلموا بعد أنِ اختُبِروا بالبأساءِ والضَّراء، ثمَّ بالسَّراء والنَّعماء هو من تقدير الرُّبوبيّةِ، وتدبيرِه سبحانه ربِّ العالمين"(1).

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دونَ (ربِّ النَّاس):

تظاهرُ الأجناسِ على أذيَّةِ الظَّالم، وإجماعُهم على حُسنِ ردِّ المظالم

عبَّر بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون ربِّ النّاس؛ لأنّه أعمُّ، فيشملُ كلَّ الأجناسِ، والنّاسُ جنسٌ منهم، وهذا مناسبٌ لقطعِ دابرِ الظّالمين؛ لأنَّ الظُّلمَ مرضٌ خطيرٌ وشرٌّ مستطيرٌ يهدّدُ البلادَ والعبادَ؛ لذلك كلُّ الأجناس تحمدُ اللّه على زوال الظّالمين مِنَ الوجود.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2502، والطيبي، فتوح الغيب: 6/88.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمامِ تصوُّرِ مناسبةِ العذابِ لسُوءِ صنيعِهم تردِيةُ حالِهم

لَمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه استأصلَ الظّالمين بنزول عذابه بهم، ذكرَ هنا ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وتوحيدِه[1]، وذلك أنَّه لمّا قدَّمَ التَّنبيهَ بإتيانِ مُطلقِ العذابِ في مُطلقِ الأحوالِ، وأتبعَه أنَّ أخْذَ الأمم كان بغتةً، أعقبَه التَّنبيهَ بعذابٍ خاصٍّ يهزُّ تَصوُّرُ شناعتِه الأركانَ؛ فإنَّه لا أشنعَ حالًا من أصمَّ أعمى مجنونٍ[2] مسلوبِ العقل والتَّمييز.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: مِن (رأى) العِلميَّة التي ضُمِّنتْ معنى: أخبروني، وفي (أَرَأَيْتَ) معنيان، أحدُهما: أن يسألَ الرجلُ: أرأيت زيدًا؟ أي: أعلمتَ، وثانيهما: أن تقول: أرأيتَ، بمعنى: أَخْبِرْني[3]، وهي في الآية بمعنى: الإخبار، فقولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني[4].

2) ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: الأَخْذُ: حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُه[5]، "وأَخَذَ اللّهُ، معناه: أذهبَه، وانتزعَه بقُدرته"[6]، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ "أي: أصمَّكم وأعْماكم[7].

3) ﴿وَخَتَمَ﴾: (ختم) أصلٌ يدلُّ على بلوغِ آخرِ الشَّيءِ، خَتَمْتُه:

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/117.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/615، 617.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/145.
(5) الراغب، المفردات: (أخذ).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

بلغتُ آخرَه، ومنه الختمُ: الطَّبعُ على الشَّيء؛ لأنَّه لا يكون إلّا بعد بلوغ آخره[1]، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، معناه: "وطبعَ على قلوبِهم، فلم يعقلوا الهُدى"[2].

4) ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: الصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، وتَصْريفُ الرّياح: هو صرفُها من حال إلى حالٍ، و"تصريفُ الآياتِ: هو نصبُ العِبَرِ، ومجيءُ آياتِ القرآن بالإنذارِ والإعذارِ والبِشارةِ ونحوهِ"[3].

5) ﴿يَصۡدِفُونَ﴾: (صَدَفَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ، صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا مالَ عَنْهُ وولَّى ذاهِبًا[4]، وصَدَفَ عنه: عدلَ، وأعرضَ إعراضًا شديدًا[5]، ومعنى قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾، أي: "يُعرِضون عنِ الآيات بعد ظهورِها"[6]، فلا يَعتبِرون"[7].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تهافتُ مآخذِ الإعراضِ عنِ اللهِ بعد تواترِ الآياتِ البيِّنات

في هذه الآيةِ يقولُ اللّه سبحانه لنبيِّه ﷺ: قلْ لهؤلاء المشركين، أخبروني ماذا أنتم فاعلونَ إنْ أخذَ اللّه سمعَكم وأبصارَكم، وختمَ على قلوبِكم، إذْ هو الذي وهبَها لكم؟ فإنَّه ليس هناك إلهٌ غيرُ اللّه تعالى يردُّ إليكم تلك الحواسَّ، ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه يُصرِّفُ لهمُ الآياتِ، وينوِّعُها بألوانٍ مختلفةٍ وعلى أساليبَ متعدِّدةٍ في غاية الوضوحِ والبيانِ؛ لأنَّها تدلُّ على توحيدِه وصحَّةِ نُبوّةِ نَبيِّه ﷺ ثمّ هم مع ذلك يُعرِضون عمّا وضحَ لهم، وظهرَ عندهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ختم).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والواحدي، البسيط: 8/149.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدف).
(5) الراغب، المفردات: (صدف)، وابن سيده، المخصص: 3/349.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/30.
(8) الواحدي، البسيط: 8/150، والحجازي، التفسير الواضح: 7/84.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القول:

الفصلُ بالقول أمارةُ العنايةِ بالإبلاغ

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾ بقوله: ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتمام بإبلاغه وتلقينًا له ﷺ وإلّا فإنَّ مُعظمَ ما في القرآن مأمورُ الرَّسولُ ﷺ بأن يقولَه لهم[1].

دَلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

عذابُهم واقعٌ مُتحقَّقٌ مُتعجَّبٌ منه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجملة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ لأنَّها أسلوبٌ قرآنيٌّ يُفتتح بمثلِه الكلامُ الذي يرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهمزةُ الاستفهام فيه للتَّقرير، وهي تجمعُ بين الاستفهامِ والتَّعجُّبِ[2].

سرُّ تركِ كافِ الخطابِ في ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

ترديدُ زيادةِ الكافِ أو حذْفِها لِعِظَمِ التَّهديد وجودًا وعدمًا

لم تُذْكَرْ كافُ الخِطابِ في الفعل ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ كما ذُكرت سابقًا في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾؛ "لأنَّ التَّهديدَ هناك أعظمُ، وذلك لأنَّ المتوعَّدَ به عذابُ الله، وهو أشدُّ من أخْذِ السّمعِ والأبصارِ، فناسبَ التَّأكيدُ بالإتيان بكاف الخطاب"[3]، ولمّا كان التَّهديدُ أخفَّ من ذلك لم يؤكَّد به، بل اكتُفيَ بخطاب الضَّمير، فقيل: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾[4].

مطلعُ الخطابِ مُؤذِنٌ بسوقِ ما يدلُّ على المبالغةِ

ووجهُ مجيءِ الكاف - أيضًا - أنَّه لما كانت الأولى مبدأَ الخطاب، بولغ في الخطاب فيها، والثانيةُ: اكتفى فيها بالخطاب الأول، فلم يحتج إلى المبالغة، والثّانية: وقع الفصل بينها وبين الأول، وفيه شبه طول؛ فَأُعيدتِ الكافُ فيها للخطاب[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ (إن) بدلًا من (إذا):

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ﴾ عبَّر بـ ﴿إِنۡ﴾ التي تفيدُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.

(2) السّمين، الدر المصون: 4/615.

(3) السّمين، الدر المصون: 4/636.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّته، بدلًا من (إذا) التي تفيدُ تحقُّقَ الوقوع؛ لأنَّ مساقَ الآية للتَّرهيب والتَّخويفِ حتى يُقلعوا عمّا هم فيه منَ الشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّه تحذيرٌ وترهيبٌ، وأنَّه لو سلَبَ السَّمعَ والبصرَ، وختمَ على القلوبِ؛ فلن يكونوا مؤهَّلين للتَّغيير عمّا هم فيه؛ لأنَّهم سُلبوا وسائلَ الإدراكِ.

الـتَّرهـيـبُ والـتَّـخـويـفُ لقصد الإمهال دفـعًـا لمفسدةِ الوقوعِ والإهمالِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأخذِ دونَ السَّلْبِ:

عبَّر القرآنُ عن سلْبِهم تلك الحواسَّ بالأخذِ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾، والمعنى: "أصمَّكم وأعماكم، فأخْذُهما مجازٌ عن سلْب الحواسِّ؛ لأنَّ سلبَ الحواسِّ يلزمُ منه الصَّممُ والعَمى"[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ دون السَّلب؛ لبيان أنَّها ملكٌ له تعالى، أو هي محضُ إنعامٍ منه ﷻ، قادرٌ على أخذِها، فهي ليست ملكًا لكم، فيكونُ سلبًا.

ما خلقَهُ اللهُ تـعـالى محضُ إنعامٍ منه، وله سلبُهُ أنَّى شاء

ويُزاد على ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ؛ لأنَّه يدلُّ على العقابِ والمُجازاة؛ فهم لم يُقابِلوا نعمةَ الحواسِّ التي منحهم اللهُ إيّاها بالشُّكرِ والإيمانِ بخالقِها؛ فهدَّدهم ربُّنا بسلْبِها، وأكَّد ذلك التَّعبيرُ بفعل (الأخذ) الذي يُستخدم غالبًا في القرآن في مَقام العقوبةِ.

لما جَحدُوا إنعامَ الـلـه عـلـيـهـم بـهـذه الـحـواسِّ هدَّدهم بسلْبِها

نكتةُ إسنادِ الأخذِ للسَّمعِ والبصرِ دونَ القلبِ:

أُسْندَ الأخذُ إلى السَّمعِ والبصرِ دونَ القلبِ؛ لأنَّ القلبَ مناطُ التَّكليفِ، فلو أُخذَ لسقطَ التَّكليفُ، والعقلُ محلّه القلبُ يُحجبُ ويُسترُ، ولا يؤخذُ؛ أمّا السَّمعُ والبصرُ؛ فيكونُ أخْذُهما بعدم السَّماعِ والإبصارِ.

تـعـلـيـقُ الأخـذِ بالسَّمعِ والبصرِ صـــونٌ لمـنـاطِ التَّكليفِ

دَلالةُ إسنادِ الختْمِ على القلوبِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالختْم في قولِه تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ولم يقلْ: (وأخذ عقولكم)؛ لأنَّ العقلَ شرطٌ في التَّكليف، فلو أخذَ

شـرطُ التَّـكـلـيـفِ سلامةُ العقلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

العقلَ؛ لسقطَ التَّكليفُ[1]، "والقلوبُ مرادٌ بها العقولُ في كلام العرب؛ لأنَّ القلبَ سببُ إمدادِ العقل بقوَّةِ الإدراكِ"[2].

السِّرُّ في إفراد السَّمعِ وجمْعِ الأبصار:

جاء السَّمعُ مفردًا، والأبصارُ جمعًا في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ مفردٌ يدلُّ على جمعٍ[3]، والمصدرُ يقعُ للقليلِ والكثيرِ[4]، فجاء مفردًا لقلَّة المُفاوتةِ فيه؛ لأنَّ السَّمعَ أعظمُ الطُّرق للإدراك[5].

النَّاسُ في السَّمع متساوُون، وفي الإدراكِ متفاوِتون

ولأنَّ القلوبَ متفاوتةٌ في إدراكِ الأدلَّةِ التي تَعرِضُ لها، وكذا الأبصارُ متفاوتةٌ في التَّعلُّقِ بالمرئياتِ التي فيها أدلَّةُ الوحدانيةِ؛ فلكلِّ بصرٍ حظُّه في النَّظر وأخذِ العِبرة والعِظة، أمّا الأسماعُ؛ فإنَّها تتعلَّقُ بما يُلقَى إليها منَ القرآن؛ فالنّاسُ إذا سمعتِ القرآنَ، سمعوه سماعًا واحدًا متساويًا، وإنَّما يتفاوتون في الإدراك والتَّدبُّرِ[6].

علَّةُ تقديمِ السَّمعِ على البَصَرِ:

السَّمعُ أشرفُ لكونه سبيلَ تأثيرِ القلبِ، ولأوَّليَّتِهِ وتقدُّمِ مركزه، وتعلُّقِهِ بالغائب

النّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريم، يجدُ أنَّ تقديمَ السَّمع على البصر هو الغالبُ فيها، وذلك لأنَّ السَّمع أوَّلُ عُضوٍ يُؤدّي وظيفتَه في الدُّنيا، وهذا واضحٌ بعد ولادة الطّفلِ، ولأنَّ العينَ تحتاجُ إلى النّورِ لكي تُؤدّي وظيفتَها، بخلاف الأُذن فتُؤدّي وظيفتَها دون عائقٍ في اللَّيل والنَّهار، وفي الظَّلامِ والنّورِ على حدٍّ سواءٍ، ولأنَّ مركزَ السَّمع يتقدَّمُ على مركزِ البصر؛ كما أثبت ذلك علماءُ التَّشريحِ، وهذا إعجازٌ علميٌّ لم يعرفْه العلماءُ إلّا حديثًا[7].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/427.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/190.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/256.
(7) عادل الصعدي، الإعجاز العلمي في تقديم السّمع على البصر. شبكة المعلومات الدولية.

ويُزادُ على ذلك أنَّ السّمعَ يتعلَّقُ بآيات القرآنِ، فهو مُوردُها القلبَ، فالاستجابةُ للقرآن تقعُ بالسَّمع: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾[1]، وقد أحسن أبو السُّعود بقولِه: "وأمّا تقديمُ السَّمع على الأبصار؛ فلأنَّه موردُ الآياتِ القرآنية"[2]، والبصرُ يتعلّقُ بالآيات الكونيّة المُشاهَدةِ، وبعضُ المفسِّرين ذهب إلى تفضيل السَّمع على البصر، لتقدُّمِه عليه في أكثرَ من موضعٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل: 78][3].

ومِنْ عِلل تقديمِ السَّمع التّنبيهُ على أنَّه أشرفُ من حيث تعلُّقه بالغائب، والبصيرُ لا يرى إلا الحاضرَ[4].

نكتةُ إيثارِ الختمِ على الطّبْعِ:

الطَّبع مظنَّةٌ لغلقِ باب العمل، وفي الختمِ بريقُ أملٍ

اختارَ الختمَ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ دون الطّبع؛ لأنَّه المناسبُ لسياقِ الآيةِ في التَّخويف والتَّهديد؛ لذا ناسبَ أن يهدِّدَهم بالختْم دون الطّبْع؛ لأنَّ الختمَ لا يدلُّ على المنع على وجه الثُّبوت، فالأصلُ في الخَتْم ختمُ الكتاب؛ لِأَنَّهُ يَقع بعد الفَراغ مِنْهُ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [يس: 65] دالًّا على المنعِ، وقَولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7] ليس دالًّا على المنع، لكنَّه ذمٌّ بأنَّها كالممنوعةِ من قَبول الحقِّ[5]، وأمّا الطَّبْعُ فهو أثرٌ يثبتُ في المطبوع، ويلْزمهُ، فَهوَ يُفيدُ من معنى الثَّبات واللُّزوم ما لا يُفيدُه الخَتْمُ، ولِهَذا قيلَ: طُبِعَ الدِّرْهَم طبعًا، وهوَ الأَثرُ الَّذي يُطبع عليه، فلا يَزول عَنهُ، كَذَلِك - أَيْضًا - قيل: طبعُ الإنسان؛ لِأَنَّهُ ثابتٌ غيرُ زائل"[6]، فهدَّدَهم بالختْم؛ لأنَّه يريدُ أن يوقظَ الإيمانَ فيهم، ولو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/189.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/155.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 72.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 73.

عبَّر بالطَّبع؛ فلن يكونَ لدعوتِهم وتهديدِهم وجهٌ، فالختمُ مناسبٌ لهذا الموضع دونَ الطَّبعِ الدّالِّ على اليأس من إيمانهم.

بيانُ المُتشابهِ في تقديمِ الختمِ في سورتَي البقرةِ والأنعامِ:

سوقُ مقامِ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأخذ ذرائعِ الإيمانِ الآيلةِ إلى تعطيلِ عملِ القلبِ

قدَّمَ الختمَ على القلوب في سورة البقرة على السَّمع والأبصار في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]، وأخَّرَه في سورة الأنعام عن أخْذِ السَّمع والأبصار، كما في الآية التي معنا، وذلك لاختلاف السّياق؛ ففي سورة البقرة يتحدَّثُ القرآنُ عنِ الكافرين الذين لا يؤمنون مع الإنذار وعدمِه، فبيَّن السَّببَ في ذلك؛ لأنَّ اللّه ختمَ على قلوبهم فلا ينفذُ إليها الإيمانُ؛ لأنَّ القلبَ هو وسيلةُ الإدراك، وهو محلُّ الإيمان، والإيمانُ عملٌ قلبيٌّ، فناسبَ تقديمُ الختم على القلب لذلك، بخلاف موضعِ سورة الأنعام؛ فالمَقام فيها تهديدٌ وتخويفٌ، والسَّمعُ والبصرُ هما آلتا توصيلِ الأدلَّةِ إلى الإيمان؛ لذلك هدَّدَ بأخْذِ آلتَيِ التَّوصيلِ، وإذا سُلبتِ الآلةُ؛ تعطَّلَ عملُ القلبِ.

علَّةُ إفرادِ الضَّميرِ ومرجعُهُ جمعٌ:

إجراءُ الضَّميرِ مُجرى اسمِ الإشارةِ في استعمالِهِ لمُتعدِّدٍ

أفردَ الضَّميرَ، والمتقدِّمُ جمعٌ، وهو قولُه: ﴿سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فلم يقلْ: (بهنّ)، وإنَّما قال جلَّ شأنُه: ﴿يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ "إجراءً للضَّمير مجرى اسم الإشارةِ، أي: بذلك"[1]، فالضَّميرُ مستعارٌ لاسم الإشارةِ المفردِ؛ لأنَّ اسمَ الإشارة كثُرَ أن يُشارَ به إلى أشياءَ عدَّة[2].

ويجوز أن تكون الهاء عائدةً على السَّمع؛ فتكونَ موحَّدةً لتوحيد السَّمع[3]، وبعضُ المُفسِّرين جعلَه عائدًا على معنى مقدَّرٍ مدلولٍ عليه

(1) السيوطي، قطف الأزهار: 2/879، والزمخشري، الكشاف: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/197.

منَ الكلام السّابقِ، فهو يعودُ على معنى الفعل، والتَّقديرُ: مَنْ إلهٌ غيرُ اللّه يأتيكم بما أخذ منكم؟ أي: المأخوذُ المدلولُ عليه بـ (أخذ)[1].

علَّةُ تخصيصِ ذكْرِ السَّمعِ والبصرِ والقلبِ:

تعليقُ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأشرفِ متعلَّقاتِ العقلِ تحريضًا على النَّظرِ

ذكرَ الأعضاءَ الثَّلاثةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ دون غيرِها؛ لأنَّها أشرفُ أعضاءِ الإنسان[2]، "فإذا تعطَّلتِ اختلَّ نظامُ الإنسان، وفسدَ أمرُه، وبطُلَتْ مصالحُه في الدّين والدُّنيا"[3]، ويُزادُ على ذلك أنَّها الحواسُّ والأعضاءُ التي يكونُ بها البحثُ والنَّظرُ ومعرفةُ الحقِّ، فلمّا عطَّلوها؛ هدَّدَهم بأخذِها على الخصوصِ، والكلامُ تهديدٌ لتخويفِهم، واختير فيه التَّهديدُ بانتزاع سمعِهم وأبصارِهم وسلْبِ الإدراك من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يشكروا نعمةَ هذه المواهبِ، ولم ينتفعوا بها[4].

سِرُّ إيثارِ النَّفي والإنكارِ بالاستفهام دونَ النَّفي الصَّريحِ:

الاستفهامُ وسيلةٌ لإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ على بُطلانِ الشِّرك

آثرَ أن ينفيَ وجودَ إلهٍ سواهُ تعالى - يُعيد لهم المسلوبَ منهم - بالاستفهام المجازيِّ دون النَّفي الحقيقيِّ، فقالَ: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، ولم يقلْ: (ما من إله يأتيكم به)؛ لأنَّه أرادَ إشراكَهم بتقرير ذلك، إجبارًا لهم على النَّظرِ في جوابِه، فيوقنوا أنَّه لا إله غيرُ اللّه يأتيهم بذلك[5]، فهو "استفهامٌ معناه: توقيفُهم على أنه ليس ثَمَّ سواه، فالتَّعلُّقُ بغيره لا ينفعُ"[6]، وفيه توبيخٌ لهم[7].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل (يأتي) دون (يردّ):

لا شيءَ يستحيلُ على اللهِ فعلُه أو يصْعُبُ بَعثُه من جديدٍ

آثرَ الفعلَ (يأتي به) دون (يردُّه، أو يرجعه) في قولِه جلَّ شأنُه:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536، والنيسابوري، إيجاز البيان: 1/295.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/80، والخازن، لباب التأويل: 2/113.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/113، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/320.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/134.

﴿يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾؛ للإشارة إلى أنه يكونُ كالجديد"[1]؛ لأنَّ الإرجاعَ والرَّدَّ يكونُ للشَّيءِ ذاتِه، والإتيانُ مطلقٌ، فعبَّر به إيحاءً إلى أنَّه أراد سمعًا وبصرًا جديدًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ بالأخذِ أخذُ العضوِ كلِّه، وفيه إشارةٌ إلى سهولة الإتيان، وأنَّه أهونُ عليه؛ فلا يُتصوَّرُ صعوبةُ فعلِ ذلك.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيكُم﴾:

لا يُعجِزُ إتيانَ الله تعالى زمنٌ أو هيئةٌ، ونفيُ ذلك عمَّن سواهُ

عبَّر بالفعل المضارع الذي يُفيد التَّجدُّدَ والحدوثَ لإثبات قدرته ﷻ على الإتيان بالمسلوب مِنَ الحواسِّ في أيِّ زمنٍ وعلى أيِّ هيئةٍ، وفيه توبيخٌ للمشركين لعجزِ أصنامِهم عن فعلِ ذلك.

نكتةُ الخطابِ بفعْلِ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾:

التَّشنيعُ على المُعرضِين عن القطعيَّات، والتَّعجيبُ من عدمِ تأثُّرِهم بالآيات

الخطابُ في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ خطابٌ عامٌّ لكلِّ سامعٍ، إعلامًا بأنَّ تصريفَ الآيات لكثرته يُبصرُه كلُّ أحد، فكلُّ سامعٍ يبصرُ تلك الآياتِ التي تنوَّعت، وكثرت، والمرادُ بيانُ حالِ المُشركين بأنَّهم لا تؤثِّر الحجَّةُ فيهم مهما تكنْ واضحةً[2].

والغرضُ منه التَّعجيبُ من عدم تأثُّرِهم بما رأَوا، وعاينوا مِنَ الآياتِ الباهراتِ[3]، و"إنَّ كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ معطيةٌ معنى التَّعجُّبِ، نحو: (ألم تر)؟ و(أرأيت)؟ تَعَجُّبُ السّامعِ من شدَّةِ شكيمةِ أولئك المشركين، وإصرارِهم على العنادِ، ونفورِهم عنِ الحقِّ، بعد تكرير الآياتِ المُنذرةِ المخوِّفةِ"[4].

بلاغةُ الفصلِ في جملة: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

دوامُ المكابرةِ مع ظهورِ البرهانِ محلُّ عجبٍ

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/145، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.

ابتدائيًّا؛ فكانت بمنزلةِ التَّذييلِ للآياتِ السّابقةِ؛ لأنَّه سبحانه لمّا غمرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيةِ وصدقِ الرّسولِ ﷺ وأبطلَ شُبَهَهم، جاءت هذه الجملةُ للتَّعجُّبِ مِن استمرارِهم في الإعراضِ والمكابرةِ، مع قوَّة الأدلَّةِ[1].

سرُّ اختيارِ النَّظر دونَ الرُّؤيةِ:

تنزيلُ المعقولِ منزلةَ المنظورِ في مظنَّة التَّأثير

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ تنزيلًا للأمر المعقولِ منزلةَ المُشاهَدِ، وهو تصريفُ الآيات مع الإعراضِ عنها كأنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها[2].

الأمـرُ بالنَّظرِ أمـارةُ بلوغِ الآياتِ مَنصَّةَ البيانِ

وجَّهَ الأمرَ بالنَّظرِ إلى تصريف الآيات دونَ اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فلم يقلْ: (كذلك نصرّف الآيات) للدَّلالةِ على أنَّ تصريفَ الآياتِ وتنويعَها لإظهار الحقِّ ظاهرٌ بحيث يمكنُ رؤيتُه، "حتى إنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها"[3]، ولمّا بلغت هذه الآياتُ مِنَ الإبلاغ في البيان أعلى المقامات، نبَّه على ذلك بالأمر بالنَّظر[4].

دَلالةُ الأمرِ بالنَّظرِ إلى كيفيَّةِ التَّصريفِ:

فعلُ النَّظرِ تأكيدٌ لظهورِ التَّصريفِ وكثرته

الأمْرُ بالنَّظر في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ متَّجهٌ إلى تصريف الآيات، تأكيدًا لكثرتِها؛ إذِ الكثرةُ مدلولٌ عليها من صيغة تشديدِ الفعلِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾، والتَّصريفُ ذاتُه يدلُّ على الكثرةِ، فالفعلُ ﴿ٱنظُرۡ﴾ تأكيدٌ لظهورِ هذا التَّصريفِ وكثرتِه، فتصريفُها تكرارُها وتنوُّعُها، فتأتي مرَّةً بالنِّقمةِ ومرَّةً بالنِّعمة، ومرَّةً بالتَّرغيبِ ومرَّةً بالتَّرهيبِ، فتُتابعُ لهم الحُججُ، وتُضربُ لهم الأمثالُ، للدَّلالةِ على صحَّة توحيدِه تعالى[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

إيثارُ صيغةِ التَّعظيمِ لإظهارِ العظَمةِ في التَّصريفِ

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّعظيمِ في الفعلِ المضارعِ: ﴿نُصَرِّفُ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لإظهارِ العظَمةِ في التَّصريفِ، والمعنى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ بما لنا مِنَ العظمَةِ[1].

فائدةُ تصريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

ترتيبُ حُجَجِ المنقولِ رعيًا لتفاوتِ مَداركِ العُقُولِ

آثرَ ﷻ أنْ تُساقَ الآياتُ بأساليبَ متفاوتةٍ، وبأنواعٍ مختلفةٍ، والغايةُ من ذلك لتُناسبَ أفهامَ النّاسِ، عامِّها وخاصِّها، بحيث تستوعبُ الإحاطةَ بالأفهامِ على اختلافِ مداركِ العقولِ[2]، وهذه ألْطافٌ ورحمةٌ مِنَ اللّه تعالى بخَلْقِه.

غرضُ تعريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

إحالةُ الآياتِ على المعهوداتِ البيانِ، يؤذِنُ بالإذعانِ وهجْرِ الكفرانِ

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ معرَّفًا بالألفِ واللّامِ، التي تدلُّ على العَهْدِ، إشارةً إلى الآياتِ المكرَّرةِ من أوَّلِ السّورةِ[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ معروفةٌ ومعهودةٌ لهم؛ فكان عليهم أن يستحضروها ويوظِّفوها لإثباتِ الوحدانيةِ بدلًا منَ الشِّركِ، وفيه تعليمٌ للدّاعيةِ عند المُحاجَّةِ أن يأتيَ بآياتٍ معروفةٍ مناسبةٍ لحالِ المدْعو.

دَلالةُ عطفِ قولِه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾:

سوقُ الأدلَّةِ يقضي العجبَ، واستمرارُ المكابرةِ أعجبُ

عُطِفتْ هذه الجُملةُ على ما قبلَها بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبي لما بينهما مِنَ الاتِّصالِ؛ لأنَّها أدْخلُ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو هنا التَّعجيبُ من قوَّةِ الأدلَّةِ، والأعجبُ منها استمرارُ الإعراضِ والمكابرةِ[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بحرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بحرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على التَّعقيبِ والتَّراخي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

المُشعِرِ بطولِ الزَّمان، ولم يقلْ: (ولكنّهم يعرضون) وغيرَه؛ إشعارًا بكثرة الآياتِ التي مرَّت عليهم وطولِ زمانِها، بحيث إنَّها جديرةٌ بأن توقِظَ فيهم وازِعَ الإيمان، ولكنَّهم مع ذلك أعرضوا، وفيه بيانٌ لصلابةِ كفرهم وغِلظِ قلوبهم، "ولمّا كان الإعراضُ عن مثل هذا في غاية البُعدِ عبَّر بأداة التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ هُمۡ﴾، أي: بعد هذا البيانِ بصميم ضمائرِهم ﴿يَصۡدِفُونَ﴾"[1]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ لبيان بُعْدِ إعراضِهم عنِ الآيات بعد تصريفِها على نمَطٍ موجبٍ للإقبالِ عليها[2].

طولُ زمانِ الآياتِ وكثرتُها جديرٌ بأن يُوقِظَ في الكفر وازِعَ الإيمان

بلاغةُ التَّعبيرِ عن إعراضِهم بالجملةِ الاسميَّةِ:

آثرَ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ لبيان قوَّةِ إعراضِهم، وهذا واضحٌ في تقديم المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ لتقوية الحُكم[3]، وهذا يناسب تصديرَ الجملةِ بالأمر إلى النَّظرِ تعجيبًا من حالِهم وكثرةِ الآياتِ المُتصرِّفة، فلو لم يكن إعراضُهم متَّصفًا بالثَّبات والقوَّة؛ لأبصروا ما تدلُّ عليه تلك الآياتُ.

شدَّةُ الإعراضِ عنِ الآياتِ من طباعِ الكافرين

نكتةُ الإخبارِ بالمضارع ﴿يَصۡدِفُونَ﴾:

جاء الخبرُ في الجملةِ الاسميةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ فعلًا لبيانِ تجدُّدِ إعراضِهم ودوامِه[4]، وهذا الدَّوامُ يناسبُ تصريفَ الآيات، فكلَّما تجدَّدتِ الآياتُ؛ قابلوها بالإعراض، فكان إعراضُهم متجدِّدًا على الدَّوام.

قابلَ الكُفَّارُ تجدُّدَ الآياتِ بدوامِ الإعراضِ

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

(يُعرِضون) و (يَصْدِفون):

الصَّدْفُ: إعراضٌ مخصوصٌ بالشِّدَّةِ، يقال صدَف عَنهُ: أعرضَ

الصَّدفُ إعراضٌ مخصوصٌ بالشِّدَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/257، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/321، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505، والآلوسي، روح المعاني: 4/145.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

إعراضًا شديدًا[1]، ففيه معنى الشِّدَّةِ في الميلِ والإعراضِ، وممّا يُعبِّرُ عن تلك الشِّدَّة حرفُ الصّاد، وبالنَّظر إلى ثُنائيَّةِ (الصّاد والدّال) وما يُثلِّثُهما، نجدُ أنَّ تلك المُفرداتِ كلَّها تتَّصفُ بالشِّدَّةِ والقوَّة، قولُه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾: "يُعرضون عنِ الآيات بعدَ ظهورِها"[2]، والإعراضُ بعد ظهورِ الآياتِ يدلُّ على شدَّة الميلِ، فناسبَه التَّعبيرُ بـ (صدف)، فمعنى: ﴿يَصۡدِفُونَ﴾: يُعرضون إعراضًا شديدًا[3].

وعلى ذلك، فالصَّدْفُ هو المناسبُ لهذا السّياق؛ لما يحملُه من معنى الشِّدَّةِ في الإعراض، فهو إعراضٌ وزيادةٌ؛ لأنَّه لا يقفُ عند إعراضِه هو عنِ الآيات بل يتعدَّى إلى صدْفِ النّاس عنها، بدليلِ قولِه تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: 157].

(1) الراغب، المفردات: (صدف).

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: 47]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلَها

تغليظُ لهجةِ الخِطابِ في التَّهديدِ وتَعميمِ الوعيدِ

لَمّا ذكر اللّه في الآيةِ السّابقةِ تهديدَه للمُشركين بسلْبِ حواسِّهم والختْمِ على قلوبِهم إن لم يُقلعوا عن هذا الشِّرك، وبيَّنَ إصرارَهم على الإعراض وعدمِ الاعتبار بالآياتِ؛ جاءت هذه الآيةُ بتهديدٍ أكبرَ وبإنذارٍ شديدٍ لكي يتركوا عبادةَ الأصنام، وعلى هذا تكونُ هذه الآيةُ أعمَّ في العذابِ مِنَ الآية السّابقةِ، يؤكِّدُ ذلك ما ذكره الرّازيُّ بأنَّ هذا العذابَ عامٌّ في جميع أنواعِه"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾: مِن (رأى) العِلميَّةِ ضُمِّنَتْ معنى: أخبروني، وليسَ لهذه الجملة في العَرَبيَّة نَظيرٌ؛ لِأنَّه جمع بَين علامتَيْ خطابٍ وهما تاءُ الفاعل، وكافُ الخطاب[2]، ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ بمعنى: "أخبروني، وهو أسلوبٌ يُذكرُ للتَّعجيب والتَّنبيهِ إلى أنَّ ما يُذكرُ بعدَه غريبٌ عجيبٌ، تقومُ به الحجَّةُ على المخالِف"[3].

2) ﴿بَغۡتَةً﴾: (بغت) أصلُ البغت: أنْ يَفْجَأ الشَّيء[4]، ولقيته بغتةً، أي: فجأة، والمباغتةُ: المُفاجأةُ[5]، ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ فجأةً، ومُفاجأةً[6]، لم يتقدَّمْ عندَهم منها علمٌ[7].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536، والبقاعي، نظم الدرر: 7/119.
(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 108.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/334.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(5) الجوهري، الصحاح: (بغت).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.

3) ﴿جَهۡرَةً﴾: (جهر) أصلُ الجهر: إعلانُ الشَّيءِ وكشفُه[1]، الجهرُ: الظّاهرُ المكشوفُ ضدُّ السِّرِّ، جَهرْتُ الشَّيءَ: كشفتُه، ورآه جهرةً: لم يكن بينهما سترٌ، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: 153] عِيانًا غيرَ مُحْتَجِبٍ ولا مستترٍ عنّا بشيء[2]، ﴿أَوۡ جَهۡرَةً﴾، أي: يأتيهم، وهم يرَوْنَه معاينةً[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لا يعجزُ اللهَ مباغتةُ الظَّالمين بعذابٍ

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ لهم: أخبروني عن شأنِكم إنْ أتاكُم عذابُ اللّه مباغِتًا ومفاجِئًا لكم، فأخذَكم على غِرَّةٍ لم تتقدَّمْهُ أماراتٌ تُشعرُكم به، أو أتاكم وأنتم تعاينونَه، هل يُهلكُ اللّه به إلّا القومَ الظّالمين؟ وذلك لظلْمِكم أنفسَكم وجنايتِكم عليها بما اخترتُم لها منَ الشِّركِ والفُجورِ وعبادةِ من لا يستحقُّ العبادةَ، وتركِ عبادةِ من هو حقيقٌ وجديرٌ بها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ مِنَ الفصلِ بالاستئنافِ:

الإعراضُ عنِ الآياتِ عاقبتُه العذابُ الشَّديدُ

استأنفَ الكلامَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ بعد أنْ ذكرَ إعراضَهم عنِ الآياتِ الكثيرةِ التي صرّفها اللّه تعالى، تهديدًا وتوعُّدًا لهم "بأنَّ إعراضَهم لا يرجعُ بالسّوءِ إلا عليهم ولا يضرُّ بغيرِهم"[5].

دَلالةُ افتتاحِ الكلامِ بفعلِ القولِ:

عنايةُ اللهِ برسولِه ﷺ من حيثُ استفتاحُ الآيِ بالأمرِ بالقولِ

افتتحَ التَّهديدَ بالأمرِ بالقولِ للاهتمامِ بإبلاغِه وتلقينًا له ﷺ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهر).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جهر)، وابن منظور، لسان العرب: (جهر).
(3) الواحدي، البسيط: 8/150، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 7/127.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

وإلّا فإنَّ مُعظمَ ما في القرآن يجبُ على الرّسولِ ﷺ أن يقولَه لهم لكونِه مبلِّغًا[1].

دَلالةُ كافِ الخطابِ:

المـبـالـغـةُ في التَّنبيهِ على شدَّة الـعـذابِ بكافِ الخطاب

ذُكِرَت كافُ الخطابِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ ولم تُذكر في الآيةِ السّابقةِ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ وهذا يدلُّ على شدَّةِ العذابِ؛ لأنَّه لمّا كان التَّهديدُ شديدًا، جمعَ فيه بين أداتَي الخطابِ[2]، ولأنَّ المتوعَّدَ به في الآية عذابُ اللّه، وهو أشدُّ من أخْذِ السَّمعِ والأبصارِ، جمعَ بين حرفَي الخطابِ الكافِ والتّاءِ في ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ مبالغةً في تأكيد التَّنبيه[3]، فلمّا كان المتوعَّدُ به شديدًا أكَّد في التَّنبيه عليه مبالغةً فيه[4]، ولمّا كان التَّهديدُ أخفَّ من ذلك لم يؤكِّد به، فاكتُفيَ بخطاب الضَّمير، فقال: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾[5].

دَلالةُ إضافةِ العذابِ إلى لفظِ الجلالةِ:

التَّهديدُ بعذابِ الـلـهِ أبـلـغُ من حيثُ إضافتُهُ

أضافَ العذابَ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾؛ تهويلًا للعذابِ ولمزيدِ قوَّةِ التَّهديدِ، فالعذابُ الذي سيأتيكم هو عذابُ "الذي له جميعُ صفاتِ الكمالِ فلا يُعجزه شيءٌ"[6].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَتَىٰكُمۡ﴾ دونَ (جاءكم):

لا مـانـعَ من عـذابِ المشركينَ ولا دافِعَ

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالإتيانِ بعذابِ اللّه دونَ المجيءِ؛ لأنَّ الإتيانَ يُشيرُ إلى السُّهولةِ، وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ إتيانَ العذابِ إلى المشركين المُعاندين أمرٌ سهلٌ وميسورٌ، فلا يوجدُ مُعارِضٌ ولا مانعٌ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/132.
(3) السيوطي، قطف الأزهار: 2/875.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 161، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/167.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 7/119.

دَلالةُ الجمعِ بين البَغتةِ والجَهرةِ:

خفاءُ العذابِ أنسبُ للشِّدَّة والإيلامِ

جمعَ بين البَغتةِ والجَهرةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾، وكان الظّاهرُ أن يقولَ: (خُفيةً وجَهرةً)؛ لأنَّ نقيضَ الجهرةِ الخُفيةُ، ولكنَّه قابل الجهرةَ بالبغتة؛ لأنَّ البغتةَ متضمِّنةٌ معنى الخُفية، فصحَّت مقابلتُها للجَهرة؛ لأنَّ العذابَ يأتيهم من حيث لا يَشعرونَ، فخفيَ سببُه[1]، فأرادَ أنَّ العذابَ سيأتيهم من غيرِ أن يَشعروا به، وتظهرَ أماراتُه، فقال: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾[2].

علَّةُ إيثارِ البغتةِ على الخُفيةِ:

التَّحذيرُ من سرعةِ الأخْذِ بالبغتةِ

لَمّا وصفَ عذابَه بالأخذِ آثرَ لفظَ (البغتة) على الخُفية؛ لأنَّ الأخذَ يُشعرُ أنَّه يأتي بغتةً؛ وفائدةُ ذلك الدَّلالةُ على السَّطوةِ والقهرِ، وغايتُه التَّحذيرُ من سرعة الأَخْذِ[3]، وحديثُ السّياقِ يقتضي التَّعبيرَ بالبغتة لا بالخُفية؛ لأنَّ الخفاءَ لا يقتضي المُفاجأةَ، بلِ الخفاءُ هو دلالةٌ على عدمِ الظُّهورِ، وهذا يتناقضُ مع مَجيءِ العذابِ من غيرِ أن يشعروا به، بحيث لا يُرى إلا مُتَلبِّسًا بكم من غيرِ أن يشعرَ به ويظهرَ شيءٌ من أماراتِه[4]، وبهذا فإنَّ البغتةَ أليقُ بالسّياق؛ لأنَّها تدلُّ على مجيءٍ مفاجئٍ، وهو المرادُ، وليس المرادُ الخفاءَ، "سمّاه اللّه تعالى بالبغتة؛ لأنَّه فاجأهم بها"[5]، ولأنَّ البغتةَ يصحُّ تأويلُها باسْمِ الفاعلِ، أي: مباغِتين لهم أو باسْمِ المفعولِ: مبغوتين، وفي هذا دَلالةٌ على الجمعِ بين الفاعلِ والمفعولِ.

فائدةُ تقديمِ البغتةِ على الجهرةِ:

البغتةُ أهولُ وأشدُّ ردْعًا

قدَّمَ البغتةَ على الجهرةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾،

(1) الواحدي، البسيط: 8/150، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/24، والطيبي، فتوح الغيب: 6/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/237
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/117
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/119
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536

وبُدِئَ بها؛ لأنَّها أردعُ منَ الجَهْرةِ، وأهْولُ وأفْظعُ[1]؛ لأنَّ الخفاءَ أخوفُ للنّاس، وذلك أنسبُ لسياقِ التَّهديدِ والتَّخويفِ.

دَلالةُ ﴿أَوْ﴾ في قولِه: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ وعجزُ المعذَّبينَ مُطبِقٌ

دلّتْ ﴿أَوْ﴾ على أنَّ العذابَ الذي توعَّدهم اللّه به غيرُ موقوتٍ بزمن، إنَّما أمْرُ ذلك إلى اللّه؛ فقد يأتيهم على حينِ غفلةٍ من حيث لا يشعرون أو يتوقَّعون كما فُعل ذلك بقوم لوطٍ وقوم عادٍ، أو يأتيهم بعد أن يُنذَروا به، ويُحدَّدَ لهم وقتُه كما فُعل مع قوم صالح، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]، وهذا دليلٌ على مُطلَق قُدرتِه سبحانه وعجزِ المُعذَّبين[2].

سرُّ المقابلةِ بين البَغتةِ والجَهرةِ:

الخفاءُ والعلانيةُ والمفاجأةُ والتَّمهيدُ صُوَرٌ لاستحكامِ العذابِ

ذُكرتِ الجَهرةُ في مقابلةِ البَغتة؛ لأنَّ البغتةَ بمقتضى المُعتادِ تكونُ في خُفية، ولا إعلانَ فيها من قبلُ، أو على الأقلِّ تجيءُ من غيرِ ترقُّبٍ ولا انتظارٍ؛ فهي خافيةٌ على من نزلتْ عليهم، ولذلك قابلتْها جَهرةٌ، ويجوزُ أن تكونَ البغتةُ بمعنى: ليلاً، وجهرةٌ بمعنى: نهارًا؛ لأنَّ المفاجأةَ تكونُ باللَّيل، والعلانيةَ تكونُ بالنَّهار عادةً، وهذا من باب دَلالةِ المُقابلة[3]، والجمعُ بين حالَي العذابين تصويرٌ لاستحكام العذاب، وتحقُّقِ حدوثه، ودفعٌ لتوهُّم وقوعِه في حالٍ دون أخرى.

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية:

عنادُهم وكِبْرُهم محلُّ إنكارٍ

الاستفهامُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بمعنى: النَّفيِ؛ ولذلك دخلت ﴿إِلَّا﴾، وهو استثناءٌ مفرَّغ، والتَّقديرُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/185.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

ما يُهْلَكُ إلّا القومُ الظّالمون[1]، والغرضُ منه الإنكارُ، أي: ما يُهلكُ بالعذاب إلّا أنتم؛ لأنَّكم كفرتُم وعاندتُم[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ عنِ النَّفيِ:

إثارةُ البحثِ عن هـالـكٍ بـوصـفٍ آخرَ

عبَّر عنِ النَّفيِ بالاستفهام، ولم يقلْ: (ما يُهلك) "للتَّنبيهِ، كأنَّه كان سؤالٌ وكانت إجابةٌ، وذلك تأكيدٌ للنَّفيِ فضلَ تأكيدٍ"[3]؛ لأنَّه أراد من قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إثارةَ النَّظرِ للبحث عن هالكٍ بوصفٍ آخرَ، ليَقصرَ الهلاكَ عليهم للمبالغةِ والتَّأكيدِ؛ إذِ العلمُ المتحقِّقُ بعد البحثِ أبلغُ منَ العلمِ بالإخبارِ ابتداءً، فالنَّظرُ والبحثُ يُزيلُ الشَّكَّ، فيثبتُ المعنى على وجهِ اليقين.

توجيهُ البناءِ للمفعولِ في ﴿يُهۡلَكُ﴾:

قَـصْـرُ الـعنـايـة بـالـهـلاكِ دون فاعلِه

عبَّر عن هلاكِ الظّالمين بالفعلِ المَبنيِّ للمفعولِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ اهتمامًا بالمعنى المضمَّنِ في الفعل، وهو الهلاكُ؛ ليقصرَ الاهتمامَ عليه، فلا ينصرفُ نظرٌ إلى الفاعل، ولأنَّ "المخوِّفَ بالذّاتِ هو الهلاكُ من غير نظرٍ إلى تعيين الفاعلِ، بُني للمفعول"[4].

وجهُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾:

اجـتـمـاعُ الـكـافـريـن على الـظُّـلـم مَـدعـاةٌ لإيقاعِ العقوبةِ بهم

عبَّرَ عن هؤلاءِ الظّالمين الهالكين بـ ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يقلْ: (هل يهلك إلّا الظالمون)؛ لأنَّه أراد التَّنبيهَ على أنَّهم تجمَّعوا على الظُّلم "أي: لا يُهلك إلا القومُ الذين تجمَّعوا على الظلم، وتحزَّبوا، وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمِه"[5].

---

(1) السّمين، الدر المصون: 4/637، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/237

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/119.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

وفيه إشارةٌ إلى قوَّة هؤلاء الظالمين وتجبُّرِهم؛ لأنَّ لفظَ القوم مأخوذٌ منَ القيام، وهو يعني الانتصابَ والوقوفَ، وهو أدعى لإيقاع العقوبة بهم جزاءً لتعنُّتهم.

بلاغةُ العُدول مِنَ الإضمارِ إلى الإظهار:

الظُّلمُ سببُ الهلاكِ، وهو عامٌّ لا يختصُّ بالمخاطَبين

ظاهرُ السّياقِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنْ يقولَ: (هل يُهلَكُ إلا أنتم)؛ إذِ الخطابُ في صدرِ الآية جاء بصيغة الخطابِ، ولكنَّه وضعَ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمرِ التفاتًا؛ ليُصرِّحَ بعلَّة الإهلاكِ، فيبيِّنَ "أنَّ مناطَ إهلاكِهم ظلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان"[1]، ويُزاد على ذلك أنَّ فائدةَ الالتفات هنا إرادةُ التَّعميم، فالإهلاكُ لا يختصُّ بالمخاطَبين، بل لكلِّ من وافقَهم في وصفِهم، ولو عبَّر عنهم بالضَّمير؛ لفاتَ هذا العمومُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالوصفِ دونَ الضَّمير:

إيرادُ الأوصافِ معلَّقةً بأحكامها يؤذِنُ بتحقُّقها

وصفَ القومَ الذين حصرَ الإهلاكَ عليهم بأنَّ صفتَهم ظالمون؛ إذْ "في ذكرِ الظُّلم تنبيهٌ على علَّة الإهلاك، والمعنى: هل يهلك إلّا أنتم لظُلمِكم؟"[2]، "تسجيلًا عليهم بالظُّلم وإيذانًا بأنَّ مناطَ إهلاكِهم ظُلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان"[3].

وجهُ تخصيصِ العذابِ بالظَّالمين:

العذابُ للمؤمن رفعُ درجاتٍ، وللظَّالم خسرانٌ وحسراتٌ

اختصَّ العذابَ بالظّالمين في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لفعلِهم موجباتِه، وهو في حقِّ المؤمنين بلاءٌ يورثُهم الخيرَ؛ لأنه لا يحصلُ بنزولِه تمييزٌ بين مؤمن وكافرٍ؛ لأنَّ الهلاكَ عندما يقعُ يعمُّ الجميعَ، فإن عمَّ الأبرارَ والأشرارَ في الظّاهر، إلا أنَّه في الحقيقةِ مختصٌّ بالظّالمين؛ لأنَّ الأخيارَ يَستوجبون بسبب

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/517.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135، والآلوسي، روح المعاني: 4/145، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/363.

نزولِه أنواعًا عظيمةً مِنَ الثَّواب والدَّرجاتِ الرَّفيعةِ عند اللّه تعالى، والظّالمون إذا نزل البلاءُ بهم؛ فقد خسروا الدُّنيا والآخرةَ معًا؛ فلذلك وصفَهم اللّه تعالى بكونِهم هالكين[1].

إذا طغى الظُّلمُ وعــمَّ؛ هلك الظَّالمون

اللّهُ ﷻ لا يُهلِكُ الظّالمين إلا إذا ساد الظُّلمُ وعمَّ، فبعضُهم وقعَ منهمُ الظُّلمُ فعلًا، والآخرون سكتوا عنه، فكانوا ظالمين بسكوتِهم، يؤكِّدُ هذا ما ذكره اللّه تعالى في شأن بني إسرائيلَ بعد عصيانِهم واعتدائِهم بأنَّهم كانوا يَسكتون عنِ المعصية، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79]"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالظُّلم دونَ غيرِه:

صُـوَرُ الظُّلـمِ متعدِّدةٌ

عبَّر بوصفِ الظُّلم، وجعلَه سببَ الهلاك لتعدُّدِ أنواعِه؛ فقد ظلموا بسبب الشِّركِ، وظلموا بعدمِ الطّاعة، وظلموا أنفسَهم بضلالها[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/537، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/321.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2506.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما قَدَرُوا الله حقَّ قدرِه، فنبَّههم بجزاءِ مَنْ آمنَ بالرُّسلِ وأصلحَ

لمّا تحدَّثتِ الآياتُ السّابقةُ عنِ اعتراض المشركين على نُبوَّته ﷺ وطلبوا منه الآياتِ المعجزاتِ لكي يؤمنوا به ﷺ جاءت هذه الآيةُ ردًّا على مُقترحاتِهم، وبيانًا لوظيفة الرُّسل، وأنَّ اللّه أرسلَهم لتبليغ دعوتِه، مبشِّرين من آمن، ومُنذرين من عصى، وليس للإتيان بالآياتِ التي يقترحونَها.

وممّا يُذكرُ - أيضًا - في المناسبةِ أنَّه لمّا ذكرَ محاججةَ من كذَّبَ الرُّسلَ، وأعرض عمّا أرسلَهم به ربُّهم منَ الآياتِ التي ما منها إلا ما آمن على مثلِه البشرُ، وطلبَه منهم ما لا يقدرُ عليه إلا مُرسلُهم منَ الإتيان بغير ما أتَوْا به منَ الآيات؛ بيَّن لهم حقيقةَ الرِّسالة إشارةً إلى ظُلْمِهم في طلبِهم منَ الرُّسلِ ما لا يُطلبُ إلا منَ الإله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: (بَشَرَ) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مع حسنٍ وجمالٍ[2]، والبِشارةُ عبارةٌ عن خبرٍ سارٍّ يتغيَّرُ له البشرُ[3]؛ لأنَّها تُظهرُ طلاقةَ الإنسان وفرحَهُ في البَشرة، وهي ظاهرُ جلدِ الإنسان[4]، والبشيرُ والمُبشِّر: الذي يُبشِّرُ القومَ بأمرٍ خيرٍ أو شَرٍّ[5]، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ يُبشِّرون بالثَّواب على الطّاعة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/120، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/537.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بشر).
(4) ابن الأثير، النهاية: (بشر)، والسّمين، الدر المصون: 1/209.
(5) الخليل، العين: (بشر)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (بشر).

واتِّباعِ الرِّسالة وتصديقِ الرُّسل[1]، يُبشِّرون بالجنَّة وبإنعامِنا ورحمتِنا لمن آمن وأطاعَ[2].

2) ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾: (نَذَرَ) كلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ[3]، ومنه الإنذارُ الذي يعني الإبلاغ، ولا يكونُ إلّا في التَّخويف[4]، فهو "إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ"[5]، ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾ يُنذرون من كذَّبَ وأبَى الإيمانَ بالعقابِ على المعصيةِ[6]، يُخبرون النّاسَ، ويُخوّفونَهم بالنّار، إذا كفروا وعصَوْا[7].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

مهمَّةُ الرُّسلِ البِشارةُ والإنذارُ

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه لا يرسلُ المُرسَلين إلا ببشارةِ أهلِ الطّاعةِ بالفوزِ بالجنَّةِ جزاءً على طاعتِهم، وبإنذارِ من أصرَّ على الشِّرك بالنّار، فمن آمنَ، وصدَّق، وعملَ صالحًا؛ فلا خوفٌ عليهم من عذاب الدُّنيا الذي ينزل بالمُكذِّبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرةِ الذي أعدَّه للكافرين، ولا هم يحزنون يومَ لقاء اللّه على شيءٍ فاتَهم؛ لأنَّ اللّه يحفظُهم من كلِّ فزَعٍ[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

الاستدراكُ على الظَّالمين بأنَّ إرسالَ الرُّسلِ مِنَّةٌ وإنذارٌ من ربِّ العالمين

عُطفتْ جملةُ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾؛ لِما بينَهما من مناسبةٍ؛ إذ إنَّهم كانوا يتعلَّلون لصدوفِهم وإعراضِهم بأنَّهم يَرومون آياتٍ على وفْقِ مُقترحِهم، وأنَّهم لا يَقنعون بآياتِ الوحدانيةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/407، والواحدي، البسيط: 7/197.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/137، 293.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الجوهري، الصحاح: (نذر).
(5) الراغب، المفردات: (نذر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/408، والواحدي، البسيط: 7/197.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/138، 293.
(8) المراغي، تفسير المراغي: 7/127 - 128.

ألا تَرى إلى قولِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [العنكبوت: 50]، وتفسيرُ هذه الآية في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90] إلى آخرِ ما ذكره اللّه عنهم هناك في هذه السّورة؛ فأنبأهم اللّه بأنَّ إرسالَ الرُّسل للتَّبليغ والتَّبشير، لا للتَّلهّي بهم باقتراح الآيات[1].

تحتملُ الجملةُ الاستئنافَ لبيانِ الغرَضِ من إرسالِ الرُّسل

يجوز في الآية أنْ تكونَ كلامًا مستأنَفًا؛ لبيان الغرضِ من إرسالِ الرُّسلِ - عليهم السلام - أي: مُبشرّين لمن أطاعَهم بحُسنِ الجزاءِ، ومُنذرين لمن عصاهم بسوءِ المُنقلب[2]، ولإظهارِ أنَّ ما يقترحه الكفرةُ مِنَ المعجزاتِ ليس ممّا يتعلَّقُ بالرِّسالةِ أصلًا[3].

دَلالةُ القصْرِ في الآية:

حَصْرُ الهدفِ مِنَ الرِّسالةِ بالتَّبشيرِ والإنذارِ، ونفيُ غيرِهما ممَّا يتصوَّرُ الظالمون

الآية فيها قصْرُ قَلْبٍ[4]، لنفيِ ما يظنُّه النّاس في شأن الرُّسل ووظيفتِهم - عليهم السلام - أي: ليس من وظيفةِ الرُّسل أن يأتوا النّاسَ بما يقترحونه عليهم منَ الآيات، وإنَّما قصدُهم التَّبشيرُ والإنذارُ[5]، "والقصرُ إضافيٌّ للرَّدِّ على من زعموا أنَّه إن لم يأتِهم بآية كما اقترحوا؛ فليس برسولٍ من عندِ اللّه، فهو قصرُ قَلْبٍ، أي: لم نُرسلِ الرَّسولَ للإعجاب بإظهارِ خوارقِ العادات"[6].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نُرۡسِلُ﴾:

مِنَ العاداتِ الإلهيَّةِ تجدُّدُ إرسالِ الرُّسل رحمةً بالعبادِ

عبَّرَ عن إرسالِ الرُّسل في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ بالفعلِ المضارعِ، دونَ (أرسلنا)؛ "لبيانِ أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/134.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(4) قصرُ القلب: عكس الحكم الذي اشتمل على القصرِ؛ لأنّ الغرض منه قلبُ ما عند المخاطَبِ، فإذا اعتقد المخاطَبُ عكسَ الحكم الذي تُثبته نحو: ما سافر إلا عليّ، ردًّا على مَن اعتقدَ أنّ المسافرَ خليلٌ لا عليٌّ، فقد قلبتَ وعكستَ عليه اعتقادَه. يُنظر: القزويني، الإيضاح: 3/15، وعصام، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/540، وأحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 173.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/250، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.

ذلك أمرٌ مستمرٌّ جرتْ عليه العادةُ الإلهيةُ"[1]، ومع استمرارِها فإنَّ المرادَ الاستمرارُ على الحالَين المذكورَين كذلك، وهما التَّبشيرُ والإنذارُ، أي: "تجدُّدُ الإرسالِ مُقارِنًا لهذين الحالَين"[2].

علَّةُ وصفِ الرُّسلِ بالبِشارةِ والإنذارِ:

مهمَّةُ الرُّسلِ الإبلاغُ من غيرِ إرغامٍ، أو تحمُّلِ وزرٍ

نصَّتِ الآيةُ على الوصْفَين: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ إظهارًا لِعلَّةِ الإرسال، وهي البلاغُ، فليس عليهم أن يحمِلوا النّاسَ على الهدايةِ إن لم يهتدوا، ولا يتحمَّلوا وِزرَ العُصاةِ إن عصَوْا[3].

معنى التَّبشيرِ والإنذارِ في الآية:

التَّرغيبُ والتَّرهيبُ منهجُ الأنبياءِ في الدَّعوةِ

المرادُ بهما: التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، مُبشِّرين بسَعةِ الرِّزقِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، ومعنى ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: مخوِّفون عقابَ اللّه[4].

وتعبيرُ القرآنِ عن وظيفةِ الرُّسلِ يُشيرُ إلى أنَّ النّاسَ في قَبولِ الدَّعوةِ يَنقسمون إلى فريقين، فريقٌ يؤمنُ بها؛ فتُبشِّرُه الرُّسلُ بالجزاءِ الحَسَنِ في الدُّنيا والآخرة كما سبق ذكرُه، والفريقُ الثّاني: الذين يَعترضون على الأنبياء ودعواتِهم، يحذِّرونَهم ويخوِّفونَهم من سوءِ العاقبة في الدُّنيا والآخرةِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمرسَلين على مقامِ الفضلِ تحمُّلًا وتبليغًا:

اختارَ التَّعبيرَ بالمُرسلين، وهو اسمُ مفعولٍ للدَّلالةِ على أنَّ أمْرَ الرِّسالةِ محضُ فضلٍ منَ اللّه، وليس باكتسابِ البَشر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دورَهم حملُ الأمانة وتبليغُها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2506.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/429.

القصدُ إلى البِشارةِ قبل النِّذارة دعوةً لتوقيتها شرعة:

قُدِّمتِ البِشارةُ للإعلامِ بأنَّ الرُّسلَ - عليهم الصّلاةُ والسّلامُ - يَحرصون على إيمانِ من يدعونَهم، ويقدِّمون لهم الأدلَّةَ، وما أعدَّه اللّه لهم منَ الثَّوابِ، ويُبشِّرونهم بالنَّعيم المُقيمِ، وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة أن يبدؤوا بالبِشارة قبل النِّذارة.

دَلالةُ الجمعِ بين البِشارةِ والنِّذارةِ في قولِه: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾:

جمعَ بينهما كنايةً عن وظيفةِ الرُّسلِ وهي التَّبليغُ، ويلزمُ منه التَّبشيرُ لمن آمن والتَّحذيرُ لمن عصَى.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾:

الإيمانُ وحدَه ليس كافيًا بل لا بدَّ منَ العملِ الصّالحِ

الفاءُ للتَّفريعِ وترتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها(1)، فما قبْلَ الفاءِ التَّفريعيَّةِ يُسبِّبُ ما بعدَها، فالإيمانُ والكفرُ يترتَّبان على الرِّسالةِ ويتفرَّعان عنها.

دَلالةُ الجمعِ بين ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿وَأَصْلَحَ﴾:

جمعَ القرآنُ بينَهما للإشارة إلى أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي، بل لا بدَّ منَ العملِ الصّالحِ؛ فالإيمانُ من غيرِ عملٍ يكونُ أجوفَ لا يُنتِجُ آثاراً صالحةً، ولذلك تجدُ القرآنَ الكريمَ يحرصُ دائمًا على الجمع بين الإيمانِ والعملِ الصّالحِ في كثيرٍ من آياتِه.

دَلالةُ اختيارِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ دونَ (وعمل صالحًا):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ المشركين أفسدوا فطرتَهم باتّخاذِهم شركاءَ من دونِ اللّه، وبعدم توظيفِهم الآياتِ التي أنزلَها اللّه على رُسلِه في إصلاح نفوسِهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ هو المناسبُ للمَقام؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.

دَلالةُ تقديمِ الخوفِ على الحُزن:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ قدَّمَ الخوفَ على الحُزن في النَّفيِ مراعاةً للمَقام[1]؛ إذْ يومُ الحساب مُخوِّفٌ أكثرَ منَ الحزن على فوات الثَّواب.

إيثارُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسمية:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: "الجملةُ الاسميةُ تدلُّ بمعونةِ المقامِ على استمرارِ الثُّبوت، فإذا دخل عليها حرفُ النَّفيِ؛ دلَّت على استمرارِ الانتفاءِ لا على انتفاءِ الاستمرارِ"[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المَنفيِّ:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: "المضارعُ الخالي عن حرف النَّفيِ يفيدُ استمرارَ الثُّبوتِ، فإذا دخل عليه حرفُ النَّفيِ؛ يفيدُ استمرارَ الانتفاء"[3]، وليس المرادُ نفيَ الدَّوام، بمعنى: أنَّهم يَحزنون ولكنَّ حزنَهم لا يدومُ، فهذا المعنى ليس صحيحًا؛ لأنَّ نفيَ المضارع يدلُّ على استمرار الحدثِ المَنفيِّ، فهم لم يحزنوا، ولن يحزنوا، وذلك للمبالغة في شأن جزاءِ المؤمنين فهم لا يتطرَّق إليهم خوفٌ ولا حزنٌ على وجه الثُّبوت والاستمرار.

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الخوفِ بالاسم، والحزنِ بالفعل:

في قولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ جاء التَّعبيرُ بالاسم في حقّ الخوف، وبالفعل في حقّ الحزن؛ لأنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بالمستقبل، والحزنَ بالماضي؛ فالإنسان يخافُ من مستقبلِه، ويحزنُ على ما فاتَه في الماضي، ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ يتعلَّقُ بالمستقبل، وخوفُه وتألُّمُه منه أشدُّ من تألُّمِه على الماضي؛ لأنَّ طبيعةَ الإنسان تتناسى الماضي؛ إذا بعُدَ زمنُه، بخلاف المستقبل؛ فيشتدُّ الخوفُ منه متى قربَ أمرُه، وتأكَّدَ ثبوتُه في النَّفس[4].

دَلالةُ تقديمِ الخوفِ على الحُزنِ في الآية:

قدَّمَ الخوفَ على الحُزنِ في الآية تماشيًا مع طبيعةِ النَّفس الإنسانيةِ في حرصِها على المنافعِ والمصالحِ الدُّنيوية المُستقبَلَةِ، وأيضًا تماشيًا مع طبيعتِها في نسيان الماضي.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/312.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ في ﴿ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾ والجمعِ في ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

جمعَ الضَّمائرَ مُراعاةً لمعنى (مَن)، وأفردَ في الفعلَيْن مراعاةً للفظِها.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

حكمةُ الله وراسخُ علمِه مَبْنَى اصطفاءِ الله للرُّسل

عبَّرَ بالفعل ﴿نُرۡسِلُ﴾ دون (نبعثُ)؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ لأنَّ الإرسالَ يحملُ معنى الانبعاث على تؤدةٍ، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنَّ اصطفاءَ اللّه رُسلَه مبنيٌّ على حكمتِه وعلْمِه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]، وفيه ردٌّ على قولِ المُشركين لمّا قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]؛ ولأنَّه يدلُّ على الرِّفق، فتقولُ: على رِسْلِكَ، إذا أمرتَه بالرِّفق، وفي هذا إشارةٌ إلى رِفق الرُّسل بالمُرسَل إليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾

[الأنعام: 49]

كما أنَّ للمُصدِّق ثوابًا، فإنَّ للمكذِّب عقابًا

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكرَ ثوابَ المُصدِّقِ في الآيةِ السّابقةِ، أعقبَه بذكرِ عقابِ المُكذِّبِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿يَمَسُّهُمُ﴾: (مَسَّ) أَصْلٌ يدلُّ عَلَى جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[2]، والمسُّ: مباشرةُ الجسمِ[3]، وهو التقاءُ الشَّيئَيْن من غير فصلٍ، ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، لأنَّه يحلُّ فيهم، وكأنَّه مماسٌّ لهم[4]، أي: يُباشرُهم، ويلصقُ بهم[5].

2) ﴿يَفۡسُقُونَ﴾: (فسق) الفِسقُ: الخروجُ عنِ الطاعة[6]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرّطبةُ؛ إذا خرجت عن قِشْرِها، وفَسَقَ الرّجلُ، أي: فَجَرَ، وخرج عن أمر ربِّه[7]، أي: خرج عنِ الحدِّ في كفرانِه وعِصيانِه[8].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

جزاءُ من يكفرُ بآياتِ اللهِ مصاحبةُ العذابِ الشَّديدِ

يُخْبِرُ اللّه تعالى عن جزاءِ من لم يُؤمِنْ، أي: الذين كذَّبوا بآياتنا التي أرسَلْنا بها الرُّسلَ يُصيبُهم العذابُ، ويلاصقُهم، في الدُّنيا أحيانًا عند الجُحودِ والعنادِ، وفي الآخرة على سبيل الدّوام

(1) الواحدي، البسيط: 8/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسّ)، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (مسس).
(4) الواحدي، البسيط: 8/151.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(7) الجوهري، الصحاح: (فسق).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.

والاطِّرادِ، جزاءَ كفرِهم وإفسادِهم، وخروجِهم عن أمرِ اللّه وطاعتِه، وارتكابِهم مَناهيَه ومَحارِمَه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآيةِ:

الوصلُ إتمامُ مقابلةِ كلِّ حالٍ بجزائِهِ

(الواو) عاطفةٌ، عَطفت قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾، ويكونُ ذلك من باب ذكرِ المُكذِّبين والجزاءِ المُعدِّ لهم بعد الجزاءِ المعَدِّ للمؤمنين، فالوصلُ لإتمام مقابلة الحالين بجزاءَيْهما، وإظهارِ نعمة مجازاة المؤمنين.

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ المكذِّبين بالاسمِ الموصولِ:

حقَّقَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ ذمِّ المكذِّبين، وبيَّن سببَ الحكمِ، واستحقاقَهم له

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَبَّرَ عنِ المكذِّبين بالاسمِ الموصولِ، دونَ الوصفِ، فلم يقلْ: (والمكذّبون يمسُّهم)؛ للدَّلالةِ على صفةِ ذمِّهم وبيانِ العلَّةِ في جزائِهم، واستحقاقِهم لهذا الذمِّ، فضلًا عمّا في الموصولِ من دلالة العُموم.

نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ الجمعِ:

تعظيمُ آياتِ الله أمرٌ عقديٌّ

في إضافة الآياتِ إلى ضميرِ المُعظِّم نفسَه ﷻ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّ ما ينطِقُ به الرُّسلُ - عليهم السلام - عند التَّبشيرِ والإنذارِ هو آياتُه تعالى، وفيهِ منَ التَّرغيبِ في الإيمان به والتَّحذيرِ مِن تكذيبِه ما لا يخفَى[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي المضعَّفِ ﴿كَذَّبُواْ﴾:

القصدُ إلى المبالغَةِ في تأكيدِ كذِبِ المكذِّبين

عبَّرَ بالفعلِ الماضي دونَ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الكذبِ، وأنَّهم بالغوا في التَّكذيبِ بآياتِ اللّهِ التي أنزلَها اللّه على رُسلِه، وأنَّ ذلك التَّكذيبَ لم يكنْ جهلاً منهم، بل كان عمْدًا، يؤكِّد ذلك التَّضعيفُ في الفعلِ ﴿كَذَّبُواْ﴾.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 7/128.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ العذابِ بالمسِّ دونَ غيرِه:

لسوءِ صنيع المكذِّبين جُعِلَ العذابُ طالبًا لهم

عبَّرَ سبحانه عن عذابِهم بـ ﴿يَمَسُّهُمُ﴾، فجعلَ العذابَ هو الطّالبَ أن يصلَ إليهم، فكأنَّه حيٌّ مُريدٌ، قريبٌ منهم يفعلُ بهم ما يشاءُ مِنَ الآلام[1]، ولأنَّ موضعَ الإحساسِ بالألم هو الجِلدُ، فمسُّه بالعذاب هو الإيلامُ الشَّديدُ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ المسِّ بالفعلِ المضارعِ:

من صُوَرِ إرعابِ المكذِّبين أنَّ عذابَهم دائمُ التَّجدُّدِ

عبَّرَ عن عذابِهم بالفعلِ المضارعِ ﴿يَمَسُّهُمُ﴾؛ دلالةً على تجدُّدِ ذلك العذابِ واستمرارِه، فقولُه تعالى: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: الدّائمُ المُتجدِّدُ المستمرُّ[3]، بحيث إنَّه لا ينقطعُ، تصويرًا لمشهد المسِّ تهويلًا وتخويفًا للسّامعين.

بلاغةُ الاستعارةِ في إسنادِ المسِّ إلى العذابِ:

المسُّ من خواصِّ الأحياءِ، وأُسنِدَ إلى العذابِ تصويرًا لشدَّتِه

وفي جَعْلِ العذابِ ماسًّا إيذانٌ بتنزيلِه منزلةَ الحيِّ الفاعلِ لما يريدُ، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ[4]، أو هي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّهَ العذابَ بكائن حيٍّ يفعلُ بهم ما يريده من الآلام؛ لأنَّ المسَّ من خواصِّ الأحياء[5]، وذلك أوقعُ في النفس تمثُّلًا لإيلامه وشدَّته.

دَلالةُ الباءِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾:

إيقاعُ العذابِ مِن عدالةِ اللهِ تعالى معَ خَلْقِه

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ لبيان سببِ عذابِهم، فهمُ استحقّوا العذابَ "بسبب فسقِهم وخروجِهم عن طاعة اللّه تعالى بالكفر"[6]، ليبيِّنَ أنَّهم نالوا ذلك بفعلِهم، وليس حُكمًا منَ اللّه تعالى، فإنَّه لا يظلمُ أحدًا مثقالَ ذرَّةٍ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/25، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والبقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2507.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/154.

(5) محمد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 1/342.

(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/505، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.

سرُّ تقييدِ العذابِ بالفِسْقِ:

الفِسْقُ الموجبُ العذابَ هو المقترِنُ بالكفرِ

قيَّدَ العذابَ بالفِسق في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه ليس كلُّ فِسقٍ موجِبًا العذابَ، بل الفسقُ مع الكفر؛ لأنَّ ظاهرَ الآية يُشعِرُ أنَّه تعالى علَّلَ عذابَ الكفّار بكونِهم فاسقين، وهذا يقتضي أن يكون كلُّ فاسقٍ كذلك، لكنَّ هذا مُعارَضٌ بأنَّه خصَّ الذين كذَّبوا بآياتِ اللّه بهذا الوعيد، وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يكن مُكذِّبًا بآياتِ اللّه تعالى لا يلحقُه الوعيدُ أصلًا[1]، فالعذابُ للكافرين بسببِ فسْقِهم الذي أدَّى بهم إلى الكفر، وليس لكلِّ فاسقٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفِسقِ دونَ التَّكذيبِ:

القصدُ إلى التَّعميمِ برفعِ الأنواعِ إلى جنسِ الفِسقِ مبالغةٌ في الذَّمِّ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفِسقِ دونَ التكذيب؛ لأنَّ الفسقَ معناه الخروجُ، فهو أعمُّ منَ التَّكذيب؛ لأنَّه نوعٌ من أنواعه، فالفسقُ يشملُ الكفرَ والشِّركَ والتَّكذيبَ؛ لذلك كان التَّعبيرُ مُشيرًا إلى أنَّهم جمعوا كلَّ هذه الأنواعِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (كانوا):

الإتيانُ بما يدلُّ على تثبيتِ الفِسقِ والدَّوامِ عليه؛ تعليلًا لاستحقاقِ العذابِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ الإتيانَ بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، ولم يقلْ: (بما يفسقون)؛ لأنَّ الإتيانَ به يفيدُ الدَّلالةَ على الاستمرارِ؛ "لأنَّ (كان) إذا لم يُقصَدْ بها انقضاءُ خبرِها فيما مضى دلَّتْ على استمرارِ الخبرِ بالقرينةِ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾"[2].

توجيهُ مجيءِ خبرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً:

من رحمةِ اللهِ تعالى مقابلةُ تجدُّدِ الفِسقِ بحِلْمِهِ سبحانه

جيءَ بخبرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً؛ للإشارةِ إلى أنَّ فِسْقَهم كان مستمرًّا متجدِّدًا مُتكرِّرًا[3]، وفيه إشارةٌ إلى حِلْمِ اللّه عليهم؛

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/537.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/239.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/239.

فلم يأخذْهم بالعذابِ من أوَّلِ مرَّة، بل حذَّرهم ونهاهم على ألسنةِ رُسلِه، ومع ذلك أصرّوا على الفِسقِ والخروجِ؛ لكونهم "يُديمون الخروجَ ممّا ينبغي الاستقرارُ فيه منَ الإيمان وما يقتضيه، وأمّا الفِسقُ العارضُ؛ فإنَّ صاحبَه يصدرُ التَّوبةَ منه، فيُعفَى عنه"(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّمس، والمسّ، والجسّ:

المَـسُّ إصـابـةٌ مُدركَةٌ مقصودةٌ مآلُها إلى التَّأثُّر

اللَّمس: إدراكٌ بظاهر البشرة، فهوَ لصوقٌ بإحساس، وهو أَعمُّ مِمّا هوَ باليَد، وقد يُقال لطلب الشَّيْء وإن لم يوجد، والمسُّ: الإصابة، وهو في اللّغة التقاءُ الشَّيئين من غير فصل، أوِ الجمعُ بين الشّيئين على نهاية القُرب، ويُقال فيما مَعَه إدْراكٌ بحاسة اللّمس، فحقيقتُه اللَّمسُ باليد، ونُقِلَ منَ الإحساس إلى المعاني، ليكنَّى بِهِ عَنِ النِّكاح والجُنون، وقد يُقالُ في كلِّ ما ينالُ الإنْسان من أذًى(2)، فالمسُّ اتّصالُ الشَّيء بالبَشرة بحيث تتأثَّر الحاسّة به، واللَّمسُ كالطلب له ولذلك يقال: ألمسُه فلا أجده(3)، ومن هنا فالمسُّ واللَّمس والجسُّ متقاربة، إلا أنَّ الجَسَّ عامٌّ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدقُّ، والمسُّ واللّمس بظاهر البَشرة(4)، ويناسبُ معنى الإصابة المدركَةِ المقصودة دلالةُ لفظ المسِّ في الآية بوصفه سبيلَ إيصال العذاب المستحق جزاءً لتكذيبهم بآيات اللّٰه سبحانه.

المـسُّ: إذاقتُهم الإيـلامَ الشَّديدَ الذي لا يفنِيهم

عبَّرَ بالمَسِّ دونَ اللَّمسِ؛ لأنَّ اللَّمسَ يكونُ باليد خاصَّةً ليُعرف اللّينُ منَ الخُشونةِ والحرارةُ منَ البُرودةِ، والمسُّ يكونُ باليد وبالحَجر وغيرِ ذلك، ولا يقتضي أن يكونَ باليد، ولهذا قال تعالى:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(2) الراغب، المفردات: (مسس، ولمس)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/231، والكفوي، الكليات، ص: 799.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/231.

﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ [الأنعام: 17] ولم يقلْ: يلْمسْكَ[1]، ومنه هذا الموضعُ، فهو مسُّ العذابِ، ولا يكونُ باليدِ، واختارَ المسَّ دونَ اللَّمسِ في إصابة العذابِ وإدخالِهم جهنَّمَ بالمسِّ؛ لأنَّ موضعَ الإحساس بالألم هو الجلدُ، فمسُّه بالعذاب هو الإيلامُ الشَّديدُ[2]، وذكرَ البعضُ أنَّه أُشيرَ بالمَسِّ إلى أنَّ العذابَ لا يأخذُهم بحيث يُعدمُهم حتى يتخلَّصوا بالهلاك[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 303، والواحدي، البسيط: 8/151.
(2) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 5/2507.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/155.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بشريَّةُ النَّبيِّ ﷺ من دلائل نبوَّتِه

لما تحدّثتِ الآياتُ القرآنيةُ عن عنادِ المشركين مع النَّبيِّ ﷺ في طلبِهم منه لآياتٍ غريبةٍ، ومُقترحاتٍ غيرِ مقبولةٍ ليست من مهامِّه ﷺ ولا هي من وظائفِ الرِّسالة؛ جاءت هذه الآيةُ لتردَّ عليهم، فقال اللّه لنبيِّه ﷺ: قلْ لهؤلاء: أنا لا أدَّعي لكم أنَّ عندي خزائنَ اللّه أملكُها، وأتصرَّفُ فيها، ولم أدَّعِ أنَّي أعلمُ الغيبَ الذي استأثر اللّه بعلمِه، ولم أدَّعِ أنَّي مِنَ الملائكةِ، وإنَّما أنا بشرٌ شرَّفني اللّه بالنُّبوَّة، وما أتَّبعُ إلا ما يوحَى إليَّ فقط[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: (خزن) أصلٌ يدلُّ على صيانة الشَّيءِ، يقال: خزنتُ الدِّرهمَ والسِّرَّ[2]، والخِزانةُ، واحدةُ الخَزائِنِ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَنُ فيهِ الشَّيْءُ[3]، ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وخزائنُ اللّه مقدوراتُه، وخزائنُ رزقِه، ورحمتِه[4].

2) ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: الفاءُ والكافُ والرّاءُ يدلّ على تردُّد القلبِ في الشَّيءِ، وتفكَّرَ؛ إذا ردَّد قلبَه مُعتبِرًا[5]، والتَّفَكُّرُ: التَّأمُّلُ[6]، وهو

(1) حجازي، التفسير الواضح: 7/87.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).

(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).

(4) الواحدي، البسيط: 8/152، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكر).

(6) الجوهري، الصحاح: (فكر).

إِعمالُ الخاطِرِ في الشَّيْءِ[1]، والتَّفكُّرُ: جولانُ تلك القوَّةِ بحسب نظرِ العقل، وذلك للإنسان دونَ الحيوان، والفكرُ: هو بحثُ الأمور طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: أفلا تعتبرون؟[3]

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عِلْمُ الغيبِ مخصوصٌ بالله استئثارًا ويبلِّغُه نبيَّهُ وحيًا

يُخبرُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ أن يقولَ للنّاس: إنّي لا أدَّعي ما يُستبعدُ في العقولِ أن يكونَ لبشرٍ من مُلك خزائنِ اللّه ورزقِه لعبادِه، ولا أدَّعي علمَ الغيبِ، ولا أنّي منَ الملائكة، أي: لم أدَّعِ إلهيةً ولا مَلَكيَّةً، حتَّى تستبعدوا دعوايَ، وتستنكروها، وإنَّما أدَّعي ما كان مثلُه لكثيرٍ منَ البشر، وهو النُّبوَّةُ، وإنَّما أنا تابعٌ متَّبِعٌ للوحيِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

تبرئةُ النَّبيِّ - ﷺ - من ادِّعاءِ ما يُسْتَبعدُ في العقول

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها؛ لأنَّها "استئنافٌ مبنيٌّ على ما جرتْ عليه السُّنَّةُ الإلهيةُ في شأنِ إرسالِ الرُّسلِ، مَسوقٌ لإظهار تبرئتِه ﷺ عمّا يدورُ عليه مُقترحاتُهم[5]، والغرضُ منه تأكيدُ حصْرِ وظيفةِ الرُّسلِ عليهم السلام بتجريدِهم منَ القُدراتِ المُخالفةِ لصفةِ البشريَّةِ.

دَلالةُ افتتاحِ الكلامِ بفعلِ القولِ:

تلقينُ الحُجَّةِ للنَّبيِّ - ﷺ - دليلُ عنايةِ المولَى به

افتُتِح الكلامُ بالأمرِ بالقولِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمام بإبلاغِه؛ ودليلُ الاهتمام بهذا القولِ أنَّ الرّسولَ ﷺ مأمورٌ بتبليغِ ما في القرآن كلِّه، وذلك بأن يقولَه لهم[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فكر).

(2) الراغب، المفردات: (فكر).

(3) الواحدي، البسيط: 8/154.

(4) الزمخشري، الكشاف: 2/25.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.

المواجهة بالخطاب تقتضي تقويةً لفعلِ القَولِ

فائدةُ (لام) التَّبليغِ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾:

عبَّرَ بلام التَّبليغ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾؛ تقويةً لفعلِ القولِ؛ لأنَّه يواجهُ قومًا بالخطاب.

ذِكْرُ (لكم) هنا لتقويةِ فعلِ القولِ

بيانُ المُتشابهِ في ذكرِ لفظِ ﴿لَكُمْ﴾:

عبَّرَ بتوجيهِ الخطابِ ﴿لَكُمْ﴾ هنا دونَ موضعِ هودٍ، حيث وردَ مُجرّدًا عنها، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: 31]، وهذه اللّامُ " لامُ التَّبليغ، وهي مفيدةٌ تقويةَ فعلِ القولِ عندما لا تكونُ حاجةٌ لذكرِ المواجَهِ بالقول"[1]، فكأنَّه يسألُهم: هل بلغَكُم أنّي أدَّعي قُدرةً ما؟ وثمَّةَ توجيهٌ آخرُ مُفادُه أنَّه لم يُكرِّر (لكم) في (هود) لتقدُّم (لكم) مرّاتٍ عديدةً، فاكتفيَ به، كقولِه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾ [هود: 25]، وعقبَه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ﴾ [هود: 27][2]، فلتَكَرُّر (لكم) في آيات سورة هود حذفَه لظهور المخاطَب.

الإحالةُ على الله في تقرير المعجزاتِ، وتأكيدُ نفيها عن غيرِه إلّا بإذنهِ سبحانه

بلاغةُ تكرارِ النَّفي:

تكرَّرَ النَّفيُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك ليس من خصائصِ النَّبيِّ ﷺ، وليس له أن يأتيَ لهم بما اقترحوه من هذه الآياتِ المذكورةِ إلّا بإذن الله؛ لذلك أمرَه الله تعالى بنفي الإتيان بهذه الأشياء؛ لأنَّ القومَ طلبوا منه إظهارَ المُعجزاتِ، والمعنى: لا أدَّعي إلّا الرَّسالةَ، وأمّا ما طلبْتموه، فلا يمكنُ تحصيلُه إلا بقُدرةِ الله، والمرادُ: أنّي لا أدَّعي كَوني موصوفًا بالقُدرةِ اللّائقةِ بالإله، ولا بعلمِه؛ إظهارًا للعجزِ والضَّعف، ونفيًا لاستقلاله بتحصيل هذه المعجزات؛ وبمجموع ذلك حصلَ أنَّه لا يدَّعي الإلهيَّةَ[3]، والمعنى: أنّي لستُ إلهًا لتطلبوا منّي قسمةَ الرِّزقِ، ومعرفةَ الغيبِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240 - 241.

(2) الكرماني، أسرار التكرار: ص: 109، وابن جماعة، كشف المعاني: ص: 161.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/538، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/81.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/94.

السِّرُّ في تخصيصِ المذكوراتِ بالنَّفي دونَ غيرِها:

نفيُ المذكوراتِ في الآيةِ ناسبَ ما قبلَها

خصَّ المذكوراتِ بالنَّفيِ لمناسبتِها ما تقدَّمَ منَ الآياتِ التي سألوها في السّورة كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]، وقولِه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 35][1].

توجيهُ نفْيِ القولِ دونَ نفيِ النِّسبةِ:

نفيُ القولِ أبلغُ من نفيِ النِّسبةِ وأقوى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، و﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ نفَى القولَ ردًّا لما طلبوه؛ فهو لم يَقرنْ رسالتَه بادِّعاء تلك الصِّفاتِ والقُدرات، فلم يقلْ: (ليست عندي خزائنُ اللّه)، (ولست ملكًا)، كما قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، وهذا أقوى وأبلغُ من نفيِ القول؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ ذلك عنده، وللدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ لم يقترنْ بدعوَى الرّسالةِ؛ ردًّا لاقتراحِهم تلك الأمورَ[2].

علَّةُ نفيِ النّبيّ ﷺ معرفة الغيب، دونَ نفيِ القولِ بمعرفتِه:

أبلغُ في الدَّلالةِ؛ تحقيقًا لمقصدِ استئثارِ اللهِ بالمغيَّباتِ

نفَى معرفتَه بالغيب بقولِه: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ دونَ أن يقولَ: (ولا أقول إني أعلم الغيب)؛ لأنّه أرادَ نفيَ ذلك من أصلِه، لا نفيَ القولِ فقط كما في سابقِه ولاحقِه[3]؛ لأنَّ كونَه ليس عنده خزائنُ اللّه، وكونَه بصورةِ البشر معلومٌ للنّاس، فنفَى ادِّعاءَهما ولم ينفِهما من أصلِهما؛ لأنَّ انتفاءَ ذلك من أصله معلومٌ عندهم، ولمّا كان علمُ الغيب أمرًا قد يدَّعيه كثيرٌ منَ النّاس كالكُهّان؛ نفَى علمَ الغيب من أصلِه[4].

فائدةُ تكرارِ حرفِ النَّفيِ (لا):

في تَكرار الحرفِ دفْعٌ لتوهُّم إرادةِ نفيِ المجموعِ عطفًا بين المنفيَّات

تكرَّرَ حرفُ النَّفيِ ثلاثَ مرّات، لبيان أنَّ النَّفيَ يتعلَّقُ بكلِّ واحدةٍ من تلك المَنفيّاتِ، دفعًا لتوهُّم أنَّ المقصودَ بالنَّفيِ مجموعُ الجُملِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/123.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/518 - 519.

الثَّلاثِ، فأُعيدَ مع كلِّ جملةٍ "على طريقة عطفِ المنفيّاتِ بعضِها على بعضٍ؛ لتأكيدِ استقلالِها بالنَّفي، ودفعاً لتوهُّم إرادةِ نفي المجموعِ؛ فإنَّ الغالبَ أن يُعادَ معها حرفُ النَّفي للتَّنصيصِ على أنَّ تلك المُتعاطفاتِ جميعَها مقصودةٌ بالنَّفي بآحادِها"[1].

براعةُ التَّرتيبِ في الجُملِ المنفيَّة:

التَّرقِّي منَ العامِّ إلى الخاصِّ فالأخصِّ منهجٌ للمُعتبِر

في الآية ثلاثُ جُملٍ منفيَّةٍ، وجاء ترتيبُها على سبيل التَّرقّي، فنفَى أوّلًا ما يتعلَّقُ بالرّزق، وهو يتعلَّقُ برغبات النّاس أجمعين، ثمَّ نفَى ثانيًا ما يتعلَّقُ به، وتتشوَّفُ إليه النُّفوسُ الفاضلةُ من معرفةِ ما يجهلون وتَعرُّفِ ما يقعُ منَ الكوائن، ثمّ نفَى ثالثًا ما هو مختصٌّ بذاته، فنفَى صفةَ الملائكة، فترقَّى في النَّفي من عامٍّ إلى خاصٍّ إلى أخصَّ[2].

وجهُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾:

نفيُ معرفةِ الرَّسولِ ﷺ بالغيبِ لا ينفي عنهُ صفةَ التَّبليغِ عَنِ الله

موقعُ هذه الجملةِ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه لمّا نفَى ملكيّةَ الخزائنِ وعلمَ الغيب وكونَه ملكًا؛ كان ذلك مثيرًا للسُّؤال: فماذا تدَّعي بالرّسالة؟ لأنَّ الجهلةَ يتوهَّمون أنَّ معنى النُّبوَّةِ هو تلك الأشياءُ المنفيَّةُ في قولِه: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾، فيُجابُ بقولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾، أي: ليستِ الرِّسالةُ إلا التَّبليغَ عنِ اللّه تعالى[3].

بلاغةُ الحصرِ والقصرِ في الآيةِ:

لا ينطقُ رسولُ الله عنِ الهوى، ولا يدّعي شيئًا من نفسِه

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ حصرَ دعواه في اتِّباع الوحي لكونِه نبيًّا، والنُّبوَّةُ من كمالاتِ البشرِ، بعد أن تبرّأَ عن دعوَى الأُلوهيّةِ والمَلَكيةِ؛ ردًّا لاستبْعادِهم دعواه[4]، والغرضُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/242.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163.

منَ القصرِ قلبُ اعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ رسولًا حتى يأتيَهم بالعجائبِ المسؤولَة[1]، وهذا تجريدٌ لنفسِه عنِ الابتداع؛ لأنَّه لا يدَّعي شيئًا منكرًا، ولا ما يُستبعدُ في العقول كمُلك خزائنِ اللهِ وعلمِ الغيبِ، وإنَّما ادَّعى كونَه رسولًا، كما كان غيرُه منَ الرُّسل[2].

فائدةُ تكرارِ فعلِ الأمر ﴿قُل﴾:

تقريعٌ للمُعرِضين، وتقويةٌ لإيمانِ النَّبيِّ الأمين

تكرَّرَ فعلُ القولِ في الآية: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾، تبكيتًا وتقريعًا لهم وتأكيدًا للأمرِ بالتَّبليغ[3]، وفيه زيادةٌ في التَّنبيه، ولتقويةِ الإيمانِ بأنَّه يتكلَّمُ عن ربِّه[4].

بلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ:

تسويةُ العالمِ بالحقائقِ مع غيرِه مَظنَّةُ الإنكارِ

جاء الاستفهامُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ على غيرِ حقيقتِه، والمرادُ منه النَّفيُ لغرض الإنكار، وتقديرُ الكلام: "أنَّهما لا يستويان"[5]، "والمرادُ إنكارُ استواءِ مَنْ لا يعلمُ ما ذُكرَ منَ الحقائق ومَن يعلمُها، وفيه منَ الإشعار بكمالِ ظهورِها، ومنَ التّنفير عنِ الضّلالِ، والتّرغيب في الاهتداء ما لا يَخْفى"[6].

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾:

سبيلُ الهدايةِ نورٌ ودرايةٌ، وخُطا الزَّيغِ ظَلامٌ وتيهٌ

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيهِ مَن لا يَرى الحقَّ بالأعمى، وتشبيهِ المؤمن بالبصير؛ تمثيلًا لنور البصيرةِ، وظلام الضَّلالِ، فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ والمعنى: إنَّه لا يستوي المتفكّرُ النّاظرُ في الآيات والمُعرِضُ المهملُ للنَّظر؛ فالأعمى والبصيرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/242 - 243.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/505، وابن جزي، التسهيل: 1/261 - 262.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/365.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/365، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509.

مثالان للمؤمن والكافرِ، على سبيل الاستعارة[1] التّصريحيَّة؛ حيث شُبِّهت حالةُ مَنْ لا يفقهُ الأدلَّةَ بحالة الأعمَى الذي لا يعرُف أين يقصدُ؟ ولا أين يضعُ قدمَه؟ وشُبِّهت حالةُ من يميِّزُ الحقائقَ بحالة القويِّ البصرِ، وهذا تمثيلٌ لحال المشركين ولحالِ المؤمنين[2]، فالكلامُ تشبيهُ الضَّلال بالعمَى، وإدراكِ الحقِّ بالبصرِ؛ لأنَّه يعيشُ في نور البصيرةِ، والأوَّلُ يعيشُ في ظلام الجهلِ والضَّلالِ[3].

بيانُ الحضِّ على التَّفكُّرِ في الفاصلةِ:

عـرضًـا وتـحـضـيـضًـا بـلوازم التَّقريع والتَّوبيخِ

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ جاءتِ الدَّعوةُ إلى التَّفكُّرِ "في عبارةِ العرضِ والتَّحضيضِ"[4]، دونَ فعل الأمر أو غيرِه، ليكونَ الطَّلبُ على وجه التَّأكيدِ والحثِّ على فعله، فهو عرضٌ وتحضيضٌ، معناه: الأمرُ؛ تحريضًا على التَّفكير، أي: ففكِّروا[5]، وهو تقريعٌ وتوبيخٌ داخلٌ تحت الأمرِ[6].

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ التَّفكُّرِ:

مـن يـتـفـكَّـرْ في الأحـوالِ يُحسِنْ ضبطَ المآلِ

حُذِفَ متعلّق التَّفكُّرِ؛ لأنَّه متعلِّقٌ بمضمون الكلامِ السّابقِ، لا مطلقَ التَّفكرِ، والمرادُ أنَّه دعاهم وحثَّهم؛ لأن يَتفكَّروا في مضمون الكلامِ السّابقِ، وتقديرُ الكلامِ: هلّا تفكَّرتم بأنّي ما ادَّعيتُ ما لا يليقُ بالبشرِ، وأنّي أتَّبعُ ما يوحى إليَّ[7]، يعني: "أفلا تتفكرون في أحوالي وأحوالِكم، لتميِّزوا بين الحقِّ والباطلِ، ولتعلموا الضّالَّ والمُهتديَ؟!"[8].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/368.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/243.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509 - 2510.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/294، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 1/506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519، والصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/15.
(8) الطيبي، فتوح الغيب: 6/96.

نكتةُ تقديمِ العَمى في الذِّكرِ على البَصَرِ:

قُدِّمَ العَمى في الذِّكْر على البصرِ؛ لأنَّ المشركين يدَّعون أنَّهم مع ضلالِهم وجهلِهم أعلى منْ أَتباعِ النَّبيِّ ﷺ الذين آمنوا به؛ لكثرةِ أموالِهم وقلَّةِ أموالِ المؤمنين، فبيَّن اللهُ ﷻ أنَّهم لا يمكنُ أن يُساووهم؛ فضلًا عن أن يعلوا عليهم؛ لأنَّ الأعمَى - ولو غنيًّا - لا يُساوي المُبصرَ؛ ولو فقيرًا[1].

إنَّ المشركين أرْدَاهُمْ سوءُ ظنِّهم فادَّعَوا استعلاءَهم عن اتِّباعِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسّلام

إيثارُ لفظِ التَّفكيرِ على لفظِ الإيمانِ:

آثرَ الخطابُ الإتيانَ بالتَّفكيرِ في قولِه: (أفلا تتفكرون) دون أن يقول: (أفلا تؤمنون)؛ لأنَّه البابُ الموصلُ للإيمان، ولذلك كان عليهم أن يتفكَّروا في أسباب الفقرِ، والغنى، وأسبابِ الفضلِ، وأسبابِ العلوِّ حتى يصلوا إلى الهدى، ويتركوا الضَّلالَ، وذلك من خلال الاعتبارِ بالعظاتِ والأمثالِ التي تساق إليهم[2].

التَّفكُّرُ بوَّابةُ الإيمانِ، وسبيلُ تمثُّلِهِ

وجهُ اصطفاءِ لفظِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه مُستعارٌ لتعلُّقِ قُدرةِ اللهِ بالإنعامِ وإعطاءِ الخيراتِ النّافعةِ للنّاسِ في الدُّنيا؛ فشُبِّهتْ تلك التَّعلُّقاتُ الصُّلوحيَّةُ والتَّنجيزيَّةُ في حجبِها عن عيونِ النّاسِ بخزائنِ أهلِ اليسارِ والثَّروةِ التي تجمعُ الأموالَ والطَّعامَ، ونحوَ ذلك[3].

مُلْكُ اللهِ لا يَسَعُهُ عقلٌ، وأعطياتُه لا يُحصيها عدٌّ، ولا يحدُّها حدٌّ

نكتةُ تقديم لفظةِ ﴿عِندِى﴾:

قُدِّمتْ لفظة ﴿عِندِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لمزيد العنايةِ والاهتمامِ في دفع ما يطلبُه المشركون ممّا ليس في قُدرته ﷺ.

في التَّقديمِ عنايةٌ بمدافعةِ طلباتِ المشركين

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.

سرُّ إفرادِ الغيبِ دونَ جمْعِه:

في صِيَغِ الإفراد نفيٌ لمطلق الغيب، ولادّعاءِ النَّبيِّ ما لا يعلمُ

عبَّرَ بالغيب مُفرَدًا دونَ الجمعِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالمفردِ يُشيرُ إلى نفيِ مطلَقِ الغيبِ؛ لأنَّ الغيبَ قسمان: غيبٌ مطلقٌ، وغيبٌ مقيَّدٌ، ورسولُ اللّه ﷺ لا يُخبرُ عنِ الغيبِ المقيَّدِ إلا بإعلام اللّه له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يدَّعي ما ليس مِن شأن البَشرِ، فالغيبُ كلُّه للّهِ.

دَلالةُ الإتيانِ بقولِه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾:

العملُ بغيرِ وحيٍ عمًى، والعملُ بوحيٍ بصيرةٌ

جاءت جملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾؛ لتأكيدِ المعنى السّابقِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾؛ لأنَّ العملَ بغير الوحي يجري مجرَى عملِ الأعمى، والعملُ بمقتضَى الوحي يجري مجرَى عملِ البصيرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿أَتَّبِعُ﴾:

يبلِّغُ رسولُ الله ﷺ ما يُوحَى إليه، لا ما يُملَى عليه

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالاتِّباع في قولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾؛ لأنَّه يشيرُ في معناه اللُّغوي إلى الارتسام في القول والفعل، وأنَّه ﷺ لم يكُنْ ليحكمَ في حُكمٍ منَ الأحكام أَو أمرٍ منَ الأمور من تلقاء نفسِه؛ لأنَّه لا ينطق عنِ الهوى، بل كلُّ ما يصدرُ منه ﷺ إن هو إلا وحيٌ يوحَى.

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ [الأنعام: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توجيهُ الإنذارِ لمن لم تعِظْهُ الآياتُ واجبٌ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآياتِ السّابقةِ أنَّ الكفرةَ لا يتَّعظون ولا يخافون، أمره ربُّه في هذه الآية أن يتوجَّهَ بالإنذارِ والاتِّعاظِ لمن يُتوقَّعُ منه الاتِّعاظُ والخوفُ[1].

وأيضًا لمّا وصفَ تعالى الرُّسلَ بكونِهم مبشِّرين ومنذِرين، وأخبرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يتَّبعُ إلا ما يوحَى إليه، أمرَه اللّه تعالى في هذه الآية بالإنذارِ، فقال: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡشَرُوٓاْ﴾: (حشر) الحشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ وبَعْثٍ[3]، يحشرُهم: يجمعُهم، والحشرُ: جمعُ النّاسِ يومَ القيامة[4]، قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 47]، أي: جمعْناهم[5].

2) ﴿شَفِيعٞ﴾: (شَفَعَ) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ الشَّيئَيْنِ[6]، وملازمتِهما، فـ"الشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخرَ ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستعملُ في انضمامِ مَن هو أعلى حُرْمةً ومرْتبةً إلى مَن هو أدنى، ومنه: الشَّفاعَةُ في القيامة، ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87]"[7]، والشَّفيعُ: صاحبُ الشَّفاعَةِ، وهو

(1) الجمل، فتوحات الوهاب: 2/32.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/539، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حشر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(7) الراغب، المفردات: (شفع).

مِن انضمَّ إلى غيره، وعاونَه، وصار مُناصِرًا له، والشَّفاعةُ أن يَشرعَ الإنسانُ للآخر طريقَ خيرٍ أو طريقَ شرٍّ، فيقتدي به، فصار كأنَّه شفعَ له(1).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هولُ المحشَرِ مَدعاةٌ للتَّبليغ والإنذارِ بما يُوحي الله لنبيِّه ﷺ

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ آمرًا إيّاه بأن أَنذرْ بما يوحَى إليك المؤمنين باللّه الذين يخافون أهوالَ الحشْرِ وشدَّةِ الحساب، في ذلك اليومِ الذي لا بيعٌ فيه ولا خلَّةٌ ولا شفاعةٌ، يومَ لا وليٌّ يَنصرُ، ولا شفيعٌ يدفعُ العذابَ، فهؤلاء المؤمنون هم الذين يُرجَى أن يتَّقوا اللّه، ويهتدوا بدعوتِك(2).

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَأَنذِرۡ﴾:

وجوبُ الإنذارِ بالقرآنِ، ولزومِ اتِّباعِ أوامرِ الدَّيَّان

دلَّ الأمرُ في قولِه: ﴿وَأَنذِرۡ﴾ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ مُتَّبعٌ لأوامرِ ربِّه، ولا يدَّعي الخروجَ عنِ العبوديةِ للّه ﷻ، وفيه ردٌّ على المشركين في رفض مُقترحاتِهم بأنَّها ليست من مهامِّ الرَّسولِ؛ لأنَّ مهمَّتَه البلاغُ.

فائدةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾:

إنذارُ النَّبيِّ الخاتمِ لجميعِ الخلائقِ

جملةُ: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿قُل﴾، والجامعُ في ذلك أنَّ الرّسولَ ﷺ مأمورٌ فيهما بإنذار جميعِ الخلائقِ.

بيانُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿بِهِ﴾:

لا يُتصوَّرُ الإنذارُ والبيانُ من الرسولِ ﷺ إلَّا بالقرآن

الضَّميرُ يرجعُ إلى القُرآنِ الكريم، والمرادُ أنَّه يُنذرُ بالقرآن، والدَّليلُ عليه قولُه تعالى قبل هذه الآية: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ والتَّخويفَ إنَّما يقعُ بالقولِ وبالكلامِ لا بذاتِ اللّه تعالى(3).

(1) الفيروز آبادي، القاموس المحيط (3/329).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 7/133.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/539، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.

إيثارُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾:

إظهارُ الصِّلةِ أمارةُ المدحِ، واستجلابِ النَّفعِ

عبَّرَ عنهم بالموصولِ دونَ الوصفِ وغيرِه في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾؛ "لما تدلُّ عليه الصِّلةُ منَ المدحِ، ومنَ التَّعليلِ بتوجيهِ إنذارِه إليهم دونَ غيرِهم؛ لأنَّ الإنذارَ للذين يخافون أن يُحشروا إنذارٌ نافعٌ، خلافًا لحالِ الذين يُنكرون الحشرَ، فلا يخافونَه فضلًا عنِ الاحتياجِ إلى شفعاءَ"[1].

السِّرُّ بذكرِ الذين يخافُون الحشرَ دونَ غيرِهم:

تخصيصُ الإنذارِ بالخائفين أدعى لقَبولِهم؛ من غيرِ نفيِ الدَّعوةِ عن غيرِهم

خصَّ الإنذارَ بالذين يخافون الحشْرَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ الحجَّةَ أُقيمتْ عليهم؛ لأنَّهم أفهمُ بِالميعادِ"[2]، و" لأنَّ انتفاعَهم بذلك الإنذارِ أكملُ، بسببِ أنَّ خوفَهم يحملُهم على إعدادِ الزّادِ ليومِ المعادِ"[3]، لأنَّه إنذارٌ خاصٌّ، وهو الإنذارُ المُؤثِّرُ النّافعُ"[4]، فخصَّهم؛ لأنَّهم مظنَّةُ الإيمانِ[5]، "ولم يُرِدْ أنَّه لا يُنذرُ سواهم، بلِ الإنذارُ العامُّ ثابتٌ مستقرٌّ"[6].

وفيه توجيهٌ للدُّعاةِ إلى أن يتَّجهوا بدعوتِهم لمن لهم آذانٌ تسمعُ، وقلوبٌ تعقلُ، عند ذلك تُرجى الاستجابةُ لدعوتِهم، وظهورُ ثمرتِها في المجتمعِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخَافُونَ﴾:

الإحالةُ على مَن يَتَجَدَّدُ إيمانُهم بتجدُّدِ خوفِهم

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخَافُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك منهم ممّا يجعلُ في قلوبِهم رقَّةً تجعلُها تنفتحُ للهدايةِ، ويدخلُها النّورُ بخلافِ الذين لا يخافونَ، فقلوبُهم مُظلمةٌ؛ لأنَّها قاسيةٌ، فهي كالحجارةِ تجعلُ ما وراءَها في ظلامٍ دامسٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/244.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/540.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158، وابن جزي، التسهيل: 1/262.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519 - 520.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/294، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/367.

التَّعبيرُ بجملةِ الصِّلةِ دونَ الاسميَّةِ (الخائفون):

القَصْدُ إلى تَعميمِ الخطاب على وجهٍ يتعدَّى المسلمين المُقرِّين بالبَعْث

عبَّرَ باسمِ الموصولِ وصِلتِه في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، فهو يشملُ كلَّ منْ آمن بالبعثِ من مسلم ويهوديٍّ ونصرانيٍّ مؤمنًا كان أو كافرًا، مُقرًّا به أو متردِّدًا فيه، فإنَّ الإنذارَ ينجعُ فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالتِه، فلا يتخصَّصُ بالمسلمين المُقرّين بالبعثِ[1]، وذهبَ البعضُ إلى قصْرِه على المؤمنين، وإن كان الأولَى العمومَ؛ لأنَّه لا عاقلَ إلا وهو يخاف الحشْرَ؛ ولأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مبعوثًا ومأمورًا بالتَّبليغ للكلِّ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالخوفِ بدلًا منَ العلْم:

العلمُ سبيلُ الخشيةِ والخوفِ

عبَّرَ بالخوف في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مَوضعَ العلْمِ؛ لأنَّ خوفَهم كان من أجل علْمِهم بوقوعِ الحشْرِ ووجودِه، من غيرِ شكٍّ منهم في ذلك[2].

إيثارُ صِيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ:

الحشْرُ موقفٌ يستحقُّ الخشيةَ

عبَّرَ بالفعلِ المبنيِّ للمفعول في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرهوبَ هو الحشْرُ نفسُه، فهو جديرٌ بأن يُخشَى لذاتِه، من غيرِ أن يقيَّدَ بكونِه من مُعيَّنٍ[3].

بلاغةُ التَّعريضِ في لفظ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

ليس للكافرين في يومِ القيامةِ وجودُ إنعامٍ يُذكرُ

دلَّ التَّعبيرُ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ على حشْرِهم إليه ﷻ لا إلى غيرِه، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين الذين اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً من دونِ اللهِ؛ لأنَّهم لن يلحظوا لهم وجودَ إنعامٍ وعزٍّ في هذا اليومِ، وفيه ردٌّ على الذين يُنكرون الحشرَ وما فيه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/520، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/200.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/126.

سرُّ العُدولِ عن ذكرِ المَحشَرِ:

عدلَ عَن لفظِ المكانِ (المَحشر) إلى قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّهم لا يخشَوْنَ المكانَ، بل يخشَوْنَ اللهَ تعالى؛ لأنَّه المقصودُ بالخَشيةِ، فهو الَّذي أوجدَ الخلقَ، وقدَّر الحشْرَ، ووضعَ الحسابَ والميزانَ، فالحشْرُ وإن كان ممّا يُخشَى، ولكنَّ خشيتَه فرعٌ عن خَشيةِ اللهِ تعالى التي هي الأصلُ.

الحشرُ إلى ربِّ العالمين أبلغُ في تقريرِ الخوفِ والخشيةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرَّبِّ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، ولم يقلْ: (إلى اللهِ) "تنبيهًا على أنَّهم إذا خافوا مولاهُم مع استحضارِهم ما عندَه منَ الحنانِ والشَّفقةِ، فأحرَى أن يخافوا مع استحضارِهم أنَّه عزيزٌ ذو انتقام"[1]، وفيه تربيةٌ لهم لمعرفةِ مهابةِ اللهِ تعالى وخَشيتِه حقَّ الخَشيةِ[2].

القصدُ إلى تربيةِ المهابةِ في نفوسِهم مِنَ اللهِ

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى تحقيرِ ما سواه وسُفولِه، فكلُّ ما عُبِد من دونِه فهو حقيرٌ لا يُعبدُ؛ لأنَّه منَ المعلومِ أنَّ كلَّ شيءٍ تحت قهرِ عظمتِه، ومتضائلٌ عن رُتبتِه"[3].

كلُّ ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ حقيرٌ شأنُهُ

نكتةُ تقديمِ الوليِّ على الشَّفيعِ:

قدَّم الوليَّ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ لأنَّه أخصُّ مِنَ الشَّفيعِ، وذلك لأنَّ "الوليَّ يكونُ قريبًا بخلافِ الشَّفيعِ؛ فلا يلزمُ أن يكونَ قريبًا لذلك، فالوليُّ هو النّاصرُ مُقيَّدٌ بكونِه قريبًا، أو يكونُ بينه وبين وليِّه لُحمةٌ بوجهٍ، بخلافِ الشَّفيعِ فهو النّاصرُ مطلقًا قريبًا كان أو أجنبيًّا، وهو من عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ"[4].

تقديمُ الوليِّ على الشَّفيعِ من عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/126.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158.

فائدةُ نفيِ الوليِّ والشَّفيعِ عنهم:

التَّعريضُ بالمشركين الذين اتَّخذُوا الأولياءَ والشُّفعاءَ من دونِ الله

نفَى الوليَّ والشَّفيعَ عنهم تعقيبًا على خوفِهم منَ الحشْرِ؛ "لأنَّ النَّصارَى، واليهودَ ذكرتْ أنَّها أبناءُ اللّه وأحِبّاؤُه، فأعلمَ اللّهُ أنَّه لا وليَّ له إلّا المؤمنون، وأنَّ أهلَ الكُفْر ليسَ لهم منْ دون اللّهِ وليٌّ ولا شَفيعٌ"[1]، وكذلك المشركون الذين أشركوا مع اللّه آلهةً أُخرى؛ فلا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا.

دَلالةُ التَّعقيبِ على الإنذارِ بِرجاءِ التَّقوَى:

التَّقوَى باعثٌ يحثُّ المؤمنين على الثَّباتِ على الإيمانِ

عقَّبَ القرآنُ الكريمُ بجملة: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ التَّقوَى غايةٌ أُرسلَ من أجلها الرُّسلُ؛ لذلك كانت هذه الجملةُ فيها معنى التَّعليلِ؛ إذِ الرَّجاءُ في (لعلَّ) لا يصحُّ أن يُنسب للّه جلَّ ذكرُه؛ فالرَّجاءُ ليس منه تعالى، بل هو رجاءٌ مسوقٌ مساقَ التَّعليل للأمرِ بإنذارِ المؤمنين ممَّن يُرجَى تقواهُم لإيمانِهم بالبعثِ، بخلافِ مَن لا يؤمنون به[2]، أي: لعلَّهم يدخلون في زُمرة أهلِ التَّقوَى، رجاءً لحصولِ تقواهُم؛ إذا حصلَ الإنذارُ[3]، فالإنذارُ يُرتجَى منه أن يحقِّق وازعًا يحثُّ المؤمنين على الثَّباتِ على الإيمانِ"[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾:

الخوفُ وازعٌ للتَّقوَى في أصحابه

ختم الفاصلةَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لتوافُقِه مع الفعلِ ﴿يَخَافُونَ﴾؛ فكلَّما تجدَّدَ الخوفُ تجدَّدتِ التَّقوَى، وفي هذا إشارةٌ إلى التَّلازُمِ بين الخوفِ والتَّقوَى.

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾ دون (يؤمنون):

التَّقوى عبارةٌ حاويةٌ الإيمانَ والإسلامَ

لمّا كانتِ التَّقوَى هي المرحلةُ الأعلى ولا تتأتَّى إلا بعد الإيمانِ، والإيمانُ الصحيحُ يُثمرُ في قلبِ صاحبِه الخوفَ منَ الوقوفِ في أرض المَحشرِ؛ فعلى هذا كانتِ التَّقوَى هي الأعمَّ؛ لأنَّها تشملُ الإسلامَ والإيمانَ.

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/520.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/431، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/540.

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أردفَتِ الآيةُ إنذارَ غيرِ المتَّقين، بإكرامِ المتَّقين

بعد ما أمرَه بإنذارِ غيرِ المُتَّقين لعلَّهم يتَّقون، أردف ذلك بتقريبِ المُتَّقين وإكرامِهم، ونهاهُ عن طردِهم[1]، فهذه الآيةُ وسابقتُها فيهما توجيهاتٌ للنَّبيِّ ﷺ في كيفيَّة مُعاملتِه النَّاسَ بالإنذارِ رجاءً في أن يكونوا منَ المتَّقين، وإكرامِ المُتَّقين الذين اتَّبعوه وملاطفتِهمK بالنَّهيِ عن ظُلْمِهم بالطَّردِ تقريبًا لقريشٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾: (طرد) أصلٌ يدلُّ على إبعادٍ[3]، فالطَّردُ: الإبعادُ والإزعاجُ على سبيلِ الاستخفافِ، يقال: طَرَدْتُهُ، ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، طَرَدَهُ السّلطانُ؛ إذا أخرجَه عن بلدِه، وأمرَ أن يُطْرَدَ من مكانٍ حَلَّهُ[4]، نُهيَ أن يُؤَخِّرَ فقراءَ المسلمين، وأن يُبعدَهم عنه تقريبًا لكفرةِ قريشٍ[5].

2) ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾: (غدو، غدا) أصلٌ يدلُّ على زمانٍ[6]، وهو ما بينَ صلاةِ الغداةِ وطُلوعِ الشَّمس، يقال: أتيتُه غدوةَ غيرَ مصروفةٍ؛ لأنَّها

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/521.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/126، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/138.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).

(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (طرد).

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/295.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).

معرفةٌ مثلُ سَحَرَ، إلّا أنَّها منَ الظُّروفِ المتمكِّنةِ[1]، وقوبل في القرآن الغُدوُّ بالآصال، نحوَ قولِه: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: 205]، وقوبل الغَداةُ بالعشيِّ، قال تعالى: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52][2]، والمرادُ أنَّهم يَعبدون ربَّهم بالصَّلاة المكتوبةِ، يعني: صلاةَ الصُّبحِ[3].

3) ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾: (عشو، عشا) أصلٌ يدلُّ على ظلامٍ وقلّةِ وضوحٍ في الشَّيءِ[4]، العَشيُّ: إذا زالَتِ الشَّمْسُ دُعيَ ذَلِك الوَقْتُ العشيَّ، فتحوَّلَ الظِّلُّ شرقيًّا، وتحوَّلَتِ الشَّمْسُ غربيةً، وصلاتا العشيِّ: هما الظّهْرُ والعصرُ، ويَقَع العشيُّ على ما بين زوال الشَّمسِ إلى وقت غُروبِها، كلُّ ذلك عشيٌّ، فَإِذا غابَتِ الشَّمْسُ؛ فَهوَ العِشاء[5]، والعَشيُّ: آخرُ النَّهار[6]، من زوال الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، قال تعالى: ﴿عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46][7]، والمرادُ أنَّهم يَعبدون ربَّهم بالصَّلاةِ المكتوبةِ يعني: صلاةَ العصْرِ[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بألّا تُبعِدَ عن مجلسِك فقراءَ المسلمين الذين هم في عبادةٍ دائمةٍ للّه، لا تُبعدْهم لتستميلَ أكابرَ المشركين؛ إذ ليس عليك من حسابِ هؤلاء الفقراءِ شيءٌ، إنَّما حسابُهم عند ربِّهم، وما عليهم من حسابك شيءٌ، فإنَّك إن أبعدتَهم عن مجلسِك؛ فإنَّك تكونُ منَ الظالمين بوضعِك الشَّيءَ في غير محلِّه ظلمًا لهم، فإنَّ طردَك هؤلاء ليس سببًا لإيمان أولئك[9].

ليس على الرَّسولِ ﷺ من حسابِ الفقراءِ شيءٌ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غدا).
(2) الراغب، المفردات: (غدا)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(3) الواحدي، البسيط: 8/162.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عشا).
(6) الخليل، العين: (عشا).
(7) الراغب، المفردات: (عشا)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عشو).
(8) الواحدي، البسيط: 8/162.
(9) مجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/133، والبقاعي، نظم الدرر: 7/129.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

أهـلُ الـعـبـادةِ محلُّ العنايةِ

عطفَ قولَه سبحانه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ على قولِه ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّه في معنى: "أنذرْهم ولازمْهم وإن كره ذلك مُتكبِّرو المُشركين"[1]، فالقومُ الذين حُصِرَ الإنذارُ بهم هم أنفسُهم الذين نُهيَ عن طردِهم، للدَّلالةِ على الإنذارِ والملازمةِ لهم، وفيه إيماءٌ إلى النَّبيِّ ﷺ بأن يزهدَ في إنذارِ من لا يخشَى لقاءَ اللّٰه تعالى منَ الذين كرهوا جلوسَه إلى ضعَفَةِ النّاسِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

أبــانَ الـقـرآنُ بالموصولِ صفاتِ مـــدحِ فـقـراءِ المسلمين

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ عبَّرَ عنهم بالموصول دونَ الضَّمير، فلم يقلْ: (ولا تطردهم)؛ للدَّلالةِ على صفاتِ مدْحِهم وبيانِ علَّةِ النَّهي، فقد "أُجريت عليهم هنا صِلةٌ أخرى هي أنسبُ بهذا الحُكمِ منَ الصِّلةِ التي قبْلَها، كما أنَّ تلك أنسبُ بالحكمِ الذي اقترنتْ معه منها بهذا"[2].

وممّا يُذكرُ في تعليل التَّعبير بالاسمِ الموصولِ الإشارةُ إلى هؤلاء المؤمنين الذين نزلتْ بسببِهمُ الآيةُ: صهيب، وعمّار، ومن معهما رضي الله عنهم كما روى ذلك مسلمٌ في صحيحه عن سعدِ بن أبي وقّاص رضي الله عنه[3]، وفي هذا إعلاءٌ وإعلامٌ بمكانتِهم، فصاروا عُنوانًا للعُبوديةِ والإخلاصِ للّٰه ربِّ العالمين.

نكتةُ إيثار ﴿يَدۡعُونَ﴾ على (يعبدون):

الـدُّعـاءُ سبيلُ القُرْبِ منَ الله

عبَّرَ بالدُّعاء في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ لأنَّه الأعمُّ؛ فيشملُ دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العبادةِ، وممّا يؤكِّدُ علاقةَ الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.
(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2413).

بالعبادةِ، قولُه سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: 60]؛ فعدلَ منَ الدُّعاءِ إلى العبادةِ للدَّلالةِ على أنَّ الدُّعاءَ مخُّ العبادةِ، فوصفَهم ربُّنا بهذا الوصفِ للدَّلالةِ على كمالِ عبوديَّتِهم لربِّهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَدْعُونَ﴾:

الدُّعاءُ أمارةُ حُسنِ الصِّلةِ، وتجدُّدِ القُربِ

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على أنَّ دعاءَهم لربِّهم مُتجدِّدٌ ومُستمرٌّ، فلم ينقطعوا عنه؛ وفي هذا إشارةٌ إلى حُسْنِ صِلتِهم باللّٰه وقُربِهم منه.

سرُّ إيثارِ الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّةِ:

وصفُ الرُّبوبيَّةِ يناسِبُ مقامَ الإنعامِ

عبَّرَ بالرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ إنعامٍ وتفضُّلٍ منَ اللّٰه - ﷻ - عليهم؛ لأنَّ اللّٰه نهى رسولَه ﷺ عن طردِهم؛ وفي هذا إشعارٌ بعلوِّ قدرِهم ورفعةِ مكانتِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالنَّهيِ عنِ الطَّردِ دونَ الإبعادِ:

في الطَّردِ استخفافٌ بالمبعَدِين

عبَّرَ بالنَّهيِ عنِ الطَّردِ دونَ الإبعادِ في قولِه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما: فالإبعادُ لا يلزمُ منه الاستخفافُ والتَّهوينُ من شأنِ المُبعَدين، بخلافِ الطَّردِ؛ فهو يأتي على سبيلِ الاستخفافِ، وهذا ما طلبَه مشركو مكَّةَ منَ الرّسولِ ﷺ من طردِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ استخفافًا بهم.

فائدةُ النَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾:

في النَّهيِ قرعٌ لأسماعِ زعماءِ الشِّركِ، وتمسُّكٌ بالفقراءِ

جاء النَّهيُ إلى النَّبيِّ ﷺ ليقرعَ أسماعَ زعماءِ المشركين، وليُريَهم أنَّه ﷺ لن يتخلَّى أبدًا عن هؤلاءِ الفقراءِ؛ لأنَّهم عند ربِّهم هم أفضلُ من أغنياءِ المُشركين وزعمائِهم.

وفيه إشارةٌ إلى الحفاظِ على هؤلاءِ المؤمنين وإعطاءِ الرُّسولِ ﷺ الوقتَ كلَّه لهم، وأن يصبرَ نفسَه معهم حتى يقوموا هم.

وفيه إشارةٌ إلى خفَّةِ ميزانِ الكافرين عند اللّه ﷻ؛ لأنَّ الميزانَ الحقيقيَّ يكونُ بتقوَى اللّه وبالقُرْبِ منه.

السِّرُّ في ذكرِ وقتَيِ الغداةِ والعَشيِّ:

الـدَّوامُ على العبادةِ من سِماتِ الصَّالحين بالغداةِ والعَشيِّ

خصَّ ذكرَ الغداةِ والعَشيِّ في قولِه جلَّ شأنُه ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ لبيانِ فضيلةِ العبادةِ في هذا الوقتِ، وإشعارًا بدوامِهم عليه، "المرادُ بذكرِ الغداةِ والعَشيِّ: الدَّوامُ"[1]، فهو "عبارةٌ عنِ استمرارِ الفعلِ وأنَّ الزَّمنَ معمورٌ به، كما تقولُ: الحمدُ للّه بكرةً وأصيلًا، فإنَّما تريدُ الحمدَ للّه في كلِّ وقتٍ"[2]، والمعنى: أنَّهم يدعون اللّه اليومَ كلَّه، وقُصدَ بهما استيعابُ الزَّمان والأيّام كما يُقصدُ بالمشرق والمغرب استيعابُ الأمكنةِ[3]، فيكونُ التَّقديرُ: الذين يواظبون على ذكر ربِّهم دائمين[4].

وخصَّهُما بالذِّكرِ أيضًا؛ لأنَّ الشُّغلَ فيهما غالبٌ على النّاسِ، ومن كان في هذين الوقتَيْن يغلبُ عليه ذِكرُ اللّه ودعاؤُه كان في وقت الفراغ أغلبَ عليه[5].

سرُّ التَّقييدِ بالحالِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾:

الإخلاصُ من أقوَى مُوجباتِ الإكرامِ

أفادَ هذا التَّقييدُ بيانَ حالِ الذين نُهِيَ عن طردِهم بقولِه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ بأنَّهم يُريدون وجهَ اللّه تعالى، فهو "حالٌ من ضميرِ ﴿يَدۡعُونَ﴾، أي: يدعونَه تعالى مخلصين له فيه، وتقييدُه به لتأكيدِ عليّيَّته للنَّهيِ؛ فإنَّ الإخلاصَ من أقوى موجباتِ الإكرامِ المُضادِّ للطَّردِ"[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/27.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/295.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/247.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/100.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/432، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/521.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

لما سَلمتِ النِّيَّاتُ برزَ الإخلاصُ

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾:

دلَّ هذا التَّعبيرُ على أنَّهم "يُريدون ما عندَ اللّه فَشهِدَ لهم بصحَّةِ النّيّاتِ، وأنَّهم مُخْلِصونَ في ذلك للّهِ"[1]، فعبادتُهم وأعمالُهم للّه، ويتوجَّهون إليه لا لغيرِه، لا يُريدون بذلك عرضًا منَ الدُّنيا[2].

لا يُؤاخَذُ النَّبيُّ ﷺ بالسَّرائرِ والنِّيَّات

دَلالةُ الإخبارِ بنفيِ حسابِهم عنه:

أفادَ النَّفيُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾؛ الرَّدَّ على طعْنِ الكفّارِ في إيمانِ الفقراءِ، بأنَّهم إنَّما آمنوا لأنَّهم يجدون بهذا السَّببِ مأكولًا وملبوسًا عند النَّبيِّ ﷺ فقال اللّه تعالى: إنْ كان الأمرُ كما يقولون، فيلزمُك اعتبارُ الظّاهرِ، وإن كان لهم باطنٌ غيرُ مرضيٍّ عند اللّه، فحسابُهم عليه، لا يتعدَّى إليك، كما أنَّ حسابَك عليك لا يتعدَّى إليهم[3]، والمعنى: إذا كان الأمرُ كذلك فأَقْبِلْ عليهم وجالِسْهم، ولا تطردْهم؛ إن أرادوا بصُحبتِك غيرَ وجهِ اللّه؛ فهو كالتَّعليلِ لما قبْلَه[4]، فيكونُ المعنى: أنَّك غيرُ مؤاخَذٍ بسرائرِهم في كونِهم غيرَ مُخلصين النّيَّةَ[5].

سَوقُ الجُمَلِ الاعتراضيَّةِ تقريرًا للنَّهي عن طردِ فقراءِ المؤمنين، ودفعًا لتوهُّم ضعف دينهم

توجيهُ جملةِ الحسابِ بينَ النَّهي وجوابِهِ:

جاءت جملةُ ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ اعتراضيَّةً تقريرًا للنَّهي، ودفعًا لأن يكونَ هناك ضعفٌ في دينهم يُسوِّغُ طردَهم، كأقاويلِ الطّاعنين في دينِهم، كدأبِ قومِ نوحٍ حيث قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]"[6].

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251، والزمخشري، الكشاف: 2/27، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/432، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/247.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/542.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433، والصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 6/103.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

دَلالةُ الإتيانِ بـ ﴿مِنْ﴾:

أدخلَ على حسابِهم المَنفيِّ ﴿مِنْ﴾ التي للتَّبعيضِ[1]، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾؛ فأفاد ذلك نفيَ البعضِ، تأكيدًا لنفيِ الكُلِّ مبالغةً، فلمّا انتفَى بعضُ حسابِهم؛ كان ذلك دليلًا على انتفائِه كليَّةً.

نَفْيُ بعضِ الحساب دليلُ انتفائِه كلِّيًّا

وجهُ تأكيدِ النَّفيِ:

لما نفَى بعضَ حسابِهم عنه لتأكيدِ نفيِ كُلِّيَّتِه، أكَّدَ ذلك النَّفيَ بإدخالِ ﴿مِنْ﴾ للتَّوكيد، استغراقًا للنَّفيِ[2]، فهي لتوكيدِ النَّفيِ، وللتَّنصيصِ على الشُّمولِ في سياقِ النَّفيِ[3]، مبالغةً في انتفاءِ أسبابِ طردِهم.

أفادتْ (مِن) توكيدَ النَّفي مبالغةً في انتفاءِ أسبابِ طردِ فقراءِ المؤمنين

بلاغةُ التَّتميمِ في الآيَة:

دَلالةُ عدمِ الاكتفاءِ بجملة: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، والإتيانِ بقولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فجاءت جملةُ ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لإفادةِ التَّتميمِ[4] لقولِه تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ "لأنَّه إنَّما ذُكِرَ لمجرَّدِ تتميمِ الفائدةِ وتأكيدِها، وإلّا فالكلام قد تمَّ بدونِه"[5]؛ إذ إنَّ أصلَ التَّعليلِ قد حصلَ بالجملةِ الأولَى[6]، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في بيانِ انتفاءِ كوْنِ حسابِهم عليه ﷺ[7].

المبالغةُ في بيانِ انتفاءِ كوْنِ حسابِ الفقراءِ مِنَ المؤمنين عليه ﷺ

توجيهُ ردِّ العَجزِ على الصَّدْرِ:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/11، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/127، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/11، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/249.
(4) التّتميم: "هو الإتيان بجملة عقيب كلام متقدم لإفادة التّوكيد له والتّقرير لمعناه"، وذلك بأن تأخذ في بيان معنًى، فيقع في نفسك أنّ السّامع لم يتصوّرْه على حدّ حقيقته، فتعودَ إليه مؤكّدًا له. يُنظر: العلوي، الطّراز: 3/201.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/369.
(6) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/369.

﴿حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ من أنواع التَّحسينِ اللَّفظيَّةِ ردُّ العَجُزِ على الصَّدر[1]، فردَّ آخرَ الجملةِ الثّانيةِ على أوَّلِ الجملةِ الأولَى وهو ﴿عَلَيۡكَ﴾، وردَّ أوَّلَ الجملة الثّانية على آخرِ الجملة الثّانية، وهو ﴿مِنۡ حِسَابِهِم﴾ وغيَّر بين الضَّمائر، كقولِهم: عاداتُ السّاداتِ ساداتُ العاداتِ[2].

ردُّ الآخِر (حسابك، عليهم) على الأوّلِ (عليك، حسابهم) إبداعٌ في تجميلِ اللَّفظِ

دَلالةُ تقديمِ كافِ الخطابِ في الجُملتَيْن:

في التَّقديمِ بكافِ الخطابِ علُوُّ قدْرِه وتشريفُ مكانتِه ﷺ

في الآيةِ جملتان فيهما تقديمٌ وتأخيرٌ، قولُه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ فقدَّمَ في كلتا الجُملتين الضّميرَ العائدَ على النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له بخطابِه، واعتناءً به، فقدَّمَ خطابَه في الجُملتين، وكان مقتضَى الجملةِ الأولى أن يكون ترتيبُ الجملة الثّانية: (وما عليهم من حسابك من شيء)، لكنَّه "قدَّم خطابَ الرَّسولِ وأمْرَه تشريفًا له عليهم، واعتناءً بمخاطبتِه[3].

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه:

في تقديمِ المسنَدِ تخصيصٌ للحسابِ بالمخاطَبِ

أصلُ الكلامِ قبْلَ النَّفي: (حسابهم عليك)، وتقديمُ المسنَدِ سيُفيدُ تخصيصَه بالمخاطَب (عليك حسابهم) ليس على غيرِك، ونفيُ هذه الجملة (ما عليك حسابهم) هو نفيٌ لحسابِهم على جهة الاختصاص[4]، تأكيدًا لنفيِ سببِ طردِهم.

توجيهُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عنِ الفقراء:

الضَّمائرُ في ﴿حِسَابِهِم﴾ و﴿عَلَيۡهِم﴾ عائدةٌ إلى "الذين يدْعون

(1) ردّ العجز على الصّدر هو: "أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها؛ نحو: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: 37]"، يُنظر: عصام الدّين الحنفي، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/115.

(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/524، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/369.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/524، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/370.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

ربَّهم بالغداة والعشيِّ، وهمُ الفقراءُ، وذلك أشبهُ بالظّاهر، والدَّليلُ عليه أنَّ الكناية في قولِه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عائدةٌ لا محالةَ إلى هؤلاءِ الفقراءِ، فوجبَ أن يكونَ سائرُ الكنايات عائدةً إليهم"[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ نفيَ الحساب جاء تعليلًا للنَّهيِ، فلا بدَّ من ترابطِ النَّهيِ وعلَّتِه، فظهرَ أنَّ مرجعَ الضَّمير إليهم.

الفقراءُ ألصقُ بالدُّعاءِ، وأشدُّ في الالتجاء

معنى الفاءِ في الآية:

جاءتِ الفاءُ السَّببيَّةُ مع مدخولِها ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جوابًا للنَّفي في قولِه: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾ لبيانِ انتفاءِ ما يكونُ علَّةً لطردِهم[2]، "ومعناه: ما عليك من حسابهم من شيءٍ فتطردَهم، بمعنى: أنَّه لم يكن عليك حسابُهم حتى إنَّك لأجل ذلك الحسابِ تطردُهم"[3]، والآية كقولنا: ما تأتينا فتحدِّثَنا، والمعنى: ما تأتينا فكيفَ تُحدِّثُنا؟ أي: لا يقعُ هذا، فكيف يقعُ هذا؟ فحسابُهم لا يقع عليك، فكيف تطردُهم؟[4]

سببيَّةُ الفاءِ؛ لبيانِ انتفاءِ ما يكونُ عِلَّةً لطردِ الفقراء

بلاغةُ تكرارِ فعلِ الطَّردِ:

تكرَّرَ فعلُ الطَّردِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ وقولِه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقلْ: (لا تطردِ الذين يدعون ربّهم فتكونَ منَ الظّالمين)؛ فأعادَ فعلَ الطَّردِ لإفادةِ تأكيدِ ذلك النَّهي، وليبنيَ عليه قولَه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ الفصلَ بين النَّهيِ وجوابِه طالَ، فكانت إعادةُ الفعل المنهيِّ عنه لبيانِ ارتباطِ الكلام، فحصلَ بإعادة فعْلِ الطَّردِ غرَضانِ: لفظيٌّ ومعنويٌّ[5].

في تكرار فعل الطَّردِ إفادةُ تأكيدِ النَّهيِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/542.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/296.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/543.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/524.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/251 - 252.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَتَكُونَ﴾:

مَنْعُ الإنسانِ حقَّهُ ظُلْمٌ

وقعتِ الفاءُ في "جوابِ النَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾"[1]، فأفادت أنَّ طردَهم جديرٌ بأن يجعلَك تتَّصفُ بالظُّلم، فتكونَ منَ الظّالمين لهم؛ لأنَّهم لمّا استوجبوا مزيدَ التَّقريب والتَّرحيبِ؛ كان طردُهم ظُلمًا لهم، فتكونُ منَ الظّالمين لنفسِك بهذا الطَّردِ[2].

علَّةُ جعْلِ الطَّردِ ظُلمًا:

إذا تقرَّرَ عدمُ التَّكليفِ بحسابِ الفقراء؛ صارَ طردُهُم لأجلِ إرضاءِ غيرِهم ظلمًا لهم

علَّق وصفَه بالظُّلم بطردِهم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيقولُ للنَّبيِّ ﷺ: وضعُكَ الشَّيءَ في غيرِ محلِّه ظلمٌ لهم، فإنَّ طردَك هؤلاء ليس سببًا لإيمان أولئك[3]، فإنَّما "جُعل طردُهم ظلمًا؛ لأنَّه لمّا انتفَى تكليفُه بأن يحاسبَهم؛ صار طردُهم لأجل إرضاءِ غيرِهم ظلمًا لهم"[4].

دَلالةُ تأخيرِ جوابِ النَّهي:

عاقبةُ الاستخفافِ بالذين يَدعُون ربَّهم وخيمةٌ

أخَّرَ جوابَ النَّهيِ المُتضمِّنَ صفةَ الظُّلم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليكون تعقيبًا شاملًا لما قبلَه، وسوَّغَه تكرارُ لفظِ الطَّردِ في جوابِ النَّفيِ في الآيةِ، واجتمعَ نهيٌ ونفيٌ وجوابُهما، وجاء جوابُ النَّهيِ متأخِّرًا، وتقديرُ الكلام: (ولا تَطرُدِ الذين يَدعون ربَّهم؛ فتكونَ من الظالمين)، (وما مِنْ حسابك، عليهم من شيءٍ؛ فتطردَهم)[5]، فأخَّر جوابَ النَّهي؛ ليكونَ كالختام الشّاملِ لكلِّ ما جاءَ في الآية، ولأنَّ جوابَ النَّفيِ - وهو قولُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ - تضمَّنَ الفعلَ نفسَه المنهيَّ عنه، وهو قولُه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، فكان كالدَّليلِ عليه.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/296.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/543.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/252.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/434.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا نُهي ﷺ عن طَردِ فقراء المؤمنين؛ استجابةً لاستكبار المشركين، بيّن أنّ التّفاوُتَ في المكانةِ الدّنيويّة، والتّفاوتَ في الاستجابة لداعي الإيمان إنّما هو ابتلاءٌ وفتنةٌ لهم، ومِنَ المناسبة أنّه بعد أنْ ذكَر استكبارَهم بيّن مقولتَهم في شأن المُستضعفين[1]: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، وهي مقولةٌ تعكسُ احتقارَ كبارِ القوم لهؤلاء المؤمنين واستضعافَهم، وتحريضَ محمّد ﷺ ليطردَهم، حتّى لا يكونوا معهم في مجلسٍ واحد، فنهى اللّٰه تعالى رسولَه عن هذا: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، ثمّ أبانَ في الآية التّالية (53) عن سبب ذلك الاحتقار والاستصغار، وأنّه نوعٌ مِنَ الافتتان والابتلاء دفعَهم لأنْ يقولوا ما قالوه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾.

مِنْ صُورِ الابتلاء تفاوتُ المكانةِ في الدّنيا

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنَّا﴾: أصلُ الفَتن: الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13][2]. فتنتُ الفضّة والذّهبَ إذا أذبتَهما بالنّار لتميّزَ الرّديءَ مِنَ الجيّد[3]، فالفتنةُ: الابتلاء، والامتحان، والاختبار[4]، و﴿فَتَنَّا﴾: ابتلَيْنا واختبرنا[5]؛ أي: عاملناهم معاملةَ المختبَرين[6].

2) ﴿مَنَّ﴾: (منّ) أصلٌ يدلّ على اصطناع خيرٍ. مَنّ: صنع صُنعًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/129، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/136.
(2) الخليل، العين: (فتن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فتن).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/34.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/434، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/116.

جميلًا[1]، ومَنَّ عليه: أَحسنَ وأَنعمَ إنعامًا بلا تَعبٍ ولا نَصَبٍ، وبلا انتظارِ ثناءٍ واستثابةٍ[2]، ويُطلَقُ على النّعمة الثّقيلة[3]، ولا يكون ذلك إلّا للّه، فإذا قيل بين النّاس كان ذلك قبيحًا، ولِقُبح ذلك، قيل: "المِنَّةُ تهدمُ الصَّنيعةَ"؛ أي: أهؤلاء الّذين أُنعِمَ عليهم؟[4].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِنْ حكمةِ الله وضـــعُ فضْلِه لمَن هو أهلٌ له

يُخبر اللّه تعالى أنّه عاملَ الخَلْقَ معاملةَ المُخْتَبِر، فجعلَهم متفاوتين في حظوظهمُ الدّنيويّة، فإذا مَنَّ اللّه بالإيمان على الفقراء سيقول الكافرون الأغنياءُ محتقِرين لهم: أهؤلاء الفقراءُ تفضّلَ اللّه عليهم بالهداية مِن بيننا؟! لو كان الإيمانُ خيرًا ما سبقونا إليه، فردّ تعالى على استكبارهم بقوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الّذين يعرفون النّعمةَ، ويُقرّون بها، فيضعُ فضلَه ومنّتَه عليهم، فإنّ اللّه تعالى حكيمٌ، لا يضعُ فضلَه عند مَن ليس له بأهلٍ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ منَ الاستئنافِ:

بـيّنَ الخـطـابُ عـلّـةَ استـكـبـارِ المشركين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، يبيّن وجهَ التّفاوُت بين النّاس في الغِنى، والفقر، والإيمانِ، والكفر، وعلّةَ استكبار المشركين[6]؛ لأنّ ترجيحَهم البقاءَ في الضّلالة تكبُّرًا عن غشيانِ مجلسٍ فيه ضعفاءُ النّاس يُثير تعجّبَ السّامع، فأُجيب بأنّ هذا الفعلَ مسبَّبٌ عنِ الفتنة الّتي سنّها اللّه تعالى في عباده[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منّ)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (منّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (منن).
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 2/402.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/139.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/252.

وكان الأصلُ ألّا تُعطف بالواو كما لا يُعطف بين السّؤال والجواب، ولكنْ لأنّ هذه الآيةَ اعتراضٌ بين النّهي عن طرد المؤمنين في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 52] وتكريمهم في الآية اللّاحقة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، جيء فيها بالواو للتّنبيه على الاعتراض، ولا مانعَ من كوْنِ الجملة استئنافًا بوساطة الاعتراض.

دلالةُ اسمِ الإشارة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ المُشارِ إليـه، وعُلـوِّ درجتِه

(ذلكَ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ إشارةٌ إلى الفتون المدلولِ عليه بقوله: ﴿فَتَنَّا﴾[1]، وهو هنا تقديمُه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدّين بتوفيقهم للإيمان مع ما هُم عليه في أمر الدّنيا من سوء الحال[2].

وعبّر باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد إيذانًا بعلوِّ درجة المشارِ إليه، وبُعدِ منزلته في الكمال تعظيمًا له، وتفخيمًا[3].

دلالةُ الكافِ في التَّشبيهِ:

آثَـرَ التّشبيهَ بالكاف تأكيدًا لفخامةِ المعنى المقصودِ باسْمِ الإشارة

آثرَ التّشبيهَ بالكاف دون غيرِها في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾؛ لأنّه أراد المُماثلةَ على وجه التّأكيد؛ لأنّ سنّة الابتلاء بحيث لا تُتكَرُ، "والكاف مُقحَمَةٌ لتأكيد ما أفادَهُ اسمُ الإشارة منَ الفخامةِ"[4].

بلاغةُ التّشبيهِ في الآيَة:

لا تُـكـالُ المآثرُ بالمكاييلِ، ولا يَـضـرُّ المؤمـنَ الـفـقـيرَ الـزَّادُ القليلُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ شبّه اللّه تعالى تفاوُتَ النّاس في الغِنى والفقر بتفاوتِهم في قَبول الإيمان، فكما

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/646.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/139 - 140، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/153، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/253.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/525.

منّ على بعض النّاس بالغِنى، منّ على غيرهم بأنْ جعلَهم سابقين للإيمان متقدّمين على الأغنياء[1]، فكلُّ أحدٍ مبتلًى بضدّه[2]، فمعنى التّشبيه: "مثلُ ما فتنّا الكفّار بحسب غناهم، وفقرِ المؤمنين، حتّى أهانوهم لاختلافهم في الأسباب الدّنيويّة فتنّاهُم بحسبِ سبْق المؤمنين إلى الإيمان، وتخلُّفِهم عنه، حتّى حسدوهم"[3]؛ أي: "شُبِّهت الصّورةُ الكليّة لاختبار الله تعالى لخلقه - أو على الحقيقة معاملتُه معاملةَ المُختبِر لهم - شُبِّهت تلك الصّورةُ بهذه الحالة القائمةِ الّتي آمن فيها الضّعفاءُ، وسبقوا بها الأقوياءَ، وصار لهم فضلُ السّبق؛ والتّشبيهُ للتّقريب والتّوضيح"[4].

علّةُ إسنادِ فعْلِ الفتنةِ إلى الله تعالى:

تنزيهُ مقامِ الرّبوبيّةِ عن لوازمِ الاختبارِ، ومعاملةُ النّاسِ معاملةَ المُخْتبِر

أخبر تعالى بقوله: ﴿فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أنّه يفتنُ النّاس ويختبرُهم، والله تعالى لا يخفى عنه شيءٌ من حالهم؛ لأنّه يعلمُ السّرَّ وأخفى، فهو تعالى لا يحتاجُ إلى الاختبار، ولكنّه عاملَهم معاملةَ المُختبِر[5]؛ وذلك لتقفَ كلُّ نفسٍ على حقيقتِها، وتكتشفَ دواخلَها بنفسِها؛ فيعلمَ المستكبرُ حقيقةَ نفسه الّتي حرَمتهُ منَ الاهتداء.

دلالةُ اللّامِ على العاقبةِ والصّيرورة:

مآلُ الابتلاءِ هو الاستدلالُ على عدلِ الله في مشيئتِه وتقديره

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ أخبر تعالى أنّ مآلَ المستكبرين أنّهم سيقولون هذه المقولةَ، فهي لامُ العاقبةِ والصّيرورةِ[6]؛ أي: وما كانت هي الباعثَ على الاختبار، ولكن كانت عاقبةَ الاختبار ونتيجتَه[7]، كقول أبي العتاهية:

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/67، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/28، والخازن، لباب التّأويل: 2/116، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/52.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2515.
(5) الواحديّ، البسيط: 8/172.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2515.

لِدوا للموت، وابنوا للخَرابِ[1].

والمعنى: فَعَلْنا هذا ليؤولَ أمرُهم إلى أن يقولوا في شأن الضّعفاء مِنَ المؤمنين: أهؤلاء العبيدُ والفقراءُ خصّهم الله بهذه النّعمة العظيمةِ من جُملتِنا؟[2]، فكان في قولهم هذا دلالةٌ على طبائعِهمُ المستكبِرةِ، وأنّ الله سبحانه قَدَّر حرمانَهم منَ الاهتداء بسبب هذه الطّبيعة الفاسدةِ.

الغرضُ منَ الاستفهامِ:

التّلويحُ بقصدِ الاستخفافِ والتّهَكّمِ بمن لو أقسمَ على الله لأبرّه

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ الاستفهامُ ليس للسّؤال على وجه الحقيقة، ولكن أظهروا استهزاءَهم واستخفافَهم بفقراء المسلمين[3]؛ إنكارًا لأن يكونَ أمثالُهم على الحقّ، وممنونًا عليهم من بينهم، احتقارًا لهم واستصغارًا، كقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾[4].

نكتةُ التّعريف باسمِ الإشارةِ:

سَوْقُ دلالةِ الإشارةِ لترسيخِ الاحتقارِ البادِي منَ الاستفهامِ بالعبارةِ

وكذلك تعريفُ هؤلاء الفقراء باسم الإشارة (هؤلاء)، مُستنكفين أن يخاطبوهم بالضّمير، فلم يقولوا: (أهم، أأنتم)؛ لأنّهم لا يرونَهم أَكْفاءَ بمخاطبتِهم بالضّمير، فاسمُ الإشارة مُستعمَلٌ في التّحقير، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 36]"[5]، فكأنّهم كما طالبوا بطردِهم حتّى لا يرَوهم في المجلس ذكروهم بالإشارة احتقارًا لهم.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/647، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/149.
وعجز البيت: فَكُلّكُمْ يَصيرُ إلى تَبابِ. يُنظر: ديوان أبي العتاهية، ص: 15.

(2) الواحديّ، البسيط: 8/172، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/136.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/34، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/129.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254.

دلالةُ إردافِ الاستفهامِ بالفعلِ ﴿مَنَّ﴾:

استَبعادُهم مِنّة الله تعالى، وإنكارُهم وقوعَها بُغضًا، واستكبارًا

ومِثْلُ ذلك التّعبيرُ بالفعل ﴿مَنَّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ ذِكْرُ المنّ بعد الاستفهام الإنكاريّ يدلُّ على أنّهم قالوا ذلك على وجه الاستبعاد[1]، وغرضُهم إنكارُ وقوعِ المنِّ أصلًا[2]، وفيه ما فيه منَ الدّلالة على تلك المشاعرِ البغيضةِ الّتي تآزرت عدّةُ وسائلَ تعبيريّةٍ للدّلالة عليها، وهي تدلُّ في مُجملِها على استكبار هؤلاء المشركين ونظراتِهم الطّبقيّةِ المُستعليةِ لفقراء المسلمين، وهي من مساوئ الجاهلية الّتي قضى عليها الإسلامُ.

تقديمُ المسنَدِ إليه على الفعلِ:

يفيدُ التّقديمُ التّقويةَ، وإفادتُه للتّخصيصِ أوقعُ

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ جملةٌ اسميّةٌ بتقديم المسنَد إليه ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ على المسنَد ﴿مَنَّ﴾ وهو فعلٌ، ولم يقل: (أمنّ الله على هؤلاء) فقدّم اسمَ الإشارة، وأسند إليه الفعلَ على أنّه خبر؛ تنويهًا بتقويّة الخبر[3]. وقد يفيدُ التّقديمُ التّخصيصَ، والمعنى: أهؤلاء خصوصًا مَنَّ عليهم مِن بيننا؟ وهذا أوقعُ في الدَّلالة على النّظرة المُستعليةِ، ويرشّحُه الظّرفُ ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، فإنّه يعني نفيَ المنّة عنهم في مقابل إثباتِها لهؤلاء الفقراء، وشأنُ كلِّ تخصيص أن يتضمّنَ إثباتًا ونفيًا، وقد جاء هذا في سياق الاستفهام الإنكاريِّ التّعجّبيِّ بمعنى: أخصَّ اللّه هؤلاء بالهداية رغمَ فقرِهم وغِناكم؟!

دلالةُ التّعبير بالظّرفِ:

سيقَ الظّرفُ للدّلالةِ عن تعجُّبِهم من تفضيلِ الفقراءِ عليهم بمعرفة الحقِّ دونَهم

قوله جلّ شأنُه: ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ كان الكلامُ يصحُّ من غير التّقييد بالظّرف ﴿بَيۡنِنَآۗ﴾، ولكنّهم عبّروا به لبيان أنّ المنَّ على الفقراء لم يكن موضعَ إنكارٍ لذاتِه، ولكنّهم أنكروه بالنّظرِ إلى أنفسهم، واعتقادِ أفضليّتِهم، وهذا

---

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/262.

(2) الواحديّ، البسيط: 8/173، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/350.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254.

يبيّنُ حسدَهم واستكبارَهم. و(بين) ظرفٌ يدلّ على التّوسط، فالمعنى ميَّزهم علينا[1]، مختارًا لهم من وسطِنا، فكيف يُظَنُّ في زعمهم أنّ اللّه يمنُّ على فقراءَ وعبيدٍ، ويتركُ سادةَ مكّةَ؟[2]، وهذا يدلّ على أنّ الظّرفَ ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ يرشّحُ لدلالة تقديمِ المسنَد إليه على الاختصاص.

الغرضُ منَ الاستفهام في: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

ربُّ العزّةِ أعلمُ بمَن يستحقُّ الهدايةَ، ومَن يستحقُّ الضّلالةَ

الاستفهامُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من ربّ العزّة تقريرٌ لعباده بأنّه أعلمُ بمَن يستحقُّ الهدايةَ ومَن لا يستحقُّ، والتّعبيرُ بالشّاكرين إشارةٌ إلى أنّ الامتنانَ بالإيمان إنّما هو لِمَنْ عرفَ حقَّ المُنعِم[3]، والمعنى: أنّ اللّه يعلمُ مَن يشكرُ فيهديه للإسلام، ومَن يجحَدُ نِعَمَهُ فيُبقيه في ضلالِه.

سرُّ إيثارِ الاستفهامِ المَجازيِّ على الإخبارِ:

يُقرّرُ سُبحانه علمَه باستحقاقِ المنونِ عليهم، ويُنكرُ على المشركين إنكارَهم

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ خرج الاستفهامُ إلى غرضٍ مجازيٍّ؛ فإنّ اللّه تعالى لا يَسألُ على الحقيقة، فهو استفهامٌ لتقرير علمِه البالغِ؛ أي: اللّه أعلمُ بمَن يشكرُ فيضعُ فيه هدايتَه دون مَن يكفرُ فلا يهديه[4]، وهو إنكارٌ لإنكارهم، والمعنى: أنّ مرجعَ الاستحقاق لنِعم اللّه سبحانه هو الشّكرُ، وله جميعُ الأمر، فلا اعتراضَ عليه[5].

ثمّ إنّ الاستفهامَ التّقريريَّ أبلغُ منَ الإخبار؛ لأنّ التّقريرَ فيه إلزامٌ، وهو أبلغُ في إثبات المعنى؛ إذ فيه اعترافٌ مِنَ السّامع بما يقدّمُ، وليس كذلك الإخبارُ، "فجاء إعلامُهم بذلك في لفظ التّقرير؛ إذ ذلك بيّنٌ لا تمكنُهم فيه معاندةٌ"[6].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/648.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254 - 256
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والواحديّ، البسيط: 8/173.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/149.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.

نكتةُ وضْعِ الظّاهر موضعَ المُضمَر:

في ذكر الاسمِ الجليلِ تفخيمٌ مَحسُوسٌ، وتربيةٌ للمهابةِ في النّفوسِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ عبّر بالاسمِ الظّاهر، ولم يقل: (ألستُ بأعلم) باعتبارِ أنّه قال في صدر الآية: ﴿فَتَنَّا﴾ بضميرِ المتكلّم؛ وإنّما عدلَ عنِ الإضمار إلى الإظهار؛ التفاتًا منَ المتكلّم إلى الغَيبة[1]؛ وذلك لتربية المهابةِ بذكر اسمِ اللّه الجليلِ في مقام الرّدّ على استكبارِهم تعظيمًا لعلمِه بخفايا القلوب.

علّةُ إيثارِ الوصْفِ بالشّاكرين:

آثـرَ البَيانُ القرآنيُّ وصفَهم بالشّكر لتقدُّمِ ذكرِ الامتنان، والشّكرُ يُناسبُ الامتنانَ بالنّعمةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ آثرَ التّعبيرَ بصِفة الشّاكرين دون غيرها؛ لأنّ المشركين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؛ أي: أنعمَ عليهم، فناسبَ ذكرُ الامتنان لفظَ الشُّكر[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه سبحانه يَمُنُّ بنِعمه وهُداه على مَن يعرفُ حقَّ المُنعِم، فيقبلُ عليه بالشّكر والعرفان، وعِلمُ اللّه سبحانه بالشّاكرين يستلزمُ توفيقَهم، والإنعامَ عليهم، والتّعبيرُ عنِ العلم بصيغة التّفضيل (أعلم) إشارةٌ إلى أنّه خيرُ مَن يجزي ويكافئُ بأفضلِ العطاء والخير والإنعام، وناسبَه التّعبيرُ باسم الفاعل (الشّاكرين) الدّالِّ على ثبوت الشّكر واستمرارِه في كلّ الأحوال، وهذا مِن تلاؤمِ الصّيَغ لتوافقَ دلالاتِها.

دلالةُ ذِكْرِ الشُّكرِ بعد إنكارِ المشركين:

دلّ ذكرُ الشُّكرِ بعدَ إنكارِ المشركين أنّ الشّكرَ سببٌ للامتنان بالإيمان

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنّ أولئك الضّعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم اللّه تعالى والتّوفيقِ للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك، وفيه تعريضٌ بالمستكبرين[3]، والمعنى: أنّ مرجعَ الاستحقاق لنِعم اللّه سبحانه هو الشّكرُ[4]، وأنّ اللّه ﷻ حَرَمَ المشركين من تلك النّعمةِ العظيمةِ بسبب جحودِهم وإعراضِهم.

(1) السّيوطي، قطف الأزهار: 2/882.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/137، وملاّ حويش، بيان المعاني: 3/347.

الفروقُ اللّغويّةُ:

(الفتنة) و(الابتلاء):

الفـتـنـة فيـهـا تمييزٌ، والابتلاء فيه تمحيص

الابتلاءُ في الأَصل: التّكليفُ بالأمر الشّاقّ[1]، ولا يكونُ إلّا بتحميل المكاره[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنسان منَ الخَير والشَّرّ يُقال: فتنتُ الذَّهَب بالنّار، لتعلمَ أَنّه خالصٌ أَو مشوبٌ[3]، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنّها مشتقّةٌ منَ الحرق بالنّار، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13][4]، وإنّما آثرَ أن يعبّرَ عنِ الاختبار بالفتنة في هذا المَوضِع؛ لأنّ فتنةَ النّاس بعُلوّ المكانةِ في الدّنيا أو في الآخرة، فيها شدّةٌ على النّفس؛ لشدّةِ طلبِ النّاس ذلك، وحرصِهم عليه، ولأنّ التّعبيرَ بالفَتن أنسبُ في مقام التّمييز بين مَنْ شَكَرَ فمنَّ اللّه عليه، ومَن جَحَدَ فحرمَه.

(المنّ) و(الإنعام):

المـنّـةُ نـعـمـةٌ مختصّةٌ لمُعيّن

المِنَّةُ: النّعمةُ الثّقيلةُ، منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قولُه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164][5]، وهي النِّعمَةُ المقطوعةُ من جوانبها كأَنَّها قِطعَةٌ، وأصلُ الكلمة القطعُ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ [فصّلت: 8، الانشقاق: 25]، والنّعمةُ عامّةٌ[6].

فإيثارُ لفظ المنّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؛ لكون الإنعام بالإيمان أثقلَ نعمةٍ، وأنّها بلا سببٍ منهم، فهو منّةٌ عليهم بلا تَعبٍ ولا نَصَب[7].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 216.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.

(5) الرّاغب، المفردات: (منن).

(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 197.

(7) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منّ)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (منّ).

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القَصدُ إلى رَدِّ الاعتبارِ بعد النّهي عن طَرْدِ المستضعَفين

بعد أن نهى سبحانه نبيَّه ﷺ عن طرد المستضعَفين من حضرته، استمالةً للكبراء من قومه، في قوله قبْلُ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 52]، أمَره بمقابلتِهم بالإكرام، والإعظام، والتّبجيل، والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: (سلم) السَّلامُ: السَّلامَةُ والبراءةُ منَ العيوب، والعاهة، والأذى[2]، ومعنى السّلامِ عليكم: أمّنكم منَ العذاب في الدّنيا والآخرة[3]، وهو كلمةٌ للأمان قالتها العربُ عند لقاء المرء بغيره دلالةً على أنّه مُسالمٌ لا محاربٌ؛ ليأمنَ أحدُهما الآخر[4].

2) ﴿كَتَبَ﴾: (كتب) يدلُّ على الإثبات والإيجابِ والفرضِ. الكتاب: الفَرضُ والحُكمُ والقَدَرُ[5]، وذلك أنّ الشّيءَ إذا أُريد توكيدُ وجوبه عُبِّر عنه بالكتابة، قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][6]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ أي: أوجبَها[7].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/339، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/138.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(6) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.

3) ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾: (جهل) أصلٌ يدلّ على خلاف العلم[1]، والجهالةُ: أن تفعل فعلًا بخلاف ما حقُّه أن يُفعَل[2]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النّساء: 17]؛ أي: عملَ سوءًا عن حماقةٍ مِن نفسِه وسفاهةٍ[3].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يقول اللّه جلّ شأنُه لنبيّه ﷺ: إذا جاءك المؤمنون، فحَيِّهم، ورحِّب بهم، ولَقِّهم منك تحيّةً وسلامًا، وبشّرهم بما يُنشّطُ عزائمَهم وهممَهم من رحمة اللّه، وسَعة جودِه وإحسانِه، وحُثَّهم على التّوبة منَ المعاصي؛ لينالوا مغفرةَ ربّهم وجودَه، فلا بدّ من إصلاح العمل بعد ترك الذّنوب، فإذا وُجد ذلك كلُّه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[4]، والجمهورُ على أنّها نزلت في الّذين نهى اللّه تعالى عن طردِهم[5]، والأقربُ أن تُحملَ هذه الآيةُ على عمومِها، فكلُّ مَن آمن باللّه تعالى دخل تحت هذا التّشريف[6].

مِن صُور التّشريفِ شُمولُ اللهِ مَن تابَ مِنَ المعاصي بواسعِ رحمتِه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصلِ في الآية:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرام الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، فهمُ المرادُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[7]، وهذا العطفُ يشير إلى قصدِ إفشال سعْيِ المشركين لإهانة ضعفاءِ المسلمين، ومقابلته

مَن يديمُ ذكرَ اللهِ غداةً وعشيّةً يستحقُّ الإكرامَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل)، والجوهريّ، الصّحاح: (جهل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جهل)، والرّاغب، المفردات: (جهل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526 - 527، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/435.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/53.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/256، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/137.

بإكرامهم، والحفاوةِ بهم؛ إذ لم يكتفِ بالنّهي عن طردهم، بل زاد عليه الأمرَ بإكرامهم.

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَإِذَا﴾:

مِن أماراتِ التّشريفِ إظهارُ الأُنسِ بالمؤمنين، وحُسنِ التّرحيبِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَإِذَا﴾ دالّةٌ على الظّرفيّةِ الزّمانيّةِ؛ أي: قلْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وقتَ مجيئهم، وأوقِعْ هذا القولَ كلَّه في وقت مجيئهم إليك[1]؛ لإشعارهم بالأُنس والتّرحيب وحسنِ الاستقبال لإزالة الوحشةِ، فيكونُ ذلك كلُّه في وقت مجيئِهم وإقبالِهم على رسول اللّه ﷺ ليكونَ أوقعَ في الدّلالة على التّرحيب، والأصلُ في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أن تُقال ممّن يجيءُ لرسول اللّه ﷺ، فأُمر أن يقولَها هو عند مجيئِهم على سبيل مبادرتِهم بالتّحيّة منه؛ ليكونَ أبلغَ في التّرحيب بهم، والإشعارِ بالمحبّة والمودّة الّتي تليقُ بالمؤمنين الشّاكرين.

فائدةُ التّعريفِ بالاسمِ الموصول:

التّنبيهُ بالصّلةِ على عِلّةِ التّكريمِ، تَشوُّفًا إلى تعميمِ الحُكمِ ليشملَ غيرَهم

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ مَن نُهي عن طردهم[2]، عبّرَ عنهم بالاسم الدّالِّ على العموم من باب العامّ أُريدَ به الخاصُّ[3]؛ زيادةً في إكرامهم، فوصفَهم بالإيمان بما أنزل اللّه واتّباعِ هداه بعد ما وصفَهم بالمواظبة على العبادة، والشّكرِ[4]. والتّعريفُ بالاسم الموصول للتّنبيه بصلتِه على الصّفة الّتي نالوا بها التّكريمَ والتّشريفَ تعميمًا للحُكم ليشملَ غيرَهم، وعبّر عنهم بالموصول دون الوصف، فلم يقل: (وإذا جاءك المؤمنون)؛ لأنّه أراد المذكورين آنفًا، وهم مَن نُهي عن طردِهم[5].

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/648.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/262.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.

سرُّ تقديمِ ذكرِ العبادة على الإيمان:

قدّمَ ذكرَ العبادةِ على الإيمان؛ لأنّها علّةٌ للنّهي عنِ الطّردِ المذكورِ أوّلًا

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ ذكرَ وصْفَهم بالإيمان بعد وصْفِهم بالعبادة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ فقدّمَ الوصفَ بالعبادة، وأخّر الوصفَ بالإيمان مع أنّه مَنشأُ صفةِ العبادة؛ لأنّ "مدار الوعد بالرّحمة هو الإيمانُ، كما أنّ مَناطَ النّهي عنِ الطّرد فيما سبق هو المداومةُ على العبادة"[1].

وقد وصفَهم بالإيمان بآيات اللّه ﷻ بعد وصْفِهم بالمداومة على عبادته تعالى[2]؛ تنبيهًا ومدحًا لهم بأنّهم جامعون لفضيلتَي العلمِ والعملِ[3].

دلالةُ الباءِ على السّببيّةِ:

الآياتُ هي سببُ إيمانِ المؤمنين، وعلّةُ إقامةِ الحُجّةِ على الكافرين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عبّر بالباء السّببيّة؛ لبيان أنّهم إنّما آمنوا به بسبب نزولِ الآيات، والنّظرِ فيها، والتّفكّرِ فيها[4]، وهي الآياتُ الّتي يسمعُها الجميعُ، فليس هناك سببٌ اختصّهم اللّه تعالى به دون غيرهم، إقامةً للحُجّة على النّاس.

توجيهُ إضافةِ الآيات إلى ضمير المُتكلّم المُعظِّم نفسَه:

فخّمَ الخطابُ الآياتِ؛ لبيان جدارتِها لأن تكونَ سببًا في الإيمان

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أضاف الآياتِ إلى ضمير الجمع المعبِّر عنِ التّعظيم؛ إشارةً إلى أنّهم آمنوا بالآيات الّتي هي جديرةٌ بالإيمان بها؛ لِما لها منَ العظمة بانتسابها إلى اللّه تعالى[5]، فاللّه تعالى هو الّذي أنزلها، وهو الّذي يعلم أنّها في غاية الكمال لإحداث الإيمان لِمَن آثرَ الهداية.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والآلوسّي، روح المعاني: 4/154، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/164، والآلوسّي، روح المعاني: 4/154.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/154.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130.

فائدةُ الأمر بالبدءِ بالسّلام:

بدءُ السّلامِ تشريفٌ، وتبشيرٌ، وإكرامٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أُمر ﷺ بابتداء السّلام عليهم؛ تشريفًا، وإكرامًا لهم، وتطييبًا لقلوبهم، وتبشيرًا بحصول الكرامة لهم في الدّارين[1].

وفيه تبليغٌ عنِ اللّه تعالى، كما تقولُ لصاحبك: إذا رأيت فلانًا فبلِّغه سلامي؛ والمعنى: أنّ اللّه يسلّمُ عليكم، وفيه تشريفٌ لهم، وتعظيمٌ، وتكرمةٌ لهم لمضادّة طلب المشركين طرْدَهم[2].

إيثارُ الرّفعِ في لفظِ السَّلامِ:

القَصدُ إلى التّبشيرِ بثباتِ الإيمانِ على الدّوامِ بإيثارِ الرّفعِ في لفظِ السَّلامِ

وآثرَ الرّفع على النّصب، فلم يقل: (قل: سلامًا عليكم)؛ لأنّ الرّفعَ يدلّ على أنّه جُملة اسميّةٌ، بخلاف النّصب فهو جملةٌ فعليّةٌ؛ أي: أُسلِّم سلامًا، فالتّعبيرُ بالرّفع أبلغُ منَ التّعبير بالنّصب؛ لاقتضاء الاسمِ الثّبوتَ بخلاف الفعل[3]؛ أي: أنّهم في سلام دائم لا ينقطعُ؛ وهذه بشارةٌ بثباتهم على إيمانهم بما أنزل اللّهُ ثباتًا يجعلُهم في سلام دائم.

فائدةُ التّنكيرِ في لفظِ (سلامٍ):

أفادَ التّنكيرُ العمومَ والشّمولَ والتّعظيمَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عبّر بالنّكرة في التّحيّة ولم يقُل: (السّلام عليكم)؛ لأنّه لو قاله بصيغة التّعريف لدلّ على التّحيّة المعهودةِ بينهم، فنكّرها لتشملَ الدّلالةَ على التّحيّة، مع عمومِها منه ومنَ اللّه تعالى، ولتشملَ سلامًا من جميع مصائبِ الدّنيا، فالتّنكيرُ للعموم، والشّمولِ، والتّعظيمِ[4].

نُكتةُ الابتداءِ بالنّكِرة:

المبادرةُ بتنكيرِ السَّلامِ في الابتداءِ لضَربٍ مِنَ الطُّمَأنينَةِ والتَّفاؤُلِ

قدّمَ المبتدأ وهو نكرةٌ على الخبر، فلم يقُل: (عليكم سلامٌ)؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/137.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/159، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/53.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/159، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130.

لعناية القادم بإدخال الطّمأنينة في نفس المقدوم عليه، بأنّه طارقُ خيرٍ لا طارقَ شرّ، فهو منَ التّقديم لضربٍ منَ التّفاؤل[1].

سِرُّ تقييدِ السّلامِ بالعِلّيّةِ:

عِلّيّة السّلام إيحاءٌ بالأمان

ويدلّ الاستعلاءُ في التّحيّة بقوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ على تمكّن السّلام والأمان منَ السّامع، بتنزُّله من علٍ، رحماتٍ، وأفياءَ طمأنةٍ، وغيثَ سكينةٍ؛ نفيًا لأسباب الخوف.

إيثارُ الفصْلِ على الوصل:

مِن عطايا المنّانِ تعاقُبُ المُبشِّراتِ لقصدِ التّكثير

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ آثَرَ الفصلَ على الوصل في الجملة، ولم يَعطِفْ على جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ مع أنّه محكيٌّ بالقول أيضًا؛ إشارةً إلى استقلال مضمون الجُملتين بالبِشارة، فيبشّرُهم بالسّلامة منَ المكاره، ويُبشِّرُهم بشارةً أخرى بسَعة رحمتِه تعالى ومغفرته[2]، ويحتملُ أن يكون تركَ العطفَ؛ لأنّ الجملة الثّانية استئنافٌ بيانيٌّ، وذلك على المعنى الثّاني لـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وهو سلامُ اللّه عليهم، ممّا يُثير في النّفس استشرافًا لمعرفة كُنْه ذلك السّلامِ وحقيقتِه، فأسعفتِ الجملةُ التّالية بالجواب المبين عن ذلك السّلام، وأنّه رحمةٌ منَ اللّه مؤكّدةٌ.

نُكتةُ إيجابِ الرّحمةِ:

إيجابُ الرَّحْمَةِ على معهودِ خطابِ الأُمّيّين

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أخبرَ تعالى أنّه أوجبَ الرّحمة إيجابًا مؤكّدًا، واللّه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، ولكنّه خاطب الخلقَ بما يعقلون، وهم يعقلون أنّ توكيد الشّيء إنّما يُحفظُ بالكتاب[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/155، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507.

(3) الواحديّ، البسيط: 8/176، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/435، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2517.

لا واسطةَ بين اللهِ وعبادِه؛ وإيجابُ الرّحمةِ تفضّلٌ منه وإحسانٌ

توجيهُ تعلُّقِ إيجابِ الرّحمةِ على نفسِه:

وتعلّقُ إيجابِ الرّحمة بشِبْه الجملة: ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾؛ لبيان أنّه أوجبها على ذاته المقدّسة تفضّلًا وإحسانًا منه لا بتوسّط شيءٍ خارجيّ، إيجابًا لإكرامه، ولا يستحقُّ بتركه الذّمَّ[1].

رحمةُ اللهِ سُنّةٌ مِن سُننه يتصرّفُ بها كيف يشاءُ

أُمر أن يقول لهم ذلك تبشيرًا لهم بسَعةِ رحمة اللّه تعالى، وتفريحًا لقلوبهم[2]، ولبيان أنّ رحمة اللّه لا تتعلّقُ بفعل أحدٍ، وأنّه تعالى جعلَها كسُنّةٍ مِن سننه الّتي لا تتبدّل تطمينًا لهم ورحمةً بهم، أمّا علّةُ الإيجاب المفهومِ من لفظ الكتابة فلِبيان أنّه أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرّاحمين، وأنّه يتصرَّف في عباده كيف يشاء.

علّةُ إسنادِ الكتابةِ للرّبِّ سُبحانه:

مِن بشاراتِه تلطّفًا بعبادِه إعمامُ الرّحمةِ

وقد أسندَ الكتابةَ إلى لفظ الرّبوبيّة إشارةً إلى أنّ مَن أوجبَها هو النّاظرُ لكم في مصالحِكم، والّذي يُربّيكم ويحفُّكم برحمته، وهذا تبشيرٌ بعموم الرّحمة، وإشعارٌ بعلّة الحكم[3]؛ وأضاف لفظَ الرّبوبيّة إلى ضميرِهم لإظهار اللُّطفِ بهم[4].

دلالةُ القراءةِ في (إنّه) و(أنّه):

قراءةُ الكسر استئنافٌ لتفسيرِ الرّحمةِ، وقراءةُ الفتح على الإبدالِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ قرأ ابنُ عامر وعاصمٌ ويعقوبُ بفتح الهمزة فيهما؛ وافقهم المدنيان في الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما[5]، وتوجيهُ الكسر أنّه استئنافٌ لتفسير الرّحمة[6]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ لجواب سؤالٍ متوقَّعٍ عن كيفيّة الرّحمة، فأجيب بأنّه بمغفرة ذنوبهم[7].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/155.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/155.
(5) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/258.

وتوجيهُ فتح الهمزة على أنّه بدلُ اشتمالٍ منَ الرّحمة[1]؛ لأنّ الرّحمة العامّةَ تشتمل على غفرانِ ذنْبِ مَن عملَ ذنبًا ثمّ تابَ وأصلح، فأبدل المغفرةَ منَ الرّحمة، ولأنّ البدلَ يأخذ حكمَ المبْدَل منه فدلّ هذا على أنّه سبحانه أوجبَ على نفسه المغفرةَ تكرّمًا منه، وعطفًا على عباده المؤمنين.

العُدولُ عنِ الحالِ الصّفةِ إلى الحال شبْهِ الجُملةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ الجارّ والمجرور ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أفاد بيان الحال؛ أي: وهو جاهل[2]، وآثر التّعبير عن حالة الجهل بالجارّ والمجرور، لم يقل (جاهلًا)؛ لما في الباء من معنى الإلصاق؛ لبيان أنّه ملتصقٌ بالجهل؛ أي: عملَ الذّنبَ ملتبسًا بجهالة[3]، وهذا أوقعُ في التماس العذر، واستحقاقِ المغفرة والرّحمة.

القَصدُ إلى التماسِ الأعذارِ بإلصاقِ المجرور بالجارّ

إيثارُ التّنكيرِ في (جهالة)، وفائدةُ التّقييدِ بها:

آثرَ التَّعبيرَ بصيغة التّنكير في قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ لجَعلِها مطلقةً غيرَ مقيَّدة؛ للمبالغة، فسواءً أكانت جهالةً ضئيلةً أم كبيرةً فإنّها مُعتبرةٌ في مغفرة الذّنوب[4]. وقيّدَ ارتكابَ السّوء بالجهل؛ "للإيذان بأنّ المؤمنَ لا يباشرُ ما يعلمُ أنّه يؤدّي إلى الضّرر"[5]؛ لأنّ المؤمن لا يأتي السّيّئاتِ إلّا عن غلبَةِ هواهُ رشدَه[6]، ولا يفعلُ الذّنبَ عامدًا.

مِن صُورِ تشريفِ المؤمنِ، تنزيهُهُ بمطلقِ الجهالةِ عن قصديّةِ الذَّنبِ

إيثارُ عطْفِ التّوبةِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ آثرَ التّعبيرَ بحرف العطف

مِن رحمة الله تعالى قبولُ التّوبةِ، وإن تأخّرتْ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل، 2/164، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/258.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/107.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140 - 141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/360، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/151.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.

المُشعرِ بالتّراخي، وطولِ الفاصل بين المتعاطفَين؛ للدّلالة على الرّجوع بالنّدم والإقلاعِ، وإن طال الزّمان[1]، وهذا أدلُّ على سَعة الرّحمة بقَبول التّوبة، فهو لا يقتضي المسارعةَ بالتّوبة.

علّةُ عطْفِ الإصلاحِ على التّوبةِ:

دَيمومةُ الإصلاحِ بالتّوبة شرطُ قَبولها

وعطفَ الإصلاحَ على التّوبة للدّلالة على أنّ استدامةَ الإصلاح في الشّيءِ الّذي تاب منه شرطٌ لقَبول التّوبة[2]، واشتراطُ الإصلاح بعد ذكر التّوبة في سياق الرّحمة: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾، يدلُّ على تعظيم شرطِ الإصلاح.

سِرُّ التّعبيرِ بصِيغةِ المبالغةِ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

رحمةُ اللّه لا يَحدُّها حدٌّ، ومغفرتُه لا يستغرقُها عدٌّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عبّر بصيغة المبالغة ﴿غَفُورٞ﴾، للدّلالة على أنّه بالغُ السَّتر والمحْو لذنوب عبادِه[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الذّنوبَ والسّيّئاتِ، وإن عظُمت، فإنّ مغفرة اللّه أعظمُ ورحمتَه أوسعُ من تلك الذّنوب، وذلك عند حصول شروطِ استحقاقِ تلك المغفرةِ العظيمةِ والرّحمة الواسعةِ، وهي أن يكون قد دخل في زُمرة المؤمنين كما يدلُّ قولُه: ﴿مِنكُمۡ﴾، وأن يكون الذّنبُ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾، وأن يتوب، ويؤكّدَ على صدق التّوبة بالعمل الصّالح: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾.

الفروقُ اللّغويّةُ:

(السّلام) و(التّحيّة):

التّحيّة أعمُّ منَ السّلام؛ فيدخل فيها: حيّاك اللّه، ولكَ البشرى، ولقيتَ الخيرَ، ولا يُقال لذلك سلامٌ، إنّما السّلامُ قولُك:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.

سلامٌ عليك[1]، والتّحيّةُ: (حيّاك اللّهُ) مشتقّةٌ منَ الحياة. وقولُ المصلّي في التَّشَهُّد: التّحيّاتُ للّه، معناه: البقاءُ للّه[2]، فالتّحيّة (حيّاك اللّه) هي دعاء، بمعنى: أبقاك اللّهُ، وعَمَّرك اللّهُ[3].

وأمّا التّحيّة بـ (السّلام عليكم) فمعناها: أمّنكم منَ العذاب، والعاهةِ، والأذَى[4].

فقولُه جلّ شأنُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ آثرَ لفظَ السّلام؛ لأنّه أراد السّلامةَ والتّأمينَ لهم؛ فلمّا طلب الكافرون إبعادَهم منَ المجلس أمّنهم اللّه تعالى بخُذلان مسعَى الكافرين، فكان اختيارُ لفظ السّلامة أدقَّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 59.

(2) الخليل، العين: (حيو).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حيا).

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527، والجوهريّ، الصّحاح: (سلم).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الآيات بيانٌ لسبيلِ المجرمينَ

لَمّا بيّن في سابق الآيات تفصيلَ كلّ الأحوال ذكر هنا تفصيلَ الآيات لتَبْيين السُّبُلِ، فهذه الآية تُجمِلُ في إشارةٍ موجَزةٍ ما سبق من دلائل عظمةِ الخالق - الّتي تستوجبُ الثّناءَ عليه - ، ومقابلةِ الّذين كفروا هذا بالنّكران، وتشيرُ في الوقت نفسِه إلى سبيل المجرمين في التّكذيب كما بيّنتْه الآيات السّابقة في السورة[1]؛ تمهيدًا لما بعدها من تفصيل سبيلِ المؤمنين الموحّدين ابتداءً من قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 56].

ولمّا أتى في هذه السّورة من عجائب التّفاصيل لجميع الأحوال متضمِّنةً واضحَ الدّلالات أعقبَه بذكر الآيات الّتي بتفصيلها يتّضحُ سبيلُ المصلحين[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: (فصلَ) أصلٌ يدلُّ على تمييز الشّيءِ منَ الشّيء، وإبانتِه عنه[3]. التَّفصيلُ: التّبيينُ، والتّمييز بين المعاني الْمُلتبَسة[4]، وتفصيلُ الآيات تبيينُها، وشرحُها، وإظهارُها[5]، لّما كانتِ الأشياءُ المختلطةُ، إذا فُصلت يتبيّن بعضُها من بعض، أُطلق التّفصيلُ على التّبيين بعلاقة اللّزوم[6].

(1) كما في الآيات: 4، 20، 31، 39، 49.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فصل).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/436.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/60.

5) ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾: (بَيَن) أصلٌ يدلّ على البُعد والانكشاف، وبان الشّيءُ وأبان وبَيّن واستبان بِمَعنًى واحد: اتّضح وانكشف[1]، والمُستبِنُ بمَعنى المُبِين[2]، ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: لتظهر سبيلُ المجرمين وتتّضحَ[3].

6) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: (جرمَ) أصل الجَرْم: قطعُ الثّمرة عنِ الشّجر، واستُعير لكلّ اكتسابٍ مكروهٍ[4]، والجُرم والجريمة: الذّنْب[5]، والإجرام: ارتكابُ الجريمة، والجريمة: الجناية[6]، المجرمون: المطبوعُ على قلوبهم، لا يُرجى إسلامُهم[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في اتّضاحِ سبيلِ المجرم عِبرةٌ، فيَتَوجَّب تجنّبُها

يخبرُ اللّه تعالى النّبيَّ ﷺ: كما بينّا لك ما ذُكر نبيّنُ أدلّتَنا ونوضّحُها، ونميّزُ بين طريقَيِ الهدى والضّلال؛ ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبيّنَ الحقُّ الّذي ينبغي سلوكُه، ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الموصلةُ إلى سخط اللّه وعذابِه، فإنّ سبيل المجرمين إذا استبانت واتّضحت أمكن اجتنابُها، والبعدُ منها[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّشبيهِ في الآية:

التّمييزُ بين السُّبلِ فرعٌ عن تفصيل أحوالِ السّالكين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ شبّه تفصيلَ الآيات

---

(1) الخليل، العين: (بين)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بون، بين).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/404.
(4) الرّاغب، المفردات: (جرم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم)، والجوهريّ، الصّحاح: (جرم).
(6) الجرجانّي، درج الدّرر: 1/611.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29.
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 58، ومجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.

الواردة بشأن التّمييز بين سبيل الحقّ وسبيل الباطل بتفصيلِ الآيات الواردةِ في هذه السّورة بشأن الإيمان والتّوحيد، يعني: وكما فصّلنا لك في هذه السّورة دلائلَنا على صحّة التّوحيد، وإبطالِ ما هم عليه منَ الشّرك، كذلك نبيّن لك أدلّتَنا في كلّ حقٍّ ينكرُه أهلُ الباطل[1]، وذلك ليكون أهلُ الحقّ على بيِّنةٍ ونورٍ، فلا تلتبسَ عليهم ألاعيبُ أهلِ الباطل، وخداعُهم، ومحاولاتُهم للإضلال: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

بيانُ المشارِ إليه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

المُشارُ إليه ما وردَ في السّورةِ منَ التّفصيلِ في أصول الدِّين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المشار إليه هو تفصيلُ الآيات الواردةِ في السّورة بشأن النّبوّة والتّوحيد والبعث[2]، فاسمُ الإشارة (ذلك) يشير "إلى التّفصيل الواقعِ في هذه السّورة، أي: ومثلُ ذلك التّفصيلِ البيّن"[3].

إيثارُ التّعبير باسمِ الإشارة الدّالّ على البُعد:

آثرَ الخطابُ التّعبيرَ بالبُعد دلالةً على التّناهي في عُلوّ رُتبة البيانِ، فلا بيانَ بعدَه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ آثرَ التّعبيرَ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد؛ إشارةً إلى علوّ رُتبة البيان، والمعنى: نفصّلُ الآياتِ تفصيلًا مثلَ هذا التّفصيل الواضحِ البيّنِ، الّذي لا تفصيلَ فوقَه، فيحصلُ به المرادُ بيّنًا[4].

سرُّ التّعبير بالفعلِ المضارع:

دَيمومةُ رحمتِه تستلزمُ التّفصيلَ الدّائمَ المتجدّدَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عبّر بالفعل المضارع عن تفصيل الآيات للدّلالة على الاستمرار، والتّجدّدِ، وتناولِ الماضي والمستقبل[5]، فهو تفصيلٌ لا ينقطعُ في سائر سور القرآن.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/117، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/436، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2518، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/117، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/883.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/260، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/508، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/70، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/55.

دلالةُ اللّامِ في فعلِ الإبانةِ:

غايةُ تفصيل الآيات هي تبيينُ السُّبلِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تدلّ اللّام على التّعليل، فسببُ تبيينِ الآيات وتفصيلِها هو التّمييز بين سبيلَي الحقّ والباطل[1].

بلاغةُ الإظهارِ مَوضِعَ الإضمار:

إجراء وصْف الإجرام عليهم، ولتعميمِ الحُكمِ على كلِّ مَنِ اتّصفَ بالصّفة

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وضعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَر فلم يقُل: (ولتستبين سبيلهم)؛ تنصيصًا على أنّهم هم المرادُ، ولإجراء وصْفِ الإجرام عليهم[2]، ولو قال: (سبيلهم) لفات إظهارُ معنى الإجرام، وبيانِ اتّصافهم به مع تعميم الإجرام لكلّ مَنِ اتّصف بصفاتهم، وسلك سبيلَهم.

بلاغةُ العطْفِ في جملةِ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾:

الجملةُ من عطف الخاصِّ على العامّ بيانًا أو تعليلًا

عطفُ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ على علّةٍ محذوفة لقوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾ لم يقصدْ تعليلَه بها بخصوصها، وإنّما قصد الإشعارَ بأنّ له فوائدَ جمّةً من جملتِها ما ذُكر؛ أي: وكذلك نفصّلُ الآياتِ لما في تفصيلها مِنَ الأحكام والحِكَم، وبيانِ الحُجج والمواعظِ والعِبر، ولأجل أن تستبين سبيلُ المجرمين، فيكونَ من عطف الخاصّ على العامّ، أو: إنّه علّةٌ لفعلٍ مُقدَّرٍ هو عينُ المذكور؛ أي: ولأجل أن تستبين سبيلُ المجرمين؛ لأنّ الشّيء يُعرف بضدّه، بل بيّن قبْلَه سبيلَ المجرمين منَ الكفّار أيضًا[3].

توجيهُ القراءةِ في (تستبين):

خطابُ النّبيّ ﷺ خطابٌ لأمّته

اختلفوا في ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ فقرأ حمزةُ والكسائيُّ، وخلفٌ، وأبو بكر عن عاصم بالياء على التّذكير، وقرأ الباقون بالتّاء على التّأنيث، أو الخطاب[4]، وقراءةُ التّاء خطابٌ للنّبيّ ﷺ؛ أي: ولتستبين يا محمّدُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529 - 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/261.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/377.
(4) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر: 2/258.

سبيلَ المجرمين. فإن قيل: فقد كان ﷺ يستبينُها؟ فالجواب عند الزّجّاج أنّ الخطاب للنّبيّ ﷺ خطابٌ لأمّته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيلَ المجرمين[1].

الخطابُ للغائبِ والمُخاطَبِ من أجل الاعتبارِ

وفائدةُ الجمع بين الغيبة والخطاب فيها؛ هي أنّ تفصيل الآيات هو في نفسه موضّحٌ لسبيل المجرمين، وأنّه ينبغي للمُخاطَب بذلك أوّلًا، وبالذّات، ثمّ لغيره أنْ يستبينَه منها بتأمّلِها، وفهمِها، والاعتبارِ بها[2].

بيانُ قراءتَي الفتحِ والضّمِّ في ﴿سَبِيلُ﴾:

الخطابُ للنّبيّ ﷺ بمباشرة البيانِ

واختلفوا في ﴿سَبِيلُ﴾ فقرأ المدنيّان بنصب اللّام، وقرأ الباقون بالرّفع[3]. ونصبَ السّبيلَ على أنّ الفعل متعدٍّ، وتاؤُه للخطاب؛ أي: ولتستوضحَ أنت يا محمّدُ سبيلَ المجرمين فتعامِلَهم بما يليقُ بهم[4].

علّةُ ذكرِ التّصريحِ بسبيلِ المجرمين:

الأشياءُ تتميَّزُ بأضدادِها

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ذكرَ سبيلَ المجرمين، وتَركَ سبيلَ المؤمنين؛ لعلمِه من تبيينِ سبيل المجرمين ضِمْنًا[5]؛ لأنّ ذكرَ أحدِ المتقابلَين يدلُّ على الآخر، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النّحل: 81]، فلم يذكرِ البرْدَ استغناءً بذكر الحرّ، والمعنى: وتقيكم البرد[6]، وإذا بان أحدُ السّبيلين فقد بان الآخرُ؛ لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها[7].

تخصيصُ المجرمين بالذّكر؛ لأنّ دفعَ المفاسد قبل الوقوعِ أولَى، ودرءَ المضارِّ حالَ الاشتباه أحرَى

وخصَّ سبيلَ المجرمين بالذّكر؛ لأنّهم همُ الّذين أثاروا ما تقدّم منَ الأقوال؛ فذِكرُهم أهمُّ في هذا المَوضِع؛ لأنّ الآياتِ جاءَت

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2518.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/376.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/168.
(6) الواحديّ، البسيط: 8/1826.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/437.

ردًّا عليهم[1]، ولأنّ دفعَ المفاسد أهمُّ[2]، فإنّ سبيل المجرمين، إذا اتّضحت، أمكَنَ اجتنابُها[3].

وذَكَر المجرمين دون المؤمنين؛ لأنّ طريق الحقّ واحدٌ، والمجرمون أصنافٌ يَشتبهُ أمرُهم، فمنهم مطبوعٌ على قلبه، ومنهم مَن يُرجى إسلامُه، ومنهم مَن دخل الإسلامَ إلّا أنّه لا يحفظ حدودَه، فينبغي أن يستوضحَ سبيلَهم ليعامل كلًّا منهم بما يجب[4].

الفروقُ اللّغويّةُ:

(التّفصيل) و(والشّرح):

التّفصيلُ يأتي بعد الإجمال، والشّرحُ بعد الإشكال

الشّرحُ بيان المشروح وإخراجُه من وجه الإشكال إلى التّجلّي والظّهور، ولهذا لا يُستعملُ الشّرحُ في القرآن.

والتّفصيل هو ذكر ما تتضمّنُه الجملةُ على سبيل الإفراد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]، ولم يقُل: (شرحت)[5].

وقولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عبّر بلفظ التّفصيل دون الشّرح؛ لأنّ القرآن لا إشكال في بيانه فلا يحتاج إلى الشّرح، بل هو مُجملٌ يحتاج إلى التّفصيل.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/88.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 58 - 59.

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [الأنعام: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يناسب ذكرَ سبيل المجرمين النّهيُ عنِ التّخلّق بأخلاقِهم

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنّه يفصّل الآيات؛ ليظهرَ الحقُّ، وليستبين سبيلُ المجرمين، ذكر هنا أنّه نهاه عن سلوك سبيلِهم[1].

ومِن مناسبة الآية، أنّهم لمّا سألوا طردَ الضّعفاء، قصدًا لاتّباع أهوائهم، أمره تعالى بأن يخبرَهم أنّه مباين لهم بعد اتّضاح سبيل المجرمين، مباينةً لا يمكنُ معها اتّباعُ أهوائهم؛ وهي المباينةُ في الدّين فقال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُهِيتُ﴾: النّهي: الزّجرُ عنِ الشّيء[3]، وهو خلاف الأمر، ونَهَيتُهُ عن كذا، فانتَهى عنه، وتَناهى؛ أي: كَفَّ[4]، ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نُهيتُ: صُرفتُ وزُجرتُ، بما رُكّب فيّ من أدلّة العقل، وبما أوتيت من أدلّة السّمع عن عبادة ما تعبدون مِن دون اللّه[5].

2) ﴿أَهۡوَآءَكُمۡ﴾: (هوي) أصلٌ يدلّ على خلوٍّ وسقوط، وكلّ خالٍ هواءٌ، والهَوَى: هَوَى النّفس، والجمع الأهواءُ: ميلُها إلى الشّهوة؛ لأنّه خالٍ من كلّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [النّجم: 3][6]، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾؛ أي: لا أتّبعُ ما تميل إليه أنفسُكم من عبادة غيرِ اللّه[7].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/140.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141.
(3) الرّاغب، المفردات: (نهى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نهى).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (هوي).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.

3) ﴿ضَلَلۡتُ﴾: (ضلّ) أصلٌ يدلّ على ضياع، ضَلَّ يضِلّ: ضاعَ[1]، والضّلال ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، بطلانُ العمل وضياعُه، والعدولُ عنِ الطّريق المستقيم، ويُقال لكلّ عدولٍ عنِ المنهج[2]؛ أي: إنِ اتّبعتُ أهواءكم فأنا ضالٌّ[3].

4) ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: (هدي) أصلٌ يدلّ على التّقدّم للإرشاد[4]، والمهتدي مَن هداه اللّه إلى الحقّ[5]، والاهتداء هو الاستقامةُ على هدى[6]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ أي: لستُ منَ المتّبعين الّذين سلكوا سبيل الهدى إنْ فعلتُ ذلك[7].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

المجاهرةُ بمخالفةِ المشركين، والتّبرّؤُ ممّا يعبدونَ

أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يجاهرَ بمخالفة هؤلاء المشركين، وأن يتبرّأ من عبادتهم غيرَ اللّه؛ منَ الأوثان والأنداد الّتي لا يستندون في عبادتها إلى حُجّةٍ أو منطقٍ، ولكنّه الهوى والضّلالُ، والرّسولُ ﷺ إنّما كان رسولًا ليُتَّبع، ولا يلتفتَ لأهوائهم، وإنّما يمضي على طريق اللّه المستقيم الّذي يؤدّي إلى الهداية والرّشاد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الأمرِ بالقولِ دونَ النّهي:

الأمرُ بالقولِ للمجاهرة، وتلقينُ المقول تأكيدٌ لنصِّه ومضمونِه

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾، أَمرُ اللّه تعالى النّبيَّ ﷺ أن يُجاهر المشركين بالبراءة من عبادتهم غيرَ اللّه[8]، وتلقينُ القَول بمقولٍ ما، دليلٌ على أهمّيّة

(1) الخليل، العين: (ضلل)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (ضلّ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (ضلل)، وابن منظور، لسان العرب: (ضلل)، والرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/348.
(7) مكّيّ القيسيّ، الهداية: 3/2040، والواحديّ، الوجيز، ص: 356، والواحديّ، الوسيط: 2/278.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298.

مضمونه، وأنّه بحيث أن يُقال بصيغة لا يشوبها شكّ؛ قطعًا لأطماعهم عن ركونه إليهم[1].

إيثارُ التّعبير بالفعلِ المبنيّ للمجهول:

آثرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ التّعبير بصيغة الفعل المبنيّ للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل؛ لظهور المراد؛ أي: نهاني الله تعالى[2]، فإنّ الاقتصادَ في الألفاظ أنسبُ لما يُقال إعلانًا ومجاهرةً.

علّةُ التّعبير بالنّهيِ دون النّفي:

النّهيُ أبلغُ دلالةً في النّفيِ؛ لمَا فيه من زجرٍ وتكليفٍ ودلالةٍ على الوجوبِ

عبّر بالإخبار عنِ النّهي دون النّفي في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يقُل: (لا أعبد)؛ لأنّه أبلغُ لما في النّهي منَ الدّلالة على التّكليف[3]؛ إذِ النّهيُ فيه إلزامٌ، ولا يحتملُ الصّدقَ والكذبَ، فكان أبلغَ في الدّلالة على التّوحيد.

فائدةُ الإخبارِ عن نهيِه عن عبادةِ غيرِ الله تعالى:

قطعَ اللهُ أطماعَ أهلِ الكفرِ في استمالتِه ﷺ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ نَهيٌ عن عبادة غيرِ الله تعالى؛ لأنّه أراد قطعَ أطماعهم في ركونِه ﷺ إليهم، وبيانًا لكونِ ما هم عليه منَ الدّين إنّما هو الهوى والضّلالُ[4].

سرُّ التّعبير بالمصدرِ المؤوَّلِ دونَ الصّريح:

تجديدُ النّهيِ عن عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى

سيق قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ بتأويل المصدر، والتّقدير: عن عبادة، فوضعَ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ مَوضِعَ المصدر[5]؛ لأنّ إظهار الفعل يستدعي الدّلالةَ على الحدوث والتّجدّد، فيتسلّطُ النّهيُ على التّجدّد والحدوث، والمعنى: أنّه نهى عن إحداث العبادة، وتجدّد هذا المنعُ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/262.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/884.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298.

إيثارُ التّعبيرِ عنِ الأصنامِ بالاسمِ الموصولِ:

إنـزالُ الخطاب على وَفْقِ مَعهُودِ مُـعـتـقـدَاتِـهـم وزعمِهم مُحاجّةٌ لهم

بقوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ أراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾: الأصنامَ، وعبّر عنها بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على زعم الكفّار؛ لأنّهم أنزلوها منزلة مَن يعقلُ[1]؛ لأنّه يخاطبُهم فجعل الكلامَ على زعمهم محاجّةً لهم.

إيثارُ التّعبير بلفظِ ﴿مِن دُونِ﴾:

من زَيْغِ المُشْركينَ عبدوا مُنحطًّا في الرُّتبةِ، ساقطًا في الاعتبارِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ تعبيرٌ عن إشراكهم باللّه تعالى بلفظ ﴿دُونِ﴾، ولم يقل: (من غير اللّه)؛ لأنّه أراد أن يبيّن سُفولَ رُتبتهم، إذ تركوا الأعظمَ، ولزموا الدّونَ[2]؛ استجهالًا لهم، بأنّهم كانوا على غير بصيرة[3].

نُكتةُ فَصل الأمرِ الثّاني ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ﴾ عنِ الأوّل:

فَصَلَ الخطابُ جُملةَ النّهيِ عن جُملةِ الأمرِ استئنافًا لبيانِ علّةِ النّهيِ عن عبادةِ آلهتِهم

فَصَل قولَه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ عنِ الأمر الأوّل: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ للاستئناف البيانيّ؛ إشارةً إلى علّة النّهي[4]، كأنّه قيل: لمَ نُهيتَ عمّا نحن فيه من عبادة غيرِ اللّه؟ فأجاب: لأنّ ما أنتم عليه هوًى، ليس بهُدًى، فكيف أتّبعُ أهواءَكم؟![5].

علّةُ تكرارِ الأمرِ بالقول مع قُرب ذِكْرِه:

كـرّر الخطابُ الأمـرَ بالقول اهتمامًا بالمأمور بـه، وإشـعـارًا بـاخـتـلافِ المَقولَين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ قد سُبِق بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ فكرّر الأمرَ بالقول مع أنّه قريبُ العهد بالذِّكر؛ اعتناءً بشأن المأمور به، وإيذانًا باختلاف المَقولَين، فالنّهيُ منَ اللّه تعالى، والنّفيُ منه ﷺ[6]، فكرّر القولَ اهتمامًا بالمَقول، وبيانًا لاستقلاله[7]، ثمّ إنّ تكرارَ هذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(4) الإيجيّ، جامع البيان: 1/540.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/109.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/360.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/262.

الأمر ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على تكرار محاولات المشركين مع رسول اللّه ﷺ؛ لاستمالته نحوَهم، ويؤيّدُه ما ورد في سبب نزول سورة (الكافرون) من محاولات المشركين لتمييع الدّعوةِ إلى التّوحيد، واتّباعِ أهوائهم، فنزلت سورة (الكافرون) بصيغة الأمر (قُل)[1]، والتقى مضمونُ المَقول فيها مع مضمون المَقول هنا؛ وهو الثّباتُ على عبادة اللّه وحدَه.

إيثارُ الجمع على الإفراد في لفظ الأهواء:

إيثارُ جمعِ الأَهوَاءِ لتعدّدِها في عبادتِهم غيرَ اللهِ تعالى، وتعدّدِ ما طلبُوه

جمعَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ الأهواءَ لتفرّقِها واختلافِها، فكانت أصنامُهم مختلفةً، وكان لكلٍّ عابدِ صنمٍ منهم هوى يخصُّه، فجمعَ الأهواء[2]، ومِن "لوازم اتّباعِها الجمعُ بين النّقيضين، وهو محالٌ"[3]، وليعمَّ عبادةَ الأصنام، وما طلبوه من طرد المؤمنين وغيرِه[4].

والمعنى: لا أتّبعكم فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياءِ، ومِن طَرْدِ مَن أردتم طردَه[5].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل ومزيّتُه:

اتّباعُ الأهواءِ نصٌّ على السّببِ الّذي يكمنُ فيه البلاءُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة السّببيّة، فلم يقُل: (لا أتّبعكم)؛ للنّصّ على أنّ سببَ نفيه اتّباعَهم أنّهم يتّبعون الهوى؛ واتّباعُ الهوى سببٌ للضّلال، فهو تنبيهٌ على السّبب الّذي حصل منه الضّلالُ[6]، وإشعارٌ بما يوجب النّهيَ والانتهاءَ؛ وهو اتّباعُ الأهواء[7].

(1) النّيسابوريّ، أسباب النّزول، ص: 316.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/161.
(4) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/882.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/437.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/160.

علّةُ تركِ العطفِ:

تُرك عطفُ جملة: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ على ما قبلها؛ لكمال الاتّصال بينهما؛ لأنّ الثّانيةَ بمنزلة التّوكيد المعنويّ لها، فإنّها تؤكّدُ كونَهم في غاية الضّلال، وتحتملُ أن تكون استئنافًا مُعلِّلًا للنّهي عنِ اتّباع أهوائهم؛ أي: إنِ اتّبعتُ أهواءَكم فقد ضَلَلۡتُ[1].

كمالُ اتّصال الجُملتَين يُزيلُ الحواجزَ بينهما فيُترَكُ العطفُ بينهما

نُكتةُ تصديرِ الجُملة بـ (قد):

صُدِّرت الجملةُ الثّانية بـ (قد) لتأكيد وقوعِ الضّلال مع كونِه على سبيل الفرْضِ، وليس بواقعٍ، إشارةً إلى أنّ وقوعَه محقّقٌ لو تحقق اتّباعُه لهم[2].

التّوكيدُ بـ (قد) إشارةٌ إلى تحقُّقِ الوقوعِ

فائدةُ نفْيِ الاهتداءِ بعد ذكرِ الضّلالِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ هو المعنى ذاتُه في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فهذه الجملة مؤكّدةٌ لقوله: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾[3]، فأثبتَ الضّلالَ، ونفى الهُدى، مع أنّهما متلازمان للتّقرير والتّأكيد[4]؛ ولبيان شناعةِ اتّباعه أهواءَ المشركين، وآثرَ أن ينفيَ كونَه منَ المهتدين، ولم يقُل: (وما أنا مهتدٍ)؛ لأنّ (هو منَ المهتدين) أبلغُ من (هو مهتدٍ)[5]؛ لأنّه أفاد معنى الاستغراق في نفي الهدى[6]، تأكيدًا للنّفي، كأنّه قيل: إنِ اتّبعتُ أهواءكم ضللتُ، وكنتُ مثلَكم متوغّلًا في الضّلال منغمسًا فيه، ولا أكونُ منَ الهدى في شيءٍ، وهو يدلّ على أنّه من زمرة المهتدين المُسهمين فيه[7].

إيرادُ المعنى إثباتًا، ودفعُ ضدِّه نفيًا؛ لضلال اتّباعِ الهوى تقريرًا وتأكيدًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/361، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/88 - 89.
(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/110.
(7) الشّهاب، عناية القاضي: 4/70.

الثَّباتُ على الضّلال، والرُّسوخُ فيه، علّةُ عدمِ الاهتداءِ

بيانُ العُدولِ عنِ الجُملة الفعليّةِ إلى الجُملة الاسميّةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾، فعدلَ إلى الجملة الاسميّة دون الفعليّة فلم يقُل: (قد ضللتُ ولم أهتدِ)؛ للدّلالة على الدّوام والثّباتِ[1]؛ لعراقتِهم في الضّلال[2]، فهاتان جملتان لنفي الهداية وإثباتِ الضّلال، وجاءتِ الأولى فعليّةً لتدلَّ على التّجدّد، وجاءتِ الثّانيةُ اسميّةً لتدلّ على الثّبوت[3].

والرّسولُ ﷺ قد عصَمهُ اللّه تعالى منَ الضّلال، ولكن جرى هذا الأسلوبُ الافتراضيُّ لتحذير سائرِ المؤمنين منَ الانخداع بوسائلِ المشركين وحيلِهم؛ لاستمالة أهل الحقّ إلى باطلهم، وسبحان علّامِ الغيوب فإنّ أهل الباطل لا يكفّون عن ممارسة تلك الحيَل الخادعةِ عن طريق الإعلام الموجَّهِ، الّذي لا يَفطنُ له إلّا أهلُ اليقظة، والثّابتون على طريق الهدى والحقّ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/152.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132 - 133.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/369.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾

[الأنعام: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ الثّباتِ علـى الـحـقِّ ديمومةٌ له

لمّا نفى أن يكون متّبِعًا لأهوائهم، نبّه على ما يجبُ اتّباعُه بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، وهو الأمرُ الواضحُ منَ الله تعالى[1]، وإذا كانتِ الآيةُ السّابقة تعني الثّباتَ على الحقّ، فإنّ الآية اللّاحقة تؤكّد على هذا الثّبات، وتعزّزه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: (بَيَن) أصلٌ يدلّ على الانكشاف، وبان الشّيءُ: اتّضح وانكشفَ[2]. البيّنةُ: الحجّةُ الواضحةُ الّتي تفصل الحقَّ منَ الباطل. ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ يريد: على يقين، ودلالةٍ، وحجّةٍ، وبرهانٍ من ربّي، لا على هوًى[3]، وهي المعجزةُ الّتي تبيّنُ صدقي؛ وهي القرآن؛ والمعنى: على أمرٍ بيّنٍ[4].

2) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أصلٌ يدلّ على الإسراع، والعجلةِ في الأمر[5]، والاستِعجالُ: الاستِحثاثُ والتّعجيلُ بطلب الشّيء قبل وقته[6]، وقولُه تعالى: ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ استعجالُهم الآياتِ والمعجزاتِ، والقيامَةَ، والنّقمَ، والعذابَ؛ لأنّهم طلبوه قبل حينِه[7].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/133.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) الواحديّ، البسيط: 8/183، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/405.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530 - 531.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عجل)، وابن منظور، لسان العرب: (عجل)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/440.
(7) الواحديّ، البسيط: 8/184، ومكّيّ القيسيّ، الهداية: 3/2041، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/109.

3) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: (حَكَمَ) أصلُه المنعُ للإصلاح[1]، وردُّ المرء عنِ الظّلم، ومنه حَكَمَةُ اللّجام؛ لأنّها تردُّ الدّابّةَ[2]، والحُكم: القضاءُ بالعدل[3]، وقولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف: 40]؛ أي: القضاءُ والإنفاذ[4]؛ لأنّه تعالى يمنعُ الباطلَ[5]، والمرادُ: الحكمُ الفاصل بين الحقّ والباطلِ[6].

4) ﴿يَقُصُّ﴾: (قصّ) أصلٌ يدلّ على تتبُّعِ الشّيء[7]، القَصُّ: تتبّعُ الأثر، قَصَّ أثرَه؛ أي: تتبَّعه[8]، و﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾: مِن قصَّ الأثرَ؛ أي: يتّبعُ الحقّ والحكمةَ فيما يحكمُ به ويقدّرُه[9]، أو مِن قصّ الحديث، كقوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] فجميعُ ما أنبأ به هو مِن أقاصيص الحقِّ[10]؛ لأنّه يُخبِرُ بالحقِّ، ولا خُلْفَ في وعدِه ووعيده[11].

5) ﴿ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾: (فصل) أصلٌ يدلّ على تمييز الشّيء مِنَ الشّيء وإبانتِه عنه[12]، والفصلُ: بَوْنُ ما بَينَ الشَّيئَين[13]، وقولُه تعالى: ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ هو خيرُ مَن بيّنَ، وميّزَ بَين المُحِقّ والمُبطلِ[14]، وخيرُ مَن فصل بَين الحقّ والباطلِ بما يقضي به بين عباده، ويفصّلُه لهم في كتابه[15].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يخاطبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يُعلن لهؤلاء المشركين أنّه على يقينٍ مبين، وبرهانٍ واضح من ربّي، لا على هوًى، وأنتم كذّبْتم باللّه تعالى، وبهذا البرهانِ، ليس عندي ما

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم)، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حكم)، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/139 - 140.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصّ).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قصص)، والجوهريّ، الصّحاح: (قصص)، وابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.
(10) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/257، والواحديّ، البسيط: 8/185.
(11) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/91.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(13) الخليل، العين: (فصل).
(14) الخازن، لباب التّأويل: 2/118.
(15) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/140، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/264.

إنّما رسولُ الله بشرٌ يُوحَى إليه، والأمرُ كلُّه لله

تستعجلون به منَ العذاب والآيات الخارقةِ الّتي طلبتموها، إنّما ذلك بيد اللّه، فليس بيدي منَ الأمر شيءٌ؛ فليس الحكمُ إلّا للّه تعالى وحده؛ ومن جُملتِه ما طلبتم، يقول الحقَّ ويحكمُ به، وهو سبحانه خيرُ مَن يفْصلُ بين عباده، في الدُّنيا والآخرة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ في الآية:

بيان صدْقِ الرّسالة تأييسًا للمُشركين من تخلّي صاحبِها عن دعوتِه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ استئنافٌ لإثبات صدْقِ الرّسالةِ بدليلٍ منَ اللّه مؤيِّدٍ للأدلّة السّابقة؛ لييأسوا من محاولة إرجاعِه ﷺ عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكِه في وحْيِه بقولهم: ساحرٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، أساطيرُ الأوّلين(2).

فائدةُ الأمر بالقولِ وتَكرارِه:

تلقينُ المَقول تأكيدٌ لنَصِّه ومضمونِه، واعتناءٌ بشأن المأمور به

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ أمرٌ للنّبيِّ ﷺ أن يُعلن ذلك بالمجاهرة؛ لأنّ تلقينَ القَول دليلٌ على أهمّيّة مضمونه، وإنّه بحيث أن يُقال بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ؛ قطعًا لأطماعهم عن ركونِه إليهم(3)، وقد تكرّرَ الأمرُ بالقول بعد قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾؛ تكريرًا للاهتمام(4)، واعتناءً بشأن المأمور به(5).

توجيهُ تأكيدِ الخبرِ:

أكّدَ المَقولَ ردًّا لإنكارِ المخاطَبِ به

لمّا كان الخطابُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦٓ﴾ للمكذّبين الّذين ينكرون الرّسالةَ والوحيَ أخبرهم بذلك على وجه التّأكيدِ؛ إزالةً لشكّهم.

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص: 258، ومجموعة من المؤلّفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/264.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

فائدةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

استعلاءُ النّبيِّ ﷺ وتمكُّنِهِ منَ حُجَجِه،

عُبّر في قولِه جلّ شأنُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بالحرف (على) الدّالِّ على الاستعلاء والتّمكّنِ، كقولهم: فلانٌ على بصيرة؛ للدّلالة على التّمكّن منَ اليقين في أمر الوحي[1]، وإشارةً إلى تمكّنه في الأدلّة والحُجج القاهرةِ؛ ثقةً بنصر اللّه تعالى، ولوثوقِه بأنّه على الحقّ[2].

بيانُ التّنكيرِ في ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾:

تفخيمُ شأنِ البيّنةِ حيث وردَ تَنكيرُها

آثرَ التّعبيرَ عنِ البيّنة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيغة التّنكير؛ تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لليقين الّذي هو عليه[3].

دلالةُ (مِن) الابتدائيّةِ:

فخامةُ البيّنةِ مصدرُها الإلهيُّ وقوّةُ اليقينِ بها

عُبّر بقولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: عن مصدر البيّنة بـ (من) الابتدائيّة، والمعنى: أنّها كائنةٌ من جهته سبحانه؛ لأنّ الوحيَ منه تعالى[4]، وفيه زيادةُ تقويةٍ لليقين بأنّه على الحقّ.

توجيهُ نسبة البيّنةِ إلى الرّبِّ:

تأكيدُ تفخيم البيّنةِ بالرّبوبيّةِ

نسبةُ البيّنة بكونِها منَ الرّبّ تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تأكيدٌ لفخامتها بالإضافة، فقولُه: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفةٌ مؤكِّدةٌ، ووصفَها بذلك لتأكيد ما أفاده التّنوينُ منَ الفخامةِ، وتعظيمًا لها، ولكمالِها[5].

وجهُ إضافةِ الرّبِّ:

نبيُّ الله رفيعُ المقام عند ربّه حيث أُضيفَ اسمُه إلى اسمِه

إضافة الرّبوبيّة إلى ضمير النّبيّ ﷺ تشريفٌ له، ورفعٌ لمنزلته، وإعلاءٌ لشأنه، وتصريحٌ بقُربه مِنَ الرّبّ ﷻ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/133.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

مرجعُ الضّمير في بيان المكذَّبِ به:

اختلف المفسّرون في بيان مَرجعِ الضّمير في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾، فالضّمير عائدٌ على الرّبّ أو على البيّنة[1]، والظّاهرُ عَودُه على الرّبّ؛ أي: كذّبتم بربّي؛ لأنّه جرى ذكرُه[2]، وذهب آخرون إلى أنّه عائدٌ على بيّنة؛ لأنّها في معنى البيان، كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النّساء: 8][3]، والمعنى: كذّبتم بالبيان الّذي جئت به من عند ربّي؛ وهو القرآن[4]، والأَولى عوْدُ الضّمير إلى الرّبّ سبحانه؛ لأنّه أقربُ مذكورٍ قبل هذا الضّمير، وما لا حاجة فيه إلى تأويلٍ أَولى ممّا يستلزم التّأويلَ فيه.

تكذيبُ البيّنةِ، وتكذيبُ الله تعالى، جحودٌ بربوبيّته

فائدةُ ذكرِ تكذيبِهم بعد ذكرِ البيّنةِ:

قولُه جلّ شأنُه ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ على الاستئناف أو الحال على تقدير (قد) استقباحًا له، فالتّكذيبُ قبيحٌ لذاته، ومجيئُه بعد ذكر البيّنة الواضحةِ الّتي تقتضي التّصديقَ فيه تأكيدٌ على قُبحه[5]، وفيه تعجّبٌ منهم أن كذّبوا بما دلّت عليه البيّنةُ[6]، وتعديةُ الفعل بالباء الدّالّةِ على الملاصقة؛ للدّلالة على شدّةِ التّكذيب.

ذِكرُ التّكذيب بعد ظهورِ الحقِّ تقبيحٌ له، وتأكيدٌ لبُطلانِه

غرَضُ الاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ استئنافٌ مُبيّنٌ لخطئِهم في الاستدلال، حيث جعلوا منشأ تكذيبِهم عدمَ مجيءِ العذابِ الّذي كانوا يستعجلونَه؛ أي: أنّ ما تستعجلونَه منَ العذاب

بعدَ تقبيحِ تكذيبِ المشركين، استأنفَ الخطابُ بإبطالِ عِللِ المكذِّبين

---

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/531، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/117.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/361.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/266.

الموعودِ في القرآن، وتجعلون تأخُّرَه ذريعةً إلى تكذيبه ليس في حُكمي وقُدرتي حتّى أَجيءَ به، وليس أمرُه بمُفوَّضٍ إليّ"[1].

توجيهُ المجاز في ذكرِ العِنديّة:

نفيُ العِنديّةِ مجازٌ في نفيِ القُدرةِ على ما طلبوُه واستَعجلُوه

التّعبيرُ بالعِنديّة في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ مجازٌ عنِ التّصرف بالعلم والقُدرة، ونفيُها نفيٌ للقدرة والعلم، والمعنى: ليس في مقدرتي، فأنا لستُ العليمَ القديرَ، ولكنّني عبدٌ مُرسَلٌ أقفُ عند ما أُرسلتُ به، وحقيقةُ (عند) أنّها ظرفُ مكان، وتُستعمل مجازًا في استقرار الشّيء لشيءٍ، وملكِه إيّاه، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنعام: 59][2].

فائدةُ الحصْرِ بقصْرِ القلْبِ:

الوعيدُ والعذابُ بيدِ الله تعالى وحدَه

تقديمُ المسنَدِ الظّرفِ ﴿عِندِي﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ أفاد قصْرَ القلبِ[3]؛ "لأنّهم توهّموا مِن توعُّد النّبيّ ﷺ إيّاهم أنّه توعّدَهم بعقابٍ في مقدرتِه، فجعلوا تأخّرَه إخلافًا لتوعّدِه، فردّ عليهم بأنّ الوعيدَ بيد اللّه"[4].

إيثارُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ:

العـذابُ واقـعٌ مـوصـولٌ بـالمشركين لا محـالـةَ، وإنْ تأخّرَ

عبّر بالاسم الموصول في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾، ولم يقُل: (العذاب) إشارةً لما في حيّز الصّلة منَ الاستعجال، وهو يُنبئ أنّه مؤخّرٌ مدّخرٌ لهم، واقعٌ بهم لا محالة[5].

دلالةُ الحصْرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ حصرُ الحكم في اللّه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/267.
(3) قصر القلب: قلب ما عند المُخاطَب، وذلك بعكس الحكم، نحو: ما سافر إلاّ علّي، ردًّا على من اعتقد أنّ المسافر خليلٌ لا عليٌّ، فقد قلبتَ، وعكستَ الحكم لدى السّامع. يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح: 3/15، وعصام، الأطول: 1/540، وأحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 173.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/268.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/267 - 268.

تعالى؛ في معرضِ نفيِ قُدرته وعلمِه بنزول العذاب؛ لتفويض أمرِ العذاب إلى اللّه تعالى[1]، ونفيِ أن يكونَ لغيره سبحانه دخلٌ ما فيه بوجهٍ منَ الوجوه[2].

فـوّضَ الـقـرآنُ أمرَ العذاب إلى الله، ونفاه عن كلّ أحدٍ سواه

توجيهُ عُمومِ المحصورِ وخُصوصِه:

حصرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الحُكمَ بمعناه العامِّ في اللّه تعالى بواسطة النّفي والاستثناء، وكلُّ صفةٍ مسنَدةٍ إلى اللّه تعالى بهذا الأسلوب فالقصرُ فيها حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ لتعميم نفيِ الصّفة عمّن عداه سبحانه، وحسم الجدال في نسبتِها إلى اللّه وحده، والمرادُ به عمومُ الحكم، وذُكِر عقبَ استعجالهم بالعذاب؛ لبيان أنّ الحكمَ في تعجيل العذاب وتأخيرِه[3] للّه تعالى وحده، فهو خاصٌّ يندرجُ ضمْنَ ذلك العموم[4].

لا حُـكـمَ في تأخير العذابِ أو تقديمِه إلّا لله تعالى

إيثارُ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُصُّ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ تعبيرٌ بالفعل المضارع للدّلالة على التّجدّدِ والاستمرارِ بلا انقطاعٍ، فجميعُ أحكامِه تعالى تابعةٌ للحقّ، فهو لا يَحكُم إلّا بما هو حقٌّ[5].

إنّ تَتَبُّعَ الحقّ متجدّدٌ لا ينقطعُ في كلّ زمانٍ

فائدةُ التّذييلِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ؛ مقرِّرٌ لمضمون ما قَبْلَهُ مُشيرٌ إلى "أنّ قصَّ الحقّ ههنا بطريقٍ خاصٍّ، هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل"[6].

في التّذييلِ تقريرٌ لمضمونِ الفصْل بـين الـحـقِّ والباطلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

(3) الإيجيّ، جامع البيان: 1/540، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/118، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160 - 161.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيِّنة واليقين:

إدراكُ المحسوسِ أظهرُ

البيِّنة في الآية بمعنى اليقين على أرجح الأقوال، لكنّ اليقينَ هو العلمُ المؤكَّدُ، وهو سُكونُ الفهم مع ثبات الحُكم[1]، فهو خاصٌّ بالمعاني القلبيّةِ المعقولةِ، ولكنّ البيِّنةَ هي الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانت أم محسوسةً، وإدراكُ المحسوس أقوى وأظهرُ[2]، ولهذا آثرها النّظمُ القرآنيُّ في هذا السّياق.

الاستعجال والإسراع:

طلبُ الشّيء قبْلَ أوانِه استعجالٌ مذمومٌ

الإسراع محمودٌ؛ لأنّه تقديمُ الشّيء في وقته، والاستعجالُ مذمومٌ؛ لأنّه طلبُ الشّيء قبلَ وقته.

العَجَلَةُ: طلبُ الشّيء، وتحرّيه قبلَ أوانِه، وهو مِن مُقتضَى الشّهوةِ، فلذلك صارت مذمومةً في عامّة القرآن".

وأمّا السّرعة والإسراع فهي التَّقدُّم فيما ينبَغي أن يُتقدَّم فيه، وهي محمودةٌ، ونقيضُها مَذمومٌ، وهو الإبطاءُ. والعجلةُ: التَّقَدُّمُ في ما لا ينبغي أن يُتَقَدَّم فيه، وهي مذمومةٌ، ونقيضُها مَحمودٌ، وهو الأناةُ.

فالاستعجال مذمومٌ؛ لأنّه مطالبةٌ بتعجيل الشّيء قبلَ وقته، والإسراع محمودٌ؛ لأنّه تقديمُ الشّيء في وقته. وفي الآية لفظُ الاستعجال أدقُّ وأنسبُ؛ لأنّهم طلبوا العذابَ قبل وقته.

فَأَما قولُه تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84] فذكر أنّ عَجَلَتَه - وإن كانت مذمومة - فالّذي دعا إليها أمرٌ محمودٌ، وهو طلبُ رضا اللّه تعالى.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (يقين).

(2) الرّاغب، المفردات: (بين).

(الفصْل) و(الحُكْم):

الفَصلُ تبيانٌ للحقِّ منَ الباطل

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لم يقُل: وهو خيرُ الحاكمين؛ لفرقٍ بين الفصلِ والحُكمِ، فالحكمُ فيه منع، يقال: أحكمتُه، منعتُه، والحكمُ بالشّيء أن تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا سواء ألزمت ذلك غيرَك أم لم تُلزِمْه[1].

أمّا الفصلُ فإنّه تبيينُ الحقّ منَ الباطل، وفصلُ الخطاب[2]: ما فيه قطعُ الحُكم، وهذان المعنيان هما المقصودان هنا، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات: (حكم).

(2) الرّاغب، المفردات: (فصل)، والعسكريّ: الفروق اللغوية، ص: 151.

﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ [الأنعام: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّقديمُ لنفْيِ القُدرة بالبُرهانِ

بعد أنّ نفى قُدرتَه صلواتُ ربّي وسلامُه عليه على إنزال العذاب، أكّدَ ذلك المعنى بالبرهان لِمَن زاد إنكارُه وعنادُه، فقال: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾[1]. الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَقُضِيَ﴾: قضي: قَضَى يَقضي حَكَمَ، وانقَضَى الشّيءُ وتَقَضَّى؛ أي: فَنِيَ وذهبَ[2]، أصلُ القضاء: انقطاعُ الشّيء وتمامُه[3]، وقضَى فلانٌ صلاتَه؛ أي: فرغَ منها[4]، وهو على ضروبٍ كلُّها يرجعُ إلى معنى انقطاع الشّيء وتمامِه، ومنه: قضى القاضي بين الخصوم؛ أي: قد قطعَ بينهم في الحكم[5].

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: الأَمرُ: الشّأنُ، وجمعُه أُمور[6]، ومعنى ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: لتمّ بإهلاكِهم، وانقضى[7].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليّ:

إمهالُ الله الكافرين عِظَةٌ لهم قبل إيقاعِ العذابِ

يخاطبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول للمشركين المُستعجلين لنزول العذاب: لو أنّ عندي ما تستعجلون لم أُمهلْكم، ولَأوقعتُه بكم، ولا خيرَ لكم في ذلك، ولكنّ الأمرَ عند الحليمِ الصّبورِ؛ أي: لو كان في قُدرتي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.
(2) الخليل، العين: (قضي).
(3) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/289.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/230.
(6) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(7) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/230، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/289.

الوصولُ إلى ما تستعجلون به منَ العذاب لبادرتُ إليه، ووقع الانفصالُ بيني وبينكم[1]، وشاءَ اللّهُ بحكمتهِ ورحمتهِ ألّا يُعجِّلَ لكفّارِ هذه الأمّة العذابَ، وإنّما يُمهلُهم، فمَنِ ارتدع واتَّعظَ نَجا، ومَن أصَرَّ على ظُلمه فإنّ عقابَ اللّه في الآخرة ينتظرُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ في الآية:

تأكيدُ نفْيِ الاستطاعةِ ترسيخٌ لبشريّة رسولِ الله ﷺ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ أنَّه سبحانه يأتي بالأمر في الوقت الذي حدَّهُ لَهُ على ما هو الأليقُ بهِ من غيرِ قدرةٍ لأحدٍ غيرهِ[2]، وللإجابة عن سؤال السّامع عند سماعِ قولِه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، فيقول: فلو كان بيدك إنزالُ العذاب بهم ماذا تصنعُ؟ فأجيبَ بقوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾[3].

إيثارُ الأمر بالقولِ دون الإخبارِ:

تأكيدٌ لأهمّيّة مضمونِ البيان، وحاجتِه إلى المجاهَرة والإعلان

سيق قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ للدلالة على أنّه لمّا بُني الكلامُ السّابق على تلقين الرّسولُ ما يقوله لهم، لقّنَه ما يتطلّعُ له السّامع[4]؛ وتلقينُ القَول بمقولِ ما دليلٌ على أهمّيّة مضمونِه، وأنّه بحيث أن يُقال بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ[5].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ (عندي):

عبّرَ بالعِنديّة للدّلالةِ على التّمكّنِ من إنجازِ الوعيدِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾ تَعبيرٌ بالعِنديّة للدّلالة على التّمكّن والقدرةِ، ونفيُ العِنديّة في الآية هو نفيٌ للقدرة والتّمكّن؛ أي: لو في قُدرتي ومُكنتي[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/532، والخازن، لباب التّأويل: 2/118، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 259.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.

إيثارُ التّعبير بالفعلِ المبنيِّ للمفعولِ:

آثر التّعبيرَ بالمفعولِ اهتمامًا بالمَخُوفِ، وأدبًا مع الله تعالى

جاء قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ بالفعل مبنيًّا للمفعول، اهتمامًا بالحدثِ في ذاتِه وهو الإهلاكُ؛ لأنّ المَخوف إنّما هو الإهلاكُ، لا كونُه من معيَّن[1]، فظاهرٌ أنّ قاضيَه هو مَن بيده ما يستعجلون به[2]، وهو اللّه تعالى، فلم يصرّح به؛ تهويلًا، ومراعاةً لحُسن الأدب معه ﷻ[3].

فائدةُ التّذييلِ في فاصلةِ الآية:

أفادَ التّذييلُ تقريرَ مضمونِ الآيةِ؛ وهو انتفاءُ قُدرةِ الرّسولِ على إنزالِ العذابِ

وردَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلا مقرِّراً لما أفادتْه الجملةُ الامتناعيّةُ من انتفاءِ كونِ أمرِ العذاب مفوَّضًا إليه ﷺ؛ أي: اللّه أعلَمُ منّي، ومن كلّ أحدٍ بحكمة تأخيرِ العذاب، وبوقت نزولِه؛ لأنّه العليمُ الخبيرُ الّذي عنده ما تستعجلون به[4].

فائدةُ التّعبيرِ بالعِلْم في مَعرِض التّهديدِ:

الإخبارُ بالعلْمِ تهديدٌ للظّالمين؛ للزومِ القُدرةِ على عقابِهم

عبّر عن تهديدهم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأنّه عليمٌ بهم؛ زجرًا لهم، فمَن علمَ بحالِهم كان على مجازاتِهم أقدرَ، وهذا منَ الكناية عن موصوفٍ هو التّهديدُ بالعذاب، والتّعبيرُ الكنائيُّ أقوى في أداء المعنى؛ لاقتران المعنى المقصودِ بدليله، وفيه ما فيه منَ التّلويح بالتّهديد الشّديدِ.

علّةُ وضْعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَر:

إيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ كشفاً لصفاتِ المشركين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عدل إلى الاسم الظّاهر فقال: ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والمرادُ: (واللّه أعلم بكم)، فوضعَ الظّاهرَ المعبِّرَ عن صفة الظّلم مَوضِعَ المُضمَر[5]، فأظهرَ الظّلمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/161.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142 - 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/270.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/532، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/369.

للتّعبير عن وضْعِهم الاستعجالَ بالعذاب مَوضِعَ قَبول الحقّ، فظلموا أنفسَهم بالشّرك أوّلًا، وبمطالبةِ العذاب ثانيًا، ولو عبّر بالضّمير لَفاتَ هذا المعنى؛ وفيه عمومٌ يتناولُهم، ويتناولُ أمثالَهم منَ الظّالمين.

المحتويات